الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز

سلسلة الجوائز
٩٤

رواية

فيليب روث

الوصمة البشرية

ترجمة وتقديم: فاطمة ناعوت

الوصمة البشرية
فيليب روث
سلسلة الجوائز
الهيئة المصرية العامة للكتاب

روث، فيليب: (1933-...) Philip Roth

الوصمة البشرية The Human Stain، رواية **فيليب روث**، ترجمة وتقديم **فاطمة ناعوت**- القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١١
٦٤٨ : ٢٢ سم (سلسلة الجوائز)
تدمك ٣ ٨٨١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القصص الأمريكية
٢- **ناعوت، فاطمة** (مترجم)
أ- العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٤٠٠/ ٢٠١١

I.S.B.N. 978- 977- 421- 881 -3

ديوي ٨٢٣

الوصمةُ البشريَّة

The Human Stain
Philip Roth

فيليب روث
ترجمة: فاطمة ناعوت

إلى ر.م.

أوديب:

ما طقسُ التطهّر؟

كيف يُؤَدَى؟

كريون:

عن طريق نَفْي الإنسان،

أو التكفير عن الدَّم، بالدَّم...

سوفوكليس، أوديب الملك

مقدمة المترجمة

هذا الروائيّ

نحن بصدد كاتبٍ داهية. وروايةٍ داهية. أما الكاتبُ، فيعتبره النقّادُ شيخَ الرواية الأمريكية المعاصرة. "فيليب روث" Philip Milton Roth، من مواليد عام 1933، مدينة نيوآرك بولاية نيوجيرسي الأمريكية. بدأ نجمُه في السطوع عام 1959 مع نوفيللاه الأولى "وداعًا كولمبوس"، التي فازت بجائزة الكتاب الوطني، وتمثّل بورتريه فاضحًا وساخرًا لحياة الأمريكان اليهود. ثم ذاعت شهرتُه على نحو فائق مع صدور رواية "شكوى بورتنوي" عام 1969، تلك الرواية الفضائحية الساخرة التي حققت مبيعات جنونية. بعدها اعتادت كتبُه، التي تقارب الثلاثين كتابًا، أن تحصد جوائزَ عديدةً ومتكررة، قلّما يفوز بها كاتبٌ أكثرَ من مرة في حياته. منها جائزة فوكنر الرفيعة التي حصدها مراتٍ ثلاثًا، وهي التي فازت بها روايتنا هذه "الوصمة البشرية" 2001، وكذلك جائزة سميث البريطانية، اللتين من أجلهما استحقت الروايةُ الترجمةَ إلى العربية، ضمن سلسلة الجوائز، بالهيئة المصرية العامة للكتاب. ويعدُّ "فيليب روث" أكثر روائيي أمريكا المعاصرين حضورًا ونفاذًا إلى القارئ لاعتبارات عديدة، منها المضمونيّ ومنها الأسلوبيّ.

مضمونيًّا: من حيث جسارته الفائقة في طرح أمور إشكالية كبرى مثل الدين والسياسة والجنس. ببساطة مَن يحكي عن فنجان قهوة تناوله في الصباح مع مطالعة الجريدة، يتناول الكاتبُ أهراماتِ التابوو الثلاثةَ تلك، دون رهبة ولا أقنعة. تلك الخطوطُ الحمراء التي يرهبها الكتّابُ في بلادنا، ويتحلّون بالتقية الرمزية والأسلوبية حين يقاربونها، مثلما يتحسَّس رجالُ الدولة ومشايخُ الدين مسدساتهم، كلما هَمَّ كاتبٌ أن يُشارفها. يغزلُ "فيليب روث" نسيجَه الروائيَّ بخيوط الثقافيّ والجماليّ والحكائيّ، على نحو تهكميّ فريد، يجعلك تلوكُ العلكةَ المُرَّةَ وأنت تبتسم، فيما مرارتُها تسري في أعماقك. كذلك نلمح تفرُّدَ "روث" في لعبة ابتكار "السيرة الذاتية الزائفة". فيقدّم تاريخًا شخصيًّا مزوّرًا، عبر شخصية الراوية "ناثان زوكرمان"، الذي يظهر كثيرًا في رواياته. مثلما فعل عام 1993 في رواية "عملية شايلوك"، حيث يعترف أنه كان جاسوسًا إسرائيليًّا في اليونان، ثم يضحك مع نهاية الكتاب وهو يعلن أن اعترافه كان محضَ كذبة. كذلك الحالُ هنا، في هذه الرواية؛ قدّم كولمن لأبنائه سيرةَ حياة ملفّقة عن أصوله وأصول أجداده، كي يحفظ سرَّه الذي أخفاه عنهم طيلة حياته، ويجعلهم يعيشون معه أكذوبةَ أنه من أصول بيضاء.

أسلوبيًا: والكلامُ فيها يطول. بدءًا باللغة التي تجاورُ بين اللغة المركبة المثقفة المتعالية، وبين اللغة الفجّة التي تقترب من الإباحية، التي تصل أحيانًا إلى حدّ البذاءة، خاصةً حين يأتي الكلامُ في الحوار على لسان السوقة والرعاع من البشر. وهنا يأتي بنا الحديثُ عن هذه الرواية التي نحن بصددها، والتي أعترفُ أنها أرهقتني كثيرًا في الترجمة بسبب ذلك المزيج اللغوي، الذي، أيضًا، يسقط كثيرًا في الدارجة الأمريكية السوقية، ولهجة اليانكي. المعادلةُ الصعبة في الترجمة بعامة، هي محاولة تحقيق أكبر قدر من الأمانة في النقل، مع الحفاظ على أجرومية اللغة المستضيفة المنقول إليها المنص، وهي العربية هنا، إضافة إلى احترام أسلوبية الكاتب، لأن الكاتبَ أسلوبٌ، وصوغٌ، وليس فكرًا ومضمونًا، وفقط. أما في حال التصدي لأعمال "فيليب روث"، فيُضاف إلى معادلة الترجمة تحقيق نقيضين لا يجتمعان: أمانةُ الترجمة، واللغةُ الرفيعة الرصين. ولا بد، هنا، أن تجور إحداهما على الأ خرى. وكانت اللعبةُ الخطرة هنا، والتحدّي الذي أرهقني، هو محاولةُ الموازنة بحيث لا يحدث هذا الجور، إلا في أضيق الحدود. وكان أن اخترتُ أن أنتصرَ للأمانة ولأسلوبية الكاتب، وفي حدود ما أمكنني من رصانة اللغة، حيث بعض المفردات التي كتبها "روث" من بالغ الصعوبة وضعها كما هي في النسخة العربية، لكنني اجتهدتُ أن أجعلها من الوضوح بحيث لن يغيب عن القارئ ماذا كانت في أصلها الإنجليزيّ.

هذه الرواية

عنوان الرواية الأصلي بالإنجليزية هو: *The Human Stain*. وبدايةً، أرجو أن ينتبه القارئ إلى علامات الترقيم، وأن يولي اهتمامًا خاصًا للجمل الاعتراضية، الموضوعة بين شرطتين (-....-)، لأن تلك الجملَ أفكارٌ وليدة عن التداعي الحُرّ وتيار الوعي. فعلى القارئ بعدما ينتهي من قراءة الجملة الاعتراضية، أن يعيد وصل طرفي الكلام: ما قبل الشَّرطة الأولى، وما بعد الشرطة الثانية، حتى يستقيم السياق السرديّ، مهما طالت الجملةُ الاعتراضية. لأن الجمل السردية في الرواية أحيانًا تكون بالغة الطول، بسبب الفقرات الاعتراضية المطوّلة. كما أنه في بعض الأحيان كان يُهمل وضع علامات ترقيم أساسية في الجملة الأصلية، كلون من استرسال الحكي، مثل أبناء تيار الوعي، كما كان يفعل فوكنر بإغفاله عمدًا كل علامات الترقيم. وكنتُ عند اختياره في هذا فأغفلتُ ما أغفل، احترامًا لأسلوبيته، اللهم حين كنتُ أرى أن المعنى سيلتبس. وهنا سأطرحُ بعض

التيمات الأسلوبية، والحِيَل الفنية في هذه الرواية، ما قد يساعد القارئَ على الدخول إلى عالمها بيسر فتزيد جرعةُ استمتاعه بها.

لعبةُ الكرِّ والفرِّ في بناء الشخصية

يلعب "فيليب روث" مع القارئ لعبةً سيكولوجية مثيرة. لعبة الكرّ والفرّ في التأثير النفسي على القارئ من خلال بناء شخوص الرواية. فربما، في بدء السرد، يجعلك تمقت شخصيةً ما، لأنها خِصمُ البطل، الذي عادةً، في الإبداع القصصي كافة، ما يجعله المؤلفُ محلَّ تعاطف القارئ، وإن كان مجرمًا. وبعدما تمتلئ، أنت القارئ، بُغضًا لتلك الشخصية التي تحاول تدمير بطل روايتك، ينقلب السردُ في الفصول المتأخرة ليفتح لك كوّةً تتلصص عبرها على أسرار حياة تلك الشخصية البغيضة، فيأخذكُ التعاطفُ معها، بل ربما تنال احترامك وتقديرك، فتقع في الحيرة، وهو الشَّرَك الذي رسمه لك سلفًا "فيليب روث": أيُّ جانبٍ أختار؟ ومع مَن أنحازُ ضدَّ مَن؟ هنا تكمن الرسالةُ الفلسفية الفريدة: ليس من خير مطلق، أو شرّ مطلق. والثالثُ المرفوع حاضرٌ دائمًا بقوة في دراما الحياة. الكلُّ يحملُ دوافعَه. حتى القاتل بوسعك أن تتعاطف معه لو أحسنتَ الإنصاتَ إلى أوجاعه، ربما. مثل هذا سيحدث لك مع مارك، الابن العاقّ الذي عذّب والدَه طوال حياته، سوف تشفقُ عليه لحظةَ وقوفه منهارًا على ضريح أبيه. كذلك دُلفين روكس، رئيسة قسم اللغة والآداب بالجامعة، التي نصبتِ الشِّراكَ المنحطّة لبطل الرواية كولمن سيلك، قد تأخذك بها لحظةُ تعاطف، واحترام، حين تتعرف على أزمتها الخاصة، وكذلك لِس فيرلي، الزوجُ السابق لفونيا فيرلي، بطلة العمل، المجنّد في حرب فيتنام. سنكرهه كرجل ساديّ يضرب زوجتَه بماسورة حديدية، ونمقته كقاتل غليظ القلب، لكنْ سندمع من أجله حين يقفُ عند جدار الجنديّ المجهول لضحايا فيتنام، ليناجي رفقاءه الموتى.

لعبةُ الضمائر

يمارس "فيليب روث" في الرواية حيلةً أسلوبية لغوية مبتكرة. يلعب بالضمائر في غير سياقاتها المعروفة. يمزّق الخيطَ الوثيق الذي يربط بين: الضمير، والعائد عليه. معتبرًا "الضميرَ"، كيانًا منفصلاً قائمًا بذاته، حتى وإن كان ضمير المتكلم (أنا-نحن). فيقول مثلا: "'أنا' جزءٌ من 'نحن'، بدلاً من قوله: "أنا جزءٌ منّا". وهو بهذا يضع الراويةَ/ المتكلمَ، في خانة المراقِبِ من بعيد، حتى أنه ينفصل عن نفسه ويتكلم عن ضميره (أنا)، كأنما

يتحدث عن شخص آخر، ينتمي إلى مجموعة لا ينتمي إليها (نحن). بينما من خلال سرد الرواية سنفهم أنه يقصد بضمير (نحن)، الزنوجَ السود، فيما يشير إلى البيض بضمير (هُم)، بينما (أنا) هي الذاتُ الضائعة بين هُويتين وعِرقين وجنسين، كونه يحملُ بشرةً بيضاء، وهو ابنٌ لأسرة ملونة. بل وأحيانًا يضيفُ للضمير "ال" التعريف، فتصير: النحن، الهُم، الأنا، إلخ. مثال: "لا تقدر أن تترك الـ"هُم" الكبيرة تفرض عليك تعصّبَها"- "وكلُّ شيء تريد تلك الـ"نحن" أن تراكمه فوق رأسك." إلخ. ذلك النوع من الصوغ الكِنائيّ المجازي، ليس وحسب غريبًا على اللغة العربية، بل غريبٌ أيضًا في الإنجليزية، خاصةً وأنه، لجرأته، وضع تلك الصياغات دون أقواس توضيحية، تلك التي وضعتها أنا في الترجمة العربية كيلا يلتبس المعنى، وفي نفس الوقت لأحافظ على لعبته اللغوية الجسور. تلك اللعبة ربما هشّمت الأجروميةَ الصرفية، لكنها كانت ممتازة في التعبير بعمق عن أزمة ذلك الرجل الواقف في حيرة على خيط دقيق مرتبك مهتزٍّ بين السواد والبياض، فاقد الهوية، غير منتمٍ، وناقم.

وفي بعض المواضع كانت الترجمةُ العربية الدقيقة على جانب عظيم من الصعوبة. فتكون الجملةُ في الأصل الإنجليزي أكثرَ بلاغةً وجمالاً، لكن الترجمةَ إلى العربية لابد أفقدتها قدرًا من بلاغتها، ولا حيلةَ لي في ذلك. كما في الفصل الأخير في عبارة:

to divine gnostically, my unpardonable <u>theyness</u>

فمفردة theyness، كلمةٌ منحوتةٌ، لا وجود لها في الإنجليزية، تتكون من الضمير they، هُم + اللاحقة ness، التي تحوّل الصفةَ إلى مصدر. يودُّ المؤلفُ هنا أن يحوّل الضمير (هُم) إلى مصدر. وهو ما لم أقدر عليه في العربية. فترجمتها هكذا: "لكي يخمِّن، مذهبيًا وروحيًا، مدى <u>كوني "هُم"</u> التي لا تُغتفر."

كذلك في الفصل الأول نجد هذا التعبير الشائع في الإنجليزية:

Don’t sweetheart me!

وهنا حوّل الاسم sweetheart إلى فعل. وهذا الاشتقاق البلاغي "المنحوت" ليس له شبيه بالعربية. فلم أجد بُدًّا من ترجمتها هكذا: "لا تنادِني بـ يا حبيبتي!"

كذلك في جملة كهذه:

?And earn her living how

هذا التركيب غير مألوف في الإنجليزية، فمن الطبيعي أن يقول:

?And how to earn her living

كان من اليسير هنا أن أنتصر للأجرومية العربية وأترجمها هكذا: "وكيف تكسبُ قوتها؟" على أن هذا سوف يكون على حساب ما أراده الكاتبُ من أسلوبية تخدم فكرةَ التداعي الحُرّ للأفكار. حيث دلفين روكس تفكر، وحزنُ الوجود يعتمرها، بعدما ارتكبتْ خطأ سيدمر سمعتَها كسيدة فرنسية لها مكانتها العلمية والاجتماعية كبروفيسور ورئيسة قسم. كيف ستنجو من الفضيحة التي ستلاحقها في أمريكا، وإلى أي البلدان تحملُ باسبورها وتهرب؟ ومن الطبيعي هنا أن يتشظّى البناءُ النحويّ والصرفيّ للجملة، لأنه لا ينقل لنا كلامَها "المنطوقَ" بلسانها، فهي صامتةٌ تفكر، بل ينقل لنا الكاتبُ صوتَ عقلها وهي تفكر. ينقل لنا "التفكيرَ الخام" قبل أن يتشكّل في كلمات. وعمليةُ التفكير تلك، حار العلماءُ في توصيفها ومحاولة تعبير اللغة التي يفكر بها الدماغُ لحظةَ التفكير. لذلك آثرتُ أن أنقلها كما أرادها المؤلف، ولو على حساب سلامة البناء اللغويّ بالعربية. ترجمتُها هكذا: "تكسبُ قوتَها كيف؟" بنفس المنطق ترجمتُ: "تبحثُ عن ماذا؟"، ولم أعد صياغتَها هكذا: "عمّ تبحث؟" إلخ.

وفي الفصل الأخير حينما ماتت فونيا وتم نشر خبر موتها في إعلان بثّوه على الشبكة العنكبوتية، معنونين الإيميل هذا:

Death of a faunia

من الصعب ترجمة العبارةَ للعربية بدقة. فالأعلامُ من أسماء الناس لابد أن تبدأ في الإنجليزية بحروف كبيرة Capital letters، ولا يسبقها حرف التنكير a. وهو ما لم يحدث في العبارة. حيث تم تنكير اسم "فونيا"؛ كأنها "شيءٌ" وليست إنسانًا، وكرّس هذا التوجهَ عدمُ تكبير أول حروفها. فكان لابد أن تكتب العبارة هكذا Death of Faunia. وهكذا.

تعدّد لغات الخطاب

ستجد في هذه الرواية تبايناً في مستويات الحوار، حسب الشخص المتكلم، يتناوب بين اللغة الأدبية الراقية؛ حين يكون المتحدثُ شخصاً رفيع التعليم مثل بروفيسور "كولن سيلك"، و"دلفين روكس"، وسواهما من هيئة التدريس بالجامعة. وبين اللغة الفصحى المتعالية؛ كما في لغة الأب "سيلك"، ذاك المفتون باللغة الإنجليزية الرفيعة بوصفها لغة شكسبير وشوسر. وبين اللغة البرجوازية المتوسطة؛ حين تتكلم الأمُّ الممرضةُ جلاديس، أو الشقيقةُ المعلّمة "إرنستين". وبين اللغة المبتذلة الدارجة السوقية التي تنحو نحو البذاءة والإباحية؛ حين تتكلم "فونيا فيرلي" أو زوجها السابق "لستر فيرلي". وأما الطاقةُ الصوتية التي تحملها الكلمات أحياناً، من غضب، أو فرح، أو نشوة، أو اندهاش، أو هتاف عالي الصوت، إلخ، فقد ميّزها "روث" بالحروف الثقيلة، أو المائلة، أو الحروف الكبيرة Capital letters، وقد التزمتُ في ترجمتي العربية بما فعل المؤلف.

ملامحُ الرواية

هذه الروايةُ غنيّةٌ بخيوط متشابكة من الملامح الإنسانية العديدة. بدايةً، نرصد ملمحَ "**الهُويّة**". ليس البحث عن هوية، مثلما في رواية "الطريق" لنجيب محفوظ مثلاً، بل على النقيض من ذلك، هنا ملمحُ رفض هُوية، واختيار أخرى. كذلك ملمحُ "**الطبقية**". خاصةً حين نعاين انفجار "فونيا" بعدما قرأ لها "كولن" في الجريدة أن "مونيكا ليونيسكي" سوف تقلُّ فرصُها في الحصول على وظيفة جيدة في نيويورك بعد فضيحتها مع "بيل كلينتون". فتصرخ "فونيا" وتقول إنها لا تكترث بمونيكا لأن مونيكا لا تكترثُ بها حين ينكسر ظهرها وهي تحلب الأبقار، وحين تنظف الرَّوَثَ في الجامعة إلخ. ثم تتكلم عن امتيازات أزمة كولن ورفاه مشاكله، في مقابل حقيقية أزماتها وبشاعتها، من موت طفليها وضرب زوجها لها وفقرها واضطرارها للعمل بأكثر من وظيفة متدنية في آن، إلخ. ملمحُ "**إيروتيكي**". حيث تنتشر الحكايا الجنسية على نحو مباشر وصريح يقتربُ من الفجاجة في مجمل أرجاء الرواية. ملمحُ "**فلسفي**". حين يتأمل "كولن" كيف تحاكي مشاكلُ البشر مشاكلَ آلهة الإغريق في الميثولوجيا التي يُدّرسها لطلابه، والعِبَر من ورائها. كذلك طرح الرواية فلسفة كونديرا والسفسطائيين، إلخ. ملمحُ "**إنساني**" مثلما يتجلى في الحوار الموجع بين كولن وأمّه وهو يخبرها بقراره أن يتبرأ من الأسرة ليتزوج من فتاة بيضاء. وكذلك كما نلمس في أهوال حرب فيتنام وأثرها على المواطن الأمريكي المجند والمدنيّ، حتى ليحار القارئُ هل يتعاطف مع الجنديّ الأمريكيّ المعتدي، أم مع المواطن الفيتناميّ المعتدَى عليه. ملمحُ "**سياسي**"، إذْ تتعرضُ الروايةُ لتاريخ أمريكا

الاجتماعيّ والسياسيّ، فتنتقده وتنقضه. تدخل الروايةُ في خبايا البيت الأبيض، وتتلصص على فضائح الرؤساء، منذ نيكسون وحتى كلينتون، وتشرِّح خبايا اليهود في أمريكا. ملمحٌ "**نسوي**ّ"؛ حين تسخر "دلفين روكس" من أساتذة جامعة أثينا الذين يُفاخرون بمساعدة زوجاتهم في الأعباء المنزلية، وترى في هذا التفاخر لونًا من التفاهة والفظاظة والقِحة غير المحتملة. وهم من أسمتهم: "ذوو الحفّاضات". كذلك ثمة ملمح "**شكلاني**ّ" أو انتقاد للشكلانية، حين تسخر من أولئك الكتّاب المدرّسين بالجامعة الذين يتأنقون في ملبسهم حدَّ الهوس بالشكل، ممن أطلقت عليهم لقب: "ذوو القبعات". ملمحٌ "**عنصري**ّ"، وهو ملمح الرواية الرئيس، حيث أخفى "كولمن سيلك" عِرقَه الأسودَ، وزعم أنه أبيض فرارًا من تلك "الوصمة البشرية" المهينة، من وجهة نظرة. كذلك في المساومة الرخيصة التي حاول الطبيبُ اليهودي إتمامها مع والد كولمن، لكي يجبر ابنَه الملوّن على تعمّد الإخفاق في الامتحان لينزل ترتيبُه من الأول إلى الثاني، فيتفوق عليه ابنُ الطبيب الأبيض. أيضًا ثمة ملمحٌ "**رمزي**ّ"، حينما اختار مستر سيلك أن يسمي أبناءه بأسماء من شخوص رواية شكسبير "يوليوس قيصر"، وكما أظنُّ، فإن تلك الأسماءَ تحمل دلالات رمزية ذات مغزى، ولم يضعها فيليب روث في روايته اعتباطًا. حيث والتر، الابن الأكبر، كان هو فارسَ الأسرة النبيل مثلما كان أنطونيو. وكولمن كان الابنَ الذي خان عِرقَه وجنسه الأسود مثلما خان بروتس أستاذَه قيصر. أما إرنستين فكانت الابنة المخلصةَ لأسرتها وأيضًا لشقيقها المنبوذ كولمن مثلما أخلصت كالبورنيا لزوجها قيصر. وكذلك ثمة ملمحٌ "**معرفي**ّ" وهنا يجب أن نتكلم عن أحد المعالم المميزة لـ"فيليب روث"، كروائيّ لا يمرُّ على القشور بل يخترق أعماقَ الموضوعات حتى النخاع. يُفصِّلُ ويشرحُ ويستفيضُ، فيما يمكن أن يمرَّ عليه كاتبٌ آخر مرورَ العابرين. فمثلا حين يشرح عملَ "فونيا فيرلي" في عملية حَلْب الأبقار، سيحكي عن تفاصيل العملية حتى يكون بوسع القارئ أن يقوم بحليب بقرة بعد الانتهاء من قراءة الرواية. كذلك الأمر حين يتحدث عن الملاكمة وأسرارها وفنونها. ونفس الحال في عالم الإيروتيكا، وصعوبات تعليم الأطفال المتعثرين في القراءة، وطقوس الجنازة على الطريقة اليهودية، وجدار شهداء حرب فيتنام من الأمريكان في واشنطن، وعالم الغربان وأنواعها، وطبعًا سيفتح لنا كوّةً واسعة ليطّل منها القارئ على الميثولوجيا الإغريقية الفاتنة، وهلم جرّا. كذلك الكلام عن أعلام الأدب والفلسفة والسياسة والفن. عشرات الأسماء. وهنا أرجو ألا ينزعج القارئ من كثرة الهوامش التي بثثتُها في ذيل الصفحات. ذاك أن الرواية موجهةٌ بالأساس للقارئ الأمريكي المُطّلع على الشأن الأمريكيّ، وسواه مما قد يغيب عن القارئ العربي. لذلك ارتأيتُ أن أزوّده بها كي تكتملَ متعتُه بالقراءة. بعضها هوامشُ تخصّ أعلامًا في حقل

السياسية الأمريكية، أو أمورًا لها علاقة بالميثولوجيا الإغريقية، مادام بطلُ الرواية "كولمن سيلك" بروفيسور في الكلاسيكيات اليونانية القديمة، وبعضها هوامشُ لها علاقةٌ بأعلام أوروبيين في دنيا السياسة أو الأدب أو الفن، وبعضها هوامشُ رأيتُ أنها قد تزيل بعض التباس السرد الروائي، وهلم جرّا. وهي هوامشُ استخرجت معظمها من موسوعات عالمية موثّقة على رأسها موسوعة بريتينيكا الشهيرة، وأردفتُ كلَّ هامش برمز (المترجمة)، لكي يعرف القارئُ أن تلك الملحوظة هي تدّخلُ المترجمة، ولم يكتبها المؤلفُ في متن روايته.

ثم يأتي، داخل هذا النسيج الكثيف من الواقعية الفجّة، خيطٌ شفيف من الفانتازيا حين تنصَّت "ناثان زوكرمان" على صديقه كولمن داخل قبره، وهو يحاور حبيبتَه "فونيا" التي ترقد جواره في القبر. كذلك يُبرز "فيليب روث" ريشتَه التصويرية الفائقة حين يصف حقولَ الثلوج في نهاية الرواية عبر لغة شعرية شديدة العذوبة، تنقض ما قبلها من لغة مباشرة فجة.

وفي الأخير، يحقُّ الحقُّ أن أشكر الصديقة المبدعة د. سهير المصادفة لأنها اختارت أن تمنحني متعةً، ومشقّةً، ترجمة هذا العمل الداهية المُربك، مثلما منحتني من قبل متعة ترجمة الرواية العذبة "نصفُ شمس صفراء" للروائية النيجيرية الجميلة تشيمامندا نجوزي آديتشي. كما أشكر الصديق المبدع جون ريفنسكروفت John Ravenscroft، الروائي البريطانيّ، الذي سبق وترجمتُ له مجموعته القصصية "قتلُ الأرانب"، إذ استشرتُه غيرَ مرة، حين كانت تلتبسُ عليَّ مفردةٌ أو تعبيرُ أمريكيٌّ دارج، رغم أنه بريطانيّ، ويعلم القارئُ الهوّة الواسعةَ بين البريطانية والأمريكية. كما أشكر القارئ الذي سيتجشم عناءَ قراءة هذه الرواية الصعبة، على أنني أعدُه بقدر وافر من المتعة والمعرفة.

واللهُ والجمالُ من وراء القصد.

فاطمة ناعوت

القاهرة، ديسمبر 2010

(1)

كلُّ الناس يعلمون

كان صيف 1998، حينما استودعني أحد جيراني، "كولمن سيلك"- الذي كان، قبل أن يتقاعد عن عمله منذ عامين، أستاذًا في الأدب الكلاسيكيّ لبضعة وعشرين عامًا في كليّة "أثينا"[1] التي في الجوار، بالإضافة إلى عمله لستة عشر عامًا أخرى عميدًا للكلية- حينما استودعني ذلك السرَّ الخطير؛ إنه الآن، وهو في عامه الواحد والسبعين، متورّطٌ في علاقة عاطفية مع عاملة نظافة بالجامعة في الرابعة والثلاثين من عمرها. تلك المرأة التي كانت تقوم أيضًا بتنظيف مكتب البريد بالقرية مرتين في الأسبوع. مكتب البريد ذاك عبارة عن كوخ خشبيّ صغير رماديّ اللون، يبدو وكأنما قد آوى في الثلاثينيات الماضية أسرةً قروية من ولاية أوكلاهوما ليحميها من الرياح والعواصف الغبارية، لكونه يقف وحيدًا مهجورًا ومنعزلاً عن محطة البنزين والمتجر الرئيسي، يرفرف عليه علمُ أمريكا في ملتقى الطريقين اللذين يميّزان المركز التجاري في تلك المدينة المتاخمة للجبال.

كان كولمن قد شاهد المرأةَ وهي تنظف أرضيةَ مكتب البريد حينما ذهب متأخرًا في أحد الأيام، ليلتقطَ بريده، قبل بضع دقائق من موعد الإغلاق- امرأةٌ طويلة نحيلة لها شعرٌ أشقرُ رماديٌّ معقوصٌ للخلف في ذيل حصان، ملامحها قويةٌ منحوتة من تلك الملامح التي عادةً تميّز أولئك الزوجات الفاضلات المتمسكات بقواعد الكنيسة ممَن بدأن كفاحهن مع البدايات الخشنة الأولى لـ"نيو-إنجلاند"[2]، نساء المستعمرات الصارمات، المُقيّدات بالتقاليد الأخلاقية الشائعة والمنصاعات لها طوعًا. اسمها "فونيا فيرلي"، وأيًّا ما كانت التعاسات التي واجهتها، فقد ظلّت المرأةُ متخفّيةً وراء وجهٍ عَظميٍّ لا يحمل تعبيرًا ولا يُخفي شيئًا، بقدر ما يشي بالوحدة الهائلة. كانت فونيا تعيش في غرفة بمزرعة الألبان المحلية، حيث تساعد في حلب الأبقار، مقابل إيجار السكن. وكانت قد أمضت عامين فقط في التعليم بالمدرسة الثانوية.

[1] - إحدى جامعات أمريكا. (المترجمة)

[2]- إقليم في الركن الشمال الشرقي بأمريكا، يتكون من ولايات ست هي: مين، نيو هامبشاير، فيرموت، ماساتشوستس، رود آيلاند، كونيتيكت. وتعد من أوائل المستعمرات التي استقر فيها الأوروبيون في العالم الجديد، أمريكا، بداية القرن السابع عشر. (المترجمة)

الصيفُ الذي قرر فيه كولمن أن يدخلني مجال ثقته فيأتمنني على سرّه مع فونيا فيرلي، كان هو الصيف المناسب لذيوع سرّ "بيل كلينتون"[3] حتى آخر أدق التفاصيل المُهلِكة- آخر أدقّ تفصيلة نابضة، مفعمة بالحياة التي تشبه الموات، تلك الحياة التي نضحت من المعلومات الدقيقة اللاذعة. لم نحظَ في أمريكا بموسم فضائحيّ مثل هذا، منذ عثر شخصٌ على ملكة جمال أمريكا الجديدة عاريةً على صفحات عدد قديم من مجلة بينتهاوس[4]، في صور اِلتُقِطت لها في وضعيات رشيقة ومثيرة؛ على ركبتيها وعلى ظهرها، الأمر الذي أجبر المرأةَ الشابة، بعدما ضربها الشعور بالعار، على التخلي عن تاجها لكي تمضي في الحياة، وتصبح فيما بعد نجمة بوب عملاقة. العام هو 98 في نيو-إنجلاند. كان صيفَ الدفء الفاتن والشمس المشرقة، في ملاعب كرة البيسبول، كان صيف المعركة الأسطورية بين مسجّل ضربات بيسبول أبيض وبين محترف ضربات بيسبول بُنيّ، وفي أمريكا كان هو صيف هوس التقوى الهائلة، وحفلات التطهّر، حيث الإرهاب- الذي حلّ محلَّ الشيوعية، بوصفه التهديدَ الجديد المخيف لأمن الدولة- حيث الإرهاب تحوّل إلى اعتصار عضو ذكريّ، ورئيس دولة شهواني في منتصف العمر ينضح بالرجولة، وموظفة فاتنة لعوب في الواحد والعشرين من عمرها، يحدث ذلك الإرهاب في المكتب البيضاوي كأنما هما صبيّان مراهقان في موقف سيارات ليعيد الحدثُ الفضائحيّ إلى هوى أمريكا الشائع القديم، أكثرَ بهجاتها ربما غدرًا وتدميرًا: نشوة ادّعاء الورع والتظاهر بالتقوى. في الكونجرس، في الصحف، وعلى شبكات الإعلام المرئيّ والمسموع، يتسلل النظّارةُ الصالحون، توّاقين لإلقاء اللوم، مستنكرين، متوعدين بالعقاب، يخرجون في كل مكان بمواعظهم ليؤدبوا الناس: جميعهم في سُعار محسوب متأجج بما عرّفه هوثورن (الذي كان حول عام 1860 يسكن في الجوار لا يفصل بين منزلينا سوى بضعة أميال)، بما عرّفه في الدولة الأولى منذ قديم الزمن بـ"روح الاضطهاد"؛ كلٌّ منهم متلهّفٌ ليسنّ قوانينَ التطهّر وشعائره الصارمة، تلك التي لها أن تجبي الضريبة العقارية من شعبة المدراء التنفيذيين، ما يجعل الأمور لطيفة وآمنة بما يكفي ليجعل ابنة السيناتور ليبرمان ذات العشرة أعوام تشاهد التليفزيون من جديد مع أبيها المرتبك الخجلان. كلا، إن لم تكن قد عشتَ عام 1998، فإنكَ لن تكون قادرًا على معرفة ماذا يعني ادّعاء الورع. كتب الصحفيُّ النقابيّ المحافظ وليام ف.باكلي يقول: "منذ فعلها آبيلارد[5]، كان من الممكن منع حدوثها من جديد،" مُلمِحًا بأسلوب لبق

---

[3] - رئيس أمريكا في تلك الفترة. وتتكلم الرواية عن علاقته السرية بموظفة البيت الأبيض مونيكا ليونيسكي. (المترجمة)

[4]- Penthouse – مجلة تعنى بالشئون الرجالية. (المترجمة)

[5]- قصة حب شهيرة في القرن الثاني عشر بين بروفيسور وفيلسوف فرنسي يدعى Canon Abelard، وتلميذته التي تدعى Heloisek، تسببت في فضيحة كبرى وسخط من الرأي العام. (المترجمة)

إلى أن سلوكَ الرئيس المحظورَ قانونًا- الذي أسماه باكلي في مكان آخر "عدم المقدرة على التحكم في الشهوة الجنسية"- من الأفضل أن يُعالَج دون اللجوء إلى تهمة لا إنسانية مثل تهمة الخيانة الزوجية، بل من الأفضل أن يُعالج بعقاب القرن الثاني عشر قياسًا على كانون آبيلارد باستخدام عقوبة السكين التي دبرها زميلُ آبيلارد في الجامعة الكنسية، كانون فولبرت، جراء إغواء آبيلارد وزواجه السريّ من ابنة شقيقة فولبرت العذراء "هيليز". وخلافًا لفتاوى الخُميني بالحكم بالإعدام على سلمان رشدي، لم يحمل التَوْقُ المحموم للعقاب الإصلاحيّ بالإخصاء لدى باكلري، لم يحمل في طيّاته أيةَ غرامات مالية لمرتكبي الجرائم المحتملين. كان ذلك بدافع من روح ليست أقل قسوة من روح "آية الله"، على أية حال، وبدافع من مثاليات ليست أقل قسوة.

كان فصلُ الصيف في أمريكا حينما عاد الغثيان، حينما كان المزاحُ لا يتوقف، حينما كانت ضروبُ التفكير والتنظيرات واللغو البلا غيّ لا تنتهي، حينما كانت الالتزامات الأخلاقية التي تُفسرِّ للأطفال طبيعةَ حياة الكبار تتعطل من أجل الإبقاء على الأوهام الخاصة بطبيعة حياة البالغين داخل أدمغة الصغار، حينما كانت ضآلةُ الناس تُسحَق ببساطة، حينما انطلقت العفاريت من بين جموع الشعب، وحينما كان الناس، على الجانبين، يتساءلون: "لماذا نحن مجانين إلى هذا الحد؟"، حينما كان الرجال والنساء على السواء، عند استيقاظهم في الصباح، يكتشفون أنهم أثناء الليل، في وضعية النوم التي تنقلهم وراء الحسد والاشمئزاز، كانوا يحلمون بجرأة "بيل كلينتون" ووقاحته. أنا شخصيًا حلمت بيافطة عملاقة، معلّقة على نحو سوريالي مثل أعمال خريستو[6] بطول واجهة البيت الأبيض تحمل عبارة أسطورية تقول: **"ثمة إنسانٌ يعيش هنا."**[7] كان فصلُ الصيف حينما- للمرّة البليون- كانت اللخبطةُ، والا ضطراباتُ، والفوضى تثبتُ نفسَها على نحو أكثر دقّة ومكرًا من أيديولوجية هذا، وأخلاقيات ذاك. كان فصلُ الصيف حينما كان قضيبُ الرئيس موجودًا في ذهن كل إنسان، وحياته، بكل نجسه وصفاقته، ها هي مرّة أخرى أمريكا المرتبكة.

أحيانًا، في أيام السبت، كان كولمن سيلك يهاتفني ويدعوني لأقود سيارتي من بيتي بالجبل بعد العشاء لكي أستمع معه إلى الموسيقى، أو ألعب الورق؛ بِنْس لكلّ نقطة، مع كأس من روم الجين، أو لكي نجلس في قاعة معيشته لساعتين نحتسي فيها بعض الكحوليات من أجل مساعدته على اجتياز الليلة الأسوأ في الأسبوع بالنسبة له. ومع

---

[6] - Christo Vladimirov Javacheff، فنان بلغاري من مواليد عام 1935. اشتهر مع زوجته جين كلود بإنجاز أعمال فنية بيئية ضخمة، وصل طول أحدها إلى حوالي 40 كيلومترًا طولاً. (المترجمة)

[7] - مكتوبة في الأصل بحروف كبيرة Capital Letters. (المترجمة)

صيف 1998، كان قد أمسى وحيدًا ها هنا- وحيدًا في منزله الأبيض الخشبي الواسع القديم، الذي بين جدرانه كان قد ربّى أطفاله الأربعة مع زوجته آيريس- وحيدًا لما يقارب العامين، منذ أصيبت زوجته بجلطة لتموت في الليلة نفسها بينما كان في غمار معركة شرسة مع الجامعة بعد اتهامه في قضية عنصرية رفعها ضدّه طالبٌ وطالبةٌ في أحد فصوله.

آنذاك، كان كولمن قد قضى كلَّ حياته الأكاديمية تقريبًا في جامعة أثينا، نموذجًا للبروفيسور الودود، ذي الحكمة الثاقبة، القوي اللطيف الساحر، يحمل شيئًا من روح المقاتلين، وشيئًا من روح الإداريين المُناورين، لا يكاد يشبه النموذجَ النمطيّ لأساتذة اللغة اللاتينية واليونانية المتحذلقين (كما تشهد على ذلك محاوراتُ النادي اللاتينيّ اليونانيّ التي كان يخوضها بهرطقة وهو بعدُ معلّم شاب). منهجه الرصين الشامل حول تراجم الأدب الإغريقيّ القديم- عُرف باسم GHM، أي الآلهة، الأبطال، والأسطورة[8]- كان مشهورًا بين الطلاب لما في أسلوبه من مباشرة وصدق وفاعلية، وأيضًا لخلوّه من الأكاديمية الجافة.

"هل تعرفون كيف بدأ الأدبُ الأوروبيّ؟" كان يسأل تلامذته بعد انتهاء الدرس الأول. "بدأ بمعركة. الأدبُ الأوروبيُّ كلُّه انطلق من معركة." بعد ذلك كان يلتقط الإلياذة ويقرأ على طلاب الفصل، السطورَ الافتتاحية الأولى من الإلياذة. "'أيها الإلهامُ الإلهيّ، يا أنشودةَ غضب أخيل المدمِّر... ابدأْ من حيث العراك الأول، أجاممنون ملكُ الرجال، وأخيلُ العظيم.' ثم ما الذي كانت تتصارع من أجله، هاتان الروحان العظيمتان العنيفتان؟ كانت معركةً بدائية مثل مشاجرات الحانات. كان الرجلان العظيمان يتصارعان على امرأة. فتاة، في الواقع. فتاة اِختُطفَت من أبيها. فتاة أُسِرَت في حرب. والآن، أجاممنون يُفضّل تلك الفتاةَ على امرأته كليتيمنيسترا. 'كليتيمنيسترا ليست جميلةً مثلما هذه الفتاة،' هكذا يقول، 'لا من حيث الوجه ولا من حيث التركيب الجسديّ.' هذا يفسِّر الأمرَ بما يكفي وعلى نحو مباشر لماذا لم يطلق سراحها، أليس كذلك؟ حينما طلبَ أخيلُ من أجاممنون أن يُرجعَ الفتاةَ لأبيها لكي تنطفئ فورةُ غضب أبوللو، الإله الغاضب بعنف جرّاء الظروف المحيطة باختطافها. لكن أجاممنون رفض: سوف يوافق وحسب إذا ما أعطاه أخيلُ فتاتَه بالمقابل. هكذا اشتعل غضبُ أخيل. أخيلُ الثائر: النموذجُ الأكثر اشتعالاً وشراسةً وعنفًا بين كل ما يطيبُ للكُتّاب تصويره عبر العصور؛ لا سيما حينما توضَعُ هيبتُه وشهوته على المحكّ، آلةُ القتل الأكثرُ حساسية في تاريخ الملاحم القتالية. طوبى لأخيل: الذي أقصى نفسَه وعزلها بعدما استُخِفّ بشرفه.

---

[8]- **G**ods, **H**eroes, and **M**yth

البطل العظيم أخيل، الذي في فورة غضبه من هول الإهانة- إهانة عدم استعادة الفتاة- قرر أن يعزل نفسه، يحدِّد لنفسه، بكل تحدٍّ، مكانًا خارج ذلك المجتمع ذاته الذي كان هو حاميَه المَجيدَ أخيل، المجتمع الذي كان في أمسّ الاحتياج إليه. ثمة معركةٌ إذن، وقتئذ، معركةٌ وحشية على صَبيّة شابة وعلى جسدها الصغير وعلى المباهج الجنسية الشبِقة: هناك، وعلى نحو ما، في تلك الإهانة الموجهة لا ستحقاق القضيب، كرامة القضيب الذكريّ، الذي هو مكمنُ قوة الأمير المقاتل، هكذا بدأ الخيالُ الأدبيُّ الأوروبيُّ العظيمُ في التشكّل، وهذا يفسِّر كيف أننا اليومَ، بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة، علينا أن نبدأ من هناك..."

حينما وُظِّفَ كولمن، كان واحدًا من حفنة يهود قلائل في جامعة أثينا، وكان من بين أوائل اليهود الذين سُمح لهم بالتدريس في قسم الأدب الكلاسيكيّ في كافة أنحاء أمريكا؛ قبل سنوات قليلة، كان اليهوديُّ في جامعة أثينا هو "إي آي لانوف"، كاتب القصة المغمور المنعزل الذي، حينما كنتُ أنا نفسي غلامًا حديثَ العهد بالنشر أعاني الصعابَ وأبحث باستماتة عن اعتراف من أحد الأساتذة، كنتُ قد زرته هنا زيارةً لا تُنسى. خلال الثمانينيات وفي بدايات التسعينيات، كان كولمن أيضًا اليهوديَّ الوحيد والأول على الإطلاق الذي عُيِّنَ عميدًا لكليّة في جامعة أثينا؛ بعد ذلك، في العام 1995، بعد تقاعده كعميد لكي يعاود مزاولة مهنة التدريس في فصول التعليم، استأنف تدريسَ اثنين من مناهجه تحت رعاية البرنامج الموحّد للغات والآداب الذي كان قد ابتلع داخله قسمَ الكلاسيكيات على يد الأستاذة دلفين روكس. وبوصفه عميدًا للكلية، وبدعم كامل من رئيس الجامعة الجديد الطموح، أخذ كولمن مكانَه في الكلية العتيقة الراكدة الخاملة الكسول، وبشيء من فرض الرأي، وضع حدًّا لكل ما كان يجعل المكان كأنما هو مزرعةُ أحد النبلاء عن طريق التشجيع القسريّ لهيئة تدريس الكلية الشائخين الخاملين عديمي الفائدة على تقديم طلبات بالتقاعد المبكّر لكي يوظِّف مكانَهم أساتذةً مساعدين من الشباب الطموح، وكذا عن طريق تثوير المناهج. من اليقين تقريبًا أنه لو كان قد تقاعد، دون تلك الحادثة، وفي التوقيت المناسب، لكان سيحظى بتكريم لا مثيل له؛ مثل مؤسسة تحمل اسمَ كولمن سيلك تقدم سلسلةَ محاضراته، أو كرسيّ أكاديميّ ثابتّ في أدب الكلاسيكيات يحمل اسمه، وربما- بسبب اهتمامه بتطوير المكان على نسق القرن العشرين- كان سيُعاد تسمية مبنى العلوم الإنسانية، أو حتى القاعة الشمالية، التي هي العلامة المميزة للكلية، باسمه شرفيًّا بعد وفاته. في العالم الأكاديميّ الصغير ذاك الذي عاش بين أرجائه القسمَ الأعظم من حياته، كان على كولمن أن يكفّ منذ زمن عن إثارة

الاستياء والجدل بل وإشعال مخاوُف الآخرين، إن كان يريد أن ينال التكريمَ الرسميّ للأبد.

كان ذلك في منتصف الفصل الدراسيّ الثاني بعد عودته كبروفيسور يعمل كامل الدوام حينما تلفّظَ كولمن بالكلمة التي أوقعته في شَرَك الاتهام بالجريمة وتسببت في أن يمزّق طوعًا كلَّ روابطه بالكلية- الكلمة-الجريمة، الكلمة الوحيدة من بين ملايين الكلمات التي لفظها على الجماهير خلال سنوات تدريسه وعمادته كلية أثينا، والكلمة التي، لأن كولمن عليمٌ بطبائع الأمور، أدّت على نحو مباشر إلى موت زوجته. يتكون الفصلُ من أربعة عشر طالبًا وطالبة. في بداية المحاضرات الأولى كان كولمن يكتب كشف الحضور والغياب لكي يتعرف على أسمائهم. اسمان من بين أسماء الطلاب ظلاًّ غير قادرين على تقديم سبب لتخلفهما عن الحضور حتى الأسبوع الخامس من السيمستر الأول، ما دفع كولمن، في الأسبوع السادس، لأن يفتتح المحاضرة بسؤاله: "هل يعرف أحدكم هذين الطالبين؟ هل هما موجودان بالفعل، أم أنهما شبحان[9] (*Spooks*)؟"

فيما بعد في ذلك اليوم، أدهشه أن تلقّى مكالمةً من خليفته، عميد الكلية الجديد، يُعلِمه بوصول إشعار بتورُّطه في قضية "عنصرية"، رفعها ضدَّه الطالبُ والطالبة المتغيّبان، اللذان تبينّ أنهما سوداوان، واللذان، رغم تغيّبهما، سرعان ما كانا قد علِما بتلك الكلمة (*Spooks*) التي أطلقها كولمن علنًا في سؤاله عن تغيّبهما. قال كولمن للعميد: "كنتُ أشيرُ إلى احتمالية أن يكونا من الكائنات الروحانية غير المرئية. أليس هذا واضحًا؟ هذان الطالبان لم يحضرا محاضرةً واحدة. هذا كل ما أعرفه عنهما. استخدمتُ الكلمةَ بمعناها الأوليّ المألوف: '*Spook*'، تعني: طيف أو شبح. لم يكن لديّ أدنى فكرة عن لون هذين الطالبين. ربما كنت أعلم منذ خمسين عامًا مضت لكنني الآن نسيت تمامًا أن كلمة "*Spook*" (سبووك) مصطلحُ مُسيءٌ يوجّه أحيانًا للسود. وإلا، لأنني دقيق جدًا في مراعاة حساسيات الطلاب، ما كنتُ مطلقًا لأستخدم تلك الكلمة. انتبهْ لسياق الكلام: هل هما موجودان أم هما شبحان؟ تهمةُ العنصرية هذه ملفّقة وباطلة. بل غير معقولة. زملائي يعرفون أنها غير معقولة، وتلامذتي يعرفون أنها غير معقولة. القضيةُ، القضيةُ الوحيدة، هي عدم حضور هذين الطالبين، وإهمالهما الفاضح غير المُغتفَر للواجب. الأمر المزعج هو أن القضيةَ ليست وحسب باطلة- بل هي باطلة على نحو مثير للدهشة." وبعدما قال ما يكفي في دفاعه، معتبرًا أن القضيةَ قد أُغلِقت، عاد إلى بيته.

---

[9]- Spook، لها معان عدة من بينها: شبحٌ- طيفُ- جاسوس- إنسان ذو شكل مؤذ منفِّر، إلخ. تلك هي الكلمة التي ستتسبب في كارثة كولمن سليك طوال الرواية كما سيعرف القارئ فيما بعد. (المترجمة).

الآن، حتى العمداء العاديين، هكذا قيل لي، أولئك الذين يؤدون الخدمة كأنما يعملون في الأرض الحرام بين أعضاء هيئة التدريس بالكلية والإدارة العليا، دائمًا ما يصنعون أعداءَهم. فهم لا يضمنون دائمًا زيادةَ الرواتب التي يطلبها الأساتذةُ، ولا أماكنَ صفّ سياراتهم التي يطمعون فيها، ولا مكاتبَ واسعةً يؤمِن الأ ساتذةُ أنها تليق بهم. المرشحون للوظائف أو الترقيات، خاصةً في الأقسام الضعيفة، عادة ما يتم رفضهم روتينيًّا. وعادة ما تُهملُ التماساتُ القسم لتعيين موظفين إضافيين وطلبات الدعم بالسكرتارية، مثلما تُهمل الطلباتُ بتخفيف أعباء التدريس وببعض التخفّف من فصول الصباح الباكر. مصاريف السفر للمؤتمرات الأكاديمية كانت تُرفض دوريًا، وهلم جرًا. على أن كولمن لم يكن عميدًا اعتياديًا، وأولئك الذين تخلّصَ منهم وكذا الكيفية التي تخلَّص بها منهم، ما أبطله من أمور وما كرّسه، ومدى الجسارة التي مارسَ بها وظيفته تحت أنياب المقاومة الهائلة، نجح كل هذا على نحو هائل في تكريس عداء بعض الحاقدين والجاحدين. تحت حماية بيرس روبرتس، رئيس الجامعة الشاب الوسيم البارع الذي جاء وبكل رباطة جأش اختاره للعمادة- والذي أخبره: "ثمة تغيرات سوف تتم، وكلّ مَن لا يروق له هذا، عليه وحسب ببساطة أن يرحل أو يقدم تقاعدًا مبكرًا"- أصبح كولمن الكلّ في الكلّ. وحينما، بعد ثمان سنوات، بينما كان كولمن في منتصف مدة منصبه كعميد، قَبِل روبرتس رئاسة جامعة بيج تنِ[10] المهيبة، كان هذا بسبب السمعة الطيبة التي حققتها كلية أثينا في وقت قياسي- حقّقتها، على كل حال، ليس بسبب وسامة الرئيس الذي كان في جوهره يعمل على زيادة رأس المال، والذي لم يتلقَ أيًّا من الضربات وانتقل من أثينا بكل ترحاب سالمًا من أي أذى، بل حققتها بفضل عميد الكلية ذي العزم.

تحديدًا مع الشهر الأول الذي نُصِّب فيه عميدًا، كان كولمن قد دعا جميع أعضاء هيئة الكلية للنقاش، بمَن في ذلك كبار الأساتذة المنحدرون من العائلات العريقة في المقاطعة التي بالأساس كانت قد وهبت الأرض لتشييد الكلية وأسهمت أيضًا في تأسيسها، أولئك الذين لم يكونوا بحاجة إلى المال، على أنهم كانوا يقبلون مرتباتهم بسعادة. طُلب من كل واحد منهم سلفًا أن يقدم سيرته الذاتية، وإن تقاعس أحدهم عن تقديمها؛ لأنه مثلاً ذو مكانة رفيعة، يكون كولمن جاهزًا بها أمامه على المكتب على كل حال. لساعة كاملة كان يحتجزهم هناك، وأحيانًا أكثر، إلى أن يتركهم يتصببون عرقًا، ليكون على يقين من أن كل شيء في أثينا قد تغيّر تغيّرًا حاسمًا ونهائيًا. ما كان ليتردد بافتتاح الاجتماع بتقليب صفحات السير الذاتية قائلاً: "خلال الأحد عشر عامًا الأخيرة، ماذا

10- Big Ten

كنتم تفعلون بالتحديد؟" وحينما كانوا يخبرونه، مثلما فعل غالبية أعضاء هيئة التدريس، بأنهم كانوا يصدرون بانتظام "منشورات أثينا"، أو حينما سمع في إحدى الجلسات الكثير جدًّا حول منشورات فِقه اللغة التاريخيّ، وعِلم الببليوجرافيا، وعلم الآثار، تلك التي كانوا يعيدون انتقاءها سنويًّا من بين أطروحات دكتوراه قديمة، لكي "ينشروها" أربع مرات في العام على الآلة الناسخة على ورق رمادي لم يُدرج في مكان فوق الأرض إلا في مكتبة الجامعة، كان مشهورًا بجرأته في كسر بروتوكول أثينا بقوله: "في كلمات أخرى، فأنتم أيها السادة تعيدون إنتاج نفاياتكم." لم يكتف بعد ذلك بإغلاق "منشورات أثينا" بأن أعاد المنحة التافهة للمتبرع- والد زوجة رئيس التحرير- بل أنه، لكي يشجّع التقاعد المبكر، أخرج من المناهج كلَّ المواد الميتة العقيم تلك التي ظلوا يدرِّسونها روتينيًّا على مدار العشرين أو الثلاثين عامًا الماضية، ضمن مناهج السنة الأولى في الإنجليزية والمسح التاريخيّ وبرامج الدراسات الشرقية التي تُعقَد في أيام الصيف الأخيرة الحارة. ألغى جائزة العام سيئة السمعة وخصص الألف دولار المخصصة لها لشيء آخر. ولأول مرة في تاريخ الكلية، جعل الناس يتقدمون رسميًّا، مع كتابة وصف تفصيليّ للمشروع المقدم، من أجل نيْل إجازة تفرغ مدفوعة الأجر، وهو ما كان يُرفض دائمًا فيما مضى. تخلّصَ من قاعة الطعام الفاخرة بالكلية، التي كانت تزهو مداخلُها في حرم الكلية بأثمن أنواع خشب البلوط، وأعاد تخصيصها كقاعة مؤتمرات شرَفية كما كان مقررًا لها في البدء، وجعل أعضاء هيئة التدريس يتناولون وجباتهم في الكافيتريا مع الطلاب. كان يصرُّ على اجتماعات هيئة التدريس- تلك التي أبدًا لم يكن يعقدها العميدُ السابق ذو الشعبية الفائقة. كان كولمن يجعل سكرتارية الكلية يدوّنون أسماء الحضور في تلك الاجتماعات لكي يضمن حضور الصفوة من الأساتذة الذين كان جدول محاضراتهم عبارة عن ثلاث ساعات فقط في الأسبوع. أسّس بندًا في نصّ دستور الجامعة يقول إنه لن تكون هناك لجان تنفيذية، وجادلهم حول أن العوائق الجامدة التي تعرقل التغييرات الجادة قد استفحلت بسبب الأعراف التقليدية البالية، ثم قام بإبطالها، وكان يدير اجتماعات الكلية تلك بأسلوب حاسم، معتبرًا كل اجتماع مناسبةً يعلن فيها عمّا ينوي فعله تاليًا مما كان متأكدًا من أنه سوف يثير المزيد من الاستياء. تحت قيادته، غدت الترقيات عسيرةً- وتلك كانت الصدمة الكبرى ربما للجميع: لم يعد المدرسون يترقّون تلقائيًّا بالتقادم على قاعدة أنهم ذوو شعبية، ولا عادت مرتباتهم تزيد ما لم تكن مرتبطة باستحقاق للعلاوة. باختصار، رسّخ كولمن روح المنافسة، جعل من المكان ساحة تنافس، مثلما علّق العدو المبكر: "هذا ما يفعله اليهود." ووقتما كان

يُدبَّجُ إعلانٌ غاضب يؤدي إلى انعقاد لجنة شكوى إلى بيرس روبرتس، كان رئيس الجامعة يناصر كولمن ولا يخذله.

في عهد روبرتس كان كل المدرسين الشباب اللامعين الذين تم تعيينهم يحبون كولمن بسبب الصلاحيات التي منحها لهم، وبسبب توظيفه مدرسين ممتازين من خارج برامج خريجي الكلية من جامعات جونس هوبكنز وويل وكورنيل- "ثورة الكفاءات"، كما كان يحلو لهم أن يصفوها. كافأوه لاستبعاده النخبةَ المسيطرة من ناديهم الصغير وتهديده تكريسهم الدائم لأنفسهم، الأمر الذي لم يخفق أبداً في إثارة جنون الأساتذة الصفوة. كل الكهول كبار السن الذين يشكلون الحلقة الأضعف من هيئة التدريس كانوا يعيشون طويلاً بسبب الأسلوب الذي يفكرون به في أنفسهم- البروفيسور الأعظم لآداب عام 100 ق.م، وهلمّ جرّا- وما أن تمت مواجهة هؤلاء وتحدّيهم من أعلى، بدأت ثقتهم بأنفسهم تتآكل، على النحو الذي جعلهم خلال أعوام قليلة يختفون تقريباً. أوقاتٌ عصيبة! لكن بعد انتقال بيريس روبرتس إلى وظيفة أكبر في ميتشجن، ليحلّ محلّه هاينز، الرئيس الجديد، الذي لم يكن يحمل أي ولاء خاص لكولمن- وعلى نقيض سلفه، لم يُظهر أي تشجيع لتوجّه الصارم في تجريف روح الغرور والأنا الأوتوقراطية المستبدة، ذلك التوجّه الذي كان قد نجح في تطهير المكان في وقت وجيز- وما إن استقرّ المدرسون الشبابُ في هيئة التدريس، سواءً مَن استبقاهم كولمن في وظائفهم أو مَن استجلبهم من الخارج لتوظيفهم من ذوي الخبرة المحنكين، حتى بدأت ردود الفعل تشتعل ضد العميد سيلك. لم يكتشف كولمن قوة ذلك حتى أحصى عدد الأشخاص، في كل قسم على حدة، الذين أبدوا استياءهم العنيف من الكلمة التي اختارها العميد القديم ليصف بها تلميذيه غير الموجودَيْن، ذاهبين إلى أن الكلمة ليست وحسب مُعرَّفةً عبر دلالة القاموس الابتدائي التي أصرّ كولمن أنها الدلالة الواضحة التي يقصد، بل كذلك مُعرَّفةٌ عبر المعنى العنصريّ التحقيريّ للزنوج الذي دفع بالطالبين الأسودين لرفع شكواهما ضدّه.

أذكرُ بوضوح ذلك اليوم من أبريل قبل عامين من موت آيريس سيلك ليضرب كولمن الجنونُ. حينما كانت تتقاطع طرقُنا في المتجر العام أو في مكتب البريد، لم أكن في الحقيقة أعرف آل سيلك أو أي شيء عنهما، اللهم إلا عبر إيماءة عابرة منه أو منها. لم أكن حتى أعرف أن كولمن نشأ في مكان يبعد عني نحواً من أربعة أميال أو خمسة في مقاطعة إسيكس الصغيرة بأورانج الشرقية، ولاية نيو جيرسي، وأنه، كخريج مدرسة إيست- أورانج الثانوية عام 1944، كان يسبقني بما يقرب من ست سنوات بمدرستي الثانوية نيو-آرك المجاورة. لم يبذل كولمن جهداً في التعرف عليّ، ولا أنا كنتُ قد تركتُ

نيويورك وانتقلتُ للسكنى في كوخ بغرفتين معزول عند نهاية حقل على طريق ريفيّ في مرتفَع بيركشاير من أجل لقاء أناس جدد ولا للمشاركة في تجمعات جديدة. بتهذُّب كنتُ أرفض جميع الدعوات التي كنتُ أتلقاها في شهوري الأولى هنا عام 1993- لحضور عشاء، لتناول الشاي، لحفل كوكتيل، لرحلة جماعية بالعربة إلى الجامعة عند أسفل الوادي لحضور محاضرة أو، إذا راق لي، لأتحدث بشكل غير رسمي في فصل مادة الأدب- وبعد ذلك تركني في حالي الجيرانُ وأعضاء هيئة تدريس الجامعة لأعيش في عزلتي وأتفرغ لعملي.

ولكن بعد ذلك، في ذلك الأصيل قبل عامين، بعدما عاد كولمن مباشرة من إجراءات مراسم دفن آيريس، كان يقف عند مدخل بيتي، يطرق الباب بعنف ويسألني الدخول. وبالرغم من الأمر العاجل الذي جاء في طلبه، إلا أنه لم يستطع أن يبقى جالسًا لأكثر من ثلاثين ثانية ليوضح ما يريد. نهض، ثم جلس، ثم نهض مجددًا، ثم راح يطوف ويطوف في أنحاء غرفة مكتبي، يتكلم بصوتٍ عالٍ وباندفاع، وبشيء من التهديد راح يطوّح بقبضته في الهواء إذ كان يظن خطأً، أن كلامه بحاجة إلى التشديد. كان عليّ أن أكتب شيئًا من أجله- هذا هو كل ما طلبه مني. فلو أنه كتب حكايته بنفسه، بكل سخفها ولا معقوليتها، دون أن يعدّل في وقائعها، فإن أحدًا لن يصدقها، أحدًا لن يأخذها مأخذَ الجِّد، سيقول الناسُ إنها أكذوبة مضحكة، مبالَغةٌ تخدم مصالحه الشخصية، سيقولون إنه بعدما تلفّظ في الفصل بكلمة "أشباح" *Spooks*، كان مضطرًا أن يكذب ليخفيَ سقوطَه. لكن، إذا ما كتبتُها أنا، إذا ما كتب الحكايةَ كاتبٌ محترف...

راحت تنهار داخله جميع الكوابح، فيما أراقبه، وأنصتُ إليه- كنتُ أرى رجلاً لم أعرفه، لكنه، كما هو باد، رجلٌ ذو ثِقَل وحيثية، سوى أنه الآن متهاوٍ وفاقدُ العقل- بدا الأمر مثل أن تكون شاهدًا على حادث مروِّع في الطريق العام، أو حريق ضخم، أو انفجار مخيف، شاهدًا على كارثة عامة في المشاع، فتغدو مثل المنوَّم مغناطيسيًا من هول غرائبيتها ولا معقوليتها. الطريقة التي كان يترنح بها في أنحاء الغرفة، ذكّرتني بالدجاجة التي تظلُّ تمشي وهي مقطوعة الرأس. كان رأسه متدليًا، هذا الرأس الذي يغلِّفُ المخَّ المثقفَ الرصين بالعِلم، المخ الذي كان يومًا لعميد كلية منيع، وبروفيسور في الكلاسيكيات القديمة، ما كنتُ أشاهده الآن ليس إلا بقاياه المبتورة تدور وتتهاوى دون أدنى سيطرة.

أنا- صاحبُ البيت الذي لم يدخله أبدًا من قبل، أنا صاحبُ الصوت الذي بالكاد كان قد سمعه من قبل- كان عليَّ الآن أن أطرحَ جانبًا كلَّ ما كنتُ أفعله لأكتب كيف أن أعداءه في جامعة أثينا، في أثناء تظاهرهم ضده، طرحوا زوجته أرضًا بالضربة

القاضية بدلاً من أن يطرحوه هو. وأنهم حين رسموا له صورةً باطلة، ورموه بكل ما كان مستحيلاً أن يكونه، فإنهم لم يسيئوا وحسب لسمعة رجل في منصب قياديّ احترافيّ كان يدير الأمور بكل جهد وجدية- بل قتلوا أيضًا السيدة التي ظلّت زوجته لأربعين عامًا. قتلوها كأنما صوّبوا الرصاصةَ إلى قلبها ثم أطلقوا النار. كان عليَّ أن أكتب عن هذا "العبث"، ذاك "العبث"- أنا، الذي لم يكن حتى وقتها يعلم أي شيء عن محنته في الجامعة ولم يستطع حتى متابعة التسلسل الزمني لذاك العذاب الذي استمر للآن خمسةَ أشهر، العذاب الذي غمره حتى ابتلعه هو والراحلة آيريس سيلك: عذاب الغرق في الاجتماعات، الإشاعات، المقابلات الصحفية، الوثائق والمخاطبات المُرسلة إلى موظفي الجامعة، إلى مجلس الكلية، إلى المحامي التطوّعي الأسود الذي يمثّل الطالبين... التُّهم، الإنكار، التهم المقابلة، تبلّد الذهن، الجهل، السخرية والاستخفاف، إساءة الفهم المتعمّدة، التفسيراتُ المكررة المجهِدة، الأسئلة الاستجوابية- ودائمًا وأبدًا الشعور العميق المستمر بأن ما يحدث غير حقيقي. "جريمةُ قتْلِها!"، صرخ كولمن باكيًا، وهو ينحني ليدقَّ بقبضته على مكتبي. "أولئك الناس قتلوا آيريس!" الوجه الذي بدا لي، الوجه الذي كان لا يبعد عن وجهي أكثر من قدم واحد، أصبح الآن منبعجًا وغير متناسق- وبالنسبة لوجه كهل وسيم متأنق يفيض شبابًا- بدا مُنفِّرًا وبغيضًا على نحو غريب، كان مشوَّهًا للغاية بسبب التأثير المسموم لكل المشاعر التي كانت تفور داخله. بدا الوجه، عن قُرب، مهدَّمًا ومُزرقًّا مثل ثمرة فاكهة أُلقي بها على الأرض من كشك الفاكهة بالسوق فظلّت تُركَل بأقدام المارة هنا وهناك. ثمة شيء ساحر فيما بوسع الصراعُ المعنويّ أن يفعله بشخص، على نحو غير ملحوظ، واهن وضعيف. ينتشر ببطء على نحو غادر أكثر مما يفعل المرضُ العضوي، إذ ليس من حقنة مخدِّرة أو دعامات عمود فقاري أو جراحة دقيقة بوسعها أن تعالجه. ما إن تقعَ في قبضة الألم المعنويّ، فإنكَ لن تتحرر منه إلا بعدما يقتلك أولاً. واقعيته الفجَّةُ لا شيء يشبهها.

لقد قُتِلَت. بالنسبة لكولمن كان هذا هو التفسير الوحيد، ولا شيء غيره، الذي يفسّر المصير الذي انتهى بامرأة في الرابعة والستين من عمرها في كامل لياقتها وتمام صحتها، فنانة تشكيلية تجريدية تهيمن لوحاتُها على المعارض الفنية المحلية، المرأة التي كانت مديرةً حاسمة لجمعية الفنانين بالبلدة، الشاعرة التي تنشر قصائدها في صحف المقاطعة، الطالبةُ التي قادت في الجامعة نشاطًا سياسيًا احتجاجيًا مضادًا لقرار إيواء القنابل الإشعاعية المحتوية على مادة سترونتيم 90، التي تخلّفت من حرب فيتنام، عاصفةٌ هادرة لا تلين ولا تخضع لامرأة عنيدة، غير دبلوماسية، شرسة يمكن تمييزها من بُعد مئة ياردة بشعرها الأشعث الأبيض المهيب الذي يكلل رأس تلك الشخصية القوية،

التي من الواضح، أن كولمن، بالرغم من هيبته، وهو العميد ذو السمعة الخارقة والطاقة الهائلة التي قادت الناس، العميد الذي صنع المستحيلَ الأكاديميَّ وجلب الحريةَ لكلية أثينا، لم يكن قادرًا على هزيمة زوجته في أي شيء سوى في لعبة التنس.

بمجرد أن وقع كولمن تحت مطرقة الهجوم- حينما وُضِعَت تهمةُ العنصرية على طاولة التحقيق، ليس وحسب من قِبل عميد الكلية الجديد، بل كذلك من قِبَل المنظمة الصغيرة للطلاب السود، وكذا من قِبل النشطاء السود في بيتسفيلد- بمجرد أن وقع كولمن تحت المطرقة حتى محا انفجارُ غضبهما معًا المليونَ مشكلة التي اعترت حياة آل سيلك الزوجية، استبدادُ الزوجة الذي كثيرًا ما تصادم على مدار عقود أربعة مع عناد الزوج واستقلاليته ما تسبب في احتكاكات حياتية لا تنتهي بينهما، كل ذلك تجاوزته آيريس في لحظة لكي تقف جوار زوجها وتسانده.

ورغم أنهما لم يناما في فراش واحد لسنوات، وما عاد أحدهما يتحمل كثيرًا حوارَ الآخر- أو حتى حوار أصدقاء الآخر- إلا أن آل سيلك قد عادا إلى جوار بعضهما البعض من جديد، يلوّحان بقبضتيهما معًا في وجوه أولئك الذين كرهاهما بعمق، أكثر مما كانا، في أعنف لحظاتهما خصومةً، يواجهان عداءهما الشخصيّ، كلٌّ منهما للآخر. كل ما كان مشتركًا بينهما كرفيقين متحابين قبل أربعين عامًا في قرية جرينويتش- حين كان كولمن ينهي درجة الدكتوراه في الفلسفة بجامعة نيويورك، بينما كانت آيريس للتوّ قد هربت من أبوين فوضويين متسلطين في بازيك لتعمل موديلاً في فصول الرسم الحيّ لطلاب قسم الفنون، مُسلّحةً بشعرها الكثّ المميز، بملامحها الكبيرة المثيرة للشهوة، بنظرتها المسرحية كأنما هي كاهنة بمصوغاتها الفلكلورية، كاهنة إنجيلية من العهد ما قبل الكَنسي- كل ما كان مشتركًا بينهما في أيام القرية تلك (فيما عدا العاطفة الجنسية راح ينفجر بشراسة على الملأ مجددًا... حتى كان الصباح الذي استيقظتْ فيه آيريس على صداع فظيع وانعدام في الإحساس بإحدى ذراعيها. أسرع بها كولمن إلى المستشفى، ولكنها ماتت في اليوم التالي.

"كانوا يقصدون قتْلي أنا، لكنهم قتلوها بدلاً مني." هكذا أخبرني كولمن أكثر من مرة خلال تلك الزيارة المفاجئة لبيتي، مثلما كان يحرص على أن يخبر كلَّ شخص حضر الجنازة في أصيل اليوم التالي. وهذا ما ظلّ يؤمن به أبدًا. ولم يكن ليقبل أية تفسيرات أخرى. منذ موتها- وحين عرف أن محنته لم تكن الموضوع الذي أودّ أن أتناوله في روايتي استرد مني كل الوثائق التي ظلت مطروحةً فوق مكتبي ذلك اليوم- ثم عكف على تأليف كتاب يتناول أسباب استقالته من أثينا، كتاب واقعي غير إبداعي عنوانه: "*Spooks*".

ثمة محطة صغيرة على FM كانت تُبَثُّ في سبرنجفيلد في ليالي السبت، من السادسة مساءً حتى منتصف الليل، تأخذ استراحة من البرامج الكلاسيكية المعتادة وتذيع عزفًا لفرقة موسيقية كبيرة على مدار الساعات الأولى من المساء، ثم موسيقى جاز فيما بعد. عند جانبي من الجبل لم أكن أسمع شيئًا على ذلك التردد سوى تشويش منتظم، ولكن عند المنحدر حيث يعيش كولمن يكون الاستقبال جيدًا، وفي المناسبات، حين كان يدعوني إلى شرابٍ في أمسيات السبت، كانت تنسابُ تلك النغمات العذبة الراقصة التي كان الأولاد في جيلنا يسمعونها باستمرار عبر الراديو ويعزفونها على صناديق الموسيقى في الأربعينيات، كان يمكن سماعها آتيةً من منزل كولمن بمجرد نزولي من سيارتي في مرأبه. كان كولمن يديرها على أعلى صوت ليس وحسب في مستقبِل الاستريو بقاعة المعيشة، بل كذلك عبر راديو موضوع جوار سريره، ومن راديو جوار الدُّوش، ومن راديو جوار محمِّص الخبز في المطبخ. أيًا ما كان يفعل في بيته مساء السبت، وإلى أن تغلق المحطة في منتصف الليل- متبوعةً لمدة نصف ساعة بنشرة الطقس الأسبوعية بواسطة بيني جودمان- أبدًا لا يكون كولمن لدقيقة واحدة بمنأى عن مجال السمع.

وللعجب، كما كان يقول، فإن كل المقطوعات المهمة التي كان يسمعها طوال مرحلة شبابه لم تكن تضعه في حال الفوران العاطفيّ على النحو ذاته الذي كانت تفعله الآن تلك المقطوعات القديمة الراقصة: "كلُّ جزء جامد داخل جسدي يرتخي ويتأجج رغبةً لا تموت، مستحيل أن تموت، بل تغدو أعلى مما يفوق مقدرتي على التحمّل. كل هذا يحدث إثر استماعي إلى فوجن مونرو." في بعض الليالي، كان كل سطر من كل أغنية يحمل دلالةً فريدة طاغية، حتى ينتهي به الحال منتفضًا، ليراقص نفسه بفوضوية واندفاع وبغير نظام، ولكن بجمال رائع، كأنما يستعيد مزاجه القديم حين كان يرقص رقصة فوكس تروت مع فتيات أورانج الشرقية اللواتي كان يضغطهن إليه، عبر بنطاله، مع أول انتصاب فعليّ يحدث له؛ وبينما يرقص، تكون مشاعره، كما كان يخبرني، لا شيء يضاهيها، لا الرعب (عند الخمود) ولا النشوة (عندما تقول الأغنيةُ: "تتنهّدُ، فتبدأ الأغنية. تتكلّمُ، فأسمعُ الكمنجات"). كانت الدموع تنساب بتلقائية، والدهشةُ تغمره من انعدام مقاومته لكل من هيلين أوكونيل وبوب إلبيرلي في تناوبهما مقاطع أغنية "العيون الخُضر"، وتعجّبه من مقدرة جيمي وتومي دورسي على تحويله إلى رجل عجوز مهاجِمٍ لم يتوقع أبدًا أن يكونَه. "ولكن دع أي إنسان مولود عام 1926 يحاول أن يمكث وحده بالبيت ليلة السبت عام 1998 ويستمع إلى ديك هايمز يغني 'تلك الأكاذيب البيضاء

الصغيرة'، فقط دعه يفعل ذلك، ثم اجعله يخبرني بعدها إذا لم يفهم أخيرًا الطقوسَ الاحتفائية التطهّرية المتأثرة بالتراجيديا." هكذا كان يقول.

كان كولمن يغسل صحون العشاء حينما أتيتُ إلى بابه ذي الشراعة المُفضي إلى المطبخ في جانب البيت. ولأنه كان واقفًا عند الحوض والماء يجري، ولأن الراديو عالي الصوت وكولمن يغني مع فرانك سيناترا "كل شيء يحدث لي"، فإنه لم يسمعني وأنا أدخل. كانت ليلة حارة جدًّا؛ وكولمن يرتدي شورتًا من الجينز وحذاءً خفيفًا، ولا شيء آخر. من الخلف، لم يَبدُ هذا الرجل ذو الواحد وسبعين عامًا أكبر من الأربعين- بدا ممشوقًا ومتناسق الجسم وأربعينيًّا. لم يكن طول كولمن ليزيد عن خمسة أقدام وثماني بوصات، وبذا فلم يكن ذا عضلات ضخمة، على أن به وفرةً من القوة، وآثار الرياضة التي كان يمارسها في المدرسة الثانوية مازالت بادية للعين، السرعة، الميل للحركة والعمل، ما اعتدنا أن نسميها اختصارًا: *pep*[11]. شعرُه المقصوص قصيرًا ذو الالتفافات الدقيقة تحوّل إلى لون دقيق الشوفان، وبرغم أنفه الصبيانيّ الأفطس، لم يكن ليبدو شابًّا مثلما لو ظلّ شعره غامقًا. كذلك، كان ثمة تجويفان طوليان ضيقان منحوتان عميقًا على جانبي فمه، وفي عينيه البُندقيتين اللتين تميلان للاخضرار، كان ثمة، منذ موت آيريس واستقالته من الجامعة، الكثير، الكثير من الإرهاق والاستهلاك المعنوي. كان لكولمن نظرة متنافرة محببة تشبه الدُّمى تلك التي قد تصادفها في وجوه ممثلي السينما الكهول الذين يلمعون على الشاشة مثل أطفال متلألئين، أولئك الذين تركوا بصمات لا تنمحي على النجوم الشباب.

بشكل عام، ظل كولمن رجلاً جذابًا وأنيقًا حتى في عمره المتقدم، بأنفه الصغير يهوديٌّ السمت مع ثِقَلٍ ظاهر في الفكّ، كان واحدًا من أولئك اليهود ذوي الشعر الجعد والبشرة الفاتحة المخضّبّة بالصُّفرة ممن لديهم ذلك الملمح الغامض للسود ذوي البشرة الفاتحة الذين يظنهم المرء أحيانًا من البيض. حينما كان كولمن بحّارًا في قاعدة البحرية بفرجينيا قرب الحرب العالمية الثانية، ولأن اسمه لم يكن يدل كثيرًا على أنه يهودي- يمكن بسهولة أن يكون اسمًا لزنجي- فقد تعرّفوا عليه مرةً في بيت دعارة كزنجيّ متجاوز يحاول المرور، وطردوه. "طُرِدتُ من ماخور في نورفولك بوصفي زنجيًّا، وطُردتُ من جامعة أثينا بوصفي أبيض!" تعودتُ منه خلال العامين الأخيرين على سماع كلمات مثل تلك، وهو يهذي بكلام حول السود المُعادين للسامية، وحول زملائه الخونة الجبناء الذين شكّلوا في كتابه أوضحَ الخطوط العريضة غير القابلة للتعديل.

---

[11]- مصطلح اختصاري بالدارجة الأمريكية يعني النشاط والحيوية. (المترجمة)

" طُرِدتُ من أثينا، لكوني يهوديًا أبيض ممن يسمونهم أولئك الجهلةُ الأ وغادُ: 'الأعداء'". أولئك الذين صنعوا مأساتهم الأمريكية. أولئك الذين سرقوهم من الفردوس. وأولئك الذين أرجعوهم إلى الوراء كل تلك السنوات. ما هو المصدر الرئيسي لمعاناة السود فوق هذا الكوكب؟ هم يعرفون الإجابة دون الا ضطرار للذهاب إلى الفصل. يعرفون دون الاضطرار إلى فتح كتاب. دونما قراءة يعرفون- هم يعرفون دون تفكير. مَن المسئول؟ وحوش العهد القديم[12] الأشرار هم المسئولون عن معاناة الألمان.

"لقد قتلوها يا ناثان. ومَن كان يظن أن آيريس لن تتحمل؟ امرأة قوية مثلما كانت، صاخبة مثلما كانت، آيريس لم تقدر على التحمل. غباؤهم القياسي الفائق كان أقوى من إلهة عنيدة مثل زوجتي. *Spooks*. ومَن عساه هنا يدافع عني؟ هيرب كيبل"؟ أنا الذي أحضرتُ هيرب كيبل للجامعة، حين كنتُ عميدًا للكلية. وظّفتُه بعد شهور قليلة من تسلّمي العمادة. جلبته ليس فقط كأول زنجيّ في قسم العلوم الاجتماعية، بل كأول أسود في أي شيء عدا مواقع الحراسة. لكن هيرب أيضًا كان متطرفًا في عنصريته نحو اليهود من أمثالي. "لن أستطيع مساندتك في هذا يا كولمن. مضطرٌ أن أكون معهم." هذا ما أخبرني به حينما ذهبتُ إليه ليدعمني. قالها في وجهي. أنا مضطر أن أكون معهم. معهم!

"لابد أنك شاهدت هيرب في جنازة آيريس. مهشَّمًا. محطّمًا. كأنه شخصٌ ميت؟ هيربرت لم يقصد أن يموت أيُّ إنسان. تلك مناوراتٌ وحِيَل خداعية من أجل السُّلطة. إطلاق أقاويل ضخمة حول كيف تُدار الجامعة. كانوا يستغلون الأ مر لخلق موقف بطوليّ. كان أسلوبًا لحثّ هاينز وإدارة الكلية على فعل شيء، ما كانوا ليفعلوه أبدًا. المزيد من السود في الحرم الجامعي. المزيد من الطلاب السود، المزيد من الأساتذة السود. التمثيل- ذاك هو الموضوع. الموضوع الوحيد. الربُّ يعلم أن أحدًا لم يُقصَد أن يموت. ولا أن يستقيل أيضًا. تلك أيضًا فاجأت هيربرت. لماذا كان يتحتم على كولمن سيلك أن يستقيل؟ لم يكن ليطرده أحد. ليس ثمة مَن يتجاسر على فصله من الجامعة. كانوا يفعلون ما يفعلون فقط لأنهم كانوا قادرين على فعله. كانوا ينتوون فقط أن يربطوا قدميّ في اللهب مدةً أطول قليلاً- فلماذا لم أكن صبورًا وأنتظر؟ مع الفصل الدراسيّ التالي، مَن عساه كان سيتذكر أي شيء من ذلك؟ الحادثة- الحادثة!- أمدّتهم بـ"موضوع تنظيميّ" من النوع المطلوب لمكان متخلف عنصريًا مثل جامعة أثينا. لماذا خرجتُ؟ في الوقت الذي استقلتُ فيه كان الموضوع قد انتهى تمامًا. فلأي سبب بحق الجحيم قدّمتُ استقالتي؟

---

[12] - Old Testament، التوراة. (المترجمة)

بالضبط عند زيارتي السابقة، كان كولمن يلوّح في وجهي بشيء ما، في اللحظة التي دلفتُ فيها من الباب، ولم تكن إلا وثيقةً أخرى ضمن مئات الوثائق المؤرشفة في صندوق عليه ورقة لاصقه مكتوب عليها: "*Spooks*". " هنا. إحدى زميلاتي الموهوبات. تكتب عن واحدة من الاثنين اللذين رفعا القضيةَ ضدي- الطالبةُ التي أبدًا لم تحضر محاضراتي، رسبت في كل المواد عدا أحد المناهج التي كانت تدرسها زميلتي ونادرًا ما حضرتها. كنتُ أظنّ أنها رسبت لأنها لم تستطع استيعاب المادة، ناهيك عن تحضير دراسات عُليا فيها، لكن تبينّ أنها رسبت لأنها كانت خائفة من تهديد عنصرية أساتذتها البيض، فلم تمتلك الشجاعة لتحضر المحاضرات. هي ذاتها العنصرية التي كنتُ أوضِّحُها أنا. في أحد تلك الاجتماعات، الشائعات، سمها ما شئت، سألوني: 'ما العوامل، في تقييمك، التي أدّت إلى إخفاق هذه الطالبة؟' 'ما العوامل؟' قلتُ. 'الإهمال، الجهل، اللامبالاة، العُقد والإحباطات النفسية، مَن يدري؟' سألوني: 'ولكن، في ضوء تلك العوامل، ما هي التوصيات الإيجابية التي أوصيتَ بفعلها لهذه الطالبة؟' أجبتُ: 'لم أوصِ بشيء. عيناي لم تقعا عليها أصلاً. لو أتيحت لي الفرصة، لكنت أوصيتُ بأن تترك التعليم.' 'لماذا؟' سألوني. 'لأنها لا تنتمي إلى التعليم.'"

"دعني أقرأ عليك من هذه الوثيقة. أنصتْ إلى هذه. مكتوبة بيد إحدى زميلاتي تساند بها تريسي كامينجز بوصفها طالبةً علينا ألا نتسرع أو نندفع في الحكم عليها، وبالطبع ليست الطالبة التي يجب أن نطردها ونرفضها. تريسي يجب أن نحتضنها ونربيها، تريسي يجب أن نفهمها- 'يجب أن نعلم،' تخبرنا تلك الزميلة الأكاديمية، 'من أين أتت تريسي.' دعني أقرأ عليك الجُمل الأخيرة. 'تريسي آتيةٌ من ظرف اجتماعيّ صعب بعض الشيء، حيث انفصلت عن أسرتها وهي في الصف العاشر لتعيش مع أقاربها. نتيجة لذلك، فإنها لم تكن مؤهلةً للتعامل مع الواقع نظرًا لظروفها. أعترفُ بهذه النقيصة. لكنها جاهزةٌ، راغبةٌ، وقادرةٌ على تغيير طريقها في الحياة. وما رأيته يظهر للوجود في شخصيتها خلال الأسابيع الأخيرة، هو اكتشافها خطورة تجنّبها الواقع.' تلك كلماتُ كتبتها دلفين روكس، رئيس قسم اللغة والآداب، التي تدرِّسُ، ضمن مواد كثيرة أخرى، منهجَ الكلاسيكيات الفرنسية. اكتشاف خطورة تجنّبها الواقع. آه، يكفي. يكفي. هذا مقزّزٌ. هذا مقزز للغاية."

هذا ما كنتُ شاهدًا عليه، معظم الأحيان، حينما كنت أحضر لأجالس كولمن في ليالي السبت: خُذلانٌ مُذِلٌّ كان لا يفتأ يأكل شخصًا لم يزل ممتلئًا بالحيوية. الرجل العظيم جيء به إلى الحضيض فظل يصارع عارَ الإخفاق. شيء يشبه ما يمكن أن تكونوا قد شاهدتموه مع نيكسون في سان كليمنت، أو مع جيمي كارتر في جورجيا، قبل أن يبدأ

في التكفير عن هزيمته بأن يصبح نجاراً. أمر محزن للغاية. ولكن، وبالرغم من تعاطفي مع محاكمة العذاب التي مرّ بها كولن، وكل خساراته غير العادلة واستحالة تخلّصه الوشيك من مراراته، كانت تمر علينا أمسيات، بعد احتساء قطرات قليلة من البراندي الذي يقدمه لي، تتطلب مني عملاً بطوليًا أو تعويذة سحرية لأبقى يقظًا.

ولكنه في الليلة التي أعنيها، حينما دلفنا الشرفة الجانبية الباردة التي كان يستخدمها كغرفة مكتب وقت الصيف، كان قد أصبح مغرمًا بالعالم بأقصى ما يمكن لرجل أن يكون. سحب من الثلاجة قارورتَي بيرة قبل أن نغادر المطبخ، ثم جلسنا متواجهينْ على طرفي طاولة طويلة كان يستخدمها كمكتب في الشرفة، حيث عدد من كتب التعبير[13] مكوّمة فوق أحد أركان الطاولة، ما يقرب من عشرين كتابًا أو ثلاثين مقسمة على ثلاثة أكوام.

"حسنٌ، ها هي ذي،" قال كولن، ها هو الآن إنسان هادئ، غير مضطرب، إنسان جديد تمامًا. "هذا هو. ها هو الـ *Spooks*. انتهيتُ بالأمس من مسودّته الأولى، وأمضيتُ نهار اليوم في مراجعته، كلُّ صفحة فيه جعلتني أشعر بالغثيان. العنف البادي في خطّ اليد كان كافيًا ليجعلني أحتقر المؤلف[14]. لا يستحق الأمر أن أهدر ربع ساعة فقط في ذلك الكتاب، ناهيك عن عامين! ماتت آيريس بسببهم؟ مَن سيصدق هذا؟ أنا نفسي الآن لا أكاد أصدق ذلك. من أجل أن نحوِّل هذا الركام إلى كتاب، من أجل أن نبيّض المأساة الموجعة ونحولها إلى شيء كتبه إنسانٌ عاقل، فسوف يستغرق هذا على الأقل عامين إضافيين. وماذا عساي أجني حينئذ، غير عامين آخرين من التفكير 'فيهم'؟ سوى أن أكون قد سلّمت نفسي للغفران. لا تُسء فهمي: أنا أبغضُ الأوغاد. أكره الأوغاد أولاد السِّفاح مثلما كَرِه جاليفر[15] كلَّ الجنس البشري بعدما ذهب وعاش مع تلك الخيول. أبغضهم بُغضًا بيولوجيًا حقيقيًا. برغم تلك الخيول التي دائمًا ما أراها كائنات سخيفة. ألا تراها كذلك؟ اعتدتُ أن أفكر فيهم بوصفهم ينتمون لمؤسسة دبابير[16] كانت تدير هذا المكان حينما أتيتُ إليه أول مرة."

"أنت في حال جيدة يا كولن- بالكاد ثمة وميض خفيف مازال يبدو من جنونك القديم. منذ ثلاثة أسابيع، أو شهر مضى، حينما رأيتك آخر مرة، كنتَ لا تزال غارقًا لركبتيك داخل دمك."

---

[13] - يقصد كتب تعلّم كيفية تأليف الكتب. كتب إنشاء Composition. (المترجمة)
[14] - يقصد نفسه. (المترجمة)
[15] - يشير إلى رواية "رحلات جاليفر" للأيرلندي جوناثان سويفت (1667 –1745). (المترجمة)
[16] - في الأصل بالحروف الكبيرة WASP. (المترجمة)

"بسبب هذا الشيء. لكنني قرأته ووجدته هراء فانتهيتُ منه. لن أستطيع أن أصنع ما يصنعه المحترفون. أن أكتب عن نفسي، لم أستطع مراوغة غياب الإبداع. صفحة بعد صفحة، بقيتْ كما هي مادةً خامًا. إنها لون من محاكاة مذكرات محاكمة النفس التهكمية. إنها اليأس من التفسير." ثم قال مبتسمًا: "بوسع كيسنجر أن يكتب ألف وأربعمائة صفحة من هذا الهراء كل عامين، لكن هذا الكتاب هزمني. كنتُ مُحصنًّا بعماء كأنما كنتُ محبوسًا داخل فقاعة النرجسية، لستُ ندًّا له. لذلك توقفت."

الآن، معظم الكُتّاب الذين وصلوا إلى طريق مسدود بعد إعادة قراءة عمل استغرق عامين- عمل استغرق حتى عامًا واحدًا، أو حتى مجرد نصف عام- ووجدوه مضلِّلاً على نحو تعس فأوقعوا عليه المقصلة النقدية ثم هبطوا إلى حال اليأس القاتل حيث تأخذهم شهورًا لكي يبدءوا في التعافي. لكن كولمن بتخلّيه عن مسودة كتاب في رداءة مسودته التي انتهى إليها، كان على نحو ما قد نجح في السباحة متحرّرًا ليس فقط من حُطام الكتاب، بل أيضًا من حطام حياته. من دون ذلك الكتاب كان يبدو الآن بلا أدنى توق لوضع الأمور في نصابها؛ نقيًّا من شغفه في تبرئة اسمه وتجريم خصومه القتلة، لم يعد جثّة محنّطةً داخل صندوق الجَوْر. باستثناء مشهد نيلسون مانديلا في التليفزيون، وهو يسامح سجّانيه لحظة مغادرته المعتقل بينما لا تزال وجبة السجن التعسة بعد في معدته لم تُهضَم، فإنني لم أر أبدًا من قبل تحوّلاً يبدّل قلبًا شهيدًا على هذا النحو المفاجئ. لم أقدر على استيعاب هذا، وفي البدء لم أقدر حتى على إجبار نفسي على تصديق ذلك.

"بابتعادك عن الأمر على هذا النحو، وأنت تقول ببهجة: 'لقد هزمني الكتاب،' بإقصائك كل هذا العمل، كل هذا القرف- حسنٌ، كيف ستملأ فراغ الانتهاك؟"

"لن أفعل." تناولَ أوراقَ الكوتشينة ودفترًا صغيرًا ليدوّن مجموع النقاط وجذبنا مقعدينا إلى حيث مكان على الطاولة كان فارغًا من الأوراق. خلط ورق اللعب، وقسمتُها أنا، ثم قام هو بالتوزيع. بعد ذلك، في تلك الحال الهادئة الفريدة من الرضا التي جلبها الانعتاقُ الظاهريّ من ازدراء كل الناس في أثينا، أولئك الذين، بكل تؤدة وتأنٍّ وسوء طوية، أساءوا إليه ولوّثوا سمعته- تلك الحال التي غمرته، على مدار عامين، في لجّة النقمة على الناس ورؤيتهم مشوهين- بدأ يستعيد حماسه للأيام العظيمة الخوالي حين كانت كأسه تفيض[17] وموهبته الضخمة ذات الضمير اليقظ تمنحه البهجة. الآن، حين لم يعد مُكبّلاً بأرض البغضاء، آن لنا أن نتحدث عن النساء. كان هذا هو كولمن الجديد. أو ربما كولمن القديم، الشاب كولمن الأكبر سنًّا، كولمن الأكثر رضًا على الإطلاق. ليس كولمن ما-قبل-*Spooks*، غير المتأذي بتهمة العنصرية، بل كولمن الموصوم بالرغبة وحدها.

[17] - التعبير مقتبس من العهد القديم ودارج لدى اليهود ويعني أن يكون لدى المرء ما يفيض عن حاجته. (المترجمة)

"برحتُ سلاح البحرية، وحصلتُ على بيت في البلدة،" راح يخبرني وهو يضم قبضته، "وكان كل ما عليّ فعله هو الذهاب إلى الطريق الجانبيّ. كان شيئًا يشبه الاصطياد. النزول إلى الطريق والعودة بفتاة. وبعد ذلك"- توقف ليلتقط ورقة كوتشينة ألقيتُها- "في لمح البصر، حصلتُ على شهادة التخرج، حصلتُ على زوجة، على وظيفة، أطفال، وكان ذلك نهاية الاصطياد."

"لم تعد للصيد أبدًا."

"تقريبًا لم أعد. بصدق. واقعيًا لم أعد. أو كأنما لم أعد. أتسمع تلك الأغنيات؟" كانت أجهزة الراديو الأربعة تصدح في أرجاء البيت، ومن ثم كان من المستحيل عدم سماعها أيضًا من الطريق بالخارج. "بعد الحرب، كانت هناك تلك هي الأغنيات،" قال لي. "أربعُ سنوات أو خمس من الأغاني، الفتيات، وكان ذلك يحقق كل مثالياتي. اليومَ وجدتُ خطابًا. بينما أنظّف أوراق هراء الـ *Spooks* تلك، وجدت خطابًا من إحدى الفتيات. الفتاة. بعدما ذهبت إلى موعدي الأول، بعيدًا في لونج-آيلاند، بعيدًا في آديلفي، كانت آيريس حُبلى في 'جيف[18]'، وصلني هذا الخطاب. فتاة طولها حوالي ستة أقدام. آيريس كانت فتاةً طويلة أيضًا. لكنها ليست في طول "ستينا". كانت آيريس متينة التكوين. وستينا كانت شيئًا مختلفًا. أرسلت لي "ستينا" هذا الخطاب عام 1954، وعثرتُ عليه اليوم وأنا أقلّب في الملفات."

من الجيب الخلفي في شورته، سحب كولن المظروف الأصليّ الذي يضم خطاب "ستينا". لا يزال من دون تي-شيرت، وكنّا الآن خارج المطبخ في الشرفة فلم أتمالك أن لاحظت- كانت ليلة دافئة من يوليو، لكن ليست دافئة للغاية. لم يثر كولن دهشتي هكذا أبدًا من قبل كرجل يمتد زهوُه الهائئُ بنفسه إلى مستوى تشريحه الداخلي أيضًا. لكنه الآن يبدو لي أكثر من مجرد رجل في بيته يلمع زاهيًا في بشرة جسده الذي لوّحته الشمس. تبرز للعيان تلكما الكتفان، الذراعان، الصدر، كلها كانت لرجل ضئيل مازال أنيقًا وجذابًا، البطن لم تعد مستوية، لكي نكون صادقين، لكن شيئًا بعد لم يخرج عن السيطرة- كل شيء في تكوينه الجسدي بدا لشخص كان متسابقًا رياضيًا داهية، أكثر منه لرجل مستبد بقوته. وكل هذا كان خافيًا عني في السابق، لأنه يلبس قميصه دائمًا، وكذلك لأنه كان دائمًا مستهلَكًا في غضبه بعنفٍ.

أيضا فيما سبق كان خافيًا هذا الوشم البارز الأزرق الصغير المرسوم أعلى ذراعه اليمنى، تمامًا عند مفصل الكتف- الكلمات: "سلاح البحرية الأمريكي" منقوشة بين صاريتي مرساة صغيرتين على شكل خطافين خفيفين وممتدة حتى وتر مثلث عضلة

---

[18] - اسم التدليل من 'جيفري'. (المترجمة)

الكتف. رمزٌ ضئيل، إذا ما احتجنا إليه، لملايين الظروف في حياة الرجل الأخرى، رمزٌ لتلك العواصف الثلجية من التفاصيل التي تشكّل ارتباكَ سيرة حياة الجنس البشري وتشوّشَه- رمز ضئيل ليذكّرني لماذا يكون دائمًا فهمُنا للناس في أحسن الأحول مغلوطًا.

"تحتفظ به؟ الخطاب؟ أمازال معك؟" سألتُه. "لابد ثمة خطابٌ ما."

"خطابٌ قاتل. شيء كان قد حدث لي لم أفهمه حتى جاء هذا الخطاب. كنتُ متزوجًا، موظفًا مسئولاً، وكنا على وشك إنجاب طفل، لكنني لم أكن قد فهمت أن آل ستينا قد انتهوا. وصلني هذا الخطاب لأكتشف أن الأمور الخطيرة قد بدأت بالفعل، أن الحياةَ الجادة مرهونةٌ للأمور الجادة. كان والدي يمتلك صالونًا قبالة شارع "جروف" في أورانج الشرقية. أنتَ ابن "ويكوا"[19]، ولا تعرف أورانج الشرقية. كانت هي الطرف الفقير من البلدة. أبي كان واحدًا من أولئك اليهود مُلاّك الصالونات، الذين انتشروا في كل أنحاء جيرسي، وبالطبع، كانت لهم علائقهم مع رينفيلدز ومع عامة الناس- كان يجب عليهم ذلك، لكي يبقوا على قيد الحياة وسط الغوغاء. لم يكن أبي رجلاً فظًا لكنه كان خشنًا بما يكفي، وكان يرجو لي حياة أفضل. سقط ميّتًا في آخر عام لي بالمدرسة الثانوية. كنتُ كأنني الطفل الوحيد. الابن المحبوب. لم يدعني حتى أعمل في دكانه حينما بدأت تستهويني النماذجُ البشريةُ هناك. كل شيء في الحياة، بما في ذلك الصالون- بل بدءًا من الصالون- كان أبي دائمًا ما يدفعني لأكون تلميذًا جادًا، في تلك الأيام القديمة، رحتُ أستذكر مادة اللاتيني في المدرسة الثانوية، ثم لاتيني متقدم، ثم إغريقي، وهو ما كان لا يزال جزءًا من المناهج القديمة، ابن صاحب الصالون لم يدخر وسعًا في العمل الشاق لكي يصبح أكثر جدية."

حركة اللعب بيننا غدت متسارعة، ووضع كولمن كروت الكوتشينة على الطاولة ليريني يده المنتصرة. وحين بدأتُ أوزّع الورق، استأنف الحكاية. لم أكن قد سمعتها من قبل. لم أكن قد سمعت أي شيء من قبل فيما عدا كيف حدث أن امتلأ بُغضًا لمجلس الجامعة.

"حسنٌ،" استأنف قائلاً، "بمجرد أن حققتُ حلمَ أبي وأصبحتُ أستاذًا جامعيًا فائق الاحترام، كنت أعتقد، كما كان والدي يعتقد، أن الحياة الجادة منذ الآن لن تنتهي أبدًا. ذاك أنها لا يمكن أن تنتهي مادمتَ تمتلكُ أوراق اعتمادها. لكنها انتهت يا ناثان. أم إنهم كانوا '*Spooks*'؟ وأنني فقدتُ عقلي فأُطيحَ بي. حينما كان روبرتس هنا كان يحب أن يخبر الناس أن نجاحي كعميد تولّد من تعلمي الأخلاق في الصالون. الرئيس روبرتس ابن سلالة الطبقة العليا كان يحب أن يرى مشاكس الحانات هذا قابعًا بالقرب منه في القاعة المجاورة له. أمام الحرس القديم بصفة خاصة، كان روبرتس يتظاهر

---

[19]- Weequahic مجاورة سكنية في نيوآرك، بولاية نيوجيرسي الأمريكية. (المترجمة).

بإعجابه بي بسبب خلفياتي الاجتماعية، بالرغم من أنالأشخاص من غير اليهود، كما نعلم، كانوا دائمًا يكرهون بالفعل تلك القصص عن اليهود وصعودهم الملحوظ من حضيض الأحياء الفقيرة. أجل، كان بالتأكيد ثمة قدر من التهكّم لدى بيرس روبرتس، وحتى ذلك الحين، نعم، حينما أفكر في الأمر، أبداً حتى في..." لكنه هنا كبح جماح نفسه. لم يشأ أن يمضي قدمًا في هذا. كان قد انتهى من حال التشويش التي يتصور فيها نفسه ملكًا مخلوعًا. الشكوى التي لن تموت أبدًا ها هي الآن تعلن وفاتها.

عودٌ إلى موضوع ستينا. فإن تذكُّري ستينا يساعد الآن على نحو هائل.

"قابلتها عام 48،" قال. "كنتُ في الثانية والعشرين، مجندًا أمريكيًّا بجامعة نيويورك، في سلاح البحرية المجاور لنا، وكانت في الثامنة عشرة وأمضت شهورًا قليلة فقط في نيويورك. تعمل في وظيفة ما هناك وتدرس أيضًا في الجامعة، لكن في الليل. فتاة مستقلة من مينيسوتا. فتاة واثقة من نفسها، أو هكذا كانت تبدو. جانب منها دنمركي، والآخر أيسلندي. نشيطة. أنيقة. جميلة. طويلة. طويلة على نحو فاتن. كانت تستلقي كتمثال بديع. لم أنس هذا أبدًا. ظللت معها سنتين. كنت أناديها فولوبتس. ابنة سايكي[20]. تجسيد البهجة الحسيّة عند الرومان."

الآن كان قد وضع أوراق اللعب، والتقط المظروف من حيث كان قد ألقاه جانبًا جوار الكومة المهملة، ثم أخرج الخطاب. خطاب مكتوب بالآلة الكاتبة في ورقتين طويلتين. "التقينا صدفةً فيما بعد. أنا كنت عائدًا من آديلفي، لأمضي النهار في البلدة، وستينا كانت وقتها في حوالي الرابعة أو الخامسة والعشرين. توقفنا وتكلمنا. أخبرتُها أن زوجتي حامل، وهي أخبرتني عما كانت تفعله، ثم قبّلتُها قبلةَ الوداع، وهذا كل ما في الأمر. بعد أسبوع وصلني هذا الخطاب على عنوان الجامعة. كان مؤرخًا. هي التي أرّخته. هنا- '18، من أغسطس، 1954.' ' عزيزي كولمن، سعدتُ للغاية أن أراك في نيويورك. وبقدر ما كان لقاؤنا قصيرًا، إلا أنني بعد لقائنا شعرتُ بحزن خريفيّ، ربما لأن السنوات الست منذ التقينا لأول مرة أوضحت لي على نحو بشع كم من الأيام ضاعت من عمري. تبدو في أحسن حال، وأنا مسرورة لأنك سعيد. كما أنك تصرفتَ بنبالة. لم تنقضّ عليّ. وهو الشيء الذي فعلته (أو يبدو كذلك) حينما التقيتك أول مرة وكنتَ قد استأجرتَ غرفة بدروم في شارع سوليفان. هل تذكر ذلك؟ كنتَ ماهرًا في الانقضاض على نحو لا يُصدق، تقريبًا مثلما يفعل الطائر حينما يطير فوق أرض أو بحر ويراقب شيئًا يتحرك، شيئًا يتفجّر بالحياة، يهبط الطائر، يركّز بصره جيدًا، ينقضُّ

[20]- Psyche إلهة رومانية. من اسمها اشتق علم النفس Psychology. حينما تزوجت كيوبيد أنجبا الفاتنة فولوبتس Voluptas حسب الميثولوجيا الرومانية. (المترجمة).

عليه- يتعلّق به- ثم يلتهمه. حينما التقينا أدهشتني طاقتك المُحلّقة. أذكرُ حينما دخلتُ غرفتك للمرة الأولى، حينما وصلتُ، جلستُ على مقعد، وأنت رحتَ تمشي عبر الغرفة من مكان إلى آخر، تتوقف بين الحين والحين لتجثم فوق مقعد أو أريكة. كانت لديك أريكة مليئة بالفئران تشبه أرائك المنظمات العسكرية، كنتَ تنام عليها قبل أن نقرر التبرع بها إلى الماتريس. قدّمتَ لي شرابًا، ناولتني إياه وأنت تتفحصني بنظرة ملؤها العجب والفضول، كأنني نوعٌ من المعجزات لها يدان تقدران على أن تحملا الكأس، ولي فمٌ على وشك الاحتساء، كأنني تجسّدتُ على هيئتي تلك فقط في غرفتك، قبل يوم واحد من لقائنا في الطريق الفرعي. كنتَ تتكلم، تسأل، وأحيانًا تجيب الأسئلة، بطريقة جادة للغاية لكن جزلة، وأنا كنت أبذل كل جهدي لكي أتكلم أيضًا لكن الكلام لم يكن يأتيني بيسر. لذلك رحتُ أحدّق فيك بالمقابل، مستغرقة في الانتباه والإدراك أكثر كثيرًا مما كنت أتوقع أن أفهم. لكنني لم أستطع أن أجد الكلمات لأتكلم وأملأ الفراغ الذي شكّلته حقيقةُ أنكَ بدوت جذابًا بالنسبة لي وأنني كنتُ جذابة بالنسبة لك. رحتُ أفكر: أنا لستُ مستعدة. لقد وصلتُ للتوّ إلى هذه المدينة. ليس الآن. لكنني سوف، مع مرور بعض الوقت، أتبادل معه الحديث، إذا ما فكرتُ فيما أود أن أقوله. (‘مستعدةٌ’ لأي شيء، لا أعرف. ليس وحسب ممارسة الحب. بل مستعدةٌ لأن أكون.) لكنك بعد ذلك ‘انقضضتَ’ يا كولن، تقريبًا من منتصف الغرفة، إلى حيث كنتُ أجلس، أصابني الذهول لكنني كنتُ مبتهجة. كان هذا سابقًا لأوانه، لكنه لم يكن.’"

توقف كولن عن القراءة حينما سمع، عبر الراديو، المقطع الأول من أغنية "مسحورًا، قلقًا، وحائرًا" بصوت سيناترا. " أريدُ أن أرقص،" قال كولن. " أتودّ أن ترقص؟" ضحكتُ. لا، لم يكن هذا هو الشخص الشرس، الممرور، المستعد للعراك والانتقام، رجل الـ *Spooks*، المنصرف عن الحياة والمهووس بها- لم يكن هذا حتى رجلاً آخر. بل أن هذه روحُ أخرى. روحُ صبيّ صغير. حصلتُ اليوم إذنْ على صورة قوية، من خلال خطاب ستينا وأيضًا من خلال كولن، بلا قميص، وهو يقرأ الخطاب، صورة ترسم لي بوضوح كيف كان كولن سيلك فيما مضى. قبل أن يغدو العميد الثائر، قبل أن يغدو بروفيسور الكلاسيكيات الجاد- وقبل دهر من أن يصبح منبوذَ جامعة أثينا- لم يكن وحسب تلميذًا مجتهدًا في الدراسة بل ولدُ جذاب ومُغوٍ أيضًا. مثير. ماكر. وبه شيء من الشيطنة كذلك، له أنفُ أفطس، وقدمُ نعجة. كان كولن سيلك كلَّ ذلك ذات مرة، في قديم الزمن، قبل أن تحدث تلك الأحداث الخطرة.

"بعدما أسمع الجزء المتبقي من الخطاب،" هكذا أجبتُ على دعوته للرقص. "اقرأْ عليَّ بقيةَ خطاب ستينا."

"حينما التقينا كان لها ثلاثة شهور خارج مينيسوتا. فقط نزلتُ إلى الطريق الفرعي وعدتُ بها معي. حسنٌ، كان عام 1948، تذكّرْ هذا." أخبرني، ثم عاد إلى خطابها: "'كنت مأخوذةً تمامًا بك، سوى أنني كنتُ قلقة لأنك ربما تراني صغيرة جدًّا؛ نوعًا من فتيات أواسط أمريكا غير المثيرات، غير الملفتات للنظر، بالإضافة إلى أنكَ كنت بالفعل تواعد واحدة 'أنيقة ولطيفة وجميلة'، رغم أنك أخبرتني، بابتسامة مكتومة: 'لا أظن أننا سنتزوج.'، 'لمَ لا؟' سألتُكَ. 'ربما أضجرُ،' أجبتَ، لكي تتأكد من أنني لن أفعل أيَّ شيء يضجرك. حسنًا، هذا كل شيء. هذا يكفي. يجب ألا أزعجك أكثر. أعدك ألا أفعل مجددًا. انتبه لنفسك. انتبه لنفسك. انتبه لنفسك. انتبه لنفسك. المُغرمةُ بك، ستينا'"

"حسنٌ،" قلتُ له، "ذاك هو عام 1948 بالنسبة لك."

"تعال، هيا نرقص."

"على ألا تغنّي داخل أذني."

"تعالَ. انهضْ."

ماذا بحق الجحيم، رحتُ أفكر لنفسي، سرعان ما سنموت، ولكنني نهضتُ، وهناك في الشرفة بدأنا كولمن سيلك وأنا نرقص معًا رقصة فوكس تروت[21]. كان هو الذي يقود، وأنا، بأفضل ما يمكنني، رحتُ أتبعه. تذكرتُ ذلك اليوم الذي اندفع فيه داخل الاستوديو الخاص بي بعدما أتمّ مراسم دفن آيريس وأخبرني، وهو فاقد عقله بسبب الغضب والحزن، أن عليّ أن أكتب من أجله كتابًا يفضح كل السخف الجنوني في قضيته، ذاك الذي انتهى بمقتل زوجته. ظنَّ المرءُ وقتها أن هذا الرجل أبدًا لن يتذوق لجنون الحياة طعمًا بعد ذلك، وأن هذه الروح اللعوب داخله والقلب المرح قد تدمرا وفُقدا نهائيًا، مع ضياع الوظيفة، والسمعة، والزوجة الهائلة. ربما لذلك لم يدُر بخلدي حتى أن أضحك وأن أدعه، إذا ما أراد، يرقص حول الشرفة وحده، فقط أن أضحك وأستمتع بمشاهدته- ربما لذلك أعطيته يدي وتركته يضع ذراعه حول ظهري ليدفعني على نحو حالم حول الأرضية ذات البلاط الأزرق، لأنني كنت هناك ذلك اليوم حينما كان جثمانها لا يزال دافئًا ورأيته كيف كان يبدو يومها.

"أرجو ألا يمر أحدُ سائقي شاحنات إطفاء الحريق الآن،" قلتُ.

"نعم،" قال. "لا نريد أيّ إنسان ينقر على كتفي ويسأل: هل لي أن أقاطعكما؟"

وشرعنا في الرقص. لم يكن من شعور فيزيقيّ في الأمر، ولكن، لأن كولمن كان لا يرتدي سوى شورت الجينز وحسب ويدي كانت مستقرةً على ظهره الدافئ كأنما هو ظهرُ كلب أو حصان، فلم يكن الأداء مازحًا تمامًا. ثمة صدقٌ نصفُ جاد في قيادته

---

[21] - fox trot رقصة ابتكرت في أمريكا عام 1914. (المترجمة)

الرقص على الأرضية البلاط، ناهيك عن الفرح الطائش بأنك لا تزال على قيد الحياة، عَرَضًا وعلى نحو أخرق وبلا أي سبب وجيه حدث واكتشفتَ أنكَ على قيد الحياة- ذلك النوع من البهجة التي سبق وجرّبتها وأنت طفل حينما بدأت تتعلم للمرة الأولى أنك تعزف نغمةً بالمشط وورق التواليت. كان ذلك حينما جلسنا ليخبرني كولِن عن المرأة. "لديّ علاقةٌ عاطفية يا ناثان. لدي علاقة مع امرأة في الرابعة والثلاثين من عمرها. ليس بوسعي أن أخبرك ماذا فعلت بي هذه العلاقة." "للتو انتهينا من الرقص- ليس عليك أن تحكي."

"كنتُ أظنُّ أنني لم أعد قادرًا على فعل أي شيء في أي شيء. لكن حينما انبعث ذلك الشيء للحياة في لحظة متأخرة، من مكان مجهول، وعلى غير توقع على الإطلاق، وحتى على غير رغبة، أن يعود إليك مجددًا ولا شيء بوسعه أن يخفف من سطوته، حينما لم تعد شابًا يكافح في الثانية والعشرين من عمره، ولم تعد منخرطًا بعمق في صخب الحياة اليومية وفوضاها... حينما يكون هكذا الأمر..."

"وحينما تكون هي في الرابعة والثلاثين."

"ومشتعلة. امرأة مشتعلة. حولّت الجنسَ إلى رذيلة من جديد."

"الحسناءُ الجميلة دون رحمة جعلتك عبدًا."[22]

"يبدو هذا. سألتُها: 'كيف يبدو الأمرُ بالنسبةِ لكِ مع رجل في الواحدة والسبعين؟'، فقالت لي: 'الجنس ممتازٌ مع رجل في الواحدة والسبعين. يؤدي الأمرَ بأسلوبه الخاص ولا يقدر أن يغيّره. بوسعك أن تعرف ما هو بالضبط وماذا سيفعل. لا مفاجآت.'"

"من أين أتت المرأةُ بكل تلك الحكمة؟"

"المفاجآت. أربع وثلاثون سنةً من المفاجآت الهمجية أكسبتها الحكمة. لكنها حكمةٌ ضيقة جدًا ولا اجتماعية. بل وهمجية أيضًا. حكمة مَن لا ينتظرُ شيئًا. تلك هي حكمتها، وذاك هو كبرياؤها، لكنها حكمة سلبية، ليست من النوع الذي يبقيك على المسار يومًا بعد يوم. هي امرأة حياتُها تحاول أن تسحقها طالما هي حيّة. أيًّا ما كان ما تعلمته نتج عن ذلك."

رحتُ أفكر، لقد وجد كولِن أخيرًا شخصًا يستطيع أن يتكلم معه... ثم فكرت، وأنا أيضًا. في لحظةَ أن يشرع رجل في الحديث معك حول الجنس، فإنما يخبرك بشيء يخصكما معًا. تسعون بالمائة من الوقت لا يحدث هذا، وعلى الأرجح هذا موجود لأنه لم يحدث، رغم أنك لو لم تستطع أن تحقق قدرًا من الصراحة في الكلام عن الجنس،

---

[22]- La Belle Dame sans Merci hath thee in thrall- أغنية شهيرة كتبها الشاعر البريطاني John Keats عام 1819. واستخدم في مطلعها عنوان قصيدة فرنسية كتبها آلين كارتييه في القرن الخامس عشر. (المترجمة)

واخترت أن تتصرف كما لو كان غير موجود حتى في ذهنك، ستكون الصداقة الذكورية بذلك غير مكتملة. معظم الرجال لا يجدون مثل هذا الصديق. فهذا ليس شائعًا. على أنه لو تحقق، حينما يجد رجلان نفسيهما على اتفاق حول هذا الجزء الحيوي في أن تكون رجلاً، غير خائف من المُساءلة، من الشعور بالعار، من الحسد، أو الانهزام، واثقًا من أن ثقتك لن تُخان، فإن علاقتكما الإنسانية ستكون متينة جدًا، وسوف يتحقق نوعٌ من الألفة غير المتوقعة. هذا على الأرجح لم يكن معتادًا بالنسبة له، كنت أفكر، ولكن بما أنه جاء إليَّ في أسوأ لحظاته، محتشدًا بالكراهية التي رأيتها تسمّمه على مدار شهور، فقد شعر بالحريّة التي تشعر بها حين تكون مع شخص ما قد شاهدك لحظةَ مرض بشع من زاوية فراشك. لم يشعر برغبة ملحّة في التفاخر بكمّ الراحة الهائلة المتولدة من عدم إخفائه شيئًا جديدًا مربكًا جَدّ في ميلاده الجديد، ذاك الذي حدث في شيخوخته.

"أين وجدتها؟" سألتُه.

"ذهبتُ لآخذ بريدي في نهاية اليوم وكانت هناك، تمسح الأرضية. إنها الشقراء النحيلة التي تنظف مكتب البريد أحيانًا. هي من مجموعة الحرّاس النظاميين في كلية أثينا. حارسة بوابة المكان الذي كنت يومًا عميده. امرأة لا تملك أي شيء. فونيا فيرلي. ذاك اسمها. فونيا لا تملك شيئًا على الإطلاق."

"لماذا لا شيء لديها؟"

"كان لديها زوجٌ. كان يضربها بفظاعة حتى انتهى بها الأمر في غيبوبة. كان لديهما مزرعة ألبان. وكان يديرها على نحو سيئ للغاية حتى أفلست. كان لديها طفلان. تسرب الغازُ من السخان، وتسبب في حريق، فاختنق الطفلان. فيما عدا رماد الطفلين الذي تحتفظ به في علبة صغيرة تحت سريرها، لا تملك شيئًا عدا سيارة تشيفي موديل 83. المرة الوحيدة التي شاهدتُها فيها تكاد تبكي كانت حينما أخبرتني: 'لا أدري ماذا أفعل بالرماد.' كارثة قروية عصرت فونيا حتى جفّت من دموعها. بدأت حياتَها كطفلة ثرية. نشأت في بيت كبير رحب بجنوب بوسطن. مدفأة في كل غرفة من غرف النوم الخمس، تحفٌ قيمة، لوحات صينية فخمة- كل شيء عتيق وفخم، بما في ذلك العائلة. كان من الممكن أن تكون راقيةَ الحديث على نحو مذهل إذا ما أرادت ذلك. لكنها سقطت إلى أدنى مراتب الحضيض على السلّم الاجتماعي، سقطت من أعلى العُلا حتى غدت الآن حقيبة مدهشة من الخليط اللفظي. خسرت فونيا اللقبَ الذي كان ينتظرها. هبطت طبقيًا. ثمة ديمقراطيةٌ حقيقية في معاناتها."

"ما الذي فعل بها ذلك؟"

"زوجُ أمـها هو الذي فـعل. شرٌّ البرجـوازية العليا فـعل. انفـصل أبـواها وهـي في الخامسة. الأبُ الناجح ضبط الأمَّ الحسناء في علاقة غرامية. كانت الأمُّ تحب المال، بعد طلاقها تزوجت المال، وزوجُ الأم الثري لم يكن يدع فونيا في حالها. راح يتحرش بها منذ اليوم الأول. لم يقدر أن يمسك نفسه عنها. تلك الطفلة الشقراء الملائكية، يتحرش بها- حاول أن يضاجعها فهربت. كانت في الرابعة عشرة. أمها لم تصدقها. أخذوها إلى الطبيب النفساني. فأخبرت فونيا الطبيبَ بما حدث، وبعد عشر جلسات كان الطبيب في جانب زوج الأم. 'أخذ جانب أولئك الذين يدفعون أتعابه،' تقول فونيا: 'مثله مثل الجميع' أقامت الأمُّ علاقة مع الطبيب فيما بعد. تلك هي الحكاية، كما حكتها لي، عما ألقى بها إلى الحياة الخشنة لكي تصنع طريقها على طريقتها. هربت من البيت، من المدرسة الثانوية، ثم نزحت نحو الجنوب، وعملت هناك، عملت كل ما يمكن عمله، وفي العشرين تزوجت هذا الفلاح، الأكبر منها سنًّا، فلاح في مزرعة ألبان، طبيب بيطري في فيتنام، كانت تفكر أنهما لو عملا بكد، وربيا طفليهما وأنجزا أعمال المزرعة سيمكنها أن تعيش حياة طبيعية مستقرة، حتى وإن كان الزوج في الجانب الخامل. بل خاصةً لو كان الزوج في الجانب الخامل. ظنّت أن بوسعها أن تكون أفضل بما أنها ذكية. ظنت أن هذه ميزتها. وكانت مخطئة. كل ما صنعاه معًا لم يكن سوى المشاكل. أفلستِ المزرعة. وكان يضربها طوال الوقت. يضربها حتى تُثخَن بالجراح. أتعرف كيف تصف النقطةَ العليا في زواجها؟ إنه الحدثُ الذي تطلق عليه فونيا 'الحرب العظمى للغائط الدافئ.' في إحدى الأمسيات كانا في المزرعة بعد حلب الأبقار، يتشاحنان حول شيء ما، بقرةٌ جوارها أخرجت كمية ضخمة من الغائط، فالتقطت فونيا حفنةً ملء اليد من الغائط وقذفتها في وجه لِستر. فقذفها بحفنة مماثلة، وهكذا بدأت. قالت لي: 'حرب الغائط الدافئ ربما كانت تلك هي أفضل لحظة عشناها معًا.' في الأخير كانا كلاهما مغمورين بغائط البقرة ويزأران بالضحك، وبعد استحمامهما بخرطوم الحظيرة، صعدا إلى المنزل ومارسا الجنس. لكن ذلك كان يحمل شيئًا جيدًا إلى أبعد حد. لم يمثل الجنس واحدًا على مئة من بهجة الحرب. ممارسة الجنس مع لِستر لم تكن مبهجة دائمًا- وفق فونيا، لم يكن يعرف كيف يمارسه. 'كان أكثر خمولاً من أن يضاجع جيدًا.' حينما أخبرتني أنني رجل كامل، أخبرتها أنني أفهم لماذا هي ترى ذلك، ربما لأنني جئتُ من بعده."

"وحربُها مع لِستر والحياة بالغائط الدافئ وهي بعدُ في الرابعة عشرة هو الذي جعل منها ما هي عليه الآن في الرابعة والثلاثين،" سألتُه، "وبالإضافة إلى الحكمة الهمجية؟ هل هي خشنة؟ داهية مخادعة؟ ساخطة؟ مجنونة؟"

"حربُ الحياة جعلتها امرأة خشنة، بالتأكيد خشنة جنسيًّا، لكنها لم تجعل منها مجنونة. على الأقل لا أظن ذلك بعد. ساخطة؟ إن كان ثمة سخط- ولماذا لا يكون؟- إن كان ثمة فإنه سخطٌ خفيّ. غضبٌ دونما غضب. وبالنسبة لامرأة مثلها عاشت دون حظ نهائيًّا، فإنها لم تَبدُ لي متفجعةً ساخطة- على الأقل لم تُبدِ لي هذا أبدًا. ولكن فيما يخص الدهاء، فلا. تقول لي أحيانًا أشياء تبدو دهاءً. تقول: 'ربما عليك أن تفكر فيّ كرفيقة في نفس عمرك حدث أن بدا شكلها أصغرَ سنًّا. أظن أن هذا ما أنا عليه.' حينما سألتها: 'ماذا تريدين مني؟' قالت: 'صُحبة ما. ربما بعض المعرفة. البهجة. الجنس. لا تقلق. هذا كل ما في الأمر.' وحينما أخبرتُها مرة أنها أكثرُ حكمةً من سنوات عمرها، أجابتني: 'إنني أكثرُ غباء من سنوات عمري.' كانت بالتأكيد أكثر ذكاء من لِستر، لكن داهية مخادعة؟ كلا. شيءٌ ما في فونيا ظلّ دائمًا في الرابعة عشرة وهو أقصى ما يمكن أن تجده عندها من دهاء. كانت لها علاقة مع رئيسها، الرجل الذي وظّفها. سموكي هولينبيك. وأنا الذي وظّفتُه- الرجل الذي يدير معمل الفيزياء بالكلية. كان سموكي نجم كرة قدم هنا. قديمًا في السبعينيات كنت أعرفه كطالب. الآن هو مهندس مدني. وظّف فونيا في هيئة الحرّاس، وحتى حينما أعطاها الوظيفة، كانت تعلم ما في نيّته. كان الرجل منجذبًا لها. كان حبيسَ زواج غير مثير، لكنه لم يغاضبها من أجل هذا- لم يُظهِر لها تعاليًا أو ازدراءً، لم يتساءل: لماذا لا تستقرين، لماذا تظلين متسكعة تدورين وتمارسين العُهر؟ لا ترفُّعَ برجوازيًّا من قِبل سموكي نحوها. كان سموكي يفعل كل شيء في حياته على النحو الصحيح ويؤديه بجمال- زوجةٌ، أطفال، أطفال خمسة، متزوج كما يليق برجل، بطلٌ رياضي ما يزال في فلك الجامعة، محبوبٌ وله شعبية في البلدة- ولكن لديه موهبة: أنه قادر أيضًا على الخروج من كل هذا. لن تصدق هذا وأنت تتكلم معه. بروفيسور أثينا المتوازن المتزن، يؤدي كل شيء على النحو المفترض تأديته به. يبدو كمَنْ استثمر حياته بنسبة مائة بالمئة. عليك أن تتوقع أنه كان يفكر: تلك العاهرة الغبية وحياتها المنحلّة؟ فلتخرج من مكتبي تلك المومس. لكنه لم يفعل. عكس كل شخص آخر في أثينا، لم يكن مسجونًا في أسطورة سموكي التي تمنعه من التفكير: نعم، هذا فَرْجٌ حقيقي لامرأة أود أن أضاجعه. راح يضاجعها يا ناثان. جلب فونيا إلى فراشه مع امرأة أخرى من طاقم الحراسة. كان يضاجعهما معًا. واستمر الحال ستة أشهر. ثم انضمت للعرض امرأةٌ وافدة، مطلقة حديثًا، جديدة على المشهد المحليّ. سيرك سموكي. سيرك سموكي السريّ ذو الحلبة الثلاثية. ولكن حينئذ، بعد ستة أشهر، رمى بها- أخرج فونيا خارج الدائرة وألقاها بعيدًا. لم أكن أعلم شيئًا من كل هذا حتى حكت لي. وحكت لي لأنها في إحدى الليالي في الفراش، غامت عيناها في

رأسها ونادتني باسمه. همست لي: ‘سموكي.’ كانت راقدة فوق سموكي القديم. علاقتها الثلاثية معه أعطتني فكرة أفضل عن السيدة التي كنت أتعامل معها. رفع هذا من مستوى الرهان. سبب لي صدمة في الواقع- لم تكن لعبة هواة إذن. حينما سألتها كيف كان سموكي ينجح في اجتذاب قبيلة نسائه، كانت تجيبني: ‘بقوة قضيبه’، ‘فسّري’ سألتُها، فأخبرتني: ‘تعرف كيف يبدو الأمر حينما يدخل فرجُ امرأة حقيقي ليتمشى في غرفة ما، الرجال يعرفون ذلك؟ حسنٌ، الشيء ذاته يحدث بالمقابل. مع بعض الناس، ليس مهمًا شكل القناع، عليك أن تدرك ما الذي خُلقوا أولئك من أجل أن يفعلوه.’ الفراش هو المكان الوحيد الذي يتجلى فيه دهاء فونيا يا ناثان. نوع من الدهاء الجسديّ العفوي كان يلعب دور القيادة في الفراش- القيادة الثانية تتم بالانتهاك الأرعن. في الفراش لا شيء يشتت انتباه فونيا. لحمُ بشرتها له عيون. لحمها يرى كل شيء. في الفراش تكون فونيا كيانًا متماسكًا متوحدًا مفعمًا بالقوة، كيانًا متعته في القفز فوق الحدود. في الفراش تتحول فونيا إلى ظاهرة عميقة. ربما كان هذا بفضل هِبة التحرش. بينما حينما كنا ننزل إلى المطبخ، أمزج بعض البيض ونجلس معا للأكل، تتحول إلى طفلة. ربما هذا بفضل هبة التحرش أيضًا. أنا في رفقة طفلة حائرة العينين، مهلهلة، شاردة الذهن مشوشة. لا يحدث هذا في مكان آخر. لكن حينما نأكل، ها نحن ذا: أنا وطفلتي. تبدو كأنما هي بكامل هيئة الابنة التي بقيت بداخلها. لا تقدر أن تجلس منتصبة في مقعدها، لا تقدر أن تربط معًا جملتين ليس من رابط بينهما. كل رباطة الجأش الظاهرية بالجنس والتراجيديا، كل هذا يختفي، وأراني جالسًا هناك أريد أن أقول لها: ‘شدّي قامتك وانتصبي وأنت تجلسين إلى المائدة، ابعدي كُمَّ روب حمامي عن الصحن، أنصتي لما أقول، تبًا، انظري إليّ وأنت تتكلمين.’"

"هل تقول ذلك؟"

"لا يبدو الكلام مقبولاً. لا، لا أقول ذلك- لا أقول مادمت أود الحفاظ على كثافة الحال الموجودة. أفكر في تلك العلبة الصغيرة تحت فراشها، تلك التي تحتفظ فيها برماد لا تدري ماذا تفعل به، فأود أن أقول: ‘مضى عامان. حان الوقت لتواريها التراب. إذا لم تقدري أن تدفنيها تحت الأرض، اذهبي إلى النهر وانثري الرماد من فوق الجسر. دعي الرماد يطفو فوق صفحة الماء. دعي الطفلين يذهبان. سوف آتي وأساعدك. سنفعل ذلك معًا.’ لكنني لستُ والدَ هذه الابنة- ليس هذا الدور الذي ألعبه هنا. لستُ معلّمها. لم أعد بروفيسور لأي إنسان. لقد تقاعدتُ من التدريس للناس، توقفتُ عن تصحيح مسارات الناس، عن نُصح الناس وتنويرهم. لستُ إلا رجلاً في الواحدة والسبعين مع عشيقة في

الرابعة والثلاثين؛ هذا يُضعف مؤهلاتي، في كومنولث أوف ماساتشوستس[23] بشأن مهمة تنوير أيّ إنسان. أتعاطى حبوبَ الفياجرا يا ناثان. هناك *La Belle Dame Sans Merci* 'الحسناءُ الجميلة دون رحمة'. أدين بكل تلك الفتنة والشغب والمتعة للفياجرا. دون الفياجرا لم يكن لشيء من هذا أن يحدث. دون الفياجرا كنتُ سأعيش صورة العالَم الذي يليق بعمري وأعايشُ أهدافًا مغايرة تمامًا. دون الفياجرا كان سيكون لديّ وقارُ رجل نبيل مسنٍّ خال من الرغبة يسلك النهجَ القويم. لم أكن لأسلك سلوكًا مشينًا. لم أكن لآتي شيئًا غير لائق، أخرق، طائشًا، كارثيًا لكل المتورطين فيه. من دون الفياجرا، كنتُ سأمضي خلال سنوات الانحدار الأخيرة، لأطوّر المنظور المجهول الرحب لرجل شريف مثقف واسع الخبرة تمّ تسريحه من الخدمة، رجل منذ زمن بعيد كان قد أقلع عن مباهج الحياة الحسيّة. كنتُ سأستمر في رسم الاستخلاصات الفلسفية العميقة وضخّ الأخلاقيات الوازنة في عقول الشباب، بدلاً من أن أضع نفسي في حال الطوارئ الأبدية التي هي الخَدَر الجنسيّ. بفضل الفياجرا حدث أن أدركتُ تحولات زيوس[24] الغرامية. هكذا كان يجب أن يطلقوا على الفياجرا. كان لابد أن يطلقوا عليها: 'زيوس'."

هل كان مندهشًا أن وجد نفسه يحكي لي كل هذا؟ أعتقد أنه ربما اندهش. لكنه كان مفعمًا بالحياة للحدّ الذي جعل من الصعب عليه أن يتوقف. دافعه للكلام كان هو الدافع ذاته الذي جعله يراقصني. أجل، أظنُّ ذلك، لم تعد المسألةُ تأليفَ كتاب *Spooks* الذي هو الإنقاذُ الحاسم من الخزي؛ بل هي مضاجعة فونيا. لكن ثمة ما هو أكثر. إنها الرغبة في إطلاق الوحش الهمجيّ داخله، إطلاق القوة الحبيسة- لنصف ساعة، لساعتين، لأية مدة تكون، من أجل التحرر والانطلاق نحو الطبيعة. كان زوجًا لمدة طويلة. ولديه أطفال. كان عميدًا للجامعة. لأربعين عامًا كان كولمن سيلك كلَّ ما كان ضروريًا أن يكونه. كان مشغولاً، كونه زوجًا، كونه أستاذًا جامعيًا، معلّمًا، يقرأ الكتب، يحاضر، يصحح الأوراق، يعطي الدرجات، وهذا كل شيء. في الواحدة والسبعين لا تقدر أن تكون جسورًا، لا تكون وحشًا غليظًا مثلما تكون في السادسة والعشرين، بطبيعة الحال. على أن ثمة آثارًا من الهمجيّ، بقايا الشيء الطبيعي- إنه الآن في تماسٍّ مع تلك الآثار المتبقية. وكان سعيدًا بذلك، هو راضٍ بأن يكون في تماس مع تلك الآثار. بل هو أكثر من سعيد- هو مُثارٌ، هو مربوطٌ بعمق بفونيا، بسبب تلك الإثارة. الأسرةُ لا تقدر أن تفعل ذلك، لا فائدة للبيولوجيا بالنسبة إليه بعد الآن. ليست الأسرة، ليست المسئولية، ليس الواجب،

---

[23] - The Commonwealth of Massachusetts، ولاية في نيو-إنجلاند الأمريكية. (المترجمة)

[24] - كبير آلهة الإغريق. (المترجمة).

ليس المال، ليست مشاركة الفلسفة أو محبة الأدب، ليست المناقشات الكبرى للأفكار العظمى. كلا، ما يربطه بفونيا هو الإثارة. غداً قد يُصاب بالسرطان، وقد يتعافى. لكنه اليوم، لديه هذه الإثارة.

لماذا يخبرني؟ لكي يتحرر من الأمر بحُريّة، فلابد أن يعرف الأمرَ أحدٌ. هو الآن حرٌّ في أن يتحرر، فيما أعتقد، لأن شيئًا ما ليس على المحكّ. لأنه ليس من مستقبل. لأنه في الواحدة والسبعين وهي في الرابعة والثلاثين. إنه في خضمّ تلك التجربة ليس من أجل التعلّم، ليس من أجل التخطيط، بل من أجل المغامرة؛ هو في خضمّ التجربة مثلما هي فيها: من أجل الامتطاء. كان قد مُنح الكثير من الحرية بسبب تلك السنوات السبع والثلاثين الفارقة بينهما. رجلٌ مسنٌّ، وللمرة الأخيرة، يتورّط في علاقة جنسية. هل أكثر من ذلك تحريكًا للمشاعر بالنسبة لأي إنسان؟

"بالطبع عليّ أن أسأل،" قال كولن، "ما الذي تفعله فونيا معي. ما الذي يدور في عقلها؟ أتجربةٌ جديدة مثيرة بالنسبة لها، أن تكون مع رجل في عمر جدها؟"

"أفترضُ وجودَ ذلك النموذج من النساء،" قلتُ، "اللاتي يُعَدُّ ذلك بالنسبة لهن تجربةً مثيرة. ثمة نماذجُ عديدةٌ أخرى من النساء، فلماذا لا يوجد ذلك النموذج؟ انظرْ، بالتأكيد ثمة أمكنة ما يا كولن، وكالة فيدرالية مثلاً تتعامل مع الرجال المسنّين، وهي جاءت من تلك الوكالة."

"وأنا شابٌّ،" قال كولن، "لم يحدث أن تورطتُ أبدًا مع نساء دميمات. في سلاح البحرية كان لي صديق، اسمه فريللو، وكانت الفتيات الدميمات تخصصه. جنوبًا في نورفولك، إذا ما ذهبنا للرقص في الكنيسة، أو إذا ما ذهبنا مساء إلى مؤسسة الخدمة العامة[25]، يتجه فريللو رأسًا إلى أقبح فتاة. وحينما أضحك عليه، كان يخبرني بأنني لا أدرك مدى الذي أفقده بإقصاء الدميمات عن دائرة اهتمامي. إنهنّ محبطات، كان يقول، لسن جميلات مثل الإمبراطورات اللواتي أختارهن أنا، لذلك سوف يفعلن كلَّ ما يشاء الرجل. معظم الرجال أغبياء، يقول، لأنهم لا يدركون ذلك. لا يفهمون أنك إذا ما اقتربت من المرأة الأكثر دمامة، فإنها ستغدو الأكثر استثناءً. فإذا ما استطعت أن تكتشفها، فهذا كل شيء. فقط إذا ما نجحت. إذا ما نجحت في اكتشافها، فلن تعرف ما الذي تبدأ به أولاً، ستجد أنها تختلج بشدة. كل ذلك لأنها دميمة. لأنها أبدًا لا تُختار. لأنها تجلس دائمًا وحيدةً في الركن بينما كل الفتيات يرقصن. وهكذا الحال حينما تكون رجلاً عجوزًا. تكون كمثل الفتاة الدميمة تلك. تكون في الركن بينما الرقصة دائرة."

---

[25]- USO – United Service Organizaton- مؤسسة خاصة غير ربحية تقدم خدمات ترفيهية ومعنوية لجنود الجيش الأمريكي. (المترجمة).

"وبهذا تكون فونيا هي صديقك فريللو."

ابتسم كولن وقال: "تقريبًا."

"حسنٌ، مهما كان ما قد يحدث من أمور أخرى،" قلتُ له، "فالفضلُ للفياجرا في أنك لم تعد تعاني عذاب تأليف ذلك الكتاب." "أعتقد ذلك،" قال كولن. "أعتقد أن هذا حقيقي. ذلك الكتاب الغبي. وهل أخبرتك أن فونيا لا تعرف القراءة؟ اكتشفتُ ذلك حينما اتجهنا بالسيارة إلى فيرموت في إحدى الليالي للعشاء. لم تستطع قراءة قائمة الطعام. طوّحتْ بها جانبًا. لها طريقتُها الخاصة حينما تود أن تبدو مستخفّةً بشيء ما؛ ترفع نصف شفتها العليا، ترفعها بأقصى ما في وسعها، ثم تحكي ما في رأسها. على نحو مستخفٍّ للغاية، تقول للنادلة: هاتي لي نفس ما سيطلب.‘"

"لكنها ذهبت للمدرسة حتى بلغت الرابعة عشرة، فكيف حدث ألا تقرأ؟"

"يبدو أن المقدرة على القراءة تلاشت مع الطفولة حينما بدأت في التعلّم. سألتُها كيف حدث هذا، لكن كل ما أجابتني به كان ضحكة. ‘بسهولة’، قالت فونيا. الليبراليون المتحررون الطيبون في أثينا حاولوا تشجيعها على دخول برنامج محو الأمية، لكن فونيا لم تفعل. ‘وأنتَ ألن تحاول أن تعلمني. افعلْ معي ما تشاء. أيّ شيء،’ أخبرتني بذلك تلك الليلة، ‘لكنْ لا تفعل هذا الهراء. رديءٌ للغاية أن تضطر إلى سماع الناس يتحدثون. ابدأْ في تعليمي القراءة، اجبرْني على ذلك، ادفعْ بالقراءة داخلي، وستكون أنت مَن دفعني نحو الجنون.’ طوال طريق العودة من فيرمونت، كنتُ صامتًا، وهي كذلك. ليس قبل وصولنا إلى البيت حدث أن نطق أحدنا بكلمة للآخر. ‘لستَ قادرًا على مضاجعة امرأة لا تعرف القراءة،’ قالت فونيا، ‘سوف تتركني لأنني لستُ سيدةً محترمة تعرف القراءة. سوف تقول لي: ‘تعلّمي القراءةَ أو اذهبي.’ ‘لا،’ أخبرتُها، ‘سوف أضاجعك بعنف أكثر لأنك لا تقرئين.’ ‘حسنًا’، قالت، ‘كلانا يفهم الآخر. لا أمارسُ الجنس كما تفعل أولئك الفتيات المتعلمات ولا أريد أن يُمارَسَ معي الجنسُ كما يُمارَس معهن.’ ‘سوف أضاجعك، لأنكِ كما أنتِ.’ قلتُ. ‘تلك هي بطاقة تعريفي،’ قالت. واستغرقنا في الضحك وقتها. لفونيا ضحكةُ ساقيةِ بار تحفظ مضرب البيسبول جوار قدمها احترازًا من المشاكل، وبذا كانت تضحك تلك الضحكة التي تخصها، الضحكة المتكسرة، كنت أراها تضحك بكل جسدها- أتعرف، لها ضحكة سهلة خشنة كما لامرأة لها ماض- وكانت أثناء ذلك تفك أزرار بنطالي. لكنها كانت محقّة فيما يخص قراري أن أهجرها. طوال طريق العودة من فيرمونت كنت أفكر تحديدًا فيما قالت هي إنني أفكر فيه. لكنني لن أفعل. لن أفرض عليها فضيلتي الرائعة. ولا على نفسي. انتهى الأمر. أعرف أن هذه الأمور لا تأتي من دون ثمن. أعرف أن لا تأمين تقدر على شرائه مقابل ذلك. أعرف أن

الشيء الذي يجددك بوسعه أن ينقلب عليك فيقتلك. أعلم أن كل خطأ يفعله الرجل دائمًا ما يكون وراءه مُفعِّلٌ جنسيّ. لكن حدث أنني الآن لم أعد أعبأ. أصحو في الصباح، وثمة فوطة على الأرض، ثمة زيت أطفال على الطاولة الجانبية. كيف أتت هذه الأشياء هناك؟ ثم أتذكر. تلك الأشياء هناك لأنني أعيش من جديد. لأني عائد للإعصار. لأن الحال يكون هكذا مع الوجود الحقيقي. لن أهجرها يا ناثان. لقد بدأت أناديها فولوبتس."

بسبب الجراحة التي أجريتها منذ عدة سنوات لاستئصال البروستاتا- جراحة سرطان، تلك التي برغم نجاحها، إلا أنها لم تمرّ دون أعراض جانبية لا يُمكن تفاديها في مثل تلك العمليات مثل تلف العصب وندوب الجراحة- أصبتُ بعجز في التحكم بوظائف القضيب، ولذلك، كان أول ما فعلته بعدما عدت البيت بعد حديثي مع كولمن هو التخلّص من حاشية القطن الماصّ التي أرتديها ليلاً ونهارًا، بعدما انزلقتْ داخل تجويف سروالي الداخلي في الطيّة بين فخذيّ حيث يرقد الكلب الساخن ملفوفًا. بسبب حرارة ذلك المساء، ولأنني لم أكن سأخرج إلى مكان عام أو تجمّع اجتماعي، فقد اكتفيتُ بسروال القطن الداخلي العادي بدلاً من البلاستيكي العازل، وكانت النتيجة أن تسرّب البولُ إلى بنطالي الكاكي. اكتشفتُ بعد عودتي البيت أن لون البنطال قد تغيّر من الأمام وأن شيئًا من الرائحة قد فاح- الشرائح القطنية تلك مُعالَجةٌ كيميائيًّا لامتصاص الروائح، ولكن في مثل ذلك الظرف، ينتج بعض الرائحة. كنتُ مشغولاً جدًّا بحكاية كولمن فأغفلتُ مراقبة نفسي. طوال الفترة التي قضيتها هناك، أحتسي البيرة، أرقص معه، أشهدُ ذلك الصفاء- العقلانية الحدسية والدقة والوضوح التصويري- الذي عمل كولمن على أن يتوسّلها في الحكي لكي يجعل الأمرَ أقلَّ إزعاجًا بالنسبة لي، ولذلك لم أنهض لأفحص نفسي كما اعتدت أن أفعل أثناء ساعات عملي، ومن ثم حدث تلك الليلة ما يحدث لي بين الوقت والآخر.

كلا، مثل تلك الحوادث المخجلة لم تكن تباغتني كثيرًا مثلما كان يحدث في الشهور التالية للجراحة، حينما كنتُ أحاول ترويض نفسي على التعامل مع المشكلة- وحينما، بالطبع، كنت أُمرِّن نفسي على أن أعيش بحريّة ويسر، أن أكون شخصًا بالغًا جافًّا بلا رائحة كما ينبغي لشخص بالغ يستطيع أن يسيطر على وظائف جسمه الأولية، شخصًا عاش بضعة وستين عامًا يمارس حياته اليومية وهو غير مشغول بحال ملابسه الداخلية. على أنني كنت أشعر بغُصّة حزن وقلق لأن عليَّ أن أتعايش مع مشكلة هي الأكثر إزعاجًا وفوضويةً وغير اعتيادية من بين المشاكل، تلك المشكلة التي أصبحت الآن جزءًا

من حياتي، ومازلتُ يائسًا من أن تلك الحالة الوقتية التي يمرُّ بها الأطفال لفترة من حياتهم سوف تنتهي بالنسبة لي.

تركتني الجراحةُ عِنّينًا أيضًا. النظام الدوائي الذي كان جديدًا تمامًا مع صيف 1998، والذي كان للتو قد طُرح بالأسواق، أثبت أنه إكسيرٌ معجزة، يستعيد الوظائف الجنسية لأولئك الأصحاء المسنين مثل كولمن، على إنه كان بلا فائدة لحالتي بسبب التدمير التام الحادث للعصب جرّاء العملية الجراحية. لحالة مثل حالتي لا تقدر الفياجرا على فعل شيء، رغم ثبوت كفاءتها لدى الآخرين، إلا أنني لم أفكر قط في تعاطيها.

أودّ أن أوضح أن انعزالي عن العالم لم يكن بسبب العجز الجنسيّ. على العكس. فقد كنت قد أمضيتُ بالفعل نحواً من ثمانية عشر شهرًا في العزلة والكتابة هنا بكوخي ذي الغرفتين في بيركشاير حينما، بعد الفحص الطبيّ الدوري الروتيني، وصلني تشخيصٌ مبدئيٌّ يفيد إصابتي بسرطان المثانة. وبعدها بشهر، بعد إجراء اختبارات المتابعة، ذهبتُ إلى بوسطن لعيادة أخصائي البروستاتا. ما أريد قوله هو إنني مع انتقالي إلى هنا كنتُ بالفعل قد غيّرتُ بتمهّل علاقتي مع السُّعار الجنسيّ، وليس بسبب التحذير الطبيّ أو، نتيجةَ مرضي، وقتَ بدأ انتصابي يضعف بحدّة مع الوقت، بل لأنني لم أعد قادرًا على تحمّل تكاليف صخب تلك الأمور، لم أعد قادرًا على تدبير أمور مثل الدهاء، القوة، الصبر، الخداع، السخرية، الوجد، الغيرة، الأنانية، المرونة- أو الخشونة، أو الشراسة، أو الزيف، المراءاة، الازدواجية، الاحتراف الإيروتيكي- لكي أتعامل مع منظومة ضلالات تلك الأمور ومعانيها المتناقضة. كنتيجة لذلك، كنتُ قادرًا على أن أخفف قليلاً من وطأة صدمة ما بعد الجراحة من حيث احتمالية الإصابة بالعجز الجنسي الدائم بأن أتذكر أن كل ما فعلته الجراحةُ هو أن جعلتني أُثبِّتَ حالَ الهجران التي كنت قد وهبت نفسي لها طواعيةً. لم تفعل الجراحةُ أكثر من أن أكّدت قرارًا كنتُ قد اتخذته بنفسي عن اقتناع من قبل، والآن تحت وطأة مرض بطول العمر. ولكن في وقت القوة الجنسية الكاملة الفتيّة وغير المريحة، حينما يجعلك الهوس الجنسي الذكوري الجسور تعيدُ الفعلَ- ثم تعيدُ الإعادةَ ثم تعيدها- لا يوقفه شيء حتى المشاكل النفسية.

حينما أخبرني كولمن عن نفسه وعن فولوبتس(ـه)، تبخرت كلُّ الأوهام المريحة حول الهدوء والسكينة المتحققة بانعزالي عن الناس، وبدأتُ أفقدُ اتزاني تمامًا. في الصباح كنت أرقد في السرير متيقظًا، فاقدَ القوة مثل مخبول يحاول السيطرة على تفكيره، مأخوذًا بالأسى حينما أقارن بين هذين العاشقين وبين حالتي فاقدة القوى. أرقد يقظًا لا أحاول حتى منع نفسي ذهنيًا من استعادة الرعونة الهوجاء التي يرفض كولمن أن

يتخلى عنها. وكانت رقصتي مثل مخصيّ مسكين مع ذلك الشريك الفتيّ المحافظ على حيويته تضربني الآن بسيل من جَلد الذات.

كيف يقول المرءُ: "لا، ليس هذا جزءًا من الحياة،" بينما هو دائمًا جزءٌ من الحياة؟

المادة الملوثة في الجنس، العفن المنعتق الذي يضادّ مثاليةَ النوع البشري ويضمنُ لنا أن نبقى أبدًا واعين بطبيعة كينونتنا.

في منتصف الأسبوع التالي، تسلّم كولمن خطابًا غُفلاً من التوقيع، عرضُه بطول جملة واحدة، رأس الموضوع، والموضوع، مكتوبان بخط يد ثقيل في ورقة طباعة بيضاء كبيرة، الرسالة ذات الاثنتي عشرة كلمة، الحاملة اتهامًا، كانت تملأ الورقة من أعلاها إلى أسفلها:

كل الناس يعلمون
أنكَ تستغلّ جنسيًّا
امرأةً
جاهلةً
في نصف
عمرك.

الكتابة على المظروف والرسالة كانت بحبر بول-بوينت الأحمر. وبالرغم من طابع بريد نيويورك على المظروف، تعرّف كولمن رأسًا على الخط بأنه لشابة فرنسية كانت رئيسة القسم حينما عاد للتدريس بعدما ترك العمادة، كما كانت فيما بعد من بين أولئك المتحمسين لاتهامه بالعنصرية وتوبيخه لإهانة الطالبين الأسودين المتغيبين.

في ملفاته الخاصة بـ *Spooks*، ضمن المستندات العديدة التي تولّدت أثناء قضيته، وجد كولمن نماذجَ لخط يد أكدت مطابقته لخط دلفين روكس، بروفيسور اللغة والآداب، ما يؤكد أنها كاتبةُ الخطاب المجهول. باستثناء طباعتها الكلمتين الأوليين في المخطوطة بدلاً من كتابتهما بخط اليد، فإنها لم تبذل أي جهد من أجل تضليل كولمن عن خطها. ربما بدأت بتلك النية ثم سرعان ما تخلّت عنها أو نسيتها بعد كتابة "كل الناس يعلمون". على المظروف، لم تتعب الأستاذة فرنسيةُ الميلاد نفسَها بأن تتجنب كتابة أرقام (7) في عنوان كولمن والرمز البريدي على الطريقة الأوروبية. هذا الإهمال وعدم الاكتراث الشاذ بإخفاء إشارات تدل على هوية المُرسل الظاهر في خطاب مجهول المصدر، ربما يفسره

أن المرسلة كانت في حالة عصبية حادة لم تسمح لها بالتفكير فيما تفعل قبل أن ترسل خطابها، فيما عدا عدم وضع طابع بريد محليّ- وبتعجل- لكنه بدا بخَتمه بريديًا كأنما قد انتقل من مسافة تزيد عن مئة وأربعين ميلاً جنوبًا قبل إرساله بالبريد. ربما تصورتْ المرسلةُ أن لا شيءَ مميزًا أو مختلفًا بدا في خطها بما يكفي ليتعرف عليه كولن أو يتذكره منذ أيام فترة عمادته؛ ربما أخفقتْ في تذكر الوثائق المتعلقة بقضيته، ملاحظاتها حول لقاءين أجرتْهما مع الطالبة تريسي كمينجز تلك التي مررتها ضمن اجتماعات لجنة تحقيقات الجامعة مع التقرير النهائي الذي يحمل توقيعها. ربما لم تتبين أن اللجنة، بناءً على طلب كولن، كانت قد أمدّته بصورة ضوئية من أصول ملاحظاتها ضمن كافة البيانات المتعلقة بالتهمة المشرعة ضده. أو ربما لم تعبأ بأن يكتشف كولن مَن ذاك الذي كشف سرَّه: ربما أرادت أنْ تسخر منه بهذا التلويح بالتهمة ذي الأسلوب الخشن مجهول المصدر، وكذلك، في نفس الوقت، أنْ تكشف له أن التهمة معلومةٌ للجميع حتى أن الاتهام جاء من قِبَل شخص ما حتى الآن مازال بعيدًا عن السلطة القضائية.

في ذلك المساء الذي هاتفني فيه كولن ليسألني الحضور لرؤية الخطاب المجهول، كانت جميع نماذج دلفين روكس بخط يدها ضمن ملف *Spooks* ملقاةً على طاولة المطبخ، الأصولُ وصورُ الأصول، سواء تلك التي طالعها سريعًا أو هذه التي رسم بالقلم الأحمر دوائرَ حول كل ضربة قلم رأى أنها مطابقةٌ لخط يد الخطاب المجهول. الأجزاء المُعلَّم عليها كانت هي في ذاتها الخطابَ مُفصّلاً- الحروف a، y، s، x، وهنا كلمة تنتهي بحرف e مع حرف a بمنحنى واسع، وهنا e تبدو إلى حد ما كأنها i حينما ترتفع لأعلى وتجاور d لكنها تبدو مثل e حينما تسبق r- وبرغم أن التشابهات في الكتابة بين الخطاب ومستندات *Spooks* كانت واضحة، إلا أنها لم تكن كذلك حتى أراني أين يقع اسمه كاملاً على المظروف وأين ظهر في ملاحظات لقائها الصحفي مع "تريسي كمنجز"، وهو ما أكد لي بما لا يدع مجالاً للجدل أن كولن قد ظفر بالمجرمة التي كانت تسعى بالظفر به.

كل الناس يعلمون

أنكَ تستغلّ جنسيًا

امرأةً

جاهلةً

في نصف

عمرك.

بينما كنتُ أمسكُ بالخطاب في يدي بكل الحرص الممكن- كما أرادني كولن أن أفعل- رحتُ افحصُ اختيار الكلمات وتشطيرها على السطور كأنما قد تم نظمُها ليس بيد دلفين روكس بل بيد إيميلي ديكنسون، فسّر لي كولن أن فونيا وليس هو، بسبب حكمتها المتوحشة تلك، كانت قد أقسمت على التكتم على سرّهما، وقالت إن دلفين روكس لابد اكتشفت العلاقة بطريقة أو بأخرى والآن تهدد بفضح الأمر. قالت لي: "لا أريد أن يتدخل أحدٌ في شئوني. كل ما أريده هو صخبٌ غير ضاغط مرة في الأسبوع، خلسةٌ المختلس، مع رجل مرّ بكل ما مرّ به وخرج هادئًا لطيفًا. ثم إن هذا ليس من شأن أي مخلوق آخر بحق الشيطان."

هذا الـ"أي مخلوق" الذي تُلمح له فونيا تبينّ أنه على الأرجح كان لستر فيرلي، زوجها السابق. ليس لأنها دُفعت للتسكع في الحياة على يد هذا الرجل وحده- "كيف كان يمكنني أن أحيا، وقد خرجتُ للعراء بمفردي هناك وأنا بعد في الرابعة عشرة؟" حينما بلغتْ السابعة عشرة، على سبيل المثال، ونزلت إلى فلوريدا لتعمل نادلةً، كان صديقُها آنذاك لا يضربها ويلوث شقتها وحسب، بل حدث أن سرق جهاز التدليك الكهربائي خاصتها. "هذا موجعٌ"، قالت فونيا. ودائمًا، كان الدافع هو الغيرة. كانت تنظر إلى هذا الرجل بطريقة غير لائقة، أو جعلت ذلك الرجل ينظر إليها بطريقة غير لائقة، إذا لم تستطع أن تفسر على نحو مقنع أين كانت في النصف ساعة الماضية، أو إذا نطقت الكلمة الخطأ، أو إذا استخدمت طبقة الصوت الخطأ، أو الإشارة الخطأ، فإنها فتاة ساقطة لا تستحق الثقة- أيًا ما كان السبب، وأيًا مَن كان الرجل، فإنه دائمًا ما يلكم بقبضتيه ويركل بحذائه وتصرخ فونيا وهي تكاد تفقد حياتها.

أرسلها لِستر فيرلي مرتين إلى المستشفى في العام السابق لطلاقهما. ولأنه كان لا يزال يقطن في مكان ما بالتلال، ومنذ إفلاسه وهو يعمل ضمن طاقم عمال الطريق بالمدينة، وبما أنه لا شك مازال مجنونًا، فقد كانت خائفة منه على كولن مثلما كانت خائفة على نفسها، حسب قولها، لو حدث واكتشف ما بينهما. كانت تشك في أن السبب الذي جعل سموكي يُلقى بها مع النفايات بكلّ احتقار هو مشجارة ما أو مشاحنة مع لِستر فيرلي- لأن لستر، الذي كان يقتفي أثر زوجته السابقة بانتظام، كان قد اكتشف بطريقة أو بأخرى ما بينها وبين رئيسها، حتى بالرغم من أن أماكن اللقاءات الغرامية الخاصة بسموكي هولينبيك كانت خفيةً بشكل هائل، مختبئة بعيدًا في أركان قصية من بنايات عتيقة حيث لا أحد في العالم باستثناء الرئيس يعلم بوجودها أو قادر على الوصول إليها. من الطيش البينّ كما هو واضح أن يوظّف سموكي عشيقاته ضمن فريق

حراسته الخاصة ثم يواعدهن في حرم الجامعة، ومن ناحية أخرى كان دقيقًا جدًا في إدارته حياته الرياضية أثناء عمله بالجامعة. بنفس سرعته الاحترافية في إزالة آثار العواصف الثلجية من طرق الجامعة في غضون ساعات، كان بوسعه بسرعة أن يحرر نفسه من إحدى فتياته إذا ما احتاج الأمر.

"إذن ما الذي أفعله؟" يسألني كولمن. "لم أكن ضد إخفاء هذا الأمر حتى قبل أن أسمع عن الزوج السابق الشرس. كنت أعلم أن شيئًا مثل ذلك سوف يحدث. دعك من أنني كنتُ العميد في يوم من الأيام بينما هي الآن تنظف الحمامات. أنا في الواحدة والسبعين وهي في الرابعة والثلاثين. كان بوسعي الاعتماد على ذلك وحده لكي أخفي العلاقة، كنت واثقًا، ولذلك، حينما أخبرتني أن هذا الأمر لا يخص أحدًا، قدّرتُ أنها بهذا تُخرج الموضوع من يدي. ليس عليّ حتى أن أطرح الموضوع للمناقشة. ألعبها كلعبة زنا؟ هذا مناسب بالنسبة لي. لهذا السبب خرجنا للعشاء معًا في فيرمونت. لهذا السبب كنّا إذا ما تقاطعت سبُلنا في مكتب البريد لا نجد حتى غضاضة في أن نقول هاللو."

"ربما رآكما أحدٌ في فيرمونت. ربما رآكما شخصٌ ما وأنتما معًا في سيارتك."

"صح- محتمل أن هذا ما حدث. لابد أن هذا هو كل ما حدث. ربما رآنا فيرلي نفسه. يا إلهي، يا ناثان، لم أتواعد مع امرأة تقريبًا منذ خمسين عامًا- أظن أنه المطعم... أنا رجل أبله."

"لا، لم تكن بلاهةً. كلا، كلا- أنت فقط كنت تخاف الأماكن المغلقة[26]. انظرْ،" قلتُ له، "- لن أزعم أنني أفهم لماذا تهتم دلفين روكس هكذا إلى حد الهوس بمَن تضاجع في مرحلة تقاعدك، لكن بما أننا نعلم أن الناس عادة لا يكونون طيبين مع الشخص الذي أخفق أن يكون تقليديًا، دعنا نفترض أنها من أولئك الناس. لكنكَ لست هكذا. أنت حرٌّ. رجلٌ حرٌّ ومستقلٌّ. رجلٌ عجوز حرٌّ ومستقل. خسرتَ الكثير بخروجك من ذلك المكان، ولكن ماذا عما ربحت؟ مهمّةُ تنوير الناس لم تعد وظيفتك- لقد قلتَ الكثير والكثير أنت نفسك. وليس هذا اختبارًا لما إذا كنت تقدر أو لا تقدر أن تخلّص نفسك من كل ألوان الكبح الاجتماعي. ربما أنت متقاعدٌ الآن لكنك الرجلُ الذي قاد فعليًا كاملَ الحياة داخل أسوار ذلك المجتمع الأكاديمي المغلق- إذا كنتُ قد قرأتُكَ على النحو الصحيح، فهذا هو الشيء الأكثر غرابة في حكايتك. من المحتمل أنك لم تُرد أبدًا أن تجعل قصة فونيا تحدث. ربما تعتقد أيضًا أنه ما كان عليك أبدًا أن تتمنى حدوثها. لكن أعتى أنواع الدفوع الهائلة ترتبك وتتشوش بالضعف، وهكذا انزلقتَ إلى درك كان هو آخر ما تتوقعه في العالم. في الواحدة والسبعين، هناك فونيا؛ في 1998، هناك فياجرا؛ هناك مجددًا

[26] - في الأصل وردت كحالة فوبيا مَرضية من الأماكن الضيقة. كلستروفوبيا claustrophobic. (المترجمة)

الشيءُ الذي كان في طيّ النسيان. الراحة الهائلة. القوة الخشنة. الطاقة المنحرفة. فجأة وعلى غير توقع حدثت سقطةُ كولن سيلك الكبرى والأخيرة في مستنقع الملذات. لأن كل ما نعرفه، هو سقطةُ اللحظة الأخيرة الكبرى. لذلك تتناقض تفاصيل سيرة فونيا فيرلي الذاتية مع تفاصيل سيرتك أنت. لذلك لا يرى الناسُ أن وجود امرأة مثلها في الفراش مع رجل في عمرك ومكانتك متوافقٌ مع لائحة الأخلاق واللياقة، هذا إن كان لابد من وجود امرأة في فراشك. هل ما نتج عن تلفّظك بكلمة '*Spooks*' يتوافقُ مع لائحة الأخلاق واللياقة؟ هل جلطة آيريس تتوافقُ مع لائحة الأخلاق واللياقة؟ تجاهلْ هذا الخطاب الغبي التافه يا كولن. لماذا تجعله يردعك؟"

"الخطابُ المجهول الغبي التافه،" قال كولن. "مَن ذا الذي أرسل لي يومًا خطابًا مجهولاً؟ هل من عاقل يرسل لأحد خطابًا مُجهّلاً؟"

"ربما هو طقسٌ فرنسيّ،" قلتُ له. "ألم يكن هناك الكثير من ذلك في بلزاك؟ في ستاندال؟ ألم تكن هناك خطاباتٌ مجهولة في 'الأحمر والأسود'[27]؟"

"لا أتذكر."

"انظرْ، لسبب ما فإن كل شيء تفعله لابد يحمل قسوةً في تفسيره، وكل شيء تفعله دلفين روكس لابد يحمل فضيلةً في تفسيره. أليست الأساطير ملأى بالعمالقة والوحوش والأفاعي؟ لو قمنا بتعريفك أنتَ كوحش، فإن دلفين تُعرّف نفسها كبطلة. وما تفعله دلفين بك هو أنها تحاول ذبح الوحش. ما تفعله دلفين هو انتقامها منك لافتراسك الضِّعاف. لقد أعطتْ كلَّ الأمر سِمةً أسطورية."

من خلال الابتسامة المتسامحة التي غمرني بها، أدركتُ أنني لم أُحرز تقدمًا كبيرًا في مناورتي، بل قدمتُ تفسيرًا ملحميًا ما-قبل-هومريًا[28] مضحكًا للتهمة المجهولة المصدر. "ليس بوسعك أن تجد في عالم الأسطورة،" أخبرني كولن، "تفسيرًا لأدائها الذهني. فهي لا تمتلك مُدْخلات الخيال التي تؤهلها لأ سطرة فِعلتها. إنما حقلُ تخصصها هو القصص التي يحكيها القرويون ليخففوا من وطأة بؤسهم. العينُ الحسود. سبيكةُ اللعنات. أنا في نظرها سبكتُ لعنةً فوق فونيا. ومجال تخصص دلفين روكس هو الفلكلور الشعبي المليء بالسحرة والمشعوذين."

كنا نستمتع الآن، واكتشفتُ أنني أثناء محاولاتي إلهاءه عن فورة غضبه عن طريق مجادلته حول سيادة مباهجه وأسبقيتها، كنت أعزّز من قيمة أرصدة مشاعره تجاهي- وأكشف عن مشاعري تجاهه. كنتُ متدفقًا وكنت أدرك ذلك. كنتُ مندهشًا من تلهفي

[27]- Le Rouge et le Noir رواية فلسفية للفرنسي ستاندال، أوائل القرن التاسع عشر. (المترجمة).
[28] - pre-Homeric، ما قبل هوميروس. هوميروس هو مؤلف ملحمتي الإلياذة والأوديسة. (المترجمة)

على إسعاده، أشعر أنني أتكلم كثيرًا، أفسر كثيرًا، أنني متورطٌ أكثر مما يجب ومُثارُ مثل طفل وجد توأمه الروحي متجسدًا في طفل في الشارع فوجد نفسه منجذبًا إليه بقوة التودد فتصرف كما لا يتصرف عادةً وبانفتاح أكثر مما كان حتى يود أن يفعل. ولكن منذ طرْقِهِ بابي في اليوم التالي لموت آيريس وعرضِهِ بأن أكتب له *Spooks*، كنتُ قد سقطتُ، دون تقدير أو تخطيط لذلك، في صداقة جادة مع كولمن سيلك. لم أُنصِت لورطته باعتبارها مجرد تمرين ذهني. مشكلته أصبحت تعني لي الكثير، حدث هذا بالرغم من تصميمي الحاسم على توفير طاقاتي، طوال الوقت الذي يتبقى لديّ، وعلى عدم الاهتمام بأي شيء فيما عدا مطالب العمل اليومية، كيلا يستحوذَ على عقلي إلا العملُ الخالص، دون البحث عن مغامرة في مكان ما- لدرجة ألا تكون لي حياةٌ خاصة أنشغل بها، ناهيك عن أن تكون حياةُ شخص آخر.

وأدركتُ كل ذلك بشيء من خيبة الأمل. هجرانُ المجتمع، الامتناعُ عن اللهو، العزلةُ المفروضة ذاتيًا على النفس والحرمانُ من كل الشوق الاحترافي والضلالات الاجتماعية والسموم الثقافية والإغواء الجنسي، الانعزالُ الصارم عن العالم مثل ذاك الذي يمارسه النُّسّاك الدينيون الذين يسجنون أنفسهم في كهوف أو زنازين أو أكواخ في غابات منعزلة، كل تلك العزلة كانت مُصانةً بعناد لم أعهده في نفسي. كنت قد بقيتُ وحيدًا لسنوات خمس- خمس سنوات من القراءة والكتابة على بعد أميال قليلة أعلى جبل داماساكا في كوخ لطيف بغرفتين يقع بين بِركة خلف مسكني وبين، عبر أشجار خفيضة على طول طريق ترابي، مستنقع على مساحة عشرة فدادين تتخذها إوزات كندا المهاجرة مأوًى لها كل مساء ويتخذها مالكُ الحزين الأزرق الصبور مكانًا للصيد المنزوي طوال الصيف. سرُّ المعيشة وسط زحام العالم بأقل قدر ممكن من الألم هو الحفاظُ على أكبر قدر ممكن من الناس لكي تظل مرتبطًا بضلالاتك؛ حيلة العيش وحيدًا هنا، بعيدًا عن جميع الورطات المقلقة، المغريات، التوقّعات، وبعيدًا بالخصوص عن قوتك الخاصة، هي تنظيمُ السكون، أن تفكر في وفرته الغزيرة باعتباره رأس مال، التفكير في السكون باعتباره ثروةً تتضاعف بجنون. التفكير في السكون المحيط بك باعتباره موردًا اختياريًا للمصالح وصديقك الحميمَ الأوحد. الحيلةُ هي أن تجد العون في (حسب تعريف هوثورن مجددًا) "تواصُل العقل المنعزل مع نفسه." السرُّ هو أن تجد العون في بشر مثل هوثورن، في حكمة الميت المتألق.

استغرق الأمرُ وقتًا لمواجهة الصعوبات التي نتجت عن هذا الاختيار، وقتًا وصبرًا مثل صبر مالك الحزين لكي يُخمد اشتياقَه لكل شيء قد تلاشى، ولكن بعد سنوات خمس كنت قد غدوت ماهرًا للغاية في صوغ أيامي جراحيًا على النحو الذي لم تعد فيه ساعةٌ

واحدة من ذاك الوجود الخامل مما كنت أعتنق فيما مضى من الأشياء التي لا تحمل أهميتَها بالنسبة لي. ضرورتَها. إثارتَها حتى. لم أعد أنغمس في الملذات والرغبات المفسدة في أي شيء آخر، وآخر شيء كنتُ أظن أنني قادر على تحمله من جديد هو الإبقاء على رفقة شخص آخر. الموسيقى التي أعزفها بعد العشاء ليست تخفيفًا لوطأة السكون بل هي شيءٌ من تجسيده: الإنصات للموسيقى لساعة أو اثنتين كل مساء لا يحرمني من السكون- الموسيقى هي السكونُ متجسدًا. أسبح ثلاثين دقيقة في بُحيرتي كأول شيء أفعله كلَّ صباح صيفيّ، وفي بقية العام، بعد كتابتي الصباحية- وطالما الجليد لا يجعل التنزه مستحيلاً- أخرج على حدود الجبل ساعتين تقريبًا كل أصيل. لم تكن هناك انتكاسات للسرطان تكلفني مثانتي. في الخامسة والستين، ممشوقٌ، جيد البنية، أعمل بكد- وأعرف الهدف. لابد أن أعرفه.

إذن لماذا، بعدما حولتُ تجربةَ العزلة المتطرفة إلى وجود انفراديّ غنيٍّ حاشد- لماذا، دون سابق إنذار، يجب عليّ أن أكون وحيدًا؟ وحيدًا ممّ؟ ما راح قد راح. ليس من راحة في يباس الموات، ليس من خراب في نكران الذات. وحيد من أي شيء على وجه الدقّة؟ ببساطة: مما توسعتُ في بغضه. مما أشحتُ عنه بوجهي وأدرتُ له ظهري. من الحياة. من التورّط مع الحياة.

هكذا أصبح كولمن صديقي وهكذا خرجتُ من ولائي الصارم للعيش وحيدًا في منزلي المنعزل والتعامل مع ضربات السرطان. راقصني كولمن سيلك فأعادني فورًا للحياة. في جامعة أثينا أولاً، ثم معي- ها هو رجلٌ يجعل الأشياءَ تتحقق. بالفعل، الرقصةُ التي صاغت صداقتنا هي ذاتها التي جعلت كارثةَ كولمن موضوعي. وجعلت قناع اختبائه موضوعي. وجعلت الطريقة المُثلي لعرض سرّه هي مشكلتي التي عليّ حلُّها. هكذا كففتُ عن أن أكون قادرًا على العيش معزولاً عن صخب الحياة الذي كنتُ قد هربتُ منه. لم أفعل أكثر من أن وجدتُ صديقًا، فاندفعتْ نحوي كلُّ مكائد العالم.

فيما بعد في أصيل ذلك اليوم، أخذني كولمن للقاء فونيا في مزرعة الألبان الصغيرة التي تبعد عن بيته ستة أميال، حيث تسكن دون إيجار مقابل أعمال حلب الأبقار. أنشأ مشروعَ المزرعة، التي تبلغ عدة سنوات من العمر الآن، امرأتان مطلقتان من خريجات كلية علوم البيئة، جاءتا كلتاهما من أسرتين مزارعتين في نيوإنجلاند، تشاركتا في أسهم تمويل المزرعة- مثلما تشاركتا في تنشئة أطفالهما الصغار كذلك، أطفال ستة لم

يعتمدوا، كما كانت المرأتان تحبان أن تخبرا زبائنهما، على شارع سمسم[29] ليتعلموا من أين تأتي الألبان- من أجل أن تخوضا التجربةَ المستحيلة تقريباً للتعيّش من بيع الألبان الخام. كانت عملية فريدة، ليست تشبه ما كان يجري في مزارع الألبان الضخمة، لا شيء فيها مجهولُ المصدر أو نتاج مصانع، مكان لا يبدو مثل مزرعة الألبان كما كان يعرفها معظم الناس في تلك الأيام. كانت المزرعةُ تُسمى مكان **حيوانات داجنة عضويّة**، تُنتج وتعبئ الحليب الخام الذي يتواجد في المتاجر العامة المحلية وبعض محال السوبر ماركت بالمقاطعة كما كان متوافراً أيضاً في المزرعة، للزبائن الثابتين الذين يشترون ثلاثة جالونات أو أكثر كل أسبوع.

كانت هناك فقط إحدى عشرة بقرة، حلوباً نقيةَ سلالة، لكل بقرة اسم قديم الطراز بدل أن تحمل رقماً مكتوباً على ورقة معلقة بأذنها لتميزها. ولأن ألبانها لم تكن مخلوطة بألبان القطعان الضخمة المحقونة بكل أنواع الكيماويات، وكونها غير مُعالجة بالبسترة ومتروكة على طبيعتها دون تجانس، فقد كان للحليب لونٌ خفيف، وبه حتى نكهة ضعيفة، تبعاً لما كانت تأكله الأبقار موسماً بعد موسم من أطعمة– الأطعمةُ التي لا تدخلها المبيدات القاتلة للأعشاب الضارة، أو مبيدات الحشرات، أو الأسمدة الكيماوية- ولأن حليبها كان أغنى بالمواد الطبيعية من الحليب المخلوط، فقد أحبّه السكانُ المحيطون أولئك الذين يفضلون الأغذية الصحية عن الأطعمة المصنّعة. كان للمزرعة سمعةٌ طيبة بين أولئك الذين يهتمون بالطعام، المتقاعدين وأولئك الذين يُنشّئون عائلاتهم على الرعب من المُلوِّثات، وكل تداعيات البيئة في المدن الكبيرة. في الجريدة المحلية الأسبوعية، ثمة رسالةٌ للمحرر كانت تظهر بانتظام من قِبَل شخص ما اكتشف مؤخراً أسلوباً أفضل للحياة في تلك الدروب الريفية، وكان يشير باحترام إلى حليب المزرعة العضوية، ليس وحسب بوصفه مشروباً لذيذ المذاق بل بوصفه تجسيداً للطزاجة والحلاوة والنقاوة وتحقيقاً لمتطلبات الخلطة المثالية. كلماتٌ من قبيل "الجودة"، و"الحيوية" كانت تظهر دورياً في تلك الرسائل المنشورة، كأنما احتساء كوب من حليب المزرعة الحيوية هو طقسٌ دينيّ أكثر منه طقساً غذائياً. "حينما نشرب حليب المزرعة العضوية، فإن أجسامنا، أرواحنا، أمزجتنا جميعها تتغذى. أعضاء كثيرة في أجسامنا تستقبل ذلك التكامل وتقدّره على نحو قد لا ندركه نحن." عبارات مثل تلك، عبارات تجعل الناضجين العقلاء، أولئك الذين فرّوا من إزعاجات نيويورك وهارتفورد وبوسطن، يجلسون في سرور لدقائق إلى المكتب كأنهم أطفال في السابعة.

[29] - Sesame Street، مسلسل تليفزيوني أمريكي تعليمي للأطفال، تقدمه العرائس. أنشئ في نهاية الستينيات الماضية ليمزج المتعة بالمعرفة. يقصد أن أطفال المزرعة يرون بعيونهم كيف تأتي الأبقار بالحليب، دون مشاهدة برنامج شارع سمسم. (المترجمة)

وبالرغم من أن كولن لم يكن يستهلك على الأرجح أكثر من نصف كوب من الحليب في اليوم يصبّه فوق حبوب الصباح، إلا أنه وقّع اتفاقًا مع مزرعة الحليب العضوي لتزويده بثلاثة جالونات كل أسبوع. سمح له هذا بأن يأخذ حليبه طازجًا رأسًا من بقرة المزرعة- يقود سيارته من الطريق الرئيسي إلى حيث مسار الجرارات ثم إلى حظيرة الماشية ثم يمشي داخل الحظيرة ليجلب الحليب باردًا من الثلاجة. رتّب هذا الأمر لا ليحصل على الخصم الممنوح لزبائن الجالونات الثلاثة، بل لأن الثلاجة كانت بالضبط عند مدخل الحظيرة وتبعد فقط خمسة عشر قدمًا عن الكشك الذي تُقاد إليه الأبقار لتُحلَب واحدة بعد أخرى، مرتين في اليوم، وحيث في الخامسة عصرًا (حينما يأتي) تكون فونيا هناك، بعدما تُنهي عملها في الجامعة، لتقوم بأعمال الحلب عدة مرات في الأسبوع.

كل ما كان يفعله هناك هو مراقبتُها وهي تعمل. وبالرغم من ندرة وجود أي شخص آخر في الأنحاء إلا أن كولن كان يقف خارج الكشك ينظر للداخل ويتركها تتم مهمتها دون أن يزعجها بالحديث. كانا عادة لا يقولان شيئًا، لأن عدم الحديث يكثّف متعتهما. كانت تعلم أنه يراقبها؛ ولأنه يعلم أنها تعلم، فقد كان يشاهدها بعُسر- ولأنهما لا يستطيعان أن يتقاربا في التراب والقذارة فقد كانا يكتفيان بالنظر. كان يكفي أن يكونا وحدهما معًا في مكان ما خارج فراشه، كان يكفي أن يحافظا على حقيقة أن عقبات اجتماعية لا يمكن تجاوزها تفصل بينهما، لكي يلعبا دوريهما كعاملة مزرعة وبروفيسور جامعة متقاعد، ليؤديا تكاملهما كامرأة كادحة نحيلة في الرابعة والثلاثين، أميّة صموت، قروية بدائية لها عضلات وعظام كانت قبل قليل في الفناء تمسك مقشة تنظيف أو تحلب منذ الصباح، مع راشد مفكر في الواحدة والسبعين، بروفيسور أدب كلاسيكي فذّ، واسع العقل مفعم بمفردات لغتين قديمتين. كان كافيًا أن يتواصلا معا كشخصين لا يجمع بينهما شيءٌ مشترك، يتذكران طوال الوقت كيف أن بوسعهما استقطار ذروة الشهوة الجنسية عبر تناقضهما الإنساني وتباينهما الذي يُنتج القوةَ كلها. كان كافيًا أن يشعرا برعشة النشوة التي تجعل الحياة مضاعفةً.

منذ اللمحة الأولى، كان هناك القليل جدًا مما يثير الشهوات الحسيّة في امرأة نحيلة هزيلة ملطخة بالأوساخ، تلبس شورتًا وتي شيرت وحذاء مطاطيًا، تلك التي رأيتها بالداخل بين قطيع الماشية ذلك الأصيل والتي عرّفها كولن بوصفها فولوبتس(ـه). الكائنات ذات السطوة الجسدية التي كانت تهيمن على المشهد كانت تلك الأجسام التي تحتلّ الفضاء، الأبقار ذات اللون الأصفر الباهت بمؤخراتها المترجرجة وبطونها البرميلية وأثدائها المتهدلة المنتفخة بالحليب، تلك الأبقار المثيرة الهادئة بطيئة الحركة، كل منها يزن

ألفًا وخمسمائة رطل، تلك الحيوانات واسعة العيون التي تُطعَم العلف لتمضغه بصوت عال بينما تُمتَصُّ ألبانُها حتى تجفّ ليس بفم واحد أو اثنين أو ثلاثة بل بأربعة أفواه ميكانيكية نابضة لا تتعب- تلك الكائنات التي نشاطها الجسدي المتزامن يكمن في تلك النهايتين. كل بقرة غارقة عميقًا في وجودها البهيمي بنشوة بعيدة عن العمق الروحي: أن تلتهم وأن تمضغ، أن تتغوّط وأن تبول، أن تُرعى وأن تنام- ذاك هو سبب وجودها في الحياة. بين الحين والحين (كما شرح لي كولن) تقتحم ذراعٌ بشرية في قفاز بلاستيكي طويل قناةَ المستقيم داخل أحشاء البقرة لإفراغ السماد. وأثناء ذلك، عن طريق تحسس جدار المستقيم، توجّه الذراعُ الأخرى لإدخال محقن الإخصاب لكي يُدفع مَنْي الذكر. هكذا تتناسل دونما تحمّل عبء إزعاج الثور، مُدللةٌ حتى في الإخصاب، ثم تُساعَد أيضًا عند الوضع- وفيما قالته فونيا دليلٌ على وجود عملية عاطفية لكل شخص متورط في الأمر- حتى في الليالي حيث البرودة تحت درجة الصفر، حينما تهب عواصفُ الجليد. ثمة جو مفعم بالشهوانية، بما فيه الاستمتاع بالطعام في أوقات الفراغ الرخو، بأفواه ممتلئة مدلاة تقطر ما تجتره من هلام الطعام. بعض المحظيات من النساء يعشن هكذا، فضلاً عن نساء عاديات مبتذلات.

بين تلك الكائنات المبتهجة المدللة، والتوحد مع وفرة الإناث الضخمة وخصوبتها، كانت فونيا تعمل مثل بهيمة مثقلة بالأعباء حتى كانت تبدو، ومن حولها البقرات تؤطرن صورتها، مثل خيال شبحيّ في وزن الذبابة. تنادي على البقرات لتخرجن من السقيفة المفتوحة حيث كن يرقدن في استرخاء بين خليط القش والغائط- "هيا نذهب، يا ديزي، لا تجعلي وقتي عسيرًا. تعالي الآن يا ماجي، تلك بنتٌ طيبة. حركي مؤخرتك يا فلوسي، أيتها الكلبة العجوز"- تجذبهن من أطواقهن وتقودهن بتودد عبر وحل الفناء إلى درجة المصطبة الأعلى حيث الأرضية الأسمنتية في قاعة الحلب، تدفع تلك الضخمات ثقيلات الحركة ديزي وماجي وفلوسي نحو حوض الطعام، حتى ينتصبن بإحكام عند الدعامة، موزعات كلٌّ في مكانها لتأخذ حصتها في الفيتامين والطعام، ثم تعقَّم حلمات ضروعهن من الجراثيم وتُنظّفها جيدًا فيبدأ الحليبُ في الجريان بعد شيء من الرج باليد، بعدها توصل الحلماتِ المعقمات بأكواب الامتصاص الصغيرة عند نهايات خراطيم مجرى الحليب. كانت فونيا تتحرك بنظام وفق خطوات ثابتة في كل مرحلة من مراحل الحليب، في تناقض مبالغ فيه مع انقيادية البقرات العنيدات، تتحرك طوال الوقت مثل نحلة نشطة حتى يضخ الحليب من الأنابيب الشفافة داخل سطل الفولاذ اللامع، فتقف بعد ذلك بهدوء، تراقب المشهد لتتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام، وأن البقرة أيضًا تقف بهدوء. ثم تبدأ الحركة من جديد، تدلّك الضرعَ لتتأكد من أن البقرة قد أفرغت كامل

حليبها، تزيل أكوابَ الحلمات، تصبُّ حصّة الطعام للبقرة التالية التي سوف تحلبها بعد تحرير البقرة المحلوبة للتوّ من الركيزة، تُحضّر الحبوبَ للبقرة التالية وتضعها أمام الدعامة، وبعد ذلك، تسحب البقرة المحلوبة من طوق عنقها، ومن جديد تبدأ المناورة مع كتلتها الضخمة بالدفع من الخلف بكتفها وقدمها، تأمرها بحسم: "اخرجي، اخرجي من هنا، هيا اخرجي---" ثم تقودها لتعيدها عبر الطمي إلى حيث السقيفة الظليلة.

فونيا فيرلي: نحيلة الساقين، نحيلة الرُّسغين، نحيلة الذراعين، ضلوعها يمكن رؤيتها بسهولة وعظام الكتفين الناتئة، حينما تنتصب تغدو أطرافها صلبة، حينما تمد ذراعها أو تشد جذعها للوصول إلى شيء للعجب تجد نهديها ناهدين؛ وحينما، بسبب الذباب والبعوض الذي يطنُّ في أسراب في مثل يوم صيفي كهذا، حينما تصفع عنقها أو ظهرها، ترى كم تقدر أن تكون لعوبًا مرحة، بالرغم من نمطها المستقيم الحاد. ترى أن جسدها أكثر من أن يكون هزيلاً وصارمًا، فهي امرأة متينة القالب متوازنة القدِّ، في لحظة من عمرها ربما لم تعد مثمرةً لكنها بعد لم تأخذ في التداعي، امرأة في أوج نشاطها، امرأةٌ خصلةُ شعرها البيضاء مغريةٌ بسبب تضاريس خديّها وفكّيها اليانكي[30] وعنقها الأنثوي الطويل الذي بعدُ لم يخضع لتحوّلات الزمن.

"هذا جاري،" أخبرها كولمن حينما توقفت فونيا لحظة لتمسح العرق على وجهها بثنية مرفقها وهي تنظر نحونا. "هذا ناثان."

لم أكن أتوقع رباطة جأش ورصانة. توقعتُ شخصيةً غضوبًا جهورًا. لم تحيني بأكثر من إيماءة بذقنها، لكنها الإيماءة التي كانت كأنما أتت بها من أميال بعيدة. ذقنها كانت كأنما أتت بها من أميال بعيدة. حافظت عليها عاليةً كما تفعل دائمًا، وصبغتها بالحزم. في ردّها أيضًا ثمة: شيءُ ذكوري وعنيد، وأيضًا شيء غير مهذّب، في تلك النظرة الميتة. نظرة شخصٍ الجنسُ والخيانة بالنسبة إليه أساسيان مثل الخبز. نظرة هروب ونظرة ناتجة عن السخط الرتيب على سوء الحظ. شعرُها، الشعر الذهبي الأشقر في مراحل تبدُّله الأولى، كان معقوصًا على ظهرها في ربطة مطاطية، مع مشبك ليمنع تهدله فوق حاجبيها وهي تعمل، والآن، بينما تنظر نحونا في صمت، دفعته بيدها للوراء، ولأول مرة لمحت في وجهها سِمةً صغيرة، ربما أكون مخطئًا لأنني كنت أبحث عن علامة، ذات تأثير خاص: الامتلاء المحدّب للقوس الضيق بين خط الحاجب والجفن. كانت امرأة لها شفتان رفيعتان وأنف مستقيم وعينان زرقاوان صافيتان وأسنان جميلة وفك بارز، وذاك الانتفاخ تحت حاجبيها كان علامتها المميزة الوحيدة، شعار إغرائها الوحيد، كأنما كان

---

[30]- Yankee، يانكي، أمريكي يقطن إحدى ولايات الشمال. (المترجمة).

شيئًا متورمًا بالرغبة. ولابد من الأخذ في الاعتبار ذلك الغموض المزعج في الفتور القاسي بتحديقتها.

إجمالاً لم تكن فونيا ذلك الكائن الأسطوري المغوي الذي يسحب روحك بعيدًا، بل امرأة تخطف البصر للحظة ويمكن أن يفكر فيها المرء. لابد أنها كانت جميلة جدًا وهي طفلة. تلك التي كانت، وفق ما يقول كولن، طفلة جميلة ذهبية لها زوج أم ثري لم يكن يتركها وشأنها وأم فاسدة لم تحمِها.

وقفنا هناك نراقبها وهي تحلب كل بقرة من الإحدى عشرة- ديزي، ماجي، لوسي، بيسي، دوللي، ميدين، سويتهارت، ستيوبيد، إيما، فريندلي، وجيل- وقفنا هناك بينما كانت تكرر الروتين نفسه الذي لا يتغير مع كل واحدة منهن، وحينما انتهت، دخلت الغرفة الكلسية البيضاء ذات الأحواض الضخمة وخراطيم المياه ووحدات التعقيم جوار قاعة الحلب، فشاهدناها عبر فتحة الباب تخلط المحلول السائل مع مواد التنظيف، بعد فصل خطوط كوابح التفريغ عن خط الأنابيب، وأكواب الحلمات عن الصمامات، ودلويْ الحليب عن أغطيتهما- بعد تفكيك كامل وحدة الحلب التي كانت قد أخذتها معها- جلست لتعمل بمجموعة من الفرشات مع صَبّة إثر صبّة من الماء النظيف لكي تجلو كل سطوح الأ نابيب، والصمامات، والحشايا، والسدادات، والصفائح، والبطانات، والأ كواب، والأقراص، والكبّاسات، حتى بدت كل قطعة دون أدنى أثر للوسخ معقمةً لامعة. قبل أن يأخذ كولن حليبه ويعود إلى سيارته ليمضي، وقفنا هو وأنا جوار الثلاجة لما يقرب من الساعة ونصف الساعة، وعدا عن الكلمات التي نطقها ليقدمني إليها، لم يقل أحدٌ شيئًا أكثر. كل ما بوسعك أن تسمعه كان أصوات القرقعة الآتية من الحظيرة المفتوحة وراءنا، وزقزقة طيور السنونو التي تعشّش هناك بين العوارض الخشبية، وصوت الحبوب التي تسقط على الأرضية الأسمنتية فيما تفرّغ فونيا سطل الطعام، وصوت طقطقة جذوع الشجر المفروشة على أرضية قاعة الحلب بينما فونيا تدفع البقرات أو تجرّها أو توجّهها، لكي تنظّمها وتصفّها على الركائز، ثم ضوضاء المصّ، والصوت الناعم العميق لمضخات الحليب.

بعدما يُوارى كلاهما التراب بعد أربعة شهور من الآن، سوف أتذكر دورةَ الحلب تلك كما لو كانت عرضًا مسرحيًا لعبتُ فيه دورًا عَرَضيًا إضافيًا، مثلما أنا الآن بالفعل. ليلةً بعد ليلة، لم أستطع النوم لأنني لم أقدر أن أوقف استيقاظي لأرى نفسي هناك على خشبة المسرح جوار البطلين الرئيسين مع جوقة كورال البقرات، أشاهد ذلك المشهد، الذي يُؤدَى بكامل طاقم التمثيل، المشهد الذي يتكون من رجل عجوز مُتيّم بالهوى يراقب

عـملَ امرأة قـروية تنـظف بـيدها هي عـشيقته الـسرية: مـشهد العـواطف والتـنويم المغناطيسـي والاستعباد الجنـسي المـوجود في كل ما تفعله تـلك المرأة مع البـقرات، الطريقة التي تعاملهن بها، تلمسهن بـها، تـخدمهن بها، تتحدث معهن بـها، كانت تستلبه وتفتنه؛ مشهد فيه رجلٌ مأخوذ تماماً بفعل رغبة ظلت طويلاً مطفأة ومكبوتة داخله إلى أن تحررت، أمام عينيَّ، شهدتُ انبعاث سلطانها المذهل. كان هذا شيئًا، كما أفترضُ، مثل مشاهدة أشينباك يراقب تادزيو[31] على نحو محموم- حيث وصل توقه الجنسيُّ قد إلى ذروته بسبب حقيقة الفناء الموجعة- فيما عدا أننا لسنا في فندق فخم بمدينة فينيسيا ليدو ولا نحن شخصيات في رواية كتبت بالألمانية ولا حتى، في رواية كتبت بالإنجليزية: بل نحن في ذروة الصيف في حظيرة ماشية بشمال شرق البلاد، في أمريكا في العام نفسه الذي اتُهم فيه الرئيسُ بالخيانة الزوجية، وأيضًا لم نكن روائيين بأكثر مما كانت الحيوانات أسطوريةً أو مُحنّطة. نور النهار وحرارته (تلك نعمةٌ)، حياة البقرة الهادئة التي لا تتغير واقفةً حذاء البقرات الأخريات، الرجل العجوز المتيّم يفحص ليونة المرأة النشطة الكادحة، بينما الافتتانُ يتزايد داخله، نظرته لم تكن إلا هياجًا لم يحدث له من قبل، وأيضًا، انتظاري الراغب، افتتاني الخاص بتباين نمطيهما البشريين، بالتناقض بين ملابسهما، بالتضاد، بالتصاريف الشاذة التي تفعلها الشهوة الجنسية- وكذلك بالحال التي كنا عليها، البشر والأبقار، التمايز الهائل، بل اللا تمايز في حقيقة الأمر، أن تحيا، لا أن تتحمل الحياة، فقط أن تحيا، أن تستمر في الأخذ، والعطاء، والإطعام، والحلب، والاعتراف الصادق بالانهزام، بما أن اللغز هو اللغز، المعنى التافه للعيش- كل ذلك تم تسجيله كواقع بعشرات الآلاف من الانطباعات الدقيقة. الشبع الحسيّ، الوفرة، الغزارة- المفرطة- تفاصيل الحياة، التي هي قصيدة ملحمية. وكولمن وفونيا، اللذان هما الآن من الموتى، على نحو عميق في سيل اللامتوقع، يومًا بيوم، دقيقة بدقيقة، هما ذاتهما تفاصيلُ ذلك الإفراط الغزير.

لا شيء يبقى، ولكن لا شيء أيضًا يمرّ. ولا شيء يمرُّ؛ فقط لأن لا شيء يبقى.

المتاعبُ مع آل فيرلي بدأت فيما بعد في تلك الليلة، حينما سمع كولمن شيئًا يخبّط في الشجيرات خارج منزله، ظنّ أنه غزالٌ أو راكون، فنهض عن طاولة المطبخ حيث كان وفونيا للتوّ قد انتهيا من وجبة عشاء الإسباجتي، ثم عبَر باب المطبخ، وفي أمسية صيفية نصف مضاءة كهذه، التقطت عيناه ظلالَ رجل يجري عبر الحقل من الجزء الخلفي للبيت

[31]- Aschenbach- Tadzio شخصيتان في رواية "الموت في فينيسيا" Death in Venice للروائي الألماني توماس مان. (المترجمة).

متجهًا نحو الغابة. "هيي! أنتَ! توقفْ!" هتف كولن، لكن الرجل لا هو توقف ولا نظر خلفه، بل اختفي سريعًا وسط الأشجار. لم تكن هي المرة الأولى خلال الشهور الأخيرة التي يعتقد فيها كولن أنه مراقَبٌ مَن قِبل شخص يختفي بحذر داخل البيت، لكن في المرات السابقة كان المساء متوغلاً والظلام أكثر كثافة فلم يحدد على وجه الدقة ما إذا كان ذلك الصوتُ ناتجًا عن حركة تلصّص إنسان أم حيوان. وفي المرات السابقة كان دائمًا وحيدًا. كانت هذه هي المرة الأولى لفونيا معه هناك، وكانت هي التي، دون الحاجة لرؤية ظلال الرجل وهي تقطع الحقل، تعرفت على المتلصص، إنه زوجها السابق.

فونيا أخبرتْ كولن أن فيرلي، بعد الطلاق، كان يتجسس عليها طوال الوقت، ولكن في الشهور التالية لموت الطفلين، حينما كان يتهمها بقتلهما بإهمالها، أصبح هائجًا على نحو مخيف. مرتين وثب عليها من مكان خفي- مرّةً في موقف سيارات السوبرماركت، ومرةً أخرى حين كانت في محطة البنزين- ثم راح يصرخ من نافذة الشاحنة الصغيرة: "عاهرةٌ قاتلة! مومسٌ قاتلة! قتلتِ طفلَيّ، أيتها العاهرة المجرمة!" وثمة نهارات كثيرة، وهي في طريقها إلى الجامعة، كانت تنظر في مرآة سيارتها الأمامية فترى شاحنتَه الصغيرة خلفها، ثم في الزجاج الأمامي، ترى وجهه بشفتيه الشتّامتين: "أنتِ قتلتِ طفلَيّ." في بعض الأحيان كان يتبعها وهي في طريقها إلى البيت من الجامعة. كانت وقتها لا تزال تعيش في النصف غير المحترق من جراج الكوخ حيث اختنق الطفلان من دخان حريق السخان، وبسبب خوفها منه انتقلت من هناك للعيش في غرفة بحي سيرلي فولز ثم، بعد محاولة الانتحار الفاشلة، انتقلت إلى غرفة مزرعة الألبان، حيث كانت المالكتان وأطفالهما الصغار متواجدين تقريبًا طوال الوقت من حولها، فلم يكن الخطرُ كبيرًا من وجوده وتحرّشه اللفظيّ بها. بدأت شاحنة فيرلي تظهر في مرآة سيارتها بمعدلات أقلّ بعد الانتقال الثاني، وبعدها، حينما لم يعد له أثرٌ على مدى شهور، راودها الأملُ في أن يكون قد اختفى إلى الأبد. ولكن الآن، كانت فونيا متأكدة من ذلك، لقد اكتشف بشكل أو بآخر حكاية كولن فاشتعل سخطه مجددًا من كل ما كان يغضبه منها دائمًا، عاد إلى تجسسه المجنون، يختبئ خارج منزل كولن ليرى ماذا كانت تفعل هناك. ماذا كانا يفعلان معًا.

تلك الليلة، حينما ركبت فونيا سيارتها- التشيفي العتيقة التي كان كولن يفضّل أن تصفّها، بعيدًا عن مرآه، داخل الحظيرة- قرر كولن أن يسير بسيارته وراءها بمسافة صغيرة لستة أميال حتى غدت آمنةً في الطريق الترابيّ الذي يقودها إلى خلف حظيرة الأبقار إلى حيث بيت المزرعة. وبعد ذلك، خلال طريق عودته إلى بيته، كان ينظر للوراء ليرى ما إذا كان هناك مَن يتبعه. في البيت، مشى من سقيفة السيارة إلى المنزل

يدحرج إطار السيارة بيده، يؤرجحها في كل اتجاه، آملاً بهذا أن يُبقى مسافة بينه وبين أي شخص يختبئ في الظلام.

مع النهار التالي، بعد ثماني ساعات في الفراش بين الجدل مع مخاوفه، قرر كولن عدم تقديم شكوى لشرطة الولاية. لأن هُوية فيرلي لا يمكن أن تكون معروفة على نحو إيجابيّ، ولن يكون بوسع البوليس أن يفعل معه أي شيء على كل حال، وربما تسرّبت معلومة أن كولن قد اتصل بالشرطة، اتصالُه سوف لا يخدم إلا تعزيز النميمة التي كانت تدور الآن بالفعل حول العميد السابق وحارسة كلية أثينا. غير أنه، بعد قضاء ليلة من دون نوم، كان قد اتخذ قراره الحاسم بألا يفعل أي شيء حيال الأمر برمّته: بعد الإفطار، اتصل بمحاميه، نيلسون بريماس، وذهب إلى أثينا ذلك الأصيل ليتشاور معه في أمر الخطاب المجهول، وهناك، قفز فوق اقتراحات بريماس بأن ينسى الأمر، وأقنعه بأن يكتب التالي، إلى دلفين روكس بالجامعة: "عزيزتي السيدة روكس: أنا أمثِّل كولن سيلك. منذ عدة أيام، قمتِ بإرسال خطاب مجهول التوقيع إلى السيد سيلك، وكان الخطاب تهديديًا، مزعجًا ومشوِّهًا لسمعة السيد سيلك. وجاء في متن رسالتكِ التالي: ' كل الناس يعلمون أنك تستغل جنسيًا امرأة جاهلة في نصف عمرك.' وأنتِ بهذا للأسف قد أقحمتِ نفسَك في أمر ليس من شأنك. وبفعلتكِ هذه فإنك تنتهكين الحقوقَ القانونية للسيد سيلك، وتخضعين للمساءلة القضائية."

بعد أيام قليلة استلم بريماس ثلاث عبارات مقتضبة من محامي دلفين روكس. الجملة الوسطى، تنفي بفتور تهمةَ أن الخطاب المجهول يخصُّ دلفين روكس، وضع كولن خطًّا بالأحمر تحتها. وفي الأخير كتب محاميها إلى بريماس التالي: "لا شيء صحيحٌ من التوكيدات في خطابكم، وللحق، فهي توكيدات مشوِّهة للسمعة."

وعلى الفور أخذ كولن من بريماس اسمَ خبير الوثائق المسجلة في بوسطن، وهو محلل خطوط اليد، يؤدي عملاً شرعيًا لصالح مؤسسات خاصة، وكالات الحكومة الأمريكية، والولاية. وفي اليوم التالي، قاد سيارته بنفسه ثلاث ساعات إلى بوسطن ليسلّم لخبير الوثائق، يدًا بيد، نماذجَ من خط يد دلفين روكس مع الخطاب المجهول ومظروفه. في الأسبوع التالي تسلَّم نتيجة التقرير بالبريد. يقول التقرير: "بناء على طلبكم، تم الفحص، وأجرينا مضاهاةً بين الصور الضوئية للخط اليدوي المعروف لدلفين روكس وبين الخطاب المجهول محلّ السؤال والمظروف المعنون إلى كولن سيلك. وكنتم طلبتم تحديد صاحب الخط على الوثائق محل السؤال. قام اختبارنا بفحص خصائص خط اليد من حيث: درجة الميل، الفراغات، تشكيل حروف الهجاء، طبيعة الخطوط، مقدار الضغط بالقلم على الورق، نِسَب أحجام الحروف، ارتفاع الحرف والعلاقات بين

الحروف، الوصلات والحروف البادئة، وتشكيل الضربات الختامية. واعتماداً على الوثائق المرسلة، فإن رأيي المتخصص يذهب إلى أن اليد التي كتبت الأوراق التي تخص دلفين روكس هي اليدُ ذاتُها التي كتبت الخطاب المجهول محل السؤال والمظروف. المخلص، دوجلاس جوردون." حينما ناول كولن تقريرَ الخبير إلى نيلسون بريماس، مع توجيهات بإرسال صورة منه إلى محامي دلفين روكس، توقف بريماس من وقتها عن الجدل، ولكن ما كان يحزنه هو رؤيته كولن وقد تلبّسه الغضبُ القديم الذي كان يغمره أثناء أزمته مع الجامعة.

على كلٍّ، مرّت ثمانية أيام منذ ذلك المساء الذي كان كولن قد رأى فيه فيرلي يهرب داخل الغابة، ثمانيةُ أيام قرر أثناءها أن من الأفضل أن تبقى فونيا بعيداً عنه مؤقتاً وأن يتواصلا عبر الهاتف. ولكي لا يجلب التجسسَ على أيٍّ منهما، لم يعد يخرج إلى المزرعة ليجلب حليبه الخام بل كان يمكث في بيته كلما أمكنه ذلك، وظل متيقظاً للمراقبة من هناك، خصوصاً بعدما يهبط الظلام، علّه يحدد ما إذا كان هناك مَن يتطفّل في الجوار. وفيما يخص فونيا، أخبرها أن تبقى حذرةً على نفسها في مزرعة الألبان وأن تراقب مرآة سيارتها حينما تقودها إلى أي مكان. "كأنما نحن خطرٌ على الأمن العام،" قالت له فونيا وهي تضحك ضحكتها المميزة. "لا، بل نحن خطرٌ على الصحة العامة،" أجابها- "نحن لا نمتثل للائحة الصحية."

مع نهاية الأيام الثمانية، حينما كان بوسعه أخيراً أن يثبت أن دلفين روكس هي كاتبة الخطاب إذا لم يكن فيرلي هو منتهك الخصوصية، قرر كولن أن يعترف بأنه صنع كل ما في طاقته لكي يدافع عن نفسه ضد كل انتهاكات الخصوصية المستفزة الكريهة تلك. حينما هاتفته فونيا ذلك الأصيل أثناء استراحة غدائها لتسأله: "هل انتهت فترة الحجْر الصحيّ؟" كان أخيراً قد تحرر من قلقه- أو ربما قرَّرَ أن يُقرِّرَ ذلك- لكي يعطي إشارةَ الأمان.

ولأنه كان يتوقع زيارتها حول السابعة مساءً، فعند السادسة ابتلع قرص فياجرا، بعدما احتسى كأساً من النبيذ، أخذ هاتفه وتمشى في الخارج ليجلس على المقعد في المرج الأخضر ويهاتف ابنته. أنجب هو وآيريس أربعةَ أبناء: ولدان هما الآن في الأربعينات، كلاهما بروفيسور علوم بالجامعة، متزوجان ولديهما أبناء يعيشون في الساحل الغربي ويست كوست، وتوأمان، ليزا ومارك، كلاهما غير متزوج، في أواخر الثلاثينات من العمر، ويعيشان في نيويورك. جميع ذرية سيلك، باستثناء واحد، كانوا يحرصون على الذهاب إلى بيركشاير لرؤية والدهم ثلاث مرات في العام أو أربع،

ويتصلون به بالهاتف كل شهر. الاستثناء هو مارك، الذي كان طوال حياته على خلاف حادّ مع كولن فقطع نفسه عن والده تماماً.

قرر كولن أن يهاتف ليزا لأنه اكتشف أنه منذ أكثر من شهر- ربما شهرين- لم يكلمها. ربما كان وحسب ضحيةَ شعور عابر بالوحدة قد يتبدد مع وصول فونيا، ولكن أيًّا ما كان دافعُه، فلم يكن لديه أية فكرة، قبل المكالمة، عمَّا كان مخبوءًا. لا شك أن آخر ما كان يبحث عنه هو النفور والصدّ، خصوصًا من ابنته تلك التي كان صوتُها فقط- الناعمُ، المنغّمُ، الطفوليَّ مازال، بالرغم من اثنتي عشرة سنة شاقة كمعلّمة في لور إيست سايد- كان دائمًا بوسعه الاعتماد على ذلك الصوت ليهدأ، ولتسكن جوارحه، وأحيانًا كان صوتُها يفعل ما هو أكثر: يفتنه من جديد بتلك الابنة. كان كولن يفعل ما كان غالبًا يفعله أيُّ أبٍ مسنٍّ حينما، لأي من عديد الأسباب، يحنُّ إلى مهاتفة من مسافة بعيدة كتذكرِة طيبة في أوقات الشيخوخة. تاريخ التوادّ والرقة الصريح غير المكسور بين كولن وليزا جعل منها الشخصَ الأبعد عن خذلانه من بين جميع أقاربه.

قبل حوالي ثلاث سنوات- قبل حادثة الـ *Spooks*- حينما كانت ليزا تتساءل ما إذا كانت قد ارتكبت خطأً جسيمًا بتركها التدريس في الفصول لكي تصبح معلّمةَ تقويم عيوب القراءة[32]، نزل كولن إلى نيويورك ومكث عدة أيام ليعاين بنفسه وضع ابنته المأزوم. كانت آيريس حيَّة آنذاك، حيَّة للغاية، لكن طاقة آيريس الهائلة لم تكن هي ما تحتاجه ليزا- لم تكن تريد أن تحركها يدٌ مثل قطعة شطرنج، كما اعتادت آيريس أن تحرك الجميعَ مثل قطع الشطرنج- بدلاً من ذلك، كان عميد الكلية السابق بأسلوبه الحاسم المرتب في تنظيم التشوّش هو كل ما تحاجه ليزا. كانت آيريس تصرُّ على أن تخبرها أن عليها أن تتقدم بثبات، تاركةً ليزا غارقة في شَرَك تضارب الأفكار؛ بينما معه كان من المحتمل، إذا ما تراجعت ليزا خطوة متقهقرة ضد تقدمها، أن يخبرها أبوها بأن بوسعها إذا ما أرادت، أن تقلّص خسائرها وتتوقف- وهو ما كان، في المقابل، يعطيها دافعًا للمبادرة بالاستمرار والتقدّم.

لم يكتفِ كولن بأن قضى الليلةَ الأولى ساهرًا يُنصت إلى شكوى ابنته حتى وقت متأخر في غرفة معيشتها، بل ذهب في اليوم التالي إلى المدرسة ليرى بنفسه ما ذاك الذي يستنفد قواها. وقد رأى، رأى الأمر كاملاً: في الصباح، أول شيء، أربع جلسات متعاقبة مدة كل منها نصف ساعة، كل جلسة مع تلميذ في السادسة أو السابعة من عمره من بين التلاميذ الأضعف تحصيلاً في الصف الأول أو الثاني، وبعد ذلك، خلال

---

32 - Reading Recovery teacher. (المترجمة)

بقية اليوم، جلسات مدتها خمسٌ وأربعون دقيقة مع مجموعات من ثمانية أطفال مهاراتهم القرائية لم تكن أفضل من أولئك الخاضعين للمراقبة الفردية القصوى، ولكن لم يتوفر لهم كادر مدرَّبٌ بما يكفي ضمن البرنامج المكثف الفردي.

"حجمُ الفصل الدراسيّ العادي ضخمٌ جدًا،" أخبرته ليزا، "ولذا ليس بوسع المعلمين الوصولُ إلى أولئك الأطفال. كنتُ معلمة فصل وأدرك الأمر. أولئك الأطفال الذين يعانون من صعوبات التعلّم- يمثلون ثلاثة من أصل ثلاثين. ثلاثة أو أربعة. ليس هذا سيئًا جدًا. فتقدُّم بقية الأطفال يساعدك على المواصلة. وبدلاً من التوقف وإعطاء الأطفال الميئوس منهم ما يحتاجونه، يمارس المدرسون نوعًا من خلط أوراق العاطل بالباطل، ظانين- أو متظاهرين- بأنهم يتقدمون بالجماعة كلها. ثم ينتقلون بذاك الخليط المتنافر إلى الصف الثاني، ثم الصف الثالث، ثم الصف الرابع، وهنا يرسب أولئك الأطفال الضعاف على نحو خطر. أما هنا فليس لدينا إلا هؤلاء الأطفال فقط، أولئك الذين لا يمكن الوصولُ إليهم ولا يتمُّ الوصول إليهم، ولأنني عاطفيةٌ جدًا مع تلامذتي ومع مهنتي، فإن هذا يؤثر على وجودي كاملاً- عالمي كلّه. ثم هناك المدرسةُ، القيادةُ- يا أبي، إنها ليست على ما يرام. لدينا مديرة مدرسة ليس لديها رؤيةٌ عما تريد، ولدينا خليطٌ غير متجانس من بشر يفعلون ما يظنونه الأفضل. الذي هو ليس بالضرورة الأفضل. حينما أتيتُ إلى هنا قبل اثني عشر عامًا كان الأمر عظيمًا. كانت المديرةُ ممتازةً بالفعل. قلبتْ المدرسةَ رأسًا على عقب. لكننا الآن فقدنا واحدًا وعشرين معلمًا في أربع سنوات. وهو عدد كبير. فقدنا الكثيرَ من الجيدين. منذ عامين ذهبتُ إلى فصول تقويم عيوب القراءة لأن قواي كانت قد استُهلِكَت في الفصل الاعتيادي. عشر سنوات في كل هذا يومًا بعد يومٍ. لم أعد أحتمل."

تركها تتكلم، ولم يقل إلا القليل، ولأن سنوات قليلة كانت تفصلها عن الأربعين، مقهورة بما يكفي، أخذها بين ذراعيه تلك الابنةَ التي ضربها الواقعُ بمطرقته وراح كولمن يتخيلها وهي أيضًا تحتضن طفلاً من تلاميذها ذوي السنوات الست ممن أيضًا ضربهم الواقعُ بمطرقته فلم يقدروا على القراءة. كان لليزا نفسُ بأس أمها آيريس ولكن دون سلطانها، وبالنسبة لشخص وهب حياتَه للآخرين- فإن الإيثارَ المهول كان لعنةَ ليزا- كانت، كمعلمة، تحوّم على نحو دائم حول حافة الاستنفاد والاستهلاك. بوجه عام كان هناك دائمًا صديق يطلب ودّها ولم تقدر أن تكبح تعاطفها نحوه، ولأجله أخرجت ما بنفسها، ومن أجله، وعلى نحو لا يفتر، غدت عذريتها الأخلاقيةُ الطاهرة مصدرَ ضجر ضخم. كانت ليزا دائمًا أخلاقيةً في ذهنها، ولكن دونما غلظة القلب التي تُحبط احتياج الطرف الآخر، ومن دون القوة التي تحررها من وهم قوتها. لأجل هذا كان يعرف أنها

لن تترك أبدًا برنامج تقويم القراءة، وأيضًا كان هذا وراء أن فخره الأبوي الذي يحمله لها لم يكن فقط مثقلاً بالخوف بل كان مشوبًا في أوقات كثيرة بنفاد صبر يقف على حافة الاستصغار.

"ثلاثون طفلاً عليكَ رعايتهم، المستوياتُ المتباينة التي جاء منها الأطفال، والخبراتُ المختلفة التي مرّوا بها، عليك أن تفيد من كل هذا،" راحت ليزا تخبره. "ثلاثون طفلاً متنوعون من ثلاثين خلفية متنوعة يتعلمون عبر ثلاثين أسلوبًا متنوعًا. هذا يعني الكثير من أساليب التعامل وسياساته. هذا يعني الكثير من أوراق العمل. هذا يعني الكثير من كل شيء. على أنه يظل لا شيء مقارنةً بالمفترض أن يحدث. بالتأكيد، حتى مع هذا، حتى في فصول تقويم قدرات القراءة، تمرُّ أيامُ أقول فيها لنفسي: كنتُ اليومَ جيدة، على أنني في معظم الأيام أودُّ أن ألقي بنفسي من النافذة. تنازعتني نفسي كثيرًا لأعرف ما إذا كان هذا هو البرنامج المناسب لي أم لا. لأنني عاطفية لأقصى حد، إذا لم تكن تعرف هذا عني. أريد أن أؤدي العمل بالطريقة المُثلى، وليس من طريقة مُثلى- كل طفل مختلفٌ وكل طفل حالةٌ مستعصية، والمفترض عليّ أن أواصل في خضم هذا وأن أجعل الأمر يتقدم. لا شك أن كل الناس يكافحون مع أطفال لا يقدرون على التعلم. ماذا تفعل مع طفل لا يقدر أن يقرأ؟ فكرْ في الأمر- طفل لا يقدر أن يقرأ. الأمر صعبٌ يا أبي. أناك وذاتك لابد أن تذوب، تعرف هذا."

ليزا، التي تضمُّ بين جنبيها الكثيرَ من القلق، ليزا التي ضميرُها لا يعرف الازدواجيةَ، ليزا التي تتمنى أن توجد وحسب من أجل مساعدة الآخرين. ليزا التي تسمح لخيبة الأمل أن تتلبسها، ليزا التي مثاليتُها لا سبيل لوصفها. 'هاتفْ ليزا'، قال لنفسه، متخيلاً قليلاً أن بوسعه أن يُخرج من طفلته الطاهرة على نحو أحمق نغمةَ الاستياء القاسية كالفولاذ تلك التي استقبلت بها مهاتفته.

"لا تبدين كما أنتِ."

"أنا بخير،" أخبرته ليزا.

"ماذا بكِ يا ليزا؟"

"لا شيء."

"كيف حالُ مدرسة الصيف؟ كيف حال التدريس؟"

"بخير."

"وجوش، كيف حاله؟" (صديقها الجديد.)

"بخير."

"كيف حال تلاميذك الأطفال؟ ماذا جرى للصغير الذي لا يستطيع تمييز حرف n؟ هل وصل للمستوى العاشر. الطفل الذي في اسمه حرف n– هيرناندو."

"كل شيء بخير."

بعد ذلك سألها برفق: "هل يهمّك أن تعرفي كيف حالي؟"

"أعرفُ كيف حالك."

"صحيح؟"

لا إجابة.

"ما الذي يعذّبك يا حبيبتي؟"

"لا شيء."

تلك الـ"لا شيء" الثانية، كانت تعني بوضوح: لا تنادني بـ"يا حبيبتي"[33].

شيءٌ غير مفهوم كان يحدث. مَن أخبرها؟ بمَ أخبروها؟ حينما كان تلميذًا في المدرسة ثم في الجامعة بعد الحرب كان لا يتوانى عن ملاحقة المناهج الدراسية المرهقة؛ وحين أصبح عميدًا لكلية أثينا كان يزدهر خلال صعوبات الوظيفة المرهقة؛ وحين غدا متهمًا بالعنصرية في حادثة الـ *Spooks* لم يضعف مرّةً في محاربة الاتهام الباطل؛ وحتى استقالته من الجامعة كانت سلوكًا لا ينمُّ عن استسلام بل عن احتجاج غاضب، كانت استقالتُه تظاهرةً هادئة متأنية تعبّر عن ازدرائه الصموت لما يحدث. ولكن خلال كل السنوات التي حافظ فيها على نفسه أمام فروض مهامه أو المعوقات أو الصدمات، لم يشعر أبدًا- حتى بعد موت آيريس- بأنه عارٍ من كل دفاع عن نفسه مثلما حدث حينما جسدت ليزا جميع سخريتها الرقيقة وجمعتها في كلمة واحدة "لا شيء"، فحمّلتها بكل خشونة المشاعر، تلك التي أبدًا لم تكن لديها يومًا، طوال حياتها.

في تلك اللحظة، حينما أفرغت "لا شيء" ليزا[34] كل معناها الرهيب، لمح كولمن شاحنة صغيرة تتحرك على طول الطريق الأسفلتي هابطةً من حيث المنزل- هابطة تزحف نحو الأمام حوالي ياردتين، تفرمل، تتدحرج ببطء من جديد، وتفرمل ثانيةً... نهض كولمن وحملق خلال العشب المجزوز، ثم راح يمدّ عنقه ليرى، وعندها، بأعلى صوته شرع في الصياح: "أنتَ! ماذا تفعل هنا، هيي!" لكن الشاحنة سرعان ما زادت من سرعتها واختفت فورًا من مجال الرؤية قبل أن يتمكن كولمن من الاقتراب بما يكفي ليتبين أي شيء قد يفيد في معرفة السائق أو الشاحنة. ولأنه لم يستطع أن يميز شيئًا، ولا هو

[33] - الأصل بالإنجليزية أجمل وأكثر بلاغة من الترجمة العربية، راجع المقدمة: *Don't; sweetheart me*!، وهنا حوّل الاسم "حبيبتي" sweetheart، إلى فعل. وهذا الاشتقاق البلاغي "المنحوت" ليس له شبيه بالعربية. (المترجمة)

[34] - "لا شيء" الخاصة بليزا. عبارة "لا شيء" هي الفاعل في هذه الجملة. (المترجمة)

عرف من أين انطلقت الشاحنة، لم يقدر حتى أن يعرف إن كانت الشاحنة جديدة أم قديمة، كل ما استطاع أن يخرج به هو لونها الرماديّ غير المحدد.

والآن كان الهاتف ساكنًا سكونَ الموات. في أثناء ركضه عبر الأعشاب، ضغط دون قصد على زر الإغلاق. هذا، أو ربما تكون ليزا قد قطعت الخط بهدوء. حينما أعاد الاتصال، أجابه رجلٌ. "هل هذا جوش؟" سأل كولن. "نعم،" قال الرجل. "أنا كولن سيلك. والد ليزا." بعد برهة صمت، قال الرجل: "ليزا لا تودّ الحديث،" وأغلق الخط.

تلك فِعلة مارك. لابد ذلك. لا أحد سواه. لا يمكن أن يكون جوش اللعين هذا- فمَن يكون؟ لم تكن لدى كولن فكرةٌ عن كيف اكتشف مارك علاقتَه بفونيا ولا كيف اكتشفت دلفين روكس أو أيُّ شخص آخر، لكن هذا لم يعد مهمًّا الآن- لابد أنه مارك مَن عنّف توأمته بسبب جريمة والدهما. هي جريمةٌ بالنسبة إلى ذلك الولد. تقريبًا منذ استطاع الكلام، لم يقدر مارك على التخلص من فكرة أن والده ضده دائمًا: بسبب الولدين الأكبر لأنهما كانا أكبر سنًّا وتفوقا جدًّا في المدرسة وتشرَّبا دون شكوى مواهب أبيهما الفكرية؛ بسبب ليزا لأنها كانت ليزا، طفلة الأسرة الصغيرة، طفلة والدها المدللة دون جدال؛ كانت نقيض مارك لأنه كان نقيضَ كل ما تتمتع به توأمتُه- كانت جديرة بالحب، بالإعجاب، فاضلة، تمس القلب، نبيلة في أعماقها- بينما مارك لم يكن كذلك ورفض أن يكون كذلك.

كان مارك ربما هو الشخص الأصعب على الإطلاق الذي حاول كولن، لا أن يفهمه- فالامتعاضُ والاستياء والنقمة أشياء مفهومة للغاية- بل أن يتعامل معه. بدأ في الأنين والتجهم حتى قبل أن يكبر بما يكفي للذهاب إلى حضانة الأطفال، وبدأ فورًا بعد ذلك في الاحتجاج ثم الاعتراض على أفراد أسرته وعلى أسلوب تناولهم للأمور، وبالرغم من كل محاولات الاسترضاء، كان قلبه يزداد قساوة مع مرور السنوات. في عمر الرابعة عشرة دعم نيكسون بصخب أثناء شائعات اتهامه بالخيانة بينما كان بقية أفراد الأسرة يؤيدون سجن الرئيس مدى الحياة؛ في السادسة عشرة أصبح يهوديًّا أرثوذكسيًّا بينما بقيتهم، آخذين تعاليمهم من والديهم المقاومينْ للأكليروس، كانوا يهودًا بأسمائهم وحسب؛ في العشرين أثار سخط والده بأن انسحب من جامعة برانديز وقد تبقى له فقط فصلان دراسيان على التخرج، والآن، وهو تقريبًا في الأربعين، بعدما جرَّب وأطاح بعشرات الوظائف المختلفة التي كان يعتبر نفسه أرقى منها، اكتشف في الأخير أنه شاعر وقاص.

وبسبب خصومته العنيدة لوالده، كان مارك يضع نفسه عكس ما تكون أسرته- والأتعس في الأمر أن يضع نفسه عكس ما يكون هو ذاته. ولدٌ ذكي، يقرأ جيدًا، سريع

البديهة وحادّ اللسان، وبالرغم من ذلك لم يقدر أن يحدد طريقه بالقرب من كولمن إلى أن، في سن الثامنة والثلاثين، كشاعر حكّاء للكتاب المقدس، جاء ليداوي بغضاء حياته العظيمة المنظمة بكل غطرسة شخص لم ينجح في شيء. له حبيبةٌ مخلصة متفانية، شابة جادّة، شديدة الحساسية، يقظة التدين، تكسب قوتهما معًا من عملها كأخصائية أسنان في مانهاتن بينما مارك كان يمكث في شقتهما ببناية في بروكلين لا مصعد فيها يكتب قصائده المستوحاة من الكتاب المقدس تلك التي لا تقبل حتى المجلاتُ اليهودية أن تنشرها، قصائد لا متناهية الطول حول كيف ظلم داود ابنَه أبشالوم وكيف ظلم إسحق ابنَه عيسو وكيف ظلم يهوذا أخاه جوزيف وحول لعنة النبي ناثان بعد خطيئة داود مع بثشيبع- قصائد تعتبر، بكل حسن الظن الممكن، صورة ذهنية ثابتة ممسوخة حاول ماركي فيها تكديس كلِّ شيء ففقدت كلَّ شيء.

كيف أنصتت ليزا إليه؟ كيف استطاعت أن تأخذ على محمل الجد أية تهمة يرميها ماركي ضد أبيها بينما هي تعلم دوافعه طوال حياته؟ ذلك يعود لطيبة ليزا مع شقيقها، مهما اكتشفت رداءة الكراهية التي شوهته، ربما يعود هذا إلى ميلادهما المشترك كتوأمين. إنها طبيعتها الخيّرة، ولأن ضميرها منذ كانت تلميذة في المدرسة كان يؤنبها لأنها الطفلة المفضلة، كانت دائمًا تستوعب شكوى توأمها فتؤدي دور المواسي له في مشاحناته مع الأسرة. ولكن هل يجب أن يمتد اهتمامُها بنصفها غير المفضَّل إلى حد تصديق هذه التهمة المجنونة؟ وماذا كانت التهمة؟ ما الشيء المؤذي الذي ارتكبه الأبُ، ما طبيعة الأذى الذي سدّده لأطفاله ليضع هذين التوأمين في حلف دلفين روكس ولستر فيرلي؟ والاثنان الآخران، ابناه العالمان- هل تورطّا في الشك أيضًا؟ متى آخر مرة سمع صوتهما؟

يذكر الآن تلك الساعة النحس في البيت بعد جنازة آيريس، تذكّرها فلدغته الذكرى مجددًا بتلك التهم التي رماها مارك ضد أبيه قبل أن يتحرك الولدان الكبيران ويدفعاه بقوة داخل غرفته القديمة طوال ذلك الأصيل. في الأيام التي تلت، حينما كان أولاده جميعًا حوله لا يزالون، كان كولمن ينوي أن يُلقي باللوم على حزن مارك على أمّه وليس على مارك نفسه فيما تجرأ الولد على قوله، لكن ذلك لا يعني أنه نسي أو من الممكن أن ينسى. بدأ مارك في توبيخه بعد دقائق قليلة من ركوبهم السيارة للعودة للبيت من المقبرة. "الجامعةُ لم تفعل ذلك. الطالبان الزنجيان لم يفعلا. أعداؤك لم يفعلوا. أنت الذي فعلها. أنتَ قتلت أمي. بذات الطريقة التي تقتل بها كلَّ شيء! لأنك يجب أن تكون على صواب! لأنك لن تعتذر، لأنك في كل مرة تكون على صواب بنسبة مئة في المئة، الآن هذه أمي التي ماتت! والأمر كان من الممكن أن يمر بسهولة- كان سيمر في أربعٍ وعشرين

ساعة إذا كنت قد تعلمتَ أن تعتذر مرةً واحدة في حياتك. ' أنا آسف لأنني قلت *Spooks*. ' هذا كل ما كان عليك أن تفعله، أيها الرجل العظيم، فقط أن تذهب إلى هذين الطالبين وتقول لهما إنك آسف، وقتها ما كانت أمي لتموت!"

في حديقته بالخارج، اعتصر كولمنَ سخطٌ مباغتٌ لم يشعر به منذ اليوم الذي تلى انفجار مارك، حينما كتب استقالته من الجامعة وقدمها في ساعة زمن. كان يعلم أنه ليس من الصواب أن تكون لديه تلك المشاعرُ تجاه أولاده. كان يعلم، من خلال حادثة الـ *Spooks*، أن سخطًا بهذا الحجم هو لونٌ من ألوان الجنون، من الممكن أن يخضع له. كان يعلم أن نقمةً كتلك لا يمكن أن تقوده إلى حل هادئ وعاقل للمشكلة. كان يدرك كمعلّم كيف يعلّم وكأب كيف يربّي وكرجل تخطّى السبعين أن المرء يجب ألا يأخذ بعين الاعتبار، خاصة مع أسرة، حتى مع أسرة تضم ابنًا كارهًا مثل مارك، مثل ذلك الحقدَ العنيد. ولم تكن حادثة الـ *Spooks* وحدها هي التي علّمته ما الذي يمكن أن يهدم ويحطم رجلاً يؤمن أنه مظلوم بقسوة. كان قد تعلّم ذلك من غضب أخيل، من ثورة فيلوكتيتس، من احتجاج ميديا، من جنون أجاكس، من يأس إلكترا، ومن معاناة بروميثيوس[35]، عرف كولمن كل الأهوال التي يمكن أن تتوالى حينما يحدث السخطُ في درجاته العليا ثم، باسم العدالة، يحدث العقابُ لتبدأ دائرة الانتقام في الدوران.

وكان من حسن الحظ أن عرف كل هذا، لأن الأمر لن يُسفر عن أقل من ذلك، ليس أقل من تعلُّم الاحتراز من التراجيديا الأثينية ومن الشعر الإغريقي الملحمي، ليمنعه من أن يهاتف ماركي فورًا ليذكّره بأنه ليس إلا شيئًا تافهًا ضئيلاً، مثلما كان وسيظل دائمًا.

المواجهةُ المباشرة الأولى لكولمن مع فيرلي جاءت بعد حوالي أربع ساعات. كما أعيدُ أنا بناءها الآن: لكي يتأكد كولمن أن لا أحد يتلصص على منزله، كان يتفقد بنفسه الداخلَ والخارجَ والبابَ الأمامي والبابَ الخلفي وبابَ المطبخ ستَّ مرات أو سبعًا في الساعة بعد وصول فونيا. ليس قبل العاشرة حينما كان كلاهما واقفينْ معًا عند باب المطبخ الزجاجيّ، يتعانقان قبل الافتراق مع حلول الليل، حينما استطاع أن يعلو فوق سخطه الصدئ ليسمح للشيء الجاد الحقيقي في حياته- الثَّمَل بآخر الملذات، وهو ما أطلق عليه مان[36]، وهو يكتب شخصية أشينباك، "مغامرةَ المشاعر المتأخرة"- ليسمح لذلك الشيء أن يؤكد نفسه ويقود حياته. وحينما كانت على وشك المغادرة، وجد نفسه

---

[35] - شخوص أسطورية لها حكايا معروفة في الميثولوجيا الإغريقية وتناولتها الإلياذة والأوديسة. (المترجمة)

36- (Thomas **Mann** (6 June 1875 – 12 August 1955- توماس مان، روائي ألماني. مؤلف رواية "الموت في فينيسيا"، وأشينباك أحد شخصيات الرواية. حصل مان على نوبل 1929. (المترجمة)

يـشتهيها كأنـما لا شيء آخر يـهم- ولا أحد يـهم، لا ابنـته، ولا أبـناؤه، ولا زوج فونـيا السابق، ولا دلفين روكس. تلك لم تكن مجرد حياة، كان يفكر، بل هي نهايةُ الحياة. الذي لا يُطاق في الأمر لم يكن هذه البغضاء السخيفة التي أثارها هو وفونيا لدى الآخرين؛ بل كان الذي لا يُطاق حقًّا هو أنه في المنعطف الأخير من أيامه، كان في قاع دلو الحياة، في نهاية الزمن إن كان ثمة زمن، لينسحب من تلك المعركة، ليكفّ عن دفوعاته، ليحرر نفسه من ضميره الحيّ الذي جعله ينشئ أبناءً أربعة مفعمين بالحياة، ويصرّ على زواج متوتر، ويؤثّر على زملاء متمردين، ويوجه طلاب أثينا متوسطي المستوى، بأفضل ما كان يمكنه أن يفعل، فعل كل ذلك من خلال آدابٍ عمرها خمسةُ وعشرون قرنًا من الزمان. حان وقت الاستسلام، حان الوقت ليجعل هذا الاشتهاءَ البسيط قائَده. فيما وراء اتـهامهم. فيـما وراء تهمتـهم. فيـما وراء مـحاكمتهم. تعـلّمْ، يـقول لنفـسه، قـبل أن تموت، عليك أن تحيا فيما وراء السلطة القضائية لسخطهم، لسُخطهم، للومهم الغبيّ.

الصدام مع فيرلي. الصدام تلك الليلةَ مع فيرلي، مواجهة مُزارع الألبان الذي لم يقصد الإخفاق لكنه أخفق، أحد عمال فِرق الطرق الذي أعطى نفسه بالكامل لبلدته بصرف النظر عن انحطاط وتدني مهنته، الأمريكي المخلص الذي خدم بلاده في فيتنام ليس في جولة واحدة بل في اثنتين، والذي عاد للمرة الثانية ليُنهي المهمة الملعونة. عاد ثم ذهب ثانيةً لأنه حين عاد إلى الوطن في المرة الأولى قال الناسُ إنه لم يكن الشخص نفسه ولم يتعرفوا عليه، وكان يرى أنهم على حق: كانوا جميعًا يخافونه. عاد إليهم من حرب أدغال، وليس فقط لم يُقدَّر كما ينبغي، بل كان يُخاف منه، لذلك ربما كان عليه أن يرجع. لم يكن يأمل أن يُعامَل معاملة الأبطال، ولكن أن ينظر الناسُ إليه هكذا؟ لذلك رجع للجولة الثانية، وكان هذه المرة مستعدًا. ثملاً بالغضب. متأججًا بالثأر. كان جنديًّا شديد الشراسة. في المرة الأولى لم يكن بهذا الحماس. في المرة الأولى كان لِس[37] المطمئن البال، لم يكن يعلم ماذا يعني شعور اليائس. في المرة الأولى كان هو الفتى من بيركشاير الذي يضع ثقته في الناس ولم يكن يدرك كم يمكن أن تكون الحياة رخيصة، لم يكن يعلم ماذا يعني التطّبب والعلاج، لم يكن يشعر بأنه أدنى من أي مخلوق، لِس المحظوظ السعيد، لا خطر منه على المجتمع، مئات الأصدقاء، سيارات سريعة، وكل تلك الأشياء. في المرة الأولى كان عنيدًا لأنه كان هناك، وكان الأمر قد تم، وهكذا كان الحال. لم يكن أحدَ أولئك الذين بمجرد أن يجدوا أنفسهم في كل تلك الفوضى وغياب القانون لا يطيقون صبرًا حتى يعودوا، أولئك الذين لا يجيدون أن يكونوا ضمن فريق، أو

[37] - اختصار لستر فيرلي، وسوف يستخدمها السردُ كثيرا. (المترجمة)

يصبحون عدوانيين حينما تشاكسهم ثم يترقبون أقرب فرصة ليولّوا الأدبار. كان هناك رجلٌ في الوحدة التي ينتمي إليها، رجل كانوا يطلقون عليه "الرجل الكبير"، لم يكن يمر يوم أو يومان إلا ويضرب امرأةً حُبلى فيفتح بطنها. كان فيرلي مبتدئًا فلم يتعود على هذا حتى نهاية رحلته الأولى. ولكن في المرة الثانية، في الوحدة هذه حيث كان العديد من الرجال ممن عادوا كذلك وممن لم يعودوا إلا لمجرد قتل الوقت أو ليجنوا حفنة دولارات إضافية، المرة الثانية هذه، ومع هؤلاء الرجال الذين ينتظرون دائمًا أن يوضعوا في المقدمة، الرجال المقرفين الذين عاينوا الرعبَ ولكنهم يعرفون أنها اللحظة الأفضل في حياتهم، مع أولئك كان مقرفًا أيضًا. في مكافحة النيران، الهرب من المخاطر، إطلاق النار، ليس بوسعك ألا تكون مرعوبًا، بوسعك فقط أن تكون هائجًا فاقد السيطرة ثم تركض هاربًا، ولذلك عاد المرة الثانية مهتاجًا. المرة الثانية كان مُخرِّبًا منتقمًا. يعيش هناك على الحافّة تمامًا، ممتلئًا حتى الحلق بالهيجان والخوف، لا شيء في الحياة المدنية يشبه ذلك. مدفعية البوابة[38]. لأنهم يفقدون طائرات الهليوكوبتر فكانوا يحتاجون إلى قناصي بنادق بالبوابات. في نقطة بعينها طلبوا قناصي بوابات فقفز فورًا لتلبية الطلب، وهو الجندي المتطوع. هناك في الأعلى فوق الحدث، وكل شيء يبدو صغيرًا من أعلى، وليس عليه إلا أن يطلق النار بقوة. على كل شيء يتحرك. قنّاصو البوابات موجودون من أجل الموت والدمار. مع الفتنة المُضافة بسبب أنك لست مضطرًا أن تكون بالأسفل في الدغل طوال الوقت. ولكنه بعد ذلك عاد للوطن ولم يكن ذلك بأفضل من المرة الأولى، كان أسوأ. ليس مثل جنود الحرب العالمية الثانية: كان لديهم سفينة، كانوا ينعمون بالاسترخاء، ثمة شخص يعتني بهم، يسألهم كيف حالهم. ليس من نقاط انتقالية. يكون في يوم جنديّ مدفعية حصن في فيتنام، يشاهد طائرات الهليوكوبتر تنفجر ويرى أشلاء رفقائه تتناثر في الجو، وفي الأسفل يشم رائحة شواء اللحم البشري، ويسمع الصرخات المدوية، ويرى القرى بكاملها تسبح في اللهب، وفي اليوم التالي يعود إلى بيركشاير. والآن أصبح بالفعل لا-منتميًا، فضلاً عن ذلك، تربت لديه فوبيا رعب من الأشياء التي تتحرك فوق رأسه. لم يعد يرغب في أن يكون مع الآخرين، لم يعد قادرًا على الضحك أو المزاح، يشعر بأنه لم يعد جزءًا من عالمهم، بأنه شاهد وصنع أشياء خارج ما يعرفه أولئك الناس، لدرجة أنه لم يعد يقدر على التواصل معهم ولا هم قادرون على التواصل معه. يخبرونه أن بوسعه العودة إلى وطنه؟ كيف بوسعه العودة إلى الوطن؟ ليس لديه هليوكوبتر في الوطن. يجلس وحيدًا ويثمل، وحينما يزور الـ

[38] - Door gunning، مهمة مستحدثة مع الحرب العالمية الثانية. وفيها يقف أحد أفراد طاقم القناصة بمدفعيته عند باب الهليوكوبتر ليقنص هليوكوبتر من طائرات العدو. (المترجمة)

VA[39] يقولون إنه هناك فقط ليأخذ نقودًا، بينما هو هناك لينال المساعدة. في مرحلة سابقة، حاول أن يحصل على دعم الحكومة وكان كل ما أعطوه له بعض الحبوب المنومة، ولذا فتبًا وألف تبٍّ للحكومة. عاملوه كأنه نفايات. أنت شابٌّ، قالوا له، وسوف تتغلب على الأمر. لذلك حاولَ أن يتغلب على الأمر. هو لا يقدر أن يتعامل مع الحكومة، لذا سيكون عليه أن يعتمد على نفسه. فقط ليس سهلاً بعد رحلتين أن يعود ويستقر دون مساعدة ما. هو ليس رابط الجأش. هو ثائر مهتاج. هو غير مرتاح وقلق. هو يثمل. من اليسير جدًا استثارة غضبه. وهناك تلك الأشياء التي تتحرك فوق رأسه. مازال يحاول: أخيرًا لديه الزوجة، البيت، الطفلان، المزرعة. هو يريد أن يكون وحيدًا، ولكنها تريد أن تستقر وأن تزرع معه، لذا يحاول أن 'يريد' أن يستقر أيضًا. هو يذكر لِس رائق البال الذي كان 'يريد' منذ عشر، خمس عشرة سنة ماضية، قبل فيتنام، ويحاول أن 'يريد' من جديد. المشكلة هي، أنه حقًّا لا يشعر بهؤلاء القوم. يجلس في المطبخ ويأكل معهم ولا يشعر بأحد. لا سبيل لأن يذهب من ذلك إلى هذا. لكنه مازال يحاول. مرتين في منتصف الليل يصحو ليخنقها، لكنها ليست غلطته- هي غلطة الحكومة. إنها الحكومة التي فعلت به هذا. كان يؤمن أن تلك المرأة هي عدوه اللدود. ماذا كانت تفكر أنه سيفعل؟ كانت تعلم أنه سوف يخرج من الأمر. لم يؤذها أبدًا ولم يؤذ الطفلين. تلك كانت كلها أكاذيب. هي لم تعبأ بشيء أبدًا سوى بنفسها. كان عليه أن يدرك أن عليه ألا يدعها تمضي مع هذين الطفلين. هي انتظرتْ حتى كان في عملية التأهيل- لأجل هذا كانت تريده أن ينضم لإعادة التأهيل. قالت إنها تريده أن يكون أفضل حتى يقدرا على المواصلة معًا، وبدلاً من ذلك استغلت الأمر كله ضده لتأخذ الطفلين بعيدًا عنه. العاهرة. المومس. خدعته. كان يجب أن يعرف أن عليه ألا يتركها مع هذين الطفلين أبدًا. كان خطؤه إلى حد ما لأنه كان ثملاً للغاية فاستطاعوا أن يأخذوه بالقوة لمركز التأهيل، ولكن كان من الأفضل أن يقتلهم جميعًا بدلاً من أن يستسلم لهم. كان عليه أن يقتلها، كان عليه أن يقتل الطفلين، وكان سيفعل لولا التأهيل. وهي كانت تعرف ذلك، تعرف أنه كان ليقتلهم لو حاولت مرّة أن تأخذهما بعيدًا. هو كان الأب- لو أن أحدًا سوف يربي طفليه فلابد أن يكون هو. لو لم يقدر أن يعتني بهما، فمن الأفضل لهما أن يموتا. ليس لها الحق في أن تسرق طفليه. تسرقهما، ثم تقتلهما. هذا هو ثمن ما فعله في فيتنام. جميعهم قالوا إن التأهيل- هو الثمن المستحق هنا وهناك، ولكن لأن الجميع يقولون ذلك، فلم يجعل الأمر غير ذلك. كان هذا هو الثمن، كل الثمن، موت الطفلين كان الثمن والنجار الذي كانت تضاجعه كان الثمن. لا يعرف لماذا لم يقتله. في البدء شمَّ الدخان فقط. كان

39- The US Department of **Veterans Affairs**، مؤسسة شئون المحاربين القدامى. (**المترجمة**)

في الدغل أسفل الطريق يراقبهما معًا في شاحنة النجار. كان قد صفَّ شاحنته في مكان سيارتها. نزلتْ فونيا على الدَّرَج- الشقة التي تستأجرها كانت فوق جراج خلف كوخ من طابق واحد- ثم دخلتْ الشاحنة ولم يكن هناك ضوء ولم يكن هناك قمر لكنه أدرك ماذا يحدث. ثم شمَّ الدخان. السبيل الوحيد الذي جعله ينجو بحياته في فيتنام كان عن طريق تمييز أي تغيير، ضوضاء، رائحة حيوان، أية حركة في الدغل، ويكون بوسعه أن يلتقطه قبل غيره- عليه أن يكون يقظًا في الدغل كأنما قد ولِد هناك. لم يستطع أن يرى الدخان، لم يستطع أن يرى اللهب، لم يقدر أن يرى أي شيء فقد كان الظلام كثيفًا، ولكنه فجأة استطاع أن يشم الدخان وتلك الأشياء تطير فوق رأسه فبدأ يعدو. رأياه آتيًا وظنّا أنه جاء ليخطف الطفلين. لم يعرفا أن البناية كانت تحترق. ظنّا أنه غاضب. لكنه كان يشم الدخان وعرف أنه آت من الطابق الثاني ويعرف أن الطفلين هناك. كان يعرف أن زوجته، العاهرة المومس الغبية، لن تفعل أي شيء لأنها في الشاحنة تضاجع النجار. جرى جوارهما تمامًا. لم يدر أين هو الآن، نسى أين هو، كل ما كان يعرفه هو أن عليه أن يكون هناك بالأعلى، ولذا ركل الباب الجانبي وركض للأعلى حيث النيران فرأى الطفلين على السلم، جاثمين هناك أعلى الدَّرَج، يلهثان بوهن، فالتقطهما. كانا منهارين معًا على السلم، حملهما ومرق من الباب. كانا حيين. كان يظن أنهما مرعوبين وحسب. ثم رفع بصره لأعلى والذي رآه خارج الباب، يقف هناك ينظر إليه، لم يكن سوى النجار. ولم يعرف ماذا كان يفعل. توجّه مباشرة إلى عنقه. وبدأ يخنقه، وتلك الكلبة الداعرة، بدلاً من أن تذهب إلى الطفلين، كانت قلقة على عشيقها الداعر من الخنق. الكلبة العاهرة قلقة من قتل عشيقها بدل أن تقلق من موت طفليها التعسين. لهذا السبب ماتا. لأنها لم تلق إليهما بالاً. لم تفعل أبدًا. لم يكونا ميتين حين التقطهما. كانا دافئين. هو يعلم كيف يكون الميت. رحلتان إلى فيتنام علمتاه كيف يكون الميت. بوسعه أن يشم الموت. بوسعه تذّوق طعم الموت. يعلم ما هو الموت. هما- لم- يكونا- ميتينْ. العشيق هو الذي كان سيكون ميتًا ملعونًا، ثم جاءت الشرطة ببنادقها بالاتفاق مع الحكومة، ليأخذوه بعيدًا. العاهرة قتلت الطفلين، كان إهمالُها السبب، ثم يقبضون عليه هو. يا أيها الرب المسيح، انصفني ولو لبرهة صغيرة! الكلبة لم تكن منتبهة! هي لا تنتبه أبدًا. مثلما حينما اخبره شعوره الحدسي الباطني بأنهم متجهون صوب كمين. لم يقدر أن يقول لماذا لكنه كان يعرف أنهم محاصرون، ولم يصدقه أحد، وكان على صواب. ضابط غبي جديد انضم إلى سرية الجند، ورفض أن يسمعه، وهكذا قُتل الجنود. هكذا احترقوا كأنما الجحيم! هكذا يتسبب الأغبياء في موت أفضل رفيقين لك! لم يستمعوا إليه! لم يمنحوه الثقة! عاد حيًّا، أليس كذلك؟ عاد بكامل أطرافه، عاد بعضوهِ الذَّكريّ

سليمًا- تعرفون كم كلّفه هذا؟ لكنها لن تنصت! أبدًا! أدارت له ظهرها وأدارت ظهرها لطفليه. هو ليس إلا جندي فيتنام المجنون. لكنه يدرك الأمور، كلها. وهي لا تعلم شيئًا. لكن هل أوقفوا تلك العاهرة الغبية؟ أوقفوه هو. هددوه بإطلاق النار لكي يرفع يديه. من جديد يضعونه في القيود، ولن يطلقوا سراحه من مؤسسة المحاربين القدامى في نورثامبتون. وكان كل ما فعله هو ما درّبوه على أن يفعله: أنت ترى العدو، عليك أن تقتل العدو. يدربونك لعام، ثم يحاولون قتلك لعام، وبمجرد أن تفعل ما دربوك على أن تفعله، تجدهم فورًا يضعون القيد الجلدي حول معصميك ويطلقون النار بكل غلظة. لقد فعل ما دربوه على فعله وبينما كان يفعل ذلك، أدارت زوجته القذرة ظهرها لطفليه. كان عليه قتلهم جميعًا حينما كان بوسعه ذلك. هو بالذات. العشيق. كان عليه قطع رأسيهما القذرين. لا يعرف لماذا لم يفعل. من الأفضل عدم الاقتراب منه. لو كان يعرف أين ذلك العشيق الداعر، سوف يقتله فورًا حتى لا يكاد يُعرف بأي شيء ضُرب، ولن يعرفوا أنه هو الذي فعل ذلك لأنه يعرف كيف يفعل ذلك دون أن يسمعه أحد. لأن هذا ما دربته عليه الحكومة. هو قاتلٌ مدرَّبٌ محترفٌ بفضل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أدى وظيفته. فعل ما أُمِر أن يفعله. والنتيجة أن يُعامَل هكذا بوحشية؟ وضعوه مكبلا بالأصفاد في زنزانة أسفل السجن، وضعوه في الفقاعة المعزولة، أرسلوه إلى الفقاعة اللعينة! ولن يعطوه حتى شيكًا مصرفيًا. لأن كل ما يحصل عليه فقط هو ال 20% السخيفة. عشرون بالمائة. وضع أسرته كلها في جهنم من أجل عشرين بالمائة. ومن أجل ذلك حتى عليه أن يجثو ويحبو. "وإذن، أخبرنا بما حدث،" يقولون، رجال العمل الاجتماعي الصغار، الأخصائيون النفسيون الصغار بدرجاتهم الأكاديمية. "هل قتلتَ أيّ شخص حينما كنتَ في فيتنام؟" وهل ثمة مَن لم يقتل حينما كان في فيتنام؟ أليس هذا هو المفترض أن يفعله حينما أرسلوه إلى فيتنام؟ أن يقتل الثوارَ الفيتناميين دون رحمة. قالوا إن كل شيء يمر؟ لذا مَرَّ كل شيء. الأمر كله متعلق بكلمة "القتل". اقتلْ الثوار الفيتناميين! "هل قتلتَ أي شخص؟" أليس هذا رديئًا بما يكفي، أن يُجلسوه مع أخصائي نفساني فيتنامي، مثل صيني ملعون. خدم دولته ولا يستطيع أن يجلس مع طبيب يتكلم الإنجليزية؟ على طول نورثامبتون ثمة مطاعمُ صينية، لديهم مطاعم فيتنامية، أسواق كورية- ولكن هو؟ إذا كنتَ فيتناميًا، فأنت صيني، بوسعك أن تدبر حياتك، أن تجد مطعمًا، تجد سوقًا، تجد بقالة ومتجرًا، تجد أسرة، تجد تعليمًا جيّدًا. لكنهم دمروه. لأنهم أرادوا له الموت. تمنّوا ألا يعود من جديد. فهو كابوسهم الأسوأ. لم يكن مفترضًا أن يعود. والآن بروفيسور الجامعة هذا. هل تعرفون أين كان حينما أرسلتنا الحكومة إلى هناك وأذرعنا مقيدة خلف ظهورنا؟ كان هناك بالخارج يقود حشود الملاعين المحتجّين

على الحرب. يدفعون لهم، حينما يذهبون إلى الجامعة، لكي يقوموا بالتدريس، ليعلموا الطلاب، وليس ليحتجوا على حرب فيتنام. لم يعطونا فرصة واحدة تعسة. يقولون إننا خسرنا الحرب. نحن لم نخسر الحرب، الحكومة هي التي خسرت الحرب. ولكن حين شعر بذلك الأساتذةُ ذوو البنطلونات العجيبة، بدلاً من أن يعلّموا طلابَ فصولهم، ذهبوا ليعتصموا بالخارج ضد الحرب، وهذا هو الشكر الذي ناله مقابل خدمته بلاده. هذا هو الشكر على كل القرف الذي ناله في الداخل والخارج. لم يقدر على أن يراوده النومُ ليلةً واحدة، اللعنة. لم ينل نومًا حقيقيًا طوال ستة وعشرين عامًا. ولأجل ذلك، لأجل ذلك انحدرت زوجته مع بروفيسور يهودي[40] قذر؟ لم يكن هناك الكثير من اليهود القذرين في فيتنام، على حسب ما يذكر. كانوا أكثر انشغالاً من أن يحصلوا على درجاتهم العلمية. اليهود الأوغاد. ثمة شيء خطأ في أولئك اليهود الأنذال. لا يبدون منضبطين. هل انحدرت إليه؟ يا إلهي. الرجل القيء. لمَ كلُّ هذا؟ إنها لا تعرف كيف يبدو الأمر. لم يجعلها تعيش يومًا عسيرًا في حياتها. لم يؤذها أبدًا ولم يؤذ طفليه أبدًا. "أوه، زوج أمي كان دنيئًا معي." اعتاد زوج أمها أن يتحرش بها. كان يجب أن يضاجعها، كان هذا سيعدل مسارها بعض الشيء. كان يجب أن يكون الطفلان حيين الآن. طفلاه الملعونان كان يجب أن يكونا حيين اليومَ من الأحياء! لكان سيغدو مثل بقية الرجال أولئك، مع أُسرهم وسياراتهم الجميلة. بدلاً من أن يكون رهنًا لتسهيلات مؤسسة رعاية الجنود القدامى اللعينة. كان هذا هو الشكر الذي ناله: ثورازين[41]. شُكرُهم إياه كان عبارة عن خليط الثورازين. فقط لأنه ظن أنه عائد إلى حرب فيتنام.

كان هذا هو لِستر فيرلي الذي جاء يزأر خارجًا من الأشجار. كان هذا هو الرجل الذي عثر على كولمن وفونيا وهما جالسان في مدخل المطبخ، الرجل الذي جاء يهدر غضبًا آتيًا من ظلام الشجر جوار البيت. وكل هذا لم يكن سوى شيء قليل مما كان داخل رأسه، ليلةً بعد ليلة، خلال الربيع، والآن عند مشارف الصيف، يختبئ لساعات قابعًا هناك في مكان ضيق مقرفصًا مشحونًا بالانفعال، ينتظر أن يراها تفعلها. تفعل ما كانت تفعله حين كان طفلاها يختنقان بالدخان اختناقَ الموت. هذه المرة لم تكن حتى مع رجل في عمرها. ولا حتى من عمر فيرلي. هذه المرة لم تكن مع رئيسها، العظيم الممتلئ بالأمريكية هولنبرك. هولنبرك كان على الأقل بوسعه أن يمنحها شيئًا بالمقابل. بوسعك تقريبًا احترامها من أجل هولنبرك. لكن المرأة الآن كانت قد شطحت بعيدًا جدًا،

40- استخدم المؤلف هنا مفردة kike وهي كلمة مسيئة بالدارجة الأمريكية تستخدم للحط من قيمة اليهود. (المترجمة)
41- دواء للاضطراب العقلي. (المترجمة)

كانت تفعلها مع أي شخص مقابل لا شيء. الآن كانت مع عجوز هزيل جلد على عظام، بروفيسور يهودي رفيع الشأن، وجهه اليهودي الأصفر مجعد بالبهجة ويداه الراجفتان العجوزتان تقبضان على رأسها. مَن سواه لديه زوجة تمتص قضيبَ عجوزٍ يهوديّ؟ من سواه؟ هذه المرة كانت الكلبةُ الداعرة الطائشةُ القاتلةُ تمتص بفمها العاهر ماءً يخرج من عجوز يهودي مقزز، بينما "رولي" و"لي" الصغيران مازالا ميتين. هذا هو المقابل. ليس من نهاية لكل هذا.

هو شيءٌ يشبه الطيران، يشبه حرب فيتنام، يشبه لحظةً تصير فيها متوحشًا. صار فيرلي مجنونًا، فجأة، لأنها تمتص ذلك اليهودي أكثر من لأنها قتلت الطفلين، فيرلي يطير للأعلى، يصرخ، والبروفيسور اليهودي العجوز يردد الصراخ، البروفيسور اليهودي يرفع إطارًا حديديًّا، فقط لأن فيرلي كان غير مسلح- لأن فيرلي كان تلك الليلة عائدًا للتو من قسم التدريب على مكافحة الحرائق دون بندقية واحدة من سردابه المليء بالبنادق- لذلك لم يطلق النار عليهما. كيف حدث أنه لم يقدر أن يمدَّ يدَه لإطار الحديد ويأخذه منه ويُنهي كل شيء في لحظة، لم يعرف ذلك أبدًا. جميل أن استطاع أن يتعامل مع ذلك الإطار الحديدي. "أنزلْ ذلك! سوف أهشّم به رأسك المتعفنة! ضعه من يدك أيها القذر!" فوضعه اليهوديُّ على الأرض. من حسن حظ اليهودي أن وضع الإطارَ أرضًا.

بعدما عاد إلى البيت تلك الليلة (ولا يعرف أيضًا كيف عاد) وبالضبط أثناء الساعات الأولى من النهار- حينما تكفّل رجالُ خمسة من مكافحة الحريق، وخمسةٌ من رفقائه، ليمسكوا به ويقيدوه ويقودوا السيارةَ به بعيدًا صوب نورثامبتون- رأى لِستر كل هذا، كلَّ شيء، كلَّ المشهد دفعة واحدة، هناك في منزله الذي وقع في الحريق وتحت هطل الأمطار، الطين، جحافل النمل العملاق، النحل القاتل عند مشمّع الأرضية جوار طاولة المطبخ، أصابه الإسهال، الصداع، والغثيان من قلة الطعام والماء، وقلّة الذخيرة، كان موقنًا من أنها ليلته الأخيرة، كان ينتظر حدوثها، فوستر يخطو نحو المصيدة المفخخة، كولين يغرق، وهو كاد أن يغرق، مهتاجًا، يلقي بالقنابل اليدوية في كل صوب ويصرخ: "لا أريد أن أموت،" اختلطت حبالُ المشهد وسمع هتافات، دراجو فقد ساقًا، ذراعًا، أنفه، جثة كورنتي المحترقة ملتصقة بيديه، لا يستطيع أن يجد هليوكوبتر ليهبط، يقول قائد الطائرة ليس بوسعهم الهبوط لأنهم مهاجَمون وهو يعلم وهو مستعرٌ بالغضب أنه سوف يموت وأنه يحاول أن يطلق النار، يطلق النار على طائرتنا المروحية- أكثر الليالي لا إنسانية فيما شاهد طوال عمره، وها هي هناك الآن في بيته الحقير، وأطول الليالي

أيضًا، أطول لياليه على الأرض وكان مصعوقًا بكل حركة يأتيها، الرجال يتصايحون ويشتمون ويصرخون، وكان غير مستعد لسماع كل هذا الصراخ، الرجال يُلطَمون على وجوههم ويموتون، يأخذون نَفَسهم الأخير ثم يموتون، جثة كورنتي كلها على يديه، دراجو ينزف على كل المكان، ولِستر يحاول أن يهزّ إحدى الجثث لتصحو ويصيح، يصرخ دون توقف: "لا أريد أن أموت." لا زمانَ خارج الموت. ليس هناك وقتُ راحة للموت. لا مهرب من الموت. لا انقطاع للموت أو توقُّف. مصارعة الموت حتى الصباح وكل شيء كثيف وقاتم. الخوفُ كثيفٌ، الغضب كثيف، وليس من طائرة مروحية تنوي الهبوط ورائحة دماء دراجو البشعة تملأ أركان بيته الملعون. لم يعرف من قبل كم هي رائحة مقززة. **كل شيء شديد الكثافة وكل إنسان بعيد عن الوطن والغضبُ الغاضبُ الغاضبُ الغاضب.**[42]

تقريبًا طوال الطريق إلى نورثامبتون- حتى لم يعد بوسعهم تحمُّل الأمر أكثر أو تكميم فمه- كان فيرلي يصرخ في عمق الليل ويصحو في الصباح ليجد نفسه قد نام في قبر شخص ما مع ديدان الأرض. "أرجوكم!" كان يصرخ. "لا مزيد من هذا! لا مزيد!" ولهذا لم يجدوا بُدًّا من أن يُخرسوه.

في مستشفى مركز المحاربين القدامى، المكان الذي كان بوسعهم أن يأتوا به إليه بالقوة والذي ظل يهرب منه لسنوات- يهرب عمره كله من مستشفى تابع لحكومة لم يستطع التعامل معها- وضعوه في زنزانة مغلقة، أوثقوه إلى السرير، حقنوه بالسوائل، أعادوه للاتزان، نقّوا جسدَه من السموم، أخرجوا منه آثار الكحوليات، عالجوه من تلف الكبد، ثم بعد ذلك، على مدى ستة أسابيع تالية، كلَّ صباح في جلسة العلاج النفسي كان يستعيد في ذاكرته كيف مات الصغيران "رولي" و"لِي". قص عليهم كل ما حدث، كان يقص عليهم كل يوم ما الذي أخفق أن يفعله حينما رأى وجهيْ طفليه المختنقين وعرف بالتأكيد أنهما ماتا.

"الخَدَر وفقدانُ الحسّ،" قال. "فقدان الحس اللعين. لا عاطفةَ ثمة. فقدان الحس نحو موت طفلَي. عينيْ صغيري كانتا مقلوبتين في رأسه للوراء، وتوقف نبضه. لم يكن قلبه يدق. ابني لا يتنفس. ابني. لِس الصغير[43]. ابني الوحيد الذي كان سيكون لي. لكنني لم أشعر بأي شيء. كنتُ أتصرف كأنه غريب. الأمر ذاته مع "رولي". كانت غريبةً عني. طفلتي الصغيرة. يا فيتنام اللعينة، أنتِ من تسبب في هذا! بعد كل تلك السنوات من انتهاء الحرب، وأنت مازلتِ تتسببين في هذا! كل مشاعري تجمدت. شعرتُ كأنما قد

---

[42]- مكتوبة في الأصل بحروف كبيرة Capital letters. (المترجمة)
[43] - الطفل اسمه "لي"، ولكن من عادة الغرب نداء أبنائهم باسم الأب. فيكون ابن لستر، أو لِس، هو لِس الصغير. (المترجمة)

ضُربت على جانب رأسي بقطعة خشب غليظة بينما لا شيء يحدث. ثم ها هو شيء يحدث، شيء ضخم ملعون، لم أشعر بشيء. فاقدُ الحس. طفلاي ماتا، لكن جسدي فاقد الحس وعقلي خاوٍ. فيتنام. لأجلها! لم أبك من أجل طفليَّ أبدًا. كان في الخامسة وكانت في الثامنة. قلتُ لنفسي: 'لماذا فقدتُ الشعور؟' قلتُ، 'لماذا لم أنقذهما؟ لماذا لم أقدر على إنقاذهما؟' الثمن! ظللت أفكر في فيتنام. في كل الأوقات التي ظننت فيها أنني ميت. هكذا بدأتُ أعرف أنني لا أستطيع الموت. لأنني ميت بالفعل. لأنني مِتُّ بالفعل في فيتنام. لأنني رجل ملعون ميت."

كانت المجموعةُ تتكون من محاربين في فيتنام مثل فيرلي عدا اثنين من حرب الخليج، رجلين كالأطفال سريعي البكاء لديهما رمال في عيونهما جرّاء حرب بريّة استمرت أربعة أيام. حرب المئة ساعة. حفنة المنتظرين في الصحراء. بينما محاربو فيتنام كانوا رجالاً، في حياتهم فيما بعد الحرب، خاضوا الأهوالَ والصعاب- طلاقٌ، إسرافٌ في الخمر، مخدراتٌ، جرائمُ، شرطةٌ، سجنٌ، سقوطٌ مريع في الاكتئاب، بكاءٌ لا سيطرةَ عليه، رغبةٌ في الصراخ، رغبةٌ في تحطيم شيء، أيادٍ مرتعشةٌ وأجسادٌ متوترة ووجوهٌ جامدة وعرق يتصبب من الجبهة حتى أصابع القدم لحظةَ تذكّر الطائرات المحلقة والانفجارات المتأججة والأطراف البشرية المبتورة، جرّاء تذكّر مشاهد قتل المساجين والعائلات والعجائز والأطفال- وهكذا، رغم أنهم أومأوا برءوسهم بعد سماعهم حكاية "رولي" والصغير "لي" وتفهموا لماذا لم يقدر على الشعور بهما حينما رآهما بعيونهما الدائرة في رأسيهما للوراء لأنه هو نفسه كان ميتًا، بالرغم من ذلك إلا أنهم اتفقوا، أولئك الرجال المرضى (في تلك اللحظات النادرة حينما يقدر أي واحد منهم على الكلام عن أي شخص فيما عداهم يجوب الشوارع جاهزًا للركض والصياح في وجه السماء: "لماذا؟"، أو الكلام عن أي شخص آخر لا ينال الاحترام الذي يستحقونه، أو الكلام عن أي شخص آخر لا يكون سعيدًا إلى أن يموتوا ويُدفنوا ويُنسوا)، اتفقوا على أنه من الأفضل أن يُلقي فيرلي الأمرَ وراء ظهره ويمضي في حياته.

يمضي في حياته. يعلم أنها خراء، لكنها كل ما يملك. فليمضِ فيها. حسنًا.

أخرجوه من المستشفى في أواخر أغسطس وقد قرر أن يمضي في الحياة. وبمساعدة جماعة المعاونة التي انضم إليها، وبالأخص رجل كان يمشي بعصا اسمه "لوي بوريو"، نجح في ذلك جزئيًّا؛ كان الأمر عسيرًا، ولكن بمساندة "لوي" نجح إلى حد ما، في أن يظل على متن الشاحنة لثلاثة أشهر تقريبًا، بالضبط حتى نوفمبر. ولكن بعد ذلك- وليس بسبب شيء ما قاله له شخصٌ ما ولا بسبب شيء ما شاهده في التليفزيون

ولا بسبب اقتراب عيد الشكر[44] الجديد وهو بلا أسرة، بل بسبب أنْ ليس من بدائل أخرى أمام فيرلي، لا سبيل لمنع الماضي من العودة والمثول، المثول أمام عينيه وندائه ودعوته لكي يفعل شيئًا ومطالبته بردّ شرس وهائل- بدلاً من أن يرمي الأمر وراء ظهره، كان بكل ثقله ماثلا أمام عينيه.

مرة أخرى، تلك كانت حياته.

---

[44] - Thanksgiving عيد الشكر، الخميس الأخير من شهر نوفمبر. (المترجمة)

(2)

حين تطيشُ اللكمةُ

حينما ذهب كولمن إلى أثينا في اليوم التالي ليسأل عمّا يمكن فعله ضد فيرلي لكي يضمن عدم انتهاكه خصوصية حياته مجدداً، أخبره المحامي، نيلسون بيريماس، بما لم يودّ أن يسمعه: أن عليه أن يُمعن النظر في إنهاء علاقته العاطفية بفونيا. كان قد استشار بريماس في بداية حادثة *Spooks*، وبسبب النصيحة الحاسمة التي قالها بريماس- وبسبب حِدّة نغمة الاعتداد بالنفس في أسلوب المحامي الشاب تلك التي ذكرته بنفسه وهو في عمر بريماس، وبسبب بُغض بريماس للرومانسيات العارضة وهو ما لم يبذل جهداً في إخفائه وراء المظهر الرائق الشائع بين المحامين الآخرين في المدينة- فلم يكن سوى بريماس بالذات، الذي قرر كولمن أن يحضرَ له خطابَ دلفين روكس.

كان بريماس في أوائل الثلاثينات، زوجاً لشابة تحمل دكتوراه في الفلسفة- أستاذة فلسفة كانت تعمل مع كولمن قبل أربع سنوات- وأباً لطفلين صغيرين. في كلية بلدة صغيرة في نيوإنجلاند مثل كلية أثينا، حيث معظم المتخصصين قد جُلبوا للعمل عن طريق إعلانات L. L. Bean البريدية ، كان ذلك الشابُّ الوسيم المصقول بريماس ذو الشعر الذي يشبه شعر الغراب، الطويلُ، الأنيق، الرياضيّ المرن، يحضر إلى مكتبه كل صباح في بذلة مخيطة مُنشّاة أنيقة، وحذاء أسود لامع، وقميص أبيض مُنشًّى عليه أنسيال بحروف اسمه، ملابس متأنقة تُصنع من أجله خصيصاً وتعكس ليس فقط ثقةً مفرطة بالنفس وشعوراً كاسحاً بالتميز بل أيضاً تعكس اشمئزازاً لأي شكل من أشكال إهمال الهندام- وكان هذا يشير إلى أن المحامي نيلسون بريماس كان يحلم بشيء أكبر من مجرد مكتب فوق محل تالبوتس يطل على غابة. كانت زوجته تدرّس هنا، لذلك كان هو أيضاً هنا حتى الآن. ولكن ليس لأمد طويل. نَمرٌ شابٌّ في بذلته ذات الأزرار ومطرّز على قميصه حروف اسمه- النمر على وشك الانقضاض.

"لستُ أشك في أن فيرلي شخصٌ مضطرب عقلياً،" قال بريماس لكولمن، وهو يقيس كل كلمة ويحسب تقطيعها بدقة مع تصويبه نظرة حادة مراقِبةً على كولمن فيما يتحدث. "كنتُ بالطبع سأنزعجُ لو كان يقتفي أثري. ولكن هل اقتفى أثركَ إلا بعدما هِمتَ بزوجته السابقة عشقاً؟ لم يكن يعرف مَن تكون أنت. خطاب دلفين روكس أمرٌ مختلف تماماً.

أردتني أن أكتب لها- وفعلتُ ذلك من أجلك ضد اقتناعي. أردتَ خبيرًا يحلل خط اليد- وضد اقتناعي أيضًا جلبتُ لك شخصًا يحلل خط اليد. أردتني أن أرسل تقرير التحليل لمحاميها- وضد اقتناعي أرسلتُ إليه النتائج. فعلتُ كل ما أمرتني بفعله وأنا أرجو أن يعالج هذا أدنى إزعاج داخلك. لكن لِستر فيرلي هذا ليس أذًى ضئيلاً. دلفين روكس لا يمكن مقارنتها بفيرلي، لا كمضطرب عقلي ولا كخصم. فيرلي هو العالَم الذي استطاعت فونيا بالكاد أن تنجو منه ولم تستطع أن تتخلص منه نهائيًا فجلبته معها حينما طرقتْ بابَك. لِستر فيرلي يعمل في فرقة الطرُق، أليس كذلك؟ لو حصلنا على أمر اعتقال لفيرلي سرعان ما سيُذاع سرُّكَ في بلدتك الهادئة النائمة في حضن الغابة. سرعان ما ينتشر الأمرُ في كافة أنحاء البلدة، والجامعة، وكل ما فعلتَه سوف لن يكون له شبيه بالنسبة إلى أولئك البروتستانت الساخطين الذين سوف يلطخونك بالقار ويغطونك بالريش[45]. مازلتُ أتذكّرُ الإحكام الدقيق الذي أخفقت به المجلة المحلية الأسبوعية الهزلية في تفهّم التهمة السخيفة ضدك والمعنى وراء استقالتك. 'العميدُ السابق يترك الجامعةَ تحت سحابة من العنصرية.' أتذكرُ التعليقَ المكتوب تحت صورتك المنشورة بالمجلة. 'نعتٌ مشوِّهٌ للسمعة قيل في فصل دراسيّ أجبر البروفيسور سيلك على الاستقالة.' أتذكرُ كيف بدا الأمرُ بالنسبة لك وقتها، وأظن أنني الآن أعرف كيف يبدو، وأعتقد أنني أعرف كيف سيبدو في المستقبل، وقتَ تصبح المقاطعةُ السكنية بأسرها تواّقةً لكشف سر العلاقة الجنسية للرجل الذي ترك الجامعة تحت غيمة العنصرية المعتمة. لا أود أن أُلمِّح ضمنًا إلى أن ما يحدث خلف باب غرفة نومك يخص أيَّ إنسان عداك. أعرف أن الأمر لا يجب أن يُؤخذ هكذا. إنه عام 1998. مضت سنوات الآن منذ غيّر كلٌّ من "جانيس جوبلين[46] ونورمان أُ.براون"[47] كلَّ شيء في أمريكا إلى الأفضل. لكن لدينا أناسًا هنا في بيركشاير، أولئك القرويين الأجلاف والأساتذة الجامعيين على قدم المساواة، أولئك الذين لن يضعوا قيمهم في الميزان ثم يطلقون العنان بأدب لثوراتهم الجنسية. ضيقو العقول أولئك ممن يواظبون على الذهاب إلى الكنيسة، المفرطون في التمسك بالشكليات ومظاهر الاحتشام، كل أنماط الرجعيين يتوقون لفضح رجل مثلك

[45] - Tarring and feathering، عقاب جماهيري غير قانوني عرفته أوروبا الإقطاعية قديما. حيث يلطخون المجرم بالقار الساخن ثم يدحرجونه على كوم من الريش فيلتصق به. ثم يدورون به فوق عربة لكي يشهّروا به أمام المواطنين. فإما يهرب من الفضيحة ويترك البلدة، أو يعود للسلوك القويم. جرّم القانون الجديد تلك الطقوس واعتبرها طقوسًا بربرية همجية. (المترجمة)

[46] - Janis Lyn Joplin (1943 -1970). من أشهر مطربات أمريكا في الستينيات، رغم موتها المبكر وعمرها 27 عامًا. اشتهرت بأدائها الراقص المتحرر على خشبة المسرح أثناء الغناء. (المترجمة)

[47] - Norman O. Brown (1913-2002)، مفكر أمريكي اشتهر في الستينيات الماضية بمناداته بثورة تحررية في الفكر الغربي. (المترجمة)

ومن ثم عقابه. بوسعهم تسخين الأمور يا كولمن- ولكن ليس على النحو الذي تفعله الفياجرا."

ولدٌ ذكيّ أن وصل إلى الفياجرا بنفسه. محاولةٌ للفت الانتباه، يفكر كولمن لنفسه، لذا لا تقاطعْه، لا تقمعْه، مهما أثار غضبك. ليس من ضربة حنون من بِرعه؟ حسنٌ. لقد جئتَ تسأله النصيحةَ، لذا اسمعْه حتى يُنهي كلامه. فأنتَ بالتأكيد لا تريد أن تقع في الخطأ بسبب أن أحدًا لم ينبهك. كان كولمن يقول هذا لنفسه.

"بوسعي طبعًا أن أستصدر لك أمرًا بتوقيف فيرلي،" قال بريماس. "ولكن هل سيوقفه هذا؟ أمر التوقيف سوف يشعلُ غضبَه. جلبتُ لك خبير الخطوط، وبوسعي أن أجلب أمرًا بعدم التعرض، بوسعي أن أجلب لك قميصًا واقيًا من الرصاص. ولكن ما لا أقدر على تحقيقه هو ما لا يمكن أن تتوقعه أنتَ أبدًا مادمتَ متورطًا مع هذه المرأة: حياةً دون فضيحة، حياةً دون ملامة، حياةً دون فيرلي. سلامَ الذهن الذي يأتي من كون المرء غير مراقَب. ألا تكونَ مرسومًا بالكاريكاتور الهزليّ على صفحات المجلات. أو مُلامًا موبَّخًا من الناس. أو مُساءً إلى سمعته. أليس لديها فيروس الإيدز بالمناسبة؟ هل سبق وفحصتها يا كولمن؟ هل تستخدم الواقي الذَّكريّ يا كولمن؟"

عليمًا بما يجري من أمور يظن نفسه هذا المحامي، بينما بالفعل لا يقدر على أن يتصور أن هذا الرجل العجوز مازال له في الجنس، أليس كذلك؟ يبدو الأمر بالنسبة له شاذًا تمامًا. ولكن مَن ذا الذي بوسعه أن يستوعب في عُمر الاثنين والثلاثين أن الأمر هو ذاته في الواحد والسبعين؟ هو يتساءل: كيف ولماذا يفعل ذلك؟ نزواتُ رجولتي المتأخرة وما يمكن أن تسببه لي من متاعب. وأنا في الثانية والثلاثين، يفكر كولمن لنفسه، لم أكن أقدر أيضًا على استيعاب ذلك. وعلى الجانب الآخر، فهو يتحدث إلى مرجعيةِ شخصٍ يكبره بعشرة أو عشرين عامًا حول كيف يدور العالم. وما هي الخبرات التي يمكن أن يكون قد اكتسبها، ما مدى اكتشافه صعوبات الحياة، لكي يتكلم بهذه الغطرسة مع شخص أكبر من ضعف عمره؟ خبراتُه ضئيلةٌ جدًا جدًا إن لم تكن صفِرًا.

استأنف بريماس يقول "يا كولمن، إذا لم تكن تستخدم أي واق، فهل تستخدم هي شيئًا ما؟ وإن كانت تقول لك إنها تفعل، فهل بوسعك أن تستوثق من هذا؟ حتى عاملات النظافة المشردات معروف عنهن أنهن يخاتلن الحقيقة من وقت لآخر، وربما حتى من أجل البحث عن علاج لكل الروث الذي يعشن فيه. ماذا يحدث لو حَمَلتْ فونيا فيرلي؟ ربما تفكر مثلما ظلت نساء كثيرات يفكرن منذ مشهد إنجاب طفل سفاح في فيلم 'جيم ماريسون والأبواب'. من المحتمل جدًا أن ترغب فونيا في الاستمرار في الأمر لتغدو أمًا لطفل البروفيسور الشهير المتقاعد برغم كل ما تفكر فيه أنت من منطق معاكس. أن

تصبح أمًّا لطفل بروفيسور محترم متقاعد قد يغدو بالنسبة لها وثبةً طبقية للأعلى بعدما كانت أمًّا لطفلين أبوهما مخبول فاشل. وبمجرد أن تغدو حبلى، إذا ما لم تعد ترغب في أن تظل في عملها الوضيع، أو لم تعد راغبةً في العمل مجددًا، فإن أية محكمة مستنيرة لن تتردد في توجيهك لدعم الطفل وأمه الوحيدة العزباء. هنا، بوسعي أن أُمثّلك في دعوى إثبات النسب، وإذا ما فعلتُ ذلك ووقتها، سوف أقاتل وحسب لكي أجعل مسئوليتك القانونية تنحصر في نصف معاشك. سوف أفعل كل ما بوسعي لتترك لك فونيا شيئًا متبقيًا في حسابك البنكي حتى تقدر أن تعيش في ثمانينك. يا كولمن، أنصتْ إليّ: تلك صفقةٌ خاسرة. على كل المستويات، هي صفقة خاسرة. ربما لو ذهبتَ إلى مستشار المتعة، سوف يخبرك بشيء مختلف عما أقول، ولكنني مستشارك القانوني، وأخبرك بأنها صفقة مرعبة. لو كنتُ مكانك، ما وضعتُ نفسي في طريق لِستر فيرلي المعتم المتوحش. لو كنتُ مكانك، سوف أمزق قصة فونيا وأرميها وراء ظهري."

كل ما يجب أن يقوله كان قد قيل، فنهض بريماس من وراء مكتبه، المكتب الضخم المصقول المعتنَى جيدًّا بإخلائه من كل الأوراق والملفات، العاري من كل شيء عدا صورة في إطار لزوجته الأستاذة الشابة وطفليه، المكتب الذي سطحُه صفحةٌ إردواز نقية لا شائبة فيها والذي وحده كان قادرًا على أن يقود كولمن إلى استنتاج أن لا شيء عارضًا أو غير منظّم يمكن أن يقف في طريق ذلك الشاب المفوّه طليق اللسان، لا ضعف الشخصية ولا الآراء المتطرفة ولا الا ضطرارات الطائشة ولا حتى احتمالية الأخطاء العفويّة غير المقصودة، لا شيء معطوبًا أو مخفيًّا بعناية بوسعه أن يظهر فجأة ليمنعه من تحقيق كل مغنم وظيفيّ أو إحراز أي نجاح برجوازيّ. لن يكون هناك *Spooks* في حياة نيلسون بريماس، ولا فونيا فيرلي ولا لِستر فيرلي، لا ماركي يحتقره ولا ليزا تتخلى عنه. رسم بريماس لنفسه الخطَّ الصارم في الحياة ولا اتهامات ثمة أو جرائمَ ملوِّثةً للسمعة سوف يُسمح لها أن تنتهك ذلك الخط. ولكن ألم أرسم أنا أيضًا الخطَّ الخاص بي بالصرامة نفسها؟ هل كنتُ أقلَّ حذرًا في اتباع الأهداف الشرعية السليمة التي تجلب الاحترام، وتحقق الحياة المتزنة؟ هل كنتُ أبدًا أقلَّ ثقة بالنفس في السير محميًّا وراء حصني الحذِر المنيع؟ هل كنتُ أقل عجرفةً؟ ألم تكن تلك هي الطريقة نفسها التي اتبعتُها مع سدنة الكلية القدامى في أول مئة يوم من عمادتي، حينما غدوتُ رجلَ روبرتس الأول وذراعه اليمنى؟ أليس هكذا دفعتهم للجنون وركلتهم للخارج؟ هل كنتُ أقلَّ صرامةً في الثقة بنفسي؟ ولكن تلك الكلمة الوحيدة هدمت كل شيء. الكلمة الإنجليزية الأكثر اشتعالاً وشناعةً وفظاعةً بلا أي منطق، على أنها الكلمة التي كانت

كافية لتقف عاريةً، أمام الجميع، ليشاهدوها، ليحاكموها، ليبحثوا داخلها عن الحقيقة المفقودة: مَن أكون وماذا أكون.

المحامي الذي لم يكن لينطق بكلمة صريحة كتلك- الذي كان يجدل كلَّ كلمة ويزركشها بحذر ساخر يكاد يبلغ الآن قمة اللوم الصريح، ذاك الذي لم يسع لإخفائه عن موكّله العجوز الشهير بأيٍّ من طرق اللف والدوران في الكلام- جاء من وراء مكتبه ليصحب كولمن إلى خارج المكتب وبعدها، عند الباب، واصل معه للخارج ليصحبه للأسفل حتى طريق السلم ثم لخارج البناية حيث الشارع المشمس. كان على الأرجح نيابةً عن زوجته، "بيث"، كان بريماس يريد أن يتأكد من قول كل ما يستطيع قوله لكولمن بكل تلك الصراحة الفجّة، لكي يقول كل ما يجب أن يقال بصرف النظر عن مدى قسوته، لكي يمنع ذاك الذي كان يومًا شخصيةً أكاديمية مرموقة من السقوط في الخزي أكثر وأكثر. حادثة الـ *Spooks* تلك- التي تزامن حدوثُها مع موت زوجته- كانت قد أصابت العميدَ سيلك بلوثة عقلية حادة، لم تدفعه وحسب إلى الإقدام على خطوة الاستقالة الطائشة (في اللحظة التي كانت القضية ضده تسير في مسارها الباطل)، بل إنه الآن، وبعد مضي عامين كاملين، ظل غير قادر على حساب ما يجب أن يدخل أو لا يدخل في حيز اهتمامه. بالنسبة لبريماس، كان الأمر يبدو تقريبًا كأنما كولمن لم يُقلل من قيمة نفسه على نحو ظالم بما يكفي، كأنما، مع رجل عَثِرِ الحظ، مثل شخص سقط خارج رحمة الله، كان خاضعًا لمطاردة مجنونة وهجوم محموم، مُهين وأخير، ظلم لا نهائي قادر على شرعنة هذا الغبن إلى الأبد. الرجل الذي كان فيما مضى مستمتعًا بالسلطة في عالمه الصغير، ها هو يبدو الآن غير قادر على حماية نفسه ضد انتهاكات دلفين روكس ولِستر فيرلي، وهو ما كان يعرّض صورته الذاتية المحصنة للخطر، لم يعد قادرًا على صون نفسه من إغواءات هزيلة، تلك التي بها كان الذّكر المسنُّ يحاول أن يعوض نقص طاقات ذكورته. يستطيع بريماس أن يستنتج من خلال سلوك كولمن أنه قد خمّن الأمر على النحو الصحيح فيما يخص الفياجرا. هذا تهديد كيميائي آخر، كما يظن الرجلُ الشاب. ربما كان العجوزُ يدخن الكوكايينَ أيضًا ليحصل على ما تصنعه الفياجرا به.

في الشارع بالخارج، تصافح الاثنان. "كولمن،" قال بريماس، الذي أبدت زوجته انزعاجها من استقالة العميد سيلك من كلية أثينا حينما أخبرها بيرماس في الصباح أنه سيلتقي به ذلك اليوم، ثم تكلمت هي أيضًا باستخفاف عن دلفين روكس، التي كانت تزدريها بسبب موقفها في قضية الـ *Spooks*– "كولمن،" قال بريماس، " فونيا فيرلي ليست من عالمك. أنت بنفسك ألقيتَ ليلة الأمس نظرةً جيدة على العالم الذي شكّلها، العالم الذي قمعها، ولأسباب أنت تعرفها مثلما أعرفها أنا، سوف لن تهرب هي أبدًا من

عالمها ذاك. شيء أسوأ مما حدث ليلة الأمس يمكن أن يتمخض عن علاقتكما، شيء أشدٌّ سوءًا بكثير. أنت لم تعد تعارك في عالم يخرج فيه زملاؤك ليدمروك ويطردوك من عملك، من أجل أن يستبدلوا بك واحدًا منهم. أنت لم تعد تعارك جماعةً حسنةَ التربية من نخبة الصفوة الذين ينادون بالمساواة بين الطبقات، ممن يُخفون طموحَهم وراء أفكار مستنيرة. أنت الآن تعارك في عالم حيث فظاظةُ الناس لا تعبأ بإخفاء نفسها وراء بلاغة الصالح العام. أولئك بشرٌ مشاعرهم الأساسية في الحياة تنبع من كونهم ضوجعوا بقوة حقوقٍ مكتسبة غير عادلة تقف تحت خط القانون. ما تعاني منه كان بسبب الأسلوب الذي تم به تناول قضيتك من قِبَل الجامعة، والأسوأ من ذلك هو كيف يشعر هؤلاء كلّ دقيقة من كل ساعة بـ...."

'هذا يكفي' هذا هو ما كان الآن مكتوبًا بوضوح في تحديقة كولن، حتى أن بريماس أدرك أن الوقت قد حان ليصمت. خلال اللقاء، كان كولن يُنصت في صمت، قامعًا مشاعره، محاولاً أن يحافظ على عقله منفتحًا، وأن يتجاهل ابتهاج بريماس الواضح جدًّا بإلقائه محاضرة عن القيم، على مسمع من أكاديميّ محترم يكبره بأربعين عامًا. كان يحاول مداراة نفسه بأن يبدو غاضبًا، وهو ما جعل الأمر يبدو أفضل. تلك الواقعةُ اللعينة أعطت لكل الناس الحرية لأن يقولوا إنني مخطئ. ولكن أثناء الوقت في طريقهما للشارع، لم يعد ممكنًا فصل الجدال عن أسلوب التعبير- أو فصل نفسه عن الرجل المسئول الذي اعتاد أن يكونه دومًا، الرجل المسئول المستحقّ الاحترام. لم يكن بريماس بحاجة إلى كل تلك المقطوعة الهجائية المزخرفة لكي يصل مباشرة إلى صلب الموضوع مع موكله. إذا كان الهدفُ هو إسداء النصح من أجل تكييف وضع قانونيّ من محام، فقد كان النذر القليل من السخرية كافيًا جدًّا لأداء المهمة. لكن إحساس بريماس بذاته كمحام لامع متخصص في الأمور الجلل جعله يُخرج خيرَ ما عنده، هكذا كان يفكر كولن، ولذا كانت السخرية من الأحمق العجوز السخيف فعالةً مثل خلطة صيدلانيّة تجاريّة يُباع القرصُ منها بعشرة دولارات.

"أنت سيدٌ مفوّهٌ في الثرثرة الاستثنائية يا نيلسون. نافذ البصيرة ثاقب الفكر. طليق اللسان للغاية. أستاذُ صوتيات ذو جملةٍ لفظية متأنقة متقنة. وبارعٌ جدًّا في ازدراء كل مشكلة إنسانية لم تضطر أبدًا إلى مواجهتها." كان الدافعُ مواتيًا لانتزاع المحامي من مقدمة قميصه والرمي بابن الحرام المتغطرس هذا من نافذة مبنى تالبوتس. بدلاً من، التقهقر للوراء، وكبحه جماح غضبه، وعلى نحو استراتيجي وبأقصى ما يمكنه من رقّة- ولكن ليس بالحذر الواجب- قال كولن: "لا أريد أبدًا بعد ذلك أن أسمع صوتك المختال المعجب بنفسه ولا أن أرى وجهك الأبيضَ الزنبقيَّ المتأنقَ اللعين."

"الأبيض الزنبقي؟"[48] قال بريماس لزوجته ذلك المساء. "لماذا 'الأبيض الزنبقي'؟ المرء لا يمكنه أن يمسك الناسَ عن الهجوم حينما يظنون أنهم لُسيء إليهم وجُرّدوا من كرامتهم. لكنْ هل كنتُ أقصد أن أبدو مهاجِمًا له؟ بالطبع لا. الأمر أسوأ من ذاك. أسوأ لأن ذلك الرجل العجوز فقد السيطرة على سلوكاته وأنا وددت مساعدته. أسوأ لأن الرجل على حافة الخطأ الذي سيودي به إلى كارثة وأنا أردتُ أن أوقفَه. ما أخذه كولمن على أنه هجومٌ عليه كان محاولة عنيدة مني لإنقاذه بجدية، لإقناعه. لقد أخفقتُ يا 'بيث'، أخفقتُ تمامًا. ربما لأنني كنت خائفًا. عبر طريقته الصبيانية المستخفّة، كان الرجل سُلطة ما. لم أعرفه أبدًا كعميد كبير. عرفته فقط كرجل في ورطة. لكنكِ أمامه بوسعكِ أن تلمسي حضورَه الطاغي. تعرفين لماذا كان الناس يهابونه. ثمة شخصٌ ذو شأن كان هناك حيثما كان يجلس. انظري، لا أعرف ما هو. ليس سهلاً أن تعرفي ماذا تصنعين مع شخص رأيتِه مرات معدودة في حياتك. ربما تلك صفةٌ غبية متأصّلة فيّ. ولكن أيًّا ما كان سبب ذلك، فقد ارتكبتُ كل الأخطاء غير الاحترافية الممكنة. الطب النفسي، الفياجرا، فيلم الأبواب، نورمان أُ.براون، موانع الحمل، الإيدز. كأنني أعرفُ كلَّ شيء عن كل شيء. خاصة ما حدث قبل ميلادي، أعرف كل شيء يمكن معرفته. للحق كان يجب أن أوجز، وألا أكون شخصانيًا؛ بدلاً من ذلك كنتُ استفزازيًا. وددتُ مساعدته ولكنني أهنته بدلاً من ذلك، فجعلت الأمور أسوأ بالنسبة له. كلا، أنا لم أُعِب فيه لكي يتحامل عليّ هكذا. لكن يا حبيبتي، يبقى السؤال: لماذا أبيض؟"

لم يزر كولمن حرمَ كلية أثينا لعامين للآن، والآن لم يعد يذهب إلى البلدة كلما استطاع ذلك. لم يعد يبغض كلّ أعضاء هيئة التدريس بكلية أثينا مثلما كان، لكنه فقط لم تعد له بهم علاقة، كان يخشى إن حدث واستوقف للدردشة، ولو عَرَضًا، ألا يكون قادرًا على أن يداري ألَمَه أو يداري نفسَه وهو يحاولُ أن يداريَ ألَمَه- لم يكن قادرًا على أن يمنع نفسه من الوقوف هناك وهو يشتعل بالغضب، والأسوأ، الوقوف منعزلاً والدخول في شرنقة أحزان الرجل المغبون. بعد أيام قليلة من استقالته، فتح حسابات جديدة في البنك والسوبر ماركت في بلاك-ويل، بلدة الطاحونة المنخفضة على النهر التي تبعد عن أثينا ثمانية عشر ميلاً، وحصل كذلك على بطاقة عضوية في المكتبة المحلية هناك، مقررًا استخدامها، بصرف النظر عن هزال مجموعات الكتب هناك، بدلاً من أن يطوف مجددًا بين رفوف الكتب العظيمة المنظمة في مكتبة أثينا. انضم إلى جمعية الشباب المسيحيين

[48] - 'Lily-white'، هذا النعت سيظل يدهش بريماس لفترة، وسوف نعرف لماذا قاله كولمن مع توالي الأحداث. (المترجمة)

في بلاك-ويل، وبدلاً من أن يمارس سباحته في حمام سباحة جامعة أثينا يوميًا بعد العمل على مدى ثلاثين عامًا، راح يؤدي تمرينه مرتين في الأسبوع في حمام سباحة أقل من متواضع في جمعية الفتيات المسيحيات ببلاك ويل- وبدأ يصعد للجيمانزيوم المتهدم، ولأول مرة منذ تخرجه في المدرسة، راح، بخطوة أبطأ كثيرًا مما كانت في أربعينه، يلاكم حقيبة السرعة الثقيلة. كان الذهابُ إلى شمال بلاك ويل يستغرق ضِعف زمن قيادة السيارة نزولاً الجبل صوب أثينا، ولكن في بلاك ويل كان من غير المحتمل أن يصطدم بالزملاء السابقين، وحين يحدث ذلك، كان الأمر يتم بمشاعرَ أقلَّ دون وعي منه، ما يجعله يومئ لهم بتجهم ثم يمضي لحال سبيله، عكس ما كان يحدث في شوارع أثينا الجميلة، هنا حيث لا علامات شوارع، ولا مقاعد خشبية، ولا شجر، ولا تماثيل أو صروح على العشب، تُذكّره على نحو ما بنفسه قبل أن يصبح عنصريَّ الجامعةِ، بعدما أمسى كل شيء مختلفًا. مجموعة المحال عبر الشريط الأخضر تلك التي لم تكن هناك منذ تولّيه العمادة كانت تجلب لأثينا كل أنماط البشر الجدد، مثل الموظفين والطلبة وأولياء الأمور، وهكذا، مع مرور الوقت، راح يقلق من تغيّر أنماط طوائف المجتمع، ليس بأقل مما كانت تقلقه بعنف، إعادة تنظيم الجامعة على نحو جذري. متجر الأنتيكات المحتضر، المطعم الرديء، البقالة المتواضعة، محل الخمور البدائي، متجر الكتب القروي، مطعم المشروبات البسيط، صالون الحلاقة الريفي، محل الخردوات ابن القرن التاسع عشر، محل بيع الكتب الذي يشبه المخزن، زاوية المطعم المتأنق، الصيدلية المظلمة، خان الفندق الكئيب، بائع الجرائد الذي لا جرائد لديه، المحل الشاغر الخاص بالساحر الغامض- كل شيء من هذا كان قد اختفى، لتُستبدل بها مؤسسات يمكنك أن تتناول فيها وجبة أنيقة وتحتسي فنجانًا جيدًا من القهوة فتحظى بشعور الامتلاء وتشتري قنينة جيدة من النبيذ وتجد كتابًا حول شيء غير بيركشاير وأيضًا لتجد شيئًا غير الملابس الداخلية الطويلة ليبقيك دافئًا أيام الشتاء. "ثورة القيمة" تلك التي كان حريصًا على الدفع بعجلتها في كلية أثينا ومناهجها، كان يمنحها أيضًا، وإن على نحو غير مقصود، لشوارع البلدة. وهو ما أضاف لألمه ودهشته من كونه المغترب الذي كانه.

حتى الآن، لعامين بكل معنى الكلمة، لم يعد يشعر بنفسه محاصرًا كثيرًا بهم– فيما عدا دلفين روكس، مَن في أثينا يهتم الآن بكولمن أو بحادثة الـ *Spooks*؟- مثلما هو مثقل بالضجر الذاتي لكونه غارقًا عاريًا في بحر من المرارة المجلفنة؛ بالأسفل في شوارع أثينا، يشعر الآن (أولاً) ببُغض هائل لنفسه أكثر مما لأولئك الذين، بدافع من اللامبالاة أو الجبن أو الطموح، أخفقوا في تزكية أدنى احتجاج بالنيابة عنه. المتعلمون الحاصلون على دكتوراه الفلسفة، أولئك الذين هو نفسه كان قد عيّنهم في وظائفهم لأنه اعتقد أنهم

قادرون على التفكير بعقلانية واستقلالية، تبين أن لا نيّةَ لديهم للنظر مليًّا في اعوجاج وزيف الدليل ضده من أجل الوصول إلى استنتاج معقول. عنصريٌّ: في كلية أثينا، انطلق فجأة ذلك اللقبُ الانفعالي الاتهامي الذي التصق بك، (ولأنهم يخافون على ملفات وظائفهم وترقياتهم المستقبلية)، خضعت جامعتُه بأسرها. "عنصري" تُنطق بذلك الرنين الوظيفي، فتنبثق فورًا كلُّ التحالفات الكامنة وتنهمر فوق رأسك.

المشي حتى حرم الجامعة؟ إنه الصيف. عطلة المدارس. بعد ما يقرب من أربعة عقود بأثينا، بعد كل ذاك الذي دُمِّر وفُقِد، بعد كل ما خاضه لكي يكون هناك، لمَ لا؟ أولاً "*Spooks*"، والآن "بياضُ الزنبق"[49]– من يدري أيُّ نقيصة بغيضة سوف ينطقها لسانه في تعبيراته العتيقة الركيكة القادمة، المصطلح القادم اللطيف عتيق الطراز الذي سيخرج طائرًا من فمه؟ كيف للمرء أن يُنطَق أو يُختزَل في كلمة متقنة. ما الذي يحرق التمويه والأقنعة والتخفّي؟ هذه، الكلمة السليمة التي نُطقت بعفوية، حتى دون أن يفكر المرء.

"للمرة الألف: لقد قلتُ *Spooks* لأنني كنتُ أعني *Spooks*. أبي كان صاحب حانة، ولكنه أصر على تعليمي دقّة لغتي، وأنا حافظت على ولائي للغة. للكلمات معان- بتعليم الصف السابع لا غير، كان والدي يعرف كل هذا القدر من اللغة. أيام عمله في البار، كان يستخدم شيئين ليهدّئ المشاحنات بين زبائنه: الهراوة، والقاموس. القاموس هو صديقي الحميم، هكذا كان يخبرني أبي- وهو اليوم صديقي أنا. لأننا لو نظرنا في المعجم، فماذا سنجد في المعنى الأول لمفردة '*Spook*'؟ المعنى الأولي: '1. الدارج غير الرسميّ: شبح؛ طيف.'" "لكن أيها العميد سيلك، المفردةُ لا تؤخذ بهذا المعنى. دعني أقرأ عليك المعنى الثاني في القاموس. '2. مفردة تُقلّل من قيمة الشخص. الزنجي.' هذا هو المعنى الذي تؤخذ به- وبوسعك أن ترى المنطق وراء ذلك أيضًا: هل يعرفهما أيُّ شخص، أم هل هما من السود هذان اللذان لا تعرفونهما؟" "يا سيدي، لو كنتُ أقصدُ أن أقول: 'هل هناك مَن يعرفهما، أم أنكم لا تعرفونهما لأنهما سوداوان؟' هذا ما كان يجب أن أقوله. 'هل يعرفهما أيُّ منكم، أم أن أحدًا منكم لا يعرفهما لأنه حدث وكانا طالبين سوداوين؟ هل يعرفهما أيُّ منكم، أم هما سوداوان فلا يعرفهما أحد؟' لو كنتُ أقصد ذلك، كان يجب أن أقولها هكذا وحسب. ولكن كيف كان لي أن أعرف أنهما سوداوان بينما لم تقع عيناي عليهما أبدًا؟ فيما عدا اسميهما، ليست لدي أية معلومات عنهما؟ ما كنتُ أعرفه، بما لا يقبل الجدل، هو أنهما طالبان غير مرئيين- والمفردةُ التي تعبر عن غير المرئي، عن الشبح، أو الطيف، هي المعنى الأوليّ الذي استخدمته لمفردة '

[49] - النعت الذي وصف به المحامي نيلسون بريماس. (المترجمة)

Spook'. انظرْ للنعت: شبحيّ '*Spooky*' وهي المفردةُ التي تلي كلمة *Spook*، في المعجم. *Spooky*. الكلمة التي نذكرها جميعًا من أيام طفولتنا. وماذا تعني؟ تبعًا للقاموس الشامل: 'كلمة دارجة، 1. مشابه لـ *spook*، أو الشبح؛ يوحي بأنه شبح *spook*. 2. غريب، مخيف. 3. (خاصةً مع الخيول) عصبيّ، متقلّب المزاج.' خاصة بالنسبة للخيول. والآن، هل يمكن أن يزعم أي شخص أو يقترح أنني أيضًا وصفتُ الطالبين كحصانين؟ كلا. ولكن لمَ لا؟ بما أنكم تقولون هذا، فلماذا ليس هذا أيضًا؟"

نظرة أخيرة على أثينا، وعندئذ دعِ الخِزيَ يكتمل.

سيلكي. سيلكي سيلك. الاسم الذي لم يكن يُعرف به لما يزيد عن خمسين عامًا، ولذلك لم يكن يتوقع أن يسمع شخصًا يهتف: "هاي، سيلكي!" كأنما قد عاد إلى أورانج الشرقية، يسير في الطريق المركزي بعد المدرسة- بدلاً من عبور طريق بلدة أثينا، للمرة الأولى منذ استقالته، متوجهًا نحو التلّ صوب حرم الجامعة- يسير كأنما كان يصعد الطريق المشجر المركزي مع شقيقته، إرنستين، يستمع إلى تلك القصة المجنونة التي كانت تحكيها حول ما استرقته من السمع، في المساء السابق، من حديث د.فينسترمان، الطبيب اليهودي، الجراح الكبير في مستشفى أمهما في نيوآرك، الذي جاء ليزور أبويهما. بينما كان كولمن في الجيمنازيوم يتمرن مع فريق الركض، كانت إرنستين في مطبخ البيت تكتب واجبها المدرسيّ، ومن هناك أمكنها أن تسمع د.فينسترمان، جالسًا في قاعة المعيشة مع الأم والأب، يشرح لهما الأهمية القصوى بالنسبة له وللسيدة فينسترمان في أن يتخرّج ابنُهما "بيرترام" بالترتيب الأول في الفصل. وكما كان آل سيلك يعرفان، كان كولمن الآن هو الأولُ على الفصل، وكان ترتيب "بيرت" هو الثاني، رغم أنه يقلّ عن كولمن بمستوى واحد. درجة (ب)[50] التي نالها بيرت في شهادته في الفصل الدراسي السابق، (ب) في الفيزياء التي كانت يجب أن تكون (أ)- تلك الـ(ب) كانت هي كل الفارق بين الطالبين الأكثر تفوّقًا في الفصل. كان د.فينسترمان يشرح لمستر ومسز سيلك أن بيرت كان يريد أن يتبع مسار أبيه في الطب، ولكن لتحقيق ذلك كان لابد أن ينال تقدير 'ممتاز'، وليس وحسب تقدير ممتاز في الجامعة، بل لابد أن يكون تفوقه تراكميًا منذ سنوات دراسته الأولى في حضانة الأطفال. ربما لا يدري آل سيلك شيئًا عن الكوتة[51] التمييزية التي خُطِّطَت لكي يُخرجوا اليهودَ من مجال كلية الطب، خاصة كليات الطب في جامعتَي هارفرد وييل، بينما كان د.فينسترمان وزوجته

[50] - (أ) تعني ممتاز، (ب) تعني جيد جدًا، مراتب في التقدير الدراسي. (المترجمة)
[51] - حصة، نسبة مئوية. (المترجمة)

واثقين أن ابنهما بيرت، إذا ما مُنح الفرصة، سيكون الألمعَ بين اللامعين. بسبب الكوتة الضئيلة التي خُصصت لليهود في معظم كليات الطب فقد اضطر د.فينسترمان نفسُه أن يذهب للدراسة في آلاباما، وهناك رأى مباشرة كلَّ ما كان على أولئك الملونين أن يكافحوا ضده. يعلم د.فينسترمان أن التحيّز ضد الملونين كان أسوأ بكثير من التحيّز ضد اليهود. يعلم كذلك العقبات التي كان على آل سيلك أنفسهم أن يتغلبوا عليها من أجل أن يحققوا ذلك النموذج المميز لأسرة زنجية. يعلم المحنة التي كان على مستر سيلك أن يتحملها منذ تعرض متجرُ البصريات للإفلاس في مرحلة الكساد الاقتصادي. يعلم أن مستر سيلك، مثله، كان خريج جامعة، ويعلم أن توظيفه في السكة الحديد كخادم في قطار- 'هكذا كان يُسمي النادلُ، يا كولمن': 'خادم'[52]- لم يكن مناسبًا على الإطلاق مع تخصصه الدراسي. أما مسز سيلك فكان يعرفها من المستشفى بطبيعة الحال. وفق تقدير د.فينسترمان، فإنه لم تكن هناك من بين هيئة تمريض المستشفى ممرضةٌ أدق، ولا أذكى، ولا أكثر معرفةً، ولا أوفى مقدرةً بما يمكن الاعتماد عليها، أكثر من مسز سيلك- بمن في ذلك رئيسة المرضات نفسها. في تقديره، كان يجب أن تتبوأ جلاديس سيلك منذ زمن رئاسةَ هيئة التمريض في قسم الجراحة، وأحد الوعود التي كان يود د.فينسترمان أن يقدمها إلى آل سيلك هو استعداده لفعل كل ما بوسعه مع الرئاسة لكي يحصل للسيدة سيلك على هذا المنصب عند تقاعد مسز نونان، رئيسة هيئة تمريض قسم الجراحة الراهنة. علاوة على ذلك، كان على استعداد لمساعدة آل سيلك بقرض لا يُردُّ وبلا فوائد، بقيمة ثلاثة آلاف دولار، تستحق الدفع حينما يستعد ابنهما كولمن لدخول الجامعة، وتبدأ الأسرة في مواجهة نفقات إضافية. وفي المقابل لم يكن ما يطلبه ضخمًا كما قد يظنان. لو حصل كولمن على الترتيب الثاني، سيظل هو الطالب الحاصل على أعلى ترتيب بين الطلاب السود في فصل العام الدراسيّ 1944، ناهيك عنه أنه سيكون صاحب أعلى تقدير لطالب ملون في متوسط الدرجات بمكتب التقييم، وبمتوسط درجاته محتمل جدًا أن يكون كولمن هو الأعلى ترتيبًا بين كل الطلبة الملونين في المقاطعة، وحتى في الولاية، وإنهاؤه المدرسة الثانوية بالترتيب الثاني بدلاً من الأول لن يصنع بالنسبة له أي فرق على الإطلاق حينما يتم تسجيله في جامعة هوارد. كما أن نسبة تعرضه لأي حرمان مع ترتيبه هذا لا تكاد تُذكر. لن يخسر كولمن شيئًا إذا ما حصل على الترتيب الثاني بدلاً من الأول، بينما في المقابل سيحصل آل سيلك على ثلاثة آلاف دولار يدخرونها لنفقات تعليم أولادهما في الجامعة؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن دعم د.فينسترمان سوف يجعل جلاديس سيلك تترقى خلال سنوات قليلة، لتغدو أول

[52] - steward

رئيسة ممرضات ملونة من بين كل أقسام مستشفيات مدينة نيوآرك. ومن ناحية كولمن فليس مطلوبًا منه سوى أن يختار المادتين الأضعف بالنسبة له، وبذا بدلاً من أن يحصل على تقدير (أ) في الامتحان الأخير، سوف يحصل على تقدير (ب). وهنا تسنحُ فرصةُ ابنه بيرت للحصول على تقدير (أ) في كل المواد- بفعله هذا يكون قد أكمل صفقة المساومة. وسوف يسبق ابنه بيرت كل الآخرين من دون أن يبذل جهدًا كبيرًا للحصول على جميع درجات (أ) تلك، وسوف ينتهي الولدان متعادلين- أو ربما يقفز كولمن للترتيب الأول رغم ذلك، وهنا سوف يلتزم فينسترمان بوعوده. ولا حاجة بنا إلى القول إن كل تلك الترتيبات لابد أن تبقى سرية من قِبل كل الضالعين فيها.

كان كولمن سعيدًا للغاية مما سمع حتى أنه أفلت من قبضة إرنستين واندفع نحو الشارع، يركض في بهجة عارمة نحو الطريق المشجر، ثم عاد يصرخ عاليًا: "مادتَاي الضعيفتان- أيُّ المواد هما؟" كأنما د.فينسترمان قد أطلق نكتةً مضحكة حينما نسَب إلى كولمن إمكانية الضعف الأكاديمي. "ما هما المادتان الضعيفتان لديّ يا إيرن[53]؟ وماذا قال أبي؟" "لم أستطع التنصّت. كان بابا يتكلم بصوت خفيض جدًا." "وماذا قالت ماما؟" "لا أدري. لم أستطع سماع ماما أيضًا. ولكنني سمعتُ ما قالاه بعدما غادر الدكتور." "أخبريني! ماذا؟" "قال بابا: 'وددتُ أن أقتل ذلك الرجل.'" "قال هذا؟" "نعم. قال." "وماما؟" "'لقد عضضتُ لساني من الغيظ.' هذا ما قالته ماما- 'لقد عضضتُ لساني.'" "لكنكِ لم تسمعي ما قالاه للدكتور؟" "كلا." "حسنًا، سأخبركِ بشيء واحد- لن أفعل هذا." "بالطبع لا،" قالت إرنستين. "ولكن افرضي أن بابا كان قد أخبره أنني سأفعل؟" "هل أنت مجنون يا كولمن؟" "إرني، ثلاثة آلاف دولار مبلغٌ أكبر مما يكسبه بابا في عام كامل. يا إرني، إنها ثلاثة آلاف دولار!" جعلته فكرة أن د.فينسترمان يحمل إلى والده لفافةً ورقية ضخمة مرصوصًا بها كل ذلك المبلغ يركض من جديد، ويقفز بجنون فوق حواجزَ وهمية مُتخيّلة (لسنوات متعاقبة الآن، ظل بطل المدرسة الثانوية في الوثب على الحواجز المنخفضة، وبالمركز الثاني في سباق الـ 100 ياردة) نحو المرج الأخضر ثم العودة. ذاك انتصارٌ آخر- هذا ما كان يفكر فيه. لكنه انتصار يحطم رقمًا قياسيًا آخر لسيلكي سيلك العظيم الذي لا يقارَن! كان ترتيبُه الأولَ على الفصل، حسنًا، مثلما كان نجمًا في الركض، ولكن لأنه أيضًا كان فقط في السابعة عشرة من عمره، فإن عرض د.فينسترمان لم يعنِ بالنسبة له أكثر من أنه على جانب من الأهمية القصوى لكل الناس. تلك الصورة العظمى التي لم يحصل عليها أبدًا.

---

[53] - تدليل إرنستين شقيقته. (المترجمة)

في أورانج الشرقية، حيث كان الجميع تقريبًا من البيض، سواء الإيطاليون الفقراء- الذين يعيشون في أورانج على حافة البلدة أو بالأسفل عند الحي الأول بنيوآرك- أو الأساقفة والأغنياء- الذين يعيشون في بيوت كبيرة بالخارج عند آبسالا أو حول ساوث هاريزون- كان هناك يهودٌ أقل حتى من عدد الزنوج، ومع هذا كان اليهود وأبناؤهم هم الذين يلوحون أكثر من سواهم في حياة كولمن تلك الأيام خارج المدرسة. أولا كان دوك تشيزنر، الذي كأنما قد تبناه رياضيًا قبل عام، حينما التحق كولمن بفصل الملاكمة المسائية، والآن ها هو د.فينسترمان يعرض ثلاثة آلاف دولار لكي يحصل كولمن على المركز الثاني ويضع ابنَه بيرت في المركز الأول. كان دوك تشيزنر طبيب أسنان يهوى الملاكمة. يذهب ليلاكم كلما وجد الفرصة- بولاية جيرسي في نادي لوريل جاردن وميدو بروك بول، ثم إلى نيويورك ثم جاردن، وفي الخارج حيث سانت نيك. كان الناس يقولون: "تظن نفسَك تعرف الملاكمة إلى أن تجلس جوار دوك. اجلسْ جوار دوك تشيزنر تدركْ أنك لم تشاهد مثل تلك الملاكمة من قبل." يؤدي دوك ملاكمات الهواة في كافة أنحاء مقاطعة إسيسكس، بما فيها نادي القفاز الذهبي في نيوآرك، وإلى فصوله المحلية في الملاكمة كان الآباء اليهود من كافة أنحاء أورانج، ومن ميبل وود، ومن إرفنجتون- ومن مناطق بعيدة جدًا مثل مقاطعة ويبكويك بجنوب غرب نيورآرك- يرسلون أبناءهم ليتعلموا كيف يدافعون عن أنفسهم. جُرح كولمن في فصل دوك تشيزنر، ليس لأنه لم يكن يعرف كيف يلاكم، بل لأن أباه كان قد اكتشف أمرَه بنفسه منذ عامه الثاني في المدرسة الثانوية. بعد تمرين الجري- أحيانًا ثلاث مرات بالأسبوع- كان كولمن يتسلل إلى نادي الشباب بنيوآرك، أسفل الطريق العام بحي الفقراء بنيوآرك ثم إلى شارع مورتون، ثم يتدرب سرًا ليغدو ملاكمًا. حينما بدأ كان في الرابعة عشرة من عمره، يزن مائة وأحد عشر رطلاً، وكان عليه أن يتمرن هناك لساعتين، يُنحّف جسمه، يتدرب على الملاكمة ثلاث دورات، يلاكم الكيس الجلدي الثقيل، ثم كيس السرعة، يؤدي تمارينه كافة، ثم يعود إلى البيت ليؤدي واجباته المدرسية. مرتين كان عليه حتى أن يلاكم صوريًا كوبر فولم، الذي كان قبل عام قد فاز بالبطولة المحلية في بوسطن. كانت والدة كولمن تعمل في المستشفى ورديةً ونصف، وأحيانًا ورديتين، وأبوه كان يخدّم على طاولات القطار وبالكاد يعود البيت لينام، وأخوه الأكبر، والت، كان بعيدًا عن البيت أولاً في الجامعة، وبعد ذلك في الجيش، ولذا كان كولمن يذهب ويعود كما يحلو له، جاعلاً إرنستين تُقسِم أمامه على تكتّم السر ثم يجتهد في الا ستذكار لكيلا تنحدر درجاتُه المدرسية، في قاعة المذاكرة، وليلاً في السرير، وفي الباصات من نيوآرك وإليها – باصان في كل رحلة- كان يبذل جهدًا أكبر من المعتاد في المدرسة كي يتأكد أن أحدًا لن يكشف أمر شارع مورتون.

إذا كنت تريد أن تلاكم هواة، فإن هناك نادي نيوآرك للشباب حيث تذهب، وإن كنت قويًا وعمرك بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة، فسوف تجد من يناظرك بين شباب نادي باتلرسون للأولاد، في مدينة جيرسي، في باتلر، من آيرنبوند بال، وهكذا. هناك الكثير من الأبناء في نادي الشباب، بعضهم من رواي، من ليندن، من إليزابيث، واثنان من أماكن بعيدة مثل موريستاون، وهناك ولدٌ أبكم ينادونه "ضامي" جاء من بليفيل، ولكن معظمهم من نيوآرك وجميعهم ملونون، رغم أن الاثنين اللذين يديران النادي من البيض. أحدهما كان شرطيًا في ويست سايد بارك، ماك ماكرون، كان معه مسدس، وأخبر كولمن أنه لو حدث واكتشف أنه لا يؤدي تمارين الجري فسوف يطلق عليه النار. كان ماك يؤمن بالسرعة، ولهذا آمن بكولمن. السرعة وتوسيع نطاق الخطوة وسرعة اللكمة المرتدة. في البداية علّم كولمن كيف يقف وكيف يتحرك وكيف يسدّد اللكمات، وبمجرد أن لاحظ ماك سرعةَ تعلّم الولد ومدى ذكائه وسرعةَ ردود فعله، بدأ يعلّمه الأمور الأكثر تقدمًا. كيف يحرّك رأسه. كيف يجعل لكمات الخصم تطيش. كيف يصدّ اللكمات. كيف يردّ اللكمة. لكي يعلّمه اللكزة، كان ماك يكرر: "الأمر يشبه حين تنقر برغوثًا بعيدًا عن أنفك. فقط انقر الخصمَ بعيدًا عنك." علّم كولمن كيف يفوز في المعركة باستخدام تلك اللكزة وحسب. ارمِ لكزتك، واضربْ لكمةً سفلية، ثم ردّها. تأتيك اللكزةُ، فتفاداها واجعلها تُخطئك، ثم ردّ بلكمة مناسبة. أو اجعلها تنزلق للداخل، ثم اعتدل وبادر بخطّاف. أو فقط انحنِ للأسفل، ثم اضرب الخصم في القلب تمامًا، ثم بخطّاف أيسر في المعدة. بخفّة كان كولمن أحيانًا يتصيد اللكزة بسرعة بكلتا يديه، يجذب الخصم ثم يضربه بخطّاف في المعدة، يعتدل، يعطيه خطّافًا في الرأس. "اضربْ اللكمةَ للأسفل. لكمة مرتدّة. أنت ضاربُ لكمات مرتدّة يا سيلكي. هذا هو أنت، هذا هو كل ما تتقنه." ثم ذهبوا إلى باترسون. حيث مباراته الأولى للهواة. هذا الولد سوف يرمي لكزة، وكولمن سوف ينحني للوراء، ولكن قدميه ستكونان ثابتتين في الأرض ثم ينجح في الاعتدال ليمنح الولد لكمة مرتدة باليمنى، ويبقى قابضًا عليه هكذا طوال المباراة. ظل الولد يفعل ذلك، ولذا ظل كولمن يفعل ذلك وفاز في الجولات الثلاث جميعًا. في نادي الشباب، أصبح ذلك أسلوب سيلكي سيلك. حينما كان يلقي لكماته، لم يكن بوسع أحد أن يقول إنه يقف هناك لا يفعل شيئًا. غالبًا ما كان ينتظر الخصمَ حتى يلقي لكمته، فيلقي هو اثنتين أو ثلاثًا في المقابل، وبعدها يرتد للوراء وينتظر مجددًا. كان بوسع كولمن أن يضرب خصمه أكثر عن طريق انتظار أن يقوده خصمُه أكثر مما يقوده هو. وكانت النتيجة أنه في الوقت الذي بلغ فيه كولمن السادسة عشرة، في مقاطعتيْ إسيكس وهدسون وحدهما، في عروض الهواة في مستودع السلاح، في مركز الفروسية في بايثيان، في معارض المحاربين في

المستشفى العسكري، كان قد هزم ثلاثة من أبطال القفاز الذهبي. وكما كان قد قدّر، كان بوسعه مع هذا الوقت أن يفوز 112، 118، 126... لولا أنه لم يكن من سبيل ليقاتل في "القفاز الذهبي" دون أن يظهر ذلك في الصحف فتكشف أسرتُه أمرَه. لكنهم اكتشفوا الأمر على أية حال. لا يعرف كيف. ولم يكن عليه أن يعرف. اكتشفوا لأن شخصًا ما قد أخبرهم. هكذا ببساطة.

كانوا جالسين للغداء في أحد أيام الآحاد بعد الكنيسة، حينما قال أبوه:

"ماذا فعلتَ يا كولن؟"

"ماذا فعلتُ في ماذا؟"

"الليلة الماضية في 'فرسان بيثياس'. ماذا فعلت؟"

"ما هو 'فرسان بيثياس'؟" سأل كولن.

" هل تظن أنني طفلٌ وُلدَ بالأمس يا بُني؟ نادي'فرسان بيثياس' هو حيث كانت المباراة الليلة الماضية. كم مباراة في البطاقة؟"

"خمس عشرة."

"وماذا فعلت؟"

"فزتُ."

"كم مباراة فزت فيها حتى الآن؟ في المسابقات. في العروض. كم مرة منذ بدأتَ؟"

"إحدى عشرة."

"وكم مرة خسرت؟"

"حتى الآن ولا مرة."

"وكم تقاضيت مقابل ساعة اليد؟"

"أي ساعة يد؟"

"ساعة اليد التي فزتَ بها في مستشفى المحاربين بلايونز. الساعة التي أهداك إياها الأطباءُ لفوزك في المباراة. الساعة التي رهنتها في شارع مالبيرس. في نيوآرك يا كولن- الساعة التي رهنتها في نيوآرك الأسبوع الماضي."

كان الرجل يعرف كل شيء.

"كم تظنني أخذت من المال؟" تجاسر كولن وأجاب، رغم أنه لم يرفع عينيه وهو يتكلم- بل ظل يحملق في التطريز الجميل على مفرش مائدة يوم الأحد.

"أخذتَ دولارين يا كولن. متى تنوي التحوّل للاحتراف؟"

"لا ألاكم من أجل المال." قال، وعيناه لا تزالان منكستين. "أنا لا أعبأ بالمال. أفعلُ ذلك للاستمتاع. هي ليست الرياضة التي يمكن أن تزاولها دون متعة."

"تعرف، لو كنتُ أباك يا كولن، تعرف بمَ كنتُ سأخبرك الآن؟"

"أنت أبي." قال كولن.

"أوه، حقًّا؟" قال أبوه.

"طبعًا، بالطبع..."

"حسنا- أنا لستُ واثقًا على الإطلاق. كنت أفكر أنه ربما ماك ماكرون، في نادي الشباب بنيوآرك، هو أبوك."

"حنانيك يا بابا. ماك هو مدربي."

"حسنًا. ومَن أبوك إذن، إن جاز لي أن أسأل؟"

"أنت تعلم. أنت. أنتَ يا بابا."

"أنا؟ حقًّا؟"

"لا!" صرخ كولن. "كلا، لستَ أنت!" وهنا، بالضبط عند بداية غداء الأحد، خرج يجرى من البيت، ولساعة تقريبًا، راح يؤدي تمرين الجري، صاعدًا حتى الحي المركزي ثم نحو حدود أورانج، ثم اخترق أورانج بطولها حتى حدود أورانج الغربية، ثم ركض مخترقًا حي واتشانج إلى روزديل سيمينتري، ثم استدار نحو الجنوب نازلاً إلى واشنطون إلى مين، يجري ويطلق لكمات في الهواء، ثم يثبُ، ثم يركضُ، ثم يعدو سريعًا، ثم يمثّل الملاكمة طوال طريق العودة إلى محطة كنيسة بريك، وأخيرًا راح يؤدي تمرين العدو وهو يشد عضلاته، ثم تمرين العدو السريع عائدًا للبيت، ودخل بينما أسرته تتناول الحلوى فعاد للجلوس على مقعده، أكثر هدوءًا مما كان عليه حينما انطلق جاريًا، وانتظر أن يستأنف والدُه من حيث توقف حديثهما. الأب الذي لم يفقد أعصابه أبدًا. الأب الذي له طريقة أخرى تخصه في التهور والعقاب. بالكلمات. بالحديث. بما يسميه: "لغة شوسر، شكسبير، ديكنز." باللغة الإنجليزية التي لا أحد بوسعه أن ينتزعها منك والتي كان مستر سيلك يتقنها بثراء، ودائمًا بدرجة عالية من الامتلاء والفصاحة وجلاء المعنى، حتى في الحديث اليومي الاعتيادي كان يخطب خطبة مارك أنطونيو على جثمان قيصر. أعطى السيد سيلك كلَّ واحد من أبنائه الثلاثة الاسمَ الأوسطَ لأحد شخوص أحبّ المسرحيات التي يحفظها عن ظهر قلب، تلك التي هي برأيه ذروةُ الأدب الإنجليزي العليا وأهمُّ الدروس التعليمية في الخيانات العظمى المكتوبة: أكبر أبناء سيلك أخذ اسم "والتر أنطونيو"، الابن الثاني "كولن بروتس"، ثم "إرنستين كالبورنيا"[54]، شقيقتهما الصغرى، التي أخذت اسمَها من زوجة قيصر المخلصة الوفية.

[54] - ربما كان لاختيار هذه الأسماء بعينها دلالاتٌ ما. راجع المقدمة. (المترجمة)

كانت حياةُ مستر سيلك المهنيةُ قد وصلت إلى نهاية مريرة مع إغلاق البنوك. استغرق الأمرُ وقتًا طويلاً لكي يتجاوز محنةً فقده متجر البصريات في أورانج، هذا إن كان قد تجاوز فعلاً. بابا المسكين، ماما كانت تقول، لطالما كان يتوق للعمل لحسابه. كان قد دخل الجامعة في الجنوب، في جورجيا من حيث أتى- أمي كانت من نيوجيرسي- وعمل بالفلاحة وتربية الحيوانات. لكنه ترك العمل ونزح للشمال، إلى ترنتون، حيث التحق بمدرسة بصريات. ثم جُنّد في الجيش للحرب العالمية الأولى، ثم التقى أمي، وانتقل من هناك إلى أورانج الشرقية، افتتح المتجر، واشتري المنزل، ثم حدث الانهيار الاقتصادي، والآن هو نادل في عربة طعام. ولكن إذا لم يكن يستطيع ذلك في عربة الطعام، فعلى الأقل في البيت كان يقدر على الحديث بكل حرصه اللغويّ ودقته المسرحية وكان بوسعه أن يشلّ منطقَك بالكلمات. كان يحرص للغاية على أن يتحدث أولادُه على النحو الصحيح لغويًا. بعدما كبر أطفاله، كان من المستحيل أن يسمح لأحدهم أن يقول: "انظر الـ bow-wow[55]." وغير ممكن أيضًا أن يقولوا "أنظر إلى الـ doggie[56]." لابد أن يقولوا: "أنظر إلى الدوبرمان. انظر البيجل. انظر التيريير."[57] تعلم أبناؤه أن للأشياء تصنيفات. تعلموا القدرةَ على إطلاق الأسماء بدقّة. كان يعلمهم الإنجليزية طوال الوقت. حتى الأطفال الذين كانوا يأتون البيت للزيارة، أصدقاء أطفاله، كانت إنجليزيتهم تُصحَّح على يد مستر سيلك.

حينما كان يعمل خبير بصريات ويرتدي روبًا طبيًا أبيض فوق بدلة الوزارة الغامقة ويعمل ساعاته الاعتيادية، كان يجلس بعد تناول حلوى ما بعد الغداء ليقرأ الصحف على مائدة الطعام. كانوا يتبعونه في قراءة الصحف. كل الأبناء حتى الطفلة، حتى إرنستين لابد تأخذ دورها في "أخبار نيوآرك المسائية"، ودون هزل. أمُّه، جدة كولمن، كانت قد تعلمت أن تقرأ على يد سيدتها البيضاء، وبعد حركة تحرير العبيد ذهبت لما كان يسمى آنذاك مدرسة ولاية جورجيا الاعتيادية والصناعية للملونين. أبوه، جد كولمن من الأب، كان كاهنًا بروتستانتيًا. في أسرة سيلك كانوا قد قرءوا كل الكلاسيكيات القديمة. في أسرة سيلك لم يكن الأطفال يؤَخَذون إلى ماتشات الملاكمة والمسابقات والجوائز، بل إلى متحف فنون العاصمة في نيوآرك ليشاهدوا الدروع. كانوا يؤخذون إلى بلانيتاريوم[58] هايدن ليتعلموا النظام الشمسي. كانوا يؤخذون بشكل دوريّ إلى متحف التاريخ الطبيعي. ووقتها في عام 1937، في الرابع من يوليو، وبرغم التكلفة

55 - كلمة غير رسمية تعني: كلب. (المترجمة)
56 - كلمة تدليل للكلب. (المترجمة)
57 - Doberman- Beagle- Terrier- أنواع من الكلاب. يقصد أن أباهم كان يعلمّهم اللغة على نحو احترامي علمي. (المترجمة)
58 - Planetarium نموذج يمثل النظام الشمسي يشرح الظاهرة الفلكية للنشء. (المترجمة)

المادية، أخذهم مستر سيلك جميعًا إلى مسرح الموسيقى في برودواي ليشاهدوا جورج م.كوهان في "على الأرجح أنا على حق"[59]. مازال كولن يذكر ما قاله أبوه لشقيقه، العم بوبي، بالهاتف في اليوم التالي. "حينما أُسدِل الستارُ على جورج م.كوهان، هل تعرف ماذا فعل الرجل؟ خرج وغنّى أغنياته لمدة ساعة. جميع أغنياته. أيُّ تقديم أفضل يمكن لطفل أن يناله حول المسرح؟"

"لو كنتُ أباك،" استأنف والد كولن، بينما الولد يجلس بصمت مهيب أمام صحنه الخاوي، "تعرف بمَ كنت سأخبرك الآن؟"

"ماذا؟" قال كولن، في صوت خفيض، ليس بسبب إرهاقه من تمرين الجري بل لأنه كان يشعر بالخجل جرَّاء قوله لأبيه، الذي لم يعد خبيرَ بصريات، بل نادلٌ في عربة طعام ذاك الذي سوف يبقى نادلَ عربة طعام حتى يموت، إنه لم يكن والده.

"كنتُ سأقول: ' هل فزتَ الليلةَ الماضية؟ حسنًا. الآن بوسعك أن تعتزل وأنت غير مهزوم. أنت معتزلٌ الآن بالفعل.' هذا ما كنت سأقوله يا كولن."

كان الأمر أكثر يسرًا بكثير حينما تحدث إليه كولن فيما بعد، بعدما قضى بقية النهار يؤدي واجباته المدرسية وبعدما سنحت لأمه فرصة الحديث مع والده وإقناعه. كان بوسعهم جميعًا الجلوس معًا في قاعة المعيشة في سلام تقريبًا والاستماع إلى كولن وهو يصف أمجادَ الملاكمة، مشيرًا إلى كل المراجع والمصادر التي يمكنك أن تعود إليها لتتزود بالمعلومات، وكيف تتجاوز تلك الأمجادُ مجردَ الفوز في جولة.

كانت أمه هي التي تسأل الأسئلة الآن، وإجابتها لم تكن مشكلة. ابنها الأصغر كان ملفوفًا مثل الهدية في الأحلام الجميلة بالنسبة لجلاديس سيلك، الأشد عسرًا بالنسبة لها كان تمييز طفلَها عن الأحلام. بقدر ما كانت حساسة ورقيقة مع مرضاها في المستشفى، كان بوسعها أن تكون كذلك أيضًا مع الممرضات الأخريات، وحتى مع الأطباء، مع الأطباء البيض، القساة كثيري المطالب، الذين يفرضون عليهن قواعد سلوك لا تقل صرامة عما كانت تفرض هي على نفسها. كانت على هذا النحو مع إرنستين أيضًا. ولكن ليس مثلما كانت مع كولن. كان كولن يحصلُ على ما يحصل عليه المرضى: طيبتها ورقتها ورعايتها. كان كولن يحصل على كل ما يريد. الأبُ يقود الطريق، والأمُّ تغذي بالحب.

"لا أفهم كيف تغدو متهوّرًا وتضرب شخصًا لا تعرفه. أنت بالخصوص يا كولن، بطبيعتك المرحة هذه." قالت الأمُّ.

---

[59] - I'd Rather Be Right مقطوعة موسيقية غنائية في الثلاثينيات من القرن الماضي. عبارة عن قصة هجائية تنتقد سياسة واشنطن والرموز السياسية الأمريكية خاصة الرئيس فرانكلين روزفلت. (المترجمة)

"لا أغدو متهورًا. أنا فقط أركّز. إنها رياضة. أؤدي الإحماء قبل المباراة. أكيلُ لكمات صوريةً رمزية في الهواء. أُهيئ نفسي لما سوف يحدث لي."

"إذا لم تكن قد رأيتَ الخصمَ من قبل؟" سأل والدُه، بكل ما استطاع من كبح لنبرة السخرية.

"كل ما أعنيه،" قال كولن، "أنْ ليس على المرء أن يكون متهورًا."

"ولكن،" سألت أمه، "ماذا لو كان الولد الآخر متهورًا؟"

"لا يهمّ. إنها العقولُ هي التي تفوز، وليس التهور. لنفرض أنه متهور. مَن يعبأ؟ على المرء أن يفكر. الأمرُ مثل مباراة شطرنج. مثل قطٍّ وفأر. بوسعكَ أن تقود الخصم. ليلة الأمس، كان معي ذلك الرجل، كان في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة وكان بطيئًا نوعًا ما. ناولني لكزةً على قمة رأسي. ولذلك حين فعلها المرة التالية، كنتُ مستعدًا لها، وصنعتُ حاجزًا. جئتُ بالردّة الصحيحة ولم يدر هو من أين جئتُه. أوقعته أرضًا. أنا لا أوقع الخصومَ أرضًا، لكنني أوقعت هذا الرجل أرضًا. وفعلتُ ذلك لأنني وضعته في منطقة تفكيري فعرفتُ أن بوسعه أن ينالني مجددًا بتلك القبضة."

"كولن،" قالت أمه، "لا أحب الصوتَ الذي أسمع."

نهض ليشرح لها. "انظري. كانت لكمةً بطيئة. هل ترين؟ لقد رأيت أن لكزته بطيئة ولم يتمكن من الإمساك بي. لم يكن هناك ما يؤلمني يا ماما. كنت فقط أفكر في أنه لو فعلها ثانية، سوف أجعلها تطيش وأنزلقُ للأسفل ثم أضربه بيمناي. لذلك لو ضربها ثانية، سوف أراها آتيةً لأنها بطيئة، وسيكون بوسعي أن أردها وأمسك به. لقد أوقعته أرضًا يا ماما، ولكن ليس لأنني متهور. بل لأنني ملاكمٌ أفضل منه."

"لكن أولاد نيوآرك الذين تصارعهم هؤلاء. لا يشبهون أبدًا أصدقاءك،" وبشيء من التأثر، ذكرتْ أمي اسمَيْ اثنين من أفضل أصدقائي من حيث السلوك الطيب، هذين الزنجيين الذكيين زميليه في صفه الدراسي في ثانوية إيست أورانج، اللذين كانا بالفعل رفيقين يتناول معهما وجباته ويتجول بصحبتهما في المدرسة. "أشاهد هؤلاء الأولاد من نيوآرك في الشارع. هؤلاء الأولاد خشنون للغاية" قالت. "رياضةُ الجري أكثر تحضرًا بكثير من الملاكمة، تشبهك أكثر يا كولن. يا حبيبي، أنت تجري بجمال شديد."

"لا يهم إلى أي مدى هم خشنون أو كيف يرون أنفسهم خشنين،" أخبرها كولن. "هذا يهم في الشارع ربما. ولكن ليس في الحلبة. في الشارع بوسع ذلك الرجل أن يضربني بسخافة وحمق. ولكن في الحلبة؟ مع القواعد؟ مع القفازات؟ كلا، كلا- لا يقدر أن يطرحني أرضًا ويوسعني لكمات."

"ولكن ماذا يحدث لو ضربوك؟ هذا سوف يؤذيك. الأثر. لابد. وهذا خطير. رأسك. مخك."

"المرء يتعامل مع اللكمة يا ماما ويتفاداها. هم يعلموننا كيف ندور بالرأس ونتفادى اللكمة. مثل هذه الحركة، انظري؟ هذه الحركة تخفف الأثر. مرة، ومرة واحدة فقط، ولأنني فقط كنت غبيًا، فقط بسبب خطئي الغبي أنا ولأنني لم أكن معتادًا على القتال مع خصم أعسر[60]، شعرتُ بدوار. وهذا فقط يشبه لو أن المرء خبط رأسه في الحائط، يشعر بدوخة خفيفة وصدمة. ولكن فجأة كل يصبح جسمه على ما يرام من جديد. كل ما عليه فعله هو أن يمسك بالخصم أو يتحرك بعيدًا، وسرعان ما سيصفو رأسه. أحيانًا، تأتي الضربة في الأنف، تدمع عينا المرء قليلاً لمدة ثانية واحدة، هذا لو حدث. لو كان يعلم ماذا يفعل، فإنه لا خطورة هناك على الإطلاق."

بهذه الملاحظة كان الأب قد سمع ما يكفي. "رأيتُ رجالاً نالوا لكمة لم تستطيعوا أبدًا أن يروها وهي قادمة. وحين يحدث هذا،" قال مستر سيلك، "عيونهم لا تدمع- حين يحدث هذا، فإنهم فورًا يفقدون الوعي. حتى جو لويس[61]، إن كنتَ تتذكر، فقد الوعي بضربة- أليس كذلك؟ هل أنا مخطئ؟ وإذا كان يمكن أن يفقد جو لويس الوعي في ملاكمة، فأنت أحرى بالضرورة."

"نعم، لكن يا أبي، تشميلينج[62]، حينما صارع لويس في تلك المباراة الأولى، كان قد رأى ضعفًا. هذا الضعف ظهر حين ضرب لويس لكزتَه، بدلاً من أن يرتد للوراء من جديد على قدميه" وقف الولدُ ليشرح لأبيه ما يعني. "بدلاً من أن يرتد للوراء، دفع بيسراه- أنظرْ؟- وظل تشميلينج يتقدم- انظرْ؟- ولهذا صرعه تشميلينج. الأمر كله فِكر. حقًّا. هذا هو يا بابا. أقسم لك."

"لا تقل هذا. لا تقل: 'أقسمُ لك.'"

"لن أفعل، لن أفعل. ولكن انظر، لو لم يرتد للوراء، حيث موقعه في الوراء، لو جاء هنا بدلاً من ذلك، إذن سوف يأتي الخصم بيمناه وأخيرًا سوف يناله. هذا ما حدث في المرة الأولى. هذا بالضبط ما حدث."

لكن السيد سيلك كان قد شاهد العديد من المباريات، شاهد في الجيش مباريات بين الجنود تؤدَّى في الليل على منصّات أمام حشود الكشافة حيث المتصارعون لا يُصرَعون أرضًا فقط ويفقدون الوعي مثل جو لويس بل كانوا يُجرحون بقسوة حتى أن لا شيء

---

[60] - الكلمة المذكورة هنا هي southpaw، وتعني المخلب الجنوبي، وهو مصطلح في الملاكمة، لأن الملاكم الأعسر بوسعه أن يعطي بيسراه خطّافًا من أسفل إلى أعلى. أما الأعسر في اللغة الإنجليزية فكلمة Left-handed. (المترجمة)

[61] - Joseph Louis Barrow (1914-1981)،، بطل العالم في الملاكمة في الوزن الثقيل 1937- 1949. (المترجمة)

[62] - (1905-2005) ،Max Schmeling، ألماني، بطل العالم في الملاكمة في الوزن الثقيل بين عامي 1930- 1932. (المترجمة)

ثمة يمكن عمله لوقف النزيف. في قاعدته كان قد رأى متصارعين ملونين يستخدمون رءوسهم كأنما هي أسلحة رئيسية، مَن ذا الذي بوسعه أن يلبس قفازاً في رأسه! مقاتلو شوارع خشنون، رجال أغبياء ينطحون وينطحون برءوسهم حتى يتركوا وجه الخصم بلا ملامح بعدما تختفي معالمه كوجه إنسان. كلا، على كولمن أن يعتزل وهو غير منهزم، وإذا أراد أن يلاكم للتسلية، كرياضة، فعليه أن يفعل ذلك ليس في نادي نيوآرك للأولاد، الذي بالنسبة إلى مستر سيلك هو للأولاد القذرين، للجهلاء وقطّاع الطرق الرعاع المنذورين إما للبالوعات أو للسجن، بل هناك في إيست أورانج، تحت رعاية دوك تشيزنر، الذي كان طبيب الأسنان لعمال شركة الكهرباء المتحدة حينما كان مستر سيلك أخصائي بصريات يمد أعضاء الاتحاد بالنظارات قبل أن يفقد عمله. دوك تشيزنر لا يزال طبيب أسنان، ولكنه بعد ساعات العمل يعلّم أبناءَ اليهود من الأطباء والمحامين ورجال الأعمال قواعد فنون الملاكمة، ولا أحد في فصوله، بكل يقين، ينتهي به الحال مجروحًا أو مشوَّهًا. بالنسبة إلى والد كولمن، فإن اليهود، حتى الوقحين البذيئين منهم مثل د.فينسترمان، كانوا مثل المستكشفين الهنود، بشرًا أذكياء، يدلّون الغريب إلى طريقه للداخل، يظهرون الإمكانات الاجتماعية، يظهرون للعائلة الملونة الذكية كيف يمكنها أن تكون.

هكذا ذهب كولمن إلى دوك تشيزنر وأصبح الولد الملون الذي يسعى أبناءُ اليهود المميزون إلى معرفته- ربما الوحيد الذي سيعرفونه على الإطلاق. وبسرعة أصبح كولمن مساعدَ دوك، الذي يعلّم أولادَ اليهود، ليس بالضبط المهاراتِ المتقدمةَ مثل كيفية الاقتصاد في الطاقة والحركة، فتلك هي المهارات التي كان ماك ماكرون قد علمها لتلميذه النجيب، بل كان يعلمهم الأساسيات فقط، تلك التي كانت موجزة على كل حال- "أقولُ: واحد، أنت تلكز. أقول: واحد-واحد، تلكز لكزةً مضاعفة. أقول: واحد-اثنان، لكزة يسرى، ثم عارضة صليبية باليمنى. واحد-اثنان-ثلاثة، لكزة باليسرى، عارضة صليبية يمنى، خطافية باليسرى." بعدما يعود التلاميذ إلى بيوتهم- أحدهم عاد بأنف نازف سيترك الأمر ولن يعود أبدًا- كان دوك تشيزنر يعمل مع كولمن وحده، وبعض الليالي كان يقضيها في بناء قوة احتماله وثباته بالأساس عن طريق الاشتباك معه، عن طريق الصراع العنيف، السحب والجذب، الضرب، ثم، بالمقارنة، التظاهر بالملاكمة الصورية. كان دوك يحثّ كولمن على ممارسة تمرين الجري والملاكمة الصورية طوال الوقت حتى في الأوقات التي يجرّ فيها بائع اللبن عربته في الصباح الباكر لكي يوزع الحليب على المجاورة السكنية. كان كولمن يخرج في الخامسة صباحًا. في كنزته الرمادية ذات القلنسوة، في البرد، في الجليد، لا يهم، لثلاث ساعات ونصف الساعة قبل جرس المدرسة الأول. لا أحد غيره في الطريق، لا أحد كان يجري، قبل أن يعرف الناس بكثير

ما هو الجري، يقطع ثلاثة أميال سريعة، يكيلُ اللكمات طوال الطريق، يقف فقط كيلا يخيف ذلك الوحش الضخم، البُنّي، العجوز الذي يقطع الطريق، متدثرًا في عباءته التي تشبه عباءة الراهب، يتجنب كولن بائع الحليب حتى يمرّ، ثم ينطلق مجددًا. كان يكره ضجر الجري- لكنه لم يفوّت يومًا دون جري.

قبل أربعة أشهر تقريبًا من زيارة د.فينسترمان للمنزل ليقدم عرضَه لوالدي كولن، وجد كولن نفسَه أحد أيام السبت في سيارة دوك تشيزنر متجهين إلى المنطقة الغربية، حيث سيكون دوك حَكمًا في مباراة بين الجيش وبين جامعة بيتسبرج. كان دوك يعرف مدرّب فريق بيتسبرج ويريد أن يريه ملاكمةَ كولن. كان دوك واثقًا من أن المدربَ، مع درجات كولن الدراسية الفائقة، بوسعه أن يمنح كولن منحة دراسية لأربع سنوات في بيتسبرج، وهي منحة أكبر مما يمكنه أن ينالها بتقديره التراكميّ، وكل ما كان عليه أن يفعله هو الملاكمة في فريق بيتسبرج.

الآن، في الطريق إلى هناك لم يقل دوك لكولن إن عليه أن يخبر مدرب بيتسبرج أنه أبيض. بل طلب من كولن فقط ألا يذكر أنه ملوّن.

"إذا لم يستجدّ شيء،" قال دوك، "لا تذكر أنت ذلك. أنت لست هذا ولا ذاك. أنت سيلكي سيلك. وهذا يكفي. تلك هي الصفقة." تعبير دوك المفضل: "تلك هي الصفقة." عبارة أخرى مما لم يكن والد كولن ليسمح أن يكررها في البيت.

"ألن يعرف هو؟" سأل كولن.

"كيف؟ كيف سيعرف؟ كيف بحق الجحيم يمكنه أن يعرف؟ هنا أفضل ولد في مدرسة إيست أورانج الثانوية، وجاء مع دوك تشيزنر. أتدري فيمَ سيفكر، إذا ما فكر في شيء؟"

"فيمَ؟"

"أنت تشبه شكلك، أنت معي، وهكذا سيفكر أنك أحد صبيان دوك. سوف يفكر أنك يهودي."

لم ينظر كولن إلى دوك إلا باعتباره كوميديانًا- لا شيء يشبه ماك ماكرون وقصصه في شرطة نيوآرك- لكنه ضحك عاليًا عند ذلك الكلام وهنا ذكّره كولن: "سوف أذهب إلى هوارد. ليس بوسعي أن أذهب إلى بيتسبرج. لابد أن أذهب إلى هوارد." حسبما يذكر كولن، كان والده قد قرر أن يرسله، هو الألمعُ بين أبنائه الثلاثة، إلى جامعة السود التاريخية مع أولئك الأولاد المميزين من أبناء صفوة السود المهنيين.

"يا كولن، لاكِمْ أمام الرجل. هذا هو كل شيء. تلك هي الصفقة كاملة. دعنا نرى ماذا سيحدث."

فيما عدا عدة رحلات تعليمية لمدينة نيويورك مع أسرته، لم يخرج كولمن خارج ولاية جيرسي من قبل، وهكذا في البدء قضى يومًا عظيمًا يتجول حول ويست بوينت متظاهرًا بأنه كان في ويست بوينت لأن كان عليه الذهاب إلى ويست بوينت، ثم لاكم أمام مدرب بيتسبرج ضد رجل يشبه الرجل الذي كان قد لاكمه في نادي فرسان بيثياس- بطيء، بطيء للغاية حتى أن كولمن خلال ثوان أدرك أن لا سبيل أمام ذلك الرجل ليهزمه، حتى وإن كان عمره عشرين عامًا وإن كان ملاكمًا بالجامعة. يا إلهي، كان كولمن يفكر في نهاية الجولة الأولى، لو فقط أمكنني أن ألاكم خصومًا مثل ذلك الرجل بقية حياتي، لسوف أكون أفضل من راي روبنسون[63]. لم يكن الأمر فقط أن كولمن يزن الآن حوالي سبعة أرطال زيادة عمّا كان حين لاكم في فرسان بيثياس ببطاقة الهواة. ثمة أمرٌ لم يقدر حقًّا أن يسميه جعله يود أن يكون مدمِّرًا أكثر مما تجاسر من قبل وفعل، أن يفعل اليومَ شيئًا أكثر من مجرد الفوز. هل كان ذلك لأن مدرب بيتسبرج لم يعرف أنه ملوّن؟ هل يمكن أن يكون ذلك لأن ما يكونه بالفعل كان هو سره الأكبر؟ هو يحب الأسرار. إنه سرٌّ، ألا يعرف أحدٌ ما يدور في رأسك، فكّرْ ما شاء لك أن تفكر دون سبيل لأن يعرفه أحد. كل الأولاد الآخرين كانوا يثرثرون حول أنفسهم. لكن لم يكن في ذلك مكمن القوة ولا المتعة أيضًا. القوةُ والمتعةُ يكمنان في أن تتواجد في الضد، في أن تكون خصمًا لكرسي الاعتراف بنفس أسلوب أن تكون خصمًا في ملاكمة، وكان يعرف ذلك دون حاجة لأن يخبره به أي إنسان ودون اضطراره لأن يفكر في ذلك. لذلك كان يحب تدريب الملاكمة وهو يضرب الكيس الضخم: بسبب السرية التي به. لذلك أيضًا كان يحب اقتفاء الأثر، بل كان هذا حتى هو الأفضل. كان بعض الأولاد يضربون الكيس بعيدًا بشدة. ليس كولمن. كان كولمن يفكر، وبنفس الطريقة التي يفكر بها في المدرسة أو في السباق: احِسبْ كلَّ شيء بدقة حسب قانونه الخاص، لا تدعْ شيئًا يشغلك، ثم اغمرْ نفسَك بالكامل في الأمر، المادة الدراسية، المسابقة، الامتحان- السيدُ المتحكم في الأمر، هو ذلك الشيء ذاته. كان بوسعه أن يطبق ذلك في مادة الأحياء وكان بوسعه أن يطبق ذلك في الجري وكان بوسعه أن يطبق ذلك في الملاكمة. لا شيءَ خارجيًّا يشكِّلُ فرقًا، ولا أي شيء داخليّ أيضًا. إذا كان هناك جمهور في المباراة يهتف ضده، لم يكن ليلقي لهم بالاً، وإن كان الخصم الذي يصارعه صديقَه الحميم، فلم يكن ليلقي إلى ذلك بالاً. بعد المباراة سيكون هناك متسعٌ من الوقت لهما لكي يعودا صديقين من جديد. نجح في ترويض نفسه على تجاهل المشاعر، سواء كانت مشاعر الخوف، التردد، وحتى الصداقة- ليكن لديك مشاعرُ، ولكن احتفظْ بها منفصلةً عن ذاتك. حين يكون في تدريب

[63] - Ray Robinson، ملاكم أمريكي محترف (1921-1989). (المترجمة)

الملاكمة الصورية، على سبيل المثال، لم يكن يلين أو يرتخي. كان يتخيل أن خصمًا أمامه. وفي الحلبة، حينما يكون الخصمُ حقيقيًا- ذا رائحة كريهة، مُثقلاً بالمخاط، والعرق، كان يقذف اللكمات على نحو واقعي بأقصى ما يمكنه- حيث يكون الخصم لا يزال غير قادر على قراءة ما تفكر فيه. لم يكن هناك معلّمٌ ليسألك إجابةَ السؤال. كل الإجابات تعرفها في الحلبة، اِحتفظْ بها لنفسك، فإذا ما بُحتَ بالسر، بُحْ به عبر كل شيء فيما عدا فمك.

وهكذا في ويست بوينت تلك الساحرة الأسطورية، تلك التي بدت له يومها كأنما كان هناك أكثر من أمريكا في كل بوصة مربعة من العَلَم الخفاق على صارية ويست بوينت أكثر مما في أي علم رآه من قبل، وحيث بدت له الوجوه الحديدية لطلاب العسكرية تحمل سمةَ البطولة الخارقة، حتى هنا، في المركز الوطني، لبِّ العمود الفقري الصلب لبلاده، حيث تطابقتْ خيالاتُه ابنةُ الستة عشر عامًا، التي هي كلّ عمره، كل خيالاته حول المكان، تطابقت بدقة مع الخيال الرسمي، حيث كل شيء رآه جعله مُستعِرًا بالحب، ليس فقط لنفسه، بل لكل ما كان مرئيًا، كأنما كل شيء في الطبيعة كان شكلاً من حياته الخاصة- الشمسُ، السماءُ، الجبالُ، النهرُ، الأشجارُ، جميعها كانت كولمن بروتس "سيلكي" سيلك محمولاً إلى الدرجة المليون- حتى هنا لا أحد يعرف سرَّه، ولذلك خرج هناك في جولته الأولى، وعلى عكس ملاكمة ماك ماكرون القاهرة، راح يضرب هذا الرجل بكل ما لديه. حينما يكون هو وخصمه على نفس المستوى، يلجأ إلى استخدام عقله، ولكن حينما يكون الخصمُ سهلاً ويكتشف كولمن ذلك مبكرًا، فإن بوسعه أن يكون مقاتلاً شرسًا ويبدأ في اللكم العنيف. وهذا ما حدث في وست بوينت. خلال برهة، كان قد مزق عيني الرجل، وراحت أنفُ الرجل تنزف، كان يضربه في كل مكان. ثم حدث شيءٌ لم يحدث من قبل. ضرب خطافية، خطافية بدت كأنما ستدخل بعمق ثلاثة أرباع جسم الرجل. دخلت عميقًا جدًا، وهو ما أذهله، لكن ذهوله كان في نصف ذهول رجل بيتسبرج. كان كولمن يزن مائة وثمانية وعشرين رطلاً، بالكاد ملاكم صغير يضرب الناس بعجالة كيفما اتفق. لم يحدث من قبل أن ثبّت قدميه ليضرب مثل تلك اللكمة القوية، لم يكن ذلك أسلوبه؛ وظلت لكمته مخترقة الجسم عميقًا حتى أن خصمَه انطوي على نفسه للأمام، ملاكمُ الجامعة الذي في العشرين من عمره، صرعه كولمن بما أسماه دوك تشيزنر "لابونز"[64]. بالضبط في الـ لابونز، فانثنى الرجلُ للأمام، وللحظة ظن كولمن أن الرجل سوف ينتصب واقفًا، ولذلك قبل أن ينتصب لأعلى وقبل أن يسقط لأسفل، جهّز كولمن نفسَه ليلكمه بيمناه بعنف مرة أخرى- كل ما كان يراه في خصمِه الأبيض وهو

[64] - Labonz، مفردة بالدارجة الإيطالية تعني "المَعِدة". (المترجمة)

آخذٌ في التهاوي على الأرض، أنه شخصٌ يودُّ ضربَه حتى الموت- ولكن مدرب بيتسبرج، الذي كان هو الحَكَم، هتفَ فجأة: "لا تفعلْ يا سيلكي!" وفيما كان كولمن يحاول أن يضرب اليمنى الأخيرةَ تلك، جذبه المدربُ وأنهى المباراة.

"وذاك الولدُ،" قال دوك وهو يقود السيارة في طريق العودة، "ذاك الولد كان أيضًا مقاتلاً جيدًا ملعونًا. ولكن حين جذبوه إلى ركنه، كان عليهم أن يخبروه أن المباراة قد انتهت. هذا الولد كان بالفعل في ركنه، ومازال لا يعرف من أين جاءته الضربة."

عميقًا في الانتصار، في السِّحر، في نشوة تلك اللكمة الأخيرة وذلك الفيضان العذب الهادر من الاهتياج الذي انكسرت شوكته على الملأ فأدركه بما لا يقل عما أدرك ضحيته، قال كولمن- تقريبًا كأنما كان يتكلم في نومه أكثر مما يتكلم بصوت عالٍ في السيارة وهو يسترجع المعركةَ في رأسه-: "أظن أنني كنت سريعًا جدًا بالنسبة له يا دوك."

"بالتأكيد، سريع. بالطبع سريع. أعلم أنك سريع. ولكنك أيضًا قوي. كانت تلك أفضل خطافية أطلقتها في حياتك يا سيلكي. يا ولدي، كنتَ قويًا جدًا عليه."

هل كان؟ قويًا حقًا؟

ذهب إلى جامعة هوارد[65] على كل حال. لو لم يفعل، لقتله والده- بالكلمات وحدها، باللغة الإنجليزية المجرّدة. مستر سيلك كان قد قرر: كولمن سيذهب إلى هوارد ليصبح طبيبًا، يقابل فتاةً فاتحةَ البشرة من إحدى عائلات الزنوج الطيبين، يتزوجها ويستقر وينجب أطفالاً، سيذهبون بدورهم إلى جامعة هوارد. في هوارد التي هي زنجيةٌ بكاملها، مزايا كولمن الهائلة من حيث الذكاء وحُسن المظهر سوف تؤهله ليتبوأ المكانةَ الأعلى في مجتمع الزنوج، وسوف تجعل منه شخصًا ينظر إليه الناسُ باحترام وإكبار إلى الأبد. ولكنه خلال أسبوعه الأول في هوارد، حينما خرج بتوقٍ شديد يوم السبت مع رفيق غرفته، ابن محام من نيو برنزويك، لكي يشاهدا صرح واشنطن، وتوقفا في وولورث[66] ليتناولا النقانق، نودِيَ كولمن بـ"الزنجي". وكانت المرة الأولى. ولم يأخذ ساندويتش النقانق. رفض ساندويتش السجق في وولورث بوسط مدينة واشنطن، بسبب مناداته بالزنجيّ، ونتيجة ذلك، لم يقدر أن يفصل نفسه عن مشاعره بنفس السهولة التي يفعل بها ذلك في حلبة الملاكمة. في ثانوية إيست أورانج[67] كان هو التلميذ الأول في الفصل، أما في الجنوب المعزول فهو مجرد زنجي. في الجنوب المعزول ليس من هويّات

[65] - جامعة في واشنطن خاصة بالملونين. (المترجمة)
[66] - Woolworth، سلسلة محلات عالمية شهيرة أنشأها فرانك وينفيلد وولروث عام 1879. (المترجمة)
[67] - East Orange

مميزة، ولا حتى بالنسبة له ولزميل غرفته. ليس مسموحًا بذلك اللطف، الهجوم كان صادمًا وقاسيًا. زنجي- وكانت المفردة تلك تعنيه هو.

بالطبع، حتى في أورانج الشرقية لم يكن ينجو من بعض أشكال المعاملة الدونية والإقصاء الأقل سخطًا، تلك التي جعلت المجتمع يفصل أسرتَه والطائفةَ الصغيرة الملونة عن بقية أورانج الشرقية- كل ما كان يتدفق مما أسماه والده "رُهاب الدولة من الزنوج"[68]. وكان يعلم، أيضًا، أن العمل لدى سكة حديد بنسلفانيا، كان يحتّم على والده أن يتحمّل الإهانات في عربة الطعام، نقابةٌ أو لا نقابة، لا فرق. وكذلك كانت المعاملةُ المجحفة من الشركة لوالده أكثرَ إذلالاً مما يمكن أن يدركه كولمن كصبي صغير في إيست أورانج، صبيّ لم يكن وحسب فاتح البشرة بالنسبة لبشرة زنجي، بل أيضًا ولد متوقّدٌ متحمس سريع البديهة، قُدّرَ له أيضًا أن يكون نجمًا رياضيًا وتلميذًا نابهًا في المرتبة (أ). كان يرى والده يفعل المستحيل كيلا ينفجر حين يعود إلى البيت من العمل بعد شيء عنصري قد حدث، مما لا يستطيع أن يفعل شيئًا حياله، إذا ما أراد الاحتفاظ بالوظيفة، عدا أن يقول بوهن: "نعم، صه." ليس صحيحًا دائمًا أن الزنوج من ذوي البشرة الأفتح يُعاملون على نحو أفضل. "أي وقت يتعامل معك أبيضُ،" كان والده يخبر أسرته، "بصرف النظر عما يكون عليه من مقصد طيب، لابد من تسليمه بالتدني الفكري لدى الزنجي. بطريقة أو بأخرى، إن لم يكن بالكلمات الصريحة، فعن طريق بتعبيرات وجهه، بنبرة صوته، بنفاد صبره، وربما بالعكس- بصبره الزائد، بإظهاره إنسانيةً وتواضعًا رائعين- سوف يتكلم معك دائمًا على اعتبار أنك غبيّ، وبعدها، إذا اكتشف أنكَ لست غبيًا، سوف يندهش. "ماذا حدث، يا أبي؟" كان كولمن يسأل. ولكن، بفعل الكبرياء مثلما هو بفعل الاشمئزاز، نادرًا ما كان والده يحكي ما حدث. ولكي تجعل اللمحةَ التربوية وافيةً، كانت أمُّه تفسّر: "ما حدث، أقلُّ من أن يعيده أبوك."

في ثانوية إيست أورانج، كان هناك معلمون يحس كولمن بعدم عدالة مستويات تقبلهم وتأييدهم له، مقارنةً بما كانوا يغدقونه على الأطفال البيض الأذكياء، ولكن ليس أبدًا للدرجة التي تجعل ذلك الكيل بمكيالين قادرًا على تعويق أهدافه. مهما كانت درجات الاستخفاف وأيًّا ما كانت العراقيل، كان يتعامل معها مثلما يتعامل مع حواجز القفز المنخفضة. لولا أنه لكي يتظاهر بالحصانة، كان لا يبالي بأمور يقول عنها والتر إنها لا تُحتمَل، ولا تليق. كان والتر يلعب في منتخب الجامعة لكرة القدم، ويحقق علامات طيبة في الدراسة، وكزنجيٍّ لم تكن بشرته أقلّ شذوذًا في اللون من كولمن، سوى أنه كان أكثر غضبًا من كل شيء. حينمًا، مثلاً، لم يُدعَ إلى بيت طفل أبيض وأُجبِر على الانتظار

---

[68] - Negrophobia

بالخارج، حينما لم يُطلب منه الحضور إلى حفل عيد ميلاد زميل فريقه الأبيض، الذي كان والتر أحمقَ بما يكفي ليعتبره صديقًا. ظلّ كولمن، الذي كان يشاركه غرفة نومه، يسمع عن تلك الحكاية لشهور. حينما لم يحصل والت على درجة (أ) في حساب المثلثات، ذهب من فوره إلى المعلم ووقف هناك وقال للرجل ذي الوجه الأبيض: "أظن أنكَ أخطأت." حينما عاد المعلم إلى دفتر الدرجات ونظر من جديد إلى مجموع درجات امتحانات والت، عاد إليه، وبرغم إقراره بخطئه، كانت لديه الجسارة ليقول: "لا أستطيع أن أصدق أن درجاتك عالية هكذا،" وبعد ملاحظة مثل تلك غيّر العلامة من (ب) إلى (أ). لم يكن كولمن يجسر بأن يسأل معلمًا أن يعدّل درجاته، سوى أنه أيضًا لم يكن مضطرًا لذلك. ربما لأنه لم يكن لديه نزعة التمرد الخشنة التي لدى "والت"[69]، وربما لأنه كان محظوظًا، وربما لأنه كان أكثر ذكاء، وكان تفوقه الأكاديمي لا يجعله يبذل الجهد الذي كان على والت بذله، كان يحصل على (أ) من المرة الأولى. وحينما، في الصف السابع، لم يُدعَ إلى حفل عيد ميلاد أحد أصدقائه البيض (شخص يسكن على مقربة في المنزل بالناصية، الابن الأبيض الصغير الذي كان يذهب إلى المدرسة ويعود مع كولمن منذ بدء مرحلة الحضانة)، لم يأخذها كولمن كرفض من البيض- وبعد شعوره الأوليّ بالغموض، اعتبر الأمر رفضًا من والدة ديكي واتكين ووالده الغبيين. حينما كان يدرِّبُ فصلَ دوك تشيزنر، أدرك أن هناك أطفالاً يقاومونه، كانوا لا يحبون أن يمسَّهم كولمن أو أن يحتكّوا بعَرَقه، بين الحين والحين كان هناك طفل ينسحب من التمرين- من جديد ربما بسبب والديه اللذين لا يريدان لطفلهما أن يأخذ تعليمات الملاكمة، أو أية تعليمات كانت، من ولد ملوّن- ولكن، على عكس والت، الذي لم يستطع التأقلم مع إهمال البيض واستخفافهم، استطاع كولمن في الأخير أن ينسى الأمر، أن يتجاهله، أو أن يتظاهر بذلك. مرةً جُرح أحد العدّائين البيض في جولة جماعية جرحًا خطيرًا في حادث سيارة، وسارع أعضاء من الفريق للتبرع بدمائهم للجريح، كولمن كان أحدهم، لكن أسرة الجريح رفضت دمه. شكروه وأخبروه أن لديهم ما يكفي، لكنه كان يعلم السبب الحقيقي. كلا، لم يكن الأمر أنه لا يدرك ما يدور حوله. فقد كان أذكى من ألا يدرك. دخل في منافسات ضد العديد من أولاد نيوآرك البيض في مسابقات العدو، إيطاليين من بارينجر، بولنديين من الجانب الشرقي، آيرلنديين من المركز، يهود من ويكواك. كان يرى، يسمع- يسترق السمع. كان كولمن يدرك ما يدور حوله. لكنه كذلك كان يدرك ما لا يدور، في مركز حياته على الأقل. حمايةُ والديه، الحمايةُ الممنوحة من والت، كشقيقه الأكبر ذي الستة أقدام وبوصتين ونصف طولاً، ثقتُه الغريزيةُ بنفسه، فتنتُه اللامعة، براعته في الجري ("أسرعُ الأولادِ في

[69] - والت هي تدليل والتر شقيق كولمن، كذلك إيرن هي تدليل إرنستين، شقيقته. (المترجمة)

مدارس أورانج")، حتى لونه، الذي جعل منه شخصًا لا يستطيع الناسُ أحيانًا اكتشافه- كلُّ ذلك اجتمع ليُسكتَ كولن عن الإهانات التي كان والت يجدها لا تُحتمَل. ثم هناك الاختلاف في الشخصية: والت كان والت، والت للغاية، وكولن لم يكن. ربما لم يكن هناك تفسيرٌ أفضلُ من اختلاف ردود الفعل بينهما.

ولكن كلمة "نيجر"[70]- موجهةً إليه مباشرةً؟ هذا أحنقه. ولكن، ما لم يكن يريد أن يدخل في متاعب خطيرة، لم يكن أمامه سوى أن يخرج من المتجر. هذه لم تكن بطاقة ملاكمة الهواة في نادي فرسان بيثياس. إنها محلات وولورث في واشنطن. قبضتاه بلا فائدة هنا، حركة قدميه بلا فائدة، وكذلك كان حنقه. انسَ أمر والتر. لكن كيف أمكن والده أن يتحمل هذا الرَّوَث؟ بصورة أو بأخرى لابد كان يطاله رَوثٌ مثل هذا كل يوم في عربة الطعام! ليس قبل الآن، بالرغم من كل مهاراته المبكرة، أدرك كولن كم كانت حياته محميةً، ولم يكن قد حسب درجة ثبات والده ولا أدرك القوة الهائلة التي كان عليها ذلك الرجل- قوة ليست مجرد فضيلة أن يكون أباه. أخيرًا هو يرى الآن كل ما ظلّ أبوه يستنكر قبولَه. رأى كذلك كل عدم دفاعية والده، حيث كان فيما قبل غلامًا أكثر سذاجةً من أن يتخيل، بسبب ذلك الأسلوب السياديّ، الاستبدادي الصارم الذي لا يُطاق أحيانًا، ذاك الذي كان مستر سيلك يمارسه عليه، بما لم يدع شيئًا غير حصين. ولكنْ لأن شخصًا ما فيما مضى تجنب أن يناديه في وجهه بالزنجي، فقد أدرك كولن أخيرًا حجمَ السدّ المنيع الذي كان يمثله أبوه له ضدّ التهديد الأمريكي الهائل.

لكن ذلك السد لم يجعل الحياة أفضل في هوارد. خاصةً حينما بدأ يعتقد في أن ثمة شيئًا من الزنوج كان به حتى بالنسبة للأولاد في السكن الجامعي الذين كان لديهم كل أنواع الملابس الجديدة والنقود في جيوبهم وفي فترات الصيف لم يكونوا يتسكعون بالشوارع الحارّة في أوطانهم بل يذهبون إلى "المخيّم"- وليس إلى مخيم "بوي سكوت" في جيرسي، بل إلى أماكن خيالية حيث يمتطون الخيول ويلعبون التنس ويمثلون في المسرحيات. ما هي "كوتليون"[71] بحق الجحيم؟ أين هو شاطئ هايلاند؟ ما الذي يتكلم عنه أولئك الأولاد؟ وجد نفسه وسط مجموعة من ذوي أفتح البشرات لونًا بين كل ذوي البشرات الفاتحة في فصل طلاب السنة الجامعية الأولى، أفتح حتى من رفيق غرفته الذي كانت بشرته في لون الشاي، حتى أنه هو كولن كان ربما الأغمقَ والأكثر جهلاً من بين كل من سبق وقابلوهم في حياتهم. كرِهَ جامعةَ هوارد منذ يوم وصوله، وخلال أسبوع واحد كان يكره واشنطن كلها، وهكذا مع بدايات أكتوبر، حينما سقط أبوه ميتًا وهو

[70] - Nigger- كلمة مهينة مشتقة من المفردة التي تشير إلى عِرق الزنوج Negro. (المترجمة)
[71] - cotillion اسم رقصة. (المترجمة)

يقدم الغداء في عربة الطعام بقطار سكة حديد بنسلفانيا الذي كان يتحرك من محطة شارع الثلاثين في فيلادلفيا إلى ويلمنجتون، وحين عاد كولن البيت من أجل الجنازة، أخبر أمه أنه لن يذهب للجامعة بعد ذلك. طلبت منه أمه أن يعطي نفسه فرصة أخرى، مؤكدةً أنه لابد سيكون هناك أولاد مثله من أسر متوسطة، أبناء منح دراسية مثله، لكي يختلط بهم ويصادقهم، ولكن لا شيء مما قالت أمه، مهما كان حقيقيًا، كان قادرًا على أن يغير رأيه. شخصان فقط بوسعهما أن يجعلا كولن يغير رأيه إذا ما قرر أمرًا، والده ووالت، وحتى هذان كان عليهما أن يجرّبا كل شيء إلا أن يكسرا إرادته لكي ينجحا. على أن والت كان في إيطاليا مع الجيش الأمريكي، ووالده الذي كان على كولن أن يسترضيه بالامتثال لأوامره لم يعد موجودًا بينهم لكي يُملي قراراته بصوته الجهوريّ.

بكى كولن بالطبع في الجنازة وأدرك أيَّ شيء عملاق انتُزِع من بينهم دون سابق إنذار. حينما قرأ الكاهنُ، بالموازاة مع آيات الكتاب المقدس، مختاراتٍ من "يوليوس قيصر" من مجلّد مسرحيات شكسبير الذي كان والده يحتفظ به باعتزاز- الكتاب الضخم بغلافه الجلديّ اللين، الذي كان يُذكِّر كولن وهو طفلٌ بالكلب الأسباني الصغير ذي الأذنين الطويلتين المُهدّلتين- أحسَّ الابنُ أثناء قراءة الكاهن بجلال والده كما لم يحسّ به من قبل: عظيمٌ في حياته وفي موته، تلك العظمةُ التي، كطالب في أولى جامعة بالكاد أمضى شهرًا واحدًا بعيدًا عن بيته الضيق في أورانج الشرقية، بدأ كولن في وهنه الآن، يتبينّ لأي سبب كانت العظمةُ هائلة.

الجبناءُ يموتون مراتٍ عديدةً قبل موتهم؛
والجَسورُ لا يتذوق الموتَ سوى مرة.
من بين كِّل العجائب التي سمعتُها،
بدا لي أن الأغربَ بينها أن الرجالَ قد يهابون؛
وهم يرون أن الموتَ نهايةٌ حتمية،
سوف يأتي، حينما يأتي.

كلمة "الجسور"، كما نطقها الواعظ، فتّتت محاولات كولن الرجولية ليبدو هادئًا، جَلِدًا، رابطَ الجأش، وأظهرت عاريًا مكشوفًا حنينَ الطفل للرجل الأب الذي كان الأكثر قربًا منه، ذاك الأب الذي لن يراه أبدًا بعد الآن، الأب الهائل الذي أخفى معاناتِه، الأب الذي كان يتكلم بطلاقة كاسحة، الذي عن طريق قدراته الخطابية فقط جعل كولن يرغب في أن يكون هائلاً. بكى كولن بكل وفرة مشاعره وغزارتها، واهنًا بلا حيلة حيال كل ما لا

يقدر على تحمّله. حين كان في مرحلة المراهقة يتشكّى لأصدقائه من والده، كان يصوّره لهم بازدراء يزيد كثيرًا عمّا يشعره نحوه بالفعل وأكثر من قدرته على الشعور بذلك- كان يزعم ذلك كأنما كانت محاكمتُه اللاشخصية لوالده هي إحدى الطرق التي ابتكرها للمطالبة بالحصانة. ولكن أنْ يصبح الآن غير محاصر ضمن دائرة والده، كان هذا شيئًا يشبه أن يجد كل ساعات الحائط، أينما ينظر إليها، قد توقفت بغتةً، وكذا كل ساعات اليد، وأنه لا سبيل ثمة لمعرفة الوقت. في منتصف النهار كان قد وصل إلى واشنطن ودخل هوارد. كان والده، أحبّ كولمن ذلك أم لم يحبه، هو الذي يصنع لكولمن قصته؛ والآن عليه أن يصنعها لنفسه بنفسه، وكانت الاحتمالات مروّعة. وبعد ذلك لم تكن. مرّت ثلاثة أيام رهيبة ثقيلة، أسبوع عصيب، أسبوعان رهيبان، حتى، من مكان مجهول، جاء الانتعاش.

"ما الذي كان يمكن تفاديه/ نهايةُ مَن كانت مقصدَ الآلهة الجبّارة؟" سطور من يوليوس قيصر، كان والده يقتطفها من أجله، ولكن الآن فقط مع وجود أبيه في القبر، بدأ كولمن أخيرًا يهتمّ بسماعها- وحينما فعل، لحظيًّا بدت له الكلماتُ جليلة. كان هذا مقصودًا من الآلهة العظيمة! حرية سيلكي. أنا في صورتي الخام[72]. كلُّ دِقّة ورِقّة أن تكون سيلكي سيلك.

في هوارد، اكتشف أنه لم يكن فقط مجرد زنجي[73] بالنسبة لمقاطعة واشنطن- كأنما تلك الصدمةُ وحدها لم تكن قاصمةً قاسيةً بما يكفي، بل اكتشف في هوارد أنه زنجيٌّ[74] وأسود أيضًا. زنجيّ هوارد الأسود هذا هو. بين عشية وضحاها أصبح 'أنا في صورتي الخام'[75] جزءًا من 'نحن' بكل ما تحمله الـ'نحن' من صلابة، ولم يكن يرغب في فعل أي شيء حيال ذلك أو حيال 'نحن القامعة' التالية الآتية في الطريق أيضًا. أخيرًا تركتَ الوطنَ، الجزءَ الخاصَّ بك من الـ'نحن'، فهل وجدتَ 'نحن' أخرى؟ هل وجدتَ مكانًا آخر يشبه مكانك تمامًا، بديلاً له؟ بينما كان ينمو ويكبر في أورانج الشرقية، كان دون شك زنجيًّا أسود، كثيرون مثله في مجتمعهم الصغير المكون من خمسة آلاف إنسان أو نحو ذلك، لكن الملاكمة، الجري، الاستذكار، في كل شيء أحرز فيه تركيزًا ونجاحًا، التجوال هنا وهناك وحيدًا في أنحاء أورانج، ومع أو بدون دوك تشيزنر، بالأسفل عبر حدود نيوآرك، كان، دون التفكير في الأمر، أو في كلّ شيء آخر أيضًا. كان كولمن، أعظم عظماء الروّاد في الـ'أنا'.

---

[72] - The raw I

[73] - الكلمة المستخدمة هنا هي nigger، وهي كلمة أمريكية دارجة تستعمل للتقليل من شأن الشخص. (المترجمة)

[74] - أما الكلمة المستخدمة هنا فهي Negro، وهي الكلمة الفصحى ومعناها الأسود الزنجي. والكلمتان: nigger- negro، ممنوع استخدامها الآن في أمريكا، وتستخدم بدلاً منها كلمة "أمريكي أفريقي" للتعبير عن السود. (المترجمة)

[75] - "أنا دون عِرق أو هوية"، The raw I . هنا سيبدأ فيليب روث لعبة الضمائر، التي أشرنا إليها في المقدمة. (المترجمة)

[76]بعد ذلك ذهب إلى واشنطن وفي الشهر الأول، كان زنجيًا[77] ولا شيء آخر، وكان أسود[78] ولا شيء آخر. كلا، كلا. كان يرى المصيرَ ينتظره في الأفق، ولم يكن قادرًا على أن يناله. قبض عليه على نحو بدهيّ ثم تراجَع تلقائيًا. لا تقدر أن تترك الـ"هُم"[79] الكبيرةَ تفرض عليك تعصّبَها بعد ذلك بقدر ما تقدر أن تترك الـ"هُم" الصغيرة[80] تصبح "نحن" وتفرض عليك أخلاقياتِها. ليس طغيان الـ"نحن" وخطابها بصيغة "نحن" وكل شيء تريد تلك الـ"نحن" أن تراكمه فوق رأسك. مستحيل بالنسبة له أن يسمح لطغيان الـ"نحن" ذاك الذي يتوق إلى امتصاصك داخل أخلاقياته المُلزِمة، تلك الأخلاقيات التاريخية الشمولية التي لا مفرّ منها الخاصة بالـ"نحن" وطاقتها المُغوية. ولا الـ"هُم" في وولورث ولا الـ"نحن" في هوارد. بدلاً من "أنا الخام" بكل سرعة بديهتها. اكتشافُ النفس الذي كان هو لكمةً لابونز[81]. الصيغةُ المفردة. الصراعُ العنيف من أجل الصيغة المفردة. الإنسانُ المفرد. العلاقةُ المنزلقة مع كل شيء. ليست مستقرة بل منزلقة. معرفةُ النفس مع إخفائها. أيُّ شيء في جبروت ذلك؟

"احذرْ يوم الثالث عشر من مارس."[82] هراء. لا تحذرْ شيئًا. كن حرًا. بذهاب السَّنَدَيْن المتحكّمينْ- الشقيق الأكبر الغائب فيما وراء البحار، والأب الميت- استعاد كولمن قوته وأصبح حرًا لأن يكون ما يشاء، حرًا ليلاحق الهدف الأكبر، الثقة الكامنة في عظامه، لأن يكون ذاتَه المتفردة. هو حرٌّ لدرجة لا يمكن لوالده أن يتخيلها. هو حرٌّ بقدر ما كان أبيه ليس حرًا. تحرّرَ ليس فقط من أبيه، بل كذلك من كل ما كان على أبيه أن يتحمله. الفروض. الخزي. العوائق. الجرح والوجع والسلوك والعار- كل الأوجاع الروحية للإخفاق والانهزام. البديل الحر على خشبة المسرح الكبير. حرٌّ لأن يمضي قُدمًا حتى يغدو هائلاً. حرٌّ لأن يؤدي دوره في الدراما الشاسعة لتعريف هوية الضمائر: نحن، هُم، وأنا.

الحرب كانت لا تزال تدور، ولولا أنها انتهت بين عشية وضحاها لكان قد جُرف. لو كان والت في إيطاليا يحارب هتلر، فلماذا لم يحارب الأوغاد كذلك؟ إنه أكتوبر 1944، مازال يفصله شهرٌ عن أن يغدو في الثامنة عشرة، وهو ما أشعره بالخجل. سوى أن بوسعه الكذب بشأن عمره- تحريك يوم ميلاده شهرًا للوراء، من 12 نوفمبر إلى 12

---

[76] - في هذه الفقرة يستخدم المؤلف ضمير (نحن) ليعبر عن عرق الزنوج، وضمير (هُم) للتعبير عن البيض. وأحيانا يضيف (ال) التعريف على تلك الضمائر كنوع من التحديد المجازي؛ The we- the they. كذلك يستخدم تعبير (أنا الخام)raw I ليعبر عن نفسه مجردةً عن العرق واللون. راجع المقدمة. (المترجمة)

[77] - nigger

[78] - Negro

[79] - مازال المؤلف يلعب لعبة الضمائر باستخدام: هُم- نحن، الخ، على النحو المجرّد باعتبارها قيمًا كليّة وكيانات منفصلة، وليست ضمائر تابعة لكيان، يمكن تعريفها بأداة التعريف "ال". (المترجمة)

[80] - الـ"هُم" الكبيرة هي عرق البيض. الـ"هم" الصغيرة هي أسرته. (المترجمة)

[81] - لكمة في المعدة. (المترجَمة)

[82] - جملة من مسرحية "يوليوس قيصر" لشكسبير. وهذه الجملة هي النبوءة التي قيلت لقيصر ولم يعرها اهتماما، وبالفعل قُتِل في هذا اليوم في البرلمان الأثيني. (المترجمة)

أكتوبر، ليس مشكلة على الإطلاق. أما التعامل مع أسى أمه- ومع صدمتها جرّاء خروجه من الجامعة- لم يخطر بباله فورًا وإلا، إذا أراد، كان بوسعه الكذب حول عِرقه كذلك. بوسعه التعامل مع بشرته كما يحلو له، يلوّن نفسه مثلما يختار. كلا، لم يتبينّ له ذلك حتى كان جالسًا في المبني الفيدرالي في نيوآرك بينما أوراق التطوع في سلاح البحرية مبسوطة أمامه، وقبل أن يملأها، وبكل اهتمام، بنفس التدقيق الفاحص الذي كان يفحص به أوراق امتحانات المدرسة الثانوية- أيًّا ما كان يفعل، كبيرًا كان أو صغيرًا، كان يركّز فيه تمامًا، كأنما هو أهم شيء في العالم- راح يقرأ الأوراق. وحتى ذلك الحين لم يكن الأمرُ قد خطر بباله بعد. خطرَ الأمرُ أولاً بقلبه، الذي بدأ يخفق بشدة مثل قلب شخص على حافة ارتكاب جريمته العظمى الأولى.

في عام 1946، حينما خرج كولمن من الخدمة، كانت إرنستين قد سجّلت بالفعل في برنامج التعليم الابتدائي في كلية معلمين ولاية مونتكلير، وكان والت في ولاية مونتكلير يكمل خدمته، وكلاهما يعيشان في البيت مع أمهما الأرمل. أما كولمن فبعدما قرر العيش بمفرده، وعلى نفقته، أمام النهر في نيويورك، فكان قد سجل في جامعة نيويورك. كان يود أن يعيش في جرينويش فيلاج أكثر كثيرًا مما ودَّ أن يذهب إلى جامعة نيويورك، كان يود أن يغدو شاعرًا أو كاتبًا مسرحيًّا أكثر كثيرًا مما ودّ أن يدرس للحصول على درجة علمية، ولكن أفضل طريق فكّر فيه لملاحقة أهدافه دون اللجوء لوظيفة تدعمه كان الاستفادة من منحة المجندين. المشكلة أنه بمجرد أن بدأ الدراسة، بدأ قلقه لتحقيق تقديرات (أ)، ومع نهاية عاميه الأولين كان في طريقه إلى بعثة فاي بيتا كابّا[83] بمرتبة الامتياز الفائق في الكلاسيكيات. عقله الذكيّ وذاكرته الاستثنائية وطلاقته في الفصل جعلت أداءه في المدرسة فائقًا كما اعتاد دائمًا أن يكون، والنتيجةُ أن ما جاء إلى نيويورك وهو يتوق لفعله، كان قد اِستُبدل به نجاحُه فيما ظنَّ الآخرون أن عليه أن يفعله، وشجعوه على فعله، ثم أعجبوا به لفعله بتفوق. كان هذا بداية أن يغدوا نموذجًا: كان زملاؤه يطلبون مساعدته بسبب تفوقه الأكاديميّ. بالتأكيد، كان بوسعه أن يأخذ كل ذلك على عاتقه، بل واستمتع بذلك أيضًا. متعة أن يكون استثنائيًّا. لكن تلك لم تكن الفكرة في الحقيقة. في الثانوية كان متفوقًا في اللاتينية واليونانية، ونال منحة هوارد حينما كان ما يريده هو الملاكمة في نادي القفاز الذهبي؛ والآن لم يكن أقلَّ تفوقًا في الجامعة، بينما شِعره، حين عرضه على أساتذته، لم يُثِر حماسهم. في البدء حافظ على تمرين الجري والملاكمة من أجل الاستمتاع، حتى كان يومًا في الجيمانزيوم، وكان على وشك

[83] - Phi Beta Kappa، منحة أكاديمية شرفية تُمنح للمتفوقين. (المترجمة)

مصارعة خصم رباعيّ الجولات من حلبة سانت نيك، بعدما عرض خمسة وثلاثين دولارًا ليأخذ مكان مصارع سُحِب من الحلبة، والهدف بالأساس كان تعويض كل ما كان قد خسره في القفاز الذهبي، وافق الرجل، ولسروره العظيم، تحوّل سرًّا للاحتراف.

وبهذا كانت هناك الدراسة، الشِّعر، ملاكمة المحترفين، وكانت هناك الفتيات، الفتيات اللواتي يعرفن كيف يمشين، وكيف يلبسن فستانًا، وكيف يتحركن في فساتينهن، الفتيات اللاتي كنّ يطابقن كل ما ظلّ يتخيله حينما خرج من مركز الخدمة في سان فرانسيسكو إلى نيويورك- الفتيات اللواتي أرجعن شوارع جرينويش فيلاج والمماشي المتقاطعة حول ميادين واشنطن إلى وظيفتها المناسبة. كانت أمسياتُ الربيع الدافئة حينما كان لا شيء في أمريكا- ما بعد الحرب- المنتصرة، ناهيك عن عالم العصور القديمة، يمكن أن يمثّل أهميةً لكولن أكثر من ساقَي فتاة تتمشى أمامه. ولا كان هو الوحيد العائد من الحرب محاصرًا بهذا الولع المَرضيّ. في تلك الأيام في قرية جرينويش لم تكن هناك وسائل ترفيه في ساعات الراحة الممتدة لجنود جامعة أمريكا السابقين أكثر قيمة من سيقان النساء اللاتي يمررن جوار المقاهي حيث كانوا يحتشدون ليقرءوا الصحف ويلعبوا الشطرنج. مَن يا تُرى كان يدري السبب سوسيولوجيًّا! ولكن أيًّا ما كان السبب، فقد كان ذاك هو عصر أمريكا العظيم للسيقان المثيرة، ولمرة أو مرتين على الأقل يوميًّا، كان كولن يتبع ساقين من بناية إلى بناية كيلا تفوته لمحةٌ من حركتهما وكيف تتشكلان وكيف تبدوان في حال السكون، ريثما يتغير ضوء الإشارة المرورية في الزاوية من الأحمر إلى الأخضر. وحين يحسبُ أن اللحظة مناسبة- بعدما يكون قد تتبع بما يكفي، حين يصبح متزنَ اللفظ مُستْعرَ الشهوة متأججها- يسرع من خطوه كي يلحق بها، ثم يتكلم بما يجعله يفوز بحظوة لديها تكفي ليضع نفسه جوارها فيسألها عن اسمها ثم يجعلها تضحك وتوافق على موعد، بينما كان للأمانة، سواء عرفت الفتاةُ ذلك أم لم تعرف، يقترح الموعد لساقيها.

والفتياتُ، في المقابل، كنّ يحببن ساقَيْ كولن. ستينا بولسون، الفتاة المنفية من ولاية مينيسوتا ابنة الثمانية عشر عامًا، كتبت قصيدة حول كولن ذكرت فيها ساقيه. كُتبت بخط اليد على ورقة كراسة مسطرة، ممهورة بتوقيع "س"، ثم طُويت على أربع ودُسَّت في شِقّ بريده بالمدخل الحجري فوق غرفته بالبدروم. كان قد مرّ أسبوعان منذ بادلها الغزَل في محطة نفق المشاة، وكان اليوم هو الإثنين بعد ماراثون الأحد، ذي الأربع وعشرين ساعة الذي قاما به معًا. كان كولن قد أسرع إلى فصله الصباحي بينما ستينا تعمل ماكياجها في الحمام؛ بعد دقائق قليلة كانت ذاهبة للعمل، ولكن ليس قبل أن تترك له تلك القصيدة. وبالرغم من كل المتعة التي مارساها بوعي في اليوم السابق، إلا أنها

خجلت من إعطائه القصيدةَ مباشرة باليد. ولأن جدول مواعيد كولن كان يأخذه من الحصص الدراسية إلى المكتبة ثم إلى تدريبه المسائيّ المتأخر في حلبة جيمانزيوم تشاينتاون المتهدم، فإنه لم يجد القصيدة بارزةً من شقّ البريد إلا حينما عاد إلى شارع سولفيان في الحادية عشرة ونصف تلك الليلة.

لديه جسدٌ
لديه جسدٌ جميل-
العضلاتُ خلف ساقيه وخلف عنقه.

هو كذلك لامعٌ ذو ألوان متضاربة
يكبرني بأربعة أعوام
على أنني أشعرُ أحيانًا أنه أصغر.

هو عذبٌ، هادئٌ، رومانسيٌّ،
رغم قوله إنه ليس رومانسيًا.

وأنا تقريبًا خطِرةٌ على هذا الرجل.

ماذا بوسعي أن أحكي
عمّا أراه فيه؟
أتساءلُ
عمّا كان يفعل
بعدما يبتلعني كاملةً.

بسبب قراءته المتسرعة لخط يد ستينا تحت ضوء الردهة الخافت، أخطأ في البدء فقرأ "عنق" على أنها "زنجيّ"[84]– "وخلف زنجيته"... كيف خلف زنجيته؟ حتى وقتها كان مندهشًا من سهولة الأمر. ذاك الذي كان مفترضًا أن يكون عصيًا ومخجلاً على نحو ما، بل ومدمرًا أيضًا، كان، ليس فقط سهلاً، بل ودون عواقب أيضًا. ليس من ثمن دُفع على الإطلاق. ولكن العَرق الآن كان يقطر منه. ظل يقرأ، أسرعَ من الأول، ولكن الكلمات

[84] - الخلط وارد بين الكلمتين بالإنجليزية neck- negro. (المترجمة)

كانت تشكّل نفسَها دون ترابط يصنع أي معنى. زنجيته ماذا؟ ظلاّ عاريين معًا ليوم كامل وليلة، لا يفصل بين جسديهما معظم تلك الفترة سوى بوصات قليلة. منذ كان طفلاً لم يُتِحِ لأحد سوى لنفسه كل هذه الفترة الزمنية ليفحص مما كان جسدُه يتركب. وبما أن لا شيء في جسدها الطويل الشاحب لم يكن قد لاحظه، ولا شيء كانت قد أخفته هي عنه، ولا شيء لم يستطع تصويره بعين يقظة تشبه عين الرسّام، بخبرة عاشق غارق في التفاصيل، ولأنه كان قد قضى طوال النهار مُستثارًا ليس فقط بحضورها الغاشم في أنفه، بل بساقيها الممدودتينْ بطولهما في عين عقله، فقد كان يستتبع ذلك أنْ لم يعد في جسده جزءٌ لم تمتصه هي مجهريًا بدقّة، لا شيء في ذلك المسطح الواسع المدموغ باعتداده بنفسه المنقطع النظير، لا شيء في تركيبه الجسدي المتفرد كرجل، بشرته، مسامّه، شعر لحيته، أسنانه، يداه، أنفه، أذناه، شفتاه، لسانه، قدماه، نتوءات جسمه، أوردته، قضيبه، إبطاه، مؤخرته، كتلة شعر عانته الكثّة، شعر رأسه، زغب جسمه، لا شيء في أسلوبه في الضحك، في النوم، في التنفس، الحركة، التشمم، لا شيء في طريقة ارتعاده وتشنّجه حين يصل إلى ذروة شهوته، لا شيء من كل هذا لم تسجله الفتاة. وتتذكره. وتتأمله.

هل هو الفعلُ ذاتُه ما فعل ذلك، الحميميةُ المطلقة في أداء الفعل، حينما لا تكون وحسب داخل جسد المرأة، بل حينما تكون المرأة كأنما تُغلِّفُكَ بقوة؟ أم تراه هو العريُ الجسدي؟ تخلع ملابسَك وتدخل الفراش مع إنسان ما، حيث كل ما كنت تحاول أن تخفيه، خصوصيتك، مهما تكن، ومهما كانت مُشفّرة، سوف تؤول جميعُها إلى انكشاف، وهذا هو سر الخجل، وهو ما يخيف كلَّ الناس. في ذلك المكان الفوضوي المجنون، ما مدى ما يمكن أن يُرى من جسدي؟ كَم مني سيُكتشَف؟ الآن أعرفُ مَن تكون. بوسعي أن أرى الحبيبَ بوضوح من خلال خلف زنجيتّك[85]؟

ولكن كيف، من خلال رؤية ماذا؟ ماذا يمكن أن يكون هذا؟ هل كان هذا مرئيًا بالنسبة لها، أيًا ما كان هذا، لأنها كانت شقراء أيسلندية بولندية من سلالة طويلة أيسلندية بولندية، تنشئة اسكندنافية، في البيت، في المدرسة، في الكنيسة، في رفقة حياتها كلها ليست إلا... وهنا أدرك كولمن أن الكلمة في القصيدة كانت من أربعة حروف لا خمسة. ما كتبته لم يكن "زنجي." بل كان "عنق." آه يا عنقي! ليس سوى عنقي!... العضلات خلف ساقيه وخلف عنقه.

ولكن ماذا إذن تعني هذه الجملة: "ماذا بوسعي أن أحكي/ عما أراه فيه؟" ما الذي كان غامضًا فيما رأته فيه؟ لو كانت قد كتبت "أحكي من" بدلاً من "أحكي عن"، هل

---

[85] - مازال كولمن يظن neck عنقك، أنها negro، زنجيتك. وبالتالي يبحث عن معنى لعبارة "خلف زنجيتك". (المترجمة)

كان ذلك يجعل المعنى أوضح؟ أم سيجعله أقلَّ وضوحًا؟ كلما أعاد قراءة ذلك المقطع الشعري البسيط، كلما ازداد المعنى غموضًا- وكلما ازداد المعنى غموضًا، كلما ازداد كولمن يقينًا بأنها شعرت غريزيًا بالمشكلة التي جلبها لحياتها. ما لم تكن تقصد بـ"عما أراه فيه" أكثر مما يعني المتشككون حين يسألون باللهجة الدارجة شخصًا في حالة الحب: "ماذا بوسعك أن ترى فيه؟"

وماذا عن "أحكي"؟ ماذا بوسعها أن تحكي لمن؟ هل تقصد بأن "تحكي": أن تصنع- "ماذا بوسعي أن أصنع،" إلخ- أم هل تقصد: تبوح، تعرض؟ وماذا عن "أنا تقريبًا خطِرة على هذا الرجل." هل "خطرة على" تختلف عن "خطرة لـ"؟ وفي الحالتين، ما هو الخطر؟

كلما حاول أن يفهم المعنى الذي أرادته الفتاة، فرَّ المعنى بعيدًا. وبعد دقيقتين محمومتين على قدميه في رواق المدخل، كان غير واثق من شيء سوى من خوفه.

مشرقة وواثقة وجميلة مثلما كانت ستينا، فقط في الثامنة عشرة ومستجدة على نيويورك من فيرجس فولز، مينيسوتا، إلا أنه الآن كان يهابها أكثر- ويهاب ذهبيتها الواضحة غير المعقولة- أكثر مما هاب أي خصم واجهه في الحلبة. وحتى في تلك الليلة ببيت دعارة نورفولك، حينما كانت المرأة التي راحت ترقبه من السرير وهو يخلع زيّه- تلك البغيّ البدينة كبيرة الحلمتين لم تكن دميمةً تمامًا ولكن بالتأكيد لم تكن جميلة- تبتسم بمرارة وتقول: "أنت أسود زنجي، أليس كذلك يا ولد؟" ثم تعاون الرجلان البودي جارد ليقذفاه للخارج، وقتها فقط شعر بالتفكك مثلما يحدث معه الآن جرَّاء قصيدة ستينا.

أتساءلُ
عمّا كان يفعل
بعدما يبتلعني كاملةً.

حتى تلك لم يفهمها. على المكتب في غرفته، راح ينتظر النهار مع ذلك المعنى المتناقض في المقطع الشعري الأخير، يتتبع الكلماتِ فيستكشف ثم يستنكر صيغةً معقدة تلو الأخرى، حتى، مع الفجر، كان كلُّ ما يعرفه على وجه اليقين، أنه من أجل ستينا، ستينا الفاتنة، كان كل ما كان قد استأصله من نفسه، قد تبدد في الهواء.

ثمة خطأ تمامًا. قصيدتُها لم تكن تعني أي شيء. بل حتى لم تكن قصيدة. تحت ضغط ارتباكها وتشتت أفكارها، تسارعت في رأسها قطعٌ غيرُ ناضجة من الأفكار،

تداعت في رأسها بفوضى، بينما كانت تحت الدوش، فقطعت صفحة من إحدى كراساته، خطّتها على عجل فوق مكتبه كيفما تبلورت الكلمات، ثم دسّتِ الورقةَ في شقّ البريد قبل أن تهرع إلى عملها. تلك الأسطر كانت فقط مجرد شيء فعلته- شيء كان عليها أن تفعله- بسبب حيرتها وارتباكها وحداثة خبرتها.

شاعرةٌ؟ بالكاد، ضحكتْ: بل مجرد شخص يقفز عبر حلقة من النار.

كانا يقضيان كل نهايات الأسبوع، على مدى أكثر من عام، معًا في الفراش بغرفته، كلٌّ منهما يتغذى على الآخر مثل مسجونينْ في حبس انفراديّ يلتهمان بنَهمٍ حصتيهما اليومية من الخبز والماء. كانت تُدهشه- وتُدهش نفسَها- بالرقصة التي رقصتها في إحدى ليالي السبت، واقفةً جوار أريكته التي تُطوَى فتتحول إلى سرير، بقطعة واحدة من ثيابها الداخلية، ولا شيء آخر. كانت تخلع ملابسها، والراديو مفتوح- سيمفونيا سِيْد- في البدء، لكي تضبط حركتها وتدخل في الحالة المزاجية، كان هناك كونت بيزيك[86]، وباقةٌ من عازفي الجاز يصخبون في أغنية " كوني بخير، يا سيدتي"[87]، في تسجيل حيٍّ صاخب، وتلا ذلك، المزيد من جيرشوين، ثم آرتي شو يؤدي أغنية "الرجلُ الذي أُحبُّ" التي تمثّل روي إلدريدج وهو يُبحر بكل شيء. كان كولن متكئًا على السرير، يفعل الشيء الأحبَّ إلى قلبه في ليالي السبت بعد عودتهما من مطعمهما المفضل في سرداب بشارع الفورتينز الذي يقدم وجبة بخمسة دولارات من الإسباجتي والنبيذ الإيطالي: أن يتأملها وهي تخلع ملابسها. وفجأة، ودون إنذار- اللهم إلا إنذار بوق إلدريدج- بدأت في أداء ما يحب كولن أن يصفه بأكثر الرقصات انسيابية بين كل ما رقصته فتاةُ فيرجاس فولز، بعد مضي عام من انتقالها إلى مدينة نيويورك. كان بوسعها أن ترفع جيرشوين نفسه من قبره بتلك الرقصة، وبأسلوبها في غناء الأغنية. بتحريض من عازف البوق الأسود وهو يعزف أغنية عاطفية زنجية، كانت ترقص بصدق مثلما النهار، بوسعك أن ترى كلَّ سُلطان بياض بشرتها. ذلك الشيء الأبيض الكثيف. "يومًا مَا سوف يأتي... الرجلُ الذي أحبُّ... وسوف يكون ناضجًا وقويًا... الرجلُ الذي أحبُّ." كانت اللغة عاديةً كأنما قد اقتُطِفَت من كتاب شديد البراءة للصف الأول الابتدائي، ولكن حينما توقف الغناء، رفعت ستينا يديها لتخفي وجهها، بنصف معنى، بنصف تظاهُر بأنها تغطي خجلها. على أن إيماءتها تلك، لم تَصُنْها من شيء، على

[86] - Count Basic، فرقة نمساوية تعزف الجاز وألوانا أخرى من الموسيقى. (المترجمة)

[87] - Lady Be Good، اسم طائرة حربية أمريكية فُقدت في الحرب العالمية الثانية في غارة جوية على إيطاليا عام 1943، وظُن أنها سقطت في البحر المتوسط. وفي عام 1959، تم العثور على الطائرة سليمة تقريبًا ووجدت بقايا ثمانية أفراد من طاقمها المكون من تسعة. وهي أيضا عنوان قطعة موسيقية وأغنية لجوروج جيرشوين عام 1924. (المترجمة)

الأقل من افتتانه بها. تلك الإيماءةُ، فقط ضاعفت من اشتعاله. "أين وجدتكِ، يا فولوبتس؟" سألها. "كيف وجدتكِ؟ مَن أنتِ؟"

أوقاته معها، كانت أكثر الأوقات استعارًا ما جعل كولمن يُقلع عن تمرينه المسائي في جيمانزيوم تشاييناتاون ويخفّف تمرينَ ركض الخمسة أميال الصباحيّ، وفي الأخير كان قد تخلى تمامًا عن جديّته في التحوّل إلى ملاكم محترف. كان قد قاتل وفاز بحاصل أربع مباريات احترافية، ثلاثٌ منها رباعيةُ الجولات، والمباراة الأخيرة، كانت سداسية، جميعها تمت في أمسيات الإثنين في حلبة سانت نيكولاس القديمة. مطلقًا لم يخبر ستينا عن تلك المصارعات، لم يخبر أي إنسان في جامعة نيويورك، وطبعًا لم يُفشِ سرَّه لأسرته. خلال تلك السنوات القليلة الأولى في الجامعة، ظلّ ذلك سرًا آخر، رغم أنه كان يصارع في الحلبة تحت اسم سيلكي سيلك، وكانت النتيجة من سانت-نايك تُنشر في اليوم التالي بالفُنت الصغير في زاوية صحف الرياضة بحجم التابلويد. منذ اللحظة الأولى في الجولة الأولى من مباراة الجولات الأربع ذات الخمسة وثلاثين دولارًا، راح يدخل الحلبة كمحترف بوضع جسمانيّ مختلف عما كان عليه أيام مصارعته كهاوٍ. لم يُرد أبدًا أن يخسر مباراة كملاكم هاوٍ غير محترف. ولكنه كمحترف كان يبذل جهدًا مضاعفًا، ولو ليثبت لنفسه فقط أن بوسعه البقاء هناك لو أراد. ولا واحدة من المباريات استمرت حتى النهاية، وفي الأخيرة، سداسية الجولات- مع اسم بيو جاك على رأس البطاقة- تلك التي نال فيها مائة دولار، أوقع الخصمَ في دقيقتين وبضع ثوان ولم يكن حتى قد نال منه التعبُ حين انتهى من خصمه. وفي طريقه لينزل إلى الممشى المؤدي إلى حلبة المباراة السداسية، كان على كولمن أن يمر بالمقعد المجاور للحلبة، مقعد سولي تاباك، متعهد المباريات، الذي كان ممسكًا بعَقد يتدلى من يده أمام كولمن ليوقّعه بواقع قيمة ثلث الإيرادات، لمدة العشر سنوات القادمة. خبط سولي على ظهر كولمن وهمس في أذنه بصوته الدسم: "استكشفْ خصمَك الزنجيَّ في الجولة الأولى، انظرْ ماذا لديه يا سيلكي، وأعطِ الناسَ من المتعة مقابلَ ما دفعوه من مال." أومأ كولمن لتاباك وابتسم، ولكنه بينما يرتقي الحلبة، قال في سرّه: عليك اللعنة. لكي آخذ مائة دولار، هل عليّ أن أترك شخصًا يضربني لأعطي الناس مقابل ما دفعوه من مال؟ هل من المفترض أن أعبأ بأحمق يجلس في الصف الخامس؟ أنا أزن مائة وتسعة وثلاثين رطلا وطولي خمسة أقدام وعشر بوصات، ومن المفترض أن أدع الخصم يضربني على رأسي أربع مرات زيادة أو خمسًا أو عشرًا لكي أُقدّم عرضًا جيدًا؟ تبًا للعرض.

بعد المباراة لم يكن سولي مسرورًا من أداء كولمن. اعتبره سلوكًا صبيانيًا. "كان بوسعك أن توقف الزنجيَّ في الجولة الرابعة، بدلاً من الأولى، وتعطي الناس مقابلاً

لنقودهم. لكنك لم تفعل. طلبتُ منك ذلك بلطف، وأنت لا تفعل ما أطلبُ منك. لماذا هذا أيها الرجل الحكيم؟"

"لأنني لا أعبأ بأولئك من غير الزنوج." هذا ما قاله، طالبُ الكلاسيكيات في جامعة نيويورك، وصاحب الترتيب الأول، ابن المرحوم خبير البصريات، نادلِ عربة الطعام، اللغويِّ الهاوي، رجلِ النحو والصرف، المنضبط، وتلميذ شكسبير كلارينس سيلك. هكذا كان عنيدًا، هكذا كان كتومًا- ليس مهمًا ما كان مدى التزامه، هكذا كان اعتباره للعمل، ذلك الصبي الملون من مدرسة إيست أورانج الثانوية.

توقف عن الملاكمة بسبب ستينا. مهما كان مخطئًا بشأن المعنى المُنذر بسوء، ذاك المُخبّأ في قصيدتها، إلا أنه ظلَّ مقتنعًا بأن القوى الغامضة التي جعلت حرارتهما الجنسية لا تخمد- تلك التي حولتهما إلى عاشقين لا يُكبح جماحُهما حتى أن ستينا، في إحدى حالات استقطارها البدائي للأعجوبة الذاتية والملهاة الذاتية، كانت قد وصفت تلك الحالة، على طريقة أبناء وسط غرب أمريكا، بأنهما معًا "حالتان عقليتان"- كان مقتنعًا بأن حرارتهما الجنسية تلك ستقدر يومًا ما على أن تعمل على إذابة حكايته تمامًا أمام عينيها. كيف يمكن أن يحدث ذلك، لم يكن يدري، وكيف يمكنه أن يحيط بذلك، لم يكن يدري. لكن الملاكمة لن تفيد. ما إن تكتشف أمر سيلكي سيلك، سوف تنهمرُ الأسئلةُ ما يجعلها تعثر على الحقيقة بالتأكيد. كانت تعلم أن لديه أُمًّا في أورانج الشرقية، كانت ممرضة نظامية وتواظب على الذهاب إلى الكنيسة، وأن لديه أخًا أكبر بدأ التدريس للصف السابع والثامن في آسبري بارك، وشقيقة تنهي شهادة تدريسها في ولاية مونتكلير، وأن عليهما مرةً كل شهر أن يقطعا لقاءهما يوم الأحد في سريره بشارع سوليفان لأن على كولمن الذهاب إلى أورانج الشرقية لتناول الغداء مع الأسرة. كانت تعلم أن أباه كان خبير بصريات- هكذا فقط، خبير بصريات- وأنه قادم بالأساس من جورجيا. كان كولمن موسوسًا بشأن رؤية أن لا سبب لديها لترتاب في صدق أي شيء أخبرها به، وبما أنه هجر الملاكمة إلى الأبد، فلم يعد حتى عليه الكذب بشأن ذلك. لم يكذب على ستينا في أي شيء. كل ما فعله هو اتّباع التعليمات التي أملاها عليه دوك تشيزنر يوم كانا في طريقهما إلى ويست بوينت (وهذا بالفعل هو الذي أدخله البحرية): إذا لم يحدث شيء، فلا تبادر أنتَ بالمعلومة.

قراره بدعوتها إلى غداء الأحد في إيست أورانج، مثل كل قراراته الأخرى الآن- حتى قراره في سانت نايك حين قال صامتًا "عليك اللعنة يا سولي تاباك" حين انتهى من خصمه في الجولة الأولى- قراره ذاك لم ينطلق من فكر أي إنسان عداه. كانا قد التقيا منذ قرابة العامين، وكانت ستينا في العشرين من عمرها وهو في الرابعة

والعشرين، ولم يعد قادرًا على تصوّر نفسه ماشيًا في الشارع الثامن، ناهيك عن المُضي قُدمًا في الحياة، من دونها. سلوكها اليومي الروتيني المتوقد متضافرًا مع كثافة غيابها في نهاية الأسبوع- كل هذا مجتمع مع التوهج الجسدي، لفتاة أمريكية ساطعة مُشعّة تنهلُ قوتُها من سحر الأفارقة- شكّل كلٌّ ذلك عليه سيادةً مذهلة طغت على إرادة جبارة لا تلين مثل تلك التي لكولن ذي الشخصية الاستقلالية: هي لم تُقصه وحسب عن الملاكمة والميل الغريزي للقتال والتمرد الكامن داخل سيلكي سيلك الملاكم المحترف الذي لا يُهزم من وزن المائة وأربعين باوند، بل حرَّرته كذلك من الرغبة في أي شخص آخر.

لكنه لم يستطع أن يخبرها أنه ملوّن. الكلمات التي سمعها بنفسه وعليه قولها، كانت ستجعل الأمور تبدو أسوأ مما هي عليه- سوف تجعله أسوأ مما هو عليه. وحينئذ لو تركها تتخيل أسرته بنفسها، فسوف تتصورهم على عكس ما هم عليه. لأنها لم تعرف زنوجًا من قبل، فسوف تتصورهم مثل الزنوج الذين شاهدتهم في الأفلام أو عرفتهم من الراديو أو سمعت عنهم في النكات. كان قد أدرك حتى الآن أنها لم تكن متحيزة، ولو أنها فقط قد قابلت إرنستين ووالت وأمّه، لأدركت على الفور إلى أي مدى هم ملتزمون، وكيف حدث أن كانوا متشاركين في الوجاهة المضجرة تلك التي كانت مسرورة لتركها وراءها في فيرجاس فولز. "لا تفهمني غلط- إنها مدينة جميلة،" أسرعتْ بالقول: "إنها مدينة جميلة. استثنائية، فيرجاس فولز، لأن بها بحيرة أوتر-تيل في شرقها، وغير بعيد عن بيتنا يوجد نهر أوتر-تيل. وهي، كما أظنُّ، أكثر تطورًا من المدن الأخرى التي في مساحتها هناك، لأنها بالضبط في جنوب شرق فارجو-مورهيد، التي هي بلدة الجامعة في ذلك القسم من البلد." والدها يمتلك متجر خردوات ومخزن أخشاب صغير. "عملاق مدهش صعب السيطرة عليه، شخص مدهش، أبي. ضخم. مثل شريحة من فخذ خنزير. يشرب في ليلة واحدة وعاءً كاملاً من أي نوع كحول يجده أمامه. لم أستوعب ذلك أبدًا. ومازلت لا أستطيع. ومازال مستمرًا. لديه جُرحُ بالغ في عضلة باطن ساقه، كان قد جُرح به وهو يكافح مع آلة- ترك أبي الجرحَ كما هو، لم يغسله حتى. هكذا هم دائمًا، الأيسلنديون. من فصيلة البولدوزر. الشيء المثيرُ هو شخصيته. هو الشخص الأكثر إدهاشًا في العالم. الكلام عن أبي يستغرق محادثة تستوعب الغرفة كاملة. وهو ليس الشخص الوحيد هكذا. أجدادي آل بولسون كانوا كذلك. أبوه من النمط نفسه. وأمه كذلك." "الأيسلنديون. لم أكن أعرف حتى أنك تسمينهم أيسلنديين. لم أكن حتى أعرف أنهم هنا. لا أعرف على الإطلاق أي شيء عن الأيسلنديين. متى جئتِ إلى مينيسوتا؟،" سألها كولن. هزت كتفيها وضحكت. "سؤال جيد. سوف أقول جئتُ بعد عصر الديناصورات. هكذا يبدو الأمر." "وهل هو مَن كنتِ تهربين منه؟" "أظنُّ ذلك. من

العسير أن تكون أية فتاة في العالم ابنةً لذلك الرجل الفظ. إنه يغمرك على نحو ما." "وأمك؟ هل غمرها؟" "أمي هي الشقُّ الدنمركي من الأسرة. كلا، هي غير قابلة للغمر. أمي أكثر عمليةً من أن تُغمَر. تلك خصائص عائلتها- ولا أظن أن ذلك غريب على تلك العائلة، أظن أن الدنمركيين هكذا، وأنهم بهذا ليسوا مختلفين كثيرًا عن النرويجيين في تلك الصفات- إنهم يهتمون بالموجودات. بالأشياء. أغطية الموائد. الصحون. المزهريات. يتكلمون دون توقف عن سعر كل شيء. والد أمي كذلك أيضًا، جدي الدنمركي. كل عائلتها. لا يحملون أحلامًا داخلهم. ليس لديهم أوهام. كل شيء مصنوع من موجودات ومما تتكلف وبكم تقدر أن تحصل عليها. تدخل أمي بيوت الناس وتتفحص كل الأشياء وتعرف من أين حصلوا عليها ثم تخبرهم من أين يقدرون أن يحصلوا عليها أرخص. والملابس. كل قطعة ثياب. الشيء نفسه. العمليةُ. العمليةُ المحض حول كل شيء. الاقتصاد والتوفير. الاقتصاد المتطرف. النظافة. النظافة المتطرفة. كانت تلاحظ، حينما أعود إلى البيت من المدرسة، إن كانت ثمة نقطة حبر ضئيلة تحت ظفري جراء ملئي قلم الحبر. لو كان لديها ضيوف في أمسيات السبت، كانت تعدُّ المائدةَ ليلة الجمعة في الخامسة عصرًا. تتأكد من وجود، كل كأس، كل قطعة فضة، ثم تبسط فوقها مفرش القماش الشبكي الخفيف كيلا تطالها ذرّاتُ الغبار. كل شيء يُعدّ بإتقان. ثم الطعام المطهوُّ على نحو خيالي المذاق حتى إنْ كنت لا تحب أي توابل أو ملح أو فلفل. أو أي مذاق من أي نوع. هكذا هما والداي. ليس بوسعي الهبوط للقاع مع عملية أمي المفرطة. في أي شيء. كلها قشور. هي تنظم كل شيء وأبي يفسد نظام كل شيء، وهكذا أصبحتُ في الثامنة عشرة وتخرجت في المدرسة الثانوية وجئت إلى هنا. بما أنني نشأتُ في مورهيد أو ولاية نورث-داكوتا كان عليّ المعيشة في الوطن، قلتُ سحقًا للجامعة وجئتُ إلى نيويورك. وها أنا ذا. ستينا."

هكذا فسّرت له مَن تكون ومن أين جاءت ولماذا رحلت. بالنسبة إليه هو ولحكايته لم يكن الأمر بنفس البساطة. فيما بعد، قال لنفسه. فيما بعد- حينما يكون قادرًا على تقديم تفسيراته ويسألها أن تتفهم لماذا لم يكن قادرًا على أن يسمح لطموحاته أن تكون محدودة على نحو جائر بسبب أمر شديد الاستبداد مثل عِرْقه. إن كانت هادئة بما يكفي لتسمعه حتى النهاية، فهو واثق من أنه قادرٌ على أن يجعلها تتفهم لماذا اختار أن يبني مستقبله بيديه، بدلاً من أن يتركه لمجتمع غير مستنير ليقرر مصيره- مجتمع، بعد أكثر من ثمانين عامًا من إعلان تحرر الزنوج، مازال المتعصبون يلعبون فيه الدور الأكبر. سوف يجعلها تتفهم أنه بعيدًا عن خطأ قراره بتعريف نفسه كأبيض، فإن ذلك كان الشيء الطبيعي مع شاب له مظهرُه وحساسيته المفرطة ولون بشرته. كل ما كان يوده،

منذ طفولته الأولى، هو أن يكون حرًا: ليس أسود، ولا حتى أبيض- فقط أن يكون نفسَه وأن يكون حرًا. هو لم يسعَ إلى إهانة أحد باختياره هذا، ولا تعمّد أن يقلد أيّ إنسان أعلى منه منزلةً، ولم يشأ إثارة أي نوع من الاحتجاج ضد عِرقه أو عِرقها. كان يدرك أن ما فعله لن يبدو سليما أبدًا بالنسبة للملتزمين الذين يرون كل شيء نهائيًا وحتميًا وصعب التغيير. ولكن مطمحَ ألا يفعل إلا الصحيح والسليم لم يكن هدفه يومًا. الموضوعية بالنسبة إليه هي ألا يترك مصيرَه في قبضة نوايا جاهلة ملأى بالأحقاد تخص ذلك العالم العدائي، بل أن يجعل مصيره رهنَ تصميمه هو وحده، وقراره، بقدر ما تسمح به الاحتمالات الإنسانية. لماذا عليه أن يقبل أن يحيا بشروط الآخرين؟

هذا ما كان سوف يخبرها به. أولَن يبدو لها كلُّ هذا هراء، مثل مجرد كذبة من أكاذيب التباهي الصغيرة؟ إلا إذا كانت قد قابلت أسرته أولاً- لتُجابَه رأسًا بحقيقة أنه زنجيٌّ بقدر ما هم زنوج، وأنهم مختلفون عن الصورة التي ربما تصوّرت أن الزنوج عليها مثلما كان هو عليها- لكانت قد بَدَتْ لها تلك الكلمات أو سواها مجرد شكل من أشكال التخفي. إلى أن جلست على الغداء مع إرنستين ووالت وأمه، وتبادل ثلاثتهم حديثًا هادئًا حول شئون اليوم العادية، وأيًا ما كان التفسير الذي قدمه كان سوف يبدو لها محض هراء مُهندم، ممجّدًا للذات، ملتمسٍ الأعذار للذات، وحديثًا طنَّانًا محلّقًا في العلا، يحمل من الزيف ما يخجله في عينيها بما لا يقل عما في عينيه. كلا، لن يقدر على قول هذا الهراء كذلك. كان هذا دون مستواه. لو كان يريد تلك الفتاة إلى الأبد، فإن الجسارة هي المطلوبة الآن، وليس فنون الخطابة الخاصة بكلارنس سيلك.

في الأسبوع السابق للزيارة، راح يحضّر نفسَه، بنفس بالتركيز الذي اعتاد أن يهيئ به نفسه ذهنيًا من أجل مباراة، وحين نزلا من القطار في محطة كنيسة "بريك" ذلك الأحد، راح يستدعى العبارات التي دائمًا ما كان يرتّلها بشيء من الروحانية في الثواني السابقة لدق الأجراس: "الفريضةُ، ليس إلا الفريضةُ. هيا جميعًا مع الفريضة. لا شيء آخر مباحًا." وقتها فقط، مع الجرس، الذي يرن من ناحيته- أو هنا، بدءًا من دَرَج الرواق إلى الباب الأمامي- أضاف نداءُ "جو" المعتاد للقتال: "هيا إلى العمل."

كان آلُ سيلك في منزلهم منذ 1925، العام السابق لميلاد كولمن. حينما وصلوا إلى هناك، كان سكانُ الشارع من البيض، واشترى أبواه المنزلَ الهيكلي الصغير من زوجين كانا منزعجين من جيرانهما الملاصقين، ولذا قررا أن يبيعا منزلهما لملوّنين نكايةً في جيرانهم. ولكن لا أحد من سكان البيوت المنعزلة هرب من الحي بسبب انتقالهم للسكنى هناك، وحتى إن لم يستطع آل سيلك أبدًا التأقلم اجتماعيًا مع جيرانهم، إلا أن الناس هناك كانوا قابلين لفكرة تمدد الشارع المؤدي للأسقفية والكنيسة. موافقين حتى برغم أن

الأسقف، حينما وصل قبل عدة سنوات، راح يجيل النظر حوله في الكنيسة، فرأى عدداً كبيراً من سكان جزر البهاما والبربادوس، الذين يمثلون كنيسة إنجلترا- منهم خادمات يخدمن في بيوت الأثرياء البيض بأورانج الشرقية، وبعضهم من شعوب الجزر الذين كانوا يعرفون أماكنهم فيجلسون في المقاعد الخلفية من الكنيسة ويظنون أنهم مقبولون- فمال الأسقفُ على منبر الوعظ، وقبل بدء عظة الكنيسة في أول آحاده، قال: "أرى أن لدينا بعض الأسر الملونة ها هنا. وسيكون علينا أن نفعل شيئًا حيالَ ذلك." وبعد التشاور مع المعهد اللاهوتي في نيويورك، رأى أن الخدمات المختلفة ومدارس الآحاد للملونين لابد أن تُدار، خارج ناموس الكنيسة الأساسي، في منازل العائلات الملونة. فيما بعد، أغلق المشرفُ حمامات السباحة في المدرسة الثانوية كيلا يسبح الأطفالُ البيضُ مع الأطفال الملونين. حوض السباحة الضخم، كان يستخدم لحصص السباحة وفريق السباحة، وهو جزء من برنامج التعليم الرياضي في المدرسة لسنوات، ولكن بمجرد أن ظهرت اعتراضات من بعض آباء الأطفال البيض ممن كانوا يرأسون آباء الأطفال السود- أولئك الذين يعملون لديهم كخدم وعمال وسائقين وحدائقيين وزرائبيين- تم تفريغ حوض السباحة ثم تغطيته.

عبر الأربعة أميال المربعة للبقعة السكنية الصغيرة من بلدة جيرسي تلك التي يسكنها حوالي سبعين ألف إنسان، مثلما عبر أنحاء الدولة كافة أثناء فترة شباب كولمن، كان ثمة تمييز عنصري قاس بين الطبقات والأعراق، تمييز مباركٌ من قِبل الكنيسة ومشرّعٌ من قِبل المدارس. ولكن في الشارع الجانبي المتواضع المُسَوَّر بخط من الأشجار الذي يسكنه سيلك، لم يكن الناس العاديون مطالبين بأن يكونوا مسئولين عن الله والولاية مثلما كان أولئك الذين وظيفتهم هي الحفاظ على المجتمع الإنساني، وحمامات السباحة، وكل شيء، غيرَ مدنسة بالنجاسة، وهكذا كان الجيران بوجه عام ودودين مع آل سيلك ذوي البشرة الفاتحة الجديرين بالاحترام- هم زنوج، بكل تأكيد، ولكنهم، على حد قول إحدى الأمهات المتسامحات عن زملاء حضانة كولمن، "بشرٌ لهم ظلالٌ مبهجة للغاية، يشبهون خمرَ البراندي"- حتى في أمور مثل استعارة أداة أو سلم بحاري أو المساعدة في اكتشاف عطل بالسيارة حينما تأبى أن تدور. وظلَّ المبنى الكبير عند الناصية أبيضَ[88] بأكمله حتى بعد الحرب. بعدئذ، مع نهاية 1945، حينما بدأ الملونون يتوافدون على نهاية الشارع- عائلات الرجال المهنيين بالأساس، من المعلمين والأطباء، وأطباء الأسنان- في كل يوم كانت هناك شاحنة موبيليا خارج البناية السكنية، وخلال شهور كان نصف المستأجرين البيض قد اختفوا. لكن الأمور استقرت. وبالرغم من أن مالك البناية بدأ في

[88] - يعني يسكنه البيض. (المترجمة)

التأجير للملونين فقط ليحافظ على المكان يدر دخلا، إلا أن البيض الذين بقوا في الجيرة المباشرة ظلوا موجودين حتى يجدَّ لديهم سببٌ آخر، عدا الخوف من الزنوج[89]، يدفعهم للرحيل.

هيا إلى العمل. ثم دقَّ جرسَ الباب ودفع الباب الأمامي وهتف: "نحن هنا."

لم يتمكن والت من المجيء من آزبري بارك ذلك اليوم، ولكن أمه كانت هناك مع إرنستين خارجتين من المطبخ إلى القاعة الرئيسية. وهناك، في بيتهم، كانت فتاته. ربما كانت أو لم تكن كما توقعتاها. لم تكن أم كولمن قد سألته عنها. منذ اتخذ كولمن قرارَه منفردًا بالالتحاق بالبحرية كرجل أبيض، لم تعد تجرؤ أن تسأله عن أي شيء، خوفًا مما يمكن أن تسمعه منه. كانت تميل الآن، خارج المستشفى- بعدما غدت أخيرًا أول رئيسة ممرضات ملونة في مستشفى نيوآرك، ومن دون مساعدة د.فينسترمان- كانت تميل إلى أن تترك والت يعتني بشئون حياتها وشئون أسرتها معًا. كلا، لم تكن قد سألت عن أي شيء بخصوص الفتاة، رفضت بتهذّبٍ أن تعرف، وحثَّتْ إرنستين أيضًا على ألا تسأل. وكولمن، في المقابل، لم يخبر أحدًا بأيّ شيء. وهكذا، ببشرة جميلة كما يكون الجمال- وبذلك التناسق بين حقيبة يدها الزرقاء والحذاء الخفيف، وبفستانها القطني المزيّن بالزهور وقفازها الأبيض الصغير وبقبعتها التي من الورق المقوّى- بتلك الأناقة البسيطة غير المتكلّفة كما يليق بشابة نشيطة عام 1950، ها هي ذي ستينا بولسون، الأمريكية من نسل أيسلندي دنمركي، التي كانت من سلالة تعود إلى الملك كانط ومَن قبله.

لقد فعلها إذن. فعلها على طريقته. ولم يجفل أحدٌ. حديثٌ حول قابلية الأجناس على التكيّف. لا أحدَ كان يلتمس الكلمات، لا أحدَ كان يصمت، ولا بدأ أحدٌ في الثرثرة بسرعة ميل في الدقيقة. كلامٌ اعتيادي تافه، نعم، صبيانيّ، بكل تأكيد– عمومياتٌ، بديهيات، كميات كبيرة من الكلمات المكرورة. لم تنشأ ستينا على ضفاف نهر أوتر تيل عبثًا: إذا كان الكلام مكرّرًا، فهي تعرف كيف تقوله. الاحتمالات كانت ستبقى هي هي لو كان كولمن قد عصّب عيونَ النساء الثلاث قبل أن يقدّمهن إلى بعضهن البعض، ثم يبقيهن معصوبات طوال اليوم، حوارهن لم يكن ليحمل معاني أكثر أهميةً مما كان وهن ينظرن في عيون بعضهن البعض ويبتسمن. ولا كان الحوار ليجسّد مقصدَه خارج المستوى القياسي: بما يعني: لن أقول أي شيء يمكن أن تعتبره مسيئًا، ما لم تقل أنت شيئًا يمكن أن أعتبره مسيئًا. الاحترام بأي ثمن- في هذا اتفق كلٌّ من ابنة آل بولسون وآل سيلك.

[89] - Negrophobia، مصطلح يعني فوبيا الزنوج أو الخوف منهم. (المترجمة)

النقطة التي أفسدت حديثهن ثلاثتهن كانت، للعجب، حينما كن يتناقشن حول طول قامة ستينا. صحيحٌ، أن طولها خمسةُ أقدام وإحدى عشرة بوصة، كانت تقريبًا أطول من كولن بثلاث بوصات كاملة وأطول من كل من شقيقته وأمه بست بوصات. لكن والد كولن كان ستة أقدام وبوصة واحدة، وكان والت أطول من ذلك ببوصة ونصف البوصة، لذلك لم يكن الطول في حد ذاته شيئًا جديدًا على أسرته، حتى وإن حدث، في حالة ستينا وكولن، أن كانت المرأةُ أطولَ من الرجل. لكن تلك البوصات الثلاث الزائدة في قامة ستينا- لنقُل إنها المسافة من نهاية شعرها إلى حاجبيها- سببت انحرافًا في الحديث من اللا مألوفات الجسدية إلى الانحرافات الشاذة التي تقترب من الكوارث، واستمر ذلك قرابة الخمس عشرة دقيقة قبل أن يشم كولن رائحةَ شيء يحترق لتندفع النساء الثلاث إلى المطبخ لإنقاذ البسكويت قبل أن تلتهمه النيران.

بعد ذلك، خلال الغداء وحتى حان وقتُ عودة الشابّين إلى نيويورك، كان الكلام صريحًا دون كلل. ظاهريًّا كان يومَ أحد مثله مثل حلم كل أسرة طيبة بسعادة أيام الآحاد، ومن ثم كان الحديثُ، بشكل لافت، مناقضًا للحياة، تلك التي كانت، كما علّمت التجربةُ حتى أصغر أولئك الأربعة، لا تستطيع أن تمضي في سبيلها لنصف دقيقة متطهرةً من اضطرابها المتأصل فيها، ناهيك عن أن تنهزم ويتحطم جوهرها الخبيء.

بمجرد أن توقف القطار، الذي يقلّ كولن وستينا إلى نيويورك، في محطة بنسلفانيا في بداية ذلك المساء، انفجرت ستينا في البكاء.

على حد ما كان يعرف، فإنها حتى ذلك الوقت كانت غارقة في النوم ورأسها على كتفه طوال الطريق من جيرسي- في الواقع سقط كلاهما في النوم منذ لحظة ركوبهما من محطة كنيسة بريك بسبب إرهاق جهد ظهيرة ذلك اليوم، ذاك الجهد الذي تفوقت فيه ستينا.

"ستينا- ماذا حدث؟"

"لن أقدر!" قالت وهي تبكي، ودون كلمة تفسير أخرى، وهي تبكي وتلهث بحرقة، وتضمّ حقيبتها إلى صدرها- متجاهلةً قبعتها، التي كانت على حجره، حيث كان يحملها لها وهي نائمة- ركضت وحدها خارج القطار كأنما تهرب من مهاجِمٍ ولم تهاتفه بعد ذلك أو تحاول رؤيته.

كان ذلك بعد أربع سنوات منذ ذلك اليوم، في 1954، حينما اصطدما ببعضهما خارج المحطة المركزية الكبرى وتوقفا ليتصافحا ويتكلما حديثًا طويلاً بما يكفي لإثارة الإعجاب القديم الذي أيقظه كلٌّ منهما في الآخر في عمر الثانية والعشرين والثامنة عشرة ثم ليمضي كلٌّ منهما في طريقه، مصدومينْ بيقين أن الشيء الأكثر روعةً هو أن

تتكرر مصادفة اللقاء هذه ثانيةً. كان متزوجًا وقتها، وينتظر طفلاً، وكان في المدينة بالنهار عائدًا من عمله كمعلّم كلاسيكيات في أدلفي، أما هي فكانت تعمل في وكالة للإعلان بشارع لكيسنجتون، عزباء مازالت، جميلة مازالت، ولكنها الآن غدت أكثر أنوثة، امرأة نيويوركية بالغة الأناقة، كانت امرأة من الواضح أن رحلة أورانج الشرقية قد أنهت مرحلةً من حياتها، هذا إذا ما كانت تلك الرحلة أصلا قد شكلت تلك الرحلةُ أثرًا ما.

الطريقة التي انتهت بها العلاقةُ- الخاتمة التي قال الواقعُ فيها كلمتَه بحسم- كانت هي كلَّ ما استطاع أن يفكر فيه. أذهله كيف تجاوزها وكيف تجاوزته، ثم مضى بعيدًا وقد فهم، ولولا قراءاته الدراما اليونانية الكلاسيكية ما كان له أن يفهم، كيف يمكن للحياة بسهولة أن تكون شيئًا دون الآ خر وكيف يتشكّل القدرُ والنصيب على نحو اعتباطيّ... وعلى الجانب الآخر، كيف قد يبدو النصيبُ اعتباطيًّا حينما لا تتغير الأمور عما هي عليه. لهذا، مضى في طريقه وهو لا يفهم أي شيء، مدركًا أن ليس بوسعه أن يفهم أي شيء، رغم خدعة أنه كان قد فهم شيئًا على جانب خطير من الأهمية الفلسفية، تسبب في تصميمه العنيد على أن يصبح رجلاً من صناعته هو، فقط لو... فقط لو أن مثل هذه الأشياء يمكن فهمها.

خطابٌ فاتن من ورقتين أرسلته ستينا في الأسبوع التالي، على بريد الجامعة، تكلمت فيه عن كم كان كولمن جميلاً على نحو لا يُصدق في "انقضاضه" حينما التقيا أول مرة في غرفة شارع سوليفان- "الانقضاض، الذي يشبه تقريبًا ما تفعله الطيور حين تحلّق فوق الأرض أو البحر، حتى تلمح شيئًا يتحرك، شيئًا يتدفق بالحياة، فتهبط بغتةً وتنقضّ عليه... ثم تنشب مخالبها فيه"- بدأ الخطابُ هكذا: "عزيزي كولمن، كم كنتُ سعيدة برؤيتك في نيويورك. في لقائنا الخاطف، بعدما رأيتك شعرتُ بحزن خريفيّ، ربما لأن السنوات الست منذ التقينا أول مرة جعلت قلبي ينخلع على نحو مباغت وأنا أرى بوضوح كم من الأيام 'مرّت' من عمري. كنتَ تبدو في أحسن حال، وأنا مسرورة لأنك سعيد..." ثم أنهتِ الخطابَ بخاتمة بطيئة عائمة من سبع جمل صغيرة ونهاية حزينة حتى أنه، بعد إعادة القراءة مرات عديدة، اعتبرها دليلاً على ندمها على ما فقدتْه، واعترافًا مغلّفًا على أسفها كذلك، كأنما الخاتمة إشارةٌ أليمة لاعتذار غير مسموع: "حسنٌ، هذا هو. يكفي هذا. يجب ألا أزعجك حتى. أعدُك ألا أفعل مجددًا. اعتنِ بنفسك. اعتنِ بنفسك. اعتنِ بنفسك. اعتنِ بنفسك. المغرمة جدًّا، ستينا."

لم يتخلص كولمن من الخطاب أبدًا، وكان كلما عثر عليه مصادفة بين أوراقه، وفي غمرة أيًّا ما كان يفعله، كان يتوقف ويتأمله- وإلا لكان نسيه لخمسة أعوام أو ستة- واستنبط ما استنبطه في ذلك اليوم في الشارع بعدما قبّلها برهافة على وجنتها وهو

يقول لستينا الوداع إلى الأبد: أنها لو كانت تزوجته- كما كان يود- لكان يجب أن تعرف كل شيء- كما كان يود- وما كان سينتج عن ذلك مع أسرته، مع أسرتها، مع أطفالهما معًا، كان سيختلف عما هو الحال مع آيريس. ما حدث مع أمه ووالت كان من اليسير ألا يحدث. لو كانت ستينا قالت نعم، لكان قد عاش حياة أخرى.

"لن أقدر". ثمة حكمةٌ كانت في عبارتها تلك، قدرٌ هائلٌ لعينٌ من الحكمة بالنسبة لفتاة صغيرة، لم تكن تشبه امراة اعتيادية في العشرين. ولكن لأجل هذا وقع في هواها- لأن لديها حكمة صلبة، أن تفكر بنفسك في تعقّل ورشاد. لو لم تكن.. ولكن لو لم تكن، فإنها ما كانت لتكون ستينا، وما كان ليرغب فيها كزوجة.

راح يسرح في تلك الأفكار عديمة الجدوى- عديمة الجدوى لرجل بلا موهبة كبرى مثله، إذا لم تكن لسوفوكليس: كيف يتشكّل القدرُ اعتباطيًا... أو كيف تبدو الأمور اعتباطيّةً طالما الأحداثُ لا مفرَّ منها.

مثلما كانت في البدء قد صوّرت نفسها وأصولها لكولن، نشأت آيريس جيتيلمان وترعرعت كثائرة سريّة ذكية عصيّة عنيدة الرأي- تحيكُ المؤامرات سرًا، منذ عامها الدراسي الثاني، من أجل أن تفرّ من محيطها القامع- في أسرة من مدينة باسايك تتأجج بالكراهية لكل أشكال القمع الاجتماعي، خصوصًا سُلطة الحاخامات وأباطيلهم الجائرة. أبوها الناطق باللهجة اليهودية الألمانية القديمة، كما كانت تصفه، كان فوضويًا مهرطقًا لم يختن حتى ابنيه، شقيقيْ آيريس الكبيرين، ولا اهتم أبواها بالحصول على وثيقة لزواجهما، ولا خضعا قط للمراسم المدنية. اعتبرا نفسيهما زوجًا وزوجة، زعما أنهما أمريكيان، يسميان نفسيهما يهوديين، هذان الزوجان الملحدان المهاجران غير المتعلمين اللذان كانا يبصقان على الأرض حين يمر الحاخام. لكنهما سمّيا نفسيهما كما يريدان بحريّة، دونما طلب تصريح أو التماس موافقة من أولئك الذين يصفهم أبوها المستخفُّ بكل شيء بـ'الأعداء المنافقين لكل ما هو طبيعي وطيب'- يقصد، طبقة الموظفين الذين يقبضون على السلطة بدون شرعيّة. على الحائط المتصدع المقذر فوق محل الصودا في متجر الحلوى الخاص بالأسرة في شارع ميرتل الكبير- متجر صغير فوضوي، كانت تقول عنه: "لا تستطيع دفننا فيه نحن الخمسة متجاورين"- على ذلك الحائط توجد صورتان مؤطرتان معلقتان، صورة ساكو، وصورة فانزيتي[90]، الصورتان مقطوعتان من جريدة. كل عام في 22 من أغسطس- الذكرى السنوية لذلك اليوم عام

---

[90] - Ferdinando Nicola Sacco، Bartolomeo Vanzetti، ثائران إيطاليان مهاجران لأمريكا اشتهرا بإثارة الشغب، وتم إعدامهما عام 1927. (المترجمة)

1927 حينما أعدمت ولايةُ ماساتشوستس كلا الثائريْن على السلطة بتهمة القتل، حيث تعلمت آيريس وشقيقاها أن أحدًا من الرجلين لم يكن مجرمًا- كان العمل يتوقف وتصعد الأسرة إلى الشقة الضئيلة المعتمة بالطابق الأعلى التي تفوق فوضاها المزريةُ فوضى المتجر، لكي يشهدوا يوم الصيام. كان هذا طقسًا يمارسه والد آيريس، كأنما هو زعيم ديني، لديه أفكاره الخيالية الخاصة، يجسدّها على نحو أخرق في عيد التصالح اليهودي[91]. لم يكن لوالدها أية أفكار حقيقية فيما كان يظن أنها أفكار- كل ما كان متأصلاً في أعماقه هو الجهلُ المستهتر واليأس المرّ بسبب التجريد من الملكية، والكراهيةُ الثورية الواهنة. كل كلمة كانت تُقال مع قبضة يدٍ مضمومة متوعّدة، وكل كلمة كانت خطبةً رنّانة. كان يعرف أسماء أعلام مثل كروبوتكين وباكيونين[92]، لكنه لا يعرف شيئًا عن كتاباتهما، كذلك أسبوعية فري آربيتير ستيمي[93]، المجلة اليهودية الثائرة على السلطة، التي كان يحملها معه إلى البيت، نادرًا ما كان يقرأ منها أكثر من كلمات قليلة كلَّ ليلة قبل أن يسقط في النوم. أبواها- كانت آيريس تفسر لكولن على نحو مسرحي، دراماتيكيّ صادم، في مقهى شارع بيلكر بعد دقائق من التقاطها من ميدان واشنطن- أبواها كانا إنسانين بسيطين متمسكين بحلم مستحيل لم يقدرا أبدًا أن يحققاه أو يحمياه بعقلانية، اللهم إلا ما كانا مستعدين بحماس لتقديمه كقرابين، الأصدقاء، الأقارب، العمل، حسن الظن بالجيران، حتى سلامة عقلهما الخاص، وحتى سلامة عقول أطفالهما. لم يتعلما إلا ما لم يكن لديهما معه خصائصُ مشتركة، وهو ما بدا لآيريس، كلما كبرت في العمر، كلَّ شيء في الحياة. المجتمع كما كان يتشكّل- قواه في حِراكه المستمر، تعقيداته تحت وطأة المصالح في مداها الأقصى، العراك الدءوب من أجل المصالح، الاستعباد المستمر، التصادم الحزبي والتواطؤ والتزوير، الرطانة الأخلاقية اللاذعة، الطاغية الرحيم الذي أصبح عُرفًا، وهمُ الاستقرار المراوغ- المجتمع كما تم صُنعه، كما كان دائمًا وكما يجب أن يكون، كان غريبًا عليهما مثلما كان بلاطُ الملك آرثر غريبًا على كونيكتيكت يانكي[94]. على أن هذا لم يكن لأن لديهما روابطَ قويةً بزمن آخر ومكان آخر ثم وُضعا بالقوة في عالم أجنبي عليهما تمامًا: بل لأنهما كانا كمن انتقل فجأة من المهد إلى البلوغ، دون المرور بمراحل تعلّمه كيف تسير الحيوانيةُ البشرية وكيف

---

[91] - Jewish Day of Atonement، في اللاهوت اليهودي هو يوم التصالح بين الله والبشر قائم على حياة وممات السيد المسيح. (المترجمة)

[92] - Mikhail Bakunin (1814-1876 ،Peter Kropotkin (1884- 1921) كاتبان شيوعيان روسيان كانا يدافعان عن الثورية الشيوعية. (المترجمة)

[93] - Freie Arbeiter Stimme

[94] - A Connecticut Yankee in King Arthur's Court، رواية للكاتب الأمريكي الساخر مارك توين كتبها عام 1889، يحكي فيها عن هانك مورجان مواطن القرن الـ 19، الذي، إثر خبطة على رأسه، صحا ليجد نفسه وقد ارتد إلى بدايات القرون الوسطى ليدخل بلاط الملك آرثر في إنجلترا. (المترجمة)

تُقنَّ. لم تستطع آيريس أن تقرر، منذ طفولتها، ما إذا كانت قد رُبّيت على الجنون أم على الخيال والوهم، وما إذا كان الاشمئزاز المتعصب الذي قُصِد أن تشارك فيه من وحي الحقيقة المُرّة أم كان سخفًا مُطبقًا وضربًا من الخبل.

طوال ذلك الأصيل ظلّت آيريس تحكي لكولمن قصصًا فلكلورية ساحرة من مراحل تنشئتها فوق متجر باسايك للحلوى، وكابنة لمثل هذين الجاهلين الأنانيين الصريحين موريس وإيثيل جيتيلمان، قصصًا بدت كأنما هي مغامرات شرسة ليست نتاجًا للأدب الروسي بقدر ما هي نتاج الصحف الروسية الهزلية، كأنما آل جيتيلمان هم الجيران المخبولون المشوشون في عرض الأحد الكوميدي الذي يُسمى "الأبناء كارامازوف". كان عرضًا قويًا ولامعًا بالنسبة لفتاة بالكاد في الثامنة عشرة من عمرها فرّت من جيرسي عبر هدسون، دونما أية خطط مستقبلية سوى أن تكون حرّة، فتاة صارت فقيرة وغريبة على خشبة مسرح الشارع التاسع، فتاة سمراء كبيرة الملامح تضج بالحيوية، ذات قوة ديناميكية مفعمة بالعاطفة، ووفق لغة الزمن الراهن: "ممتلئة القوام"، طالبةٌ من سكان البلدة من عُصبة طلاب الفن، تتكسب مصاريف دراستها من عملها كموديل في فصول الرسم الحيّ، واحدة من ذلك النمط الذي لا يُخفي شيئًا، من أولئك الذين لا يخافون من إثارة الهياج في مكان عام مثل راقصة رقص شرقي. شعرها مثل متاهة، إكليل هادر من الحلقات واللوالب المجدولة، كثيفٌ بما يكفي ليكون زخارف كريسماس. كأنما كل إزعاجات طفولتها وقلقها كان قد تراكم واستقر في تجاعيد شعرها الكثّ. شعرها ذاك الذي لا سبيل إلى تجاهله. بوسعك تلميع الأواني به، ولن يتغير شكله وتركيبته، كأنما هو محصود من قاع البحر الأسود، شيء يشبه شكل الشراع المصنوع من الأسلاك، هجين كثيف حيّ من طائر العقيق اليماني الذي يحيا بين الشُّعب المرجانية والأشجار، قد يكون لديه أيضًا خصائصُ علاجيةٌ ما.

لثلاث ساعات نجحت آيريس في إبقاء كولمن منتشيًا بكوميدياها، بانتهاكاتها، بشَعرها، وبنزوعها للإثارة المصطنعة، بذكائها المُستْعر المراهِق الغرّ، وبمهارتها المسرحية لاستثارة نفسها وتصديقها كل مبالغاتها التي جعلت كولمن- وهو القادر على تصنيع المكر ذاتيًا إن كان ثمة مثل هذا الشخص، ذلك المُنتَج الذي لا أحد سواه يمتلك امتياز اختراعه- جعلته يشعر بالمقابل كأنما ليس لديه أي تصوّر عن نفسه على الإطلاق.

ولكن حينما أعادها ذلك المساء إلى شارع سوليفان، كان كل شيء قد تغير. تبينّ أن لا فكرة لديها عن العالم الذي كانته هي. بمجرد أن تتخذ طريقك متجاوزًا ذلك الشَّعر الكث، فإن كل ما فيها كان منصهرًا. كانت نقيض السهم المصوّب لقلب الحياة الذي كانه هو كولمن سيلك ابن الخامسة والعشرين عامًا- المقاتلة مثله من أجل حريتها الذاتية

أيضًا، ولكن في النسخة القلقة، النسخة الثائرة على السلطة، لامرأة تود أن تعرف طريقها.

ما كان سيزعجها لخمس دقائق أن تعرف أنه وُلد ونشأ في أسرة ملونة وعرّف نفسه كزنجي طوال حياته السابقة تقريبًا، ولا كانت ستعبأ أبدًا بحفظ ذلك السر من أجله لو كان قد طلب منها أن تفعل. التسامحُ في الأمور الاستثنائية لم يكن إحدى نقائص آيريس جيتيلمان- الاستثنائيُّ بالنسبة لها كان هو ما يتطابق مع الثوابت الشرعية. أن تكون رجلين بدلاً من واحد؟ أن تكون اثنين ملونين بدلاً من واحد؟ أن تمشي في الطرقات باسم مستعار أو بقناع، ألا تكون هذا أو ذاك بل شخص فيما بينهما؟ أن تكون مرهونًا لشخصيتين أو ثلاث أو أربع؟ بالنسبة لها ليس من شيء مخيف في مثل تلك التشوهات الظاهرية. تفتُّحُ عقل آيريس لم يكن حتى خصيصةً أخلاقية مما يتفاخر بها المتحررون والمنادون بالليبرالية؛ بل كان لونًا من الهوس، كان النقيض المشروخ للتعصب. التوقعات التي لا غنى عنها عند معظم الناس، التظاهر بالوسطية، الثقة في السلطة، تقديس الروابط والنظام، كل تلك الأمور هي التي كانت تفزعها كما لا يفعل شيء آخر في الحياة- مثل هراء، مثل حُمق مطبق. لماذا تحدث الأمور كما تحدث ويقرؤها التاريخ كما يقرؤها إذا كان متجذرًا في الوجود شيءٌ اسمه السواء النفسيّ؟

ومع هذا، كان كل ما أخبره لآيريس هو أنه سيلك اليهودي، من جزيرة إليس كصيغة مخففة من سيلبيرزويج، مفترضًا أن والده كان موظفًا جمركيًا عطوفًا. بل أنه يحمل سمة الكتاب المقدس التي هي الختان، على عكس معظم أصدقائه السود من أورانج الشرقية في زمانه. أمُّه، التي تعمل ممرضة في مستشفى يسيطر على عمالته أطباءُ يهود، كانت مقتنعة بالرأي الطبي البدائي القائل بالفوائد الصحية الكبيرة للختان، ولذلك رتّب آل سيلك من أجل الطقس الذي كان تقليدًا أساسيًا بين اليهود- وتلك كانت بداية، في ذلك الزمن، أن يتم الختان جراحيًا بعد الولادة مع تزايد الآباء من غير اليهود- لكي يؤديها الطبيبُ لكل طفل ذكر في الأسبوع الثاني من الحياة.

كان كولمن يقدم نفسه كيهودي لعدة سنوات للآن- أو يترك الناس يعتقدون ذلك إذا ما رغبوا في ذلك- منذ حدث أن اكتشف في جامعة نيويورك، مثلما في المقهى الذي يتردد عليه، أن معظم من عرفهم كانوا يفترضون طوال الوقت أنه يهودي. كان قد تعلّم في البحرية أن كل ما عليك فعله هو أن تعطي انطباعًا جيدًا وراسخًا عن نفسك فلا يسألك أحدٌ عن شيء، لأن لا أحد يعنيه الأمر. معارفُه بجامعة نيويورك وبالقرية ورفقاؤه في الخدمة كان بوسعهم بسهولة أن يخمّنوا أنه منحدر من الشرق الأوسط، ولكن في لحظة

كتلك، حيث الافتتان باليهود كان في أعلى درجاته في مرحلة ما بعد الحرب[95]، بين رواد المفكرين في واشنطن، حينما أدى ذلك المَيل المتزايد نحو اليهود إلى حدوث جرأة كانت على وشك الخروج عن السيطرة، وحسٍّ ثقافي ذو دلالة بدأ ينبثق من نكاتهم وحكايا عائلاتهم الطريفة، من ضحكاتهم ومهرجيهم وإلماحاتهم اللاذعة وجدالاتهم- وحتى من شتائمهم- مثلما كان يظهر على صفحات كومنتري، ميدستريم، بارتيزان ريفيو[96]، فمَن كان هو حتى لا يساير ظنَّهم بأنه يهوديّ، خاصة بعد سنوات المدرسة الثانوية حين كان يساعد دوك تشيزنر كمدرّب ملاكمة في ساحة مقاطعة إسيكس للأولاد اليهود، حين زعم أنه صبيّ يهودي من نيوجيرسي دون أن يقع في شَرَك ادّعاء أن يكون بحّارًا أمريكيًا له جذورٌ سورية أو لبنانية. ارتداء الهيبة المصطنعة لأمريكي يهودي غير موقّر، عدواني التفكير، محلّل للنفس، يمرح في سخريات الوجود الهامشي في منهاتن، تبينّ أنه لا يشبه جنون وطيش أن يظل سنوات يحلم بـ ويفصّل بإتقان مظهرًا كاذبًا يرسمه لنفسه، ولكنه، للبهجة، كان طيشًا رائعًا- وحينما مرّ بخاطره د.فينسترمان، الذي عرض على أسرته ثلاثة آلاف دولار لكي يهبط كولمن في الامتحانات النهائية ليحتل ابنه اللامع بيرت المركزَ الأول على الفصل، ضربته الذكرى على نحو فكاهي مدهش أيضًا، كانت نكتةَ إحراز هدف هائلة وفريدة. يا لها من فكرة هائلة شاملة أن يُدخله العالَمُ في كل هذا- أيُّ أذًى دنيويٍّ هائل. لو فقط كان موجودًا مثلُ ذلك الإبداع المتقن الفذ- أو لم يكن طموحُه الداخليُّ الأوغلُ متفردًا على طول الخط؟- كان ذلك هو التقارب السحري بين ابن والده وبين ابن فينسترمان.

لم يعد يلعب على شيء. مع آيريس- الفتاةِ الهائجة الجَموحِ النقيضِ المطلق لستينا، آيريس اليهودية غير اليهودية- بمثل الوسيلة التي حاول من خلالها أن يصنع نفسه من جديد، أخيرًا وجد الوسيلة الصحيحة. لم يعد يرتدي أقنعة أو يخلعها، على نحو أبدي لا ينتهي يزعم ويتظاهر بأن يكون. كان ذلك هو الحل، السرّ في سرّه المسوس فقط بقطرة من السخف- السخف المنعتق المطمئن، ما الحياةُ إلا مساهمةٌ ضئيلة في كل قرار بشريّ.

مثل ذلك المزيج غير المفهوم حتى الآن لتاريخ أمريكا المشحون بتناقضات غير مرغوب فيها، بدأ الآن يدرك.

---

[95] - بعد عمليات الهولوكوست النازية بدأ التعاطف العالمي مع اليهود. (المترجمة)

[96] - Commentary, Midstream, and the Partisan Review- أسماء صحف. (المترجمة)

كان ثمة فصلٌ إضافي في المسرحية على كل حال. بعد ستينا وقبل آيريس كان هناك فصل من خمسة شهور عنوانه "إيللي ماجي"، الصبية الصغيرة الملونة المليحة، ذات البشرة السمراء المشبّعة بالصُّفرة، ذات النمش الخفيف المنثور حول أنفها ووجنتيها، تلك التي يقفُ مظهرُها على الخط الفاصل بين المراهقة والأنوثة، كانت تعمل في محل "باب القرية" في الطريق السادس، وتبيع على نحو مثير وحدات الرفوف الخاصة بالكتب وأبواب مداخل المحلات- أدراج المكاتب وأرجل الأسرّة. قال مالك المحل اليهودي العجوز المجهَد إن توظيف إيللي قد ضاعف من حجم مبيعاته بنسبة خمسين بالمائة. "لم يكن الحال يسير على نحو جيد هنا،" كان يخبر كولمن. "مجرد تدبير لقمة العيش. الآن كل رجل في القرية أصبح يريد درجًا لمكتبه. الناس يأتون إلى هنا لا يسألون عني- يسألون عن إيللي. يتصلون بالتليفون، يريدون التحدث مع إيللي. هذه الفتاة الصغيرة غيّرت كل شيء." كان على حق، فلا أحد بوسعه أن يقاومها، بمن فيهم كولمن، الذي كان مأخوذًا، أول الأمر، بساقيها المرفوعتين على كعبي الحذاء العالي، وبعد ذلك فتنته فطرتُها. كانت تخرج مع رجال بيض من جامعة نيويورك ممن انجذبوا إليها، وتخرج مع رجال ملونين من جامعة نيويورك ممن انجذبوا إليها- فتاة مفعمة بالحيوية انتقلت إلى فيلاج من يونكرز[97]، حيث نشأت وترعرعت، وهي الآن تعيش حياة استثنائية كما هو المعلوم من حياة فيلاج. كانت كائنًا نفيسًا، ولذا ذهب كولمن ليشتري مكتبًا لم يكن بحاجة إليه، ودعاها تلك الليلة إلى شراب. بعد ستينا وصدمة فقْد امرأة أرادها بعنف، ها هو من جديد يقضي وقتًا طيبًا، ها هو يعيش من جديد، وكل ذلك منذ بدأ يغازلها في المتجر. هل اعتقدتْ أنه أبيض؟ ليس يعرف. الأمر ممتع. وبعدها في ذلك المساء كانت تضحك، وترمقه بطرف عينيها على نحو كوميدي قائلة: "ماذا أنت إذن؟" ثم لمحت شيئًا في الخارج وعادت تستأنف قولها. على أن العَرق لم يكن ينسكب منه الآن مثلما حدث حين أخطأ في قراءة قصيدة ستينا. "ماذا أنا؟ العبيها بالطريقة التي تحبّين،" أجابها كولمن. "وهل تلك هي الطريقة التي تلعبها بها؟" سألته. "بالطبع تلك هي الطريقة التي ألعبُ بها،" قال. "وإذن فهل تعتقدُ الفتياتُ البيضاواتُ أنكَ أبيض؟" "مهما اعتقدن، أتركُهن يعتقدن." قال. "ومهما اعتقدتُ؟" سألت إيللي. "هي الصفقةُ نفسُها،" قال كولمن. تلك هي اللعبة الصغيرة التي لعباها معًا، والتي أصبحت مثيرةً لكليهما معًا. كانا يلعبان غموضَها. لم يكن قريبًا من أحد بعينه، ولكن الرفاق من أيام المدرسة كانوا يخمنون أنه يواعد فتاة ملونة، وكان أصدقاؤها جميعًا يخمنون أنها تخرج مع ولد أبيض. ثمة بعض التسلية الحقيقية في أن يجدك الآخرون مُهمًّا، وكلما ذهبتَ إلى مكان، يقلدك

---

[97] - إحدى المدن في ولاية نيويورك.

الـناس. إنه عام 1951. كان الرجال يسألون كولمن: " كيف تبدو إيللي؟" " ساخنةٌ شهوانية،" كان يجيب، وهو يمطُّ الكلمةَ ويهزُّ يده بمرونة على الطريقة التي كان يفعلها الإيطاليون في أورانج الشرقية. ثمة متعةٌ يومًا بيوم، ولحظة بلحظة في كل هذا، بطل فيلم سينمائي يتعاظم في حياته الآن: كان دائمًا في مشهد سينمائي كلما خرج للقاء إيللي. لا أحد في الشارع الثامن يعرف ماذا كان يحدث بحق الجحيم، وكان يستمتع بذلك. لديها ساقان. تضحك طوال الوقت. هي المرأةُ في صورتها الطبيعية- تنضحُ بالاطمئنان والبراءة الحيّة التي فتنته. تشبه ستينا إلى حد ما، سوى أنها ليست بيضاء، فلم يذهبا في عجلة لزيارة أسرته ولا ذهبا لزيارة أسرتها. ولمَ يفعلان؟ هم يعيشون في القرية. لم يخطر بباله أبدًا أن يأخذها إلى أورانج الشرقية. ربما لأنه لا يريد أن يسمع تنهيدة الارتياح، تلك التي سوف تُقال، ولو دون كلمات، لأنه أخيرًا يفعل الشيء الصحيح. راح يفكر في دوافعه التي جعلته يذهب بستينا إلى البيت. هل ليكون أمينًا مع الجميع؟ وماذا جنى من ذلك؟ كلا، لا أُسَر بعد الآن- ليس الآن على كل حال.

في تلك الأثناء، كان مستمتعًا بالوجود معها تلك الليلة حينما انطلقت الحقيقةُ بكل فورتها. حتى حول كونه ملاكمًا، وهو ما لم يستطع أبدًا أن يخبره لستينا. من السهل جدًّا إخبار إيللي. وعدم استنكارها الأمرَ رفع من شأنها عنده وعزَّزه. ليست تقليدية- أو هذا ما بدا. إنه يتعامل مع شخص ليس ضيق العقل نهائيًّا. ودّتِ الفتاةُ البديعة أن تسمع الحكاية كاملة. ولذلك تكلم، وبدون كوابح كان متحدثًا استثنائيًّا، وكانت إيللي مفتونةً. أخبرها عن سلاح البحرية. أخبرها عن أسرته، التي تبينّ أنها لم تكن مختلفةً كثيرًا عن أسرتها، فيما عدا أن والدها، الصيدلاني بصيدلية في هارليم، كان حيًّا، ومن ثم فلم يكن أبوها موافقًا على انتقالها للعيش في القرية، ومن حسن حظ إيللي أنه لم يكن قادرًا على التوقف عن حبِّها. أخبرها كولمن عن هوارد وكيف أنه لم يستطع تحمّل المكان. تحدثا كثيرًا حول هوارد لأنه كان المكان الذي أراد والدا إيللي أن تذهب إليه أيضًا. ودائمًا، أيًّا ما كان الأمر الذي يتحدثان بشأنه، كان يجد أنه يُضحكها دون جهد. "لم أكن قد رأيت كل هذا العدد من الملونين من قبل، ولا حتى في جنوب جيرسي مكان لمّ شمل الأسرة. بدت جامعة هوارد بالنسبة إليَّ مثل حشد ضخم من الزنوج في مكان واحد. من كافة الطوائف، من كافة الضروب والطُّرُز، ولكنني لم أرغب في التواجد معهم على هذا النحو. لم أدر ماذا سيفعل بي تواجدي بينهم. كل شيء هناك كان كثيفًا حتى أن أي قدر أمتلكه من الكبرياء كان لابد سيتقلّص. سيتقزَّم تمامًا في خضمّ تلك البيئة الكثيفة الزائفة." "مثل الصودا المُحلاّة أكثر مما يجب،" قالت إيللي. "حسنًا،" أخبرها، "هي ليست أكثر مما يجب بسبب أن الكثيرَ قد وُضع فيها، بل لأن كل ما عداها قد

انتُزع منها."[98] وجد كولن كل راحته في حديثه بشفافية مع إيللي. صحيح أنه لم يعد بطلاً، لكنه أيضًا لم يعد وغدًا خسيسًا على أي مستوى. أجل، كانت تلك البنت منافسًا له. استقلالُها المتجاوز كلَّ حدّ، تحوُّلها إلى فتاة من فيلاج، الطريقة التي تعامل بها قومها- بدا أنها كبرت بالطريقة التي افترضتَ أنتَ أنكَ قادرٌ عليها.

في أحد المساءات أخذته إلى محل مجوهرات صغير بشارع ليكر حيث يصنع مالكه الأبيضُ قطعًا جميلة من المينا. وبمجرد أن غادرا أخبرته أن الرجل أسود. "أنتِ مخطئة. لا يمكن أن يكون." أخبرها كولن، "لا تقل لي إنني مخطئة"- كانت تضحك- " أنت أعمى." وفي ليلة أخرى، قرب منتصف الليل، أخذته إلى بار في شارع هدسون حيث يجتمع الرسامون ليشربوا. "أترى ذلك الشخص. المصقول." قالت بصوت ناعم، وهي تميل برأسها صوب رجل أبيض وسيم في منتصف العشرينات كان محطّ إعجاب كل الفتيات في البار. "هو،" قالت. "كلا،" قال كولن، الذي كان هو مَن يضحك الآن. "أنتَ في قرية جرينويتش يا كولن سيلك، الأربعة أميال المربعة الأكثر حريةً من أمريكا. يوجد شخصٌ في كل بناية وأخرى[99]. أنت فاشلٌ لو فكرت أنك قد ابتكرت تلك الفكرة." وإن كانت إيللي تعرف ثلاثةً بالفعل، فإن هناك عشرة، إن لم يكن أكثر. "من كل حدب وصوب،" قالت، "يتوجهون رأسًا إلى الشارع الثامن. تمامًا مثلما فعلتَ أنت من أورانج الشرقية الصغيرة." قال: "بينما أنا لا أرى ذلك على الإطلاق!" وجعلهما هذا يضحكان معًا أيضًا، يضحكان ويضحكان ويضحكان لأنه أعمى لم يستطع أن يرى ذلك في الآخرين ولأن إيللي كانت دليله، تشير عليهم وتحددهم له.

في البدء، كان يستمتع بانفراج مشكلته. بفقده السرَّ، أحسّ أنه فتًى من جديد. الفتى الذي كانه قبل أن يحوز ذلك السر. طفلٌ عفريت شقي نوعًا ما. استعاد عبر فطرتها وطبيعيتها بهجةَ واطمئنان أن يكون طبيعيًا. إذا أردتَ أن تغدو فارسًا أو بطلاً، فلابد أن تحمي نفسك بدرعٍ واقٍ، والذي ناله الآن هو متعةُ أن يكون دون درع. "أنت رجل محظوظ،" أخبره رئيس إيللي. "رجل محظوظ،" كررها وكان يعني ما يقول. مع إيللي لم يعد السرُّ فعّالاً. الحكاية ليست فقط أنه كان قادرًا على أن يخبرها بكل شيء ومن ثم فعل، الحكاية أنه لو أراد ووقتما يريد أن يذهب إلى بيته فإن بوسعه ذلك. بوسعه التعامل مع شقيقه. قبل ذلك، لم يكن ذلك بوسعه. هو وأمه بوسعهما أن يمضيا قدمًا ويستأنفا التصاقهما معًا مثلما اعتادا دائمًا أن يكونا. بعد ذلك قابل آيريس، وانتهى الموضوع. كان الأمر متعةً مع إيللي، واستمرت المتعة، سوى أن شيئًا ما كان قد غاب.

---

[98] - يتكلمان عن كثافة وجود السود في هوارد، في مقابل غياب البيض. (المترجمة)

[99] - تقصد: يوجد شخص زنجي يزعم أنه أبيض. (المترجمة)

الحكاية كلها كان ينقصها الطموح- أخفقت في أن تغذي التصورَ الذي ظل يرسمه لنفسه طيلة حياته. في تلك الأثناء ظهرت آيريس ودخل الحلبة من جديد. كان والده قد قال له: "الآن بوسعك أن تعتزل غير مهزوم. أنت معتزل." ولكنه هنا يخرج هادرًا من ركنه- عاوده السر من جديد. موهبةُ أن تكون كتومًا من جديد، وهو ما كان عسيرًا أن يحصل عليه. ربما كان هناك الكثير من الرجال مثله يتسكعون في أنحاء القرية. ولكن ليس لدى كل منهم تلك الموهبة. أو ربما لديهم ولكن في المستوى التافه الحقير: إنهم ببساطة يكذبون طوال الوقت. لم يكونوا كتومين بالطريقة المهيبة الواسعة مثلما كان كولمن. إنه في طريق العودة من الطريق المنحني نحو الخروج. حصل على إكسير السر، بما يشبه أن تكون طليق اللسان في لغة أخرى- مثلما تكون في مكان دائم الطزاجة بالنسبة إليك. لقد جرّب أن يعيش من دونه، وكان الأمر جيدًا، لا شيء فظيعًا حدث، لم يكن الأمر قابلاً للاستنكار. كان متعةً. متعة بريئة. لكن كل ما عدا ذلك كان غير كاف. بالتأكيد، قد استعاد براءته. وهبته إيللي ذلك بشكل كامل. ولكن ما فائدة البراءة؟ آيريس تعطي ما هو أكثر. إنها ترفع كل شيء إلى مرتبة أخرى. آيريس تعيد إليه حياته في المستوى الذي طالما ودّ أن يعيش فيه.

بعد عامين من لقائهما، اتفقا على الزواج، وكان ذلك هو الخيار الذي تجاسر واتخذه بعد أن استعاد حريّته- وهل كان بوسعه أن يكون مصطنعًا أكثر في الوصول إلى درجة مقبولة من الكفاية الذاتية من أجل أن يؤمِّن طموحه وكفايته الهائلة لكي يساير العالم؟- كان ذلك القرار هو أول فاتورة مستحقة الدفع.

ذهب كولمن إلى أورانج الشرقية ليرى أمه. لم تكن مسز سيلك تعرف شيئًا عن وجود آيريس جيتلمان، رغم أنها لم تندهش مطلقًا حينما أخبرها أنه سوف يتزوج وأن العروس بيضاء. لم تكن مندهشة حتى حين أخبرها أن الفتاة لا تعرف أنه ملوّن. لو كان ثمة إنسانٌ مندهش، فقد كان كولمن نفسه، وقد أعلن بوضوح عن نواياه، تساءل فجأة إن كان هذا القرار الهائل، الأكثر أبديةً في حياته، لا يتكئ إلا على أقل الأشياء أهميةً: شَعر آيريس، المجعد المتلبّك الذي كان أكثر زنجيةً بكثير من شعر كولمن- يشبه شعر إرنستين أكثر مما يشبه شعره. حينما كانت بنتًا صغيرة، كانت إرنستين مشهورة بسؤالها: "لماذا ليس لديّ شعر يطير مثل شعر مامي؟"- تقصد لماذا شعرها لا يطير مع نسمات الهواء، ليس فقط مثل شعر أمها بل مثل شعر كل امرأة من عائلة أمها.

ذلك الكرب في وجه أمه، سرّب إلى كولمن الخوف المرعب المجنون من أن يكون كل ما يريده من آيريس جيتلمان هو المبرر الذي ستمنحه للمس شعر أطفالهما.

ولكن كيف يمكن لدافع فظ، مدهش نفعيّ مثل هذا أن يُفلت من انتباهه حتى الآن؟ هل لأنه لم يكن حقيقيًا في أي مستوى؟ وهو يرى معاناة أمه هكذا- ترتجّ داخليًا بسبب سلوكه لكنها مصممة، مثلما كان كولن دائمًا، أن تنجز الأمر حتى النهاية- كيف أمكن لهذه الفكرة المذهلة أن تبدو له أي شيء عدا أن تكون حقيقية؟ حتى حينما بقي جالسًا أمام أمه فيما كان يبدو كأنه حالة متقنة من السيطرة على النفس، كان قد كوّن انطباعًا محددًا بأنه وحسب قد اختار زوجته لأكثر الأسباب غباءً في الوجود، وأنه بذلك كان أكثر الرجال خواءً في الوجود.

"وهي صدقتْ أن والديك قد ماتا يا كولن؟ هذا ما أخبرتها به؟"

"نعم هذا صحيح."

"ليس لديك شقيق؟ ليس لديك شقيقة؟ ليس هناك إرنستين؟ ليس هناك والت؟"

أومأ موافقًا.

"و؟ بمَ أخبرتها أيضًا؟"

"بمَ تظنين أنني أخبرتها؟"

"بكل ما يناسبك أن تخبرها به." وكان هذا أقسى ما حدث لها طيلة المساء. قدرتها على الغضب لم تستطع أبدًا، ولن يكون بوسعها، أن تمتد إليه هو بالذات. مجرد النظر إليه، منذ لحظة ميلاده، كان يحفّز مشاعرها بكل ما لم يكن لديها دفاعُ حياله، وذلك لم يكن له علاقة بما كان بالفعل مستحقًّا له.

"لن يكون بوسعي أبدًا أن أعرف أحفادي؟" قالت.

كان قد رتب أموره. الشيء المهم الآن هو أن ينسى شَعر آيريس وأن يترك أمه تتكلم، يتركها تجد طلاقتها في الحديث، ومن خلال شلال كلماتها العذب، سوف تخلق له اعتذاره الخاص.

"لن تدعهم يرونني أبدًا،" قالت. "لن تدعهم أبدًا يعرفون مَن أكون. 'ماما،' هذا ما سوف تقوله لي: 'ماما، تعالي إلى محطة القطار في نيويورك، واجلسي على المقعد في قاعة الانتظار، وفي الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة صباحًا، سأمرُّ مع أطفالي في عطلة الأحد.' سيكون هذا في عيد ميلادي بعد خمس سنوات من الآن. 'اجلسي هناك يا ماما، ولا تقولي أي شيء، وأنا سوف أمشي ببطء مع أطفالي.' وأنتَ واثقٌ من أنني سأكون هناك. محطة القطار. حديقة الحيوان. الحديقة العامة. أينما تقول، بالطبع سوف أفعل. ستخبرني أن الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن ألمس أحفادي هي بالنسبة لك أن آتي مثل مسز براون كجليسة أطفال، وأضعهم في أَسرِّتهم، سوف أفعل

ذلك. مُرني أن آتي مثل مسز براون لأنظف بيتك، وسوف أفعل. بالطبع سوف أفعل ما تخبرني به. ليس لدي خيار."

"أليس لديك خيار؟"

"خيار؟ حقًّا؟ ما هي خياراتي يا كولمن؟"

"تتبرئين مني."

على نحو ساخر تظاهرت بأنها ستعطي تلك الفكرة بعض الاهتمام.

"سأفترضُ أن بوسعي أن أكون بهذا القلب المتحجر معك. أجل، هذا ممكن، أفترض ذلك. ولكن أين بظنك بوسعي أن أجد القوة لأكون متحجرة القلب مع نفسي؟"

لم تكن لحظة استعادة طفولته. لم تكن لحظة إعجابه بشفافيتها أو سخريتها أو جسارتها. لم تكن اللحظة التي يسمح فيها لنفسه بأن يخضع لظاهرة الحب المَرَضية لدى الأمهات. لم تكن اللحظة المناسبة ليُنصت فيها لكل تلك الكلمات التي لم تقلها، على أنها كانت مسموعة بوضوح أعلى مما نطقته بالفعل من كلمات. لم تكن لحظة أن يفكر في أي شيء عدا ما جاء مُسلّحًا له. وبالتأكيد لم تكن لحظة اللجوء إلى التبريرات، أو حسابات المزايا والخسائر، والتظاهر بأنه لم يكن إلا محض قرار منطقي. لم يكن هناك من مبرر يعنون انتهاكه وأفعاله معها. كانت لحظة تعميق بؤرة تركيزه لما ذهب هناك من أجل تحقيقه. إذا كان التبرؤ منه هو الخيار الذي يصدّها، فإن تلك الضربة هي كل ما بوسعها أن تفعل. راح يقول لنفسه: تكلّمْ بهدوء، قُلْ أقلَّ القليل، انسَ شَعر آيريس، ومهما طال الأمرُ دعْ أمَّك تستمر في توظيف كلماتها لكي تمتص من داخلها القسوة التي لم يرتكب مثلها في حياته.

كان يقتلها. ليس عليك أن تقتل والدك. العالم سوف يفعل ذلك من أجلك. ثمة وفرةٌ من القوى سوف تنال والدَك. العالم سوف يعتني به، مثلما بالفعل اعتنى بمستر سيلك. الذي عليك قتله الآن هو الأم، وهو ما كان يفعله بها في هذه اللحظة، الولد الذي نال ما ناله من حب هذه المرأة. كان يقتلها نيابةً عن مفهومه السعيد عن الحرية! كانت الأمور ستغدو أيسر كثيرًا دونها. ولكن فقط عبر هذا الاختبار بوسعه أن يكون الرجل الذي اختار أن يكونه، منفصلاً انفصالاً نهائيًّا عما قُدِّر له أن يكونه بالميلاد، حرًّا لأن يناضل لتحقيق أن يكون حرًّا مثل أي إنسان يتمنى أن يكون حرًّا. لكي ينال ذلك من الحياة، القدَرَ البديل، بمجهوده الخاص، عليه أن يفعل ما يجب عليه فعله. ألا يودُّ معظمُ الناس أن يخرجوا من حيواتهم التي فُرضت عليهم فرضًا؟ لكنهم لا يفعلون، وهذا ما يجعلهم "هُم"، وهذا أيضًا ما يجعله "هو". لِضربْ اللكمة، اصنعْ الإصابة، ثم أغلقْ الباب إلى الأبد. ليس بوسعك أن تفعل ذلك لأم رائعة تحبُّكَ دون شرط وجعلتك سعيدًا، ليس بوسعك

أن تصيبها بكل هذا الألم ثم تظن أن بوسعك التراجع عن فعلتك. أمرٌ رهيب للغاية أن يكون كل ما بوسعك فعله هو أن تعيش بتلك الفعلة. بمجرد أن تفعل شيئًا مثل هذا، فقد فعلتَ عنفًا هائلاً ليس بوسعك أن تتراجع عنه- وهو ما كان يريده كولن. إنها مثل تلك اللحظة في ويست بوينت أثناء سقوط ذلك الخصم. وحدَه الحَكَم هو الذي استطاع إنقاذه مما أراد كولن أن يفعله به. ومثل الآن، كان يجرّب تلك القوة كملاكم. لأن ذاك كان اختبارًا أيضًا، لكي يعطي وحشيةَ الجحود معناها الحقيقيَّ، الإنسانيَّ غير المغتفَر، لكي يواجه بكل الواقعية والوضوح الممكنين اللحظةَ التي يتقاطع فيها قدَرُه ومصيرُه مع شيء هائل. هكذا كان الحال. هذا الرجل وأمه. هذه المرأة وابنها المحبوب. لو أنه، وهو يشحذ نفسه كنصل حاد، كان عليه أن يرتكب أقسى ما يمكن تصوره، فها هو ذا، يطعنها. وهذا يضعه بالضبط في قلب الأمر. هذا هو الفصل الأعظم في مسرحية حياته، وعلى نحو حيّ وواعٍ تمامًا، كان يشعر بهوله.

"لا أدري لماذا لستُ مهيأة لذلك كما ينبغي يا كولن. كان يجب أن أكون،" قالت الأم. "رغم أنك كنتَ تعطي إنذارات واضحة تقريبًا منذ يوم مجيئك إلى العالم. كنت حتى ترفض الرضاعةَ من ثديي. أجل، بالفعل كنت ترفض. الآن بوسعي أن أرى السبب. ربما هذا يؤجل هروبك. دائمًا ما كان هناك شيء بأسرتنا، ولستُ أعني اللون- كان فينا شيء يعترض سبيلك. أنت تفكر مثل سجين. نعم يا كولن بروتس. أبيضُ مثل الثلج، لكنك تفكر مثل عبد."

لم تكن لحظةَ التصديق على ذكائها، أو حتى اعتبار أن جاذبية عباراتها تجسيدٌ لنوع من الحكمة الخاصة. كان يحدث أن تقول أمه شيئًا يجعلها تبدو كأنها تعرف أكثر مما كانت تعرف بالفعل. الجانب العقلاني الآخر. كان هذا ما نتج من ترْك الخطابةَ لوالده ليبدو بالمقارنة مع ما يُقال شيئًا يُعتدّ به.

"الآن، بوسعي أن أخبركَ يا كولن بأن لا مهرب ثمة، وأن كل محاولات هروبك سوف تقودك من جديد إلى حيث بدأت. هذا ما كان سيخبرك به أبوك. وأن ثمة شيئًا في يوليوس قيصر يخلق منه نسخة جديدة. ولكن بالنسبة لشاب مثلك، يعجب به الجميع؟ شاب حسن المظهر، فاتنٌ، ذكيٌّ، له تكوينك الجسدي، وتصميمك وعزمك، جموحك، وكل مواهبك الرائعة؟ أنت بعينيك الخضراوين وأهدابك الطويلة القاتمة؟ لماذا؟ هذا من شأنه ألا يسبب لك أية متاعب على الإطلاق. أخمّنُ أن مجيئك لرؤيتي كان أمرًا بالغَ الصعوبة. والآن انظرْ كيف تجلس هادئًا هنا. ذاك لأنك تعرف أن ما تفعله أمرٌ جلل، أعلمُ أنه أمرٌ جلل، لأنك لن تلاحق هدفًا غير ذي بال. بالطبع سيكون لديك خيبات أمل. وبالطبع لن تنال إلا القليل مما تخيلته. تجلسُ بهدوء قبالتي. نصيبُك الا ستثنائي سوف يكون

استثنائيًا، حسنًا- ولكن كيف؟ عمرك ستة وعشرون عامًا- وليس بوسعك البدء في المعرفة. ولكن أليس ممكنًا أن يكون الأمر نفسه حقيقيًا لو لم تفعل شيئًا؟ أتصور أن أي تغيير عميق في الحياة يتضمن أن تقول لشخص ما: 'أنا لا أعرفك'."

استمرت في الحديث قرابةَ الساعتين، في خطبة طويلة حول استقلاليته التي يعود تاريخُها إلى طفولته، وأكدّت رسمَها بالتفصيل كلَّ الصعوبات التي واجهتها ولم تستطع تجاوزها وكان عليها مجابهتها وتحمّلها، في الوقت الذي كان كولمن يفعل فيه كل ما يستطيع كيلا يلاحظ هذا- أبسط الأمور، مثل سقوط شعرها (شعر أمه، وليس شعر آيريس ونتوء رأسها، وتورّم كاحليها، وانتفاخ بطنها، والانبعاج المفرط في أسنانها الكبيرة- إلى أي مدى كانت تنسحب نحو الموت منذ ذلك الأحد قبل ثلاث سنوات حينما فعلت كل ما بوسعها من كرم ضيافة ولباقة لكي تُشعر ستينا بالراحة. في لحظة بعينها في منتصف الأصيل، بدت لكولمن أنها درجت درجةً عالية نحو حافة التغيّر الأكبر: نقطة التحول، كما يحدث للكهول، نحو التشوّه والضآلة الجسدية. كلما تكلمتْ أكثر، كلما تأكد كولمن أنه يرى ذلك يحدث. كان يحاول ألا يفكر في المرض الذي قد يقتلها، في الجنازة الذي سوف يقيمونها لها، في كلمة التأبين التي سوف تُقرأ والصلوات التي ستُقام جوار الضريح. ولكن بعد ذلك حاول ألا يفكر في استمرارها في العيش أيضًا، وفي مغادرته البيت وبقائها هنا على قيد الحياة، في السنوات التي ستمرُّ عليها وهي تفكر فيه وفي أطفاله وفي زوجته، وكلما مرّت السنواتُ تزداد الصلةُ بينهما قوة بالنسبة لها بسبب رفضها قبول الأمر.

لا طولُ عمر أمِّه ولا موتُها مسموحٌ له أن يؤثر على ما ينوي فعله، ولا الصراعات التي خاضتها عائلتها في لونسايد، حيث وُلِدَت في كوخ متهدم وعاشت مع أبويها وأربعة أشقاء حتى مات أبوها وهي في السابعة. قومُ أبيها كانوا في لونسايد، نيوجيرسي، منذ 1855. كانوا عبيدًا هاربين، جيء بهم شمالاً في قطار الأنفاق من ميريلاند إلى جيرسي الجنوب-غربية على يد جماعة الكويكر[100]. أول الأمر أطلق الزنوج على المكان "الملاذ الحُرّ". وقتها لم يعش هناك أيٌّ من البيض، فقط حفنة ضئيلة، في الخارج على حواف بلدة تعدادها ألفا نسمة من أولئك المنحدرين من سلالة العبيد المارقين الذين كان يحميهم كويكر هادونفيلد- عمدة البلدة كان منحدرًا من سلالتهم، ورئيس الإطفاء، ورئيس الشرطة، وجابي الضرائب، والمدرسون في المدرسة الابتدائية، والأطفال في المدرسة الابتدائية. على أن تفرّد لونسايد كبلدة للزنوج لم يكن له أي تأثير على أي

[100] - Quakers- كويكر. جماعة "الصحابيون". طائفة نصرانية تأسست في منتصف القرن السابع عشر في إنجلترا، وكانت ضد الشعائر الدينية الرسمية والكهنوت والعنف. موسوعة أكسفورد (المترجمة).

شيء. ولا أيضًا تفرّد بلدة جولدتاون في الجنوب الأقصى من جيرسي. هذا عن المكان الذي انحدر منه قوم أمها، والمكان الذي نزحت إليه العائلة بعد موت أبيها. مستعمرةٌ أخرى للملونين، والعديد من أشباه البيض، بمن فيهم جدتها لأمها، كل شخص بطريقة ما كان مرتبطًا بالآخر. "الطريق، طريق العودة،" كما اعتادت أن تفسّر لكولن وهو طفل- لتبسِّط له وتلخّص بأقصى ما يمكنها تلك المعارفَ التقليدية التي كانت تسمعها دائمًا- عبدٌ مملوكٌ لجندي في الجيش الأوروبي قُتل في الحرب الفرنسية الهندية. اعتنى العبدُ بأرمل الجندي. كان يفعل من أجلها كل شيء من الفجر حتى الليل، لا يتوقف حتى إتمام ما يجب فعله. يقطّع الأخشاب وينقلها، يجمع المحاصيل، يحفر الأرض ويبتني بيتًا للقرنبيط ويخزّنه فيه، يخزّن القرع، يطمر ثمر التفاح، واللفت، والبطاطس، في التربة لموسم الشتاء، يكدّس أكوام الشعير والقمح في مخزن الحبوب، يذبح الخنزير، يملّح لحمه، يذبح البقرة ويحفظ لحمها بالملح، إلى أن جاء يوم تزوجته الأرملُ وأنجبا ثلاثة أبناء. تزوج أولئك الثلاثة من بنات جولدتاون اللاتي تعود عائلاتهن إلى أصول المستعمرة في عام 1600، تلك العائلات التي كانت قد تزاوجت وامتزجت بعمق في عهد الثورة. بعضهم أو جميعهم كانوا من نسل الهنود أبناء مستعمرة لينيب المترامية في الحقول الهندية الذين تزوجوا من السويد- السويديون والفنلنديون حلّوا محل الهولنديين المستعمرين الأصليين- والذين كان لديهم خمسة أطفال بالإضافة إليها، بعضهم أو جميعهم كانوا منحدرين من الأشقاء الهجين الذين جيء بهم من الهند الغربية في سفينة تجارية كانت قد أبحرت للشمال عبر النهر من جرينويش إلى بريدجتون، حيث التزموا بعقد مع مالكَيْ الأرض اللذين كانا قد دفعا ثمن رحلتهما واللذين كذلك فيما بعد دفعا ثمن رحلة شقيقتين هولنديتين لتأتيا من هولندا وتصبحا زوجتيهما؛ بعضهم أو جميعهم كانوا منحدرين من سلالة حفيدة جون فينويك، ابن بارون إنجليزي، ضابط في سلاح الفرسان في جيش كرومويل التابع للكومنولث وعضو في جماعة الأصدقاء ومات في نيوجيرسي بعد سنوات عديدة من تحوّل نيو سيزيريا (المقاطعة الواقعة بين هدسون وديلاوير ثم التصديق عليها بواسطة شقيق ملك إنجلترا إلى اثنين من المُلاّك الإنجليز)، إلى نيوجيرسي. مات فينويك عام 1683 ودُفن في مكان ما بمستعمرة خاصة كان قد اشتراها، وأسسها، وحكمها، تلك التي امتدت نحو شمال بريدجيتون إلى ساليم وجنوبًا وشرقًا إلى ديلوير.

تزوجت حفيدة فينويك ذات الثمانية عشر عامًا، إليزابيث آدامز، من رجل ملون اسمه جولد. "ذلك الأسود الذي كان دمارها" كان هذا هو وصف جدّها لجولد في الوصية التي منع فيها إليزابيث من المشاركة في ميراث ممتلكاته حتى ذلك الوقت حيث "فتح اللورد

عينيها على الانتهاك المقيت الذي مارسته ضده." ووفق الحكاية، فإن واحداً فقط من الأبناء الخمسة لجولد وإليزابيث قد عاش حتى سن النضوج، وكان هو بنيامين جولد، الذي تزوّج من الفنلندية آن. مات بنيامين عام 1777، العام التالي لتوقيع إعلان الاستقلال عبر ديلاوير في فيلادلفيا، تاركًا ابنةً، سارة، وأربعة أبناء، أنطوني، صامويل، أبيّا، إليشا، وإلى بنيامين جولد يعود اسم البلدة: جولد-تاون.

تعلّم كولمن من أمّه متاهة تاريخ العائلة الذي يعود إلى أيام الأرستقراطيّ "جون فينويك"، ذاك الذي كان بالنسبة لمنطقة نيو جيرسي الجنوب-غربية مثلما كان "وليم بين" بالنسبة إلى القسم من بنسلفانيا الذي يطوّق فلادلفيا- والذي من نسله كما يبدو انحدرت كل عائلات جولدتاون- وبعد ذلك سمع كولمن الحكاية من جديد، وإن ليس أبداً بالتفاصيل نفسها، من شقيقات الجدات وأشقاء الأجداد، من أمهات الجدات وآباء الأجداد، بعضهم يقترب من المائة عام، حينما كانوا في طفولتهم، هو ووالت وإرنستين، يذهبون مع أبويهم إلى جولدتاون من أجل لقاء "لمّ الشمل" السنوي- تقريبًا مائتان من الأقارب من جنوب غرب جيرسي، من فلادلفيا، من أتلانتيك سيتي، من أماكن بعيدة مثل بوسطن، كانوا يأكلون سمك القنبر المقلي، والدجاج المطبوخ، والدجاج المقلي، والآيس كريم المصنوع بالبيت، ومربى الخوخ، والفطائر، والكعك- يأكلون أطباق العائلة المفضلة ويلعبون البيسبول ويغنّون الأغاني ويستغرقون في الذكريات طوال اليوم. سرْد الحكايا حول النساء وطرائق غزْلهن وعقدهن العقد، وطهوهن دهن الخنزير وخبزهن الأرغفة الضخمة ليأخذها الرجال معهم إلى الحقول، صناعتهن الثياب، سحبهن المياه من البئر، تقديمهن الدواء المستخلَص من الغابات، والأعشاب المنقوعة لعلاج الحصبة، وشراب العسل الأسود والبصل لعلاج السعال الجاف. حكايا حول نساء العائلة اللاتي كن يحفظن الألبان لصناعة الجبن الطري، وحول النساء اللاتي كن يذهبن إلى مدينة فلادلفيا ليعملن مدبرات منازل، أو خياطات، أو معلمات في مدارس، وحول نساء البيت وحسن ضيافتهن الملحوظ. وحكايا حول الرجال في الغابات، يصطادون ويطلقون رصاص الصيد للحصول على اللحوم، وحول الفلاحين يحرثون الحقول، ويقطّعون الأخشاب ويبتنون السياج والأسوار، يبيعون ويشترون، ويذبحون المواشي، وحول الناجحين، السماسرة، يبيعون أطنان القش المعبّئة لأعمال مصانع الخزف في ترينتون، القش المقطوع من مستنقعات الملح التي يمتلكونها على طول الخليج وسواحل النهر. حكايا حول الرجال الذين تركوا الغابات، والمزارع، والمستنقعات، ومستنقعات أشجار الأرز لكي يخدموا- بعضهم كجنود بيض، وبعضهم كجنود سود- في الحرب الأهلية. حكايا حول الرجال الذين ذهبوا إلى البحر ليصبحوا عدّائين في قوى الحصار والذين

ذهبوا إلى فيلادلفيا ليصحبوا متعهدي موتى، أو رسامين، أو حلاقين، أو كهربائيين، أو صانعي سيجار، أو كهّانًا في الكنيسة الأسقفية البروتستنتية الأفريقية- أحدهم ذهب إلى كوبا ليبحر مع تيدي روزفلت، وقليل من الرجال وقعوا في المشاكل، فهربوا، ولم يعودوا أبدًا. حكايا حول أطفال العائلة مثلهم، يلبسون ملابس فقيرة، دون أحذية وأحيانًا دون معاطف، ينامون ليالي الشتاء في غرف يكسوها الصقيع داخل بيوت بسيطة، وفي حر الصيف اللافح، يحملون، ويجرّون القشّ مع الرجال، ولكنهم يتعلمون الأخلاق من آبائهم، ويستقون تعاليم المسيحية في المدرسة على أيدي آباء الكنيسة- هناك حيث تعلموا أيضًا أن يقرءوا وأن يتهجوا- ودائمًا ما يأكلون كل ما يريدون، حتى في تلك الأيام، لحم الخنزير والبطاطس والخبز والدبس وطرائد الصيد، ويشبّون أقوياء وأصحاء وأمناء.

لكن المرء لم يعد يقرر ألا يصبح ملاكمًا بسبب تاريخ عبيد لونسايد المارقين، ووفرة كل شيء في اجتماعات لمّ الشمل[101] في جولدتاون، والتعقيد في أنساب العائلة الأمريكية- أو ألا يصبح معلمًا للكلاسيكيات بسبب تاريخ عبيد لونسايد المارقين، ووفرة كل شيء في اجتماعات لمّ الشمل في جولدتاون، والتعقيد في أنساب العائلة الأمريكية- أكثر مما يقرر المرء ألا يصبح أي شيء آخر بسبب من تلك الأسباب. أمورٌ كثيرة اختفت من حياة العائلة. لونسايد كانت واحدة منها، جولدتاون واحدة أخرى، تعقيد الأنساب أمر ثالث، وكان كولمن سيلك الأمرَ الرابع.

خلال تلك السنوات الخمسين أو ما يزيد، لم يكن كولمن الطفلَ الأول الذي كان قد سمع عن حصاد قشّ الملح لأعمال مصنع الفخار في ترينتون أو أكل السمك المقلي ومربى الخوخ في لقاءات لمّ الشمل بجولدتاون وحين كَبُر كان كل هذا قد اختفي- اختفي، كما اعتادوا أن يقولوا في العائلة: "حتى فُقِد كلُّ أثر قديم." "هو نفسه كان قد فُقد بالنسبة لكل قومه" كان هذا قولاً آخر يقولونه.

عبادةُ السلف- هكذا كان يدرك كولمن الأمر. تبجيل الماضي كان أحد الأمور- عبادة الأسلاف كانت لونًا آخر من الوثنية. الجحيم مرافقٌ لهذا السجن.

تلك الليلة بعد العودة إلى القرية من أورانج الشرقية، جاءت كولمن مكالمةٌ من شقيقه في آزبري بارك عجّلت بتسارع الأمور عما كان قد خطط لها. "إياك أن تقترب منها أبدًا بعد الآن،" حذّره والت، وكان صوتُه يحمل قدرًا من رنين القمع- وقدرًا من التهديد بأنه كان قامعًا- ذاك القمع الذي لم يكن كولمن قد سمعه منذ عهد أبيه. ثمة قوة أخرى في تلك الأسرة، تدفعه الآن بكل قواها نحو الجهة الأخرى. الفعل كان قد ارتُكب عام 1953

[101] - reunions لقاءات سنوية تسافر فيها كل الأسر إلى موطن رأسهم لكي يتلقوا بأقربائهم ويلموا شملهم. (المترجمة)

على يد شاب متهور جسور في قرية جرينويش، على يد شخص بعينه في مكان بعينه في زمن بعينه، على أنه الآن سوف ينتهي به الحال عند الجهة الأخرى إلى الأبد. على أن ذلك، كما اكتشف، كان هو بالضبط الموضوع: الحريةُ خطِرة. الحريةُ شديدة الخطورة. ولا شيء ثمة يستمر وفقًا لشروطك الخاصة مدةً طويلة. "لا تحاولْ أبدًا أن تراها. لا تواصُل. لا مهاتفات. لا شيء. إلى الأبد. أتسمعُني؟" قال والت. "أبدًا. إياكَ أن تجرؤ وتظهر مجددًا حول ذلك البيت بوجهك الأبيض الزنبقي!"

(3)

ماذا تفعلُ مع طفلة لا تستطيعُ القراءة

"لو كان كلينتون قد ضاجعها من المؤخرة لكانت قد أغلقت فمَها. بيل كلينتون ليس الرجل الذي يقولون إنه هو. لو أنه كان قد قلبها على وجهها في المكتب البيضاوي وجامعها من الخلف، ما كان شيء من كل هذا قد حدث."

"حسنًا، هو لم يسيطر عليها أبدًا. كان يلعب في المنطقة الآمنة."

"كما ترى، بمجرد أن دخل البيت الأبيض، لم يعد يسيطر. لم يعد قادرًا. ولم يسيطر كذلك على "ويللي". لهذا السبب غضبتْ منه. منذ أصبح رئيسًا، فقدَ براعة آركانساس[102] في الهيمنة على النساء. حين كان نائبًا عامًا وحاكمًا لولاية صغيرة مغمورة، كان ذلك ممتازًا بالنسبة إليه."

"بالتأكيد. جينيفر فلاورز[103]."

"ماذا حدث في آركانساس؟ إذا سقطتَ وأنت مازلت في آركانساس، فإنك لا تسقط من شاهق."

"فعلا. ومن المتوقع أن تكون رجلَ مؤخرات. هناك تقاليد."

"ولكن حين تدخل البيت الأبيض، فإنك لا تستطيع الهيمنة. وحين لا تستطيع الهيمنة، فسوف تنقلب ضدك الآنسةُ ويللي، والآنسةُ مونيكا ستنقلب ضدك. ولاؤها يُكتسب عن طريق مضاجعتها من المؤخرة. هكذا يجب أن تكون المعاهدة. هذا سوف يدمغكما معًا. ولكن لم تكن هناك معاهدة."

"في الواقع، كانت خائفة. كانت على وشك ألا تقول أي شيء، كما تعلم. لكن ستار[104] أطبق الخناق عليها. أحد عشر رجلاً معها في الغرفة في ذلك الفندق؟ يطرقون على رأسها؟ كانت عُصبةٌ تعصف بها. كانت عصبة اغتصاب نصبها ستار هناك في ذلك الفندق."

"نعم. فعلاً. لكنها كانت تتحدث إلى ليندا تريب[105]."

"أوه، طيب."

---

102 - ولاية أمريكية تقع جنوب الولايات المتحدة Arkansas. (المترجمة)

103 - Gennifer Flowers، ممثلة وعارضة أزياء كانت على علاقة ببيل كلينتون، قبل أن يترأس أمريكا. (المترجمة)

104 - Kenneth Starr, محام أمريكي. وهو المستشار المستقل الذي كان يستجوب كلينتون في قضيته مع ليونسكي. (المترجمة)

105 - Linda Tripp عضو المنتصف في هيئة القضاء التي نظرت قضية كلينتون ومونيكا ليونسكي عامي 1998-1999، وحكمت بخيانة كلينتون الزوجية. (المترجمة)

"كانت تتكلم مع الجميع. هي جزء من تلك الثقافة الغبية. ثرثرة، ثرثرة، ثرثرة. جزء من ذلك الجيل الذي يتفاخر بالضحالة. الأداء المخلص هو كل شيء. الإخلاص والخواء، الخواء المطبق. الإخلاص الذي يذهب في كل اتجاه. الإخلاص الذي هو أسوأ من الزيف، والبراءة التي هي أسوأ من الفساد. الجشع كلّه مخبأ تحت الإخلاص. وتحت اللغة غير المفهومة. اللغة الرائعة التي يتكلمون بها جميعهم- كما يبدو أنهم مؤمنون- حول نقص استحقاقهم الذاتي، في حين أن ما يؤمنون به فعلاً هو جدارتهم بكل شيء. صفاقتهم يسمونها حبًا، وقسوتهم يموّهون عليها بفقدان 'تقدير الذات'. هتلر كان يعاني من نقص تقدير الذات أيضًا. كانت تلك أزمته. إنها خدعةٌ يستعملها أولئك الأطفال. بناء درامات كبرى من أتفه الانفعالات. العلاقة. علاقتي. وضّحْ علاقتي. يفتحون أفواههم فيحبطونني. لغتهم هي محصلة غباء الأربعين عامًا الماضية. الانغلاق. هناك واحد. تلامذتي لا يستطيعون البقاء في ذلك المكان حيث يكون التفكير واجبًا حتميًا. الانغلاق! إنهم يقرّرون عليهم الحكايات السردية التقليدية، ذات المقدمة، والمتن الأوسط، ثم النهاية- كل تجربة، مهما كانت غامضة وملتبسة، مهما كانت معقدة أو أسطورية، لابد أن تؤول في النهاية إلى التطبيع والتقليدية، أكلشيهات مبتذلة. أي تلميذ يقول 'انغلاق' أرسّبه. إنهم يريدون الانغلاق، وها هو انغلاقهم."

"حسنًا، أيًا ما كانت- نرجسيةً، عاهرة صغيرة مستترة، الفتاة اليهودية الأكثر فضائحيةً في تاريخ بفرلي هيلز، فتاة أفسدتها الامتيازات- فقد كان يعرف ذلك سلفًا. كان بوسعه قراءتها. إذا لم يقدر أن يقرأ مونيكا ليونسكي، فكيف بوسعه أن يقرأ صدام حسين؟ لو لم يستطع كلينتون أن يقرأ مونيكا ليونسكي وأن يفوقها حيلةً، فإنه لا يجب أن يكون رئيسًا لأمريكا. ثمة أرضية أصيلة لتهمة الخيانة. كلا، لقد كشف الأمر. كشف الأمرَ كله. لا أظن أن تلك القصة التمويهية قد خدعته. بأنها فاسدة للغاية وبريئة للغاية، بالتأكيد كان يرى كل شيء. البراءة الشديدة كانت هي الفساد- كانت هي فسادها وجنونها ودهاءها. كانت تلك هي قوتها، تلك هي التركيبة وذاك هو المزيج. أنْ ليس لها عمقٌ، تلك كانت فتنتها في نهاية يومه الذي أصبح فيه القائد العام. كثافةُ الضحالة كانت هي الفتنةُ. ناهيك عن ضحالة الكثافة. الحكايات حول طفولتها. المزاعم حول صلابة رأيها: 'انظرْ، كنتُ في الثالثة من عمري، ولكن لدي شخصيتي الخاصة.' أنا واثق من أنه أدرك أن أي شيء قد يفعله ولا يوافق أوهامَها كان سيكون بمثابة ضربة قاسية أخرى لثقتها بنفسها. لكن الذي لم يدركه هو أنه كان يجب أن يجامعها من الخلف. لماذا؟ لكي يُخرسها. سلوك غريب من رئيسنا. لقد كانت مؤخرتها أول شيء أظهرته له. ألصقتها في وجهه. قدمتها له. ولم يفعل شيئًا حيالها. لا أفهم هذا الرجل. لو كان

جامعها من مؤخرتها، أشك في أنها كانت ستتكلم مع ليندا تريب. لأنها كانت لن تود الكلام عن ذلك."

"كانت تود الكلام عن السيجار."

"هذا أمر مختلف. هذا هراء أطفال. كلا، هو لم يعطها قانونيًا شيئًا لم ترغب في الحديث عنه. شيئًا كان يريده ولم ترده هي. تلك كانت الغلطة."

"في المؤخرة بوسعك أن تصنع الولاء."

"لا أدري إن كان ذاك يمكن أن يُسكتها. لا أدري إن كان إسكاتُها ممكنًا إنسانيًا." ليست هي'الحنجرة العميقة'[106]. بل هي 'الفم الكبير'."

"ومع هذا، يجب أن تعترف أن هذه الفتاة قد باحت عن أمريكا أكثر مما باح أيُّ إنسان آخر منذ دوس باسوس[107]. لقد أدخلتْ ترمومترًا في مؤخرة الدولة. إنها أمريكا مونيكا."

"المشكلة أنها كانت تأخذ من كلينتون ما أخذته من كل أولئك الرجال. لابد أنها كانت تريد منه شيئًا آخر. هو الرئيس، وهي إرهابيةُ هوى. كانت تريده أن يكون مختلفًا عن ذلك المعلِّم الذي كانت على علاقة به."

"أجل، لقد أهلكه التهذّب. أمر مثير. ليست قسوته بل رقته وتهذبه. اللعب لم يكن بقوانينه هو بل بقوانينها. هي سيطرت عليه لأنه أراد ذلك. كان يجب أن يحدث ذلك. الأمر خطأ برمّته. هل تدري بمَ كان سيخبرها كينيدي حين تأتي لتسأل عن وظيفة؟ أتعلم بمَ كان سيخبرها نيكسون؟ هاري ترومان، وحتى إيزنهاور ماذا عساه أن يخبرها؟ الجنرال الذي أدار الحرب العالمية الثانية، كان يعرف كيف لا يكون مهذبًا. كانوا سيخبرونها ليس وحسب بأنهم لن يعطوها الوظيفة، بل لن يعطيها أيُّ إنسان أيةَ وظيفة أبدًا طوال حياتها. كانوا سيخبرونها بأنه لن يكون بوسعها أن تنال وظيفة سائقة تاكسي في مدينة هورس سبرنج، نيو ميكسيكو. لا شيء على الإطلاق. كانوا سيخبرونها بأن ممارسة أبيها تخريبية، وبأنه سوف يكون بلا عمل. وبأن أمها لن تعمل أبدًا بعد ذلك، بأن شقيقها لن يعمل مجدداً، بأن لا أحد في عائلتها سوف يتقاضى مليمًا آخر، بما أنها قد وجدت الجسارة لتفتح فمها وتتكلم عن الإحدى عشرة وظيفة العاصفة. إحدى عشرة. أقل حتى من دستة كاملة."

"حَذَرُه، الحذرُ كان سبب هلاكه. لا شك في هذا. لعب اللعبةَ مثل محام."

"لم يُرد أن يمنحها أي دليل. لهذا السبب لم يكن سيأتي."

---

[106] - Deep Throat، عنوان فيلم أمريكي فضائحي شهير. (المترجمة)

[107] - Dos Passos، روائي أمريكي (1896-1970)، اشتهر برواياته حول أمريكا. (المترجمة)

"كان على حق. اللحظةَ التي جاء فيها، كان قد انتهى. كانت لديها الأغراض. جمعت عيّنةً. المَنْي على البدلة الاسموكنج. لو كان قد جامعها في مؤخرتها، لكانت الأمة قد تجنبت هذه الصدمة المروعة."

راحوا يضحكون. كانوا ثلاثة رجال.

"هو بالفعل لم يقدر أن يحمي نفسه مطلقًا. كانت عيناه على الباب. كان لديه جهازه الخاص دائمًا هناك. وهي كانت تركض وراء المكاسب."

"أليس هذا ما تفعله المافيا؟ أن تعطي شخصًا ما شيئًا ما لا يقدر أن يتكلم عنه. وبهذا تناله."

"تورّطُهم في انتهاك متبادل، فيحدث الفساد المتبادل. بكل تأكيد."

"وهكذا فإن مشكلته هي أنه فاسدٌ على نحو غير كافٍ."

"أوه، أجل. بدون شك. وهو ساذجٌ أيضًا."

"هو على العكس بالضبط من التهمة التي وُجّهت إليه. هو يستحق التوبيخ بقدر غير كاف."

"بالطبع. إن كنتَ مشغولاً بسلوك كهذا، لماذا ترسم حدودًا فاصلة هناك؟ أليس هذا اصطناعيًا للغاية؟"

"بمجرد أن رسمتَ الحدَّ الفاصل، فأنت تعلن بكل وضوح أنك خائف. وبمجرد أن تخاف، فقد قُضي عليك. دمارُك ليس أبعد من هاتف مونيكا الجوال."

"هو لم يردِ أن يفقد السيطرة، كما ترى. تذكّرْ أنه قال: لا أودّ أن أتعلّق بكِ، لا أريد أن أدمنك؟ صدمني هذا مثل حقيقة."

"أظن أن ذلك كان حدًا فاصلا."

"لا أظن ذلك. أظن على الأرجح أن الطريقة التي تذكرتْ بها مونيكا الحكايةَ، كانت تبدو مثل حد فاصل، لكنني أظن أن الدافع- كلا، هو لم يرد أن يعْلَقَ بمصيدة جنسيّة. كانت جميلة ولكن يمكن استبدالها."

"كل إنسان يمكن استبداله."

"لكنك لا تعرف كيف كانت خبراته. هو لم يدخل في دائرة المومسات وصائدات الرجال وتلك الأشياء."

"كان كيندي في دائرة المومسات وصائدات الرجال."

"أوه، نعم. تلك هي الخبرةُ الحقيقية. هذا الرجل كلينتون، لديه وحسب مجرد خبرة تلاميذ المدارس."

"لا أعتقد أنه كان تلميذ مدارس حين كان في آركانساس."

"كلا، كان المقاس مضبوطًا في آركانساس. لكن هنا الأمور كلها أصبحت خارج الحسابات. ولابد أن تلك الأمور أفقدته صوابه. رئيس الولايات المتحدة، في يده مفاتيح كل شيء، ولا يستطيع أن يمسّ شيئًا. هذا هو الجحيم. خاصةً مع تلك الزوجة الحلوة الفاضلة[108]."

"هي فاضلةٌ، تظن هذا؟"

"أوه، بالتأكيد."

"هي و"فينس فوستر"[109]؟"

"طيب، هي قد تقع في هوى شخص ما، لكنها أبدًا لا يمكن أن تأتي شيئًا مجنونًا لأنه كان متزوجًا. بوسعها حتى أن تجعل الزنا مضجرًا. هي امرأة ضد الخطيئة حقًّا."

"هل تظن أنها كانت تضاجع فوستر؟"

"نعم. أوه، أجل."

"الآن كل العالم وقع في غرام الزوجة الحلوة الفاضلة. هذا بالضبط ما وقعوا في غرامه."

"عبقرية كلينتون كانت أن أعطي فينس فوستر وظيفة في واشنطن. وضعَه هناك. جعله يؤدي دورَه الشخصي الضئيل في الإدارة. تلك عبقرية. هنا كلينتون تصرف مثل أستاذ كبير في المافيا، وكسب نقطةً على هيلاري."

"أجل. هذا جيد. لكن ليس ذلك ما فعله مع مونيكا. كما ترى، لم يكن لديه سوى فيرنون جوردن[110] ليتحدث معه عن مونيكا. ذاك الذي كان فيما يبدو أفضل شخص للتحدث معه. لكنهم لم يستطيعوا أن يكتشفوا ذلك. لأنهم كانوا يظنون أنها كانت تثرثر فقط مع فتيات وادي كاليفورنيا الغبيات. طيب. ثم ماذا. ولكن تلك هي ليندا تريب، وهذا إياجو، هذا إياجو[111] الخفي، "ستار" الذي كان يعمل في البيت الأبيض-"

عند هذه النقطة نهض كولمن من حيث كان يجلس وتوجّه نحو حرم الجامعة. كان هذا هو كلَّ الكورال الذي استرق كولمن السمعَ إليه وهو جالس على مقعد خشبيّ في الخُضرة، بينما راح يفكر بعمق في الخطوة القادمة التي سوف يقوم بها. لم يتبينّ

---

[108] - التعبير المستخدم في الأصل الأمريكي هو Goody Two-Shoes، وهو عنوان إحدى قصص الأطفال الشهيرة. وحرفيًّا يعني الحلوة ذات الحذاءين، والمعنى هنا يشير إلى الشخص المفرط في الفضيلة المزعجة. (المترجمة)

[109] - Vince Foster، كان نائب الرئيس كلينتون في فترة رئاسته الأولى، وكان مستشار هيلاري كلينتون القانوني وصديقها. موته عام 1993 سُجل على إنه انتحار، لكنه ظل لغزًا أثار الرأي العام فترة طويلة. (المترجمة)

[110] - Vernon Jordan، محام ومدير أعمال أمريكي ملون مواليد 1935، وقائد في حركات حقوق الإنسان. كان يعمل كمرشد لصيق بالرئيس كلينتون، وعُرف كشخصية ذات تأثير في السياسة الأمريكية.

[111] - Iago، أحد شخوص شكسبير في مسرحية "عطيل"، وقد وصفها النقاد بأنها الشخصية الأكثر شرًا في تاريخ الأدب. لأنه كان صديق عطيل الحميم، وخانه بأن أوهمه أن زوجته ديدمونة تخونه مع كاسيو. هنا يلقي المؤلف بظلال ذلك الشر على كينيث ستار الذي خان صداقته مع بيل كلينتون أيضا. (المترجمة)

الأصوات، ولمّا كانت ظهورهم إليه ومقاعدهم حول الجهة الأخرى من الشجرة حيث يجلس، فإنه لم ير وجوههم. كان تخمينُه أنهم ثلاثة شباب، جُددٌ على الكلية منذ كان يعمل هنا، يجلسون على الخضرة ويحتسون مياه الشرب المعبأة أو قهوة منزوعة الكافيين، للتو كانوا عائدين من تدريب التنس في ساحة البلدة، ينالون بعض الراحة معًا، يناقشون أخبار اليوم عن كلينتون قبل أن يتوجهوا إلى بيوتهم حيث زوجاتهم وأطفالهم. بالنسبة إليه بدوا فاهمين ومثقفين جنسيًّا على درجة لم يشهدها في الأساتذة المساعدين الشباب، خصوصًا في أثينا. حديث خشن إلى حد ما، فجٌّ نوعًا ما بالنسبة لحوار أكاديميٍّ مازح. شيء مؤسف أن مثل هؤلاء الرجال لم يكونوا هناك في عهده. ربما كانوا سيشكلون كادر مقاومة مدرّب ضد... كلا، كلا. هناك في حرم الجامعة، حيث لا يكون جميعُ الناس رفقاء تنس، فإن هذا النوع من الطاقة يميل إلى الانغماس في النكات الفاجرة حين لا يتم قمعها ذاتيًّا تمامًا- على الأرجح ألا يكون أولئك الشباب أكثر استعدادًا للمبادرة من بقية أعضاء الكلية حينما يتعلق الحال بالاحتشاد وراءه ونُصرته. على كل حال هو لا يعرفهم ولا يريد. لم يعد يعرف أي أحد. لعامين كاملين الآن، طوال المدة التي كان يكتب فيها *Spooks*، كان قد قطع نفسه نهائيًّا عن الأصدقاء والزملاء والمساعدين مدى الحياة، ولذلك ليس قبل اليوم- قبل الظهر مباشرة، بعد اجتماعه مع نيلسون بريماس الذي انتهى ليس وحسب على نحو سيئ، بل على نحو هائل السوء، حيث أدهش كولمنُ نفسَه بكلمات القدح الذميمة التي قالها- أن تجاسر وحاول الخروج من شارع البلدة، مثلما يفعل الآن، ليتوجه جنوبًا نحو الحيّ الجنوبي، ثم إلى صرح الحرب الأهلية، ثم يرتقي تلَّ حرم الجامعة. وشاءت الظروف أنْ لم يصادف أيَّ أحد يعرفه، اللهم إلا ربما أولئك الذين يدرّسون للمتقاعدين الذين يأتون في يوليو ليقضوا أسبوعين في برنامج نُزُل الطلاب، الذي يضم زياراتٍ للحفلات الموسيقية تانجلوود، وجاليري ستوكبريدك، ومتحف نورمان روكويل.

كانوا هم طلاب الصيف أنفسهم الذين شاهدهم أولاً حينما وصل إلى قمة التل وخرج من خلف مبنى الفلك القديم داخل الباحة الرئيسية المشمسة. لهم مظهرُ زملاء الكلية ذوي الذوق الرديء مثلما يظهر على كتالوج جامعة أثينا. كانوا متوجهين إلى الكافيتريا للغداء، يمشون أزواجًا في خطوات متعرجة عبر شبكة الطرق المشجرة المتقاطعة في الباحة الرئيسية. مواكبُ من اثنين اثنين- أزواجٌ وزوجات معًا، أو اثنان من الأزواج مع اثنتين من الزوجات، أو اثنان من الأرامل، أو اثنتان من المترملات، أو رجل وامرأة من الأرامل السابقين وقد تزوجا- أو هكذا كان كولمن يخمّن أن يكونوا- كانوا ينتظمون في فرق ثنائية بعد لقائهم في فصول نُزل الطلاب الكبار. جميعهم كانوا أنيقين في ملابس

صيفية خفيفة، الكثير من القمصان والبلوزات في ظلال ألوان الباستيل المشرقة، بنطلونات بيضاء أو كاكي فاتح، بعض النقوشات الكاروهات على طراز بروكس برازرس[112] الصيفية. معظم الرجال كانوا يعتمرون قبعات، قبعات في كل الألوان، كثير منها مطرّزٌ عليها لوجو فِرق رياضية. لا كراسي مقعدين، لا مشّايات، لا عُكازات، ولا عصيّ، كان قد رآها. بشرٌ نشطون في مثل عمره، ظاهريًا لا يقلّون عنه صحةً، بعضهم أصغر قليلاً، بعضهم واضح الهرَم، ولكنهم جميعًا يستمتعون بما تُقدمه حريةُ التقاعد لأولئك المحظوظين بما يكفي لكي يتنفسوا بيسر إلى حدّ ما، لكي يتجولوا دون أوجاع إلى حدٍّ ما، لكي يفكروا بصفاء إلى حدٍّ ما. بين هؤلاء حيث كان يجب أن يكون. أن يكون ثاني اثنين على النحو الصحيح. على النحو اللائق.

النحو اللائق. كلمة السر الراهنة لكبح الجماح ضد أي انحراف عن الخط السويّ ومن ثم تجعل الإنسان "مرتاحًا". أن يفعل ليس ما حُكم عليه أن يفعله بل أن يفعل بدلاً من ذلك، ما يُعتبر مناسبًا من قبَل، وحده الله يعلم مَن مِن فلاسفتنا الأخلاقيين. بربارا والترز؟ جويس بروزرس؟ وليم بينيت؟[113] ديت-لاين إن بي سي[114]، لو كان أحدهم موجودًا الآن في هذا المكان كبروفيسور، لكان سوف يدرّس "السلوك اللائق في الدراما الإغريقية الكلاسيكية،" ذلك الكورس الذي كان سينتهي قبل أن يبدأ.

كانوا في طريقهم للغداء، يمرون على مرأى من القاعة الشمالية، البناية الحجرية الجميلة المكسوة بنبات اللبلاب وتغيّر شكلها بفعل الزمن. هنا حيث لأكثر من عقد من الزمان، ظل كولمن سيلك، كعميد للكلية، يشغل فيها المكتبَ المقابل لجناح الرئيس. ثم ذلك المَعْلَم المعماري المميِّز للكلية، برجُ الساعة سداسيّ الأضلاع في القاعة الشمالية، ذو الطرف المدبب عند قمّته يحمل في نهايته عَلمًا- ذاك الذي يُمكن رؤيته من الأسفل في ساحة أثينا ومن الكاتدرائيات الأوروبية الضخمة التي تُرى من عند مداخل الطرق الرئيسية- كان يرفرف عند الظهيرة حيث كان يجلس على مقعد خشبيّ مظلّل بشجرة البلوط المُعمِّرة الشهيرة المترامية في باحة الكلية، يجلس ويحاول بهدوء أن يتأمل مليًّا في حال التكيّف مع الإجبار والقسر. التكيف مع الطغيان. كان عسيرًا، في منتصف عام 1998، حتى بالنسبة له، أن يؤمن بسلطان أمريكا الثابت مع الأعراف السائدة، وهو الشخص الذي يعتبر نفسه قد اِستُبِد به: كبحُ الجماح مازال ضمن ثقافة البلاغة العامة، الإلهامُ مشروطٌ بالسلوك الشخصي، المقاومةُ موجودةٌ في كل مكان من منابر بيع

---

[112] - Brooks Brothers، سلسلة أزياء لملابس الرجال العجائز في أمريكا. تأسست عام 1818. (المترجمة)
[113] - كتّاب وصحفيون ومنظّرون أمريكان معاصرون. (المترجمة)
[114] - مجلة تليفزيونية أسبوعية أمريكية. (المترجمة)

الفضيلة والوعظ المخصية، تلك التي عرّفها هـ.ل.ميكين باسم "البوبوازية"[115]، وما فكر فيها فيليب ويللي باعتبارها "البدائية"، والتي أطلق عليها الأوربيون على نحو غير تاريخيّ اسم البيوريتانية[116] الأمريكية، والتي كان من أمثال رونالد ريجان يسمونها لُبَّ القيم الأمريكية، وحافظ هذا على ذيوع سلطانها بعد تنكرها تحت اسم شيء آخر- مثل كل شيء آخر. كقوةٍ، فإن التكيف مع الأعراف السائدة يتخذ أشكالاً مختلفة، ينتشر وراء آلاف الأقنعة، يتسّلل، إذا ما احتاج إلى ذلك، باعتباره مسئولية مدنية، جلال الأمريكان من أصول أوروبية، حقوق النساء، كبرياء السود، الولاء العِرْقيّ، أو التعاطف مع حساسية اليهود العِرقية. هذا ليس كما لو أن ماركس أو فرويد أو داروين أو ستالين أو هتلر أو ماو لم يحدثوا مطلقًا- هذا كما لو أن سنكلر لويس[117] لم يأت أبدًا. كما لو أن "بابيت"[118] لم تُكتب أبدًا. هذا كما لو أن حتى ذلك المستوى الأوليّ من الفكر الخيالي قد تم قبوله داخل الوعي لكي تحدث الفوضى. قرن من الدمار لا يشبهه شيءُ آخر في هول وقعْه وكارثيته على الجنس البشري- ملايين من الناس العاديين حُكم عليهم بتحمّل الحرمان فوق الحرمان، الوحشية فوق الوحشية، الشرور فوق الشرور، نصف العالم أو أكثر خضعوا للسادية المَرَضية بوصفها سياسة مجتمعية، المجتمعات كافة نُظِّمت وغُلِّلت أعناقُها بسلاسل الخوف من الاضطهاد العنيف، انحطاط حياة الفرد هُندِس على نطاق لم يشهده التاريخ، الأمم تحللت واستُعبِدت بمجرمي الأيديولوجيا الذين سلبوا الشعوبَ كل شيء، الكتلُ السكانية أُفقِدت معنوياتُها وبُتِر فيها الأمل كيلا تكون قادرة على النهوض من الفراش في الصباح بأدنى رغبة في مواجهة النهار... كل المحكّات الشنيعة والمعايير البشعة حدثت مع هذا القرن، وها هم يحتجّون بشدة على فونيا فيرلي. هنا في أمريكا سواءً كانت فونيا فيرلي أو مونيكا لوينسكي! رفاهية حياتهم أقلقها السلوك غير اللائق لكلينتون وسيلك! هذا، في عام 1998، هو الشر الذي عليهم أن يتحملوه. هذا، في عام 1998، هو عذابهم، هو قلقهم، وموتهم الروحي. مصدر يأسهم الأخلاقي الأعظم، أن فونيا عصفت بي وأنني ضاجعتُ فونيا. أنا فاسدُ الأخلاق ليس ببساطة لأنني مرةً قلتُ كلمة "*Spooks*" لفصل من الطلاب البيض- علمًا بأنني قلتُها ليس أثناء

---

[115] - Boobism، مفردة منحوتة غير موجودة في الإنجليزية. مشتقة من المفردة Boob، بمعنى مغفَّل. وإضافة اللاحقة ism تفيد معنى المذهب. وبالتالي تعني الكلمة "مذهب المغفلين". (المترجمة)

[116] - التطهرية. (المترجمة)

[117] - Sinclair Lewis (1885-1951) روائي أمريكي. (المترجمة)

[118] - Babbitt، رواية كتبها سنكلر لويز عام 1922 ينتقد فيها أمريكا وثقافتها وسلوكها المجتمعي، وتنتقد بلاهة الطبقة الوسطى بها. (المترجمة)

درس مراجعة تراث العبودية، أو احتجاج "النمور السود"[119]، أو "المسوخ" لملكوم إكس[120]، أو "علم البيان والبلاغة" لجيمس بلادوين، أو "شعبية الراديو" لأموس وآندي، بل أثناء النداء الروتيني لفحص حضور الطلاب. أنا فاسدٌ أخلاقيًا ليس فقط بسبب...

كل هذا بعد أقل من خمس دقائق من الجلوس على مقعد خشبي والنظر إلى البناية الجميلة التي كان يومًا ما عميدَها.

لكن الخطأ كان قد ارتُكِب. وعاد. لقد ذهب إلى هناك. هو هناك الآن. عاد إلى التل من حيث المكان الذي طردوه إليه، وهكذا كان ازدراؤه لكل الأصدقاء الذين لم يحتشدوا حوله والزملاء الذين لم يعبأوا بمساندته والأعداء الذين اتخذوا موقفًا عدائيًا لكل قيمة تخصصه الوظيفيّ. الرغبة الملحّة في إظهار القسوة المتقلبة لبلاهتهم المستقيمة غمرته بالغضب. عاد إلى التل تحت وطأة عبودية غضبه وكان بوسعه الشعور بكثافة السخط تطيح بكل شعور وتطالبه باتخاذ موقف فوري.

دلفين روكس.

نهضَ وتوجّه إلى مكتبها. راح يفكر، إنه في سنٍّ معينة، من الأفضل لصحة المرء ألا يفعل ما أنا مقدمٌ على فعله. في سنٍّ معينة، يُضفي الاعتدالُ دماثةً على مظهر المرء، إن لم تُضفِه الاستقالةُ، إن لم يُضفه الاستسلامُ الفوري. في سنٍّ معينة، يجب أن يعيش المرء دون الإصغاء كثيرًا لمظالم الماضي أو استدعاء المقاومة في الحاضر عن طريق تجسيد التحدي للتقوى والورع. ولكن للإقلاع عن اللعب في أي شيء عدا الدور الاجتماعي المرسوم، في هذه اللحظة المحددة للتقاعد المحترم- في الواحدة والسبعين، ذاك بالتأكيد هو اللائق، خاصة بالنسبة لكولمن سيلك، بما أنه هو الذي أظهر لأمِّه منذ زمن طويل كلَّ القسوة الظاهرة، الأمر الذي لم يكن لائقًا بحال.

لم يكن فوضويًا ممرورًا مثل والد آيريس المجنون جيتلمان. لم يكن مثيرًا للشغب أو داعيةً لإثارة الفكر على أي مستوى. كما لم يكن رجلاً مجنونًا. كما لم يكن متطرفًا أو ثائرًا، ولا حتى مفكرًا أو فيلسوفًا مفوهًا، إلا إذا كانت الثورية هي الاعتقاد بأن تجاهلَ قيود المجتمع، الشديدة التقييد، تلك المتوارثة بالتقادم، وتكريسَ اختيار المرء الحر المستقل مادام يتماشى مع القانون، هو شيء مختلف عن حقوق الإنسان في صورتها الأساسية- ما لم تكن تلك هي الثورية، حينما تأتي إلى السن، التي ترفض فيها أن تقبل دون شروط ذلك العَقْدَ الذي تم التوقيع عليه لحظة ميلادك.

---

[119] - Black Panther Party، حركة ثورية أفريقية-أمريكية تعمل من أجل دفاع السود عن أنفسهم. نشطت في امريكا في منتصف الستينيات وحتى السبعينيات. (المترجمة)

[120] - Malcolm X، ناشط في حقوق الإنسان أمريكي- أفريقي مسلم (1925-1965)، يعدُّ أحد أعظم الأمريكان الأفارقة في التاريخ بسبب مواقفه في مناهضة العنصرية ضد السود. معروف عربيًا باسم "الحاج مالك الشبّاز. (المترجمة)

للآن كان قد مرّ خلف القاعة الشمالية متجّهًا نحو المضمار الطويل الأخضر في المرج المؤدي إلى مكتب دلفين روكس. لم يكن يعلم ما سوف يقوله لها، أو إن كان سيمسك بخناقها ويجرّها من على مكتبها في منتصف يوم صيفي رائع مثل هذا اليوم، في موسم الخريف الدراسي الذي بعدُ لم يُبرمج لكي يبدأ ويمتد لأسابيع ستة أخرى أو سبعة- ولم يعرف أبدًا ماذا كان ينوي أن يفعل مع دلفين روكس. لأنه، قبل أن يصل إلى أي مكان بالقرب من الممر الحجري الواسع المحيط بقاعة بارتون، لاحظ تقريبًا عند نهاية القاعة الشمالية، على بقعة مظللة من العشب متاخمة لسلم البدروم، خمسةً من حراس بوابات الجامعة مجتمعين، في قمصان الحراسة وبناطيل بنية، يتقاسمون البيتزا في علبة التوصيل الورقية ويضحكون من قلوبهم على نكتة أطلقها أحدهم. المرأةُ الوحيدة بين الخمسة وبتمركزها في بؤرة المشهد ومشاركتها العمال وقت الغداء- كانت هي التي أطلقت النكتة أو الملاحظة الطريفة أو التي فعلت الأمر الذي أضحكهم، والتي حدث أن كانت أعلاهم صوتًا في الضحك- كانت هي فونيا فيرلي.

بدا الرجال في بدايات الثلاثينات تقريبًا. اثنان منهم كانا ملتحيين، وواحد من الاثنين الملتحيين، وكان يعقص شعره في ذيل حصان طويل، رجلٌ عريض على نحو خاص ويشبه الثور. كان الوحيد من بينهم الواقف على قدميه، الأدق أنه كان منكبًا فوق فونيا وهي تجلس على الأرض، ساقاها الطويلتان كانتا ممدودتين أمامها ورأسها مائلا للوراء لحظةَ المرح. شعرها كان مفاجأة لكولمن. كان منسدلاً. على حد خبرة كولمن، كان شعرُها طوال الوقت مشدودًا للوراء بقوة في ربطة مطاطية- وكان ينسدل فقط في الفراش حينما تفك الرباط لكي تسمح له أن ينسدل على كتفيها العاريتين.

مع الأولاد. لابد أن أولئك هم "الأولاد" الذين كانت تحكي له عنهم. واحد منهم كان حديث الطلاق، سابقًا كان ميكانيكي سيارات فاشلاً جعل سيارتها التشيفي تدور، وكان يوصلها إلى بيتها من العمل حينما كانت ترفض تلك اللعينة أن تدور بعد أن يكون قد حاول إصلاحها، وواحد منهم كان يريد أن يأخذها إلى فيلم بورنو في الليالي التي كانت زوجته تعمل فيها في وردية ليل في مصنع صناديق الورق بلاكويل، وأحد الأولاد كان بريئًا للغاية لدرجة أنه لا يعرف ما هو المخنث. حينما كانت تتحدث عن الأولاد، كان كولمن ينصت دون تعليق، غير بادي الكدر مما كانت تقول عنهم، مهما يكن تساؤله حول اهتمامهم بها. ولأنها لم تكن تتوقف عن الحديث عنهم، وبما أنه لم يكن يشجعها بالتساؤل عنهم، فإن الأولاد لم يتركوا انطباعًا لدى كولمن كما كان ينبغي لهم أن يتركوا، لنَقُل، مثلما ترك لِستر فيرلي لديه انطباعًا ضخمًا. بالطبع ربما هي نفسها اختارت أن يكون بالها خاليًا من الهموم فزجّت بنفسها على نحو أقل في أوهامهم، ولكن حتى حينما

كان كولن مجبرًا على اقتراح ذلك، كان ينجح بسهولة في كبح نفسه. كان بوسعها أن تتكلم على نحو عَرضي أو على نحو محدد مع أي أحد كما تشاء، ومهما تكن العواقب، كان عليها تحملها. هي لم تكن ابنته. ولم تكن حتى "فتاته". بل هي كانت- كانت هي.

كان يراقبهم بحيث لا يُرى من المكان المتواري خلف حائط القاعة الشمالية المظلل، ولكن لم يكن يسيرًا عليه أن يمنح ما يرى شعورًا محايدًا متسامحًا. لأنه كان يشاهد الآن ليس وحسب ما كان يشاهده لكي يثبت في رأسه ولا يتغير- ما أحرز أقل القليل في حياتها التي صُنعت من أجلها- ولكن ربما لأن هذا هو السبب في أنها أحرزت أقل القليل؛ من نقطة مراقبته الجيدة التي لا تبعد أكثر من خمسين قدمًا، كان بوسعه أن يلاحظ على نحو مجهري تقريبًا، كيف أنها بدلاً من أن تتخذه هو كولن مثالاً يُحتذى به، اتخذت مثالَها من أكثر النماذج حولها فظاظةً، الأكثر غلظةً، من الرجل الذي كانت آمالُه الإنسانية هي الأحقر والذي توجّهُه الشخصي هو الأكثر ضحالةً. وبصرف النظر عن مدى ذكائك، بما أن فولوبتس تحقق بالفعل كلَّ ما يمكن أن تتخيله، إلا أن احتمالات بعينها لا يمكن تأطيرها أبدًا، ناهيك عما يمكن استنباطه بقوة، كما أن حدسَك الصحيح لسجايا فولوبتس/ك[121] الخاصة هو آخر ما يمكنك أن تفعله... إلى أن يحدث أن تندسّ داخل الظلال يومًا فتراقبها وهي تتدحرج للوراء على ظهرها فوق العشب، ركبتاها مثنيتان ومنفرجتان قليلاً، بينما جبن البيتزا ينزلق من إحدى يديها، والكوكاكولا الدايت تلوح في يدها الأخرى، وتضحك ملء رأسها- على أي شيء؟ على الخنوثة؟- بينما فوق طيفها، ينكفئ شخصٌ فاشل زلق مثل قرد، يكمن فيه كل شيء مناقض لطريقك أنت في الحياة. فيرلي آخر؟ لِس فيرلي آخر؟ ربما ليس من شيء أكثر شؤمًا من ذلك، أن يكون بديل فيرلي مثل ذلك الرجل.

مشهد حرم الجامعة الذي كان يبدو بلا دلالة مميّزة حين كان كولن يراه في أيام الصيف وقت كان عميدًا- كما كان قد فعل من قبل مرات لا حصر لها دون شك- مشهد حرم الجامعة الذي كان في القديم يبدو ليس وحسب غير مؤذٍ، بل كان مغريًا ومبهجًا وأنت تطالعه بينما تتناول طعامك بالخارج في الهواء الطلق في يوم جميل صحو، كان ذلك المشهد الآن مشحونًا بالدلالة. حيث لا نيلسون بريماس ولا محبوبته ليزا ولا حتى التهمة الغامضة التي أُرسلت له دون توقيع عن طريق دلفين روكس كانوا قادرين على إقناعه بأي شيء، ذلك المشهد الذي لم يكن له أية أهمية عظمى بالنسبة إليه على المرج خلف القاعة الشمالية، بدا له في الأخير كأنه الجانب السفلي من عاره وخزْيِه.

---

[121] - your Voluptas. (المترجمة)

ليزا. ليزا وأولئك الأطفال تلاميذُها. الصغيرة كارمن ضئيلةُ الحجم. تلك هي التي قفزت وامضةً في أفكاره، كارمن الضئيلة، عمرها ستة أعوام ولكن، وفق كلمات ليزا، تشبه طفلة أصغر بكثير. "إنها أمورة،" تقول ليزا، "لكنها مثل طفلة رضيعة." وكانت كارمن الحلوة المحبوبة حينما رآها: شاحبةً، لها بشرةٌ بنيّة شاحبة، شعرٌ فاحم السواد في جديلتين محبوكتين، عينان لا تشبهان أيًّا من العيون التي رآها في أي كائن بشريّ، عينان مثل الفحم الأزرق مفعمتان بالحرارة ومشعتان من داخلهما، طفلة رشيقة ذات جسد مرن، مزدانةٌ بأناقة في جينز مزخرف وحذاء خفيف، ترتدي جوربًا ملونًا وتي شيرت أبيض ضيقًا مثل سلك تنظيف الغليون- طفلة مرحة ضئيلة باديةُ اليقظة لكل شيء حولها، وخصوصًا له. "هذه صديقتي كارمن،" قالت ليزا حينما دخلت كارمن الغرفةَ تمشي بهدوء، بوجهها الصغير المغسول مع طلعة النهار ذي الابتسامة الساخرة التي تشي بالشعور بأهمية الذات. "هاللو كارمن،" قال كولمن, "هو فقط يريد أن يرى ماذا نفعل،" أوضحت ليزا لكارمن. "أوكي،" قالت كارمن، بما يكفي من موافقة، على أنها راحت تفحصه بعناية لا تقل عما فحصها به من عناية، مع ابتسامة بادية. "سوف نفعل ما نفعله دائمًا،" قالت ليزا. "حسنٌ،" قالت كارمن، ولكنها الآن كانت تختبره بنسخة أكثر جدية من الابتسام. وحينما استدارت وأمسكت بالحروف البلاستيكية الممغنطة على السبورة الصغيرة المنخفضة وسألتها ليزا أن تبدأ في تحريكها لتصنع كلمة "يريد"، "مبتل"، "يغسل"، و"يمسح"[122]– قالت ليزا: "أخبركِ دائمًا أن عليك أن تبحثي عن الحرف الأول من الكلمة. هيا نرى كيف تقرئين الحروف الأولى. اقرئيها بإصبعك."- استمرت كارمن في تدوير رأسها بانتظام، ثم جسدها كله، لكي تنظر إلى كولمن وتبقى على تواصل معه. "كل شيء يمكن أن يكون مصدر تشويش لذهنها،" قالت ليزا لوالدها بصوت خفيض. "هيا يا آنسة كارمن. هيا يا حبيبتي، هو غير مرئيّ." "ما هو؟" "غير مرئيّ،" كررت ليزا، "ليس بوسعكِ أن تريه." ضحكت كارمن- "بوسعي أن أراه." "هيا. هيا عودي إليّ. الحرف الأول. ها هو ذا الحرف. برافو. ولكن أيضًا عليكِ أن تقرئي بقية الكلمة كذلك. صح؟ الحرف الأول- والآن بقية الكلمة. جيد- 'يغسل.' ما هذه الكلمة؟ أنتِ تعرفينها. تعرفين هذه الكلمة. 'يمسح.' جيد." خمسة وعشرون أسبوعًا في البرنامج منذ اليوم الذي جاء فيه كولمن ليجلس في فصل تقويم عيوب القراءة، وبالرغم من أن كارمن كانت قد أحرزت تقدمًا، إلا أنه لم يكن كبيرًا. يتذكر مدى معاناتها مع ضمير الملكية "ك"[123] في القصة المصوّرة التي كانت تقرأها بصوت عالٍ-

[122] - الكلمات الأربع بالإنجليزية تبدأ بحرف w: want-wet-wash-wipe. (المترجمة)

[123] - your. (المترجمة)

تفرك بأصابعها حول عينيها، وتشد وتعصر صدر بلوزتها، وتلوي ساقيها حول ساقي كرسي الأطفال الذي تجلس عليه، ببطء لكن بإصرار تزحزح جسدها للوراء أكثر فأكثر في مقعدة كرسيها- ومازالت لا تستطيع تمييز ضمير ملكية المخاطَب "ك" your أو حتى تنطقه. "إنه شهر مارس يا أبي. خمسة وعشرون أسبوعًا. وقت طويل للمعاناة مع ‘ your’. وقت طويل للخبْطة بين ‘لا أقدر’ و‘تسلَّقَ’[124]، ولكن في هذا الوقت سوف أركّز مع ‘ك’. من المفترض أن يستغرق البرنامج عشرين أسبوعًا، وينتهي. كانت في حضانة الأطفال- لابد أن تكون قد تعلمت بعض الكلمات الأساسية. ولكن حين عرضتُ عليها قائمةَ الكلمات في سبتمبر الماضي- وكانت وقتها ستدخل الصف الأول- قالت: ‘ما هذه؟’ لم تقدر حتى أن تعرف ما هي تلك الكلمات. لم تستطع تمييز الحروف: h لم تعرفه، j لم تعرفه، وكانت تخلط بين u و c. علك ترى لماذا تخلط بينهما، لأنهما متشابهان بصريًا، ولكن مازال لديها شيء من المشكلة لخمسة وعشرين شهرًا قادمة. الـ m، والـ w. الـ i، والـ l. الـ g، والـ d. كل ذلك مازال يشكل مشكلة بالنسبة لها." "أنتِ مكتئبة بعض الشيء بشأن كارمن،" قال كولن. "حسنًا، كل يوم لمدة نصف ساعة؟ هذا حجم ضخم من التعليم. هذا الكثير من العمل. من المفترض أن تقرأ في البيت، ولكن في البيت هناك شقيقة عمرها ستة عشر عامًا لديها طفل رضيع، والأبوان نسيا أو غير مهتمين. الأبوان مهاجران، الإنجليزية لغتهما الثانية، فلا يجدان الأمر سهلاً ليقرءا لأطفالهما بالإنجليزية، بالرغم من أن كارمن لم تقرأ أبدًا حتى بالإسبانية. وهذا ما أتعامل معه يومًا بعد يوم طوال الوقت. بمجرد أن أرى طفلاً منشغلاً باللعب بكتاب- أعطيه له فورًا، كتاب مثل هذا، به رسومات توضيحية كبيرة ملونة تحت العنوان، وأقول، ‘أرني وجه الكتاب’. بعض الأطفال يعرفون، لكن معظمهم لا يعرف. الطباعة بالنسبة لهم لا تعني أي شيء." ثم أضافت بابتسامة مجهدَة لا تشبه ابتسامة كارمن الجذابة، "وأطفالي فرضيًا لا يعانون من صعوبات التعلم. كارمن لا تنظر للكلمات وأنا أقرأ. لا تعبأ. وهذا هو السبب في أنني أنمحي مع نهاية اليوم. المعلمون الآخرون لديهم مهام عسيرة، أعرف، ولكن في نهاية اليوم مع كارمن بعد كارمن، أعود إلى البيت وأنا مستنزفة عاطفيًا. وقتها لا أقدر على القراءة. لا أقدر حتى أن أمسك التليفون. آكل شيئًا وأدخل الفراش. أنا لا أعزّ وحسب أولئك الأطفال. أنا أحب أولئك الأطفال. ولكن الأمر أسوأ من الاستنزاف- إنه قتل."

اعتدلت فونيا جالسةً على العشب الآن، وازدردت آخر ما تبقى من شرابها بينما أحد الأولاد- الأصغر، الأنحف، والأكثر شبهًا بالصِّبيَة من بينهم، بمظهره المتنافر بلحية الذقن

---

[124] - couldn't- climbed. (المترجمة)

فقط ويرتدي مع زيّه البني، عُصبة رأس كاروهات حمراء وما يشبه بوت كاوبوي عالي الكعب- كان يجمع بقايا الغداء ويدسّها في كيس قمامة، فيما وقف الثلاثة المتبقون متباعدين، بالخارج تحت الشمس المشرقة، كلٌّ منهم يدخن سيجارته الأخيرة قبل العودة لاستئناف العمل.

كانت فونيا وحدها. هادئة الآن. تجلس برصانة ممسكة بعلبة الصودا الفارغة وتفكر بماذا؟ أتفكر في عامين عملت فيهما نادلةً في فلوريدا حين كانت في السادسة والسابعة عشرة، أم في رجال الأعمال المتقاعدين الذين اعتادوا المجيء للعشاء دون زوجاتهم ويسألونها إن كانت تود أن تسكن في شقة لطيفة وترتدي ثيابًا لطيفة وتقود سيارة بنتو جديدة لطيفة ويكون لديها حسابات في محلات بال هاربور وكل محال المجوهرات وصالونات التجميل وفي المقابل لن تفعل أكثر من أن تكون عشيقة لليال قليلة كل أسبوع وبين الحين والحين في إجازة نهاية الأسبوع؟ ليس واحدًا، ولا اثنين، ولا ثلاثة، بل أربعة من مثل تلك العروض فقط في السنة الأولى. وبعد ذلك أتى العرض من رجل كوبيّ. كانت تربح من الرجل مائة دولار خالصة الضرائب. بالنسبة لفتاة نحيلة شقراء بحلمتين كبيرتين وحسناء مثلها بنشاطها وطموحها وجرأتها، في تنورتها القصيرة، وصداريتها، وحذائها الطويل، فإن ألف دولار في الليلة قد تكون لا شيئًا. عام، عامان، ثم تعتزل بعد ذلك لو شاءت- بوسعها أن تتحمل ذلك. "وأنتِ لم تفعلي ذلك؟" سألها كولن. "لا. نعم نعم. ولكن لا تظن أنني لم أفكر في ذلك،" قالت. "كل هراء المطعم، أولئك البغيضون، الطهاة المجانين، قائمة الطعام التي لا أقدر أن أقرأها، الطلبات التي لم أستطع كتابتها، الإبقاء على كل شيء صحيحًا في دماغي- الأمر لم يكن نزهة. ولكن لو لم أستطع القراءة، فإن بوسعي أن أعدَّ الأرقام. أقدر أن أجمع. أقدر أن أطرح. لا أستطيع أن أقرأ الكلمات ولكنني أعرف مَن هو شكسبير. أعرف من هو آينشتين. أعرف مَن انتصر في الحرب الأهلية. لستُ غبية. لست مجرد جاهلة. لدي تمييز جيد. الأرقام شيء آخر. الأرقام، صدقني، أعرفها. لا تظن أنني لم أفكر في أنها ليست فكرة سيئة على إطلاقها." لكن كولن لم يكن في حاجة إلى هذا الإيضاح. ليس فقط لأنه كان يظن أنها في السابعة عشرة كانت تفكر في أن كونها مومسًا ليست فكرة جيدة، بل لأنه فكر أنها كانت تفكر أن لديها ما هو أكثر من أن تكون مجرد أداة تسلية.

"ماذا تفعل مع طفلة لا تقدر على القراءة؟" كانت ليزا قد سألته في يأس. "إنه مفتاح كل شيء، لذا عليك أن تفعل شيئًا، لكن ذلك الفعل يستنفد كلَّ قواي ويحرقني. عامك الثاني من المفترض أن يكون أفضل. وعامك الثالث أفضل من هذا. وهذا عامي الرابع." "وهو ليس أفضل؟" سألها. "هو قاس. قاس جدًا. كل عام يكون أكثر صعوبة. ولكن لو

كان التدريس الخاص عن طريق معلّم مخصوص لكل طفل لا ينفع، ماذا كنت تفعل؟" حسنًا، ما فعله مع الطفلة التي لا تستطيع القراءة هو أن جعلها عشيقته. أما ما فعله معها فيرلي فهو أن جعلها كيسَ ملاكمته. الذي فعله الرجلُ الكوبيّ معها هو أن جعلها عاهرته، أو واحدةً منهن- هكذا كان كولن يعتقد في معظم الأحيان. ولأي مدة ظلّت عاهرته؟ هل هذا ما كانت تفكر فيه فونيا قبل أن تنهض من العشب لتعود إلى القاعة الشمالية لتُنهي تنظيفَ الدهاليز؟ هل كانت تفكر في المدة التي استغرقها كلُّ هذا؟ الأمُّ، زوجُ الأم، الهروبُ من زوج الأم، الأماكنُ في الجنوب، الأماكنُ في الشمال، الرجالُ، الضربُ، الوظائفُ، الزواجُ، المزرعةُ، القطيعُ، الإفلاسُ، الطفلان، الطفلُ والطفلةُ الميتان. لا عجبَ في أن يكون المكوث تحت الشمس نصف ساعة تشارك الأولاد في بيتزا هو الفردوس بالنسبة إليها.

"هذا صديقي كولن يا فونيا. جاء فقط ليشاهد."[125]

"أوكي،" قالت فونيا. كانت ترتدي بلوزة من القطيفة الخضراء، وجوربًا أبيض جميلاً، وحذاء أسود لامعًا، وليست في مرح كارمن- رصين، متكلّفة، واثقة من نفسها إلى حد ما، طفلة قوقازية من الطبقة الوسطى بشعر أشقر طويل معقوص في مشبك شعر على شكل فراشة، وعكس كارمن، لا تُظهر أيَّ اهتمام به، لا فضول نحوه، بمجرد أن تم تقديمه لها. "هاللو،" غمغمت بخنوع، ثم عادت طائعة إلى تحريك الحروف الممغنطة، تجمع معًا حروف "w"، والـ"t"، والـ"n"، والـ"s"، وفي مكان آخر من اللوحة، تجمع معًا كل حروف العلّة.

"استخدمي اليدين،" أخبرتها ليزا، وكانت تفعل ما يُطلب منها.

"ما هذه الحروف؟" سألت ليزا.

وقرأتها فونيا. نطقت كلَّ الحروف على النحو الصحيح.

"الآن سنأخذ شيئًا تعرفه،" قالت ليزا لأبيها. "جمّعي كلمة 'ليس' يا فونيا."

جمّعتها فونيا. صنعت فونيا كلمة "ليس not".

"عمل جيد. والآن شيءٌ لا تعرفه. اصنعي "كَسَبَ."

تنظر إلى الحروف طويلاً وتجتهد، ولكن لا شيء يحدث. لا تصنع فونيا شيئًا. لا تفعل شيئًا. تنتظر. تنتظر الشيءَ التالي ليحدث. تبقى طيلةَ حياتها منتظرةً الشيء التالي ليحدث. هذا ما يحدث دائمًا.

---

[125] - هنا سيبدأ الكاتب في لعبة التداعي الحر للأفكار واستبدال الأسماء، فيتخيل فونيا حبيبته مكان الطفلة كارمن التي تعاني من عسر القراءة. (المترجمة)

"أريدك أن تغيري الجزءَ الأول يا آنسة فونيا. هيا. أنت تعرفين هذا. ما هو الجزء الأول من 'كسَبَ got'؟"

"G." أزاحت بعيدًا الـ n، في بداية كلمة not، واستبدلت بها g.

"جيد. والآن اصنعي 'إناء'[126]."

تصنعها. Pot.

"جيد. والآن اقرئيها بإصبعك."

فونيا تحرك إصبعها تحت كل حرف وهي تنطق صوته بتمييز. بي- أوه- تي."

"إنها سريعة،" يقول كولمن.

"نعم، ولكن من المفترض أن يكون ذلك سريعًا."

ثمة ثلاثة أطفال آخرون مع ثلاثة من معلمي تقويم القراءة في الأنحاء الأخرى من الغرفة الواسعة، ولذلك كان كولمن يسمع ما حوله من أصوات صغيرة تقرأ بصوت عال، يعلون ويهبطون في نمطهم الطفولي ذاته بصرف النظر عن المحتوى، وكان يسمع المعلمين الآخرين يقولون: "أنت تعرف هذه- u، مثل u، u -umbrella-" و"تعرف هذه أيضًا- ing، تعرف ing-" و"أنتِ تعرفين I- جيد، عمل جيد،" وحينما يلتفت حوله، كان يرى كل الأطفال الآخرين الذين يتعلمون كأنهم فونيا كذلك. ثمة لوحات تحمل حروف الهجاء معلّقة في كل مكان، مع صور لأشياء توضح كل حرف، وثمة حروف بلاستيكية يمكن التقاطها باليد، في ألوان مختلفة لكي تساعد على تعلم اللفظ الصوتي للكلمات والحروف، ومكدس في كل مكان كتب مبسطة تحكي قصصًا خفيفة: "يوم الجمعة ذهبنا إلى الشاطئ. يوم السبت ذهبنا إلى المطار." "'أيها الدُّبُّ الأبُ، هل معك الدبُّ الطفل؟' 'لا،' قال الدبُّ الأب." "في الصباح نبح كلبٌ على سارا. فخافت. 'حاولي أن تكوني شجاعة أيتها البنت سارا،' قالت ماما." وعطفًا على كل هذه الكتب وكل تلك الحكايا وكل تلك الـ"سارات[127]" وكل تلك الكلاب وكل تلك الدببة وكل تلك الشواطئ، كان هناك معلمون أربعة، معلمون أربعة كلهم من أجل فونيا، ومازالوا غير قادرين على تعليمها كيف تقرأ بما يناسب مستواها.

"إنها في الصف الأول،" ليزا تخبر والدها. "نأمل لو أننا نحن الأربعة مجتمعون عملنا معها طوال النهار كلَّ يوم، مع نهاية العام سيكون بوسعنا أن نجعل أداءها أسرع. ولكن من العسير أن نجعلها تتحفز وحدها."

"طفلةٌ صغيرة جميلة،" يقول كولمن.

---

[126] - Pot

[127] - جمع "سارا". (المترجمة)

"نعم، هل تراها جميلة؟ هل تحب هذا النموذج؟ هل هذا نموذجك يا بابا؟ نموذج البنت الجميلة، بطيئة القراءة، ذات الشعر الأشقر الطويل والإرادة المكسورة ومشبك الشعر على شكل فراشة؟"

"لم أقل ذلك."

"لم يكن عليك أن تقول. كنتُ أراكَ معها،" وراحت تشير إلى أنحاء الغرفة حيث كانت الفونيات[128] الأربع كلهن يجلسن بهدوء أمام اللوحة، يشكلن ثم يعدن تشكيل الحروف البلاستيكية الملونة على هيئة كلمات: "not"، "got"، "pot". "في المرة الأولى التي تهجّت فيها كلمة pot" بإصبعها، ما كان بوسعك أن ترفع عينيك عنها. حسنًا، إذا أدهشك هذا، فكان ينبغي أن تعود إلى سبتمبر الماضي. في سبتمبر الماضي كانت تخطئ في تهجّي اسمها الأول واسم العائلة. كانت آتية لتوّها من حضانة الأطفال وكانت الكلمة الوحيدة في قائمة الكلمات التي بوسعها أن تميزها هي كلمة ‘not’. لم يكن بوسعها فهم ورقة مطبوعة بها رسالة. لم تكن تعرف أن الصفحة اليسرى تسبق اليمنى. لم تكن تعرف ‘جولدلوكز والدببة الثلاثة.’ ‘هل تعرفين جولدلوكز والدببة الثلاثة يا فونيا؟’ ‘لا’. ما كان يعني أن خبرتها بالحضانة- لأن ذلك ما كانت تتعلمه هناك، قصص الجنيّات، وأغنيات أطفال الحضانة- لم تكن جيدة. اليوم أصبحت تعرف ‘الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء’، ولكن ماذا بعد؟ انسَ الأمر. أوه، لو كنتَ قد قابلتَ فونيا في سبتمبر الماضي، للتو آتية من إخفاق الحضانة، أنا واثقة يا بابا أنها كانت ستدفعك للجنون."

ماذا تفعل مع طفلة لا تستطيعُ القراءة؟ الطفلة التي تضاجع رجلاً في شاحنة بينما، بالأعلى، في شقة صغيرة فوق الجراج، طفلاها الصغيران من المفترض أنهما نائمان جوار سخان يحترق- طفلان متروكان دون رعاية، نار وكيروسين، بينما هي مع هذا الرجل في الشاحنة. الطفلة التي ظلت في حال هروب منذ كانت في الرابعة عشرة، تلوذ بالفرار طوال الوقت من حياتها غير القابلة للتفسير. الطفلة التي تزوجت مقاتلاً قديمًا مجنونًا بالمعارك قد يخنقها إن هي تقلّبت في السرير أثناء نومها، من أجل الاستقرار والأمان الذي سيمنحه لها. الطفلة المخادعة، الطفلة التي تختبئ وراء الأكاذيب، الطفلة التي لا تستطيع القراءة وتستطيع القراءة، التي تزعم أنها لا تقدر أن تقرأ، تأخذ على عاتقها عن طيب خاطر هذه النقيصة المعيبة لكي تُجسد من نفسها عضواً في فئة مجتمعية لا تنتمي إليها ولا تحتاج أن تنتمي إليها، ولكنها، ولسبب خاطئ، كانت تريده أن يعتقد أنها تنتمي إليها. تريد لنفسها أن تصدق أنها تنتمي إليها. الطفلة التي أصبح

[128] - جمع "فونيا"- كما هو واضح يحاول المؤلف أن يجعل كولمن يرى فونيا حبيبته في كل طفلة متعثرة في القراءة. (المترجمة)

وجودُها هذيانًا في السابعة ثم فجيعةً في الرابعة عشرة ثم كارثةً بعد ذلك، التي مهنتُها ليست أن تكون نادلةً ولا مومسًا ولا فلاحةً ولا حارسة بناية بل ابنةً لزوج أم داعر وابنة غير محمية من نسل أمٍّ استحواذية أنانية، الطفلة التي فقدت الثقة في كل الناس، ترى الخديعة في كل الناس، ولكنها غير محصنة ضد أي شيء، الطفلة التي مقدرتها على الصمود دون خوف ضخمةٌ ولكن حصادها من الحياة ضئيل، الطفلة المحبوبة سيئة الحظ المنذورة للمعارك، الطفلة التي حدث لها كل ما يمكن أن يحدث للناس من أشياء تعافها النفسُ والتي حظها العسر لا يُظهر أية بوادر للتغيير على أنها الوحيدة التي أثارته وأيقظته مثلما لم تفعل امرأة أخرى منذ ستينا، هي أقل البشر بغضًا من بين مَنْ عرف، المرأة التي يشعر أنه منجذبٌ إليها لأن حياته كانت تتوجه في الصوب المعاكس لحياتها لأمد طويل- بسبب كل ما فقده بسبب مشيه في الصوب المعاكس- وبسبب أن الشعور الداخليّ بالصواب الذي سيطر عليه في السابق هو بالضبط ما يدفعه الآن صوبها، الصديقة التي لا أحد يشبهها التي معها يتقاسم توحّدًا روحيًا لا يقل عن التوحّد الجسدي، المرأةُ التي هي أي شيء إلا أن تكون دُميةً يرمي فوقها جسدَه مرتين في الأسبوع من أجل أن يحفظ طبيعته الحيوانية، المرأةُ التي هي بالنسبة إليه رفيقة حياة أكثر من أي إنسان فوق الأرض.

وماذا تفعل مع طفلة كهذه؟ تبحث عن تليفون عام بأسرع ما يمكنك لكي تعالج غلطتك الحمقاء.

هو يعتقد أنها كانت تفكر في طولِ الزمن الذي استغرق كل هذا، الأمّ، زوج الأم، الفرار من زوج الأم، الأماكن في الجنوب، الأماكن في الشمال، الرجال، الضرب، الوظائف، الزواج، المزرعة، قطيع الماشية، الإفلاس، الطفلان، الطفلان الميتان... وربما كانت تفكر. ربما كانت تفكر في ذلك حتى وهي وحيدة الآن على العشب بينما الأولاد يدخنون وينظفون بقايا الغداء، هي تظن أنها تفكر في الغربان. هي تفكر في الغربان معظم الوقت. الغربان في كل مكان. الغربان تسكن الغابات غير البعيدة عن السرير حيث تنام، إنها هناك في المرج حيث تخرج لتحرك السياج للأبقار، واليوم ها هي الغربان تنعق في كل أنحاء حرم الجامعة، ولذلك بدلاً من التفكير فيما كانت تظن هي أن كولمن يظن أنها تفكر فيه، كانت تفكر في الغراب الذي اعتاد أن يتسكع حول متجر سيرلي فولز، حينما، بعد اشتعال النيران وقبل انتقالها للمزرعة، حينما أخذت الغرفة المفروشة هناك في محاولة للاختباء من فيرلي، كان الغرابُ يحوّم حول موقف السيارات بين مكتب البريد والمتجر، الغراب الذي استأنسه أحدهم لأنه هُجِرِ ولأن أمه قُتلت- لم

تعرف أبدًا ما الذي جعله يتيمًا. والآن ها هو قد هُجر للمرة الثانية وتُرِك لكي يتسكع في موقف السيارات، حيث معظم الناس يأتون ويمضون طوال النهار. هذا الغراب خلق العديد من المشاكل في سيرلي فولز لأنه شرع في إلقاء الأشياء على الناس الذين يدخلون مكتب البريد، وراح يطارد مشابك الشعر في جدائل البنات الصغيرات وهكذا- كما تفعل الغربان عادةً لأن طبيعة تلك الكائنات تميل إلى جمع الأشياء اللامعة، قطع الزجاج والأشياء من هذا القبيل- ولذلك قررت مديرة مكتب البريد، بعد تشاورها مع بعض سكان البلدة من المهتمين، أن تأخذه إلى أودوبون سوسيتي، حيث وُضع في قفص، وبين الحين والحين فقط يُسمح له بالطيران خارجه، لا يُمكن أن يُطلق سراحه لأن الطائر البريّ الذي يهوى التسكع في موقف السيارات ببساطة لا يناسبه ذلك. ذلك هو صوت الغراب. تتذكره طوال الساعات، نهارًا وليلاً، في صحوها، ومنامها، وفي أرقها. كان له صوت غريب. ليس يشبه أصوات الغربان الأخرى ربما لأنه لم يُنشّأ مع غربان أخرى. بالضبط بعد الحريق، اعتدتُ أن أذهب لأزور الغراب في أودوبون سوسيتي، وحينما كانت تنتهي الزيارة وأهمُّ بالرحيل، كان يدعوني بصوته لكي أعود. أجل، في القفص، ولكن كونه هناك كان أفضل السبل. ثمة طيور أخرى في الأقفاص كان الناس قد أحضروها لأنها لم تعد تقدر أن تعيش في البرية. كانت هناك بومتان صغيرتان. مرقطتان مثل الدُّمَى. اعتدتُ أن أزور البومتين أيضًا. وفرخ صقر له صرخة لاذعة. طيور لطيفة. ثم انتقلتُ إلى هنا، ووحيدةً مثلما كنتُ، بدأت أعرف الغربان كما لم أعرفها من قبل. خفة ظلهم. هل كان هذا هو الحال؟ ربما لم تكن خفة الظل. ولكن بالنسبة لي بدا الأمر كذلك. الطريقة التي يتحرك الغربانُ بها. الطريقة التي بها يرفعون رءوسهم. الطريقة التي يصرخون بها في وجهي إذا لم أطعمهم. فونيا، اذهبي واحضري الخبز. يتبخترون في مشيتهم. يتسيّدون الطيور الأخرى من حولهم. يوم السبت، بعدما أتحدث مع الصقر ذي الذيل الأحمر في كامبرلاند، أعود إلى البيت وأستمع إلى هذين الغرابين في البستان. كنت أعلم أن شيئًا قد حدث. صوت نداء الغراب هذا. كنتُ واثقة أنني رأيتُ ثلاثة طيور- غرابان ينعقان ويصرخان في وجه هذا الصقر. ربما كان ذلك الذي كنت أتحدث إليه قبل دقائق قليلة. يطاردانه. من الواضح أن ذا الذيل الأحمر لن ينتهي به الأمر على خير. ولكن الاهتمام بصقر؟ هل هذه فكرة جيدة؟ قد ينتصر عليهما مع الغربان الأخرى، ولكن لا أعرف إن كان ذلك بمقدوري. هل بوسع اثنين من الغربان أن يهزما صقرًا؟ الأوغاد الشرسون. عدوانيون غالبًا. تلك صفات مناسبة للصقور. شاهدتُ مرةً صورة- غراب يعتلي نسرًا وينعق فيه. والنسر لا يبالي. لم يره حتى. لكن للغراب شخصية. الطريقة التي يطير بها. ليسوا في جمال الغربان السود حينما تطير الغربان

السود وتؤدي ذلك الأكروبات الجميل الرائع. لديها أجسام ضخمة تشبه أجسام الطائرات تقلع بها من الأرض ولذا لا تحتاج بالضرورة إلى ركض البدايات. خطوات قليلة تفي بالغرض. شاهدتُ ذلك. أكثر من مجهود ضخم. تؤدي الطيور ذلك المجهود الضخم فتحلق في الأعلى. حينما كنتُ معتادة على أن آخذ الطفلين للأكل في مطعم فريندلي. قبل سنوات أربع. كان هناك ملايين منها. مطعم فريندلي شرق الشارع الرئيسي في بلاكويل. في نهاية الأصيل. قبل الظلام. ملايين منها كانت تقبع في موقف السيارات. اجتماع الغربان في فريندلي. ما الذي بين الغربان ومواقف السيارات؟ ما الحكاية؟ لن نعرف أبدًا ما الحكاية. طيور أخرى من النوع الكسول جوار الغربان. أجل، أبو زريق الأزرق له وثبة مرعبة. مشية البهلوان. هذا جيد. لكن الغربان بوسعها أن تؤدي الوثبة وقوة الدفع الصدرية. إنها أكثر تأثيرًا. تدير رءوسها من اليسار إلى اليمين، بينما أعناقها تغطي مفصل العنق. أوه، إنها خطِرة. إنها الأروع. النعيق. النعيق الصاخب. أنصتي. أنصتي وحسب. أوه، كم أحب ذلك. هكذا تبقى على تواصل مع بعضها البعض. النداء المسعور يعني الخطر. كم أحب ذلك. اندفعي للخارج إذن. ربما تكون الخامسة صباحًا، لا أعبأ. الصيحة المسعورة، انطلقي للخارج، وبوسعك أن تتوقعي أن يبدأ العرض في أي دقيقة. الصيحات الأخرى، بوسعي أن أقول ماذا تعني. ربما لا شيء. أحيانًا تكون نداءات خاطفة. أحيانًا تأتي من الحَلْق. الغربان لا تريد أن يختلط صوتها مع صيحات الغربان السود. الغربان[129] ترافق الغربان، والغربان السود[130] ترافق الغربان السود. من الرائع أنها أبدًا لا تتلخبط. لا يحدث هذا على حد علمي على كل حال. كل من يقول إنها طيور قبيحة تقتات على القمامة- ومعظم الناس يقولون ذلك- هو أحمق. أظن أنها جميلة. أوه، أجل. جميلة جدًّا. ملمسها المصقول. ظلالها. سوداء جدًّا جدًّا حتى أن بوسعك أن ترى اللون الأرجواني فيها. رءوسها. في بداية مناقيرها التي تنبثق من الشعر، ذلك الشارب، تلك الشعيرات التي تخرج للأمام من الريش. من المحتمل أن يكون لها اسم. لكن الاسم لا يهم. أبدًا لا يهم. كل ما يهم هو أنها هناك. ولا أحد يعلم لماذا. إنها مثل كل شيء آخر- هناك وحسب. كل عيونها سوداء. كل واحد له عينان سوداوان. مخالب سوداء. ما الذي يشبه الطيران؟ الغربان السود تحلِّق، بينما الغربان تبدو وحسب أنها تذهب إلى حيث هي ذاهبة. إنها لا تطير أبدع مما أقدر أن أخمن. دع الغربان السود تحلق. دع الغربان السود تؤدي لعبة التحليق. دع الغربان

[129] - Crows
[130] - Ravens

السود[131] تُراكِم الأميالَ وتكسر الأرقامَ القياسية وتنال الجوائز. لكن الغربان[132] سوف تنتقل من مكان إلى مكان. تسمع الغربان أن لديّ خبزاً، فتأتي إلى هنا. تسمع الغربان أن شخصاً في الطريق على بعد ميلين لديه خبز، وسرعان ما ستكون هناك في الحال. حينما ألقي إليها فتات الخبز، سوف يكون هناك دائمًا واحد هو الحارس وآخر بوسعك سماعه من على البعد، سوف يشيران للأمام وللخلف لكي يخبروا الجميع بالذي يحدث. من الصعب تصديق أن كل واحد يحذّر الباقين، لكن هذا هو ما يبدو أنه يحدث. ثمة قصة رائعة لا أنساها أبدًا أخبرتني بها صديقة حينما كنت طفلة كانت أمها قد قصّتها عليها. كانت هناك غربان ذكية جدًا لدرجة أنها اكتشفت كيف تأخذ ثمرات الجوز تلك التي لم تقدر على كسر قشرتها الصلبة إلى الطريق العام، تقف تراقب الأضواء، أضواء إشارات المرور، وكان بوسعها أن تعرف متى سوف تتحرك السيارات- كانت من الذكاء بحيث تدرك ما الذي يحدث مع الأضواء- وكانت تضع ثمرات الجوز بالضبط أمام الإطارات حتى تكسرها بمجرد أن يتحول الضوء إلى الأخضر وتتحرك السيارات. صدقتُ ذلك وقتئذ. كنت أصدق كل شيء وقتئذ. والآن بعدما عرفتها جيداً، عاودت تصديق ذلك مجدداً. أنا والغربان. تلك وثيقة التصديق. ابقَ لصيقًا للغربان وسوف يحدث لك ذلك. أسمعها، وكل غراب منها يسوّي ريش الآخر بمنقاره. لم أر ذلك من قبل. كنت أراها متقاربة من بعضها وأتساءل ماذا كانت تفعل معًا. لكنني لم أرها تفعل ذلك بالفعل أبدًا. ولا أراها أبدًا تسوّي ريشَها الخاص بمناقيرها. ولكن بعد ذلك، ها أنا ذا مجاورة للمأوى، وليس داخله. كنت أتمنى أن أكون داخله. بل كنت أفضل أن أكون واحدًا من تلك الغربان. أوه، نعم، بالقطع. ليس من شك في ذلك. أُفضّل كثيرًا أن أكون غرابًا. ليس على الغربان أن تقلق على التحرك بعيدًا عن أي إنسان أو أي شيء. إنها فقط تتحرك. ليس عليها أن توضّب حقائبها. فقط تذهب. حينما يحطمها شيء، ينتهي الأمر، نهائيًا. حينما يتمزق جناح، ينتهي الأمر. حينما تنكسر ساقها، ينتهي الأمر. أي شيء أفضل من ذلك؟ ربما سأعود يومًا ما وأكون واحدة من الغربان. ماذا كنتُ فيما قبل أن آتي إلى العالم؟ كنتُ غرابًا! أجل! كنتُ غرابًا! وكنتُ سأقول: "يا ربّ، أتمنى أن أكون تلك البنت ذات الحلمتين الكبيرتين التي هناك،" وكنت سأحقق أمنيتي، والآن، يا يسوع، أود أن أعود إلى حالة الغراب. حالتي الغُرابية. اسم جيد للغراب. الحالة. كنتُ ألاحظ كل شيء وأنا طفلة. كنت أحب الطيور. كنتُ دائمًا ملتصقة بالغربان والصقور والبوم. مازلتُ أرى البوم في الليل، وأنا عائدة إلى بيتي من بيت كولمن. لم أكن أقاوم

---

131 - Ravens

132 - Crows

رغبتي في النزول من السيارة لأتحدث إليها. لم يكن يجب عليّ أن أفعل ذلك. كان يجب أن أمضي لبيتي مباشرة قبل أن يقتلني الوغد لستر. فيمَ تفكر الغربان حينما تسمع الطيورَ الأخرى تغني؟ تفكر في أنها غبية. هذا هو. النعيق. ذاك هو الشيء الوحيد. ليس جيدًا لطائر يتبختر في مشيته أن يغني أغنية عذبة صغيرة. كلا، انعقْ برأسك. تلك هي الوثيقة اللعينة- انعقْ برأسك ولا تخش شيئًا وفي طريقك كُلْ كلَّ شيء ميت. سوف تجد الكثير من صرعى الطريق إذا ما أردتَ أن تطير هكذا. لا تعبأ بجرِّها بل كُلْها مباشرة في الطريق. انتظرْ حتى اللحظة الأخيرة حينما تأتي السيارة وسوف تنهض الفريسة وتمشي ولكن ليس بعيدًا لأنها لا تقدر أن تقفز بعد الآن فانقضّ عليها وهي تمر. كُلْها في منتصف الطريق. أتساءلُ ماذا يحدث حينما يفسد اللحم. ربما لا يحدث ذلك بالنسبة إليها. ربما هذا هو معنى أنها تقتات على القمامة. هي والنسور- تلك وظيفتها. إنها تعتني بكل تلك الأشياء من مخلفات الغابات ومخلفات الطرق التي لا نحتاج إليها. ليس من غراب يجوع في هذا العالم. لن تعدم أن تجد وجبتها. إذا تعفّن، لن ترى الغراب يهرب بعيدًا. إذا كان هناك موت، فالغربان تأتي. شيء ما مات، تأتي الغربان وتأخذه. أحب ذلك كثيرًا. تأكل ذلك الراكون لا يهم كيف يكون. تنتظر تلك الشاحنة حتى تتحطم فتحوّم وتلبث هناك تمتص تلك الأشلاء الطيبة ثم ترتفع تلك الهياكل السوداء الجميلة عن الأرض. بالتأكيد، لديها سلوكاتها الغريبة. مثل كل شيء آخر. رأيتها هناك في تلك الأشجار، تتجمع جميعها معًا، تتكلم مع بعضها البعض، ويحدث شيء ما. ولكن ما هو، لن أعرف أبدًا. ثمة ترتيب منظّم هناك. ولكن ليس لديّ أدنى فكرة إن كانت الغربان نفسها تعرف ما هو. يمكن أن يكون بلا معنى مثل كل شيء آخر. ولكنني أراهن أنه ليس بلا معنى، بل يحمل مليون معنى أكثر من أي شيء آخر هنا بالأسفل. أليس كذلك؟ أليس هو مثل الهراء الذي قد يبدو شيئًا ذا معنى ولكنه ليس كذلك؟ ربما كانت تحولات جينية لا إرادية. تصوروا لو كانت الغربان مسئولة. هل كان الحال في الدنيا سيبدو كما يبدو عليه الآن؟ الشيء المميز فيها هي أنها كائنات شديدة العملية. في طيرانها. في كلامها. حتى في لونها. كل ذلك السواد. لا شيء سوى السواد. ربما كنتُ واحدة منها وربما لم أكن. أظن أنني أحيانًا أؤمن أنني بالفعل واحدة منها. أجل، ظللتُ مؤمنة بذلك لشهور الآن. ولمَ لا؟ ثمة رجال محبوسون في أجساد نساء ونساء محبوسات في أجساد رجال، ولهذا لماذا لا أكون غرابًا محبوسًا في جسدي؟ نعم، وأين الطبيب الذي سوف يفعل ما يفعل الأطباء ليُخرجني من الجسد؟ إلى أين أذهب لأعمل الجراحة التي سوف تجعلني أنا؟ غراب؟ مع مَن أتكلم؟ إلى أين أذهب وماذا أفعل وكيف بحق الجحيم أتحرر وأخرج؟

أنا غراب. أعرفُ ذلك. أعرفُ ذلك!

في مبنى اتحاد الطلاب، في منتصف طريق هبوط التلّ من القاعة الشمالية، وجد كولمن كابينة تليفون عام في الدهليز المؤدي إلى الكافيتريا حيث كان الطلاب الكبار النزلاء يتناولون غداءهم. كان بوسعه أن يرى ما بالداخل، عبر البوابة المزدوجة، على طاولات الطعام الطويلة أزواجًا مندمجة يأكلون معًا بسعادة.

لم يكن 'جيف' بالبيت- كانت حوالي العاشرة صباحًا في لوس أنجلوس، وسمع كولمن جهاز الأنسر ماشين، ولذا بحث في نوتة تليفوناته عن رقم المكتب في الجامعة، وهو يدعو السماء ألا يكون 'جيف' قد خرج لفصوله بعد. ما على الأب أن يقوله لابنه الأكبر لابد أن يُقال فورًا. المرة الأخيرة التي هاتف فيها 'جيف' كانت ليخبره أن آيريس قد ماتت. "لقد قتلوها. احتشدوا ليقتلوني فقتلوها." هذا ما كان يقوله لكلِّ الناس، وليس فقط في الأربع وعشرين ساعة الأولى وحسب. كان ذلك بداية الانكسار: كل شيء كان مُصادَرًا بالغضب. ولكن هذا هو نهاية الانكسار. النهاية- لديه خبرٌ لابنه. ولنفسه أيضًا. نهايةُ طرده من حياته السابقة. أن يكون قانعًا بشيء أقلّ طموحًا من النفي الذاتيّ والتحدي الغامر لقوة المرء. أن يتعايش مع إخفاقاته بتواضع، وأن ينتظم من جديد ككائن منطقي بعدما يمحو من ذاكرته آثارَ النكبة والسخط. لو أمكنه الثبات على موقفه، بهدوء. بسلام. بتأمُّل وقور- تلك هي الوثيقة، كما تحب فونيا أن تقول. أن تحيا بطريقة لا تجلب فيلوكتيتس[133] للعقل. ليس عليه أن يحيا في مسار حياته كشخصية تراجيدية. تلك هي البدائيةُ التي تبدو حلاً ليست خبرًا- هكذا تبدو دائمًا. كل شيء يتبدل مع الرغبة. الإجابة على كل ذلك قد تحطّمت. لكن أن يختار إطالة الفضيحة عن طريق تأبيد الاحتجاج؟ غبائي في كل مكان. تشوّشي وخبلي في كل مكان. والعاطفة الفائضة. التذكّر الحزين لأيام ستينا. الرقصُ المازح مع ناثان زوكرمان. الثقةُ فيه. الاستغراقُ في سرد الذكريات أمامه. جعلُه ينصت. شحذُ الحس الواقعيّ لدى الكاتب. إطعام ذلك الفم الانتهازي العملاق، الذي هو عقل الروائي. مهما اشتعل فتيلُ الفجيعة، سيحوّلها الروائيُّ إلى كتابة. الكوارث والفجائعُ هي ذخيرة قذائفه. ولكن إلى أي شيء بوسعي أنا أن أحوّل أنا كل هذا؟ أنا ألتصقُ بها وحسب. كما هي. دون لغةٍ، أو شكلٍ بلاغيّ، أو بنيةٍ تعبيرية، ولا معنى- دون وحدة بنائية، أو مقدرة على التخلّص من الانفعالات، دون كل شيء. والكثير من غير المتوقّع غير المتحوّل. ولماذا يرغب أي إنسان في المزيد؟ على أن المرأة التي هي فونيا هي غير المتوقّع. مضفورةً شهوانيًا مع غير المتوقّع. والأعراف

[133] - Philoctetes، مدرّب الأبطال في الميثولوجيا الإغريقية. لجأ إليه هركليس ليدربه. (المترجمة)

والتقاليد لا تُحتمَل. المبادئ الحاسمةُ لا تُحتمل. التواصل مع جسدها هو المبدأ الأوحد. لا شيء أهمّ من ذلك. وصلابة استهزائها بكل شيء. متناقضةٌ حتى النخاع. التواصل مع ذلك. الالتزام بأن تخضع حياتي لحياتها ولنزواتها. لنزوات حياتها. تهرّبها من واجباتها. شذوذها. الاستمتاع بتلك الشهوة البدائية. خذْ مطرقةً فونيا واضربْ كلَّ الأشياء المؤبدة، كل المسوغات الرفيعة، وحطّم كل شيء لتشقَّ طريقك نحو الحرية. الحرية ممَّ؟ من المجد الغبي في أن تكون على صواب. من السعي السخيف نحو التميز. من المناداة التي لا تنتهي بالشرعيّ. الانقضاض على الحرية في الواحدة والسبعين، الحرية في أن تترك العمرَ وراءك- معروف أيضًا بهوس الجنس في الكبر. "وقبل حلول الظلام"- الكلمات الأخيرة في "الموت في فينيسيا"- "العالم المصدوم الجدير بالاحترام استقبلَ أخيرًا خبرَ موته." لا، ليس عليه أن يحيا مثل شخصية تراجيدية على أي نحو.

"'جيف'! أنا بابا. أنا أبوك الذي يتكلم."

"هاي. كيف الحال؟"

"'جيف'، أعلم لماذا لم أسمع صوتك، ولا أسمع مايكل. ومارك لا أتوقع أن أسمع منه- وليزا أنهت مكالمتها معي في آخر مرة اتصلتُ بها."

"لقد هاتفتني. وأخبرتني."

"اسمعْ يا 'جيف'- علاقتي بتلك المرأة قد انتهت."

"حقًّا. كيف حدث ذلك؟"

كان يفكر، لأنه لم يعد لديها أمل. لأن الرجال استنزفوها وأكلوا لحمها. لأن طفليها قُتلا في حريق. لأنها تعمل حارسة بوابة. لأن لا تعليم لديها وتقول إنها لا تقرأ. لأنها خرجت إلى الشارع وهي في الرابعة عشرة. لأنها حتى لا تسألني: "ماذا تفعل معي؟" لأنها تعرف ماذا يفعل كلُّ الناس معها. لأنها ترى الأمر كله وليس من أمل.

ولكن كل ما قاله لابنه هو: "لأنني لا أريد أن أفقد أطفالي."

وبضحكة دمثة قال 'جيف': "حاولْ قدر استطاعتك أن تفقدنا، ولن تقدر. أنت بالتأكيد غير قادر على فقدي. ولا أظن أنك كنت ستفقد مايك ولا ليزا، أيضًا. ماركي أمره مختلف. ماركي يتوق إلى شيء ليس بيننا مَن يستطيع أن يعطيه له. وليس أنت فقط- ولا واحدٌ منّا. الأمر جدّ محزن بالنسبة إلى ماركي. ولكن بشأن أننا كنا سنفقدك. بشأن أننا ظللنا نفقدك منذ ماتت ماما وأنت استقلت من الجامعة؟ ذلك أمر ظللنا نعايشه. يا بابا، لا أحدَ كان يعرف ماذا يفعل. منذ مشيتَ في طريق معركتك مع الجامعة، لم يعد من السهل الحصول عليك؟"

"أُدركُ ذلك،" قال كولن, "أتفهم ذلك،" ولكن دقيقتين من المحادثة لا غير، وأصبح الأمر بالفعل غير محتمل بالنسبة إليه. ابنه العاقل، الكفء، الطيّع، ابنه الأكبر، صاحب العقل الأكثر هدوءًا بين الجميع. كان الكلام يمرُّ بهدوء حول مشكلة الأسرة مع الأب الذي كان هو المشكلة، أشنع من أن يُحتمل، تمامًا مثلما كان سخط ابنه الأصغر غير العاقل عليه وغضبه منه. الظرفُ الصعب الذي مرّ به ولّدَ تعاطفَهم- تعاطفَ أطفاله معه! "أنا أتفهّم،" قال كولن مجددًا، وكان ما تفهّمه هو ما جعل الأمر برمّته أسوأ.

"آمل ألا يكون قد حدث لها شيء مريع،" قال 'جيف'.

"لها؟ كلا. أنا فقط قررت أنه يكفي ما يكفي." كان خائفًا من أن يقول أكثر لئلا يبدأ في أن يقول شيئًا مختلفًا للغاية.

"هذا جيد،" قال 'جيف'. "أنا مرتاح للغاية الآن. أن لا تداعيات للأمر، إذا كان هذا ما تقوله. هذا عظيم للغاية."

تداعيات؟

"لا أفهم ما تعني،" قال كولن. "لماذا تداعيات؟"

"أنت حرٌّ وصاف؟ أنت أصبحتَ نفسَك من جديد؟ تبدو شبهَك كما لم تكن منذ سنوات. أنتَ الذي هاتفتني- هذا كل ما يهمّ. كنتُ انتظر وآمل وها أنت الآن تتصل. ليس هناك المزيد مما يمكن قوله. لقد عدتَ. هذا ما كنّا جميعنا قلقين بشأنه."

"أنا تائه يا 'جيف'. اِملأْ نواقصي. أنا حائر بشأن ما يحدث بيننا هنا. تداعياتُ من أي شيء؟"

صمت 'جيف' قبل أن يتكلم ثانيةً، وحينما تكلم، كان مترددا. "الإجهاض. محاولة الانتحار."

"فونيا؟"

"نعم."

"هل أجرتْ فونيا عملية إجهاض. هل حاولت أن تنتحر؟ متى؟"

"أبي، كل الناس في أثينا يعرفون هذا. هكذا وصل الأمرُ إلينا نحن."

"كلُّ الناس؟ مَن كل الناس؟"

"انظرْ يا أبي، ليست هناك تداعيات-"

"لم يحدث أبدًا يا ولدي، لذلك ليس هناك أية 'تداعيات'. لم يحدث أبدًا. لم يكن هناك إجهاض، ولا محاولات انتحار- ليس حسبما أعلم. وليس حسبما تعلم هي. ولكن مَن هم كل الناس بالتحديد؟ اللعنة، حين سمعتَ بقصة كهذه، قصة بلا معنى كهذه، لماذا لم ترفع تليفونك، لماذا لم تأت إليّ؟"

"لأن الأمر ليس من شأني حتى آتي إليك. لا آتي إلى رجل في عمرك-"

"كلا، أنت لا تفعل، أليس كذلك؟ بدلاً من ذلك، كل ما يخبرونك به عن رجل في عمري، مهما كان سخيفًا، مهما كان خبيثًا وعبثيًا، تصدقه."

"إذا كنتُ قد ارتكبتُ خطأً، فأنا بالفعل آسف. أنت على حق. بالتأكيد أنت على حق. ولكنه كان غيابًا طويلاً بالنسبة لنا جميعًا. لم يكن من السهل الوصول إليك مثل الآن لكي-"

"مَن أخبرك بهذا؟"

"ليزا. ليزا هي التي سمعت أولاً."

"وممن سمعت ليزا؟"

"مصادرُ عديدة. الناس. الأصدقاء."

"أريد أسماء. أود أن أعرف مَن هم كل الناس أولئك. أيُّ أصدقاء؟"

"أصدقاء قدامى. أصدقاء من أثينا."

"أصدقاء طفولتها الأعزاء. ذريّة زملائي. مَن أخبرهم، أنا أتعجّب."

"لم تكن هناك محاولة انتحار؟" قال 'جيف'.

"كلا يا جيفي، لم تكن. ولا إجهاض على حدّ علمي أيضًا."

"حسنٌ، جيد."

"ولو كان؟ لو كنتُ جعلتُ تلك المرأة حبلى فذهبتْ لتجهض نفسَها وبعد الإجهاض حاولت أن تنتحر؟ افترضْ ذلك يا 'جيف'، أنها حتى نجحت في الانتحار. ماذا بعد؟ ماذا بعد يا 'جيف'؟ عشيقة أبيك قتلت نفسها. ماذا بعد؟ تنقلب على أبيك؟ أبيك المجرم؟ كلا، كلا، كلا- هيا نرجع للوراء، نعود لأعلى درجةً، نعود إلى محاولة الانتحار. أوه، أحب ذلك. أتساءل بالفعل مَن الذي طرح موضوع محاولة الانتحار. هل بسبب الإجهاض حاولت الانتحار؟ دعنا نخوض مباشرة في تلك الميلودراما التي سمعتها ليزا من أصدقاء أثينا. هل لأنها لم تكن ترغب في الإجهاض؟ هل لأن الإجهاض مفروضٌ عليها؟ أنا أتفهمُ. أفهم القسوة. أمٌّ فقدت طفليها الصغيرين في حريق وأمست حبلى من عشيقها. نشوةٌ. حياة جديدة. فرصةٌ أخرى. طفل جديد يعوّض الطفلين الميتين. ولكن العشيق- قال: لا، وجرّها من شعرها إلى المُجهِض، ثم- بالطبع- بعدما أجبرها على تنفيذ إرادته عليها، أخذ الجسد العاري، النازف-"

عند هذه اللحظة كان 'جيف' قد قطع الخط.

ولكن عند هذه النقطة أيضًا لم يكن كولمن يحتاج أن يستمر 'جيف'. كان عليه فقط أن يرى الأزواج من النزلاء الكبار داخل الكافيتريا ينهون قهوتهم قبل أن يعودوا إلى

الفصول، كان عليه فقط أن يستمع إليهم هناك في اطمئنانهم واستمتاعهم بأنفسهم، النظرة الكهلةُ كما ينبغي لهم أن ينظروا وأصواتهم كما ينبغي لهم أن يتكلموا، عليه أن يفكر في أن الأمور التقليدية التي كان يفعلها أيضًا لم تورثه الراحة. ليس وحسب أن كان بروفيسور، ليس وحسب أن كان عميدًا، ليس وحسب أن بقي زوجًا، رغم كل شيء، للمرأة الهائلة ذاتها، ولكن أن تكون لديه أسرة، أن يكون له أطفال أذكياء- وكل ذلك لم يعطه شيئًا. إذا كان بوسع أولاد الآخرين أن يفهموا هذا، أفلا يجب ذلك على أولاده هو؟ كل ما كان قبل دخولهم المدرسة. كل قراءاته لهم. مجلدات الموسوعات. الاستعدادات قبل الامتحانات. المحادثات على الغداء. التوجيهات التي لا تنتهي، من آيريس، ومنه، ضمن طبيعة الحياة ذات الأشكال المتعددة. تدقيق اللغة. كل تلك الأشياء التي فعلناها من أجل أطفالنا، فهل يعودون عليّ بتلك العقلية؟ بعد كل هذا التعليم وكل تلك الكتب وكل الكلمات وكل مجموع النقاط العالية أيام السبت، هذا شيء لا يُحتمل. بعد كل الجدية التي أخذهم بها. حينما كانوا يقولون شيئًا أحمق، كان يتناولها بجدية. كل الاهتمام كان يُوجّه من أجل تطوير منطقهم وعقولهم وشعورهم وملكاتهم التخيّلية. ومبدأ الشك، الشك الواعي الفطِن. والتفكير مع النفس. ثم بعد ذلك يمتصون الإشاعةَ الأولى؟ كل هذا التعليم لم يُفد. لا شيء يحمي ضد مستوى الفكر المنخفض. ولا حتى سألوا أنفسهم: "ولكن هل ذلك يشبه والدنا؟ هل يبدو ذلك مشابهًا لما نعرفه عنه" بدلاً من ذلك قالوا: أبوكم حالة واضحة غير قابلة للجدل، فُتحت وأُغلقِت. لما يكن مسموحًا لكم بمشاهدة التليفزيون، ومع هذا تمتلكون عقلية "أوبرا الصابون"[134]. كان مسموحًا فقط بقراءة الإغريقيات أو ما يكافئها ومع هذا حولتم الحياة إلى أوبرا الصابون الفيكتورية. كنت أجيب أسئلتكم. جميع أسئلتكم. لا أهمل أي سؤال. تسألون عن أجدادكم، تسألون مَن كانوا وأنا أخبركم. لقد ماتوا، أجدادكم، حينما كنتُ صغيرًا. الجدُّ مات حينما كنتُ في الثانوي، الجدة حينما كنتُ بعيدًا في سلاح البحرية. في ذلك الوقت كنتُ عائدًا من الحرب، ومالك البيت كان قد ألقى بكل شيء في الشارع منذ وقت طويل. لم يتبق شيء. أخبرني المالك بأنه لم يقدر أن يتحمل هذا الهراء، لا إيجار يدخل له، كان بوسعي قتل ابن القحبة ذاك. ألبومات الصور. الخطابات. أشياء من طفولتي، من طفولتهم، كل هذا، كل شيء، راح. "أين ولدوا؟ أين عاشوا؟" ولدوا في جيرسي. أسلافُ عائلاتهم ولدوا هناك. كان صاحب صالون. أظن أن أباه، جدكم الأكبر، كان يعمل بخان فندقي في روسيا. يبيع الخمور للنزلاء. "هل لدينا عمات وخالات وأعمام وأخوال؟" أبي كان لديه

[134] - soap opera، نمط من المسلسلات التليفزيونية تعالج مشاكل الحياة المنزلية. كانت تُذاع في إنجلترا مع بدايات القرن الماضي في الفترة الصباحية لأنها موجهة بالأساس لربّات البيوت. ثم غدت واسعة الانتشار. وسبب التسمية أن إعلانات الصابون كانت تتخلل تلك المسلسلات بكثرة. والمقصود هنا بالرواية أنهم يمتلكون عقلية ربات البيوت السطحية. (المترجمة)

شقيق ذهب إلى كاليفورنيا حينما كنتُ طفلاً صغيرًا، وأمي كانت الطفلة الوحيدة، مثلي. بعدي لم تستطع أن تنجب أطفالاً– لم أعرف أبدًا ما السبب. الشقيق، الشقيق الأكبر لأبي، ظلّ اسمه سيلبرزويج- لم يتخذ أبدًا اسمًا بديلاً حسبما أعرف. جاك سيلبرزويج. وُلِد في القرية القديمة ولهذا احتفظ بالاسم. حينما كنت أبحر خارجًا من سان فرانسيسكو، بحثت في كل أدلة تليفونات كاليفورنيا لأصل إليه. كان على خلاف مع أبي. كان أبي يعتبره متسكعًا كسولاً، ليس له علاقة به، ولذلك لم يكن أحدٌ واثقًا في أية مدينة يعيش العمُّ جاك. بحثت في كل أدلّة الهاتف. كنتُ أود أن أخبره أن شقيقه مات، كنت أود لقاءه. هو قريبي الوحيد الحيّ في ذلك الجانب. وماذا لو كان متسكّعًا؟ كنتُ أود أن ألتقي بأطفاله، أبناء عمي، لو كان ثمة. بحثتُ تحت اسم سيلبرزويج. بحثت تحت اسم سيلك. بحثت تحت اسم سيلبر. ربما في كاليفورنيا أصبح سيلبر. لم أكن أعرف. ولازلتُ لا أعرف. ليس لديّ أدنى فكرة. وبعد ذلك توقفتُ عن البحث. حينما لا يكون لديك عائلة، فإنك تُشغل نفسك بتلك الأمور. ثم أنجبتكم وتوقفت عن القلق بشأن أن يكون لي عم وأبناء عم... كلُّ طفل من أطفاله الأربعة سمع الكلام نفسه. والوحيد الذي لم يكن راضيًا هو مارك. الولدان الكبيران لم يسألا كثيرًا، ولكن التوأمين أصرّا. "هل كان هناك أية توائم في تاريخ العائلة؟" أظن أنني كنتُ قد أُخبرت أن ثمة جدين قديمين جدًّا كانا توأمين. كانت تلك هي الحكاية التي سردها على آيريس أيضًا. كلها كانت مختَرَعةً ملفّقةً من أجل آيريس. كانت تلك هي القصة التي أخبرها بها في شارع سوليفان حينما التقيا للمرة الأولى وهي القصةُ التي التزم بها فيما بعد، الوثيقة المزورة الأصلية. والوحيد الذي لم يرض أبدًا كان مارك. من أين أتى أجدادنا؟" روسيا. "ولكن أية مدينة؟" سألتُ أبي وأمي، لكن يبدو أنهما لا يعرفان أبدًا على وجه الدقة. في مرة يكون مكانٌ وفي مرة أخرى مكان آخر. كان هناك جيلٌ كامل من اليهود مثل حالتنا. بالفعل لم يكونوا يعرفون أبدًا. الكبار لا يتكلمون حول ذلك كثيرًا، والأطفال الأمريكان لم يكونوا فضوليين للغاية، كانوا غاضبين لكونهم من الأمريكان، ولذا، في عائلتي مثلما في عائلات عديدة، كان ثمة فقدانٌ عام للذاكرة الجغرافيّة اليهودية. كل ما حصلت عليه حينما سألت، كان كولمن يخبر أطفاله، هي الإجابة التالية: "روسيا." ولكن ماركي قال: "روسيا عملاقة يا بابا، أين في روسيا بالتحديد؟" لن يسكت ماركي. ولماذا؟ وكيف؟ ولم تكن هناك إجابة. كان ماركي يريد معرفة مَن يكونون ومن أين أتوا- وهو بالضبط كل ما لا يقدر أبدًا أبوه أن يجيبه عنه. هل من أجل هذا أصبح يهوديًا أرثوذكسيًّا؟ من أجل هذا يكتب قصائد احتجاج إنجيلية؟ من أجل هذا كان ماركي يكرهه بشدة؟ مستحيل. كان هناك آل جيتلمان من عائلة الأم آيريس. الأجداد الجيتلمان. الخالات والأخوال

الجيتلمان. أبناء الخئولة الجيتلمان الصغار في كل أنحاء جيرسي. أليس هذا كافيًا؟ كم قريبًا يحتاجون إليه؟ أكان يجب أن يكون هناك آل سيلك وسيلبرزويج أيضًا؟ عدم وجودهم ليس مدعاة للشكوى على الإطلاق- لا يمكن هذا! لكن كولمن كان يتساءل عن الارتباط غير المنطقي بين غضب ماركي وسرِّه الخاص. طالما كان ماركي على خلاف معه، لم يكن أبدًا قادرًا على التوقف عن التساؤل، ولا عن الشعور بالعذاب بعدما أغلق 'جيف' الخط في مكالمته معه. إن كان أطفاله الذين يحملون أصولَه في جيناتهم وسوف ينقلونها إلى أطفالهم يجدون الأمر سهلاً أن يشكّوا فيه بأسوأ مستوى من القسوة مع فونيا، فأي تفسير يمكن أن يكون هناك؟ هل لأنه لم يستطع أبدًا أن يخبرهم عن عائلتهم؟ لأنه مَدين لهم بأن يخبرهم؟ لأن إخفاء تلك المعرفة عنهم كان خطأ؟ كلام فارغ! العقاب لم يُمارس دون وعي ولا دون معرفة. لم يكن هناك مثل ذلك البديل. هذا لا يمكن أن يكون. ولكن، بعد مكالمة التليفون- بعدما ترك مبنى الطلاب، وغادر حرم الجامعة، طوال الفترة التي كان يقود فيها سيارته عائدًا إلى الجبل والدموع في عينيه- كان ذلك بالضبط هو ما يشعر به.

وطوال الوقت الذي كان يقود فيه سيارته نحو البيت كان يتذكر الوقت الذي كاد فيه أن يخبر آيريس بالسرّ. كان ذلك بعدما وُلِد التوأمان. الأسرة كانت قد اكتملت الآن. لقد صنعاها بنجاح- هو صنعها. دون علامة واحدة من سرِه لأي من أطفاله[135]، بدا كأنما قد أُنقذ من سره. وفرةُ النعيم الذي تحقق بعد انتزاع الخوف من قلبه أوقفته على حافة كاد فيها أن يطرد الأمرَ برمّته من حياته ويُفشي سرّه. نعم، سوف يُهدي زوجتَه أعظمَ هدية يمتلكها: سوف يخبر أمَّ أطفاله الأربعة مَن يكون أبوهم بالفعل. سوف يخبر آيريس بالحقيقة. إلى أي مدى كان متحمسًا ومرتاحًا، إلى أي مدى كانت الأرضُ تحت قدميه صلبةً بعدما أنجبت توأميهما الجميلين، فأخذ 'جيف' و'مايكي' إلى المستشفى لكي يريا شقيقهما وشقيقتهما الجديدين، وكان التهديدُ الأعظم لهم جميعًا قد تبدّد من حياته إلى الأبد.

لكنه أبدًا لم يهب آيريس الهديةَ تلك. أُنقِذ من فعل ذلك- أو ربما نال لعنة أن يترك ذلك الأمر غير مقضيّ- بسبب الكارثة التي نزلت بإحدى أقرب صديقات آيريس، زميلتها المقرّبة بجمعية الفنون الجميلة، فنانة هاوية جميلة راقية ترسم بألوان الماء، اسمها كلوديا ماك تشينسي. زوجها، مالك أكبر بناية تخصّ شركة في البلد، تبين أنه يخفي سرًّا مذهلاً للغاية: أسرةٌ أخرى. لحوالي ثمانية أعوام، كان هارفي ماك تشينسي يحتفظ

[135] - يقصد أن أحدًا من أطفاله لم يحمل ملامح زنجية كما كان يخشى فينفضح سرّه. ميلاد أطفاله يحملون اللون الأبيض كان يعني نجاحه ويضمن حفظ سرّه إلى الأبد. (المترجمة)

بامرأة تصغر كلوديا بسنوات، محاسبة في مصنع كراسي بالقرب من تاكونيك وأنجب منها طفلين، طفلين صغيرين في عمر الرابعة والسادسة، تعيش في بلدة صغيرة على جانب الحدود بين ولايتَي ماساتشوستس ونيويورك، يزورها كل أسبوع، ويدعمها ماديًّا وحياتيًّا، ويبدو أنه يحبها، ولم يعرف إنسانٌ من عائلة ماك تشينسي أي شيء عن هذا الأمر حتى جاءت مكالمةٌ مجهولة- أخبرت كلوديا والأولاد الثلاثة الذين في طور المراهقة ماذا كان يفعل ماك تشينسي حينما لا يكون في العمل. انهارت كلوديا تلك الليلة، تشتَّتت تمامًا وحاولت قطع وريد معصمها، وكانت آيريس هي التي بادرت في الثالثة صباحًا، بمساعدة صديقة عالمة نفسية، في تنظيم عملية الإنقاذ التي أعادت كلوديا لاتزانها قبل الفجر في مستشفى الطب النفسي أوستين ريجس. وكانت آيريس هي التي، في خضّم رعايتها لتوأمين رضيعين حديثي الولادة وولدين في مرحلة ما قبل المدرسة، تزور كلوديا في المستشفى كل يوم، تتحدث إليها، تُهدّئها، تطمئنها، تُحضر لها أُصصَ النبات لترعاها، وكتبَ الفن لتطالعها، وكانت حتى تمشِّط شعر كلوديا وتجدله، إلى أن، بعد خمسة أسابيع- كنتيجة لتكريس آيريس نفسها لتطبيق برنامج الطب النفسيّ بكل دقة- عادت كلوديا إلى بيتها لتبدأ في اتخاذ الخطوات الضرورية للتخلص من الرجل الذي كان السبب في تعاستها.

خلال أيام فقط، زودّت آيريس كلوديا باسم محامي طلاق في بيتسفيلد، ثم، مع كل أطفال سيلك بمن فيهم الرضيعان المروبطان بحزام الأمان في المقعد الخلفي، قادت السيارةَ بصديقتها إلى مكتب المحامي لكي تتأكد تمامًا أن ترتيبات الطلاق قد اتُخذت وأن تحرّر كلوديا من ماك تشينسي أصبح رهن التنفيذ. في طريق العودة إلى البيت ذلك اليوم، كان هناك الكثير من المهام التي يجب أن تُنجَز، ولكن إنجاز المهام كان تخصص آيريس، وكانت تعني بذلك أن تصميم كلوديا على ضبط حياتها الجديدة يجب ألا يتأثر بخوفها الكامن داخلها.

"يا له من شيء قذر يفعله إنسانٌ بإنسان،" قالت آيريس. "ليست العشيقة. هو أمرٌ قبيح طبعًا، لكنه يحدث. وليس الأطفال الصغار، ليس هذا أيضًا- ولا حتى طفل المرأة الأخرى وطفلتها، هو أمر مؤلم ووحشيّ مما يمكن لأية زوجة أن تكتشفه. كلا، إنه السر- هو الذي سبب الألم كله يا كولمن. لهذا لم تكن كلوديا تريد أن تستمر في الحياة. 'أين الحميمية؟' هذا ما كان يجعلها تبكي طوال الوقت. 'أين الحميمية،' كانت كلوديا تقول لي، 'بينما يوجد مثل هذا السر؟' أن استطاع أن يخفي عنها ذلك، وأن ظلَّ مستمرًا في إخفاء ذلك عنها- هذا ما كانت كلوديا بلا دفاع حياله، وهذا هو سبب أنها مازالت تريد أن تُنهي حياتها. كانت تقول لي: 'الأمر مثل اكتشاف جثة. ثلاث جثث. ثلاثة جثامين

بشرية مخبأة تحت الأرضية.'" "نعم،" قال كولن، "إنه مثل شيء من الإغريقيات. مثل شيء من باخوس[136]." "أسوأ،" قالت آيريس، "لأنه ليس من باخوس. إنه من حياة كلوديا."

وحينما، بعد عام تقريبًا من العلاج خارج المستشفى، عاد الود بين كلوديا وزوجها وعاد الزوج للعيش في بيت أثينا واستأنف آل ماك تشينسي حياتهما معا كأسرة- حينما وافق هارفي أن يهجر المرأة الأخرى، فيما عدا الطفلين الآخرين، اللذين أقسم أن يظل أبًا مسئولاً عنهما- بدت كلوديا أكثر من آيريس غير متحمسة للحفاظ على صداقتهما، وبعدما استقالت كلوديا من جمعية الفنون، لم تعد السيدتان ترى إحداهما الأخرى اجتماعيًا أو في أي تنظيمات خاصة بلقاءات الفن التي كانت آيريس بوجه عام مسمارها الأساس.

ولم يمض كولن قُدمًا- بعدما اكتمل انتصارُه بمولد التوأمين- في إخبار زوجته عن سرّه المذهل. أُنقِذ، كما كان يفكر، من أكثر الحركات البهلوانية الخطِرة صبيانيةً بين كل ما اقترف من جرائم طوال حياته. أن يبدأ فجأة في التفكير بالطريقة التي يفكر بها الأحمق: فجأة أن يفكر في الأفضل لكل شيء ولكل الناس، أن يعزل تمامًا عدم ثقته، حذره، وعدم ثقته في نفسه، أن يفكر في أن كل صعوباته قد وصلت نهايتها، أن كل التعقيدات قد انتهت، أن ينسى ليس فقط أين يكون بل كذلك كيف وصل إلى هناك، أن يتنازل عن الكد، عن النظام، عن حساب كل موقف بدقة... كما لو أن المعركة التي هي معركة كل إنسان يمكن تجنبها، كما لو أن المرء يقدر طوعًا أن يأخذ أو يترك مسألةً أن يكون نفسه، الصفات الشخصية، ثبات النفس التي تحت قيادتها تقوم المعركةُ في المقام الأول. آخر أطفاله وميلاده تامّ البياض دفعه ليأخذ من داخله أقوى ما به وأحكم ما به ثم يمزّق كل ذلك إربًا. أنقذته الحكمة التي تقول: "لا تفعل أي شيء."

ولكن حتى قبل هذا، بعد ميلاد طفلهما الأول، كان قد فعل شيئًا مساويًا في الغباء والعاطفية. كان كولن بروفيسور كلاسيكيات شابًا سافر من آديلبي إلى جامعة بنسلفانيا في مؤتمر من ثلاثة أيام حول الإلياذة؛ قدم ورقةً بحثية، عمل بعض الاتصالات، دُعي كذلك من متخصص مشهور في الكلاسيكيات ليُعينّ في وظيفة جديدة في برينكتون، وفي طريق العودة إلى البيت، وهو يفكر في نفسه وقد اعتلى هرم الوجود، وبدلاً من أن يتوجه شمالاً في طريق جيرسي الرئيسي، ليذهب إلى لونج آيلاند، توجه جنوبًا صوب الطرق الخلفية لقرى سالم وكمبرلاند إلى جولدتاون، إلى حيث بيت أمه القديم حيث اعتادوا أن يقضوا عطلتهم السنوية العائلية حينما كان صغيرًا. نعم، وقتها

---

[136] - Bacchae، باخوس. مسرحية من الكلاسيكيات الإغريقية كتبها الكاتب العظيم يوريبيدس. (المترجمة)

أيضًا، بعدما صار أبًا، حاول أن يحقق لنفسه البهجة السهلة من تلك المشاعر الغنية التي يبحث عنها الناس حينما يكفّون عن التفكير. ولكن لأن لديه ابنًا لم يتطلب منه الأمر أن يتوجه جنوبًا إلى جولدتاون مجددًا أكثر من تلك الرحلة نفسها، حينما وصل شمال جيرسي، راحت أبوته لابنه هذا تتطلب منه أن يتخذ مخرج نيوآرك ويتوجه صوب إيست أورانج. ثمة نبضةٌ أخرى لابد أن تُقمع: نبضة رغبته في أن يرى أمه، ليخبرها بما حدث وليأتي لها بالولد. نبضة شعوره، بعد عامين من هجرها، وبرغم تحذير والت، بألا يحاول أن يزور أمه. كلا. بالقطع لا. وبدلاً من ذلك توجه رأسًا إلى البيت إلى زوجته البيضاء وطفله الأبيض.

وبعد حوالي أربعة عقود، في كل مرة كان يقود فيها سيارته من الجامعة إلى البيت، يظل طوال الطريق محاصرًا بالاتهامات، وهو يستعيد بذاكرته بعضًا من أجمل لحظات حياته- ميلاد أطفاله، البهجة، الإثارة المفعمة بالبراءة، التذبذب الوحشيّ في قراره، الراحة العظمى تلك التي أبطلت تصميمه وهدمت عزمه- كان يتذكر أيضًا أسوأ ليلة في حياته، عاد بذاكرته إلى أيام البحرية والليلة التي طُرد فيها من بيت الدعارة في نورفولك، بيت دعارة البيض الشهير أوريس. "أنت زنجي أسود، أليس كذلك يا ولد؟" وبعد لحظة كان حرس الماخور يلقون به من الباب الأمامي، على السلالم المؤدية إلى الممشى الجانبي المؤدي إلى الشارع. المكان الذي كان يبحث عنه كان "الولوز" على طريق ورويك- صرخ الرجال وهم يركلونه: "إلى لولوز، حيث تنتمي مؤخرتُك السوداء." اصطدمت جبهته بالرصيف، ولكنه نهض، وركض حتى رأى زقاقًا، وقطع الطريق نحو الشارع حيث كان رجال دورية الساحل يملئون المكان يوم السبت، ويلوحون بهرّاواتهم. اندفع نحو المرحاض في الحانة الوحيدة التي تجاسر ودخلها بمظهره الذي يشي بأنه مضروب للتو بشدة- حانة للملونين على بعد بضع مئات من الأقدام من طريق هامبتون وعبّارة نيوبورت نيوز (العبّارة التي تنقل البحارة إلى بيت دعارة لولوز) وعلى بعد حوالي عشر بنايات من بيت أوريس. كانت حانة الملونين الأولى بالنسبة له منذ كان طالبًا في مدرسة إيست-أورانج، قديمًا حيث اعتاد هو وصديقه أن يراهنا في يانصيب مباريات كرة القدم لنادي تويلايت على حدود نيوآرك. أثناء عاميه الأولين في المدرسة الثانوية، وهو في قمة نشاط ملاكمته السرية، كان يأتي ويذهب إلى تويلايت بيلي طوال الخريف، وهناك كدّس معرفته بعالم الحانات التي كان يزعم أنه تعلّمها- كطالب أبيض من إيست أورانج- في حانة فندق يملكه رجل يهودي عجوز.

راح يتذكّر كيف كان يناضل ليوقف نزْف جرح وجهه وكيف راح يضمّده دون جدوى بقِطع القطن خوفًا على قميصه الأبيض ولكن الدم ظل يقطر بانتظام ليلطخ كل شيء. قاعدة المرحاض التي بلا غطاء كانت مغطاة بالغائط، والأرضية المبتلة كانت غارقة بالبول، الحوض، إن كان ذلك الشيء يُسمى حوضًا، ليس إلا وعاءً قذرًا من البصاق والبلغم والقيء- حتى أنه حينما جاءه التقيؤ بسبب الألم في معصمه، قذفه على الحائط الذي كان يواجهه بدلاً من أن يحني رأسه لأسفل نحو ذلك الوسخ.

كانت حانةً شنيعة بشعة، أسوأ ما رأى من أماكن، وأكثر ما يمكن أن يتصوره مقتًا، ولكن كان عليه أن يختبئ في مكان ما، وهكذا، على مقعد أبعد ما يكون عن المخلفات البشرية التي تحتشد بها الحانة، وبين أغلال مخاوفه، حاول أن يحتسي بعض البيرة، لكي يُعيد التوازن إلى نفسه علّه يخفف ألمه ويتجنب لفت الانتباه. بالرغم من أن لا أحد في الحانة كان يعبأ بالنظر إلى الطريق الذي اتخذه بعدما اشترى البيرة واختفي خلف الحائط وراء الطاولات الشاغرة: تمامًا مثلما في بيت دعارة البيض، لا أحد ثمة أخذه على أي محمل سوى ما كان عليه بالفعل.

كان مازال يعرف، مع كأس البيرة الثانية، أنه موجود حيث لا يجب أن يتواجد، ولكن لو أن دورية الساحل كانت قد التقطته، لو اكتشفوا لماذا أُلقي به من أوربس، فسوف يتهدم مستقبله: محكمة عسكرية، إدانة، عقوبة ممتدة من الأعمال الشاقة يتبعها تسريحٌ مُخزٍ من الخدمة- وكل شيء كان بسبب كذبه على سلاح البحرية بشأن عِرقه، كل شيء كان بسبب غبائه في الخطو عبر الباب الذي لا يسمح للزنوج بالدخول عبره، بكل معنى الكلمة، اللهم إلا عمال مغاسل الملاءات وأولئك الذين ينظفون الوسخ والفضلات.

هذا ما كان. ذاك كان الانتقام، لو أراد أن يقضي سنواته كرجل أبيض، هذا ما سوف يحدث طوال الوقت. لأنني لن أتغلّب على الأمر، كان يفكر مع نفسه- وأنا حتى لا أريد. لم يعرف أبدًا من قبل ما هو الخزي الحقيقي. لم يعرف أبدًا من قبل ما هو التخفي من البوليس. ولا عرف أبدًا من قبل أن ينزف من لكمة- طوال كل تلك الجولات في ملاكمة الهواة لم يفقد قطرة دم واحدة ولا كان قد جُرح أبدًا ولا تأذى على أي نحو. ولكن ها هو الآن قميصه التريكو الأبيض أحمر كأنما هو بالطو جراحة، وبنطاله كان رخوًا بالدم الطري، وبسبب ركوعه على ركبتيه في مزراب تمزق وتلطخ بالوسخ. معصمه كان مجروحًا، ربما مكسورًا أيضًا، من حيث أقعى بيده حين سقط- لم يكن قادرًا على تحريكه أو متحمّلاً أن يمسه. كان يشرب البيرة ثم يأخذ كأسًا آخر في محاولة لتمويت الألم.

هذا ما نتج عن إخفاقه في تحقيق مثاليات أبيه، من استهزائه بأوامر أبيه، من هجره أبيه الراحل تماماً. لو أنه فقط فعل مثلما كان أبوه يفعل، وما كان والت يفعل، لكان كل شيء حدث على نحو مختلف. ولكنه في البدء كان قد كسر القانون بكذبته من أجل أن يلتحق بسلاح البحرية، والآن، يخرج للبحث عن امرأة بيضاء ليضاجعها، فغاص في أسوأ كارثة ممكنة. "أنقذْني من عقوبة التسريح من الخدمة، دعني أخرج من هذه الأزمة. وقتها أبدًا لن أكذب من جديد. فقط دعني أُنهي مدتي. وهذا كل ما في الأمر!" كانت المرة الأولى التي يتكلم فيها مع أبيه منذ سقط ميتًا في عربة الطعام.

لو أنه قد حافظ على ذلك، لأسفرت حياتُه عن لا شيء. كيف كان لكولمن أن يعرف ذلك؟ لأن والده كان يتكلم معه من الماضي- السُّلطةُ المعاتبة اللائمة العجوز تتذمر من جديد من صدر والده، ترنُّ مثلما كانت دومًا بجلاء ووضوح منطق رجل مستقيم. لو استمر كولمن هكذا، لانتهى به الحال في مصرف ضيق بشق طولي في عنقه. انظروا أين هو الآن. انظروا أين كان يختبئ. وكيف؟ لماذا؟ بسبب عقيدته. عقيدته المتغطرسة، المتكبّرة التي تقول: "لستُ واحدًا منكم، لا أقدر أن أتحملكم، لستُ جزءًا من 'نحن/كم'[137] الزنجيّ". النضال البطولي العظيم ضد "نحن-هم". وانظر كيف يبدو شكله الآن! النضال الحماسي من أجل التفرّد الثمين، تمرد الفرد ضد القَدَر الزنجي- وانظروا فقط إلامَ انتهي ذلك الفرد المتحدي العظيم! أهذا يا كولمن هو بحثك عن المعنى العميق للوجود؟ عالم الحب، هذا ما كان لديك، وبدلاً منه هجرته من أجل هذا! الشيء المأسوي الطائش الذي فعلته! فعلته ليس بنفسك وحسب- بل بنا جميعنا. بـ إرنستين. بـ والتر. بأمّك. وبي أنا. فعلته بي وأنا في قبري. بوالدي في قبره. أي طموح آخر تخططه يا كولمن بروتس؟ مَن تاليًا سوف تُضلِّلُ ومَن سوف تخون؟

مازال لا يستطيع أن يخرج إلى الشارع بسبب خوفه من خفر السواحل، ومن المحاكمة العسكرية، ومن البارجة الشراعية، ومن التسريح الشائن من سلاح البحرية ذاك الذي سوف يطارده إلى الأبد. كل شيء فيه كان مهتاجًا للغاية ويدفعه إلى عمل أي شيء إلا الاستمرار في الشراب حتى بالطبع تنضم إلى طاولته مومس من الواضح أنها ستكون من عرقه.

حينما وجده رجال خفر السواحل في الصباح، عزوا الجروحَ الدامية والمعصم المكسور، وزيّه المشوش المتّسخ إلى قضائه الليل في مقاطعة الزنوج، عضو ذكري أبيض آخر يتأرجح شَبَقًا نحو هِرّة[138] سوداء- تلك التي اعتصرته وبّخرته ونظّفته تنظيفًا جافاً

---

[137] - your Negro we، لعبة الضمائر التي أشرنا إليها في المقدمة وفي الفصل الثاني- حيث "نحن" تشير إلى كتلة الزنوج، بينما "هُم"، تشير إلى البيض. (المترجمة)

[138] - مومس بالعامية الأمريكية. (المترجمة)

مما لديه من مال (بعدما رأت المكتوب على وشم ذراعه فأنجزت الصفقة)، ثم أُلقي به فوق بقايا الزجاج المهشّم في مؤخرة العبّارة[139].

"سلاح البحرية الأمريكية" هذا كل ما يقوله الوشم، الكلماتُ، التي لا تزيد عن ربع بوصة ارتفاعًا، منقوشةٌ بالخضاب الأزرق بين السيف الأزرق والسارية الزرقاء، على بوصتين طولاً. أكثر التصميمات بساطة كما هو معروف في وشوم الجيش، موضوع بالضبط تحت مفصل الذراع اليمنى مع الكتف، في مكان من السهل إخفاؤه. ولكن حينما يتذكر كيف صنعه، تلك العلامة التي أغاثته ليس فقط من اضطراب أسوأ ليلة في حياته بل من كل ما نتج عن ذلك الاضطراب- كانت إشارةً لكل تاريخه، ذلك التاريخ الذي لا يتجزأ ما بين البطولة والعار. مطمورةٌ في ذلك الوشم الأزرق صورتُه الحقيقة والكلية. سيرة الحياة التي لا يمكن استئصالها كانت هناك، مثلما كان نموذج الوشم لا يمكن استئصاله كشعار لما لا يمكن أبدًا أن يُمحى. المغامرة الهائلة كانت أيضًا هناك. القوى الخارجية كانت هناك. السلسلة الكاملة لغير المتوقع، كل مخاطر الكشف وكل مخاطر الإخفاء- حتى حمق الحياة كان هناك في ذلك الوشم الصغير الغبي الأزرق.

متاعبه مع دلفين روكس كانت قد بدأت في أول فصل دراسي بعد عودته للتدريس في الفصول، حينما ذهبت إليها إحدى تلميذاته التي حدث وكانت المفضلة لدى الأستاذة روكس، ذهبت إليها بوصفها رئيسة القسم، لكي تشكو من مسرحيات يوريبيدس[140] في منهج كولمن حول التراجيديا الإغريقية. إحدى المسرحيات كانت هيبوليتس، والأخرى ألخيستيس[141]، رأت فيهما الطالبةُ إيلينا ميتنيك "تحقيرًا للمرأة".

"وإذن ماذا عليّ أن أفعل لأُرضي الآنسةَ ميتنيك؟ هل أشطب على يوريبيدس من قائمة القراءة؟"

"كلا على الإطلاق. ولكن بكل وضوح فإن كل شيء يتوقف على طريقة تدريس يوريبيدس."

"وما هي الطريقة المقررة للتدريس هذه الأيام؟" سأل كولمن، وهو يفكر في أنه لا يحمل ما يكفي من الصبر ولا التهذّب لمثل ذلك الجدل. علاوةً على ذلك، فإن التغلّب على دلفين روكس كان أسهل دون الدخول في جدل. فبالرغم من امتلائها بالشعور بالثقافة والأهمية، إلا أنها كانت في التاسعة والعشرين من عمرها، وفعليًا لا تمتلك أية خبرة

---

139 - رجال خفر السواحل ظنّوا أنه رجلٌ أبيض دخل مجتمع الزنوج بحثًا عن امرأة سوداء، فاستلبه الزنوج وضربوه. (المترجمة)

140 - Euripides أحد أعظم كتّاب المسرح الإغريقي التراجيدي ولد عام 480، ومات عام 406 ق م. (المترجمة)

141 - Hippolytus- Alcestis- في اللغة الإغريقية، يعني اسم هيبوليتس "خاسر الخيول"، وكان ابن الإله زيوس، الذي أوغرت زوجته قلبه على ابنه هيبوليتس فأمر زيوس الخيولَ بأن تذهب به إلى حتفه. وفي المسرحية الثانية، ألخيستيس هي أميرة أعلنت أنها ستتزوج ممن يقدر أن يجعل أسدًا ودبًا يقودان عربةً حربية. ونجح في هذا الملك أدميتس. (المترجمة)

خارج أسوار المدارس، ومستجدة في وظيفتها وجديدة نسبيًا على عالم الجامعة وعلى أمريكا. كان قد أدرك من صداماتهما السابقة أن أفضل رد على محاولتها الظهور بأنها ليست فقط الأعلى منه رتبةً بل الأعلى رتبةً وشأنًا- "بكل وضوح فإن كل شيء يتوقف على...." وهلم جرا- أفضل رد هو أن يظهر لا مباليًا على الإطلاق لقراراتها. لأجل كل هذا لم تكن قادرة على تحمّله، ولم تقدر أيضًا على تحمّل فكرة أن أوراق اعتمادها الأكاديمية التي تركت أثرها البالغ على كل زملاء أثينا الآخرين، لم يعبأ بها العميد السابق كولمن. رغمًا عنها، لم تستطع الهروب من الشعور بالتهديد من ذاك الرجل الذي، قبل خمس سنوات، كان مترددًا في تعيينها بكلية أثينا وهي آتية لتوها من كلية "ييل"[142] للدراسات العليا، والذي، فيما بعد، لم يُخفِ أبدًا ندمه على تعيينها، خصوصًا حينما كان أساتذة علم النفس البلهاء في القسم يستنكرون بعمق أن تكون امرأةٌ شابة رئيسةً قسمهم.

حتى ذلك اليوم، استمرت في الشعور بالقلق من وجود كولمن سيلك لدرجة أن أمنيتها الكبرى كانت أن تجعله الآن مضطربًا من وجودها. شيءٌ فيه كان دائمًا ما يردّها إلى طفولتها، وإلى خوف الطفلة المبكر التي تخشى أن تُرى وهي خائفة، وأيضًا خوف الطفلة من ألا تُرى كما ينبغي. خائفة من أن تكون مكشوفة، مرعوبة من أن تُرى- ثمة ورطة في كولمن سيلك بالنسبة لها. شيء فيه يجعلها تعيد النظر في إنجليزيتها حتى، تلك التي كانت لولا وجوده مطمئنةً جدًا إليها كلغتها الثانية. حينما يكونان وجها لوجه، شيءٌ ما يجعلها تفكر أنه لا يريد شيئًا أكثر من أن يربط يديها وراء ظهرها.

هذا 'الـ شيءُ ما' ماذا كان؟ الطريقة التي قدّر بها حجمَها جنسيًا حينما جاءت للمرة الأولى لإجراء مقابلة الاختبار في مكتبه، أم تُراها الطريقة التي أخفق بها في تقدير حجمها جنسيًا؟ كان من المستحيل قراءةُ قراءته لها، في ذلك الصباح الذي تيقّنت فيه أنها استخدمت كل إمكاناتها استراتيجيًا. كانت تود أن تكون رائعة، وفعلت، أرادت أن تكون طليقةَ اللسان، وفعلت، أرادت أن تبدو موهوبةً أكاديميًا، ونجحت، هي واثقة من ذلك. ومع هذا كان ينظر إليها فقط كما لو كانت تلميذة صغيرة. لا شيء سوى طفلة لا أهمية لها.

الآن، ربما كان هذا بسبب التنّورة الإسكوتلندية الكاروهات ذات الكسرات- التنورة القصيرة ربما جعلته يفكر في زي تلميذة مدرسة، خاصة لو كانت التي تلبسها شابة أنيقة، دقيقة الحجم، غامقة الشعر لها وجه صغير معظمه عينان، كل وزنها ثياب، بالكاد تزن مئة رطل. كل ما كانت تقصده، بالتنورة القصيرة وبلوزة الصوف الناعم السوداء

[142] - Yale

ذات فتحة العنق الضيقة، والاستريتش الأسود الضيق، وحذاء البوت الطويل الأسود، هو ألا تلغي نوعها جنسيًا باختيار ما ترتدي (بنات الجامعة اللاتي كانت قد قابلتهن حتى الآن في أمريكا يبدو أنهن يفعلن ذلك بشكل عنيف) وكذلك ألا تبدو كمَنْ تحاول أن تثيره ثم تتمنع عليه. فرغم ما كان يقال عنه بأنه في منتصف الستينات، إلا أنه لم يبدُ لها أكبر من والدها ذي الخمسين عامًا؛ هو في الواقع كان يشبه شريكًا شابًا في شركة أبيها، أحد رفقاء والدها من المهندسين الكثيرين، كان يرمقها بعينيه منذ كانت في الثانية عشرة. وحين، وهي تجلس قبالة العميد، وضعت ساقًا على ساق فانفتحت طية تنورتها، انتظرت دقيقة أو دقيقتين قبل أن تجذبها وتغطيها- وجذبتها دون اهتمام كمن يُغلق محفظة نقود- فقط لأنها، مهما بدت صغيرة السن، لم تكن تلميذة تحمل خوف التلميذة وتزمّتها، داخل قفص قواعد التلميذة. لم تكن تودّ أن تترك ذلك الانطباع بعد ذلك بل أن تعطي الانطباع المضاد بأن تترك طيّة التنورة مفتوحة ومن ثم تدعوه أن يتخيل أنها قصدت أن تتركه يبحلق طوال مدة المقابلة في فخذيها النحيلين داخل الاستريتش. كانت قد حاولت بقدر ما تستطيع، باختيار الثياب مثلما في أسلوبها، أن تُظهر له التفاعل المعقد لكل الإمكانات التي تكاتفت لتجعلها فتاةً مثيرة في الرابعة والعشرين.

حتى قطعة مجوهراتها الوحيدة، الخاتم الضخم الذي وضعته ذلك الصباح في إصبعها الأوسط ليدها اليسرى، حليتها الوحيدة المزخرفة، اختارت أن تضعه في إصبعها من أجل ذلك الضوء الجانبي الذي يُشعّه على المثقفة التي كانتها، تلك التي استمتاعها بجماليات السطح في الحياة على نحو معلن، وغير المقيد، مع ذائقتها وخبرتها الفنية غير المنكرة، كان بالرغم من ذلك خاضعًا لورع ديني متراكم منذ أيام المدرسة. الخاتم، الذي هو نسخة من ختم التوقيع الروماني منذ القرن الثامن عشر، كان في حجم خاتم رجل، مما كان يلبسه الرجال في الأزمنة السحيقة. على حجر العقيق البيضاوي، ثمة نقش أفقي- وهو ما جعل الخاتم ذكوريًا خشنًا- محفور عليه دانيه[143] وهي تستقبل زيوس مثل شلال من الذهب. في باريس، قبل أربع سنوات، حينما كانت دلفين في العشرين، حصلت على الخاتم كرمز حب من بروفيسور كان يمتلكه- البروفيسور الذي لم تستطع مقاومته فدخلت معه في علاقة ملتهبة. وبالمصادفة كان أستاذًا للكلاسيكيات. المرة الأولى التي التقيا فيها، في مكتبه، كان يبدو بعيدًا جدًا، حكيمًا جدًا، لدرجة أنها وجدت نفسها متجمدةً بالخوف حتى أدركت أنه كان يلعب دور الإغواء ضد ميوله الفطرية. هل هذا ما كان ينوي العميد سيلك أن يفعله معها؟

---

[143] Danaë - في الميثولوجيا الإغريقية هي ابنة الملك أكريزس الذي كان حزينًا لأن ليس له وريث ذكر. أخبره الوحي أنه سيذهب إلى نهاية الأرض ويُقتل على يد ابن ابنته. فيقرر الملك أن يحبس ابنته في برج من البرونز كي يضمن عدم إنجابها. لكن زيوس، كبير الآلهة، زارها على هيئة مطر من الذهب فجعلها حاملا وأنجبت بريسوس. (المترجمة)

مهما كان حجم الخاتم ملفتًا للنظر، إلا أن العميد لم يسألها أبدًا أن يرى شلال الذهب المحفور على العقيق، وهكذا، قررت، أنه كان بالفعل ينوي ذلك. ورغم أن حكاية الخاتم وكيف وصل إليها كانت شاهدة على مراهَقة طائشة، إلا أنه كان يظن أن الخاتم كان انغماسًا لعوبًا، وإشارة إلى أنها ناقصة نضج. فيما عدا الرجاء الطائش، فقد كانت واثقة من أنه كان يفكر فيها طوال الوقت بهذا المنطق منذ اللحظة التي تصافحا فيها بالأيدي- وكانت على حق. كان مأخذ كولمن عليها أنها شخص صغير السن جدًّا على الوظيفة، بما يتضمن ذلك العديد جدًّا من التناقضات التي لم تُحلّ، في لحظة تشعر بأنها كبيرة جدًّا، وفي نفس الوقت، تلعب دور الشعور بأهمية الذات مثل طفلة، طفلة غير تامة التحكم في النفس، رد فعلها سريع لأي رائحة استنكار أو رفض، مع موهبة عظمى في شعورها بأنها مجروحة، ومُغرَّرٌ بها، مثلما تشعر الطفلة والمرأة، لإنجاز فوق إنجاز، ومعجب في إثر معجب، انتصار فوق انتصار، به من الشك بقدر ما به من الثقة. شخصية ذكية بالنسبة لعمرها، ذكية للغاية أيضًا، ولكنها من الناحية العاطفية غير سوية، وغير متطورة على نحو خطر في معظم النواحي الأخرى.

من خلال سيرتها الذاتية وملف الأوتوبيوجرافي الإضافي من خمس عشرة صفحة الذي رافقها- ذاك الذي فصّل تطور رحلتها الفكرية التي بدأت في عمر السادسة- استطاع كولمن أن يكوّن صورة واضحة بما يكفي. أوراق اعتمادها كانت ممتازة للغاية، ولكن كل شيء عنها (بما فيها أوراق الاعتماد) كان صدمة حقيقية، خاصة بالنسبة لمكان صغير مثل أثينا. المنطقة الإدارية المميزة بفرنسا رقم 16 حيث قضت طفولتها في شارع لونجشامب. مسيو[144] روكس مهندس، صاحب شركة بها أربعون مستخدمًا؛ مدام روكس (من مواليد والينكورت[145]) ولدت باسم قديم من أسماء النبلاء، تنتمي إلى أرستقراطيي الريف، زوجة، أم لثلاثة، دارسة للأدب الفرنسي القروسطي، عازفة ممتازة على البيانو القيثاري، دارسة لآداب البيانو القيثاري، مؤرخة بابوية، "إلخ." وما علينا أن نقول "إلخ."! الطفلة الوسطى والابنة الوحيدة دلفين تخرجت في ليسيه[146] جانسون دي سايللي، حيث درست الفلسفة والآداب، الأدب الإنجليزي والألماني، اللاتيني، والفرنسي: "... قرأتُ المتنَ الكامل للأدب الفرنسي في أسلوبه الأصلي جدًّا." بعد الليسيه جانسون، هناك ليسيه هنري الرابع: "... أمر منهكٌ للغاية دراسة الأدب الفرنسي والفلسفة، واللغة الإنجليزية والتاريخ الأدبي." في سن العشرين، بعد ليسيه هنري

144 - أبوها، وكتبها المؤلف بالفرنسية Monsieur، السيد بالفرنسية، في النص الأصلي، لأن دلفين روكس من أصول فرنسية. (المترجمة)

145 - أيضًا في النص الأصلي مكتوبة بالفرنسية. (المترجمة)

146 - Lycée بالفرنسية تعني مدرسة. (المترجمة)

الرابع، هناك ايكول نورمال سوبريور[147] دي فونتاي: "... مع صفوة المجتمع المثقف الفرنسي... فقط ثلاثون يتم اختيارهم كل عام." الأطروحة العلمية بعنوان: "إنكار الذات في فكر جورج باطاي[148]." باطاي؟ وليس أحدًا آخر. كل الطلاب المتفوقين خريجي جامعة 'ييل' يشتغلون على إما مالارمييه أو باطاي. ليس صعبًا أن ندرك ماذا كانت دلفين تتعمد أن يفهم كولن، خاصةً وكولن يفهم شيئًا عن باريس حيث كان بروفيسور شابًا بمنحة فولبرايت، وأقام لمدة عام مع إحدى العائلات الفرنسية، ما جعله يعرف شيئًا عن أولئك الفرنسيين الطموحين الذين تمرّنوا في مدارس الصفوة. يتم تحضيرهم بعناية للحد الأقصى. متواصلون جيدًا مع الفكر الرفيع، شباب صغار أذكياء لم ينضجوا بعد بما يكفي لكنهم مزودون بأرقى التعليم الفرنسي ومستعدون جيدًا ليكونوا محطَّ أنظار الحُسّاد طوال حياتهم، ينتشرون كل مساء سبت في المطعم الفيتنامي الرخيص بشارع القديس جاكوب ليتكلموا عن الأمور الكبرى، لا وجود مطلقًا للكلام الصغير المبتذل- لا شيء سوى الأفكار، السياسة، الفلسفة، وحسب. حتى في أوقات فراغهم، حينما يكونون بمفردهم، يفكرون وحسب في أسلوب استقبال هيجل ضمن الحياة الفكرية الفرنسية في القرن العشرين. الشخص المفكر يجب ألا يكون لعوبًا أو طائشًا. الحياةُ من أجل الفكر فقط. وسواءً غُسِل الدماغُ لتكون ماركسيًا شرسًا أو مضادًا للماركسية شرسًا، فإنهم دائمًا مرتعبون منذ مولدهم من كل ما هو أمريكي. بهذا الكلام الفارغ وبأكثر منه جاءت دلفين روكس إلى جامعة 'ييل': وُظِّفت لتدرّس اللغةَ الفرنسية للطلبة الجامعيين ولتندمج في برنامج دكتوراه الفلسفة، فكما ذكرت في ورقة الأوتوبيوجرافي الخاص بها، أنها واحدة من اثنين في كل فرنسا اللذين تمّ قبولهما. "أتيتُ إلى 'ييل' وأنا ديكارتية[149] جدًا، وهناك كل شيء كان تعدديًا[150] جدًا ومتعدد الأصوات." كانت تضحك من الطلاب تحت التخرج. أين شِقُّهم الفكريّ؟ ميلُهم للمرح كان يصدمها للغاية. طرائقهم في التفكير الفوضوي غير المؤدلج- أسلوب حياتهم! إنهم حتى لم يشاهدوا أفلام كوروساوا[151]– لا يعرفون عن ذلك الذي يجب أن يُعرف. حينما كانت في مثل أعمارهم، كانت قد شاهدت جميع أفلام كوروساوا، جميع أعمال تاركوفسكي، وجميع أعمال فيلليني، أنتونيوني، فاسبلندير، ويرتميللر، ستياجيت راي، ينيه كلير، ويم ويندير، ترافوت، جودارد، تشابرول، ريزنيه، رومر، رينوار[152]، بينما كان كل ما شاهده أولئك الأولاد هو حرب

---

[147] - École normale supérieure"، أرقى مؤسسة تعليم في باربس، للنخبة الصفوة. (المترجمة)
[148] - Georges Bataille، عالم اجتماع وأنثروبولوجي وكاتب وفيلسوف فرنسي شهير (1897-1962). (المترجمة)
[149] - من أتباع المنهج الديكارتي الفلسفي. نسبةً إلى ديكارت، فيلسوف الشك الفرنسي الشهير. (المترجمة)
[150] - من أنصار مبدأ التعددية الفلسفي. (المترجمة)
[151] - Akira Kurosawa، مخرج أفلام ياباني شهير (1910-1998). (المترجمة)
[152] - مخرجو أفلام عالميون: Federico Fellini، إيطالي، Andrei Arsenyevich Tarkovsky، روسي، Michelangelo Antonioni، إيطالي، Rainer Werner Maria Fassbinder، ألماني، Lina Wertmüller، إيطالي، Satyajit Rays،

النجوم. على نحو جاد استأنفتْ في 'ييل' بعثتها الفكرية، وحضرت فصولاً مع أكثر البروفيسورات علمًا. كانت تائهة إلى حد ما. حائرة. خاصةً من الطلبة الآخرين المتخرجين. لقد اعتادت أن تكون مع أولئك الذين يتكلمون اللغة الفكرية ذاتها، وهؤلاء الأمريكان.... وليس كل منهم يجدها ممتعة الصحبة. كانت تتوقع أن تأتي إلى أمريكا لتجد كل الناس يقولون: "أوه، يا إلهي، إنها نورماليني[153]" ولكن في أمريكا لا أحد يقدّر المسار شديد الخصوصية الذي سلكته في فرنسا ومقدار هيبته الهائلة. لم تنل نوع التقدير الذي تمرنت على أن تناله وهي عضو ناشئ في مجتمع الصفوة الفكرية الفرنسية. لم تنل حتى نوع الاستياء الذي تمرنت على أن تناله. تجد مرشدًا يكتب لها أطروحة دكتوراه. تدافع عنها. تنال الدرجة. تنالها بسرعة استثنائية لأنها بالفعل كانت قد اشتغلت باجتهاد بالغ في فرنسا. كثير من الدراسة والعمل الشاق، جعلها الآن جاهزة للوظيفة الضخمة والتدريس الضخم- برينكتون، كولومبيا، كونيل، شيكاغو- وحينما كانت لا تنال شيئًا، تنسحق. بروفيسور زائر في كلية أثينا؟ أين وما هي كلية أثينا؟ رفعت أنفها لأعلى. حتى قالت مرشدتها: "دلفين، في هذا السوق، ستنالين وظيفتك الكبرى، من وظيفة أخرى. بروفيسور مساعد زائر في كلية أثينا؟ ربما لم تسمعي عنها، ولكنها موجودة لدينا. مؤسسة محترمة تمامًا. وظيفة محترمة تمامًا بالنظر إلى وظيفة أولى." الخريجون من تلاميذ زميلها الأجنبي أخبروها أنها أعلى جدًا من جامعة أثينا، وأن هذا تقليلٌ كبير من قدرها، ولكن الخريجين من تلاميذ زميلها الأمريكي الذين قد يقتلون من أجل التدريس في أي مكان، يرون أن استعلائها صفةٌ متأصلة في شخصية دلفين. ومن باب البخل بالفرصة، قدمت للوظيفة- وجاءت تتبختر في تنورتها القصيرة وحذائها البوت الأسود في المقعد المواجه للعميد سيلك. لكي تحصل على الوظيفة الثانية، الوظيفة الخيالية، تحتاج أولاً أن تمرّ بوظيفة أثينا هذه، ولكن على مدار ساعة راح سيلك ينصت إليها وهي تتحدث عن أسلوبها المميز خارج نطاق وظيفة أثينا. البناء الزمني والزمانية. التناقضات الداخلية في قطعة أدبية. روسّو يحاول أن يخفي نفسَه لكن أسلوبه البلاغي يكشفه. (صغيرة مثلها، راح العميد يفكر، في أوراق الأوتوبيوجرافي.) الصوت النقدي منطقي مثل صوت هيرودوت. السرديات. الحكايات التاريخية. الفرق بين السرد والمحاكاة. الخبرة النوعية. خاصية التوقع في النص. لم يكن كولمن بحاجة ليسأل ماذا يعني كل هذا. كان يعرف، وفي معناه الإغريقي الأصلي، ماذا تعني كل كلمات

هندي، René Clairs، فرنسي، Wim Wenderses، ألماني، François Roland Truffaut، فرنسي، Jean-Luc Godard، سويسري، Claude Chabrol، دنماركي، Alain Resnais، فرنسي، Éric Rohmer، فرنسي، Jean Renoir، فرنسي. (المترجمة)

[153] - خريجة "École normale supérieure"، أرقى نظام تعليمي في باريس مقصور على صفوة الناس. (المترجمة)

"ييل" وكل كلمات "إيكول نورمال سوبريور". فهل تعلم هي؟ لأنه كان في خضّم ذلك كله لأكثر من ثلاثة عقود، فلم يأخذ وقتًا ليستوعب أيًا من تلك المصطلحات. كان يفكر: لماذا واحدة جميلة للغاية مثلها تود أن تُخفي البعد الإنساني لتجربتها خلف تلك الكلمات؟ ربما لأنها فقط جميلة جدًا. كان يفكر: عناية قصوى في تقدير النفس وضخامة قصوى في تضليل الذات.

بالطبع لديها أوراق اعتماد. ولكنها بالنسبة لكولمن كانت تجسيدًا للغائط الأكاديمي النخبوي الذي هو آخر ما يحتاج إليه طلابُ أثينا، ولكن إغواء تلك الأوراق بالنسبة للتدريس الجامعي قد يثبت أنه لا يُقاوَم.

في ذلك الوقت كان يرى نفسه منفتح العقل لأنه وظّفها. ولكن أغلب الظن أن ذلك بسبب أنها كانت مغرية وجذّابة على نحو لعين. جميلة جدًا. فاتنة للغاية. وفوق كل هذا كانت تبدو مثل بنت صغيرة.

أخطأت دلفين روكس في قراءة حملقة كولمن سيلك، بأن راحت تفكّر على نحو ميلودرامي بعض الشيء- وهو أحد معوقات دهائها، هذا الهاجس الذي يدفعها ليس فقط للقفز إلى الاستنتاج الميلودرامي بل كذلك يدفعها للخضوع الإيروتيكي للعنة الميلودراما- ذاك أن ما كان يريده هو أن يربط يديها خلف ظهرها: كل ما كان يريده، بكل تأكيد، هو ألا تكون موجودة حوله. ولذلك أعطاها الوظيفة. وهكذا بدأ كلاهما على نحو خطر لا يتفقان معًا.

والآن كانت هي التي طلبته إلى مكتبها لينقلب الحال وتصبح هي التي تجري المقابلة. مع عام 1995، العام الذي ترك فيه كولمن كرسي العمادة ليعود للتدريس في الفصول، كان إغواءُ الفاتنة الصغيرة دلفين، تلك المهندمة المتأنقة، مع تلميحاتها الصبيانية الحسية السرية، عطفًا على افتتانها المُركّب بإيكول نورمال (وهو ما كان يصفه كولمن بتضخمها الذاتي)، كان كل هذا فيما يبدو بالنسبة لها قد نجح مع كل الأساتذة الحمقى الذين يتوددون لها. وليس فقط بسبب عمرها العشريني- ولكن ربما لأن عينيها كانتا مُركّزتين على كرسي العمادة الذي كان يومًا لكولمن- نجحت دلفين روكس أن تترأس قسمًا صغيرًا، هو القسم الذي كان قبل عدة سنوات قد امتُصَّ مع أقسام اللغات الأخرى، ترأست قسمَ الكلاسيكيات القديم الذي كان كولمن قد بدأ فيه كمدرس. في قسم اللغات والآداب الجديد ذاك، كانت هناك هيئة تدريس مكونة من أحد عشر أستاذًا، بروفيسور في الروسية، وآخر في الإيطالية، وواحد في الإسبانية، وواحد في الألمانية، وكانت دلفين في الفرنسية، وكولمن سيلك في الكلاسيكيات، وكذلك خمسة

مساعدين يعملون وقتًا إضافيًا، هذا بالإضافة إلى معلمين جدد صغار وعدد قليل من الأجانب المحليين، يُدرّسون المناهج الأولية.

"قراءةُ الآنسة 'إلينا ميتنيك' الخاطئة لهاتين المسرحيتين،" يقول كولمن لدلفين، "تعني أنها تقف على أرضية وعي ضيقة ومحدودة أيديولوجيًا، لن تساعدها في التطور."

"إذن أنتَ لا تنكر ما تقوله الفتاة- أنك لم تحاول أن تساعدها."

"الطالبةُ التي تخبرني بأنني أتكلم معها بلغة منشئية[154]، هي أبعد كثيرًا عن أن يمكنني مساعدتها.

"إذن، ثمة مشكلة، أليس كذلك؟" قالت دلفين برفق.

ضحك كولمن- على نحو عفويّ ولغرض ما في نفس الوقت. "نعم؟ الإنجليزية التي أتكلمها ليست دقيقة بما يكفي لعقل صاف مثل عقل الآنسة ميتنيك؟"

"كولمن، لا تنسَ أنكَ بقيت خارج الفصول لمدة طويلة."

"وأنتِ لم تبعدي عنها أبدًا. يا عزيزتي،" قالها بتأنٍّ، وبابتسامة موتّرة متمهّلة، "على إنني كنتُ أقرأ تلك المسرحيات وأتأمل فيها طوال عمري."

"ولكن ليس من زاوية نظر'إلينا ميتنيك' النسوية."

"ولا حتى من زاوية نظر موسى اليهودية. ولا حتى من زاوية نظر نيتشه الحداثية حول المنظور التأويلي."

"كولمن سيلك، وحده على الكوكب، ليس له أية زاوية نظر عدا زاوية نظر الأدب النقية الحيادية النزيهة."

"تقريبًا دون استثناءات يا عزيزتي"- من جديد؟ ولمَ لا؟- "تلاميذنا جهلاء بعمق. تم تعليمهم على نحو رديء لا يُصدَّق. حياتهم الفكرية عقيمة. وصلوا وهم لا يعرفون شيئًا ومعظمهم يتخرجون دون أن يعرفوا شيئًا. على الأقل، بعدما دخلوا فصلي، تعلموا كيف يقرءون الدراما الكلاسيكية. التدريسُ في أثينا، خصوصًا في التسعينيات، هو التدريسُ لأكثر الأجيال غباءً في تاريخ أمريكا، شيءٌ يشبه المشي في طرق منهاتن وأنت تتحدثين إلى نفسك، فيما عدا أن الثمانية عشر إنسانًا في الشارع الذين يسمعونك وأنت تتحدثين إلى نفسك، متواجدون جميعهم في الفصل. معرفتهم تشبه اللا شيء. بعد حوالي أربعين عامًا من التعامل مع مثل هؤلاء الطلاب- والآنسة ميتنيك هي مجرد نموذج- بوسعي أن أقول إن المنظور النسوي عند يوريبيدس هو آخر ما يحتاجون إليه.

[154] - كانت تقصد أن تقول لغة النوع: الرجل، والمرأة، Gender. بالإنجليزية gendered language، ولكن في متن الرواية كتبها المؤلف هكذا: engendered language، ولا معنى لها بالإنجليزية. وهنا كولمن يريد أن يقول إن تلك التلميذة غبية حتى أنها تخطئ في اللغة والإملاء، إضافة إلى كونها متخلفة من حيث فهمها الضيق لفكرة مكانة المرأة، وعدم استيعابها مسرحيات يوريبيدس. (المترجمة)

وإن توجيه أولئك الطلاب السُّذّج نحو المنظور النسوي في أعمال يوريبيدس هو أحد أفضل الطرق التي يمكن اختراعها لكي ينغلق تفكيرهم قبل حتى أن يجد الفرصة ليبدأ في هدم واحد من خيوط تفكيرهم البلهاء. أجد صعوبة في تصديق أن امرأة متعلمة آتية من خلفية فرنسية أكاديمية مثلكِ تصدّق أن وجود منظور نسوي في يوريبيدس ليست فكرة حمقاء. هل أنتِ بالفعل قد تثقّفتِ في وقت وجيز جدًّا، أم إنه مجرد مسار وظيفي عتيق الطراز يرتكز الآن على أرضية زملائي النسويين؟ لأنه لو كان فقط مجرد مسار وظيفي، فلا بأس من ذلك معي. هذا إنسانيٌّ وأنا أتفهم. ولكن إن كان التزامًا فكريًّا بتلك البلاهة، فأنا إذن حائرٌ بعمق، لأنك لستِ بلهاء. لأنك تعلمين أفضل من ذلك. لأنه في فرنسا بالتأكيد لا أحد من أبناء إيكول نورمال يتجاسر على الكلام بجديّة في هذا الهراء. أم تُراهم يفعلون؟ أن تقرئي مسرحيتين مثل هيبوليتس وألخيستيس، ثم تُنصتي على مدى أسبوع من النقاش حول كل مسرحية، ثم لا تجدي ما تقولين عن أيّ منهما سوى إنهما ‘يحطّان من شأن المرأة،’ أهذه ‘زاوية نظر’ بحق المسيح- هذا لغوٌ وهراء. هذا آخر صيحة من غسول الفم."

"‘إلينا ميتنيك’ طالبةٌ. في العشرين من عمرها. وهي في طور التعلّم."

"لا يليق تناوُلُ أمراض الطلاب بعاطفية يا عزيزتي. خذيهم بالشدة.‘إلينا’ لا تتعلم. بل تردد مثل ببغاء."

"هذا ليس صحيحًا، وبالرغم من ذلك إذا كان يرضيك أن تؤطرني ثقافيًّا على هذا النحو، فلا بأس أيضًا، وهذا متوقَع للغاية. إذا كنتَ تشعر بأمان وأنك في الخانة الأعلى حين تضعني في ذلك الإطار السخيف، إذن افعلْ ذلك يا عزيزي،" كانت مبتهجة الآن وهي تقول ذلك مع ابتسامتها الخاصة. "معاملتك لـ‘إيلينا’ كانت عدائيّة بالنسبة إليها. من أجل ذلك هربت إليّ. لقد أرعبتها. كانت محبطةً."

"حسنًا، إنما أنا أوسّع من دائرة الأداء الشخصي المتوتّر حينما أواجه الآن عواقب توظيفي شخصًا مثلك."

أجابت: "وبعض تلاميذنا يوسّعون من دائرة الأداء الشخصي المتوتر حينما يواجهون أساليب التدريس العتيقة المُتْحفية المتحجرة. إذا كنتَ تصرُّ على تدريس الأدب بذلك الأسلوب المضجر الذي اعتدتَ عليه، إذا كنت مُصرًا على ما يُسمى المدخل الإنساني للتراجيديا الإغريقية الذي كنت تدرسه عام 1950، فإن نزاعاتٍ مثل هذه سوف تظهر باستمرار."

"رائع،" قال. "دعي النزاعات تأتي." ثم خرج. وبعد ذلك، في الفصل الدراسي التالي بالذات، حينما ركضت الطالبةُ تريسي كامنجز إلى بروفيسور روكس، وهي على

شفا البكاء، بالكاد تقدر أن تتكلم، ارتبكتْ حين علمت أن بروفيسور سيلك، من وراء ظهرها، كان قد عينّ أستاذًا عنصريًا خبيثًا كان يُحقِّر من شأنها عنصريًا أمام زملائها في الفصل، فأقرت دلفين أن استدعاء كولمن إلى مكتبها لمناقشة التهمة ليس إلا مضيعةً للوقت. لأنها واثقة من أنه لن يتصرف بتهذّب أكثر مما فعل في المرة الأخيرة حينما تقدمت طالبةٌ بشكواها- وكانت على ثقة من خلال خبرتها السابقة أنها لو استدعته، سوف يتعالى عليها بطريقته المتغطرسة، ذاك أن أنثى مغرورة حديثة العهد بالمركز الرفيع تتجاسر بالتساؤل حول أسلوب إداراته، أن امرأة أخرى يحقّر من شأن تفكيرها تستدعيه إلى مكتبها فيكون عليه أن يتنازل ويتكرم بأن يوليها الاحترام اللائق- لذلك حولّت الأمر كله إلى عميد الكلية المتساهل الذي خَلَفه. منذ ذلك الوقت كان بوسعها قضاء وقت أكثر فائدة مع تريسي، تقوّم سلوكها، تطمئنها، وأيضًا تقود زمام البنت، المراهقة السوداء التي لا أبوان لها والتي بكل قسوة أُجبِرت على أن تفقد الثقة بنفسها، حتى أنها، في الأسابيع الأولى القليلة بعد الواقعة، منعتها من جمع أغراضها والهرب- والهرب إلى لا مكان- حصلت دلفين على تصريح بنقلها من عنبر السكن إلى غرفة مستقلة في شقتها الخاصة لكي ترعاها، مؤقتًا، كنوع من الحماية. وهكذا، مع نهاية السنة الدراسية، كان كولمن سيلك، بإقصائه الطوعيّ لنفسه من الجامعة، كأنما أقرّ جوهريًا بسوء نيته في حكاية *spooks*، وأن الضرر الواقع على تريسي أثبت أنه أكبر من أن تتحمله شخصية واهنة غير واثقة مثلها: غير قادرة على التركيز في واجباتها بسبب التحقيق مع بروفيسور سيلك والرعب من أن يدفع المدرسين الآخرين إلى التحيز ضدها، فرسبت في جميع المواد. جمعت تريسي أغراضها ليس وحسب لتترك الجامعة بل لتترك المدينة بكاملها- خارج أثينا، حيث كانت دلفين تأمل أن تجد لها وظيفة وتجد لها مرشدًا وتراقبها عن كثب إلى يكون أن بوسعها العودة للدراسة. يوما ما استقلت تريسي الباص إلى أوكلاهوما، لتقيم مع أختها غير الشقيقة في تولسا، ولكن باستخدامها عنوان تولسا، لم تعد دلفين قادرة على تحديد مكان الفتاة مجددًا.

بعد ذلك سمعت دلفين عن علاقة كولمن سيلك بفونيا فيرلي، تلك العلاقة التي كان يفعل كل ما بوسعه لكي يخفيها. لم تقدر أن تصدق الأمر- عامان من التقاعد، عمر الواحد والسبعين، ومازال الرجل يخوض في مثل تلك الأمور! مع عدم وجود طالبات إناث يتجاسرن ليسألنه حول تحيزه فيهددهن، مع عدم وجود فتيات سوداوات شابات في حاجة إلى تنشئة ورعاية فيسخر منهن، مع عدم وجود بروفيسورات شابات مثلها يهددن هيمنتَه وسلطانه فيهددهن ويهينهن، بعد كل هذا وصل به الحال أن يلتقط من وحل الممرات السفلية بالكلية، امرأةً خاضعة للاستعباد، هي نموذج الأنثى المقهورة التي لا

حيلة لها: زوجة ناضجة اعتادت أن تُضرب. حينما توقفت دلفين عند مكتب شئون العاملين لتعلم أكثر ما يمكن عن خلفيات فونيا الاجتماعية، وحينما عرفت عن زوجها السابق والموت الفاجع لطفليها الصغيرين- في واقعة حريق أسطوري، وأن الزوج السابق يشكّ فيها إلى حد بعيد- وحينما عرفت عن جهل فونيا ومحدودية مداركها التي جعلتها تعمل في وظيفة خَدَمية وضيعة كحارسة بوابة، أدركت أن كولن سيلك نجح في أن يُخرج ما في قلبه من رغبات كارهة للنساء: في فونيا فيرلي كان قد وجد امرأةً دون حماية أكثر مما كان يجد في إلينا أو تريسي، وجد النموذج المتقن لامرأة بوسعه أن يقهرها. لكل إنسان في أثينا يمكن أن يكون قد تجاسر يومًا وأهان الشعور اللامعقول لدى كولن سيلك بالتفوق، ها هي فونيا فيرلي وُجِدَت لتكون الردَّ على ذلك.

ولن يوقفه أحد، هكذا فكرت دلفين. لا أحد هناك ليقف في طريقه.

مع إدراكه أنه خارج السُّلطة القضائية للجامعة الآن، وبالتالي لا شيء يكبحه عن أخذ ثأره منها- منها هي، نعم، من دلفين، جرّاء كل شيء فعلته لتمنعه من إرهاب طالبتها نفسيًا، منها هي جرّاء الدور الذي لعبته بملء إرادتها لكي تجرده من صلاحياته وتمنعه من دخول الفصول- لم تكن قادرة على احتواء غضبها وشعورها بالانتهاك. فونيا فيرلي كانت بديلتها. من خلال فونيا فيرلي كان يضربها هي، دلفين. مَن سواها وجهًا واسمًا وشكلاً يمكن أن يتخذ فونيا بديلاً له، سواي أنا- فونيا هي الصورة المرآوية لي، فونيا ليست بديلاً لأحد سواي. عن طريق إغواء امرأة تعمل، مثلي، موظفةً في كلية أثينا، وهي كذلك، مثلي، أصغرُ من نصف عمرك- على إنها في المقابل امرأةٌ نقيضٌ لي في كل شيء- فأنتَ بهذا تتنكر بكل مهارة لتخفي جريمتك التي كشفت عن الشخص الذي تودّ أن تدمره. لستَ قليل الفطنة كيلا تعرف ذلك، وكذلك، من موقعك المهيب، تمتلك من القسوة ما يكفي لتستمتع بذلك. ولكنني أيضًا لستُ غبية كيلا أدرك أنها أنا، تمثالي أنا، أنا التي بعيدةٌ عن متناول يدك.

جاء ذلك الاستنتاج بسرعة خاطفة، في عدة جُمَل تفجرت بعفوية، حتى أنها وهي توقّع باسمها في نهاية الورقة الثانية من الخطاب وتكتب العنوان على المظروف، إليه عن طريق مكتب التوزيع العام، كانت ما تزال تغلي مثل بركان لفكرة الشر الكامن في استغلال امرأة محرومة من كل المزايا، فقدت بالفعل كل شيء، كأنها مجرد لعبة، في تحويل امرأة مكافحة مثل فونيا فيرلي، إلى دُمية، فقط لكي ينتقم منها هي. كيف استطاع حتى أن يفعل ذلك؟ كلا، لن تغيّر كلمة واحدة مما كتبت ولن تعبأ حتى بأن تطبعه على الآلة الكاتبة ليكون الخطاب أسهل حين يقرؤه. هي ترفض أن تُفسد رسالتها

التي كانت واضحة الكتابة بخط يدها المائل. فلندعه لا يقدِّر عزيمتَها حق قدرها: لا شيء الآن أهم بالنسبة لها من أن تكشف لكولمن سيلك مَن هو.

ولكنها بعد عشرين دقيقة مزقّت الخطاب. ولحسن الحظ. لحسن الحظ. حينما تكتسحها المثاليةُ الجارفة، لا تستطع دائمًا أن تنظر إليها باعتبارها خيالاً. كانت على حق حينما وبّخت ذلك الحيوان المفترس المستحق التوبيخ. ولكن حين تتخيل أنها أنقذت امرأة ضائعة مثل فونيا فيرلي بينما لم تستطع إنقاذ تريسي؟ أن تتخيل أنها تغلّبت على رجل، في عمره المُرّ الآن، هو حرٌّ ليس وحسب من أي تقييد مؤسسي- كأستاذ للحركات الإنسانية في الأدب الكلاسيكي مثلما كان!- بل كذلك حرٌّ من أي مراعاة واهتمام إنساني؟ بالنسبة إليها ليس هناك شيء أعظم تضليلاً وخداعًا من تصديق أنها ندٌّ لكولمن سيلك في خداعه. حتى خطابٌ مُصاغٌ على نحو شديد الوضوح بشعلة التنافر الأخلاقيّ، خطابٌ يُعلمه بوضوح أن سرّه قد انكشف، وأن قناعه سقط، افتضح، تعرّى، سوف يتحول ذلك الخطاب بين يديه، على نحو ما، إلى تهمة سوف تُرضيها، وسوف، لو سنحت الفرصةُ، تُرمِّمُ أطلالها.

كان متحجر القلب وكان مريضًا بجنون العظمة، وسواء أحبّتْ ذلك أم لا، كانت ثمة أمور عملية لابد من أخذها في الحسبان، اهتمامات ربما لم تعترض سبيلها حينما كانت طالبة في الليسيه ذات توجهات ماركسية جعلتها فاقدة القدرة على تصديق الظلم أحيانًا، ولا تدرك بسماحة إلا الأخلاق العرفية المستقرة. ولكنها الآن أستاذة جامعية، مُنحت منصبًا مبكرًا، رئيسة مجلس إدارة قسمها الخاص، وواثقة من الانتقال يومًا ما إلى برينسيتون، إلى كولومبيا، إلى كورنيل، إلى شيكاغو، وربما لو حالفها النصر تعود إلى 'ييل'. خطابٌ مثل هذا، ممهورٌ بتوقيعها ينتقّل من يد إلى يد عن طريق كولمن سيلك حتى، في الأخير، يجد طريقه إلى كائن مَن كان، بدافع الحسد، بدافع الاستياء، لأنها كانت ناجحة جدًا وشابة جدًا، ربما يدمرها من أساسها... أجل، خطاب بتلك الجرأة مثل هذا، خالٍ من رقيبها الذاتي، ربما يستخدمه كولمن لكي يحقّرها ويسفّهها، لكي يزعم أنها تفتقر إلى النضج، وليس لديها عمل يشغلها كما يليق بشخص متفوق. كولمن لديه صلات وعلاقات، يعرف الكثير من الناس ما يزال- بوسعه أن يفعل ذلك. سوف يفعل ذلك، سوف يشوّه مقصدها ويزيّفه...

بسرعة مزّقت الخطاب إلى قطع صغيرة، وفي منتصف صفحة ورقة خالية، بقلم حبر جاف أحمر لا تستعمله أبدًا للمراسلات، وبحروف كبيرة ثقيلة تلك التي لا أحد بوسعه أن يميّز أنها حروفها، كتبت:

كل الناس يعرفون

ولكن هذا كان كل شيء. أوقفت نفسها هنا. وبعد ثلاث ليال، بعدما أطفأت الأنوار بدقائق، نهضت من السرير، وبعدما عادت إليها حواسُّها، ذهبت إلى مكتبها لكي تكرمش وترمي ثم تنسى إلى الأبد تلك الورقة التي تبدأ بـ: "كل الناس يعرفون"، لكنها بدلاً من ذلك، وهي منحنية على المكتب، دون حتى أن تجلس على الكرسي- خائفةً من أن تفقد أعصابها خلال البرهة التي تستغرقها للجلوس- كتبت في عجالة عشر كلمات إضافية كانت كافية ليعرف أن افتضاح أمره بات وشيكًا. المظروف كان معنونًا، وعليه طابع البريد، دخلت قصاصةُ الورق غير الموقّعة داخله وأُحكِم إغلاقه، ضُغط زرّ أباجورة المكتب وأطفئت، وعادت دلفين إلى فراشها، وقد شعرت بالراحة بعدما حسمت نهائيًا الأمر الأخطر الذي يؤرقها، ثم استسلمت للنوم مطمئنةً البال.

ولكن كان عليها أن تُخمد أي شيء يدفعها لأن تنهض من جديد وتفتح المظروف لتعيد قراءة ما كتبتْ، لترى ما إذا كانت قد قالت شيئًا أقلَّ مما يجب أو أضعفَ وأكثر وهنًا مما ينبغي- أو إن كانت قد قالته على نحو مزعج. بالطبع لم تكن تلك هي صياغتها البلاغية المعتادة. لا يمكن أن تكون. لهذا السبب استخدمتها- كانت مفضوحةً جدًا، سوقية جدًا، صارخةً للغاية بحيث لا يُمكن أن تُنسب إليها. ولكن لهذا السبب ذاته، ربما لم تَرُق لها وبدت لها غير مقنعة. كان عليها أن تنهض لترى ما إذا كانت قد تذكرت أن تجعل خطَّها مُضلِّلا لا يدلّ عليها- لترى ما إذا كان، عن دون قصد، تحت وطأة لعنة اللحظة، لحظة اشتعال الغضب، كانت قد نسيت نفسها ووقّعت باسمها. كان عليها أن ترى ما إذا كان هناك أي شيء يدل عليها بسبب الغفلة. هل فعلت؟ كان عليها أن توقّع باسمها. حياتها كلها كانت معركةً لا ينبغي لها أن ترهب كولمن سيلك، ومَن على شاكلته، أولئك الذين يستخدمون امتيازاتهم لكي يستبدّوا بالآخرين ويجعلوهم يفعلون بالضبط ما يرضيهم. الحديث مع الرجال. الحديثُ مع الرجال بوضوح والإفصاح عن الرأي أمامهم. حتى مع الرجال الأكبر سنًا. تعلُّمُ عدم الخوف من سُلطانهم المفترَض أو حكمتهم المزعومة. إدراكُ أن ذكاءها له أهميته. جرأةُ اعتبار نفسها ندًا لهم. تعلُّمُ، إذا ما خاضت سجالاً أو نقاشًا لا ينفع، أن تتغلّب على الاستسلام، تعلُّمُ استدعاء المنطق والثقة بالنفس والهدوء كي تحافظ على النقاش دائرًا، بصرف النظر عمّا يفعلون وعما يقولون من أجل أن يخرسوها. تعلُّمُ أَخْذ الخطوة الثانية، وتعزيزُ الجهد بدلاً من الانهيار والتداعي. تعلُّمُ مناقشة وجهة نظرها دون نكوص أو تراجُع. ليس عليها أن تراعي رغبته احترامًا له، ليس عليها أن تراعي رغبات أي إنسان. لم يعد كولمن سيلك العميدَ الذي وظّفها. ولم يعد رئيس قسم. هي التي غدت. العميد سيلك أصبح الآن لا شيئًا.

بالفعل عليها الآن أن تفتح المظروف لتوقّع باسمها. هو لا شيء. تلك الكلمة تحمل راحة تشبه راحةَ الصلاة: لا شيء.

ظلت تمشي والمظروفُ المغلق في حقيبتها لأسابيع، تقفز على أسبابها، ليس فقط لتتمكن من إرساله بل لتمضي قُدُمًا في توقيعه. لقد وقع اختياره على تلك المرأة المكسورة التي لا تقدر على الأرجح أن تدافع عن نفسها. تلك التي لا تقدر أن تباريه. تلك التي فكريًّا غير موجودة أصلاً. وقع اختياره على امرأة لم تستطع أبدًا أن تحمي نفسها، ولا تستطيع أن تحمي نفسها، المرأة الأكثر ضعفًا على وجه الأرض من حيث إمكانية استغلالها، المرأة الأقل منه شأنًا على نحو قاس في كافة المستويات- ووقع اختياره عليها بشفافية على النحو المتضاد: لأنه يعتبر كلَّ النساء أقلَّ منه شأنًا، ولأنه مرتعبٌ من كل امرأة لها عقل. لأنني أعبّر عن رأيي دون خوف أو تردد، لأنني لا أسمح بأن يُستبَدَّ بي، لأنني ناجحةٌ، لأنني جذابةٌ، لأن لي عقلاً مستقلاً، لأن لدي تعليمًا من الطراز الأول، ودرجات أكاديمية من الطراز الأول...

وبعد ذلك، هناك في نيويورك، حيث كانت قد ذهبت أحد أيام السبت لكي تزور معرض جاكسون بولوك، سحبت المظروفَ من حقيبتها وأسقطته والخطاب غير الموقّع ذا الاثنتي عشرة كلمة في صندوق البريد بمبنى سُلطة المرافئ، أول صندوق بريد رأته بعدما نزلت من باص بونازا. كان مازال في يدها حينما كانت في نفق المشاة، ولكن بمجرد أن بدأ القطار في التحرك كانت قد نسيت الخطاب، فدسّته من جديد في حقيبتها، وأولت انتباهها كلّه لنفق المشاة. ظلّت مذهولة بنفق المشاة في نيويورك. حينما كانت داخل نفق "مترو" في باريس لم تفكر فيه مطلقًا، لكن المعاناة الكئيبة على وجوه الناس في نفق مشاة نيويورك لم تخفق أبدًا في أن تجعلها تستعيد إيمانها بصواب قرار مجيئها إلى أمريكا. كان نفق نيويورك رمزًا لما جاءت من أجله- رفضُها أن تتقوقع بعيدًا عن الواقع.

استحوذ معرض بولوك على مشاعرها تمامًا حتى إنها شعرت، وهي تتنقل من لوحة هائلة إلى أخرى، بشيء من ذلك الشعور المتضخم الصاخب الذي يشبه هوس الرغبة الجنسية. حينما رنَّ فجأةً الهاتفُ الخلويّ الخاصُّ بامرأة على مقربة منها، بينما كانت كل فوضى اللوحة المعنونة بـ 1-أ، 1948، تحتلُّ الفضاء بوحشية، ذلك الفضاء الذي لم يكن يحتلّه في اليوم السابق لذلك اليوم- العام السابق لذلك العام- أكثرُ من جسدها، انزعجت للغاية من صوت رنين الهاتف حتى أنها استدارت وصرخت: "مدام، أودُّ أن أخنقك!"

ثم ذهبت إلى مكتبة نيويورك العامة في شارع 42. كانت تفعل ذلك دائمًا في نيويورك. تذهب إلى المتاحف، إلى الجاليري، إلى الكونشرتو، تذهب إلى الأفلام السينمائية التي لن تجد طريقها أبدًا إلى قاعات العرض المفزعة في غابات أثينا، وفي الأخير، وبصرف النظر عن الأمور المحددة التي جاءت نيويورك لكي تفعلها، كانت تجلس لساعة أو نحو ذلك لتقرأ الكتاب الذي أحضرته معها في قاعة القراءة العامة بالمكتبة.

كانت تقرأ. تنظر حولها. تلاحظ. لديها افتتان قليل بالرجال هناك. في باريس كانت قد شاهدت فيلم "رجل الماراثون"[155] في أحد المهرجانات. (لا أحد يعرف أنها في الأفلام تكون عاطفية على نحو شنيع وتقريبًا على وشك البكاء.) في "رجل الماراثون" كانت الشخصية النسائية، الطالبة المخادعة، تجلس في مكتبة نيويورك ثم تعرفت على داستين هوفمان والتقطها، وهكذا ظلت دائمًا في تلك الإضاءة الرومانتيكية تفكر في مكتبة نيويورك العامة. حتى الآن لم يتعرف عليها أحد هناك ليلتقطها، فيما عدا طالب الطب الذي كان صغيرا جدًا، ومازال على طبيعته الخام جدًا، حتى أنه على الفور قال الكلام الخطأ. فورًا قال شيئًا عن لكنتها، فلم تتحمّله. الولد الذي لم يعش بعد ما يكفي من العمر. جعلها تشعر أنها جَدّة. كانت، وهي في مثل عمره، قد خاضت العديد من علاقات الحب وفكرت كثيرًا وأعادت التفكير، ومرّت بالعديد من مستويات المعاناة- في عامها العشرين، حين كانت أصغر منه بسنوات، كانت قد عاشت بالفعل قصة حبها الكبرى ليس مرةً واحدة بل مرتين. كانت، بشكل أو بآخر، قد جاءت إلى أمريكا هربًا من قصة حب (وكذلك لكي تصنع خروجَها كممثلة صغيرة في دراما طويلة الأمد- عنوانها إلخ- تلك التي كانت تقريبًا هي الحياة الإجرامية الناجحة الخاصة بوالدتها). ولكنها الآن وحيدة للغاية في محنة محاولتها أن تجد رجلاً تتواصل معه.

الآخرون الذين يحاولون أحيانًا أن يتعرفوا عليها يقولون شيئًا مقبولاً بما يكفي، وأحيانًا ساخرًا بما يكفي، أو ماكرًا بما يكفي، لكي يكونوا مهذبين، ولكن بعد ذلك- غالبًا لأنها أكثر جمالاً مما قد يستوعبون، ولأنها أكثر غطرسةً مما قد يتوقعون، بالنسبة لامرأة صغيرة جدًا- فإنهم يشعرون بالخجل وينسحبون. وأولئك الذين ينظرون إلى عينيها مباشرة هم بالضبط مَن لا تحبهم. وأولئك الذين يتوهون في كتبهم، الشاردون المسحورون، هم... المستغرقون في كتبهم. مَن ذاك الذي تبحث عنه؟ هي تبحث عن الرجل الذي سوف يميّزها. تبحث عن المميِّز الأعظم.

---

155 - Marathon Man. فيلم أمريكي انتاج 1976، بطولة داستين هوفمان، و لورانس أوليفر. (المترجمة)

هي اليوم تقرأ، بالفرنسية، كتابًا من تأليف جوليا كريستيفا. بحثٌ من أعظم ما كُتب على الإطلاق عن حالات الحزن، وأمامها على الطاولة المجاورة ترى رجلاً يقرأ، كتابًا بالفرنسية لزوج كريستيفا، فيليب سولرز. سولرز هو الشخص الذي أصبحت ترفض أن تأخذ هزلَه على محمل الجد بسبب كل ما فعلته في مرحلة سابقة من مراحل تطورها الفكري؛ الكتّاب الفرنسيون الهزليون، على عكس الكُتّاب الأوروبيين الشرقيين الهزليين مثل كونديرا، لم يعودوا يرضونها... لكن تلك لم تكن المسألة في مكتبة نيويورك العامة. المسألة كانت المصادفة، المصادفة التي كانت مشئومة تقريبًا. في حالتها الملهوفة القلقة تلك، دلفت في آلاف التأملات حول الرجل الذي كان يقرأ سولرز بينما كانت هي تقرأ كريستيفا وتشعر بأنها على وشك ليس فقط التعرف عليه بل بأنها على وشك علاقة غرامية. هي تعلم أن هذا الرجل ذا الشعر الداكن والأربعين أو الاثنين وأربعين عامًا يمتلك بالضبط الجاذبية التي لم تستطع أن تجدها في أي رجل في أثينا. والذي استطاعت أن تخمّنه من أسلوب جلوسه الهادئ وقراءته جعل أملها يتزايد بأن شيئًا ما على وشك الحدوث.

وحدث شيء: جاءت فتاةٌ والتقت به، فتاة دون شك، امرأة أصغر منها حتى، ومضيا معًا، فجمعت أغراضَها وغادرت المكتبة وفي أول صندوق بريد رأته، أخرجت الخطاب من حقيبتها- الخطاب الذي ظلّت تحمله لأكثر من شهر- ودفعته بقوة في الصندوق بشيء يشبه الغضبَ ذاته الذي أخبرتْ به المرأةَ في معرض بولوك بأنها تود أن تخنقها.

هناك! لقد ذهب! لقد فعلتُها! جميل!

خمسُ ثوانٍ كاملة يجب أن تمرَّ قبل أن يغمرها هوْلُ الحماقة فتشعر بركبتيها تخذلانها وتخوران. "أوه، يا إلهي!"

حتى بعدما تركتِ الخطابَ غُفلاً من التوقيع، حتى بعدما اصطنعت أسلوبًا بلاغيًّا سوقيًّا لا يشبه أسلوبَها، إلا إن مصدر الخطاب لن يكون غامضًا على شخص راسخٍ مولع بها مثل كولن سيلك.

الآن، لن يتركها أبدًا في حالها.

(4)

أيُّ مهووسةٍ دبّرتها؟

رأيتُ كولمن حيًّا مرةً واحدة أخرى بعد شهر يوليو ذاك. هو نفسه أبدًا لم يخبرني بزيارته الجامعة أو مكالمته التليفونية لابنه 'جيف' من اتحاد الطلبة. عرفت أنه كان في حرم الجامعة ذلك النهار لأنه شوهد هناك- دون قصد، من نافذة المكتب- شاهده زميلُه السابق هيرب كيبل، الذي، قرب نهاية حديثه في الجنازة، ألمح إلى رؤيته كولمن يقف مختبئًا خلف الحائط المظلّل للقاعة الشمالية، يبدو عليه أنه يتخفّى لأسباب كان بوسع كيبل وحده أن يخمّنها. عرفتُ بمكالمة التليفون لأن 'جيف' سيلك، الذي تحدثتُ معه بعد الجنازة، ذكر شيئًا عنها، بما يكفي لأعرف أن المكالمة تمت بوحشية أكبر من سيطرة كولمن. ومن نيلسون بريماس نفسه عرفتُ بالزيارة التي قام بها كولمن لمكتب المحامي مبكرًا في اليوم نفسه الذي كلّم فيه 'جيف' والتي انتهت، مثلما انتهت المكالمة الأخرى، بكولمن وأطرافه ترتعش في تقزز ذميم. بعد ذلك، لا 'بريماس' ولا 'جيف' تحدثا مع كولمن إلى الأبد. لم يردّ كولمن على مكالمتهما ولا على مكالماتي- وتبينّ أنه لم يرد على مكالمات أي إنسان- وفيما بعد بدا أنه عطّلَ جهازَ الأنسر ماشين، لأن التليفون كان يرنُّ إلى النهاية حينما كنت أحاول أن أهاتفه.

كان يجلس في البيت وحيدًا، على كل حال- لم يكن يخرج. عرفتُ أنه كان هناك لأنني، بعد أسبوعين من المكالمات التليفونية الفاشلة، في أحد مساءات السبت المبكرة من أغسطس قدتُ سيارتي بعد هبوط الظلام لأتفقد الأمر. فقط بعض المصابيح القليلة كانت مضاءة ولكن، بعدما أوقفتُ سيارتي جوار شجرة كولمن الضخمة العتيقة ذات الأغصان، أبطلتُ الموتور، وجلستُ دون حراك في السيارة على الطريق الأسفلت أسفل المرج المتموج، ثمة موسيقى راقصة كانت تنساب من النوافذ المفتوحة في البيت الخشبي الأبيض ذي المصاريع السوداء، برنامج FM الذي يمتد طوال مساء السبت، والذي يعود بكولمن إلى ذكريات ستينا بولسون وغرفة البدروم في شارع سوليفان بعد الحرب مباشرة. هو الآن هناك مع فونيا، كلٌّ منهما يحمي الآخر من كل الآخرين- كلٌّ منهما، بالنسبة للآخر، كان هو كل الآخرين. هما هناك يرقصان معًا، على الأرجح دون ثياب، فيما وراء محاكمة العالم، في فردوس سماوي غير أرضي من الشبق الراسخ حيث ازدواجهما هو الدراما التي فيها يصبّان كل إحباطهما الغاضب من حياتهما. أتذكر شيئًا كان كولمن أخبرني أن فونيا قالته لحظةَ شفق الغروب في إحدى أمسياتهما معًا،

بعدما كان الكثير فيما يبدو قد حدث بينهما. كان قد قال لها: "هذا أكثر من الجنس،" فردّت عليه بفتور: "لا، ليس صحيحًا. أنت وحسب قد نسيتَ ما هو الجنس. هذا جنس. من تلقاء نفسه. لا تتملّقه بزعمك أنه شيء آخر."

مَن هما الآن؟ هما النسخةُ الأكثر بساطة على الإطلاق من نفسيهما. جوهر الفردانية المطلق. كلُّ شيء مؤلم تخثّر الآن وتحوّل إلى عاطفة. هما ربما حتى لا يندمان لأن الأشياء لم تكن على نحو مختلف. هما متخندقان في الاشمئزاز من ذلك. هما خارج كل الأشياء التي كانت تتراكم فوق رأسيهما. لا شيء في الحياة يغريهما، لا شيء في الحياة يثيرهما، لا شيء في الحياة يُخمد ازدراءهما للحياة سوى علاقتهما وهواهما. مَن يكون هذان الشخصان المتباينان بشكل عنيف، المتآلفان على نحو متنافر في الواحدة والسبعين والرابعة والثلاثين؟ هما الآن الكارثةُ التي حُرِّمَت عليهما. على وقع فريق تومي دورسي والغناء الخافت للشاب سيناترا، يرقصان على طريقتهما الخاصة عاريين تمامًا داخل الموت العنيف. كل إنسان في الحياة يصنع النهايةَ على نحو مختلف: هكذا حلَّ كل منهما المشكلةَ. ليس الآن من طريقة يوقفان نفسيهما بها في الوقت المناسب. قُضي الأمر.

لم أكن وحدي من يُنصت إلى الموسيقى من الطريق.

حينما لم يُجَب على مكالماتي، افترضتُ أن كولمن يودُّ ألا يكون بيننا علاقة مستقبلاً. شيء ما كان على غير ما يرام، وافترضتُ، كما يفعل المرءُ حين تنتهي صداقةُ على غير توقّع- صداقةُ حديثة بالأخصّ- أنني مسئول، لو لم يكن بسبب كلمة طائشة لفظتُها أو فعلٍ أتيته وأغضبه بعمق أو آذاه، فلأنني كنتُ الذي أنا وما أنا. كولمن كان هو الذي جاء إليّ أولاً، تذكرون، لأنه، على نحو غير واقعيّ، كان يرجو أن يقنعني أن أكتب الكتابَ الذي يفسر كيف قتلتِ الجامعةُ زوجتَه؛ وكان آخر ما يريده هو أن يسمح لهذا الكاتب أن يحشر أنفه في حياته الخاصة. لم أستطع أن أستنتج غير أن إخفاءه عني تفاصيل حياته مع فونيا كان، لأي سبب من الأسباب، يبدو له أكثر حكمة من استمرار ثقته بي.

بالطبع لم أكن أعرف وقتها شيئًا عن حقيقة أصوله- تلك التي عرفتها حصريًا في الجنازة- ولذلك لم أستطع أن أخمّن أن السبب في أننا لم نلتق أبدًا خلال السنوات قبل وفاة آيريس، السبب في أنه لم يكن يريد أن يلقاني، هو أنني كنتُ قد نشأتُ في مكان يبعد أميالاً قليلة عن أورانج الشرقية، وأنه من الطبيعي جدًّا أن أكون على ألفة بالمنطقة، فربما أكون على دراية بمجريات الأمور أو فضوليًا فأكشف جذوره في جيرسي. لنفرض أنه تبينّ أنني كنتُ أحد الأولاد من يهود نيوآرك في فصول دوك تشيزنر

للملاكمة؟ والحقيقة أنني كنتُ أحدهم، ولكن ليس حتى عامي 1946-1947، حيث الوقتُ الذي لم يعد سيلكي فيه يساعد دوك في تعليم الأولاد مثلي الطريقةَ الصحيحة للوقوف والحركة وتسديد اللكمات، بل كان وقتها في جامعة نيويورك في مرحلة التجنيد حسب لائحة جي آي بيل[156].

الحقيقة هي أنه، في اتخاذه لي صديقًا أثناء وقت كتابته مسودة كتاب Spooks، كان يغامر، وكان أحمق في ذلك، بسبب احتمال أن ينكشف، بعد ستة عقود من التخفّي، بوصفه الطالبَ الزنجيَّ الأول على فصله من إيست أورانج، الولد الملوّن الذي كان يلاكم حول جيرسي في جولات الهواة مع أولاد نادي شارع مورتون قبل أن يلتحق بسلاح البحرية كرجل أبيض؛ الانقضاضُ عليّ في منتصف ذلك الصيف كان يحمل معنى لكل احتمال ممكن، حتى ولو لم أستطع تخيُّل كيف يكون ذلك.

حسنًا إذن، عودةً إلى المرة الأخيرة التي رأيته فيها. في أحد أيام سبت شهر أغسطس، وهربًا من الوحدة، قدتُ سيارتي إلى غابة تانجل لأستمع إلى تمرين الغناء المفتوح في برنامج الكونشرتو التي كانت بمثابة بروفة لليوم التالي. بعد مرور أسبوع من اليوم الذي صففتُ فيه سيارتي جوار منزله، كنتُ مازلتُ أفتقد كولمن وأفتقد تجربة أن يرافقني كصديق حميم، ولذلك فكرتُ أن أجعل من نفسي جزءًا من ذلك الجمهور الصغير من مستمعي نهار السبت الذي يملأ تقريبًا ربع سقيفة الموسيقى المخصصة لتلك التمارين الموسيقية، جمهور الصيف الشعبيون الذين يعشقون الاستماع إلى الموسيقى وزيارة طلاب الموسيقى، ولكن معظمهم كان من السواح المسنّين، كهولاً يلبسون سماعات وآخرين يحملون نظارات مكبرة وآخرين يقلّبون في صفحات نيويورك تايمز من أولئك الذين حجزوا مقاعدهم في الباص إلى بيركشاير من أجل هذا اليوم.

ربما كانت الغرابة المتولدة من تجوالي هنا وهناك في المكان هي التي فعلت هذا، أو ربما التجربةُ الفجائية لأكون كائنًا اجتماعيًا (أو كائنًا يتظاهر بالاجتماعية)، أو ربما كان السبب هو الفكرة الزائلة التي كوّنتُها حول العجائز المحتشدين الذين توافدوا كمسافرين ورُحّل، ينتظرون الطفوَ بأرواحهم فوق طوّافة الموسيقى هربًا من الانغلاق القاسي للسن الطاعنة، ولكن في هذا السبت المشمس الصحو في آخر صيف في حياة كولمن سيلك، ظلّت سقيفةُ الموسيقى تذكّرني بالجسر ذي الجانب المفتوح الذي كان يمتد فيما مضى من كهوف هادسون، كأنما أحد تلك العوارض المعدنية الفسيحة تؤرخ لبواخر المحيط حينما كانت تصطفّ على مرفأ منهاتن وتعلو عن سطح الماء بكل

[156] - G.I. Bill، لائحة إعادة تصحيح لقانون الجنود المشرع عام 1944 بالولايات المتحدة. يصحح وضع المحاربين القدامى في الحرب العالمية الثانية، حيث يمنحهم تعويض سنة بطالة، وقروضًا لشراء منازل وشركات. (المترجمة)

ضخامتها لتمتد نحو الشمال مائة وعشرين ميلاً، وجنوبًا نحو المروج الفسيحة في تانجل وود، رسوٌّ متقنٌ يستهدفُ الأشجار العالية والمنظر الطبيعي الكاسح في نيو إنجلاند الجبلية.

بينما كنتُ أتوجه إلى مقعد فردي شاغر وقع بصري عليه، أحد المقاعد القليلة الخالية القريبة من المنصة من تلك التي لم يخترها أحدٌ بعد لأنها محجوزة بسُترة أو جاكيت مُعلّق عليها، ظللت أفكر في أننا، نحن الحضور، كنا ذاهبين جميعًا إلى مكان ما معًا، كنا قد ذهبنا بالفعل إلى هناك، تاركين كل شيء وراءنا... حينما كان كل ما نفعله هو تهيئة أنفسنا لسماع فريق أوركسترا بوسطون يتمرن على راحمانينوف، بروكوفيف، ورمسكي كورساكوف. تحت أقدام سقيفة الموسيقى كانت ثمة أرضية ترابية بُنيّة لا يمكن جعلها أنظف بينما مقعدك مغروس في اليابسة؛ تعشش على رءوس المنشأة طيورٌ تسمعُ زقزقتَها خلال لحظات الصمت الثقيل بين حركات الأوركسترا، طيور السنونو والنمنمة الصغيرة التي تضرب بأجنحتها هناك عند الغابات أسفل التلّ ثم تمضي بنشاط من جديد بأسلوب لم يجرؤ طائرٌ أن يتبعه منذ سفينة نوح العائمة. كنا على مسافة ثلاث ساعات بالسيارة غرب الأطلنطي، إلا أنني لم أستطع التخلص من ذلك الوعي الشعوريّ المزدوج بأن أكون حيث أنا الآن أو أن أنصرف، مع بقية كبار السن المتقاعدين، إلى حيث المجهول الغائم الغامض.

هل كان الموتُ وحده يكمن داخل عقلي وانا أفكّر في الترجّل من السفينة؟ الموتُ، وأنا نفسي؟ الموتُ وكولمن؟ أم كان هو الموتُ ورهطٌ من الناس قادرين مازالوا على الشعور بالبهجة في الاحتشاد في الباص مثل جماعة كشّافة خرجوا في نزهة صيفية، ولكن، كحشد بشري ملموس، ككتلة ضاجّة بالمشاعر من اللحم البشري والدم الأحمر الدافئ، معزولة عن النسيان بطبقة رقيقة هشّة من الحياة؟

كان البرنامج الذي يسبق التمرين الغنائي يوشك على الانتهاء حينما وصلتُ. وقف مُحاضرٌ رشيق في قميص رياضيّ وبنطال كاكيّ أمام مقاعد الأوركسترا الشاغرة يقدم للجمهور آخر مقطوعة سوف يستمعون إليها- على آلة اسطوانات تعزف لهم مقطوعات من رحمانينوف وراح يتكلم بمرح عن "الطبيعة الإيقاعية القاتمة" للرقصات السيمفونية. وما أن انتهى وانفجر الحضورُ في التصفيق دخل شخصٌ من أحد الأروقة ليرفع الأغطيةَ عن الآلات الإيقاعية ويوزع النوتات الموسيقية على الحوامل المعدنية. في الناحية البعيدة من المنصّة، ظهر رجلان من هيئة المسرح يحملان القيثارة الضخمة، ثم دخل العازفون، يثرثرون بعضهم مع بعض فيما يتوزعون على أماكنهم، كلٌّ منهم، مثلما كان المُحاضِر، يلبس ملابس نهارية عادية- عازف الفلوت في سويت شيرت رمادي بقلنسوة،

وكل من عازفي الكونترباص كان يلبس بنطلونًا Levi's[157] أزرق باهتًا، ثم عازفو الكمان، رجال ونساء متشابهو الهيئة، من النظرة الأولى، بدوا أنهم من بانانا ريبابليك[158] بأمريكا الوسطى. بينما كان قائد الأوركسترا يلبس نظارته- قائد زائر، سيرجي كوميشيونا، مسنٌّ روماني في قميص بياقة عالية، وخصلة شعر بيضاء أعلى الرأس، وحذاء أزرق بالأسفل- بدأ الجمهور الطفولي المهذب في التصفيق ثانيةً، لاحظتُ كولمن وفونيا يمشيان في الممشى بالأسفل، يبحثان عن مكان قريب ليجلسا. وبينما كان الموسيقيون على وشك تجهيز أنفسهم، وقد اتخذوا أماكنهم وبدءوا في دوزنة آلاتهم، كان الاثنان- المرأة الشقراء الطويلة ذات الوجه النحيل، والرجل النحيل الوسيم ذو الشعر الرمادي الذي ليس في طولها بينما هو أكبر منها عمرًا بكثير- يأخذان طريقهما نحو مقعدين أسفل مقعدي بثلاثة صفوف وعلى يميني بحوالي عشرين قدمًا.

كانت مقطوعة ريمسكي كورساكوف[159] من قصص الجنيات المنغّمة على المزمار والفلوت، عذوبتها ساحقة لم يستطع الجمهور أن يقاومها، وحينما وصل الأوركسترا إلى نهاية المقطوعة المؤثرة الأولى انساب التصفيق من جديد مثل جيشان براءة من الجمهور المسنّ. كشف الموسيقيون بالفعل الجانبَ الأكثر شبابًا وبراءة من أفكارنا عن الحياة وخلّوها عاريةً، كشفوا التّوقَ الذي لا يبلى للأسلوب الذي لا تكون عليه الأمور ولا يمكنها أبدًا أن تكون عليه. أو هكذا كنتُ أفكر وأنا أحوّل بصري لأحدّق صوب صديقي السابق وعشيقته لأجدهما لا يبدو عليهما أي شيء غير عادي أو أية عزلة إنسانية مثلما كنتُ أتصورهما منذ توارى كولمن عن الأنظار. لا يبدوان شخصين متطرفين، على الأقل فونيا، التي ملامحها اليانكي المنحوتة جعلتني أفكر في غرفة ضيقة لها نوافذ ولكن دون باب. لا يبدو على هذين الشخصين أنهما في نزاع مع الحياة أو أنهما واقعان تحت وطأة هجوم- أو حتى في حال دفاع. ربما لو كانت وحدها، في ذلك المحيط الغريب عليها، ربما لم تكن فونيا لتبدو مطمئنةً للغاية كما تبدو الآن، ولكن مع كولمن إلى جوارها، بدت أُلفتُها في الجلوس لا تقلّ عن ألفته. لم يكونا يبدوان مثل اثنين مجرمين مستهترين يجلسان معًا بل بالأحرى كانا مثل شخصين وصلا إلى الدرجة العليا من السكينة والهدوء، شخصين لم ينتبها عن طريق المشاعر أو الخيال إلى أن وجودهما معًا ربما يسبب كمدًا لبعض الناس في أي مكان في العالم، فضلاً عن مقاطعة بيركشاير.

---

[157] - levi's بنطلون أزرق ضيق بأزرار نحاسية. (المترجمة)

[158] - Banana Republic، مصطلح يشير إلى دولة مضطربة سياسيًا يقوم اقتصادها على منتج زراعي محدود، مثل الموز مثلا، وتحكمها زمرةٌ منتخبة من الأثرياء الذين يجمعون بين الاقتصاد والعمل السياسي. (المترجمة)

[159] - ريمسكي كورساكوف مؤلف موسيقي روسي شهير. صاحب مقطوعة شهرزاد. (المترجمة)

كنتُ أتساءلُ ما إذا كان كولن قد لقّنها سلفًا كيف كان يريدها أن تُحسن التصرف. أتساءلُ ما إذا كانت تُنصت إليه إن هو فعل. أتساءلُ ما إذا كان التلقينُ ضروريًا. أتساءلُ لماذا اختار أن يأتي بها إلى تانجل-وود. هل ببساطة لأنه كان يريد أن يستمع إلى الموسيقى؟ أم لأنه كان يريدها أن تستمع هي للموسيقى وأن تشاهد الموسيقيين على الطبيعة؟ تحت رعاية أفروديت، في هيئة بجماليون، وفي ضواحي تانجل وود، كان الآن ثمة بروفيسور كلاسيكيات متقاعدٌ في صحبة فونيا المتمردة الحرون التي أخرجها للحياة كأنها جالاتيا[160]، تلك المتحضّرة صاحبة الذوق الرفيع؟ هل كان كولن منخرطًا في تعليمها، والتأثير فيها- منخرطًا في إنقاذها من مأساة شذوذها؟ هل كانت تانجل وود هي الخطوة الكبرى الأولى نحو صناعة تماسكهما الاستثنائي العنيد خارج التقاليد؟ لماذا بهذه السرعة؟ لماذا أصلاً على الإطلاق؟ لماذا، بينما كل شيء بينهما كان يتطور بخفاء خشن في سرية تامة تحت سطح الأرض؟ لماذا يعبآن بأن يُطبِّعا أو ينظّما ذلك الاتحاد بينهما، لماذا حتى يحاولان، بتجوالهما معًا مثل "زوجين"؟ بينما ظهورهما المعلَن معًا لن يفعل إلا أن يستحثّ كثافة علاقتهما وقوتها على التآكل، هل هذا، بالفعل، هو حقًّا ما كانا يريدان؟ ماذا يريد؟ هل يريد الآن ترويض ذلك الشيء الفطريّ الأوليّ في حياتهما، أم أن وجودهما هنا معًا لا يحمل مثل هذا المعنى؟ هل كانت تلك نكتةً ما يلعبانها معًا، فصلاً مثيرًا من مسرحية، هل كان تحريضًا حذرًا؟ هل كانا يبتسمان لنفسيهما، ذلكما الوحشان الشهوانيان، أم كانا وحسب يُنصتان إلى الموسيقى؟

ولأنهما لم ينهضا ليتمطيا أو يتجولا في أثناء فترة استراحة الأوركسترا بينما البيانو يدخل إلى المنصة- من أجل مقطوعة البيانو في الكونشرتو الثاني لبروكوفيف- فقد بقيتُ في مكاني أنا أيضًا. ثمة لسعةٌ من البرد داخل السقيفة، تنتمي إلى برد الخريف أكثر مما تنتمي للصيف، رغم ضوء الشمس، الذي كان ينشر ألقَه على مدى المرج العظيم، لسعة البرد تلك كانت بمثابة تحذير لأولئك الذين يفضّلون أن يستمعوا ويمتِّعوا أنفسهم بالموسيقى من خارج السقيفة، معظمهم كانوا من المستمعين الشباب في العشرين من أعمارهم، أزواج وأمهات يحملن أطفالهن وعائلات خرجت للتنزه وشرعت الآن في تناول غدائها من سلال بأغطية. على بعد ثلاثة صفوف للأسفل من مقعدي، كان كولن يميل برأسه قليلاً نحو رأسها، ويتحدث إلى فونيا بهدوء، بجدية، ولكن عن أي شيء، بالطبع، لم أعلم.

---

[160] - جالاتيا هو الاسم الذي أطلقه بجماليون Pygmalion على تمثال العاج الذي نحته على هيئة امرأة جميلة وقع في هواها وتضرع لأفروديت أن تهبها الحياة ليتزوجها، وهو ما كان حسب الأسطورة الشهيرة. (المترجمة)

لأننا لا نعلم، أليس كذلك؟ فكل الناس يعلمون... كيف يجري ما يجري بالطريقة التي يجري بها؟ ما الذي يُنظّم فوضى قطار الأحداث، الشكوك، الحوادث المؤسفة، النزاعات والشقاقات، المخالفات الصادمة التي توضح طبائع العلاقات الإنسانية؟ لا أحد يعرف، أيتها البروفيسور دلفين روكس. "كلُّ الناس يعرفون" ما هو إلا توسّلٌ لعبارة أكلشيه مكرورة وبدايةٌ لتسطيح التجربة، وهو القداسةُ والشعور بالسُّلطة التي يمتلكها الناس للجهر بأكلشيهات لا تُطاق. ما نعرفه هو أن، بطريقة غير أكلشيهيه، لا أحدَ ثمة يعلم أي شيء. ليس بوسعك أن تعلمي أي شيء. الأشياء التي تعرفينها لا تعرفينها. النوايا؟ الدوافع؟ النتائج؟ المعاني؟ كل ما لا نعرفه مذهلٌ. والأكثر إذهالاً هو ما يمرُّ على المعرفة فنظنه شيئًا آخر.

بينما بدأ المستمعون يتوافدون عائدين إلى أماكنهم، بدأتُ، على نحو كارتوني هزليّ، أتخيّل الداء القاتل الذي كان، دون أن يفطن إليه أحد، يعتمل في داخلنا، داخل كل وأي واحد منا: أتخيل الأوعيةَ الدموية وهي تنسدُّ تحت قبّعات البيسبول، الأورام السرطانية وهي تتضخم تحت الشعر الأبيض المجعّد، الأعضاء وهي تشرع في التعطل، الضمور، الانغلاق، مئات البلايين من الخلايا الإجرامية على نحو سرّي تُسيّر تلك الكتلةَ البشرية الضخمة من جمهور الناس إلى الأمام قُدُمًا نحو الكارثة البشعة. لم أستطع أن أوقف نفسي. الإقصاءُ المذهل الذي هو الموت يكتسحنا جميعًا. الفرقة الموسيقية، الجمهور، قائد الأوركسترا، الفنيّون، طيور السنونو، طيور السكسك- فكروا في عدد الأرواح في تانجل-وود فقط بين الآن وعام 4000. ثم اضربوا هذا الرقم في عدد كل شيء. البرودة القارسة. يا لها من فكرة! أيُّ مجنون تصوّرها؟ ولكن يا له من نهار جميل هذا اليوم، هِبَةُ النهار، نهار متقن لا ينقصه شيء في مكان عطلة ماساتشوستس ذاك الذي هو النهار نفسه في أي مكان فوق الأرض.

ثم ظهر برونفمان. برونفمان هو البرونتصور[161]! مستر فروتيسيمو! دخل برونفمان ليعزف مقطوعة بروكوفييف على البيانو بتلك الوتيرة وهذه الجسارة لكي يطيح بمرضى خارج الحلبة. هو ضخم على نحو ملفت في جذعه الأعلى، قوة الطبيعة مُموّهةٌ في الكنزة الرياضية الفضفاضة، شخصٌ ما يتمشّى داخل سقيفة الموسيقى خارجًا من الملعب حيث هو الرئيس القوي الذي أخذ البيانو كتحدٍّ فاضح للقوة العملاقة التي يعربدُ فيها. بدا ييفيم برونفمان أقلَّ شبهًا بشخص سيعزف البيانو من ذلك الشخص الذي سينقل البيانو. لم أكن قد رأيت من قبل أبدًا شخصًا سيجلس إلى البيانو يشبه مثل هذا البرميل المتين الذي لرجل يهودي روسي غير حليق. حينما سينتهى من العزف، كنتُ

[161] - brontosaur، ديناصور ضخم يقتاتُ على الأعشاب يرجع وجوده إلى العصر الجوراسيّ. (المترجمة)

أفكر، سيكون عليهم أن يلقوا بذلك الشيء الذي كان اسمه "بيانو" للخارج. لأنه كان يسحقه. لم يكن يسمح للبيانو بأن يُخفي شيئًا. أيًّا ما كانت النتائج، وما سيخرج مع النغمات للهواء من أصابع البيانو. وحينما سيحدث ذلك، وينطلق كل شيء خارجًا للعلن، آخرُ آخرَ النبضات، سينهضُ الرجل ويمضي، تاركًا وراءه انعتاقنا. ومع تماوجة متبخترة، مضى الرجلُ بغتةً، ورغم أنه أخذ معه جحيمَه بقوة لا تقل عن قوة بروميثيوس[162]، إلا أن حياتنا الآن تبدو غير قابلة للانطفاء. لا أحد يحتضر، ليس من أحد- ليس إلا إذا كان لدى برونفمان شيء ليقوله حول ذلك!

هناك استراحة أخرى في الحفل، وحينما نهضت فونيا وكولن هذه المرة، ليبرحا السقيفة، مضيتُ أنا أيضًا. تركتهما يسبقانني، لستُ أعرف كيف أقتربُ من كولن- وهو فيما يبدو لم يعد في حاجة إليّ مثلما لم يعد بحاجة لأي شخص آخر في الجوار- هذا ما إذا كنت سأقترب منه على الإطلاق. لكنني أشعرُ بافتقاده. ثم ماذا فعلتُ أنا؟ صعد حنيني لصديقي إلى السطح مثلما حدث حينما التقينا أول مرة، ومن جديد، بسبب مغناطيسية كولن تلك، وذلك الإغواء الذي لم أستطع أبدًا أن أحدّده، لم أجد طريقة فعّالة لإخماد حنيني إليه.

كنت أرقبُهما من على مسافة حوالي عشرة أقدام للوراء وهما يتحركان ضمن خليط بشري نحو أعلى منحدر الممشى في اتجاه المرج المشمس، كولن يتحدث بهدوء إلى فونيا، ومن جديد يده بين عظمتي كتفيها، راحةُ يده على عمودها الفقري يوجّهها وهو يشرح لها ما كان يشرحه الآن حول أيّ من الأمور التي لم تكن تعرفها. في الخارج، مضيا نحو المرج، على الأغلب نحو البوابة الرئيسية والحقل الترابيّ حيث موقف السيارات، ولم أسعَ إلى تتبعهما. حينما حدث ونظرت إلى الخلف نحو السقيفة، كان بوسعي أن أرى ما بالداخل، تحت أضواء المنصّة، الثماني كمنجات الجميلة ذوات الصوت الجهوري مرصوصةً في صفٍّ أنيق حيث تركها الموسيقيون، قبل أن يخرجوا للاستراحة، ترتاح على جوانبها. لماذا يذكّرني هذا أيضًا بموتنا جميعًا ذاك الذي لا أجد له تفسيرًا؟ مقبرةٌ من الآلات المرصوصة أفقيًّا؟ ألم تكن تستطيع تلك الكمنجات أن تضع نفسَها في ذهني على هيئة أكثر إبهاجًا، مثل سرب من الحيتان مثلاً بدلاً من ذلك؟

كنتُ واقفًا في المرج أتمطّى، ناهلاً من دفء الشمس على ظهري لثوان قليلة أخرى قبل العودة إلى مقعدي لأستمع إلى رحمانينوف، حينما رأيتهما عائديْن- من الواضح أنهما كانا قد تركا مكانيهما تحت السقيفة ليتمشيا على المرج، ربما لكي يريها كولن

[162] - الذي سرق شعلة النار من السماء ليهديها للبشر، فعاقبة زيوس، كبير الآلهة، بأن تنهش النسورُ كبده إلى الأبد، كما تقول الأسطورة الإغريقية الشهيرة. (المترجمة)

مشهدَ الجنوب- والآن كانا قد توجّها عائدين ليستمعا إلى الأوركسترا وهي تختتم افتتاحها لتمرين الغناء على نغمات السيمفونيات الراقصة. لكي أعلمُ ما يمكن أن أعلمه، قررت لحظتها أن أتوجّه إليهما مباشرة فيما كانا لا يزالان يبدوان مثل شخصين شأنهما الخاص يخصهما وحدهما وفقط. رحتُ ألوّح لكولمن، ألوّح وأقول: "هاللو. كلومن، هاللو،" وقاطعتُ طريقهما.

"ظننتُ أني رأيتُك،" قال كولمن، ومع أنني لم أصدقه، رحتُ أفكر، ماذا عساه يقول أفضل من هذا لكي يطمئنها؟ لكي يطمئنني. لكي يطمئن نفسه. ودون أثر لأي شيء عدا عميد الكلية الهادئ البال العنيد الساحر، الذي ظاهريًا لم يبدُ على الإطلاق متوترًا بظهوري المفاجئ، قال كولمن: "مستر برونفمان لا أذكر بقية اسمَه. كنتُ أخبر فونيا أن له عشر سنوات على الأقل بعيدًا عن ذلك البيانو."

"كنتُ أفكر في الأمر نفسه أيضًا."

"هذه فونيا فيرلي،" قال لي، ولها قال: "هذا ناثان زوكرمان. لقد التقيتما في المزرعة."

أقرب إلى طولي من طوله. نحيلةٌ وغير متبرجة. أقلُّ القليل، إن كان ثمة، يُمكن أن يُقرأ من عينيها. وجهٌ دون شك غيرُ مُفصِحٍ عن شيء. شهوانيّة؟ لا شيء. ليس بوسعك أن ترى مثل ذلك الوجه في أي مكان. خارج قاعة حلب الأبقار، كل شيء مغوٍ فيها كان مغلقًا. نجحت فونيا في أن تجعل نفسها كأنما لم تكن هنا لكي تُرى. إنها مهارة الحيوان، سواءً كان مفترِسًا، أو فريسة.

كانت تلبس بنطلونًا من الجينز الباهت وحذاء من جلد الغزال- مثل كولمن- وقميصًا مرفوع الأكمام بأزرار قديمة، تعرّفتُ فيه على أحد قمصان كولمن.

"افتقدتُكَ،" قلتُ له. "هل لي أن أدعوكما على العشاء ليلةً ما."

"فكرة طيبة. أجل. لنفعل ذلك."

لم تعد فونيا تولي اهتمامًا. كانت تنظر صوب قمم الأشجار. اللواتي كن يتمايلن مع الرياح، على أنها كانت تنظر إليهن كأنهن يتحدثن. أدركتُ لحظتها أن فونيا كانت تفتقرُ إلى شيء ما داخلها، ولستُ أقصد المقدرة على الانتباه إلى حديث صغير. لا أعرف تحديدًا ماذا أقصد، لو عرفته لكنتُ سأسمّيه لو استطعت. ما الذي تفتقر إليه فونيا؟ لم يكن الذكاء. لم يكن التوازن. ليست اللباقة ولا الرُّقيّ- نجحت فونيا في تحقيق تلك المناورات الخادعة بسهولة كافية. لم يكن العمق- فالسطحية لم تكن المشكلة. ليست الباطنية- فبوسع المرء أن يرى تلك الباطنية التي تتعامل بها فونيا لدى الكثير من الناس. ليست سلامة العقل- فقد كانت سليمة العقل، وإن على نحو أخرق قليلاً، وبشيء من

الغطرسة أيضًا، وشيء من الكِبْر والتعالي استنادًا إلى المعاناة التي واجهتها. لا أعرف تحديدًا، ولكن جزءًا منها لم يكن هناك دون شك.

لاحظتُ خاتمًا في إصبع يمناها الأوسط. الفصُّ أبيض حليبيٌّ. حجر أوبال. كنتُ واثقًا أنه أعطاه لها. على عكس فونيا، كان كولِن متسقًا في الشكل مع نفسه كثيرًا، أو هكذا كان يبدو. عفويًا. كنتُ أعلم أنه لم يكن ينوي أن يأخذ فونيا للعشاء معي أو مع أي إنسان آخر.

"نُزُل اداماسكا،" قلتُ. "ما رأيكما؟" لم أكن قد رأيتُ كولِن مجاملاً أكثر منه حين قال لي، كاذبًا: "الفندق الصغير- حسنًا. يجب أن نذهب. سوف نفعل. ولكن دعنا ندعوك نحن. سوف نتكلم يا ناثان،" قال، وهو يقبض فجأة على يد فونيا. وهو يشير برأسه إلى سقيفة الموسيقى، قال: "أحببتُ أن تسمع فونيا رحمانينوف." ثم مضيا، العاشقان، "هربا بعيدًا،" كما كتب كيتس[163]: "داخل العاصفة."

بالكاد خلال دقيقتين كان الكثير قد حدث، أو بدا أنه قد حدث- لأن شيئًا مهمًا لم يكن بالفعل قد حدث- حتى أنني بدلاً من العودة إلى مقعدي، رحتُ أتسكّع هنا وهناك، مثل مَن يمشي أثناء نومه، في البدء رحتُ أتوجّه دون هدف إلى المرج الممتلئ بالمتنزهين حتى منتصف الطريق حول سقيفة الموسيقى، ثم بعدها قفلتُ عائدًا إلى حيث منظر بيركشاير عند ذروة الصيف حيث الجمالُ يشبه فتنةَ مناظر شرق روكيز. صوت رقصات رحمانينوف كان يصلني عن البعد من السقيفة، ولكنني على هذا كنتُ في وحدتي، في طيّة تلك التلال الخضر. جلستُ على العشب مذهولاً، غير قادر على تفسير ما كنتُ أفكر فيه: كان لديه سرٌّ. هذا الرجل كان يشيّد أكثر الخطوط العاطفية إقناعًا، وقابليةً للتصديق، هذه القوة، باعتبار التاريخ قوّةً، هذا الدهاء الرحيم، السحر الناعم، الذي كان لرجل تامّ الرجولة بالرغم من ذلك السر العملاق الذي يحمله في قلبه. كيف وصلتُ إلى ذلك الاستنتاج؟ لماذا ثمة سرٌّ؟ لأن السرَّ يتواجد حينما يكون كولِن معها. وحينما لا يكون معها يكون السرُّ موجودًا أيضًا- إنه السرُّ الذي هو مغناطيسيته. إن الشيء المُغوي، وهو الذي ظل يجتذبني إليه، اللغزُ الذي يحمله بين جوانحه كشيء يخصه ولا يخص سواه. صنع من نفسه قمرًا لا يُرى منه إلا نصفُه. فلا أستطيع أن أجعله مرئيًا بكامله. ثمة فجوة من خواء. هذا كل ما أستطيع قوله. هما معًا، اثنان من الخواء. ثمة خواءٌ بها، وبالرغم من كتلة هوائه التي تشكّلت على هيئة شخص متزن راسخ، ووقت الضرورة خصم عنيد عدائي- عملاقُ الجامعة الغاضبُ الذي خرج لئلا يطاله غائطُهم المخزي- إلا أنه في مكان ما به ثمة خواءٌ أيضًا، محوٌ، استئصال، رغم أنني لم أقدر أن

---

[163] - John Keats، شاعر إنجليزي رومانتيكي (1795- 1821). (المترجمة)

أبدأ على التخمين... ولا أقدر حتى أن أعرف، للحق، إذا ما كنت أقول كلامًا ذا معنى وأنا أسجّل، متوسِّلاً إحساسي الباطني وخيالي، جهليَ بأي إنسان آخر.

فقط بعد حوالي ثلاثة شهور، حينما علمتُ بالسرّ وشرعتُ في تأليف هذا الكتاب- الكتاب الذي كان قد سألني أن أكتبه أول الأمر، ولكن ليس بالضرورة على النحو الذي أراد أن يُكتب به- أتساءلُ إن كنتُ قد فهمتُ أنا أساسَ المعاهدة بينهما: أنه كان قد أخبرها بحكايته كلها. وحدها فونيا كانت تعلم كيف حدث أن أصبح كولمنُ هو كولمنَ ذاتَه. كيف عرفتُ أنها كانت تعرف؟ لم أعرف. لم أستطع أبدًا أن أعرف ذلك أيضًا. لم أستطع أن أعرف. والآن بما أنهما قد ماتا، لا أحد ثمة بوسعه أن يعرف. في السراء والضراء، أستطيع فقط أن أفعل ما يفعله أولئك الذين يظنون أنهم يعرفون. أتخيّل. أنا مُجبر على أن أتخيل. وحدث أنّ هذا هو ما كنتُ أفعله لأتعيش منه[164]. هذه وظيفتي. هي الآن كل ما أفعل.

بعدما خرج ‘لِسْ’ من مستشفى المحاربين القدامى وارتبط بفريق الدعم التأهيلي لكي يُقلع عن الخمر ويخرج من حالة الهلاوس، كان الهدفُ بعيدُ المدى الذي وضعه ‘لوي بوريرو’ هو أن يدفع ‘ لِس’ إلى أن يحجّ إلى الجدار[165]– إن لم يكن إلى الجدار الحقيقي، النصب التذكاري للمحاربين الأمريكان في حرب فيتنام بواشنطن العاصمة، فإلى الجدار المتحرك[166] حينما يصل الجدار إلى بيتسفيلد في نوفمبر. واشنطن، العاصمة، كانت هي المدينة التي أقسم ‘لِس’ ألا يطأها بقدمه بسبب كراهته للحكومة، ومنذ 1992، بسبب ازدرائه لذاك الشخص المتهرب من الخدمة العسكرية الذي ينام في البيت الأبيض. جعْلُه يقطع تلك المسافة جنوبًا نحو واشنطن من ماساتشوستس كان مطلبًا ضخمًا للغاية على أية حال: بالنسبة لشخص مازال لتوّه خارجًا من المستشفى، فإنما هو جهدٌ ممتد لساعات طوال في الحافلة ذهابًا وإيابًا.

كانت طريقة إعداد ‘لِس’ لزيارة الحائط المتحرك هي الطريقة ذاتها التي يجهِّز بها لوي أيَّ شخص آخر: البدء بالمطعم الصيني، أن يجعل ‘لِس’ يذهب مع أربعة رجال أو خمسة إلى عشاء صيني[167]، ثم تنسيق أكثر عدد ممكن من الرحلات- اثنتين، ثلاث، سبع، اثنتي عشرة، خمس عشرة إذا احتاج الأمر- إلى أن يصبح قادرًا على أن يكون آخر من يتبقى على عشاء كامل، ليأكل الطعام كاملاً، من الحساء حتى الحلوى، دون أن

---

[164] - يقصد أن مهنته التي يتعيّش منها هي الكتابة التي تقوم على التخيّل. (المترجمة)

[165] - Vietnam Veterans Memorial- نصب تذكاري بواشنطن العاصمة الأمريكية عبارة عن جدار ضخم مكتوب عليه أسماء قتلى وضحايا الجنود الأمريكان الذي شاركوا في حرب فيتنام (1955-1957). (المترجمة)

[166] - نموذج مصغّر من الجدار الأصلي يتحرك من ولاية إلى ولاية كي يراه سكان أمريكا كافة. (المترجمة)

[167] - الفكرة هنا هي أن المحاربين الأمريكان في حرب فيتنام، قد أصابتهم ما يشبه العقدة من كل ما هو فيتنامي أو جنوب شرق آسيوي. ولذلك كان التمرين على أن يتناول طعامه في مطعم صيني بهدف كسر تلك العقدة لديه. (المترجمة)

يعرق في قميصه، دون أن يرتعش إلى الحد الذي يجعله غير قادر على أن يحتفظ بثبات ملعقة الحساء، دون أن يركض للخارج كل خمس دقائق لكي يتنفس، دون أن ينتهي به الحال وهو يتقيأ في الحمام ويختبئ داخل الكشك المغلق، ودون بالطبع، أن يفقد عقله تمامًا ويجن جنونه ويُفرغ جام غضبه على النادل الصيني.

كان لوي بوريرو قد أتمّ مائة بالمائة من برنامجه الخدمي، أقلع عن المخدرات ومستمر في كورسه الدوائيّ الآن منذ عشرين عامًا. وكانت مساعدتُه للمحاربين القدامى، كما يقول، تساعده في برنامجه العلاجي الخاص. بضعة وثلاثين عامًا حتى الآن، ومازال هناك الكثير من محاربي فيتنام القدامى يتألمون بشدة، ولذلك كان يقضي طيلة النهار كل يوم يتجول بشاحنته في أرجاء الولاية، يقود الفِرق لدعم المحاربين القدامى وعائلاتهم، يجد لهم الأطباء، يحثّهم على حضور اجتماعات الأكاديمية الأمريكية، يستمع إلى كافة أنواع المشاكل، الأسرية، النفسية، الاقتصادية، يقدّم النصح لتخفيف مشاكل المحاربين القدامى، ويحاول أن يُحضر الرجالَ إلى واشنطن إلى حيث الجدار.

الجدار هو الطفلُ المدلّل لدى'لوي'. كان ينظم كل شيء من أجل الحجّ إلى الجدار: يؤجر الحافلات، يرتّب وجبات الطعام، ومن خلال موهبته في فن الصداقة كان يقوم بالرعاية الشخصية للرجال المرعوبين من هاجس أنهم سوف يصرخون أو يشعرون بالإعياء أو بجلطات القلب أو حتى أن الموت سيباغتهم. مسبقًا كانوا جميعًا يتراجعون وهم يقولون كلمات من قبيل: "مستحيل. لا أقدر أن أذهب إلى الجدار. ليس بوسعي المُضي إلى هناك ورؤية اسم فلان أو علان. لا سبيل. لا أعرف كيف أفعل هذا. لا أقدر أن أفعل ذلك." 'لِس'، على سبيل المثال، كان يخبر لوي: "سمعتُ عن رحلتك الأخيرة. سمعت كل شيء عن كم كانت سيئة. خمسة وعشرون دولارًا عن كل رأس في تلك الحافلة المؤجرة. من المفترض أن تضم الغداء، بينما كل الرجال قالوا إن الغداء كان بشعًا- لا يساوي دولارين. وأن الرجل في نيويورك لم يكن في انتظارهم، السائق. صح يا لوي؟ كان يريد أن يعود مبكرًا ليقوم برحلة إلى مدينة أتلانتيك؟ أتلانتيك سيتي! تبًّا لذلك الرجل الوسخ. عجلة في كل شيء ويتعجل كل الناس ثم في الأخير ينتظر أن ينال بقشيشًا ضخمًا؟ لستُ أنا يا لوي. كلا، أسلوب عاهر. لو كنتُ قد رأيتُ رجلين في سترتيْ النمر يقعان في شجار بالأسلحة، لكنتُ تقيأت."

ولكن لوي كان يعرف ماذا يمكن أن تعني الزيارة. "يا 'لِس'، نحن في عام ألف وتسعمائة وثمانية وتسعين. إنه نهاية القرن العشرين يا لِستر. إنه الوقت الذي بدأتَ تواجه فيه ذلك الأمر. لم يكن بوسعك أن تفعل ذلك أول الأمر، أعرفُ ذلك، لا أحد سوف يسألك أن تفعل ذلك. ولكنه الوقت الذي عليك أن تؤدي فيه برنامجك التأهيلي، أيها

الرفيق. الوقت جاء. نحن لن نبدأ مع الجدار. سوف نبدأ على مهل. سوف نبدأ بالمطعم الصيني."

ولكن بالنسبة إلى ‘لِس’ لم يبدأ ذلك على مهل؛ بالنسبة إلى ‘لِس’، لمجرد الذهاب خارج أثينا، كان عليه الانتظار في الشاحنة بينما فونيا تجهز الطعام. لو كان قد دخل، لكان قد قتل الجنودَ الفيتنام بمجرد أن رآهم. "ولكنهم صينيون،" أخبرته فونيا، "ليسوا فيتناميين." "أغبياء! لا أعبأ مَن يكونون بحق الجحيم! هم يُعتبَرون فيتناميين! الجندي الفيتنامي جندي فيتناميّ!"

كما لو أنه لم ينل ما يكفي من النوم السيىء طيلة الستة وعشرين عامًا الماضية، لم يستطع لستر فيرلي النومَ على الإطلاق طوال الأسبوع السابق لزيارة المطعم الصيني. هاتف لوي ربما خمسين مرة ليخبره بأنه لن يذهب، ونصف تلك المكالمات كانت بعد الثالثة فجرًا. لكن لوي كان ينصت بغض الطرف عن التوقيت، يتركه يقول كل ما في رأسه، بل ويتفق معه أيضًا، ويدمدم في صبر "آه- هاه... آه-هاه.. آه-هاه" ويستمر في ذلك، ولكن في النهاية كان دائمًا يُخرسه بالطريقة نفسها: "سوف تجلس هناك يا ‘لِس’، بأفضل ما يمكنك فعله. هذا كل ما عليك فعله. مهما حدث بداخلك، لو كان حزنًا، لو كان غضبًا، مهما كان- كراهية، ثورة- سوف نكون جميعًا معك هناك، سوف تحاول أن تجلس هناك دون أن تهرب أو تفعل أي شيء." "ولكن النادل" كان ‘لِس’ يسأل، "كيف سأتعامل مع هذا النادل الوغد؟ لا أقدر يا لوي- سوف أفقد أعصابي!". "سأتعامل أنا مع النادل. كل ما عليك هو أن تجلس." هكذا كان لوي يردّ عليه وعلى كل الاعتراضات التي قد يرفعها ‘لِس’، بما فيها خطورة احتمال قتله النادل، كان لوي يرد بأن كل ما عليه هو أن يجلس. كأنما كان هذا هو كل ما في الأمر- الجلوس- لتمنع رجلاً من أن يقتل عدوه اللدود!

كانوا خمسةً في شاحنة لوي حينما انطلقوا إلى بلاكويل في أحد المساءات بعد أسبوعين تقريبًا من إطلاق سراح ‘لِس’ من المستشفى. كان لوي بمثابة: الأم-الأب-الشقيق- القائد، لوي، الرجل الأصلع الحليق، أنيق الملبس، يرتدي ثيابًا مكوية للتوّ وقبعته السوداء العسكرية ويحمل عصاه. وبقامته القصيرة، وكتفيه المتهدلين، وكرشه المنتفخ، كان يبدو مثل بطريق صغير بسبب طريقته الحادة في المشي على ساقيه المعطوبتين. ثم كان هناك الرجلان الكبيران اللذان لا يتكلمان كثيرًا: تشيت، طلاء المنازل الذي طلَّق ثلاث مرات وكان من جنود مارينز البحرية- ثلاث زوجات مختلفات ارتعبن وفقدن صوابهن بسبب تلك الهيئة البهيمية الشرسة، وذلك الوجه الأخرق وذيل الحصان الطويل وانعدام الرغبة في الكلام- وبوكات، الجندي في سلاح الرُّماة الذي فقدَ قدمَه في

انفجار لغم ويعمل لدى ميداس مفلر. وفي الأخير، كان هناك رجل غريب الأطوار سيئ التغذية، نحيل، يعاني فشلاً رئويًا وفقدَ معظم كتلته، يطلق على نفسه اسم سويفت، غيّر اسمه قانونيًا بعد تسريحه من الخدمة، كأنما تغييره اسمه من 'جو براون' أو 'بيل جرين' أو أيًا ما كان اسمه المُثبَت في بطاقة الهوية سوف يجعله يقفز، حين يعود للبيت، من سريره كل صباح في مرح. منذ حرب فيتنام، كانت صحة سويفت قريبة من الانهيار من الجِلد إلى التنفس وحتى الاعتلال العصبي والجسدي، والآن راح يتداعى تدريجيًا بسبب عدائه لمحاربي حرب الخليج الذي يفوق حتى ازدراء 'لِس' لهم.

طوال الطريق شمالاً نحو بلاكويل، كان 'لِس' قد بدأ بالفعل في الارتعاش والشعور بالقلق، أما سويفت فكان كأنما يعالج صمتَ الرجال الكبار. صوته الذي يشبه الصفير كان لا يتوقف. "مشكلتهم الكبرى هي أنهم لا يقدرون أن يذهبوا إلى الشاطئ؟ يشعرون بالإحباط على الشاطئ حينما يرون الرمال؟ تبًا. مقاتلو نهاية الأسبوع وفجأة كان عليهم أن يروا فعلاً حقيقيًا. لهذا السبب كانوا ثملين- مع كل الاحتياطات، لم يظنوا أبدًا أنهم سوف يُستدعون، ثم تم استدعاؤهم. ولم يفعلوا شيئًا. ما كانوا يعرفون ما الحرب. أتسمي تلك حربًا؟ حرب أربعة أيام أرضية. كم عدد الجنود الفيتناميين الذين قتلوا؟ هم محبطون لأنهم لم يمسكوا بصدام حسين. كان لديهم عدو واحد- صدام حسين. أعطني استراحة. ليس من شيء سيئ في أولئك الرجال. هم فقط يريدون المال دون أن يمروا بأوقات عصيبة. أو سلسلة من الأحداث الطائشة. تعلم كم من الأحداث المتهورة واجهتها من وكالة أورانج؟ لن أعيش لأرى الستين، وأولئك الرجال قلقون من الأحداث الطائشة!"

كان المطعم الصيني يقف عند الحافة الشمالية لبلاكويل، في الطريق العام بالضبط وراء مصنع الورق المقوّى داخلاً في النهر. البناية الأسمنتية كانت منخفضة وطويلة ووردية اللون، واجهتُه فاترينةٌ زجاجية مسطحة، نصف البناية مطليّ ليبدو مثل بناء الآجر- الآجر الوردي. منذ سنوات كانت ممشى لملعب البولينج. على الفاترينة الزجاجية الضخمة، كانت الحروف الصينية الغريبة مضاءةً بالنيون على اليافطة تقول "قصرُ النغم".

بالنسبة إلى 'لِس'، كان مرأى تلك اليافطة وحده كافيًا لمحو أدنى بصيص من الأمل. لم يستطع أن يجتاز الأمر. لن يقدر أبدًا أن يفعلها. لقد فقد الأمر كليًا.

الرتابة المملة الناتجة عن تكرار تلك الكلمات- بالرغم من القوة التي استنفدها ليتغلب على الرعب. نهر الدماء التي كان عليه أن يخوض فيه لكي يجتاز الأمر ويتجاوز ذلك الفيتنامي الواقف مبتسمًا عند باب المطعم ليأخذ طريقه إلى الطاولة. ثم الرعب- الرعب المشوّش الذي لا حماية منه- من النادل الفيتنامي المبتسم الذي يناوله قائمة الطعام.

التنافر الصريح لدى المجند الفيتنامي وهو يصب له كأسًا من الماء. يقدم له الماء! المصدر الرئيس لكل معاناته يمكن أن يكون ذلك الماء. هذا ما جعله يشعر بالجنون.

"أوكي يا ‘لِس’، أنت تبلي بلاء حسنًا. بالفعل تجتاز الأمر بنجاح." قال لوي. "فقط تحتاج أن تؤدي هذه الحصّة على حدة. جيد بالفعل حتى الآن. الآن أريدك أن تتعامل مع قائمة طعامك. هذا كل شيء. فقط قائمة الطعام. فقط افتحْ القائمة، افتحها، وأريدك أن تركز نظرك على أنواع الحساء. الشيء الوحيد الذي عليك فعله هو أن تطلب حساءك. هذا هو كل ما عليك فعله. إذا لم تقدر أن تقرر، سوف نقرر لك نحن. إنهم يقدمون حساء الونتون الصيني الممتاز هنا."

"النادل ابن الكلب،" قال ‘لِس’.

"هو ليس النادل يا ‘لِس’. اسمه هنري. إنه مالك المطعم. ‘لِس’، علينا التركيز في الحساء. أما هنري فهو هنا ليدير هذا المكان. لكي يتأكد من أن كل شيء يمضي كما ينبغي. لا أكثر، لا أقل. هو لا يعلم شيئًا عن كل تلك الأمور الأخرى. لا يعلم عنها شيئًا، ولا يريد أن يعرف. ماذا عن حسائك؟"

"ماذا ستتناولون أيها الرجال." كان قد قال ذلك. ‘لِس’. في خضم تلك الدراما اليائسة، كان ‘لِس’ قد نجح في أن يخرج بنفسه بعيدًا عن ذلك الاضطراب الداخليّ كله ويسأل الرجال ماذا سيأكلون.

"فطيرة باللحم،" جميعهم قالوا.

"حسنا. فطيرة باللحم."

"أوكي،" قال لوي. "الآن سوف نطلب بقية الطعام. هل نريد أن نتشارك؟ هل سيكون ذلك كثيرًا جدًا يا ‘لِس’، أم هل تريد طلبك الخاص؟ ماذا تريد يا ‘لِس’؟ تريد دجاجًا، خضراواتٍ، خنزيرًا؟ هل تريد لو-مين[168]؟ مع مكرونة النودلز؟"

حاول أن يرى إن كان بوسعه أن يقولها ثانيةً. "ماذا ستتناولون أيها الرجال؟"

"حسنٌ يا ‘لِس’، بعضنا سوف يأخذ لحم خنزير، وبعضنا سيأخذ اللحم البقري-"

"لا أكترث!" والسبب في أنه لا يكترث هو أن كل هذا كان يحدث في كوكب آخر، يتظاهرون بأنهم يطلبون طعامًا صينيًا. هذا ما لم يكن يحدث بالفعل.

"لحم خنزير بالسوتيه؟ لحم خنزير بخضار السوتية من أجل ‘لِس’. أوكي. كل ما عليك فعله الآن يا ‘لِس’ هو أن تركّز وسوف يصبُّ لك ‘تشيت’ بعض الشاي. أوكي. أوكي."

"فقط اجعلْ النادلَ الوسخ هذا يبقى بعيدًا." لأنه من زاوية عينه كان قد لمح حركةً ما.

---

[168] - lo mein طبق صيني شهير يتكون من المكرونة مع القمح. (المترجمة)

"سيدي، سيدي-" نادى ‘لوي’ على النادل. "سيدي، لو أمكن فقط أن تبقى هناك، سوف نأتي إليك بطلباتنا. لو سمحت. سوف نُحضر إليك الطلبات- فقط ابقَ بعيدًا على مسافة منّا." ولكن بدا أن النادل لم يفهم، وحينما شرع من جديد في التوجّه نحوهم، بتثاقل لكن بسرعة، نهض لوي على ساقيه المعطوبتين. "سيدي! سوف نُحضر الطلبات إليك. إلى. إليك. مفهوم؟ مفهوم." قال لوي، وهو يعود للجلوس ثانيةً. "جيد،" قال. "جيد"، وهو يومئ للنادل، الذي وقف جامدًا على بعد عشرة أقدام. "هذا هو يا سيدي. ممتاز."

كان ‘قصرُ النغم’ مكانًا معتمًا به بعض النباتات الصناعية على الجدران وربما خمسون طاولة مرصوصة في صفوف على طول قاعة الطعام. القليل منها فقط كان مشغولاً، جميعها بعيدة بما يكفي لئلا ينتبه أحدٌ من الزبائن الآخرين لتلك الفوضى الصغيرة في مؤخرة القاعة حيث كان خمسةٌ من الرجال يتناولون طعامهم. على سبيل الاحتياط، كان لوي دائمًا ما يؤكد على هنري، وقت دخوله المطعم، أن يجعل رفاقَه على مائدة بعيدة عن الجميع. لقد مرَّ هو وهنري بتلك التجربة من قبل.

"أوكي يا ‘لِس’، الأمر تحت السيطرة. بوسعك أن تترك القائمة الآن. ‘لِس’، اتركْ قائمةَ الطعام. الأول بيدك اليمني. والآن باليسرى. هناك. ‘تشيت’ سوف يطويها لك."

كان الرجلان الكبيران، ‘تشيت’ و‘بوكات’، يجلسان على جانبي ‘لِس’. كان ‘لوي’ قد عيّنهما كشرطيين يعرفان ماذا يفعلان إذا ما أتى ‘لِس’ حركةً خاطئة. كان ‘سويفت’ يجلس على الجانب الآخر من الطاولة المستديرة، جوار ‘لوي’، الذي كان يواجه ‘لِس’، والآن، في نبرة مؤازِرة، من تلك التي قد يستخدمها أبٌ مع ابنه لكي يعلّمه كيف يقود دراجة، قال سويفت لـ ‘لِس’: "مازلتُ أتذكرُ أولَ مرة أتيتُ فيها إلى هنا. كنتُ أظن أنني لن أنجح أبدًا في الأمر. أنت بالفعل تبلي بلاء حسنًا. في مرّتي الأولى، لم أستطع حتى أن أقرأ القائمة. كانت الحروف جميعها تعوم أمامي. كنتُ أظن أنني سأنفجر في الفاترينة الزجاجية. رجلان كان عليهما أن يأخذاني للخارج لأنني لم أستطع الجلوس ساكنًا. أنتَ تبلي بلاءً طيبًا يا ‘لِس’." لو كان بوسع ‘لِس’ أن يلاحظ أي شيء سوى أن يديه كانتا الآن ترتعشان جدًا، لكان أدرك أنه لأول مرة يرى سويفت وهو لا يتشنج. كان ‘سويفت’ الآن لا يتشنج ولا يتشكّى. من أجل هذا أحضره ‘لوي’ معه- لأن مساعدة شخص ما على تناول وجبة صينية كانت تبدو أفضل الأشياء في الوجود التي بوسع ‘سويفت’ أن يؤديها. هنا، في قصر النغم، كما ليس في أي مكان آخر، بدا أن ‘سويفت’ يتذكّر لوهلة ما الذي كان. هنا كان بوسع المرء أن يرى صورته الأضعف كشخص يزحف نحو الحياة على يديه وركبتيه. هنا بيانٌ تفصيليّ يرسم بقايا رجل مُعتلٍّ ممرور كان مثل خرقة بالية نحيلة مما كان يومًا ما جسارة. "أنت تبلي بلاء حسنًا

يا ‘لِس’. تفعل الشيء الصحيح. فقط عليك أن تتناول بعض الشاي." هكذا اقترح ‘سويفت’. "فليصبّ ‘تشيت’ بعض الشاي."

"تنفّسْ بعمق،" قال لوي. "هكذا. تنفسْ يا ‘لِس’. إذا لم تستطع أن تفعل ذلك بعد الحساء، سوف نمضي. ولكن عليك أن تفعلها في الحصّة الأولى. إذا لم تقدر أن تفعلها مع لحم الخنزير والخضار السوتيه، لا بأس. ولكن عليك أن تفعلها مع الحساء. هيا نؤلف شفرةً أو كلمةَ سرٍّ نقولها حين يكون عليك أن تخرج. كلمة شفرية تقولها لي حينما لا يكون هناك طريقان لمعالجة الأمر. ما رأيك في كلمة ‘ورقة شاي’ ككلمة سر؟ هي كل ما عليك قوله فنخرج على الفور. ورقة شاي. إذا ما احتجتَ إليها، فها هي ذي. ولكن ليس حين لا تحتاج إليها."

كان النادل يقف على مسافة ضئيلة يحمل صينية بخمسة صحون من الحساء. وثب تشيت وبوكات لأعلى وأحضرا الحساء للمائدة.

الآن كان ‘لِس’ يود أن يقول "ورقة شاي" ثم يركض للخارج. لماذا لا يفعل؟ سأخرج من هنا. سأخرج من هنا.

بتكراره لنفسه "سأخرج من هنا"، كان قادرًا على أن يضع نفسه في حالة النشوة، وحتى دون أية شهية، كان بوسعه أن يشرع في تناول حسائه. أن يبدأ في أكل مكونات الشوربة. "سأخرج من هنا،" هذه العبارة أوقفت النادل وأوقفت المالك لكنها لم توقف المرأتين اللتين تقفان على طاولة جانبية تفصصان حبات البازلاء وتفرِّغانها في وعاء الطهي. يقف على بُعد ثلاثين قدمًا، ومع هذا كان بوسع ‘لِس’ أن يلتقط رائحة أيًّا ما كان نوع عطر ماء التواليت الرخيص المرشوش وراء أذني المجند الفيتنامي- كانت في مثل لذوعة رائحة التراب البكر. وبنفس قُوَى حفظ الحياة الغريزيّ التي مكّنته من كشف رائحة القنص الصامتة غير المغسولة في أدغال فيتنام الكثيفة السوداء، التقط رائحةَ المرأتين وبدأ يفقد أعصابه. لم يخبره أحدٌ بأن نساء سيكنّ هناك يفعلن ذلك. لأي مدة ستبقى المرأتان هناك تفعلان ذلك؟ شابتان. فيتناميتان قذرتان. لماذا تجلسان هناك تفعلان ذلك؟ "سأخرج من هنا." لكنه لم يقدر على الحركة لأنه لم يستطع أن يحول انتباهه عن المرأتين.

"لماذا تفعل هاتان المرأتان ذلك؟" سأل ‘لِس’ ‘لوي’. "لماذا لا تتوقفان عن فعل ذلك؟ هل عليهما أن تستمرا في فعل ذلك؟ هل ستستمران في فعل ذلك طوال الليل؟ هل ستظلان تفعلان ذلك مرارًا وتكرارًا؟ هل ثمة سبب؟ هل بوسع أحد أن يخبرني عن سبب؟ اجعلوهما تتوقفان عن فعل ذلك."

"اهدأ،" قال لوي.

"أنا هادئ. أنا فقط أريد أن أفهم- هل ستستمران في فعل ذلك؟ هل بوسع أي إنسان أن يوقفهما؟ ألا يوجد أحد بوسعه أن يفكر في طريقة ما؟" كان صوته يعلو الآن، ولم يكن إيقافه بأسهل من إيقاف المرأتين عن فعل ذلك.

"'لِس'، نحن في مطعم. في المطعم يجهزون البازلاء."

"بازلاء،" قال 'لِس'. "تلك بازلاء؟!"

"'لِس'، لقد تناولتَ حساءك ووجبتك التالية قادمة حالاً. الصحن القادم: ذاك هو كل العالم الآن. هذا كل شيء. هذا هو. كل ما عليك فعله تاليًا هو أن تأكل بعض لحم الخنزير بالخضار السوتيه، وهذا كل شيء."

"تناولتُ ما يكفي من حساء."

"أجل؟" قال بوكات. "ألن تأكل هذا؟ هل انتهيتَ من هذا؟"

محاصَرًا من كل جانب بالكارثة الوشيكة- إلى أي مدة من الزمن بوسع الوجع أن يتحوّل إلى عملية أكل؟- نجح 'لِس'، بصوت خافت، أن يقول "خُذْه."

وكان هذا حينما تحرك النادل- وقد فهم أن عليه أن يرفع الصحون الفارغة.

"لا!" زأر 'لِس'، ونهض لوي من جديد على قدميه، والآن، وهو يبدو مثل مروّض أسود في سيرك- و'لِس' متوتر وجاهز للهجوم على النادل- أشار لوي بعصاه للنادل أن يتقهقر للخلف. "ابقَ هناك،" قال لوي للنادل. "ابقَ هناك. سوف نُحضر إليك نحن الصحون الفارغة. أنت لا تأتِ إلينا."

توقفت المرأتان عن تفريغ البازلاء، دون حتى أن ينهض 'لِس' ويذهب إليهما ويريهما كيف تتوقفان.

وأطلّ هنري الآن، هذا واضح. هذا الـ'هنري' المبتسم النحيل المشوق، الشاب في البنطال الجينز والقميص الصاخب وحذاء الركض الذي صبّ الماء، هو مالك المكان، كان الآن واقفًا يحملق في 'لِس' من عند الباب. يبتسم لكن يحملق. ذلك الرجل هو تهديدٌ ووعيد. يسدُّ مكان الخروج على 'لِس'. هنري عليه أن يتحرك.

"كل شيء على ما يرام،" يهتفُ لوي قائلاً لهنري. "الطعام جيد جدًا. طعام رائع. من أجل هذا عدنا إلى هنا." ثم قال للنادل: "فقط اتّبعْ تعليماتي." وعندئذ أنزل عصاه وجلس. جمّع تشيت وبوكارت الصحونَ الفارغة وذهبا بها إلى حيث النادل ثم كدّسوا الصحون على صينيته.

"ثمة أحد آخر؟" سأل لوي. "هل ثمة مَن يحكي لنا قصة مَرّته الأولى؟"

"أه-أه،" قال تشيت بينما كان بوكارت يهيئ نفسه للمهمة المبهجة في الإنهاء على حساء 'لِس'.

هذه المرة، بمجرد أن خرج النادل من المطعم حاملاً بقية الطلبات، نهض تشيت وبوكارت على الفور وانطلقا نحو الفيتنامي الغبي التعس قبل حتى أن ينسى ويقترب من طاولتهم من جديد.

والآن كان هناك. الطعام. الطعامُ الذي هو الوجع المبرّح.

جمبري لحم لو–ميين. طاسة موو-جوو-جاي. لحم بقري بالفلفل. لحم خنزير بالخضار المسلوق. ضلوع. أرز. وجعُ الأرز. وجعُ البخار. وجعُ الروائح. كل شيء هناك من المفترض أن ينقذ حياته من الموت. كل شيء يربطه مجدداً بالولد الصغير 'لِس'. ذاك هو حلم اللجوء والعودة. الولد الصغير غير المكسور في المزرعة.

"يبدو جيداً!"

"مذاقه أفضل!"

"هل تريد أن يضع لك تشيت بعضًا منه في صحنك، أم تودّ أن تأخذ بنفسك يا 'لِس'؟"

"لستُ جائعًا."

"هذا جيدُ جدًّا،" قال لوي، بينما راح تشيت يكوّم الطعام في صحن 'لِس'. "أليس عليك أن تكون جائعًا. ليست هي الصفقة." "هل انتهى الأمر تقريبًا؟" قال 'لِس'. "أريد الخروج من هنا. لستُ أمزح يا رجال. بالفعل أريد الخروج من هنا. يكفي هذا. لا أقدر على الاستمرار. أشعر أنني على وشك أن أفقد السيطرة. لقد نلتُ ما يكفي. لقد قلتَ إن بوسعي أن أرحل. أريد أن أرحل."

"لم أسمع كلمة السر يا 'لِس'،" قال لوي. "ولذلك علينا الاستمرار."

كان اضطرابه الآن قد بلغ ذروته. لم يقدر أن يتعامل مع الأرز. الأرز يقع من الشوكة، كان يرتعد بشدة.

و، يا أيها المسيح العظيم، ها هو النادل يأتي بالماء. يدور حول الطاولة ويأتي 'لِستر من الخلف، ومن مكان مجهول ملعون، نادل آخر. جميعهم فجأة في وقت واحد قبل جزء من الثانية من عويل 'لِس': "ياااه!" ومد يده إلى عنق النادل، فانفجر إبريق الماء عند قدميه.

"توقّفْ!" صرخ لوي. "تراجعْ!"

بدأت المرأتان اللتان تفرّغان البازلاء في الصراخ.

"هو لا يحتاج إلى ماء!" يصيح، يقف على قدميه ويصيح، بعصاه مرفوعة فوق رأسه، ينظر لوي إلى المرأتين مثل رجل يسبح في حمقه. لكنهما لا يعرفان ما هو الحمق إذا ما ظنّتا أن لوي كان يسبح في الحمق. ليس لديهما أدنى فكرة.

عند الموائد الأخرى كان الناس يقفون، فاندفع هنري وتكلم معهم بهدوء حتى جلسوا جميعًا. شرح لهم أن أولئك محاربون قدامى في فيتنام، وحينما يأتون إلى المطعم، فإنه يتعامل مع الأمر كواجب وطني فيكرم ضيافتهم ويتعايش مع مشاكلهم لساعة أو ساعتين.

السكون يعمّ المطعم من الآن وصاعدًا. 'لِس' كان يلتقط القليل من الطعام والآخرون يلهتمون كل شيء حتى لم يتبق على المائدة إلا ما تبقى في صحن 'لِس'.

"هل انتهيتَ من هذا؟ سأله بوكارت. "ألن تأكل هذا؟"

هذه المرة لم ينجح حتى في قول "خُذْه."، مجرد قول تلك الكلمة الواحدة، سيجعل كل المدفونين تحت أرضية ذلك المطعم ينهضون ويبحثون عن الثأر. قل كلمة واحدة، وإذا لم تكن قد ذهبت إلى هناك للمرة الأولى لترى كيف تبدو، فلسوف تراها بكل قرفها الآن.

هنا جاءت كعكات الحظ[169]. عادة يحبونها. يقرءون الحظ، يضحكون، يحتسون الشاي- مَن ذا الذي لا يحب ذلك؟ ولكن 'لِس' يصرخ: "ورقة شاي!" وينهض، ويقول 'لوي' لـ'سويفت': "اخرجْ معه. هاته يا سويفت. راقبْه. لا تدعه يغيب عن نظرك. سوف ندفع الحساب."

في الطريق إلى الوطن كان هناك الصمت: الصمت من بوكات لأنه مثقلٌ بالطعام؛ الصمت من تشيت لأنه تعلم منذ وقت طويل وعبر العديد من العقوبات في العديد من المشاجرات أن الصمت بالنسبة لرجل فوضوي مثله، هو الطريقة الوحيدة لكي يبدو ودودًا؛ وكان الصمت من سويفت أيضًا، صمت مرير وناقم جدًا، لأنه بمجرد أن أصبحت الأنوار النيون المشتعلة وراءهم، كذلك أصبحت ذاكرته التي تحمل قصر النغم. كان سويفت مشغولاً الآن باستحثاث الألم.

كان 'لِس' صامتًا لأنه نائم. بعد الليالي العشر من الأرق التي سبقت هذه الرحلة، ها هو أخيرًا يخرج الآن من الأمر.

كان ذلك بعدما أوصلوا كل واحد إلى مكانه وبقي 'لِس' ولوي وحدهما في الشاحنة حينما سمعه لوي يأتي من الجانب ويقول: "'لِس'؟ 'لِس'؟ لقد أبليتَ بلاءً حسنًا يا 'لِستر'. كنتُ أراك وأنت تعرق، فقلتُ لنفسي، اممم-اممم-اممم، لا سبيل لأن يفعلها. كان لابد أن ترى اللون الذي كان عليه وجهك. لا أقدر أن أصدق ذلك. لقد تصورت أن النادل قُضي عليه لأنك ستقتله."

لوي، الذي قضى أولى لياليه في الوطن مكبّل اليدين إلى ريدياتير سيارة في جراج شقيقته لكي يُمنع من قتل زوجها الذي كان كريمًا ورءوفًا ليأخذه إلى بيته حينما عاد

[169] - fortune cookies، كعكة لينة توضع بها رسالة مكتوبة كأنها طالع الحظ، مشهورة بالمطاعم الصينية. (المترجمة)

لوي من الدغل قبل ثماني وأربعين ساعة، لوي الذي كانت ساعات يقظته مرتبة ومشغولة جميعها ومكرسةً لاحتياجات الآخرين حيث لا قوة شيطانية كان بوسعها أن تضغط عليه للتراجع، لوي الذي بقى، لأكثر من عشر سنوات هادئًا ونظيفًا، بسبب انتظامه في برنامج الاثنتي عشرة خطوة وتناوله العقاقير مثل راهب- للقلق يتناول عقار 'كلونوبين'، للإحباط يأخذ 'زولوفت'، لطقطقة مفاصل الكاحل وخشونة الركبة وآلام المفاصل والفخذين القاسية يأخذ 'سالساليت'، مضاد الالتهاب الذي في معظم الوقت يفيد بأقل مما يسبب حرقان المعدة، والغازات، والتبرّز- كان قد نجح أخيرًا في أن يُنقّي حطامه ليصبح قادرًا من جديد على أن يتكلم مع الآخرين بتحضّر وأن يشعر، إذا لم يكن في بيته، بأنه أقل جنونًا وشعورًا بالقهر بسبب تحركه بشيء من العجز بقية حياته على تلك الساقين المأسورتين بالألم، وفي محاولته أن يقف منتصبًا على أرضٍ مؤسسةٍ بالرمال- كان لوي المتواكل على الحظ يضحك. "كنتُ أظن أن لا فرصة لديه. ولكن يا رجل،" يقول لوي، "أنت لم تجعل الأمر يتجاوز صحن الحساء وحسب، بل تجاوزتها إلى فطيرة الحظ كذلك. هل تعلم كم استغرقتُ من مرات لأصل إلى فطيرة الحظ؟ أربع. أربع مرات يا 'لِس'. المرة الأولى توجهت رأسًا إلى الحمام واستغرق الأمر خمس عشرة دقيقة لأخرج. هل تعلم بم سأخبر زوجتي؟ سوف أقول لها: 'لِس' أدى الأمر بامتياز. 'لِس' أبلى بلاء حسنًا.'"

ولكن حينما حلّ موعد العودة إلى المطعم، رفض 'لِس'. "ألم يكف أنني جلستُ هناك؟" "أريدك أن تأكل،" قال لوي. "أريدك أن تأكل الوجبة. امشِ المشوار، قلِ الكلامَ، كُلِ الوجبة. لدينا هدف جديد يا 'لِس'." "لا أريد المزيد من أهدافك. لقد عبرتُ الأمر. لم أقتل أيّ إنسان. ألا يكفي هذا؟" ولكن بعد أسبوع عادوا إلى 'قصر النغم'، طاقم الشخصيات نفسه، كأس الماء نفسها، قوائم الطعام ذاتها، وحتى هو ذاته عطر ماء التواليت الرخيص المنبثق من اللحم الآسيوي، ذلك العطر المرشوش على نساء المطعم الذي يطيّر شذاه لينبّه 'لِس'، العطر الذي عبره تنبّه 'لِس' ليقتفي أثر فريسته. في المرة الثانية أكل، في المرة الثالثة أكل وطلب الطعام- رغم أنهم ظلوا لا يسمحون للنادل بالاقتراب من الطاولة- في المرة الرابعة سمحوا للنادل أن يخدمهم، وأكل 'لِس' مثل رجل مجنون، أكل حتى انفجر تقريبًا، أكل كأنما لم يرَ الطعام لمدة عام.

خارج قصر النغم، أصبح للرجال الخمسة معنويات مرتفعة. حتى تشيت كان مبتهجًا. تشيت يتكلم. تشيت يصيح: "مخلصون دائمًا![170]"

[170] - Semper Fidelis، عبارة لاتينية تعتبر شعار فيلق سلاح البحرية الأمريكية. (المترجمة)

"المرة القادمة"، قال 'لِس'، في طريق عودتهم إلى الوطن والمشاعر متأججة كمن نهض من القبر، "المرة القادمة يا لوي، سوف تذهب بعيدًا جدًا. المرة القادمة سوف تطلب مني مثل ذلك!"

ولكن المرة القادمة هي مواجهَةَ الجدار. سيكون عليه أن يذهب ليرى اسم 'كيني'. وهذا ما لا يقدر أن يفعله. كان يكفي مرة أن شاهد اسم "كيني" في الدفتر الذي حصلوا عليه من جمعية المحاربين القدامى. بعدها ظل مريضًا لأسبوع. كان هذا هو كل ما استطاع أن يفكر فيه. كان هذا ما بوسعه أن يفكر فيه بأي حال. كيني وهو هناك إلى جواره دون رأس. يفكر بالنهار وبالليل، لماذا 'كيني'، لماذا 'تشيب'، لماذا 'بادي'، لماذا هم وليس أنا؟ أحيانًا يفكر في أنهم محظوظون. لقد انتهى أمرهم. كلا، لا سبيل، لا كيفية، كيف يذهب إلى الجدار. الجدار. بالقطع لا. لا يقدر أن يفعلها. لن يفعلها. هذا هو.

ارقصي من أجلي.

كانوا معًا على مدى ستة أشهر تقريبًا، ولذا قال لها في إحدى الليالي: "هيا، ارقصي من أجلي،" وفي غرفة النوم وضع اسطوانةً، "الرجلُ الذي أحبُّ،" مع عزف روي إلدريدج على الساكس. ارقصي لي، قال، وهو يرخي ذراعيه المحكمتين حولها ويشير نحو الأرض جوار السرير. وهكذا، غير هيّابة، نهضت من حيث كانت تشم تلك الرائحة، رائحة كولن العاري، رائحة البشرة التي لوّحتها الشمس- نهضت من حيث كانت ترقد ساكنةً بعمق، وجهها متوسّدٌ جانبه العاري، أسنانها، ولسانها مغطًى بمَنْيه، ويدها، تحت بطنه، غائصة في تلك الشعيرات الجعدة اللزجة المشوشة الملفوفة، وهو يحدّق فيها بعيني نسر- تحديقته الخضراء التي لا تتزعزع عبر أهدابه السوداء الطويلة، لا يشبه على الإطلاق رجلاً عجوزاً مُستَهلَكًا جاهزًا للتداعي بل يشبه شخصًا يضغط بوجهه على لوح زجاجي- راحت فونيا ترقص، ليس بتدلّل، ليس مثلما رقصت ستينا عام 1948، ليس لأنها لم تكن فتاةً حلوة، شابة حلوة ترقص من أجل متعة أن تمنحه المتعة، شابة حلوة لا تعرف الكثير عما تفعله وهي تقول لنفسها: "بوسعي أن أمنحه ذلك- هو يريد ذلك، وأنا أقدر أن أفعل ذلك، ولذا ها هو ذا." كلا، ليس تمامًا مثل المشهد البريّ الساذج عند تحوّل البرعم إلى زهرة أو المُهرة وهي تتحول إلى فَرَسَة. بوسع فونيا أن تفعل ذلك، حسنًا، ولكن دون نضوج البرعم كانت ترقص، دون المثالية الغامضة الشابة التي لديها ولديه ولدى كل إنسان حي وميت. راح يقول: "هيا، ارقصي لي،" وبضحكتها السهلة قالت: "ولمَ لا؟ أنا كريمةٌ كما ترى،" وبدأت في التحرك، تملّس على بشرتها كأنما هي

فستان مكرمش تبسطه على جسدها، لتتأكد أن كل شيء في مكانه الصحيح، مشدودًا، نحيلاً، أو مستديرًا كما ينبغي له، شهقتُها، رائحة النباتات المثيرة التي تنبعث عادة من بين أصابعها وهي تعلو لتمرَّ بها على جسدها حتى عنقها ثم عبر أُذنيها الدافئتين وببطء من هناك إلى حيث وجنتيها ثم شفتيها ثم شعرها، شعرها الأشقر المشوب بالرمادي الذي أصبح مبتلاً ومتلبّكًا من الإجهاد، تلعب به كأنه عشب بحري، تتظاهر أمام نفسها بأنه عشبٌ بحري، وأنه كان دائمًا عشبًا بحريًّا، حزمة ضخمة من العشب البحري التي تقطر وهي مشبعة بالمحلول الملحي، وماذا يكلفها هذا على كل حال؟ يا لها من صفقة كبرى؟ الاندفاع بعنف. الانهمار للأمام. إن كان هذا ما يريده، فاخطفي الرجل، انفخي فيه الروح. لن يكون الأول.

كانت واعية حينما بدأ الأمر يحدث: ذلك الشيء، التواصل. تتحرك، من الأرضية التي غدت الآن منصّة مسرحها إلى حيث أرجل السرير، تتحرك، بإغراء، بشعر أشعث وببعض البلل والزلق جراء الساعات السابقة، ملطّخة بالدهون جراء العرض السابق، شعر ناعم، بشرة بيضاء في الأماكن التي لم تُلوَّح باللون الغامق من شمس المزرعة، ندوبُ جروح في أماكن عديدة، واحدة على عظمة الركبة مكشوطة مثلما يُكشط جلدُ طفلة إثر انزلاقها في الحظيرة، قطوعٌ رفيعة مثل الخيوط نصفُ بارئة في ذراعيها وساقيها من سياج المرعى، يداها خشنتان، مُحمرّتان، مقروحتان من ألياف الليف الزجاجي الذي تقبض عليه وهي تدير السياج، جرّاء نزعها تلك الأوتاد ودقّها كل أسبوع، كدمات حمراء على شكل بتلاّت الزهرة سواء من قاعات الحلب أو منه، كولمن، وهو يعتصرها بقوة من عنقها وجذعها، كدمة أخرى، سوداء مزرقة في ثنية فخذها النحيل، بقعٌ حيث كانت تُعَضُّ أو تُلسَع، شعيرة من شعيراته، أحد رموز شعره مثل شامة رمادية أنيقة ملتصقة بوجنتها، فمها مفتوح بما يكفي ليُظهر منحنى أسنانها، ودون عجلة على الإطلاق تتحرك في كل مكان لأن حركاتها البطيئة تلك هي المتعة. تتحرك، والآن هو يراها، يرى هذا الجسد الطويل يتحرك على الإيقاع، هذا الجسد النحيل الذي هو أقوى كثيرًا مما يبدو، وللدهشة يتدلى منه ثديان ثقيلان، يغطسان، ينغمسان، على الساقين المستقيمتين اللتين تميلان نحوه مثل طائر الغطاس وهو ممتلئ لحافّته بسائله. دون مقاومة، راح يتمطّى فوق تموجات ملاءة السرير، يتلوى كدوامة مع الوسائد المتكوّرة لكي يسند رأسه، رأسه المُستلقِي على مستوى واحد مع المسافة بين عظمتي فخذيها، مع بطنها، مع بطنها المتحرك، وكان يراها، كل ذرّة من جسدها، هو يراها وهي تعلم أنه يراها. هما متصلان. هي تعلم أنه يريدها أن تطالب بشيء. هو يريدني أن أقف هنا وأن أتحرك، كانت تفكر، وأن أطالِب بما يخصني. ما الذي يخصني؟ هو. هو؟ لقد وهبني نفسَه.

أوكي، هذا أمر عالي الفولت، ولكن ها نحن نفعل. وهكذا، وهي ترمقه بنظرة خفيضة لطيفة، تتحرك، هي تتحرك، وبدأت نقطة التحول الرسمية للقوى. أمر لطيف للغاية بالنسبة لها أن تتحرك هكذا على الموسيقى لتمرّ القوةُ من فوقها، وهي تعلم أنها بأقل إشارة منها، بنقرة من إصبعها مثل تلك التي نستدعي بها النادل، سوف يزحف من ذلك السرير لكي يلعق قدميها. فورًا خلال الرقصة، كان بوسعها أن تُقشِّره وتأكله مثل ثمرة فاكهة. ليس الأمر أنني امرأة تُضرب وأنني حارسة بوابة وأنني في الجامعة لأنظف غائط الناس وأنني في مكتب البريد لأنظف غائط الناس وقاذوراتهم، وأن خشونة شنيعة تنتج عن كل هذا، عن تنظيف كل مخلفات الآخرين؛ إذا أردتَ أن تعرف الحقيقة، إنه الامتصاص، ولا تقل لي إنه لم يكن هناك وظائف أفضل، ولكنني اخترت تلك، إنه ما أعمل، وظائف ثلاث، لأن هذه السيارة معطلة من ستة أيام، عليّ أن أشتري سيارة رخيصة تدور، لهذا أعمل في ثلاث وظائف، وليس للمرة الأولى، وعلى فكرة، المزرعة هي حِملٌ من العمل الثقيل، بالنسبة لك يبدو عظيمًا وبالنسبة لك تراه عظيمًا، فونيا والأبقار، ولكن يأتي على رأس كل شيء إنه يكسر ظهري... ولكنني الآن عارية في غرفة مع رجل، أراه راقدًا هناك بعضوه ووشم البحرية، العضو هادئ والرجل هادئ، حتى وهو يطلب أن يراني أرقص كان هادئًا جدًا، وللتو كان قد قذف بمخلفاته للخارج، أيضًا. فقَدَ زوجته، وفقد وظيفته، طاله الخزيُ المشاع بوصفه بروفيسور عنصريًا، وما أدراك ما البروفيسور العنصري؟ ليس الأمر أنكَ أصبحتَ واحدًا صحيحًا. الحكاية أنه تم اكتشافكَ، ولذا فإنها حياتك بأسرها. الأمر ليس أنك فقط قد أتيتَ أمرًا خطأً ذات مرة. لو أنكَ عنصريٌّ، فأنت إذن كنتَ عنصريًا طوال الوقت. فجأة أصبحتَ عنصريًا طوال حياتك كلها. تلك هي الوصمةُ وهي ليست صحيحة حتى، ولكنه الآن هادئ. بوسعي أن أفعل ذلك من أجله. بوسعي أن أجعله هادئًا مثل هذا، بوسعه أن يجعلني هادئة مثل هذا. كل ما عليّ فعله هو أن أظل أتحرك. هو يقول ارقصي من أجلي وأنا رحتُ أفكر، ولمَ لا؟ لمَ لا، فيما عدا أن هذا سوف يجعله يفكر أنني سأتماشى معه وأتظاهر معه بأن هذا شيء آخر. وهو سوف يتظاهر بأن العالم ملكنا، وأنا سأتركه يفكر على هذا النحو، ثم بعد ذلك أفعل مثله أنا أيضًا. ومع هذا، ولمَ لا؟ بوسعي أن أرقص... ولكن عليه أن يتذكر. إنه فقط ما هو، حتى ولو لم أكن أرتدي شيئًا سوى خاتم الأوبال، لا شيء عليّ سوى الخاتم الذي أعطاه لي. إنه وقوف عشيقتك أمامك عارية والأنوار مضاءة وهي تتحرك. أوكي، أنت رجل، ولستَ في أوج شبابك، أنت قضيت حياتك وأنا لم أكن جزءًا منها، ولكنني أعلم ما يجري هنا. لقد أتيت لي كرجل. لهذا جئتُ إليك. هذا كثير. ولكن هذا هو الأمر كله. أنا أرقصُ أمامك عاريةً والأنوار مضاءة، وأنت عارٍ أيضًا، وكل ما عدا

ذلك ليس يهمّ. إنه الشيء الأبسط الذي فعلناه طوال حياتنا- هذا هو. لا تهوّله بأن تفكر أنه أكثر من ذلك. لن تفعل، ولن أفعل. ليس على الأمر أن يكون أكثر من ذلك. أتعرف ماذا؟ أنا أراك يا كولمن.

ثم قالتها بصوت عالٍ. "أتعرف ماذا؟ أنا أراك."

"هل حقًّا ترينني؟" يقول. "الآن إذن بدأ الجحيم."

"هل تعتقد- إذا كنتَ قد فكرتَ في الأمر من قبل- أن هناك ربًّا؟ هل تريد أن تعرف لماذا أنا في هذا العالم؟ لأي شيء كان العالم؟ وجدِ العالمُ من أجل هذا. إنه من أجل، أنك هنا، وأنني سأفعل ذلك لأجلك. إنه من أجل ألا تظن أنك شخص آخر في مكان آخر. أنتِ امرأة وأنتِ في الفراش مع زوجك، وأنت لا تضاجعين من أجل المضاجعة، لا تضاجعين لكي تصلي للذروة، بل تضاجعين لأنك في السرير مع زوجك ولأن هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب أن يحدث. أنتَ رجلٌ وأنت مع زوجتك وأنت تضاجعها، ولكنك تفكر أنك تريد أن تضاجع حارسة مكتب البريد. أوكي- هل تعلم ماذا؟ أنت الآن مع حارسة البوابة."

يقول بنعومة وهو يضحك: "وهذا يثبت وجود الله."

"لو أن ذلك لم يُثبت وجود الله، فلا شيء آخر يُثبت ذلك."

"استمري في الرقص." يقول.

"حينما تكون ميّتًا،" فونيا تسأل، "ماذا يهم إذا لم تتزوج الشخص المناسب؟"

"لا يهم. لا يهم حتى حين تكون حيًّا. استمري في الرقص."

"ما هو يا كولمن؟ ما الذي يهم؟"

"هذا،" قال.

"هذا ولدي الطيب،" تجيب. "الآن أنت تتعلم."

"هل هذا هو ما يحدث- أنت تعلمينني؟"

"الأمر يتعلق بالتوقيت الذي يفعل فيه الشخص. أجل، أنا أعلّمك. ولكن لا تنظرْ إليّ الآن بوصفي أصلح لشيء آخر عدا هذا. لشيء أكثر من هذا. لا تفعل ذلك. ابقَ هنا معي. لا تذهب. تمسّك بهذا. لا تفكر في شيء آخر. ابقَ هنا معي. سأفعلُ ما تشاء مهما كان. كم مرَةً كان لديك امرأة بالفعل تقول لك هذا وتعنيه حقًّا؟ سوف أفعل أي شيء تريد. لا تضيّعْ هذا. لا تذهبْ به إلى أي مكان آخر يا كولمن. هذا هو كل ما نحن هنا لكي نفعله. لا تظن أن الأمر يخصّ الغد. أغلقْ كلَّ الأبواب، قبل وبعد. كل الدروب الاجتماعية في التفكير، أغلقْها جميعها. كل شيء يسأل عنه المجتمع الرائع؟ الطريق الذي نشيّده اجتماعيًّا؟ 'يجب عليّ، يجب عليّ، يجب عليّ'؟ تبًّا لكل هذا. الذي من

المفترض أن تكونه، الذي من المفترض أن تفعله، كل ذلك، فقط اقتلْ كلَّ شيء. بوسعي أن أستمر في الرقص، مادامت هذه هي الصفقة. اللحظة السرية الصغيرة- إن كانت هذه هي الصفقة كلها. هي حصّتك التي ستحصل عليها. الحصة المقتصّة من الزمن. هي ليست أكثر من ذلك، وآمل أن تعرفها."

"استمري في الرقص."

"هذا الأمر هو الأمر المهم." تقول فونيا. "إذا ما تخلّيتُ عن التفكير في..."

"ماذا؟ التفكير في ماذا؟"

"في أنني كنتُ مهبلَ عُهر صغيرًا منذ عمر مبكر وحتى الآن."

"هل كنتِ ذلك؟"

"كان دائمًا يخبر نفسه أنه لم يكن السبب، بل أنا."

"زوج الأم."

"نعم. هذا ما كان يخبر به نفسه. ربما كان على حق. ولكن لم يكن من خيار أمامي في عُمر الثامنة والتاسعة والعاشرة. إنها الوحشية هي السبب."

"كيف كان الحال حينما كنتِ في العاشرة من عمرك؟"

"الأمر كان يشبه أن تطلب مني أن ألتقطَ البيت بكامله وأحمله فوق ظهري."

"كيف كان الحال حينما كان الباب ينفتح في الليل ويدخل إلى غرفتك؟"

"الأمر يشبه أن تكون طفلاً في حرب. هل شاهدت أبدًا تلك الصور في الجريدة لأطفال بعدما يقذفون مدائنهم بالقنابل؟ الأمر يشبه ذلك. الأمر في هول القنبلة. ولكن ليس مهمًا كم مرةً تمّ تفجيري، فمازلتُ أقف. كان ذلك هو سقوطي: استمراري في الوقوف. ثم غدوت في الثانية عشرة والثالثة عشرة وبدأتُ أمتلك حلمتين. بدأتُ أقطر دم الدورة الشهرية. وفجأة أصبحتُ مجرد جسد يحيط بمهبلي... ولكني سأبقي أرقص. كل الأبواب موصدة، قبل وبعد يا كولن. أنا أراك يا كولن. أنت لا توصد الأبواب. مازالت لديك أوهام الحب. هل تعلم شيئًا؟ أنا بالفعل أحتاج رجلاً أكبر منك عمرًا. رجلاً طرد تمامًا من داخله كل هراء الحب. أنت صغير جدًا في السن عليّ يا كولن. انظرْ إلى نفسك. أنت مجرد ولد صغير وقع في هوى معلمة البيانو. أنت معجبٌ بي يا كولن، وأنت أصغر سنًّا بكثير من أن تعجب بي. أحتاج إلى رجل أكبر منك بكثير. أظن أنني أحتاج إلى رجل على الأقل في المائة من عمره. هل لديك صديق يجلس على كرسي المقعدين لتقدمني له؟ كرسي المقعدين هو الشيء المناسب- بوسعي أن أرقص وأنا أدفع الكرسي. ربما لديك شقيق أكبر سنًّا. انظر إلى نفسك يا كولن. تنظر إليّ بعيني تلميذ

المدارس هاتين. أرجوك، أرجوك، استدعِ صديقك الأكبر سنًّا. سأستمر في الرقص، وأنت هاته على التليفون. أريد أن أتحدث إليه."

وهي تعلم، بينما تقول ذلك، أن هذا هو الأمر وأن الرقص هو الذي جعله يقع في هواها. وأن الأمر جدّ بسيط. لقد جذبتُ الكثيرَ من الرجال، الكثيرَ من الأعضاء الذكرية، القضبانُ تعرف طريقي وتأتي إليّ، ليس مجرد أي رجل بقضيب، ليس أولئك الذين لا يفهمون، الذين يمثلون تسعين بالمائة منهم، ولكن الرجال، الأولاد الصغار، أولئك الذين لديهم عضو ذكري حقيقي، الذين مثل سموكي من أولئك بالفعل يفهمون. بوسعك أن تنهزمي أمام نفسك بالأشياء التي لا تمتلكينها، ولكن ذلك الذي أملك، حتى وهو مغطى تمامًا، بعض الرجال يعرفونه- يعرفون ما هو، ولهذا يبحثون عني، ولهذا يأتون، ولكن هذا، هذا، هذا يأخذ قطعة الحلوى من طفل. بالتأكيد- هو يتذكر. كيف له ألا يتذكر؟ ما أن تتذوقه مرّةً، فإنك تتذكره. ما هو لي. خاصتي. ما هو ملكي. بعد مائة وستين وظيفة عاصفة وأربعمائة مضاجعة عادية ومائة وستة مضاجعات من الدبر، يبدأ الغزل. ولكن هكذا تسير الأمور. كم مرة حدث أن أَحبَّ أيُّ إنسان في العالم قبل أن يضاجِع؟ كم مرةً أحببتُ بعدما ضاجعتُ؟ أم هكذا الحال، هكذا التجديد والتطوّر؟

"هل تودُّ أن تعرف بمَ أشعر؟" سألته.

"نعم."

"أشعر أنني على ما يرام."

"وهكذا،" سألها، "مَن بوسعه أن يخرج من هذا وهو على قيد الحياة؟"

"أنا معك هناك أيها السيد. أنت على حق يا كولن. هذا سوف يؤدي إلى كارثة. التورط داخل هذا في عمر الواحدة والسبعين؟ الدوران حول هذا المنعطف في الواحدة والسبعين؟ آه-آه. من الأفضل أن نعود إلى المادة الخام الأصلية."

"استمري في الرقص،" يقول كولن، يضغط على زرّ جهاز سوني جوار السرير فتعود أغنية "الرجلُ الذي أحببتُ" تصدحُ من جديد.

"لا، لا. أتوسل إليك. هناك مستقبلي الوظيفي كحارسة بناية علينا التفكير فيه."

"لا تتوقفي."

"لا تتوقفي." راحت فونيا تكررُ ما يقول. "لقد سمعتُ هاتين الكلمتين في مكان ما من قبل." في الحقيقة، نادرًا ما سمعتْ من قبل كلمة "توقفي" دون "لا". ليس من رجل. ولا حتى من نفسها أيضًا. "كنتُ دائمًا أظن أن 'لا تتوقفي' كلمةٌ واحدة." قالت.

"إنها كذلك. استمري في الرقص."

"إذن لا تجعله يفوتك." قالت. "رجل وامرأة في غرفة. عاريان. لقد حصلنا على كل ما نحتاج إليه. نحن لا نحتاج إلى الحب. لا تقلل من شأن نفسك- لا توحي لنفسك بأنك واهنٌ عاطفيًا. أنت تتوق إلى فعله، ولكنك لا تفعل. دعنا لا نفوّت هذا. تخيّل يا كولمن، تخيّلْ أننا نُبقي على هذا."

لم يكن قد رآني من قبل أرقص هكذا، لم يسمعني من قبل أتكلم هكذا. منذ زمن طويل لم أتكلم مثل هذا الكلام، لقد ظننتُ أنني نسيتُ كيف أفعل هذا. أمدٌ طويل من الاختباء. لا أحد سمعني أتكلم هكذا. الصقور والغربان أحيانًا في الغابات ربما، ولكن عدا هذا لا أحد. ليست هذه هي الطريقة المعتادة التي أمتّع بها الرجال. هذا من أكثر الأمور التي فعلتُها طيشًا. تخيلْ.

"تخيّلْ،" تقول فونيا، "الانكشاف كل يوم- ثم هذا. المرأة التي لا تريد أن تمتلك كلَّ شيء. المرأة التي لا تريد أن تمتلك أيَّ شيء."

لكنها أبدًا لم تكن تود أن تمتلك أي شيء أكثر.

"معظم النساء يردن أن يمتلكن كل شيء." تقول فونيا. "يُردن أن يمتلكن بريدك. يردن أن يمتلكن مستقبلك. يردن أن يمتلكن خيالاتك وأحلام يقظتك. 'كيف تجرؤ وترغب في أن تضاجع أية واحدة غيري. لابد أن أكون أنا خيالك. لماذا تشاهد البورنو بينما لديك أنا في البيت؟' يردن أن يمتلكن كل ما هو أنت يا كولمن. ولكن السعادة ليست في امتلاك الشخص. السعادة هي هذا. أن يكون لديك منافس معك في الغرفة. أوه، أنا أراك يا كولمن. بوسعي أن أهبك حياتي كلها وأظل أمتلكك مع هذا. فقط بالرقص. أليس هذا صحيحًا؟ هل أنا على خطأ؟ هل تحب ذلك يا كولمن؟"

"يا للحظ،" يقول وهو يشاهد، ويشاهد. "يا له من حظ لا يُصدَّق. الحياةُ مَدينةٌ لي بهذا."

"حقًّا؟"

"لا أحد مثلك. يا هيلين[171] طروادة."

"هيلين اللا مكان. هيلين التي تخصّ لا مكان."

"استمري في الرقص."

"أنا أراك يا كولمن. أراك بالفعل. هل تريد أن تعرف ماذا أرى؟"

"بالطبع."

---

171 - أجمل امرأة في الميثولوجيا الإغريقية. بسببها قامت حرب طروادة الشهيرة حينما اختطفها باريس من أسبرطة ورجع بها إلى مدينته طروادة، فقامت الحرب الأسطورية من أجل استعادتها. (المترجمة)

"تريد أن تعرف ما إذا كنت أرى رجلاً عجوزاً، أليس كذلك؟ أنت خائفُ من أنني سأرى رجلاً عجوزاً فأهرب. أنت خائفُ من أن أرى كل الاختلافات بينك وبين رجل شاب، إذا ما رأيتُ الأعضاء التي ارتخت والأشياء التي ذهبت، سوف تفقدني. لأنك عجوز جدًّا. ولكن هل تعلم ماذا أرى؟"

"ماذا؟"

"أرى طفلاً. أراك تقع في الهوى مثلما يفعل طفل. ولا يجب عليك ذلك. لا يجب عليك. أتدري ماذا أرى أيضًا؟"

"نعم."

"نعم، أنا أراه الآن- أنا أرى رجلاً عجوزاً. أرى رجلاً عجوزاً يحتضر."

"أخبريني."

"أنت فقدت كل شيء."

"هل ترين ذلك؟"

"نعم. كل شيء ماعداي وأنا أرقص. هل تريد أن تعرف ماذا أرى؟"

"ماذا؟"

"أنت لا تستحق تلك اليد يا كولمن. هذا ما أراه. أرى أنك غاضب. وتلك هي الطريق التي تؤدي إلى النهاية. كرجل غاضب عجوز. كان يجب ألا يكون. ذلك ما أراه: أنت غاضب بشدة. أرى الغضب والخزي. أرى أنك تدرك كرجل عجوز ما هو الزمن. أنت لا تدرك ذلك إلا قُرب النهاية. ولكنك الآن أدركت. وهذا مرعب. لأنك لا تقدر أن تعيد الكرّة. ليس بوسعك أن تصبح في العشرين ثانيةً. هذا لن يعود. وهكذا انتهى الأمر. والشيء الأسوأ من الموت، إن كان ثمة ما هو أسوأ من أن تكون ميتًا، هو أولئك الأوغاد الذين فعلوا بك ذلك. الذين أخذوا منك كل شيء. أرى ذلك فيك يا كولمن. أرى ذلك لأنه شيء أعرفه. الأوغاد الأوساخ الذين قلبوا كل شيء في غمضة عين. أخذوا حياتك وألقوا بها بعيدًا. أخذوا حياتك، ثم قرروا أنهم سوف يلقون بها بعيدًا. لقد جئتَ إلى الفتاة الراقصة المناسبة. لقد قرروا ما هي القمامة، ثم قرروا أنك أنت القمامة. أذلّوا وحقّروا ودمّروا رجلاً بسبب حكاية يعرف الجميع أنها هراء. كلمة حقيرة صغيرة لا تعني شيئًا لهم، لا شيء على الإطلاق. وهذا يثير الحنق."

"لم أكن أدرك أنك تنتبهين للأمر."

راحت تضحك ضحكتها السهلة تلك. وترقص. دون مثالية، ودون السعي إلى المثالية، بدون كل طوباوية ذلك الشيء الحلو الصغير، بالرغم من كل شيء كانت تعلم أنه الواقعية، رغم التفاهة التي لا يتعذّر إلغاؤها التي هي حياتها، رغم كل الفوضى

والقسوة، راحت ترقص! وراحت تتكلم كما لم تتكلم مع رجل من قبل. النساء اللواتي يضاجعن مثلما تضاجع هي لا يُفترض أن يتكلمن هكذا- على الأقل هكذا يجب أن يفكر الرجال الذين لا يضاجعون نساءً مثلها. هكذا تحب أن تفكر النساء اللواتي لا يضاجعن مثلما تضاجع هي. هكذا يجب أن يفكر كل الناس- فونيا الغبية. حسنًا، دعيهم. تلك بهجتي. "نعم، فونيا الغبية كانت تولي الأمر انتباهها." قالت. "ما الذي أنجزتْه أيضًا فونيا الغبية؟ أن أكون فونيا الغبية- ذلك هو إنجازي يا كولمن، هذا هو أنا في أفضل حالاتي حساسيةً. لنقلب الأمر رأسًا على عقب يا كولمن، كنت أشاهدك وأنت ترقص. كيف عرفتُ ذلك؟ لأنك معي. كيف كنتَ ستكون معي، لو لم تكن غاضبًا حدَّ اللعنة؟ وكيف كنتُ سأكون معك، لو لم أكن غاضبةً حدّ اللعنة؟ هذا هو ما يُنتج المضاجعة العظمى يا كولمن. الغضب الذي يساوي بين كل شيء. لذلك لا تفقدْه."

"استمري في الرقص."

"حتى أسقط؟" سألت فونيا.

"حتى تسقطي،" أجابها. "حتى الرمق الأخير."

"كيفما تشاء."

"أين وجدتكِ يا فولوبتس؟" يقول. "كيف وجدتكِ؟ مَن تكونين؟" يسألها، وهو يضغط على الزر ثانيةً لتبدأ أغنية "الرجل الذي أحبُّ."

"أنا هي المرأة التي تشاء."

كل ما كان كولمن يفعله هو أن يقرأ عليها شيئًا من جريدة "الأحد" عن الرئيس ومونيكا لوينسكي، حينما نهضت فونيا وصرخت: "أليس بوسعك أن تتجنب هذا الدرس الوسخ؟ يكفيني ما يكفيني من هذه الحلقة الدراسية! لا أقدر أن أتعلم! أنا لا أتعلم! أنا لا أريد أن أتعلم! كُفّ عن تعليمي بحق الجحيم- هذا لن يفيد!" وفي منتصف فطورهما، هربت.

قضاء الليلة في بيته كان غلطة. لم تذهب إلى بيتها، والآن هي تكرهه. ما أكثر ما تكرهه فيه؟ أنه يظن أن معاناته ضخمة الحجم وأنها أمر جلل. هو بالفعل يظن أن ما يظنه فيه كل الناس، ما يقوله عنه كل الناس في جامعة أثينا، مرهقٌ جدًا للحياة. وجود الكثير من الأغبياء ممن لا يحبونه- ليس أمرًا جللاً. وبالنسبة له كان ذلك أكثر الأمور رعبًا مما يمكن أن يحدث؟ حسنًا، ليس هذا أمرًا جللاً. طفلان يختنقان ويموتان، ذلك أمر جلل. وجود زوج أمٍّ يعبث بأصابعه في مهبلك، هذا أمر جلل. أن تفقد وظيفتك وأنت على وشك التقاعد ليس أمرًا جللاً. هذا هو ما تكرهه فيه- امتيازاتُ معاناته ورفاهيتها.

هو يظن أنه أبدًا لم يكن لديه حظ؟ ثمة ألم حقيقي فوق هذه الأرض، وهو يظن أن لم يكن لديه حظ؟ أتعلم متى لا يكون لديك حظ؟ حينما، بعد حلب الصباح، يأخذ زوجُك ماسورةً حديدية ويضربك بها على رأسك. حتى أنني لم أكن أرى الماسورة وهي آتية- وهو ليس لديه حظ! وأن الحياة مدينةٌ له بشيء!

ما صعّد الأمرَ هو أنها على الإفطار لم تكن تريد أن تتعلم. مونيكا المسكينة ربما لن تحصل على وظيفة جيدة في نيويورك؟ تعرف ماذا؟ أنا لا أكترث بمونيكا. هل تظن أن مونيكا تكترث حين يؤلمني ظهري من حلب تلك الأبقار اللعينة بعد نهار من العمل الشاق في الكلية؟ هل تعبأ بي مونيكا لوينسكي وأنا أكنس مخلفات الناس في مكتب البريد لأنهم لا يعبأون بأن يستخدموا صندوق القمامة اللعين؟ هل تظن أن مونيكا تعبأ بهذا؟ هي تظل تهاتف البيت الأبيض، ولابد أنه أمر شنيع ألا تُجاب مكالماتها. وهذا أمر فظيع بالنسبة لك؟ أمرٌ شنيع أيضًا؟ هذا لم يحدث معي أبدًا. لقد حدث لي فيما مضى. جرِّب أن تصرعك ماسورةٌ حديدة تُقرَع فوق رأسك. الليلة الماضية؟ حدث هذا. كان هذا لطيفًا. كان هذا رائعًا. أنا أحتاج إلى ذلك أيضًا. ولكن مازال لديّ ثلاث وظائف. هذا لم يغير أي شيء. لهذا السبب تأخذها أنت ببساطة حينما تحدث، لأنها لا تغير شيئًا. جرِّب أن تخبر أمَّك أن زوجها يضع أصابعه في جسدك حينما يأتي في الليل- وهذا لن يغير شيئًا. ربما الآن ماما تعرف وستساعدك. لكن شيئًا لا يغير أي شيء. كانت لدينا هذه الليلة من الرقص. ولكن هذا لا يغير أي شيء. هو يقرأ لي عن تلك الأمور في واشنطن- ماذا، ماذا، ماذا عساه يغير هذا؟ هو يقرأ لي عن تلك الأمور الطائشة في واشنطن، بيل كلينتون وعضوه الذكري الذي يُمتص. كيف يمكن أن يساعدني هذا حينما تتعطل سيارتي المتهالكة؟ أنت بالفعل تظن أن تلك هي الأمور الأخطر في العالم؟ تلك الترهات ليست بالأهمية التي تظنها. ليست مهمّة على الإطلاق. كان لديّ طفلان. وماتا. لو لم يكن لدي الطاقة هذا الصباح لأنزعِج على مونيكا وكلينتون، فسجِّلْ الأمر على طفليَّ، القِ باللوم عليهما، هذا جيد؟ لو كان هذا موطن نقصي، فليكن. لم يعد لدي طاقة أمنحها لكل مشاكل العالم العظمى تلك.

الخطأ كان البقاء هناك في بيت كولمن. الخطأ كان الوقوع تحت سطوة نفوذه على هذا النحو التام. حتى في أشرس العواصف الرعدية، كانت تعود بسيارتها إلى البيت. حتى عندما كانت مرعوبة من فيرلي وهو يتبعها ويجبرها على أن تنحرف عن مسار الطريق نحو النهر، كانت تعود إلى البيت. ولكنها بقيت في بيت كولمن. من أجل الرقص بقيت، وفي الصباح كانت غاضبة. هي غاضبة منه. هذا نهار جديد عظيم، هيا نرى ماذا تقول الجريدة. بعد الليلة الماضية تلك يريد أن يرى ماذا تقول الصحيفة؟ ربما لو لم يكونا قد

تكلما، لو كانا فقط قد تناولا فطورهما ثم رحلتْ هي، ربما لكان بقاؤها لديه لا بأس به. ولكن أن يبدأ النهار بالدورة التعليمية. كان هذا أسوأ ما يمكنه فعله. ماذا كان عليه أن يفعل؟ أن يعطيها شيئًا تأكله ثم يتركها تعود إلى بيتها. لكن الرقصَ أتى ضررَه. أنني بقيت في بيته حتى الصباح. بكل غباء مكثتُ. الرحيل في الليل- لا شيء أكثر أهميةً من ذلك بالنسبة لفتاة مثلي. لست مدركةً للكثير من الأمور، ولكنني أعلم هذا جيدًا: البقاء حتى النهار التالي، هذا يعني شيئًا. فانتازيا كولن وفونيا. إنه بداية الانغماس في خيال الأبد، أكثر أنواع الخيال ابتذالاً في العالم. لديّ مكان أذهبُ إليه، أليس كذلك؟ هو ليس المكان الأجمل، ولكنه مكان. اذهبي إليه! ضاجعي رجلاً ساعات طوالاً، ولكن بعد ذلك اذهبي. في يوم الشهداء كانت هناك عواصف رعدية، تضرب بوابلها التلال وتمزقها كأنما اندلعت حربٌ. هجمت المفاجأة على بيركشاير. ولكنني نهضتُ في الثالثة صباحًا، ارتديتُ ثيابي، ورحلتُ. البرقُ يومضُ، الأشجار تنشطرُ، الأغصان تتهشّم، السماءُ تهطل مثل الرصاص فوق رأسي، ولكنني رحلتُ. ضربتني الرياحُ من كل صوب، ولكنني رحلتُ. الجبالُ كانت تنفجر، ولكنني أيضًا رحلتُ. فقط في المسافة القصيرة بين البيت والسيارة كان يمكن أن أُقتَل، بسهمٍ من البرق يشتعل ويقتل، لكنني لم أمكث- رحلتُ. ولكن أن أتمدد في السرير معه طوال الليل؟ القمر كان ساطعًا، والأرض بكاملها ساكنة، القمر وضوء القمر في كل مكان، وبقيتُ. حتى رجلٌ أعمى كان بوسعه أن يجد طريقه إلى بيته في ليلة كتلك، لكنني لم أرحل. ولم أنم. لم أستطع. ظللتُ يقظةً طوال الليل. لم أود أن أتدحرج بالقرب من الرجل. لم أرد أن ألمس هذا الرجل. لا أعرف كيف، هذا الرجل الذي ظللتُ ألعق فتحته لشهور. ظللتُ حتى الفجر على حافة السرير مثل مجزوم يقظ يشاهد ظلال الأشجار وهي تزحفُ نحو المرج. قال: "يجب أن تبقي،" ولكنه لم يكن يريدني أن أبقى، وقلتُ: "أظن أنني سأثقل عليك،" وهذا ما كان. كان يجب أن يكون أحدنا على الأقل حاسمًا. ولكن لا. كلانا نحن الاثنين استسلمنا للفكرة الأسوأ على الإطلاق. كانت العاهرات يخبرنها بشيء، حكمة العواهر العظمى: "الرجالُ لا يدفعون لكِ لكي تنامي معهم. بل يدفعون لكِ لكي تعودي إلى البيت."

ولكنها مثلما كانت تدرك بالضبط كل ما تكرهه فيه، فهي تدرك أيضًا كل ما تحب. سخاؤه. من النادر جدًا بالنسبة لها أن تتواجد جوار كرم أي شخص. كذلك القوة التي تكمنُ في أن يكون رجلاً ولا يؤرجح ماسورة فوق رأسي. إذا ما ضمّني إليه، يكون عليّ أن أعترف له أنني ذكية ورشيقة. ألم أفعل الكثير من هذا في الليلة الماضية؟ هو ينصت إليّ وبهذا كنتُ ذكية. إنه ينصتُ إليّ. هو مخلصٌ لي. هو لا يوبّخني على أي شيء. هو لا يتآمر ضدي على أي نحو. وهل هذا سبب يدفع للغضب؟ هو يأخذني

بجدية. في هذا صدقٌ. هذا هو ما قصده حينما أعطاني الخاتم. لقد جرَّدوه وجعلوه عاريًا ولهذا جاءني عاريًا. في أشد لحظاته هلاكًا. أيامي لم تكن مفروشة برجال مثل هذا الرجل. كان سيساعدني لكي أشتري سيارة لو كنتُ سمحت له بذلك. كان سيساعدني لأشتري كل شيء لو سمحتُ له. الحياة أقلُّ ألمًا مع هذا الرجل. مجرد علوّ صوته وانخفاضه، مجرد سماعه، يملؤني اطمئنانًا.

هل تلك هي الأشياء التي تهربين منها؟ أمِنْ أجل هذا تختلقين الشجارَ مثل طفلة؟ محض مصادفة مجرد أن التقيتِ به، أول مصادفاتكِ السعيدة- آخر مصادفة سعيدة ستحدث لك- ثم تشتعلين غضبًا وتهربين مثل طفلة؟ هل بالفعل تسعين إلى استدعاء النهاية؟ لكي تعودي من جديد إلى حيث كنتِ قبله؟

لكنها هربت، جرت من البيت وسحبت سيارتها خارج الجراج وقادتها عبر الجبل لكي تزور الغرابَ في أودوبون سوسيتي. خمسة أميال وهي تتأرجح على الطريق مخترقةً الدرب الترابيّ الضيق الذي يتلوّى ويلتفّ لمسافة ربع ميل حتى ظهر أخيرًا الكوخ الخشبي الرمادي ذو الطابقين من بين الأشجار فسبّب لها الارتياح. كان منذ زمن مأوى لبشر ولكنه الآن مركز المجتمع المحلي، يقف على حافة الغابة عند ذيل الطبيعة. دخلت فونيا طريق ممشى الحصى، وهي تكاد تصطدم بحافة الحاجز الخشبي، صفّت سيارتَها أمام الشجرة التي تحمل بالمسامير لافتةً تشير إلى حديقة الأعشاب، حيث كانت سيارتها هي الوحيدة التي يمكن أن تُرى. هي التي صنعتها. كانت قيادتها أسهل على سفح الجبل.

نواقيس الهواء معلقة جوار المدخل ترنّ مع النسيم على نحو مثير للغموض، كأنما الرنين، دون كلمات، أمرٌ ديني يرحب بالزائرين لكي يمكثوا ويتأملوا بينما ينظرون حولهم- كأنما شيء صغير ولكنه مؤثر يشيعُ الجلالَ ها هنا- ولكن الراية لم تكن قد رُفعت على السارية بعد، واللافتة على الباب تقول إن المكان لا يُفتح أيام الآحاد حتى الواحدة ظهرًا. بالرغم من ذلك، حينما دفعت الباب، فانفتح، خطت خلف ظلال الصباح النحيلة للأشجار العارية ودخلت القاعة، حيث أجولة ضخمة مثقلة بخليط من طعام الطيور مرصوصة على الأرضية، جاهزة لمشتريي الشتاء، ومن خلال الأجولة، المرصوصة عند النافذة على الحائط المقابل، لمحت صناديقَ تحتوي على أطعمة الطيور المختلفة. في محل الهدايا، حيث يبيعون الأطعمة جنبًا إلى جنب جوار كتب الطبيعة وخرائط المسح وشرائط عليها تسجيل أصوات الطيور وتشكيلة متنوعة من الحُليّ المستوحاة من الحيوانات، لم تكن الأنوار مضاءة، ولكن حين استدارت للناحية الأخرى، داخل غرفة العرض الواسعة، حيث كانت مجموعة ضئيلة من الحيوانات المحنّطة وتنويعة صغيرة من

النماذج الحية- سلاحف، ثعابين، طيور في أقفاص- كانت هناك إحدى الموظفات، فتاة ممتلئة في حوالي الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، قالت: "هاي،" ولم تبدِ احتجاجها لفونيا لأن المكان لم يُفتح بعد. في هذا المكان القصيّ عند الجبل، بمجرد أن تبدأ أوراق الخريف في السقوط، يندر توافد الزوار مع أوائل نوفمبر، ولذلك لم تكن الموظفة لتصرف شخصًا حدث وجاء في التاسعة والربع صباحًا، حتى وإن كان تلك المرأة التي لم تكن تلبس ما يناسب الطبيعة في منتصف خريف تلال بيركشاير بل كانت فيما يبدو ترتدي، فوق بنطالها الرياضي الرمادي الفضفاض، بيجاما رجالية مقلمة، وفي قدميها لا شيء سوى خُفّ منزلي، ما يُسمى "شبشب". ولا حتى شعرها الأشقر الطويل كان قد مُشِّطَ بعد. ولكنها، بوجه عام، كانت مشوشة المظهر، أكثر منها لعوبًا فاسقة، ولهذا فإن الفتاة، التي كانت تُطعم ثعبانًا في صندوق عند قدميها ببعض الفئران- كانت تحمل كل فأر بين فكّي ملقط وتقرِّبه من فم الثعبان حتى يقتنصه لتبدأ بعد ذلك عمليةُ الالتهام ببطء- قالت فقط: "هاي،" ثم انصرفت إلى مهامها المعتادة في صباح الأحد.

كان الغراب في قفص أوسط، في غرفة مثل محبس في حجم خزانة ملابس صغيرة، بين القفص الذي يضم بومتين هائجتين وقفص يضمّ صقرَ القمري. ها هو ذا. شعرت فونيا الآن أنها أفضل.

"أيها الأمير[172]. هاي، أيها الرجل الكبير." طقطقت له، بلسانها في سقف فمها- كليك، كليك، كليك.

استدارت فونيا للفتاة التي تطعم الثعبان. لم تكن هذه الفتاة هناك حينما كانت فونيا تأتي في الماضي لترى الغراب، من المحتمل جدًا أنها جديدة. أو جديدة نسبيًا. فونيا لم تزر الغراب منذ شهور الآن، ولم تزره على الإطلاق منذ بدأت تواعد كولن. مرّت فترة من الزمن حتى الآن منذ كانت تأتي إلى هنا لتبحث عن سُبُل لتغادر الجنس البشري. لم تكن زائرة منتظمة لهذا المكان منذ مات الطفلان، رغم أنها وقتئذ كانت في بعض الأحيان تمر أربع مرات أو خمسًا في الأسبوع.

"بوسعه أن يخرج، أليس كذلك؟ يمكن أن يخرج لدقيقة فقط."

"بالتأكيد،" قالت الفتاة.

"أودّ أن أضعه على كتفي،" قالت فونيا، ثم أحنت ظهرها لتحلّ الخطّافَ الذي يقفل الباب الزجاجي للقفص. "أوه، هاللو برنس. أوه أيها الأمير. انظرْ كيف صرتَ."

حينما انفتح الباب، وثب الغرابُ من فوق غصنه إلى أعلى الباب وجلس هناك يتأرجح من جانب إلى جانب.

---

[172] - الغراب اسمه Prince- أمير. (المترجمة)

ضحكتْ بعذوبة. "يا له من تعبير. إنه يفحصني،" قالت فونيا للفتاة. "انظرْ،" قالت للغراب، وأظهرت له خاتمَ الأوبال، هدية كولن. الخاتم الذي كان قد أعطاها إياه في السيارة صباح ذلك السبت من أغسطس حينما كانا متوجهينْ إلى تانجل-وود. "انظرْ، أقبِلْ، تعالَ،" راحت تهمس للطائر، وهي تقرّب له كتفَها.

لكن الغراب رفض الدعوة ووثب عائدًا إلى داخل القفص واستأنف حياته فوق الغصن.

"الأمير ليس في مزاج جيد،" قالت البنت.

"حبيبي؟" قالت فونيا بصوت عاطفي. "تعال. أقبلْ. أنا فونيا. صديقتك. هذا هو الولد الطيب صديقي. تعال." لكن الطائر لم يتحرك.

"إذا أدرك أنك تودين إمساكه، لن ينزل،" قالت الفتاة، وباستخدام الملقط، التقطت فأرًا آخر من الصينية التي تحمل مجموعة من الفئران الميتة وقدمته للثعبان، الذي بعد لأي سحبه داخل فمه، ميليمترًا بعد ميليمتر، حتى آخره. "حين يدرك أنك تحاولين الإمساك به، عادةً يبقى بعيدًا، ولكن حين يعتقد أنك تتجاهلينه، سيأتي."

"ضحكتا معًا على ذلك السلوك الذي يشبه السلوك البشري.

"أوكي،" قالت فونيا، "سوف أتركه لحاله لدقيقة." ومشت نحو الفتاة حيث كانت تجلس تُطعم الثعبان. "أحبُّ الغربان[173]. هي طيوري المفضلة. والغربان السود[174]. كنت أعيش في شلالات سيلي، ولذلك أعرف كل شيء عن برنس. أعرفه حين كان هناك في الأعالي يحلق حول متجر هيجنسون. كان يسرق مشابك شعر البنات الصغيرات. فورًا يذهب إلى أي شيء يلمع، أي شيء ملون. كان مشهورًا بذلك. العديد من قصاصات الجرائد كانت هناك عنه. مكتوب بها كل شيء عنه وعن الناس الذين قاموا بتربيته بعدما تحطّم عشّه وكيف ظل يحوّم حول المتجر مثل قذيفة كبيرة.

"كانت تلك القصاصات تُدبّس هناك،" قالت فونيا وهي تشير بإصبعها بعيدًا نحو لوحة الإعلانات في ردهة المدخل. "أين تلك القصاصات؟"

"لقد مزّقها."

انفجرت فونيا في الضحك، بصوت أعلى كثيرًا هذه المرة عما قبل.

"هو مزّقها؟"

"بمنقاره. مزّقها إربًا."

---

[173] - Crows

[174] - Ravens

"لا يريد أن يعرف تاريخَه أحدٌ! خجلاً من خلفياته الاجتماعية! برنس!" نادت فونيا، وهي تلتفت لتواجه القفص الذي كان بابه مفتوحًا لم يزل. "هل أنت خجلٌ من ماضيك السيء السمعة؟ أوه، أيها الولد الطيب. أنت غراب طيب."

الآن انتبهت فونيا إلى مجموعة من الحيوانات المحنّطة المنتشرة فوق الرفوف على جوانب الغرفة. "هل هذا قطٌ بريّ ذاك الذي هناك؟"

"أجل،" قالت البنت، وهي تنتظر بصبر أن يُخرج الثعبانُ لسانَه ليلتقط الفأرَ الميت الجديد ثم يقتنصه بأسنانه.

"هل يعيشُ في الجوار هنا؟"

"لا أعرف."

"لقد رأيتُ تلك القطط في الجوار، فوق أعلى التلال. تمامًا تشبه هذا، هذا الذي أراه. ربما كان هو." وضحكت ثانيةً. لم تكن ثملة- لم تكن حتى قد أنهت نصف قهوتها حينما جرت هربًا من بيت كولن، ناهيك عن الشراب- لكن الضحكة بدت مثل ضحكة مخمور. كانت تغمرها السعادة هنا جوار الثعبان والغراب والقط البري المحنط، لن يتعمّد كائنٌ من تلك الكائنات أن يعلمها شيئًا. لا أحد من تلك الكائنات سوف يقرأ عليها نيويورك تايمز. لا أحد منها سوف يحاول أن يحكي لها تاريخ الأجناس البشرية خلال الثلاثة آلاف سنة الماضية. كانت تعرف بالفعل كل ما تحتاج أن تعرفه عن تاريخ الجنس البشري: القسوة وانعدام الحماية. لم تكن بحاجة إلى التواريخ والأسماء. القسوة وتحجّر القلب وانعدام الحماية، هي كل القصة اللعينة. لا أحد هنا سوف يحاول أن يشجعها على القراءة، لأن لا أحد هنا يعرف كيف يقرأ، عدا تلك الفتاة الموظفة. ذلك الثعبان بالتأكيد لا يعرف القراءة. هو وحسب يعرف كيف يأكل الجرذان. ببطء وباطمئنان. فالوقت وفير.

"أي نوع من الثعابين هو؟"

"الثعبان الأسود."

"يبتلع الجرذ كاملاً."

"نعم."

"يهضمه في القناة الهضمية."

"نعم."

"كم جرذًا يأكل؟"

"هذا هو الجرذ السابع. إنه يأكل هذا السابع ببطء أشد. قد يكون الأخير."

"سبعة جرذان كل يوم؟"

"لا. كل أسبوع أو أسبوعين."

"وهل يُخرَج لأي مكان ما أم تلك هي حياته؟" سألت فونيا وهي تشير إلى الصندوق الزجاجي الذي رُفع منه الثعبان ليوضع في الصندوق البلاستيكي حيث كان يُطعَم.

"هنا حياته. داخل هذا."

"صفقةٌ طيبة،" قالت فونيا، واستدارت للخلف حيث الغراب، الذي كان لا يزال واقفًا على الغصن داخل القفص. "حسنٌ يا برنس، أنا هنا. وأنت هناك. وأنا لا أعبأ بك نهائيًا. إذا لم تُرد أن تحطّ على كتفي، فلن أعبأ." وأشارت إلى حيوانات محنّطة أخرى.

"ما هي تلك التي هناك؟"

"تلك هي الصقور آكلة السمك."

قدّرت حجمها بعينيها- نظرةٌ صلبة للمخالب الحادة- ومن جديد، بضحكة أكبر، قالت: "لا تُثرِ المشاكل مع الصقر آكل الأسماك."

كان الثعبان يتهيأ للجرذ الثامن. "لو كنتُ أستطيع فقط أن أجعل طفليّ يأكلان سبعة جرذان،" قالت فونيا، "لكنتُ أسعدَ أمٍّ على الأرض."

ابتسمت الفتاة وقالت: "الأحد الماضي، خرج برنس وظل يحلّق في المكان. كل الطيور التي لدينا لا تقدر على الطيران. برنس هو الوحيد القادر على الطيران. هو سريع إلى حد ما."

"أوه، أعرف ذلك،" قالت فونيا.

"كنت أُلقي ببعض المياه فاتجه مباشرة نحو الباب ودخل في الأشجار. خلال دقائق جاءت ثلاثة غربان أو أربعة. تحيط به على الشجرة. كانت الغربان غاضبة. أنهكته. ضربته على ظهره. كانت الغربان تصرخ بشدة. راحت تسوطه بأجنحتها. تجمّعت عليه هناك خلال دقائق. لم يكن له صوت مناسب. لم يكن قد تعلم لغة الغربان. لم تكن الغربان تريده هناك. وفي الأخير رجع عائدًا إليّ، لأنني كنت أقفُ هناك بالخارج. كادت الغربان أن تقتله."

"تلك هي نتيجة أن يُربّى خارج بيئته،" قالت فونيا. "ذلك ما ينتج من أن يحيا حياته كلها مع بشر مثلنا. الوصمة البشرية،" قالتها، دون اشمئزاز أو ازدراء أو إدانة. وحتى دون حزن. قالتها على هذا النحو- بطريقتها الجافة، كان هذا كل ما أخبرت به فونيا الفتاةَ التي تطعم الثعبان: نحن نترك بقعةً، وصمةً، نترك ذيولاً تتجرجر وراءنا، نترك دمغتنا، تلوّثنا، قسوتنا، عنفنا، أخطاءنا، نترك غائطنا، وحيواناتنا المنوية... ليس من سبيل آخر لكي نكون هنا. لا شيء نفعله مع العصيان. لا شيء نفعله مع الجمال والخلاص والانعتاق. هذا موجودٌ في كل البشر. كامنٌ. متأصلٌ. طبيعيٌّ. الوصمة التي تكون هناك

قبل علامتها. دون إشارة تكون هناك. الوصمةُ جوهرية جدًا وطبيعية فلا تحتاج إلى علامة. وصمةُ العار التي تسبق العصيان، التي تشمل كل تفسير التمرد والحيرة. من أجل هذا يكون كلُّ الطُّهر مزحةً. مزحة بربرية همجية. وهمُ النقاء مرعبُ. خبلُ وجنون. ماذا يكون السعي نحو الطهر، إن لم يكن مزيدًا من التلوث؟ كل ما كانت تقوله عن الوصمة كان لا مهرب منه. كان هذا بطبيعة الحال ما سيُفهم من كلام فونيا: الكائنات الموصومة بوصمة العار الحتمية. التصالح مع النقص الجوهري الشنيع. هي مثل الإغريق، مثل إغريق كولمن. مثل آلهتهم. إنهم وسيمون. وهم يتعاركون. يتحاربون. يكرهون. إنهم يقتلون. إنهم يضاجعون. كل ما يريده 'زيوس' كبير آلهتهم هو أن يضاجع- الإلهات، الأعداء، البقرات، كل ما هو أنثى- وليس فقط الإناث اللواتي في صورته الخاصة الإلهية، ولكن، لمزيد من الإثارة، أولئك اللواتي في صورته المتشكلة على هيئة حيوان.

لكي يعتلي بكل هوله وجبروته امرأةً بوصفه ثورًا. لكي يدخلها بشذوذ وهو على هيئة بجعة بيضاء. ليس هناك لحم بشري كافٍ لملك الآلهة وليس هناك ما يكفيه من شذوذ. كل رغبات الجنون حاضرة. كل الفسوق والانغماس في الملذات. فساد الأخلاق. البهجات الفجّة. والهياج من رؤية أية زوجة كانت. ليس إلَه اليهود، الأوحد كليًا، الخفيّ كليًا، الرب الواحد الأحد الموجود، والذي كان منذ الأزل، والذي دائمًا سوف يكون حتى الأبد، بلا أي فعل يؤديه أفضل من القلق على اليهود. وليس إله المسيحية الربُّ-الإنسان المولود دون فعل جنسي على الإطلاق وأمه المطهّرة من كل الآثام والخزي تلك التي هي الملهمة الأبدية اللا-أرضية. في مقابل ذلك هناك زيوس الإغريقي، المشتبك في المغامرات، التعبيري النشط، متقلب الأطوار، الحسيّ، الغارق في وفرة وجوده الثري، الذي هو أي شيء عدا أن يكون واحدًا، أي شيء عدا أن يكون خفيًا. بدلاً من ذلك هو الوصمة الإلهية. انعكاس الواقع الذي هو الدين العظيم لدى فونيا فيرلي إذا ما كانت، من خلال كولمن، قد عرفت أي شيء عنه. بما أن الوهم المتعجرف يشكّله، في صورة الله، حسنًا، ولكن ليس في صورتنا- في صورتهم. ربٌّ مغوٍ فاسق. ربٌّ فاسد. ربُّ الحياة إذا ما كان ثمة أبدًا ربٌّ للحياة. الربُّ في صورة الإنسان.

"نعم. أظن أن تلك هي مأساة البشر حين يربّون غربانًا." أجابت الفتاة، غير مستوعبة كل المغزى من كلام فونيا ولكن غير مُضيّعة له كليًا. "تلك الغربان لا تدرك أجناسها هي نفسها. وها هو هذا الغراب لا يدرك. ولا يجب عليه أن يدرك. هذا ما يُسمى الدمغة/ الوصمة." أخبرتها الفتاة. "برنس بالفعل غراب لا يعرف كيف يكون غرابًا."

فجأة شرع برنس في النعيق، ليس نعيق غراب حقيقي ولكنه ذلك النعيق الذي كأنما عثر على نفسه مصادفةً أو أنه طرد الغربان الحمقى الأخرى. كان الطائر الآن بالخارج واقفًا على حافة باب القفص، تقريبًا يصرخ زاعقًا.

بابتسامة إغراء، التفتت فونيا وقالت: "سأعتبر ذلك مجاملة وثناءً أيها الأمير."

"هو يقلّد أولاد المدارس الذين يأتون إلى هنا ويقلدونه،" فسّرت الفتاة. "حين يقلده الأطفال في رحلاتهم المدرسية إلى هنا. ذلك هو انطباعه عن الأولاد. الأطفال يفعلون ذلك. لقد اخترع لغته الخاصة. من الأطفال."

بصوت غريب عن صوتها، قالت فونيا: "أحبّ ذلك الصوت الغريب الذي اخترعه." وفي أثناء ذلك كانت قد عادت إلى القفص ووقفت على بعد بوصات قليلة من الباب. رفعت يدها، اليد التي بها الخاتم، وقالت للطائر: "هنا. هنا. انظرْ ماذا جلبتُ لك لتلعب به." خلعتِ الخاتمَ عن إصبعها وأمسكت به قريبًا من الغراب لتختبر ردة فعله. "هو يحبُّ خاتمي الأوبال."

"عادة نعطيه مفاتيح ليلعب بها."

"حسنًا، لقد علا شأنه في الحياة الآن. مثلما نفعل جميعًا. هنا. ثلاثمائة دولار،" قالت فونيا. "هيا، العبْ به. ألا تعرف الخاتم الغالي حين يمنحه لك شخصٌ ما؟"

"سوف يأخذه،" قالت البنت. "سوف يأخذه للداخل. إنه مثل الجرذ المُخزِّن. يأخذ طعامه ويدفعه داخل شقوق الجدار داخل قفصه ويدسّه بمنقاره هناك بإحكام."

كان الغراب الآن قد قبض بمنقاره على الخاتم بقوة وبدأ يحرك رأسه من جانب إلى جانب. وقع الخاتم على الأرضية. أسقطه الطائرُ. انحنت فونيا والتقطت الخاتم وناولته للغراب ثانيةً. "لو أسقطته، لن أعطيه لك. أنت تعرف هذا. ثلاثمائة دولار. أنا أعطيك خاتمًا بثلاثمائة دولار- ما أنت، أيها الرجل العشيق؟ لو كنتَ تريده، عليك أن تأخذه. أليس كذلك؟ طيب؟"

من جديد التقطه بمنقاره من أصابعها وأحكم منقاره عليه.

"أشكرك،" قالت فونيا. "خُذه للداخل،" كانت تهمس فلم تسمعها الفتاة. "هيا ادخلْ إلى قفصك. هيّا. هو لك."

ولكنه أسقطه ثانيةً.

"هو ذكي جدًا،" قالت البنت لفونيا بصوت عال. "حينما نلعب معه، نضع جرذًا في وعاء ونغلقه. فيكتشف هو كيف يفتح الوعاء بنفسه. مذهل."

مرة أخرى استعادت فونيا الخاتم وأعطته إياه، ومن جديد أخذه الغراب وأوقعه.

"أوه، يا برنس- هو أمر مقصود إذن. أنت تلعب الآن لعبةً، أليس كذلك؟"

كاو. كاو. كاو. كاو. تمامًا في وجهها، انفجر الطائر بضوضائه الخاصة.

هنا مدت فونيا يدها وبدأت تلامس رأسه وبعد ذلك، ببطء شديد، راحت تلاطف الجسم من أعلى حيث الرأس لأسفل، وسمح لها الغراب أن تفعل ذلك. "أوه، يا برنس. أوه، أيها الجميل المشرق. إنه يدندن لي،" قالت، بصوت مليء بالنشوة، كأنما أخيرًا قد اكتشفت معنى كل شيء. "إنه يدندن" وبدأت تدندن هي الأخرى: "إيووو.. إيووو... أومممممم،" تقلّد الطائر، الذي كان بالفعل يصدر نغمًا من الصوت الخفيض بينما يشعر بضغط اليد التي تمسح على ريش ظهره. ثم فجأة، كليك، كليك، كان يطقطق منقاره. "أوه، هذا جيد" همست فونيا، ثم أدارت رأسها للفتاة، وبضحكة نابعة من أعماق القلب، قالت: "هل هو للبيع؟ تلك الطقطقة التي فعلها. سوف آخذه." في تلك الأثناء، راحت تقترب أقرب، وأقرب بشفتيها نحو المنقار الذي كان يطقطق، وهي تهمس للطائر: "نعم، سوف آخذك، سوف أشتريك-"

"إنه ينقر، لذا انتبهي إلى عينيك،" قالت الفتاة.

"أوه، أعرف أنه ينقر. لقد عضّني مرتين من قبل. حينما التقينا للمرة الأولى عضّني. ولكنه كان يطقطق، كليك، كليك، أيضًا. أوه، أنصتي إليه وهو يطقطق. الطفلان."

ثم راحت تتذكر كم كان صعبًا حين حاولت أن تنتحر. مرتين. في الغرفة العالية بشلالات سيلي. بعد شهر من موت الطفلين، مرتان حاولت فيهما أن تقتل نفسها في الغرفة. بكل صدق النية فعلتُها في المرة الأولى. أعرفُ من الحكايات التي قصّتها عليّ الممرضة. الأخصائية المشرفة على شاشة جهاز المونيتور الذي شخّص أن ضربات قلبها توقفت. هذا مميت عادة، قالت الممرضة. لكن بعض الفتيات يكون لديهن حظ وافر. وأنا كنتُ قد حاولتُ بكل جهدي أن أُنهي حياتي. أتذكّر وأنا آخذ الدوش، وأنا أنزع شعر ساقيّ، وأنا أرتدي أفضل تنّوراتي، تنورتي الجينز القطنية. العباءة. والبلوزة من براتلبورو ذلك الوقت، الصيف، البلوزة المطرّزة. أتذكّر خمر ‘الجين’ وحبوب الفاليوم المنومة، وعلى نحو غامض أتذكّر البودرة. نسيتُ اسمها الآن. نوع ما من المساحيق، مُرّ الطعم، دسسته في حلوى البودنج. هل أشعلتُ الفرن؟ هل نسيتُ أن أفعل ذلك؟ هل تحول لوني إلى الأزرق؟ لأي مدة نمتُ؟ متى قرروا أن يكسروا الباب؟ مازلتُ لا أعرف مَن فعل ذلك. بالنسبة لي كانت نشوةً أن أُهيئ نفسي بتأنق. ثمة أوقاتُ في الحياة تستحق الاحتفال. أوقاتُ الانتصار. المناسبات التي نقصد فيها أن نتأنق في ثيابنا. أوه، كيف قلبتُ نفسي رأسًا على عقب. ضفّرتُ شعري. كحّلتُ عينيّ. كنتُ كأنما أحاول أن أجعل أمي فخورةً بي، ولهذا معنى ما. كلمتُها بالهاتف فقط قبل أسبوع لأخبرها أن الطفلين ماتا. أول مكالمة خلال عشرين سنة. "أنا فونيا يا أمي." "لا أعرف أيَّ أحد بهذا

الاسم. آسفة." وأغلقتِ الخطَّ. العاهرة. بعدما هربتُ، راحت تخبر الناس: "زوجي صارم وفونيا لم تستطع أن تحيا ضمن صرامة القواعد. هي لا تقدر أبدًا أن تحيا مع القوانين." لون من التغطية التقليدية للأسرار. أيُّ طفلة مميزة تهرب لأن زوج أمها صارم؟ البنتُ هربتْ، أيتها العاهرة، لأن زوج الأم لم يكن صارمًا- لأن زوج الأم متحرّشٌ ولا يتركها لحالها. على كل حال، ارتديتُ أفضل ما لدي من ثياب. ليس أقلَّ من هذا. في المرة الثانية لم أتأنق. وعدم تأنقي يحكي القصة كلها. لم يكن لقلبي علاقةٌ بالأمر هذه المرة، بعدما أخفقت المرة الأولى. المرة الثانية كانت مباغتة وطائشة وبلا بهجة. في المرة الأولى مرّت عليّ الأيامُ والليالي طويلة جدًّا في الاستعداد للأمر، مع تلك التوقعات. التجهيزات. شراء المسحوق. انتظار مرور الوقت. لكن المرة الثانية كانت سريعة ومتعجلة. ويعوزها الإلهام. أظن أنني أوقفت المحاولة لأنني لم أستطع تحمّل الاختناق. غصّ حلقي، بالفعل اختنقت، لم أستطع الحصول على أي هواء، فسارعتُ بفكّ الحبل. لم تكن هناك تلك الأفعال السريعة كما في المرة الأولى. تلك التي كانت هادئة ومسالمة. رحل الطفلان ولم يعد هناك أي إنسان أقلق بشأنه ولديّ كل الوقت الذي في العالم. لو أنني استطعت فقط أن أفعلها على النحو الصحيح. المتعة كانت في فعلها. أخيرًا، حيث لا أحد هناك، توجد تلك اللحظة الأخيرة الفرِحة، حينما الموت يجب أن يأتي ليعترض طريقك الغاضب، ولكنك لا تشعرين بالغضب- فقط الابتهاج. لم أستطع التوقف عن التفكير في ذلك. طوال هذا الأسبوع. كان كولن يقرأ لي من جريدة نيويورك تايمز عن كلينتون وكل ما أفكر فيه هو د.كيفوركان[175] وجهاز أول أكسيد الكربون الخاص به. فقط استنشقي بعمق. فقط أدخلي الهواء حتى لا يعود هناك المزيد من الشهيق.

"'كانا طفلين جميلين للغاية،'" كان يقول. "'لم تكوني تتوقعين أبدًا أن شيئًا مثل هذا قد يحدث لك أو لأصدقائك. في الأخير كان لدى فونيا إيمانٌ بأن طفليها مع الله الآن.'"

هذا ما قاله أحدهم للجريدة. **طفلان يختنقان في حريق منزلي محدود.** "'بناءً على التحقيقات الأولية،' قال الجراح دونالدسون: 'أثبتت التحقيقات أنه سخان...' وقال سكان الطريق القروي إنهم انتبهوا للحريق حينما كانت أم الطفلين..."

حينما حرّرت أم الطفلين نفسها من قضيب الرجل الذي كانت تمتصّه.

"والد الطفلين، لِستر فيرلي، ظهر للعيان فجأة واقفًا عند المدخل بعد دقيقة، قال الجيران."

---

[175] - د.جاك كيفوركان، طبيب أمريكي اشتهر في التسعينيات الماضية بمساعدة مئات المرضى الميئوس من شفائهم على إنهاء حياتهم برغبتهم في لحظة، دون ألم. وتم سجنه على ذلك. (المترجمة)

كان مستعدًا لقتلي للمرة الأخيرة. ولم يفعل. وأنا لم أفعل. مدهش. مدهش كيف أن أحدًا لم يفعل ذلك بعد لأم الطفلين الميتين.

"لا، لم أفعل أيها الغراب برنس. ولا أقدر أن أفعل ذلك العمل أيضًا. مطلقًا،" همست فونيا للطائر، الذي كان سواده اللامع تحت يديها دافئًا ومصقولاً وعلى درجة من النعومة لم ترها في حياتها أبدًا، "نحن هنا معًا بدلاً من ذلك. غرابٌ لا يعرف حقًّا كيف يكون غرابًا، وامرأة لا تعرفُ حقًّا كيف تكون امرأةً. نحن موصوفان لبعضنا البعض. تزوجْني. أنت قسمتي ونصيبي، أيها الطائر المسلّي." ثم تراجعت للوراء وانحنت. "الوداع يا أميري."

وتجاوب الطائر معها. بصخب عالي النبرة يشبه كثيرًا: "كوول، كوول، كوول[176]،" وهنا انفجرت فونيا بالضحك مجددًا. حينما تهيأت لتلويحة الوداع للفتاة، قالت لها: "حسنًا، هذا أفضل مما أحصل عليه من الرجال في الطريق."

وكانت قد تركت الخاتم. هدية كولن. في اللحظة التي لم تكن الفتاة تنظر نحوها، خبّأته في القفص. لقد خطبت الغراب لنفسها. تلك هي هدية الخطوبة.

"أشكرك." هتفت فونيا.

"أهلا بك. ويومًا سعيدًا،" أجابتها الفتاة، وبهذا، قادت فونيا سيارتَها عائدة إلى كولن لكي تُنهي فطورها ولترى كيف تطور الأمر معه بعد مشاجرة الصباح. الخاتم في القفص. لقد أخذ الغراب الخاتم. أخذ خاتمًا بثلاثمائة دولار.

كانت الرحلةُ إلى "الجدار المتحرك"[177] في بيتسفيلد يوم عيد المحاربين القدامى، حينما تمّ تنكيس العلم إلى منتصف السارية وأوقفت معظم المدن عروضَ المواكب- وأوقفت معظم المتاجر مبيعاتها- وكان الجنود الذين يشعرون مثلما يشعر 'لِس' مشمئزين من مواطنيهم، ومن بلدهم، ومن حكومتهم أكثر مما يشعرون بالاستياء في أي يوم آخر في السنة. والآن كان من المفترض أن ينضم لستر إلى الموكب ويمشي فيه بينما الفرقة تعزف الموسيقى والناس يلوحون بالأعلام؟ الآن هل هذا سيجعل كل شيء أجمل في دقيقة بعد تعرّفهم على أسماء ضحايا المحاربين القدامى في فيتنام على ذلك الحائط؟ كيف حدث وبصقوا عليه حينما عاد إلى الوطن إذا ما كانوا متحمسين جدًّا لرؤيته هناك الآن؟ كيف حدث ونام محاربون قدامى في الطريق في حين ينام ذلك المتهرب من الخدمة العسكرية في البيت الأبيض[178]؟ سليك ويللي[179]، رئيس القادة. ابن الكلب.

---

[176] - صوت الغراب Cool، تعني "الطيف- جميل." (المترجمة)
[177] - نموذج متحرك في نصف حجم النصب التذكاري الأصلي لمحاربي فيتنام بواشنطن. (المترجمة)
[178] - يقصد الرئيس الأمريكي بيل كلينتون. (المترجمة)
[179] - Slick Willie، أحد ألقاب بيل كلينتون. (المترجمة)

يعتصر حلمتي تلك الفتاة اليهودية السمينتين بينما ميزانية وزارة المحاربين القدامى تذهب هباء مع صرف البالوعات. الكذب حول ممارسة الجنس؟ سحقًا. الحكومة الملعونة تكذب في كل شيء. كلا، الحكومة الأمريكية مارست نكاتها الوقحة على لِستر فيرلي دون أن تضيف نكتة عيد المحاربين.

ولكن ها هو ذا ها هنا، في ذلك اليوم الذي هو بكل الأيام، يركب شاحنة لوي المتجهة إلى بيتسفيلد. كانوا ذاهبين إلى حيث النموذج المصغر، في نصف الحجم الطبيعي، للجدار الحقيقي. ذلك الجدار المتحرك الذي ظل يجوب أرجاء الدولة على مدى خمسة عشر عامًا الآن؛ من العاشر إلى السادس عشر من نوفمبر، كان على الجدار المتحرك أن يكون في مجال البصر في موقف السيارات الخاص بفندق رمادا تحت رعاية وزارة محاربي المعارك الأجنبية القدامى[180] في بيتسفيلد. كان معه نفس الطاقم الذي رآه في تجربة الوجبة الصينية. ما كانوا ليتركوه يذهب وحيدًا، وسوف يعملون على طمأنته طوال الوقت: سنكون معك هناك، سنقف إلى جوارك، سنكون معك في 24/7 إذا ما احتاج الأمر. كان 'لوي' قد أخبر 'لِس' فيما بعد أن سيكون بوسعه المكوث معه ومع زوجته في بيتهما، وأنهما سوف يعتنيان به مهما استغرق ذلك من وقت. "لستَ مضطرًا أن تذهب إلى البيت وحيدًا يا 'لِس'، مادمتَ لا تريد ذلك. لا أظن أن عليك أن تجرّب. تعال وامكث معي ومع تيسي. تيسي سبق ورأت كل ذلك. تيسي تتفهم. ليس عليك أن تقلق بشأن تيسي. حينما عدتُ للوطن كانت تيسي هي قوتي الدافعة. وجهة نظري كانت، كيف بوسع أي إنسان أن يخبرني ماذا أفعل. كنت أدخل في حالة الغضب دون أي استفزاز. تعرف هذا الأمر. أنت تعرف كل هذا يا 'لِس'. ولكن شكرًا لله لأن تيسي وقفت إلى جواري بثبات. إذا ما أردتَ، سوف تقف معك أيضًا."

كان 'لوي' أخًا له، أفضل أخ يمكن لرجل أن يرجوه، ولكن لأنه كان مُصِرًّا على ذهاب 'لِس' إلى الجدار، لأنه كان منحازًا جدًّا بشأن رؤيته ذلك الجدار، فإن 'لِس' صنع كل ما بوسعه كيلا يُطبق على حلقه ويختلع حنجرته، ذلك الوغد. يا أيها الوغد المتأنق الأعرج، اتركني لحالي! كُفّ عن إخباري بأن الأمر استغرق منكَ عشر سنوات لتذهب إلى الجدار. كُفّ عن إعلامي كيف بحق الجحيم استطاع الجدارُ أن يغيّر من حياتك. كُفّ عن إخباري كيف تصالحت مع 'ميكي'. توقف عن إخباري ماذا قال لك 'ميكي' عند الجدار. لا أريد أن أعرف!

ولكنهم مضوا، كانوا في طريقهم، ومن جديد، كان لوي يعيد عليه ما سمعه من قبل: "'كل شيء على ما يرام يا لوي'- كان هذا ما يخبرني به 'ميكي'، وهذا ما سوف يقوله

---

[180] - VFW= Veterans of Foreign Wars. (المترجمة)

لك ‘كيني’. وكما كان يخبرني يا ‘لِس’، إن كل شيء على ما يرام، وأن بوسعي المُضي في الحياة."

"لن أقدر على تحمل ذلك يا لوي- استدرْ وعُد بنا."

"أيها الرفيق، اهدأ واسترخِ. لقد قطعنا نصف الطريق."

"أدر هذا الشيء القبيح للوراء وعُد!"

"‘لِس’، لن تستطيع أن تعرف إلا لو ذهبت. يجب أن تذهب،" قال لوي برفق، "وسوف تكتشف."

"لا أود أن اكتشف!"

"ما رأيك أن تتناول القليل من أدويتك؟ قليل من ‘أتيفان’. القليل من ‘الفاليوم’. جرعة إضافية قليلة لن تضر. أعطه بعض الماء يا ‘تشيت’."

بمجرد أن وصلوا إلى بيتسفيلد وصفّ لوي الشاحنة عبر الطريق أمام فندق رامادا، لم يكن نزول ‘لِس’ من الشاحنة أمرًا سهلاً. "لن أفعلها،" قال، وهكذا وقف الآخرون في الخارج يدخنون، تاركين ‘لِس’ يأخذ بعض الوقت الإضافي حتى يعمل الآتفين والفاليوم دورهما في تهدئته. ومن خلال الشارع، كان لوي يراقبه. كان هناك العديد من سيارات الشرطة بالقرب منهم والكثير من الأوتوبيسات. ثمة احتفال رسمي عند الجدار، كان بوسعك أن تسمع أحدهم يتكلم في ميكروفون، بعض الساسة المحليين، ربما كان المتحدث الخامس عشر الذي يخطب بصوت جهوري في ذلك النهار. "الضحايا الجنود المحفورةُ أسماؤهم على هذا الجدار الذي ورائي هم أقرباؤكم، أصدقاؤكم، وجيرانكم. إنهم مسيحيون، يهود، ومسلمون، سودٌ، وبيضٌ، من أبناء هذا الوطن- أمريكان جميعهم. قطعوا على أنفسهم العهد أن يدافعوا عنكم ويحموكم، وقدّموا أرواحهم فداءً ليحفظوا ذلك العهد. ليس من مجد، أو احتفاء، بوسعه أن يعبّر تمامًا عن امتناننا وإعجابنا. القصيدة التالية وجِدت جوار هذا الجدار منذ أسابيع قليلة في أوهايو، وأودّ أن أشرككم معي فيها. ‘نحن نذكركم، باسمين، فخورين، أقوياء/ أخبرتمونا ألا نقلق/ نتذكر تلك الأحضان الأخيرة/ والقبلات...’"

وحينما انتهت تلك الخطبة، كانت هناك أخرى ستبدأ. "... ولكن مع جدار الأسماء هذا من ورائي، وبينما أتجول ببصري بين الحشود وأرى وجوه رجال مثلي في منتصف العمر، بعضهم يضعون الأوسمة والبعض الآخر يرتدون بقايا الزي العسكري، وألمح آثار حزن في عيونهم- ربما هو هو ما تبقى من نظرة التحديق من بعد الألف ياردة التي التقطناها جميعًا حينما كنا مجرد جنود مشاة أمريكان في الحرب الفيتنامية، على بعد عشرة آلاف ميل من الوطن- حينما أرى كل هذا، فإنني أعود للوراء ما يقرب من

الثلاثين عامًا. هذا الصرح المتحرك الذي يضم إلى الأبد أسماء الموتى كان قد افتُتح في مول واشنطن في 13 نوفمبر 1982. استغرقني الزمن عامين ونصف لكي أذهب إلى هناك. وحين أنظر في ذلك الزمن، أعرف، مثل العديد من الجنود في الحرب الفيتنامية، أنني مكثتُ بعيدًا عن عمد، بسبب الذكريات المؤلمة التي أعرف أن ذهني سوف يستدعيها. وهكذا في مساء واشنطن، حينما بدأ الغسق يشعُّ في الأفق، ذهبتُ إلى الجدار وحدي. تركتُ زوجتي وأطفالي في الفندق- كنا في طريق عودتنا من عالم ديزني- وزرتُ الجدار، وقفتُ وحيدًا عند رأسه، قريبًا من حيث أقفُ الآن. وطافتِ الذكرياتُ- اجتاحني إعصارٌ من المشاعر. تذكرتُ الناس الذين كبرتُ معهم، لعبت الكرة معهم، أولئك الذين كانوا على هذا الجدار، بالضبط من بيتسفيلد. تذكرتُ عامل الراديو، 'سال'. التقينا في فيتنام. ولعبنا لعبةَ 'من-أين-أنت'. ماساتشوستس. ماساتشوستس. من أين في ماساتشوستس؟ من سبرنجفيلد كان هو. وقلتُ إنني من بيتسفيلد. ومات 'سال' بعد شهر من مغادرتي. عدتُ للوطن في إبريل، والتقطتُ الجريدة المحلية، ورأيتُ أن 'سال' لن يأتي للقائي في بيتسفيلد أو سبرنجفيلد لاحتساء الشراب. تذكرتُ رجالاً آخرين خدمتُ معهم..."

ثم كانت هناك الفرقة الموسيقية- على الأرجح فرقة المشاة العسكرية- يعزفون "ترتيلة المعركة للقبّعات الخُضر،" التي جعلت 'لوي' يستنتج أنه من الأفضل الانتظار حتى ينتهي الاحتفال تمامًا قبل أن يُخرج 'لِس' من الشاحنة. كان لوي قد حسب وقت وصولهم بحيث لا يضطرون إلى التعامل مع الخُطب والموسيقى المثيرة للشجون، ولكن البرنامج كان قد بدأ متأخرًا كثيرًا عن المعتاد، ولهذا ظل ممتدًّا حتى الآن. نظر إلى ساعته، ورغم أنها كانت تقترب من الظهر، إلا أنه خمّن أن البرنامج يقترب من نهايته. ولكنهم فجأة كانوا يختمون. البوق الوحيد يعزف دقاته. على نحو جيد. من القوة بحيث يسمع الدقاتِ أولئك الواقفون بالشارع وسط الحافلات الشاغرة وسيارات الشرطة، فضلا عن الواقفين هنا، مع كل أولئك الباكين، المشتبكين مع الدقات والجدار. كانت هناك دقّاتُ بوق، دقاتُ موجعة، أكثر الدقات إثارةً للوجع، ثم عزفت الفرقة "الله يبارك أمريكا،" وكان بوسع 'لوي' أن يسمع الناس الواقفين عند الجدار يغنون مع الموسيقى- "من الجبال، إلى المروج، إلى المحيطات، البيضاء بالزبد." وبعد دقيقة كان الختام.

داخل الشاحنة، كان 'لِس' مازال يرتجف، ولكنه لم يُظهر أنه كان ينظر للوراء بين لحظة وأخرى، وأنه بين الحين والحين كان يختلس النظر من أعلى رأسه نحو "الأشياء"، ولهذا تسلل لوي على نحو أخرق للداخل وجلس جواره، وهو يعلم أن عُمرَ 'لِس' كله

مرتعبٌ مما سوف يكتشفه فورًا، ولهذا فإن الشيء الذي يجب أن يتم هو أن يؤتَى به إلى هناك ليفعل ما عليه فعله.

"سوف نرسل سويفت أولاً يا 'لِس'، لكي يجد لك اسم 'كيني'. هذا جدار طويل جدًا. هذا أفضل من أن يكون عليك أن تبحث بين كل تلك الأسماء، 'سويفت' والرفاق سوف يذهبون أولاً ليحددوا مكان اسمه. الأسماء هناك في الألواح مرتبة حسب الزمن. هم هناك حسب زمن الوفاة من أول جندي حتى آخر جندي. ونحن لدينا تاريخ 'كيني'، أنت أعطيتنا تاريخ 'كيني'، ولذلك لن يستغرق الأمر طويلاً حتى نجده."

"لن أفعل ذلك."

حينما عاد 'سويفت' إلى الشاحنة، فتح الباب قليلاً وأخبر 'لوي': "وجدنا 'كيني'. وجدناه."

"أوكي، هذا هو يا لِستر. استعد. سوف تمشي إلى هناك حيث الجدار. إنه هناك عند ظهر الفندق. ستجد أقوامًا آخرين هناك يفعلون ما نفعل. كان لديهم احتفال رسمي صغير، ولكنه انتهى وليس عليك أن تقلق بهذا الشأن. لا خُطب. ولا هراء. سيكون هناك فقط أطفالٌ وآباءٌ وجدّاتٌ جميعهم يفعلون الشيءَ نفسه. سوف تكون هناك أكاليلُ زهر موضوعة. سوف تكون هناك صلوات تُتلى. وأكثر شيء سوف تجده هناك هو البحث عن الأسماء. سوف يكون هناك أحاديثُ بين الناس وأنفسهم كما يفعل الناسُ يا 'لِس'. بعضهم ستجدهم يبكون. هذا كل ما هناك. وبهذا فأنت تعرف الآن ماذا هناك. سوف تأخذ وقتك ولكنك ستعود إلينا."

كان الجو دافئًا على غير العادة بالنسبة لشهر نوفمبر، وحينما اقتربوا من الجدار رأوا أن معظم الرجال كانوا يرتدون قمصانًا طويلة الأكمام وبعض النساء يرتدين الشورتات. الناس تضع نظارات الشمس في منتصف نوفمبر ولكن فيما عدا ذلك، الزهور، الناس، الأطفال، الأجداد- كانت جميعها كما وصفها 'لوي'. والجدار المتحرك لم يكن مفاجأة: كان قد شاهده في المجلات، على التي-شيرتات، لمحه في التليفزيون مرة في حجمه الطبيعي في جدار العاصمة، قبل أن يسارع بإغلاق الجهاز. كان الجدار ممتدًا بطول موقف السيارات المرصوف، ألواح متصلة، مقبرة عمودية من بلاطات سوداء ضخمة تميل طفيفًا من نهايتها العلوية ومطبوع عليه بحروف بيضاء أسماء الشهداء مرصوصة ملاصقة لبعضها البعض. اسم كل قتيل كان تقريبًا في مساحة ربع طول إصبع الإنسان الخنصر. بهذا استطاعوا أن يضعوا كل الأسماء في الجدار، 58.209 من القتلى لم يعودوا الآن يتجولون بيننا أو يذهبون إلى السينما، ولكنهم نجحوا في أن يكرسوا وجودَهم، إذا ما كان الأمر يستحق، بأن تُنقش أسماؤهم على جدار أسود

متحرك من الألومنيوم مدعوم من الخلف بهياكل ضخمة في موقف سيارات خلف فندق رامادا بولاية ماساتشوستس.

في المرة الأولى التي ذهب فيها 'سويفت' إلى الجدار لم يستطع النزول من الباص، وكان على الآخرين أن يجرّوه جرًا حتى وضعوه مع الجدار وجهًا لوجه، وبعد ذلك كان يقول: "بوسعك أن تسمع الجدار وهو يبكي." المرة الأولى التي ذهب فيها 'تشيت' إلى الجدار ظل يضرب بقبضتيه عليه ويصرخ: "لا يجب أن يكون هذا اسم 'بيللي'- كلا، 'بيللي'، كلا!- كان يجب أن يكون اسمي أنا!" المرة الأولى التي ذهب فيها 'بوكات' إلى الجدار اكتفى بوضع يده عليه ولمسه وبعدها، رغم إن يده كانت مجمدة، لم يستطع أن يجذبها بعيدًا- ما أسماه أحد أطباء وزارة شئون المحاربين القدامى بالنوبة العصبية. أول مرة ذهب فيها 'لوي' إلى الجدار لم يستغرقه الأمر طويلاً ليكتشف ما الأمر ويحدد النقطة. "أوكي يا 'ميكي'،" قالها بصوت عال، "ها أنا ذا هنا،" فأجابه 'ميكي' من الجدار، بصوته الخاص: "حسنا يا 'لوي'، كل شيء على ما يرام."

كان 'لِس' يعرف كل تلك الحكايات عما يمكن أن يحدث في المرة الأولى، والآن ها هو ذا هناك للمرة الأولى، ولا يشعر بأي شيء. لا شيء يحدث. كل الناس يخبرونه بأنه سيكون أفضل، سوف تتفّهم الأمر، كل مرة تأتي إلى هنا سيكون الأمرُ أفضلَ وأفضلَ حتى نذهب بك إلى واشنطن لتبحث بنفسك عن اسم 'كيني' على الجدار الكبير، وعندئذ سيكون الشفاءُ الروحي الحقيقيّ- ذلك النصب الهائل، ولا شيء يحدث. لا شيء. كان 'سويفت' قد أصغى للجدار وهو يبكي- لكن 'لِس' لا يسمع أي شيء. ولا يشعر بأي شيء، لا يسمع أي شيء، ولا حتى يتذكر أي شيء. كان ذلك يشبه اللحظة التي شاهد فيها طفليه ميتين. الحِمل النفسي الضخم، ثم لا شيء. هنا كان 'لِستر' في البدء خائفًا للغاية من أنه سوف يشعر بالكثير ولكنه لم يشعر بشيء، وهذا هو الأسوأ. تبيّن أنه برغم كل شيء، برغم 'لوي' ورحلاته إلى المطعم الصيني والعقاقير والتوقف عن الشراب، كان متّسقًا مع فكرة الاعتقاد بأنه ميت. في المطعم الصيني كان يشعر بشيء ما، وهذا خدعَه مؤقتًا. ولكنه الآن يعرف يقينًا أنه ميّتٌ لأنه حتى لم يستطع أن يستعيد ذكرى 'كيني'. كان قد اعتاد أن يتعذّب بها، والآن لم يعد قادرًا على التوصّل بهذه الذكرى ثانيةً.

ولأنها كانت مرّته الأولى، كان الآخرون يحوّمون حول المكان. كانوا يطوفون على فترات وجيزة، ليُظهروا احترامهم لرفاق معينين، لكن شخصًا ما كان دائمًا يرافق لستر يراقبه، وكلما يعود شخص ما من حيث كان، كان يضع ذراعه حول 'لِس' ويعانقه. جميعهم يؤمنون بأنهم الآن متناغمون مع بعضهم البعض أكثر من أي وقت مضى،

وجميعهم يؤمنون، لأن 'لِس' كان ينظرُ بتلك النظرة المصعوقة الضرورية، بأنه كان يمر بالتجربة التي أرادوا جميعًا له أن يمرّ بها. لم يكونوا يعرفون أنه حينما حوّل بصرَه إلى أحد تلك الأعلام الأمريكية الرفرافة، مع راية سجناء الحرب والمفقودين، نصف منكسة فوق موقف السيارات، لم يكن يفكر في كيني أو حتى في يوم المحاربين القدامى بل كان يفكر بأن الأعلام كانت ترفرف وهي منكسة في بيتسفيلد بسبب أن فكرة موت لِستر فيرلي كانت قد استقرت لدى الجميع. رسميًا: كان قد مات. لم يخبر أحدًا بذلك. ما الهدف؟ الحقيقة هي الحقيقة. "أنا فخورٌ بك،" همس 'لوي' له. "كنتُ أعلم أنكَ ستفعلها. كنتُ أعلم أن هذا سيحدث." بينما يقول له سويفت: "لو كنت تريد التحدث عن الأمر..."

كانت السكينة تغمره الآن بفكرة أنهم جميعًا قد أخطأوا المهمة الاستشفائية. 'الجدار الذي يُشفي'-هكذا كانت تقول اللافتة عند مدخل الفندق، وهذا ما كان يفعله. بعدما انتهوا من الوقوف أمام اسم كيني، راحوا يمشون مع 'لِس' ذهابًا وإيابًا بمحاذاة الجدار، يشاهدون الحشود التي تبحث عن الأسماء، ليجعلوا 'لِس' يستوعب التجربة كاملةً، ليجعلوه يعرف أنه موجود حيث يفعل ما يفعله الآن. "هذا ليس جدارًا للتسلّق يا حبيبي،" قالت امرأةٌ لصبيّ صغير وهي تجذبه من حيث كان يُنعم النظر إلى حيث النهاية المنخفضة من الجدار. "ما الاسم؟ ما اسم العائلة الخاص بـ'ستيف'؟" كان هناك رجل عجوز يسأل زوجته بينما يمشّط بعينيه أحد الألواح، وهو يطالع ويمر بإصبعه بدقه على الأسماء، سطرًا بعد سطر، من أعلى. "ها هو هناك،" سمعوا امرأة تقول لطفل ضئيل بالكاد يقدر أن يمشي؛ وبإصبعها تشير إلى اسم على الجدار. "ها هنا يا حبيبي. ذاك هو العم جوني." ثم رسمت إشارة الصليب على صدرها. "هل أنت واثق من أنه السطر الثامن والعشرون؟" امرأةُ تقول لزوجها. "أنا واثق." "نعم، لابد أن يكون هناك. اللوحة الرابعة، السطر الثامن والعشرين. لقد وجدته في واشنطن." " طيب، لكنني لا أراه. دعني أعدُّ من جديد." "ذاك ابن عمي،" تقول امرأةُ. "فتح زجاجة كوكاكولا هناك، فانفجرت. كانت مفخّخة. كان عمره تسعة عشر عامًا. وراء الحدود. هو الآن في سلام، جوار الرب." ثمة جندي في الفيلق الأمريكي يركع أمام أحد الألواح، يساعد سيدتين سوداوين ترتديان أفضل ملابس الكنيسة. "ما اسمه؟" سأل السيدةَ الأصغر سنًّا منهما. "بيتس. جيمس." "ها هو ذا،" قال الجندي. "ها هو يا ماما،" قالت السيدة الأصغر. لأن الجدار في نصف حجم جدار واشنطن، كان على بعض الناس أن يركعوا ليبحثوا عن الأسماء، بالنسبة لأولئك الكهول الأكبر سنًا، كان هذا يجعل البحث عن الأسماء أكثر صعوبة. كانت هناك زهور ملفوفة بالسوليفان ترقد أمام الجدار. وقصيدة

مكتوبة بخط اليد على قطعة من الورق لصقها أحدهم على قاعدة الجدار. أحنى لوي ظهره ليقرأ الكلمات: "ضوءُ النجم، بريقُ النجم/ النجم الأول الذي رأيته الليلة..." ثمة أناس بعيون حمراء من فرط البكاء. جنود بطواقي العسكرية السوداء مثل لوي، بعضهم بشرائط عسكرية مثبتة على قبعاتهم. ثمة صبيّ ممتلئ في حوالي العاشرة من عمره، ظهره مقوس بالقوة نحو الجدار يقول لامرأة: "لا أريد أن أقرأه." ورجل موشوم وشمًا ضخمًا يرتدي تي-شيرت المشاة العسكرية، يحاول التماسك والتجول وهو شبه دائخ، لابد أنه يحمل أفكارًا بشعة. توقف لوي، وأمسكه ثم عانقه. كلهم عانقوه. حتى 'لِس' جعلوه يعانقه. "اثنان من زملائي في المدرسة الثانوية يرقدان هناك، قُتل الاثنان خلال ثماني وأربعين ساعة،" رجل يقول في الجوار. "وكلاهما خرجا في جنازة واحدة. كان هذا يومًا حزينًا في مدرسة كينجستون الثانوية." "كان أول من ذهب إلى فيتنام،" قال شخص آخر، "والوحيد من بيننا الذي لم يعد. وهل تعرفون ما الذي كان يريده هناك تحت اسمه/ على ذلك الجدار؟ هو بالضبط ما كان يريده في فيتنام. سوف أخبركم بالضبط: قنينة خمر جاك دانييل، وحذاء بوت جيد، وفتاة في فرقة الكشافة."

كانت هناك مجموعة مكونة من أربعة رفاق يقفون ويتحدثون، وحينما سمعهم 'لوي' يتكلمون حول ذكرياتهم، توقف لينصت، وانتظره الآخرون. الغرباء الأربعة كانوا ذوي شعر أشيب- جميعهم له شعر رمادي مشوّش أو رمادي مجعد، أو ذيل حصان رمادي يتدلى من تحت قبعة العسكرية الفيتنامية.

"كنتَ مزودًا بالآلات حينما كنتَ هناك، هه؟"

"نعم. لقد أدّينا العديد من المهام العسيرة وتسلقنا الجبال الوعرة، ولكن عاجلاً أم آجلاً كنت تعرف أنك سوف تعود إلى تلك الخمسين."

"نحن مشينا كثيرًا جدًا. مشينا عبر تلك الأراضي الجبلية المركزية المخيفة. عبر كل تلك الجبال الملعونة."

"الأمر مختلف مع وحدة الماكينات، لم نكن أبدًا في المؤخرة. فكرتُ في حلٍّ طوال الوقت الذي أمضيته هناك، تقريبًا أحد عشر شهرًا، ذهبت إلى معسكر القاعدة حينما وصلت إلى هناك وخلدتُ إلى الراحة والاستجمام- كان ذلك هو الحل."

"حينما كانت الدروب تتحرك، كانوا يعرفون أنك قادم، ويعرفون متى سوف تصل إلى هناك، ولذلك كان هناك صاروخ B-40 ينتظر. كان لديه وقت وفير لكي يطليه ويضع اسمك عليه."

فجأة قاطع 'لوي' الحديثَ قائلاً: "نحن هنا،" قالها مباشرة للغرباء الأربعة. "نحن هنا، صح؟ جميعنا هنا. دعوني أدوّن الأسماء. دعوني أدوّن الأسماء والعناوين." ثم

أخرج دفتر ملاحظاته من جيبه الخلفي، وبينما يتكئ على عصاه، راح يدون المعلومات حتى يكون بوسعه أن يرسل على بريدهم نشرة الأخبار التي يطبعها هو وتيسي ويرسلانها على نفقتهما، مرتين في العام.

بعد ذلك تجاوزوا المقاعد الشاغرة. لم يكونوا قد رأوها وهم يدخلون، قاصدين بذلك أن يذهبوا بـ لستر إلى الجدار دون أن يسقط أو يفرّ بعيدًا. في نهاية موقف السيارات، كان هناك واحد وأربعون مقعدًا معدنيًا رماديًا عتيقًا على الجسر، ربما كانت خراج قبو إحدى الكنائس مرصوصة في صفوف مقوسّة قليلاً، مثلما في مراسم حفلات التخرّج أو التكريم ومنح الجوائز- ثلاثة صفوف بعشرة مقاعد، وصفٌّ واحد بأحد عشر مقعدًا. عناية ضخمة كانت قد أوليَت لتنظيم المقاعد على هذا النحو. اسمُ شخصٍ ما ملصوقٌ على ظهر كل كرسي- على المقعد الشاغر، اسمٌ، اسمُ رجل، مطبوع على بطاقة بيضاء. قسم كامل من المقاعد منعزل لحاله، ولكي يتم التأكد من أن لا أحد سيجلس هناك، كان ذلك القسم مُحاطًا من أطرافه الأربعة بحبل مرتخٍ مشبوك به أعلام سوداء وقرمزية.

وثمة إكليلٌ معلق هناك، إكليل ضخم من زهور القرنفل، وحينما همّ 'لوي'، الذي لا يفوته شيء، بأن يحصي عدد الزهور، وجد، وكان قد ساوره الشكُّ، أن عدد القرنفلات واحدة وأربعون قرنفلةً.

"ما هذا؟" سأل سويفت.

"أولئك الرجال الذين ماتوا من بيتسفيلد. تلك مقاعدهم الشاغرة،" قال لوي.

"أولاد الحرام،" قال سويفت. "يا لها من مذبحة قذرة. إما أن تقاتل لتنتصر أو لا تحارب على الإطلاق. أولاد القحبة الأوساخ."

لكن ذلك الأصيل لم يكن قد انقضى بعد بالنسبة إليهم. بالخارج على الرصيف أمام فندق رامادا، كان هناك رجل نحيل بنظارة طبية، يرتدي معطفًا ثقيلاً جدًا بالنسبة ليوم كهذا، كان لديه مشكلة خطيرة- يصرخ في المارة الغرباء، يشير إليهم، يبصق لأنه كان يصرخ بعنف، وكان هناك رجال شرطة يندفعون من سيارات البوليس يحاولون أن يهدئوه قبل أن يضرب أحدًا أو، إذا كان لديه مسدس مخبأ، ربما أشهره وأطلق النار. في إحدى يديه كان يمسك بقنينة ويسكي- بدا أنها كانت كل ما بحوزته. "انظروا إليّ!" راح يصرخ. "أنا خراء وكل مَن ينظر إليّ يعلم أنني خراء. نيكسون! نيكسون! هو الذي فعل بي هذا! هذا ما حدث لي! نيسكون أرسلني إلى فيتنام!"

في حال من الجلال كانوا يتكدسون في الشاحنة، كلٌّ يحمل ثِقل ذكرياته، وكانت ثمة راحة في مرأى 'لِس'، على عكس مرأى الرجل الذي كان يصرخ في الشارع، كان 'لِس' يجلس في حال من الهدوء لم تحدث له من قبل. ورغم أنهم لم يكونوا من نمط

الرجال الذين يستسلمون للعاطفة السامية، إلا أنهم شعروا، في وجود 'لِس'، بتلك المشاعر التي يمكن أن ترافق ذلك النوع من الوجدان. أثناء تحرك الشاحنة نحو الوطن، كان كل منهم- عدا 'لِس'- قابضًا على أعلى درجة ممكنة من الروحانية والذوبان المتدفق في الحياة.

كان يبدو صافيًا ساكنًا، ولكن ذلك كان زائفًا. كان قد اتخذ قراره. سيستخدم سيارته. يطيح بهما معًا، ويطيح بنفسه كذلك. على طول النهر، يأتي نحوهما بالضبط، في المسار نفسه، في مسارهما، يلف حول المنعطف حيث ينحني النهر.

كان قد اتخذ قراره. ليس لديه شيء ليفقده ولديه كل شيء ليكتسبه. ليست المسألة هي ما إذا حدث هذا أو ما إذا رأيت هذا أو ما إذا ظننت هذا فسوف أفعله وإذا لم أظنه لن أفعله. كان قد اتخذ قراره وصمم عليه إلى الحد الذي معه لم يعد يفكر. إنه في مهمّة انتحارية، ومن داخلها كان يفكر في الزمن العصيب. لا كلمات. لا أفكار. إنه النظرُ مجردًا، الإنصاتُ، التذوّقُ، الشمّ- إنه الغضب، إنزيم الأدرينالين، إنه الاستقالة. لسنا في فيتنام. نحن فيما وراء فيتنام.

(بعدما وُضِع من جديد تحت قيود وزارة شئون المحاربين القدامى بعد ذلك بعام، راح يحاول أن يشرح للمحللة النفسانية في إنجليزية بسيطة تلك الحالة الصافية للشيء الذي هو لا شيء. الأمر كله شديد الخصوصية على كل حال. هي طبيبة في علم الجمال الطبيّ. تقفُ على الخط الصارم بين العِلْمَين. "فيمَ كنتَ تفكر؟" "لا شيء." "لابد أنك كنتَ تفكر في شيء ما." "لا شيء." "في أية لحظة ركبتَ شاحنتك؟" "بعد الظلام." "هل تناولتَ عشاء؟" "لا عشاء." "لأي سبب برأيك ركبتَ الشاحنة؟" "كنتُ أعلمُ لماذا." "كنتَ تعلم إلى أين أنت ذاهب؟" "لكي أقضي عليه." "تقضي على مَن؟" "اليهوديّ. البروفيسور اليهودي." "لماذا كنت ستفعل ذلك؟" "لكي أقضي عليه." "لأنكَ كان عليك أن تفعل ذلك؟" "لأنه كان عليّ أن أفعل ذلك." "لماذا كان عليك ذلك؟" "كيني." "كنتَ سوف تقتله." "أوه نعم. جميعُنا." "كان هناك تخطيطُ، إذن؟" "لا تخطيط." "كنتَ تعلم ماذا تفعل؟" "أجل." "ولكنك لم تخطط لذلك؟" "لا." "هل كنت تظن أنك عدتَ إلى فيتنام؟" "لا فيتنام." "هل كنتَ تمر باسترجاع فلاش باك من الذاكرة؟" "لا فلاش باك." هل كنت تظن أنك في دغل حرب؟" "لا أدغال." "هل كنت تظن أنك سوف تشعر بتحسن؟" "لا شعور." "هل كنتَ تفكر في الطفلين؟ هل كان ذلك تسديدًا للثمن؟" "لا تسديد ثمن." "هل أنت واثق؟" "لا تسديد ثمن." "هذه المرأة، كما أخبرتَني، قتلتْ طفليك، قلتَ لي: 'في لمح البصر قتلتْ طفليّ'- ألم تكن تحاول أن تعود إليها، لتأخذ بثأرك منها؟" "لا ثأر."

"هل كنتَ محبطًا؟" "كلا، لا إحباط." "هل خرجتَ لتقتل شخصين وتقتل نفسَك بينما لم تكن غاضبًا؟" "كلا، لا مزيد من الغضب." "سيدي، لقد ركبتَ شاحنتك، وكنتَ تعلم أين كانا وقتها، وقُدت السيارة مُسلِّطًا الضوءَ الساطع عليهما. ثم تحاول الآن أن تخبرني بأنك لم تكن تحاول قتلهما." "أنا لم أقتلهما." "مَن قتلهما؟" "هما قتلا نفسيهما.")

مجرد قيادة السيارة. كان هذا كل ما عليه أن يفعله. تخطيط أو لا تخطيط. أن يعرف أو ألا يعرف. مصابيح السيارات الأخرى كانت في وجهه، وبعد ذلك ذهبا. لا تصادم؟ أوكي، لا تصادم. بمجرد أن انحرفا عن الطريق، غيّر مسارَه واستمر في التقدم للأمام بالشاحنة. فقط استمر في القيادة. في الصباح التالي، وبينما كان ينتظر فريق الطرق لتباشر وردية النهار، سمع عن الأمر في جراج البلدة. كان الناسُ بالفعل قد علموا بالأمر.

لم يكن هناك تصادم، رغم أنه شعر بشيء منها، ليس لديه تفاصيل، وحينما عاد إلى بيته بعد القيادة وخرج من الشاحنة لم يكن واثقًا ماذا حدث. يوم طويل بالنسبة له. الحادي عشر من نوفمبر. يوم المحاربين القدامى. ذلك النهار ذهب مع 'لوي'- ذلك النهار ذهب إلى الجدار، ذلك الأصيل عاد إلى الوطن من رحلة الجدار، تلك الليلة خرج ليقتل كل الناس. هل فعل؟ لا يقدر أن يعرف لأنه لم يكن هناك تصادم، ولكنه يظل يومًا هائلاً من وجهة النظر المَرَضية. الشوط الثاني أصبح أكثر علاجيةً وفاعليةً من الشوط الأول. هو الآن ينعم بسكينة حقيقية. الآن بوسع 'كيني' أن يكلّمه. كان يحارب جنبًا إلى جنب جوار 'كيني'، كلاهما فتح المدفع الآلي على آخر مداه، في الوقت التي أعطى فيه 'هيكتور'، قائد الفرقة، صيحةَ الأمر: "اجمعوا أغراضَكم وهيا نخرج من هنا!" وفجأة كان 'كيني' ميتًا. بتلك السرعة. في الأعلى فوق تلٍّ ما. تحت نير الهجوم، يتراجعون- و'كيني' ميت. لا يمكن أن يكون. رفيقه، ابن المزرعة الآخر، نفس الخلفية ونفس المنشأ باستثناء أنه من ميسوري، كانا سوف يُنشآن معًا مزرعةً للألبان، الرجل الذي وهو طفل في السادسة شاهد أباه يموت، وهو طفل في التاسعة شاهد أمه تموت، ليربيه بعد ذلك عمُّه الذي أحبه وكان دائم الحديث عنه، مزارع الألبان الناجح ذو معدلات التوزيع الجيدة- 180 بقرة حلوبًا، اثنتا عشرة ماكينة تحلب ست بقرات متجاورات في المرة الواحدة- وطاحت رأس 'كيني' ومات.

كما لو أن 'لِس' كان يتواصل مع رفيقه الآن. يُظهر لـ'كيني' أن 'كيني' لم يُنسَ. كان 'كيني' يريده أن يفعل ذلك ففعل. الآن هو يعرف أنه أيًّا ما فعل- حتى ولو لم يكن واثقًا ما هو ذاك الذي فعله- فقد فعله من أجل 'كيني'. حتى ولو كان قد قتل شخصًا ما وأنه سوف يذهب إلى السجن، فلا يهمّ- لا يمكن أن يهمّ لأنه ميت. كان هذا مجرد شيء

واحد وأخير يفعله من أجل 'كيني'. لونٌ من تسديد الحساب. يعلم أن كل شيء الآن أصبح على ما يرام مع 'كيني'.

("ذهبتُ إلى الجدار وهناك كان اسمُه وكان السكون. انتظرتُ وانتظرتُ وانتظرتُ. نظرتُ إليه، ونظر إليّ. لم أسمع أيَّ شيء، لم أشعر بأيِّ شيء، وكان هذا دليلاً على أن 'كيني' ليس على ما يرام. دليلاً على أن هناك المزيد مما يجب أن يتم. لم أكن أعرف ما هو. ولكنه ما كان ليتركني هكذا. لذلك لم تكن هناك رسائلُ لي منه. لأنه مازال عليّ أن أفعل المزيد من أجل 'كيني'. الآن؟ الآن كل شيء على ما يرام مع 'كيني'. الآن بوسعه أن يرتاح وأن يرقد في سلام."

"وهل مازلتَ ميتًا؟" "ماذا أنت، حمار؟ أوه، ليس بوسعي الكلام معك، أنت حمار! لقد فعلتُ ذلك لأنني رجلٌ ميت!")

في الصباح التالي، أول الأمر، سمع في الجراج أنها ماتت مع يهودي في حادث سيارة. استنتج الجميعُ أنها كانت تداعبه ففقد السيطرة وانحرفا عن الطريق باتجاه حاجز الطريق ثم انقلبا في النهر. اليهودي فقد السيطرة على السيارة.

كلا، هو لا يربط بين هذا وبين ما حدث الليلة الماضية. كان فقط قد خرج للقيادة، في حالة عقلية مختلفة تمامًا. هو يقول: "نعم؟ ماذا حدث؟ مَن قتلها؟"

"اليهودي قتلها. انحرف عن الطريق."

"من المحتمل أنها كانت تداعبه."

"هذا ما يقولونه."

"هذا هو. هو لا يشعر بأي شيء حول هذا أيضًا. مازال يشعر بلا شيء. ماعدا معاناته. لماذا يعاني كثيرًا جدًا مما حدث له بينما هي تداعب يهوديًا عجوزًا؟ هو الشخص الذي يعاني، بينما هي الآن صعدت وهربت بعيدًا عن كل شيء.

على كل حال، وبينما كان يحتسي قهوة الصبح في جراج البلدة، بدا له الأمر هكذا.

حينما بدأ الناس يصعدون ليديروا الشاحنات، قال 'لِس': "تخيلوا أن تلك الموسيقى لن تصدر عن ذلك البيت في ليالي السبت بعد الآن."

وبرغم ذلك، مثلما يحدث أحيانًا، لا أحد عرف عمّا كان الرجل يتكلم، ضحكوا على كل حال، وبهذا، بدأ يوم العمل.

لو كانت قد حددت موقعها في ماساتشوستس الغربية، لأمكن تتبُّع عنوانها من قِبل زملائها الذين يشاركون في نشرة نيويورك لمراجعة الكتب[181]، خاصةً إذا ما كانت قد

---

[181] - *New York Review of Books*- جريدة أمريكية. (المترجمة)

تمادت في وصف شكلها وقائمة مؤهلاتها. ولكن إذا لم تحدد مكان إقامتها، فإنها لن تغنم باستجابة واحدة من أي رجل في مسافة قطرها، مائة، أو مائتان، أو حتى ثلاثمائة ميل. وبما أنها في كل ما طالعته من إعلانات الزواج في نشرة نيويورك، كان عمر النساء يزيد عن عمرها بخمسة عشرة عامًا وحتى ثلاثين عامًا، فكيف لها أن تُفصِحِ عن عمرها الحقيقي- لكي تصوّر نفسها على النحو الصحيح بوجه عام- دون أن تثير الشكوك بأن ثمة شيئًا مهمًا قد أخفته قد يسيء إليها، امرأة تزعم أنها صغيرة جدًا، جذابة جدًا، بارعة جدًا، فهل كان عليها أن تبحث عن رجل عبر إعلان في جريدة؟ لو كانت قد وصفت نفسها كـ"عاطفية،" لفسَّر هذا بسهولة أصحابُ العقول الداعرة، بأنه إثارة متعمّدة، و"خلاعة" أو ربما ما هو أسوأ، ولكانت الخطابات قد انهالت على صندوقها في جريدة نيويورك من رجال بعيدين كل البعد عن مطلبها. ولكن لو أنها ظهرت كامرأة رفيعة التعليم تعتبر الجنسَ أقلَّ أهميةً من دراستها، وأكاديميتها، وعالمها الفكريّ، لكانت على ثقة من تشجيعها لاستجابة أولئك الرجال الذين يتجاوبون مع شخصية متمردة للغاية مثلما يمكنها أن تكون مع رجل شهواني. لو أنها قدّمت نفسها كـ"مليحة"، لكانت قد ألحقت نفسها بسلّة فئة النساء الغامضات المريبات، ولكن إذا صوّرت نفسها، مباشرة، بـ"جميلة"، لو أنها تجاسرت لتكون صادقة بما يكفي لاستدعاء الكلمة التي لم تبدُ أبدًا مبالِغة لعشّاقها- أولئك الذين كانوا ينعتونها بـ"رائعة"[182]، (مثلما في "رائعة أنتِ! لكِ وجه القطّة"[183])؛ مبهرة، مذهلة، ساحرة- أو إذا، لدواعي الدقّة في نصٍّ قصير من ثلاثين كلمة فقط كما في إعلان زواج، كانت قد استشهدت بالشبه الذي لاحظه الناسُ الأكبر سنًا بينها وبين ليزلي كارون[184] ذلك الشبه الذي كان يستمتع والدها كثيرًا بتأكيده، لتخوّف كلُّ الناس، باستثناء أولئك المصابين بجنون العظمة، من الاقتراب منها أو لرفضوا أخذها مأخذ الجد كمثقفة. لو كانت قد كتبت: "نرحّب بصورة مرافقة بالخطاب،" أو، ببساطة، "ارِفقْ صورةً من فضلك،" لكان أُسيء فهمها بما يدلّ ضمنًا على أنها تضعُ الشكل والمظهر فوق الذكاء، والمعرفة، والوعي الثقافي؛ وأكثر من ذلك، فإن أية صور قد تتسلمها ربما تكون قد تم تنقيحها، أو تكون أقدم زمنًا، أو كاذبة على أي نحو. طلبُها صورة قد يُحجم استجابةَ الرجال الذين اهتماماتهم هي تحديدًا التي تود أن تستخرجها. ولكن لو أنها لم تطلب صورةً، فسوف ينتهي بها الحال مسافرة طوال الطريق لبوسطن، لنيويورك، أو حتى أبعد من ذلك، لتجد نفسها على العشاء في رفقة شخص غير مناسب بتاتًا أو ربما حتى مثير للتقزز. والتقزز ليس

[182] - éblouissante، وردت بالفرنسية. (المترجمة)
[183] - Éblouissante! Tu as un visage de chat، وردت في الأصل بالفرنسية. (المترجمة)
[184] - Leslie Claire Margaret Caron، ممثلة وراقصة فرنسية شهيرة. (المترجمة)

بالضرورة مرتبطًا بالشكل وحسب. ماذا لو أنه كاذب؟ ماذا لو كان محتالاً؟ ماذا لو أنه مريضٌ نفسيًا؟ ماذا لو كان لديه إيدز؟ ماذا لو أنه عنيف، شرير، متزوج، كهل عجوز؟ ماذا لو كان غريب الأطوار، أو شخصًا لا تستطيع التخلص منه؟ ماذا لو أنها أعطت اسمها وعنوان محل عملها لقنّاص؟ ولكن، في لقائهما الأول، كيف لها أن تحجب اسمها؟ في البحث عن علاقة حب جادة وملتهبة المشاعر تؤول إلى زواج وأسرة، كيف يمكن لشخصية أمينة وشفافة أن تبدأ بالكذب في شيء جوهري مثل اسمها؟ وماذا عن العِرق؟ أكان يجب عليها أن تضيف ذلك التوسّل الرقيق "العِرق لا يهمّ"؟ ولكنه لم يكن غير مهمّ؛ ينبغي أن يكون غير مهمّ، من المفترض ألا يكون مهمًا، ربما كان غير مهمّ دائمًا فيما عدا تلك التجارب الفاشلة فيما مضى منذ زمن مضى في باريس حينما كانت في السابعة عشرة من عمرها، تلك التجارب التي أقنعتها أن الرجل إذا كان من عِرق آخر فإنه غير مقبول- لأنه سيكون شريكًا مجهولاً لا يُمكن معرفته.

هي شابة ومغامِرة، لم تنشأ أن تكون حذرةً، وهو كان من عائلة جيدة في برازافيل، ابن قاضٍ في المحكمة العليا- أو هكذا قال- وكان في باريس كطالب تبادليّ لمدة عام في نانتير. دومينيك هو اسمه، وهي فكرت فيه كعاشق روحاني للأدب. كانت قد التقت به في إحدى محاضرات ميلان كونديرا[185]. تعرّف عليها هناك، وفي الخارج ظلا يتناقشان حول ملاحظات كونديرا عن رواية "مدام بوفاري"، وقد أصابتهما كليهما العدوى بما فكرت فيه دلفين بوصفه "مرض كونديرا". شرعية كونديرا بالنسبة إليهما كانت مستمدةً من كونه مضطهدًا ككاتب تشيكي، كونه قد ضاع في الصراع التاريخي الأعظم لتشيكوسلوفاكيا من أجل الحرية. مزاج كونديرا لم يبدُ طائشًا، ليس على الإطلاق. كانا يحبان "كتاب الضحك والنسيان"[186]. ثمة شيء جدير بالثقة في كونديرا. أوروبيته الشرقية. الطبيعة القلقة للمفكرين. كل شيء فيه يبدو عصيًا. كلاهما كان مؤيدًا ومحبًا لتواضع كونديرا، الضدّ الصريح للسلوك السينمائي المصطنع، وكلاهما كان يؤمن بمنهجه الأخلاقي في التفكير والمعاناة. كل تلك المحنة الفكرية- ثم كان هناك مظهره البسيط. كانت دلفين مأخوذة للغاية بمظهره الشعري كملاكم، بالنسبة إليها كان ذلك علامة ظاهرية لكل شيء يتصادم بالداخل.

بعد تعارفهما في محاضرة كونديرا، كانت لها مع دومينيك تجربة جسدية كاملة، وهذا ما لم يحدث لها أبدًا من قبل. جسدها كان بطل القصة الوحيد. كانت قد ارتبطت جدًا بمحاضرات كونديرا ثم تلهّت عن ذلك الارتباط بالارتباط الآخر الذي جمعها

[185] - روائي تشيكي يساري شهير. (المترجمة)
[186] - The Book of Laughter and Forgetting- رواية لميلان كونديرا صدرت عام 1979. (المترجمة)

بدومينيك، وكل هذا حدث بسرعة فائقة. لم يكن هناك شيء سوى جسدها. لم يفهم دومينيك أنها لم تكن تريد الجنس المحض. كانت تريد أن تكون شيئًا أكثر من مجرد قطعة من اللحم تُقلّب على شواية وتُسقى بالمرق. وهذا ما كان يفعله- تلك حتى كانت كلماته: أَدِرْ المرأةَ واسقِ لحمَها بالمَرَق. لم يكن مهتمًا بشيء آخر، وفي آخر قائمة اهتماماته كان الأدب. استرخي، ثم اخرسي- هذا هو نهجه معها، فكانت على نحو ما تُحبس في غرفة، ثم تأتي الليلة الرهيبة فتظهر في غرفته وينتظرها هناك مع صديقه. ليس الأمر أنها تشعر بالإجحاف الآن، بل إنها قد أدركت أنها بهذا لم تُسيء الحكم على رجل من عِرقها. كان هذا هو إخفاقها الأسوأ، ولم تستطع أبدًا أن تنساه. حدث الانعتاق فقط مع بروفيسور كان قد أعطاها خاتمًا رومانيًا. جنسٌ، نعم، جنسٌ رائع، لكنه جنسٌ مع فلسفة ميتافيزيقية. الجنس الممزوج بالميتافيزيقا مع رجل جذاب ليس عبثًا. شخص مثل كونديرا. تلك هي الخطّة.

جابهتها المشكلة وهي تجلس وحيدة إلى الكمبيوتر بعد حلول الظلام بكثير، كانت الشخص الوحيد الذي تبقّى في قاعة بارتون. لم تستطع مغادرة مكتبها، لم تقدر على مواجهة ليلة أخرى في شقتها وحيدةً دون حتى قطة ترافقها- المشكلة كانت كيف تُضمِّن في إعلانها، مهما كان مُشفَّرًا وغامضًا على نحو ماكر، كيف تُضمِّنُ شيئًا يقول بشكل أساسي: "فقط البيضُ يتقدمون". لو حدث واكتُشِف في أثينا أنها هي التي حدّدت مثل هذا الاستبعاد العنصري- لا، هذا لا يليق بشخصية مثلها صعدت بسرعة البرق في السلم الوظيفي الأكاديمي بأثينا. ولكن لم يكن أمامها بديل سوى أن تطلب صورة، حتى لو كانت تعرف- كانت تعرف عبر تجاربها بأن عليها أن تفكر في كل شيء، وألا تكون ساذجة في أي شيء، خاصةً في أساسيات حياتها كامرأة تعيش بمفردها مما لابد من أخذه في الحسبان حول كيف بوسع الرجال أن يسلكوا- حتى لو كانت تعرف أن لا شيء قد يمنع شخصًا ساديًا أو شريرًا من أن يرسل صورة مفبركة مضلِّلة خاصةً فيما يخص العِرق.

كلا، تلك مخاطرةٌ ضخمة- مثلما من تحت كرامتها- أن تنشر إعلانًا يساعدها على أن تقابل رجلاً ذا مكانة فكرية مما لم تجده من بين رجال جامعة قروية بشعة مثل أثينا. لم تستطع أن تفعل ذلك وما كان يجب أن تفعل، على أنها طوال الوقت الذي ساورتها فيه الشكوك، والمخاطر المحتملة، من إعلان المرء عن نفسه لغرباء كامرأة تبحث عن رفيق مناسب، طوال الوقت الذي كانت تفكر فيه في الأسباب وراء عدم مقبولية، كأستاذة كرسي في قسم اللغة والآداب، أن تغامر بعرض نفسها على زملائها بما لا يليق بمعلّمة أكاديمية- أن تعرض نفسها كامرأة لها احتياجات ورغبات تلك التي، رغم أنها كلها

نوازع إنسانيه طبيعية، يمكن بسهولة أن يُساء فهمها على أنها امرأة مبتذلة وتافهة- كانت تفكر في ذلك: بعدما انتهت للتو من إرسال إيميلات لأعضاء قسمها بآخر أفكارها حول أطروحات المادة الدراسية. شرعت على الفور في محاولة صياغة إعلان يلتزم بالأسلوب اللغويّ الاعتيادي البسيط مثلما في إعلانات الزواج بنشرة نيويورك، ولكن في نفس الوقت بما يسمح للقراء بتخمين مكانتها العلمية الرفيعة. الآن مرت ساعة وأكثر ومازالت غير قادرة على أن تستقر على أي شيء غير مُخزٍ ترسله بالإيميل إلى الصحيفة حتى وإنْ باسم مستعار.

ماساتشوستس الغربية. جميلة في التاسعة والعشرين، عاطفية، أستاذة من باريس، تتقن أعمال البيت، تدّرس موليير كـ

ذكية، أكاديمية جميلة في بيركشاير، حاصلة على ميداليات في الطهو، كما أنها رئيسة قسم العلوم الإنسانية، تبحث عن:

أستاذة جامعية جادة بيضاء فرنسية غير متزوجة تبحث عن:

بيضاء، عزباء، أستاذة فلسفة بجامعة 'ييل'. أكاديمية من مواليد باريس، باحثة أكاديمية جميلة، محبّة للأدب، أنيقة، سوداء الشعر، تبحث عن:

جذابة، جادة، باحثة أكاديمية تبحث عن:

عزباء بيضاء، أستاذة في الفلسفة، فرنسية، من ماساتشوستس، تبحث عن:

تبحث عن ماذا؟ أي شيء، أي شيء فيماعدا أناس أثينا هؤلاء- الأولاد الوقحون، المسنّات العجائز نصيرات النسوية، الجبناء، مثيرو النزوات الأسرية المضجرة، الآباء الحرِفيون، جميعهم جادون للغاية وضعفاء مخصيون للغاية. كانت منزعجة من حقيقة أنهم يفخرون بأنفسهم لأنهم يؤدون نصف الأعباء المنزلية. شيء لا يُطاق. "نعم، عليّ أن أمضي في هذا، عليّ أن أخفّف عن زوجتي. عليّ أن أغيّر حفاضات الأطفال مثلما تفعل، كما تعلم، هذه أمور ضرورية." كانت تنكمش هلعًا حين يتفاخرون بتقديم المساعدة. افعلوا هذا، جميل، ولكن لا تكونوا من الفظاظة والوقاحة بحيث تذكروا ذلك. لماذا تجعل من نفسك أضحوكةً كزوج في الخامسة والخمسين؟ فقط قدّمِ المساعدةَ ثم اخرسْ واقفلْ فمَك عن ذكر ذلك. في هذا المنحى هي مختلفةٌ تمامًا عن زميلاتها اللواتي يقدّرن أولئك الرجال بسبب "حساسيتهم". هل شعورهم بزوجاتهم يُسمى "حساسيةً"؟

"أوه، 'سارا لي'[187] هي تلك المرأة الاستثنائية فوق العادة، إلخ إلخ. لقد نشرت أربعة مقالات ونصف... "مستر حساسية"[188] دائما عليه أن يذكر أمجادها. مستر حساسية لا يقدر أن يتكلم عن برنامج تليفزيوني كبير في متروبوليتان دون أن يبدأ كلامه بـ: "قالت 'سارا لي'..." إما أنهم يُقدّرون زوجاتهم أو يسقطون في صمت الموتى. يسقط الزوج في الصمت فيزداد إحباطًا شيئًا فشيئًا، وهي لم تصطدم أبدًا بشيء كهذا في أية دولة أخرى. لو كانت 'سارا لي' أكاديميةً لم تستطع أن تجد وظيفة بينما هو، لنقل، بالكاد متعلق بوظيفة، فإنه قد يفضّل أن يفقد وظيفته على أن يتركها تظن أنها ستحظى بالنهاية الخاسرة من الصفقة. وثمة فخر أكيد سيحدث لو انعكس الوضع وكان هو الشخص الذي يمكث في البيت بينما هي تخرج للعمل. أية امراة فرنسية، أو بالأحرى أية ناشطة نسوية فرنسية، لابد سوف تجد رجلاً مثل هذا مثيرًا للتقزز. المرأةُ الفرنسية ذكيةٌ، مغريةٌ، مستقلةٌ بجدارة، فإذا ما تكلم أكثر مما تتكلم هي، فماذا إذن؟ وأين الموضوع؟ فيمَ كل السجال المشتعل؟ ليس الأمر هو "أوه، هل لاحظتم، إنها واقعة تحت سيطرة زوجها الوقح، المتعطش للسُّلطة." كلا، أكثر من امرأة هي. المرأة الفرنسية تفضّلُ الرجلَ الذي يُقننِّ قوتَه. أوه، لَكم ابتهلت إلى الله، لحظةَ وصولها إلى أثينا قبل خمس سنوات، أن تلتقي رجلاً رائعًا يقننّ سُلطانه، وبدلاً من ذلك وجدت تلك الكتلة الضخمة من الذكور الصغار خدّام المنازل، أولئك المخصيين، غير النابهين فكريًا، أولئك المبتذلين، الأزواج المبجِلين لـ'سارا لي' ممن كانت تصفهم لأصدقائها في باريس بالرجال "ذوي الحفّاضات."

ثم كان هناك "القبّعات". القبّعات هم: "الكتّاب الذين يقومون بالتدريس في الجامعة"، الكتّاب الأمريكان الفخورون بأنفسهم على نحو لا يُصدّق. على الأرجح، في أثينا الصغيرة، لم تكن قد رأت أسوأهم، ولكن هذين الاثنين كانا سيئَين بما يكفي. كانا يأتيان ليُدرّسا مرة كلّ أسبوع، وكانا متزوجين، وكانا يُقبلان عليها، وكانا لا يُحتملان. متى يمكننا تناول الغداء معًا يا دلفين؟ أعتذرُ لك، لا أريد. الشيء الذي أحبّته في كونديرا هو أنه كان في محاضراته بسيطَ المظهر على نحو طفيف، بل يبدو أحيانًا رقيق الحال، وهو الكاتب العظيم وهو مَن هو. على الأقل كانت ترى الأمر هكذا وهذا ما أحبته من أجله. ولكنها بالتأكيد لا تحب، ولم تستطع أن تتحمّل، نوعًا من الأمريكان لسان حالهم يقول "أنا الكاتبُ" الذي واحدهم، وهو ينظر إليها، يذهب في تفكيره نحو: بتلك الثقة الفرنسية في نفسكِ، وأناقتكِ الفرنسية تلك، وتعليمك الفرنسي الرفيع، فأنتِ

---

[187] - Sarah Choi Lee، مراسلة صحفية كورية أمريكية لقناة CNN. (المترجمة)

[188] - تعبير تهكّمي. (المترجمة)

فرنسية للغاية بالفعل، ولكنك برغم كل ذلك محض أكاديمية بينما أنا الكاتبُ- لسنا متكافئينْ.

أولئك الكتّاب المدرسون في الجامعة، بقدر تخمينها، يمضون وقتًا هائلاً جدًا وهم قلقون بشأن ما يلبسونه فوق أدمغتهم. أجل، كلاهما، الشاعرُ وكاتبُ السرد، لديهما هوسٌ مَرضيٌّ بالقبّعات، ولذلك كانت تصفهما في خطاباتها بـ"القبّعات". أحدهما كان دائمًا يلبس مثل تشارلز ليندبرج[189]، يرتدي زيّه الملاحيّ العتيق، ولم تستطع أبدًا أن تفهم العلاقة بين زيّ الطيار وبين الكتابة، خصوصًا الكتابة داخل الحرم الجامعي. كانت تتساءل حول ذلك في مراسلاتها المازحة مع أصدقائها في باريس. الآخر كان يرتدي نوعًا من القبعات متهدلة رخوة،- تبدو متواضعة، تلك التي، بالطبع، نادرةٌ ومُختارة بعناية- مَن ذا الذي يقضي ثماني ساعات أمام المرآة لكي يبدو ملبسُه غيرَ مُعتنًى به. فاشلٌ، مملّ، متزوج حتى الآن مائة وست وثمانين مرة، ويشعر بأهمية ذاته على نحو لا يُصدق. لم تكن كراهيةً ما تشعر به تجاه هذا الرجل بقدر ما كان ازدراءً. ولكن، في جوعها الشديد للرومانسية في بركشاير، كانت أحيانًا تشعر بالتناقض حول هذين "القبعتين"، وتتساءل ما إذا لم يكن عليها أن تأخذهما مأخذ الجد باعتبارهما مرشحين لعلاقة جنسية، على الأقل؟ كلا، لا تقدر، ليس بعد ما كتبته لباريس. عليها أن تقاومهما ولو فقط لأنهما يحاولان أن يتكلما معها بمفرداتها اللغوية الخاصة بها. ولأن أحدهما، الأصغر سنًا، والأقل شعورًا بأهمية الذات، كان قد قرأ باطاي[190]، لأنه بالكاد يعرف ما يكفي عن باطاي وقرأ بالكاد ما يكفي عن هيجل، بسبب ذلك خرجت معه مرات قليلة، ولم تكن أبدًا قد عرفت من قبل رجلاً يُعجّل بإثارة النفور منه أمام عينيها مثل ذلك الرجل. مع كل كلمة ينطقها- مستخدمًا لغتها هي التي أصبحت هي نفسها تشكّ فيها- كان يطرد نفسه بنفسه من حياتها.

بينما الأنماط الأكبر سنًا، أولئك غير المهندمين غير الرسميين، "نشطاءُ الحركات الإنسانية"... فللحقّ، كانت لطيفة معهم كما يتحتم عليها أن تسلك في المؤتمرات وفي المنشورات حيث تتكلم وتكتب حسب المتطلبات المهنية، الجانب الإنساني هو الجزء الحميم بداخلها الذي تشعر أحيانًا بأنها تخونه، ولهذا كانت تنجذب إليهم: لأنهم يبدون كما هم بالفعل وكما كانوا دائمًا ولأنها تعلم أنهم يفكرون فيها بوصفها خائنة للوطن. فصولها الدراسية كان لها متابعاتٌ، ولكنهم ينظرون إلى تلك المتابعات باستخفاف، بوصفها ظاهرةَ موضة مستحدثة. أولئك الرجال الأكبر سنًا، نشطاء الفلسفة الإنسانية،

---

[189] - Charles Augustus Lindbergh، ملاح جوي ومؤلف وناشط اجتماعي أمريكي (19002-1974). (المترجمة)

[190] - Georges Bataille، جورج باطاي، كاتب وفيلسوف فرنسي شهير (1897-1962). (المترجمة)

علماء الإنسانيات التقليديون عتيقو الطراز الذين قرءوا كل شيء، المعلّمون الذين ولدوا من جديد (كما كانت تفكر فيهم)، كانوا أحيانًا يُشعرونها بأنها سطحية. متابعاتُها كانوا يضحكون عليها ومنحتُها الدراسية كانوا يستخفّون بها. في اجتماعات الكليّة لا يهابون أن يقولوا ما يقولون، وربما كانت تفكر أنهم هكذا ينبغي أن يكونوا، وفي الفصول لا يتورعون أن يقولوا ما يشعرون به، ومن جديد، ربما تظنّ أنْ هكذا ينبغي أن يكونوا، وبالنتيجة، كانت تتهدم وتتداعى أمامهم. وطالما أنها هي نفسها لا تمتلك مثل هذا الإيمان الضخم بما يُسمى المعالجات وموضوعات الكتابة والمحاضرات التي التقطتها في باريس ونيو هافِن، فإنها كانت تتداعى داخليًا. فقط تحتاج إلى تلك اللغة لكي تنجح. لوحدها في أمريكا، كانت للغاية تحتاج أن تنجح! ومع ذلك كان كل شيء من شأنه أن يؤدي إلى النجاح، يعتبر بشكل أو بآخر نوعًا من التنازل، ويجعلها تشعر أقل فأقل بأنها حقيقية أصيلة، ذلك التنازل الذي يضعها في ورطة دراماتيكية مثل "صفقة فاوست"[191] التي لم تُفِد إلا قليلاً.

ثمة لحظاتٌ كانت تشعر فيها بأنها تخون ميلان كونديرا، وهكذا، وفي صمت، حينما تكون وحيدة، كانت تتصوره في عين عقلها وتتحدث إليه وتسأله الغفران. كان مقصدُ كونديرا في محاضراته هو تحرير العقل والفكر من السوفسطائية الفرنسية، أن تتحدث عن الرواية من خلال علائقها مع الكائن البشري والكوميديا الإنسانية؛ مقصده كان تحرير تلامذته من فخاخ إغراء البنيوية والشكلانية وهوس الحداثة، أن يطهّرهم من النظرية الفرنسية التي أُطعموها طويلاً، ولذا كان الإنصاتُ إليه راحةً هائلة، بالرغم من مؤلفاتها وسعة دراستها، كان من الصعب عليها دائمًا أن تتعامل مع الأدب من خلال نظرية الأدب. بوسع مثل تلك الفجوة العملاقة أن تحدث بين ما تحب وبين ما هو مفترض أن تعجب به- بين كيف كان من المفترض أن تتكلم عما كان من المفترض أن تعجب به وبين كيف كانت تتكلم مع نفسها عن الكتّاب الذين تقدّرهم كثروة أدبية- ذاك أن شعورها بخيانة كونديرا، رغم أن هذا ليس المشكلة الأخطر في حياتها، قد يصبح في أوقات كثيرة مثل الشعور بالعار من خيانة حبيب غائب مخلص عطوف.

الرجل الوحيد الذي كانت تخرج معه كثيرًا كان، للعجب، أكثر الرجال محافظةً في حرم الجامعة. مُطلَّقٌ في الخامسة والستين، اسمه آرثر سوسمان، أستاذ الاقتصاد بجامعة بوسطن، ذاك الذي كان سكرتير الخزانة في حكومة فورد الثانية. متين البنية قليلاً، صارم قليلاً، يلبس بذلة دائمًا؛ يكره الأعمال الإيجابيّة الموجّهة، يكره كلينتون،

[191] - قصة من الفلكلور الشعبي الألماني استلهمها الألماني يوهان جوته في مسرحيته "فاوست" وتحكي عن خيميائي استطاع تحضير جوهر الحياة، فعقد معه الشيطانُ مفستوفيليس صفقة، بأن يخدم الشيطانُ فاوست طوال العمر، وما أن يصل فاوست إلى ذروة السعادة، يمتلك الشيطانُ روحه. (المترجمة)

يأتي من بوسطن مرةً في الأسبوع، يتقاضى أجرًا ضخمًا مثل ثروة، ويُتوقّع منه أن يصنع للمكان مكانةً، وأن يضع أثينا الصغيرةَ على الخارطة الأكاديمية. النساء خصوصًا كنّ واثقات من أنها نامت معه، فقط لأنه كان يومًا ما رجلاً ذا حيثية وسلطان. كنّ يرينهما أحيانًا يتناولان الغداء معًا في الكافيتريا. يأتي إلى الكافيتريا وعليه سيماء العذاب والضجر، إلى أن يشاهد دلفين، وحينما يسألها أن تصحبه، تقول: "يا له من كرم أن تمنحنا حضورَك اليوم،" أو شيئًا في هذا النحو. يحبّ منها هذا الهزر الساخر منه، إلى حدّ معين. على الغداء، كانا يقومان بما تسميه دلفين "الحوار الحقيقي". مع وجود فائض في الميزانية قدرُه تسعة وثلاثين مليار دولار، كان يخبرها، إلا أن الحكومة لا تردّ شيئًا لدافعي الضرائب. الشعب هو الذي كسب تلك الأموال ويجب أن يصرفها بإرادته لا أن يقرر البيروقراطيون للناس ماذا يفعلون بأموالهم. على الغداء، فسّر لها بالتفصيل لماذا يجب أن تُسلَّم إدارةُ الضمان الاجتماعية إلى محللي استثمار خصوصيين. على الناس أن يستثمروا في مستقبلهم على طريقتهم الخاصة، هكذا كان يخبرها. لماذا على أي مواطن أن يثق في الحكومة لكي تتحكم في مستقبل الشعب في حين أن إدارة الضمان الاجتماعي تعطيك علامة إكس x في خانة العائدات بينما أي شخص كان قد استثمر أمواله في سوق الأسهم في نفس المدة الزمنية سيكون قد حقق الآن ضعف هذا المبلغ، إن لم يكن أكثر؟ حجر الأساس في هذا النزاع دائمًا هو الملكيةُ الخاصة، الاستقلاليةُ الخاصة، الحريةُ الخاصة. وما لم يفهمه أبدًا، تجاسرت دلفين وقالته لأمين الخزانة الذي لم يعد أبدًا كذلك، هو أن معظم الناس ليس لديهم ما يكفي من المال لتكون أمامهم خياراتٌ وليس هناك ما يكفي من التعليم لتكون هناك تخمينات مدروسة- ليست هناك معرفةٌ مُتقنة بالسوق. نموذجُه، كما فسّرت هي له، يتكئ على فكرة الحرية الشخصية الجِذرية تلك التي، في تفكيره، تتناقص إلى الاستقلال الجِذري في السوق. فائض الميزانية ودعم محدودي الدخل- هما الموضوعان اللذان يؤرقانه، فكانا يتكلمان حوله طوال الوقت. وكما يبدو كان يكره كلينتون أكثر لأنه يصبغ كلَّ شيء يريده بنسخة الديمقراطية. "أمرٌ طيب"، راح يخبرها، "أن ذلك التافه الضئيل بوب ريتش[192] قد خرج من الحكومة. هو الذي جعل كلينتون ينفق مليارات الدولارات على تدريب المواطنين على وظائف لن يشغلوها أبدًا. أمرٌ طيب أن ترك مجلسَ الوزراء. على الأقل جاءوا بـ بوب روبين[193]، على الأقل أصبح لديهم رجلٌ واحد سليمُ العقل يعرف أين يتم دفن

[192] - Robert Reich، وزير العمل في حكومة بيل كلينتون. (المترجمة)
[193] - Robert Rubin، وزير المالية في حكومة كلينتون. (المترجمة)

الجثث. على الأقل حافظ هو و'آلان' على معدل الفائدة حيث كان يجب أن تكون. على الأقل استطاع هو و'آلان' أن يجعلا تلك الاستعادة تستمر..."

الشيء الوحيد الذي أحبّته من أجله، علاوةً على إطّلاعه العميق على القضايا الاقتصادية، هو أنه حدث أيضًا أن كان يعرف بشكل عميق كلَّ شيء عن إنجلز وماركس. الأكثر روعة، أنه كان يعرف بعمق "الأيديولوجيا الألمانية"[194]، ذلك النص الذي طالما وجدته ساحرًا وأحبته. حينما أخذها للعشاء في جريت-بارينجتون، انقلبت الأمور نحو الرومانسية ونحو الثقافة أكثر مما كانت في غداء الكافيتريا. على العشاء كان يحب أن يتحدث معها بالفرنسية. إحدى فتوحاته النسائية قبل سنوات كانت باريسية، ومضى مع تلك المرأة إلى ما لا نهاية. لم تفتح دلفين فمها دهشةً مثل سمكة حينما تكلم عن ارتباطاته ولا عن علاقاته العاطفية المتعددة قبل وبعد. دائمًا ما كان يتفاخر بعلاقاته النسائية، بأسلوب دمث للغاية حتى أنها لم تعد، بعد برهة، تراه دمثًا على الإطلاق. لم تستطع تحمّل حقيقة أنه يعتقد أنها مبهورة بكل فتوحاته، ولكنها صبرت عليه، مع بعض الضجر، لأنها من ناحية أخرى كانت مسرورة لتناولها العشاء مع رجل ذكي، واثق من نفسه، واسع الإطلاع على العالم. حينما أمسك يدها على العشاء، قالت شيئًا لتجعله يعرف، على نحو ماكر، أنه لو كان يظن أنه سوف ينام معها، فإنه مجنون. أحيانًا في موقف السيارات، كان يجذبها إليه ويضمّ ردفيها بكفيه نحوه. يقول: "لا أستطيع أن أكون معك وقتًا بعد آخر على هذا النحو دون بعض التوق والهوى. لا أستطيع أن أخرج بامرأة جميلة مثلك، أتكلم معها وأتكلم معها وأتكلم معها، ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد." قالت له دلفين: "لدينا مقولة في فرنسا، هي...". سألها: "هي ماذا؟" ، وهو يظن أنه سوف يتعرف في الصفقة على قول مأثور فرنسي جديد. قالت مبتسمة: "لا أعرف. سوف يحضرني فيما بعد،" وبهذه الطريقة حرّرت نفسها بلطف من بين ذراعيه القويتين للغاية. كانت لطيفة معه لأن هذا كان يُجدي، وكانت لطيفة معه لأنها تعرف أنه يظن أنها مسألة سِنّ، بينما هي في الحقيقة مسألة، كما راحت تفسّر له وهو يوصلها لبيتها في سيارته، لا شيء عادي جدًا: إنه مسألة "مِزاج ذهني". "إنه مسألة مَن أكون أنا،" أخبرته دلفين، وهذا ما أبعده عنها شهرين أو ثلاثة، إن لم يكن شيء آخر قد تسبب في ذلك، إلى أن ظهر مرة أخرى في الكافيتريا فيما بعد، ينظر هنا وهناك ليرى ما إذا كانت دلفين هناك. كان أحيانًا يهاتفها متأخرًا بالليل أو في الساعات الأولى من النهار. من سريره موديل 'باك باي'، يودّ أن يتكلم معها عن الجنس. فتجيبه هي بأنها تود

[194] - The German Ideology، كتاب من تأليف كارل ماركس وفريدريش إنجلز. كتباه بالاشتراك عام 1845، ولم يجدا ناشرًا له. وطُبع للمرة الأولى عام 1932. (المترجمة)

الكلام عن ماركس، ولا يتطلب الأمرُ أكثرَ من ذلك، مع رجل اقتصاد تقليدي كهذا، ليضع نهاية لذلك الجدل. ولكن النساء اللواتي لا يحببنها كنّ على ثقة من أنها بالتأكيد قد نامت معه لمجرد أنه رجل قويّ. ليس مفهومًا بالنسبة إليهنّ، مع حياة وحيدة مقفرة مثل حياتها، أنها لا ترغب في أن تصبح عشيقة آرثر سوسمان الصغيرة. ووصلها أيضًا أن إحداهن نعتتها بـ"عتيقة الطراز جدًا، النسخة الساخرة من سيمون دي بوفوار[195]." وقد كانت تعني تلك المرأةُ أن بوفوار قد باعت كامل حصتها في الحياة لـ'سارتر'- بما يعني أن بوفوار امرأةٌ ذكية جدًا ولكنها في النهاية ليست إلا جارية سارتر وعبدته. بالنسبة لأولئك النسوة، اللاتي يرونها على الغداء مع آرثر سوسمان فيسئن فهم الأمر تمامًا، كان كل شيء هو موضوع للحكي، كل شيء هو موقف أيديولوجي، كل شيء هو فضيحة- كل شيء هو قضية بيع. بوفوار باعت نفسها، دلفين باعت نفسها، وهلمّ جرّا، هلم جرّا. شيءٌ ما في دلفين كان يملأ وجوهَهن بالحسد.

تلك إحدى مشاكلها الأخرى. وهي لم تكن تود أن تبتعد عن أولئك النسوة. على أن عزلتها الفلسفية عنهن لم تكن أقلَّ من عزلتها عن الرجال. رغم إنه لم يكن من الفطنة أن تخبرهن بذلك، إلا أن أولئك النسوة كنّ أكثر نسويةً، في العرف الأمريكي، مما كانت هي. لم يكن من الفطنة لأنهن كنّ منعزلات بما يكفي ويبدو أنهن يعرفن أين كانت تقف على كل حال. دائمًا ما يشككن في دوافعها وأهدافها: إنها جذابة، شابة، نحيلة، أنيقة وعلى الموضة دون جهد، صعدت عاليًا جدًا وبسرعة فائقة، لديها بدايات شهرة وسمعة طيبة خارج الجامعة، ومثل أصدقائها في باريس، لا تستخدم ولا تحتاج إلى أن تستخدم أكلشيهاتهن (الأكلشيهات ذاتها التي أخصت رجال الحفاضات). فقط في خطابها الغُفل من التوقيع إلى كولمن سيلك كانت قد استخدمت أسلوبهن اللغوي، ولم يكن هذا مقصودًا وحسب، لأنها كانت في حالة عصبية للغاية، ولكن، في النهاية، لأنها كانت حريصة كل الحرص على إخفاء هويتها. للحق، هي ليست أقل انعتاقًا من تلك النسويات في أثينا، بل ربما كانت أكثر: هي تركت وطنها الأم، بجسارة تركت فرنسا، تعمل بجد في وظيفتها، تعمل بجد في إصداراتها، وتريد أن تؤدي كل شيء بمفردها كما اعتادت. هي وحيدة على نحو مطلق، دون سند، لا بيت لها، بعيدة عن وطنها- مشوشة. في ولاية جديدة ولكنها في أكثر الأحيان مهجورة مشوشة. طموحة؟ حدث أنها كانت أكثر طموحًا من كل أولئك النسويات المخلصات للوحدة، مجتمعات. ولكن لأن الرجال ينجذبون إليها، ومن بينهم رجل بارز مثل آرثر سوسمان، ولأنها، لمجرد الشعور بالمرح، ترتدي جاكيت عنّابي اللون ماركة 'شانيل' مع جينز ضيق، أو فستانًا قصيرًا

[195] - ناشطة نسوية فرنسية شهيرة، وصديقة سارتر. (المترجمة)

في الصيف، ولأنها تحب صوف الكاشمير الناعم والجلد، فإن النساء كن يمتعضن. بينما هي لم تركز يومًا على ملابسهن البشعة، فبأي حق يمعنّ النظر فيما يعتبرنه جريمةً ترتكبها؟ كانت تعرف كل شيء يقلنه عنها في لحظات انزعاجهن؟ يقلن بحسد ما يقوله أولئك الرجال الذين تحترمهم- إنها نصابة وغير شرعية- وهذا يجعل الألم أكبر. يقولون: "إنها تخدع الطلاب." يقولون: "كيف لم يدرك الطلاب حقيقة تلك المرأة." يقولون: "ألا يرون أنها أحد أولئك الذكور الفرنسيين المتعصبين الشوفينيين في ملابس نساء؟" قالوا إنها حصلت على مكانة رئيس القسم لعدم وجود بديل أفضل. ويهزءون من لغتها. "حسنًا، بالطبع، إنه سحر نطقها هو الذي جمع لها مريديها. إنه علاقتها بالنظرية الظاهرية. إنها مجرد ظواهرية ها-ها-ها!"

هي تعرف ما يقولون لكي يسخروا منها، ولكنها تتذكر الحياة في فرنسا والوجود في جامعة 'ييل' والعيش من أجل تلك اللغة وتلك المفردات؛ هي تؤمن أنها لكي تصبح ناقدةً أدبيّة جيدة فإن عليها اكتساب تلك المفردات. تحتاج إلى أن تتقن أسلوبية نُطق النص. هل هذا يعني أنها نصابة أو زائفة؟ كلا! هذا يعني أنها عصيةٌ على التصنيف. في بعض الدوائر يُفكَّر في هذا الأمر بوصفه هالةَ سرِّها الخاص! ولكن فقط كُنْ متفرّدًا عن التصنيف في ثقب جحيم مهجور مثل هذا المكان، لكي تزعج كلَّ الناس. كونها عصية على التصنيف كان حتى يزعج آرثر سوسمان. ولماذا بحق الجحيم تُراها لا تستسلم تلك المرأةُ لمكالمة تليفون جنسية على الأقل؟ كونها عصية على التصنيف هنا، كونها امرأة لا يُمكنهم التساوي بها، فإن هذا يثير انزعاجهم وقلقهم. ذاك أن تكون عصية على التصنيف ليس إلا جزءًا من رواية التنشئة التي حرصت عليها دائمًا، لا أحد في أثينا يفهم ذلك.

ثمة عُصبةٌ من نساءٍ ثلاث- أستاذة فلسفة، أستاذة علم نفس، وأستاذة تاريخ- كنّ يدفعنها نحو الجنون. كن يشتعلن بالحقد عليها لمجرد أنها لا تمشي بتثاقل مثلما يفعلن. ولأنها أنيقة، كنّ يشعرن أنها لم تقرأ ما يكفي من الكتب الرصين. لأن فكرتهن الأمريكية عن الاستقلالية تختلف عن فكرتها الفرنسية عن الاستقلالية، فإنهن رفضنها كقائدة لرجال ذوي سلطان. ولكن ما الذي فعلته هي بالفعل لتثير ارتيابهن، فيما عدا ربما التعامل مع الرجال في الجامعة وقيادتهم كما تفعل بحكم وظيفتها؟ أجل، كانت على العشاء في جريت بارينجتون مع آرثر سوسمان. هل يعني ذلك أنها لم تعتبر نفسَها نِدًّا فكريًّا له؟ ليس من شك في ذهنها في أنها ندٌّ له. لم تُتَمَلّق لكي تخرج معه- هي تريد أن تسمع ما عليه أن يقوله عن "الأيديولوجيا الألمانية". ثم ألم تحاول هي في البدء أن تتناول الغداء مع ثلاثتهن، وهل كان بوسع أولئك النسوة الثلاث أن يكنّ أكثر تنازلاً؟

بالطبع، هنَّ لم يعبأن حتى أن يقرأن أطروحة منحتها الدراسية. ولا واحدة منهن قرأت شيئًا مما كتبتْ دلفين. الأمر كله يخص الإدراك الحسيّ. كل ما يرينه في دلفين هو استخدامها لما تدرك هي أنهن يسمينه بسخرية "تأثير الجوّ الفرنسي الصغير" على الرجال الواقعين تحت سيطرتها. ولكنها حاولت بقوة أن تجتمع بتلك العصبة، لكي تخبرهن بكل الكلمات الممكنة بأنها لا تحب ذلك الجوّ الفرنسي- لو كانت تحبه، لعاشت في فرنسا! لكي تخبرهن أنها ليس لديها رجالٌ واقعون تحت السيطرة- هي لا تمتلك أي أحد. وإلا فلأي سبب آخر تعيش حتى الآن بمفردها، وتبقى هي الإنسان الوحيد على مكتبه في مكتب 'بارتون هول' حتى العاشرة ليلاً بعدما يعود الجميع إلى منازلهم؟ بالكاد مرَّ أسبوع الآن بعدما حاولت مع أولئك النسوة وأخفقت مع الثلاث اللواتي أغضبنها، اللواتي حيّرنها للغاية، واللواتي لم تستطع هي أبدًا أن ترضيهن، أو تصفُو إليهن، أو تصادقهن على أي نحو. "النِّعَم الثلاث"[196] هكذا كانت تنعتهن في رسائلها إلى باريس، متعمدةً على نحو ماكر أن تتهجى كلمة "نِعَم" Grâces، على هذا النحو grasses[197]. كُرات الشحم الثلاث. في أحزاب معينة- تلك الأحزاب التي لا تحب دلفين أبدًا أن تكون فيها- كانت المخبرات الثلاث دائمًا متواجدات. حينما كانت تأتي ناشطة نسوية كبيرة لزيارة الكلية، كانت دلفين على الأقل تحب أن تُدعى، ولكنها أبدًا لم تُدع. كان بوسعها الذهاب إلى المحاضرة ولكنها أبدًا لم تُدع إلى الغداء. بينما ذلك الأوركسترا الثلاثي الجهنمي الذي يملك القرار كان دائمًا هناك.

في تمردها غير التام على فرنسيتها (تمامًا مع وقوعها تحت وطأة الاستحواذ الفكري الفرنسي) وهي مُقصاةٌ طواعيةً عن بلدها (إن لم يكن عن نفسها)، وهي مغمورةٌ بروح الرفض والاستنكار من قِبَل المخبرات الثلاث حتى لظلّت في دوامة حسابات لا تنتهي وبحث عن إجابات تجعلها تكتسب احترامهن دون مزيد من التشوش في إحساسها بنفسها وسوء تقديم ميول المرأة التي كانتها يومًا ما على نحو طبيعي، في أحيان كثيرة كانت تفقد الاستقرار إلى حد الشعور بالخجل من التعارض بين كيف يجب أن تتعامل مع الأدب لكي تنجح مهنيًا وبين لماذا في البدء جاءت إلى الأدب، لكل ما سبق، كانت دلفين، لدهشتها، تامة الانعزال في أمريكا. مغرّبة عن بلدها، معزولة، غريبة، مرتبكة حول كل شيء جوهري في الحياة، في حال يائسة من الحنين الذاهل ومحاطة من كل جانب بقوى معاتبة تضعها في خانة العدو. وكل هذا لأنها كانت قد أصرّت على البحث عن وجودها. كل هذا لأنها كانت جسورًا ورفضت أن تتبنى الصورة

---

[196] - Les Trois Grâces، وردت في الأصل بالفرنسية. (المترجمة)

[197] - هذه الكلمة بالإنجليزية تعني: حشائش وأعشابًا، وقد تعني: جاسوسًا أو مُخبرًا. (المترجمة)

النمطية التي رُسمت لها. بدت لنفسها كأنما خرّبت نفسها بأقصى ما يمكنها من جهد لكي تصنع نفسها. لابد أن شيئًا وضيعًا جدًّا بالحياة صنع بها هذا. شيء في قلب الحياة، شيء رديء وانتقاميّ، شيء ما رتّب قد القدَرَ ليس تبِعًا لقانون المنطق بل تبعًا لنزوات الخصومة والعداوة الخاصة بالشر. تجاسرْ وحاولْ أن تمنح نفسك لحيويتك الخاصة، وسوف تجد نفسك بين يدي الإجرام الخشنة. سوف أذهب إلى أمريكا لأكون مؤلفةَ كتاب حياتي، تقول؛ سوف أشيّد حياتي خارج الأرثوذكسية التي مُنحت لعائلتي، سوف أحارب ضد كل ما مُنح، من أجل الذاتية المتأججة بالعاطفة الواصلة حدّ الذروة، والفردانية في أفضل صورها- وانتهى بها الحال بدلاً من ذلك إلى دراما خارج سيطرتها. انتهى بها الحال إلى أن تكون مؤلفة لا شيء. ثمة طريق لأن تكون سيدًا على الأشياء، والشيء المُتسيَّد عليه هو الشخص نفسه.

لماذا من المستحيل جدًّا مجرد أن يعرف الإنسانُ ماذا يفعل؟

كان من الممكن أن تكون دلفين معزولة تمامًا عن العالم لولا سكرتيرة القسم، مارجو لويز. وهي مطلّقةٌ في الثلاثينات تشبه الفأر، وحيدة أيضًا، ذات كفاءة مهنية رائعة، خجول للغاية، بوسعها أن تفعل أي شيء من أجل دلفين وكانت أحيانًا تتناول ساندويتشاتها في مكتب دلفين فكانت بذلك المرأة الراشدة الوحيدة في أثينا التي صادقت رئيسة القسم. ثم هناك الكتّاب الأكاديميون. يبدو أنهم يحبون فيها بالضبط ما تكرهه الأخريات. لكنها لم تستطع تحمّلهم. كيف دخلت في خضم كل هذا؟ وكيف تخرج؟ وليس يقدّم أيّ عزاء تحويلها تلك التنازلات إلى دراما مثل صفقة فاوست، ولذلك ليس مفيدًا أن تفكر في نفسها وهي في متن هذا الخضم كما تحاول أن تفعل، مثل "منفى كونديرا الداخلي."

تبحث عن. كل شيء على ما يرام، ثم تبحث عن. افعلي كما يقول الطلاب- اسعَ إلى ما تريد! شابة، مليحة، أنثوية، جذابة، فرنسية عزباء [198] ناجحة أكاديميًّا، باحثة من مواليد باريس، ذات ثقافة باريسية، دكتوراه من 'ييل'، من ولاية ماساتشوستس. تبحث عن....؟ والآن فقط ضعي الكلمات على السطر. لا تختبئي من حقيقة مَن تكونين ولا تتهربي من حقيقة عمَّ تبحثين. امرأة مذهلة، لامعة، في قمة شهوتها الجنسية تبحث عن... تبحث عن... تبحث على وجه الدقة ودون تقديم تنازلات، عن...، عن ماذا؟

تكتب الآن في عجالة.

---

[198] - SWF، اختصار Single Woman French. سيدة عزباء فرنسية. (المترجمة)

عن رجل ناضج ذي عزيمة. أعزب. مستقلّ. ذكي. مفعم بالحياة. متحدٍّ. صريح. ذي تعليم رفيع. ذي روح مرحة. جذاب. ذي معرفة وحب لأمهات الكتب. حلو الحديث ومباشر الكلام. أنيق البنية والقوام. طوله خمسة أقدام وثماني بوصات أو تسع. له بشرة أبناء حوض البحر المتوسط. يُفضل أن يكون بعينين خضراوين. العمر غير مهم. ولكن يجب أن يكون مثقفًا. الشعر الرمادي مقبول، ربما حتى مُفضّل...

وعند ذلك، وعند ذلك بالضبط، اسِتُدعي ذلك الرجل الأسطوري بكامل هيئته على واجهة الشاشة وتكثّفت صورته على هيئة شخص ما كانت تعرفه بالفعل. بغتةً توقفت عن الكتابة. أُخذ التمرين فقط باعتباره تجربة، في محاولة لإرخاء قبضة الكبح قليلاً قبل أن تجدد مجهودها لتكتب إعلانًا غير مخفَّف بالحذر. بالرغم من ذلك، كانت مذهولة مما كانت قد وصلت إليه، بمَن خرجت به من ذلك، في لحظة كدرها لم ترد شيئًا أكثر من أن تمحو تلك الكلمات الأربعين عديمة الفائدة بأقصى سرعة ممكنة. والتفكير، أيضًا، في الأسباب العديدة، بما في ذلك خزيها، بأن تقبل الهزيمة كنعمة وأن تضيّع الأمل في أن تضع نفسها في المركز بالضلوع بمثل ذلك الإعلان المثير للشبهات على نحو قاتل... التفكير في أنها لو كانت قد مكثت في باريس لما احتاجت إلى هذا الإعلان، ما احتاجت إعلانًا لأي شيء، أيسر الأمور هو إيجاد رجل... التفكير في أن المجيء إلى أمريكا هو أجرأ الأشياء التي فعلتها على الإطلاق، ولكنها لم تدرك تلك الجرأة في وقتها. هي فقط فعلت ذلك كخطوة تالية لطموحها، وليس حتى الطموح الخام الخشن، بل الطموح الوقور، الطموح بأن تصبح مستقلة، ولكنها الآن قد سافرت مع العواقب. الطموح. المغامرة. السحر. سحر الذهاب إلى أمريكا. والاستعلاء. استعلاء أن تغادر وتعود إلى بلدها. المغادرة من أجل بهجة يوم العودة إلى الوطن، أن تنجح في العودة إلى الوطن منتصرةً. سافرتُ لأنني أردتُ العودة إلى الوطن يومًا لأجعلهم يقولون- ما هو الذي أريدهم أن يقولوه؟ "لقد فعلتْها. لقد نجحتْ دلفين. ومادامت قد فعلت ذلك فبوسعها أن تفعل أي شيء. الفتاة التي تزنُ مائة رطل وأربعة، وطولها بالكاد خمسة أقدام وبوصتان، في العشرين من عمرها، لوحدها، ذهبت إلى هناك لوحدها وهي تحمل اسمًا لا يعني أي شيء لأي إنسان، ومع ذلك فعلتْها ونجحت. بجهدها الخاص. لا أحد يعرفها. صنعت نفسَها بنفسها." ومَن أولئك الذين كنتُ أودّهم أن يقولوا ذلك؟ ولو كانوا قد قالوا، ما الفرق الذي سيصنعه ذلك؟ "ابنتنا في أمريكا..." أريدهم أن يقولوا، أن يضطروا أن يقولوا: "لقد فعلتها بمفردها في أمريكا." لأنني لم أستطع إنجاز نجاح فرنسي، نجاح حقيقي، ليس مع أمي التي ظلالها موجودة على كل شيء- ظلال منجزاتها ولكن، الأسوأ من ذلك، ظلال عائلتها، ظلال 'والينكورت'، المسمى باسم المكان الذي مُنح لهم في

القرن الثالث عشر على يد الملك 'سانت لويس' ومازال ذلك النسق سائدًا وفق مثاليات العائلة كما رسموها في القرن الثالث عشر. كم كرهت دلفين كل تلك العائلات، العراقة والنقاء الأرستقراطي للمقاطعة، جميعهم يفكر على النحو نفسه، ينظرون على النحو نفسه، يتشاركون في القيم الخانقة ذاتها والطاعة العمياء للدين. مهما كان لديهم من طموح، مهما دفعوا أبناءهم، إلا أنهم يُنشئون أطفالهم على الطاعة والابتهال للعائلة، الإيثار، النظام، الإيمان والاحترام- ليس احترام الفردانية (الهبوط نحو الفرد) بل احترام تقاليد العائلة. التفوق في الذكاء، التفوق في الإبداع، التفوق في التطوير العميق للنفس في منأى عنهم، التفوق في كل شيء، تلك كانت التقاليد الغبية لـ والينكورت!

كانت والدة دلفين هي التي جسّدت تلك القيم، وهي التي فرضتها على الأسرة، هي التي كبّلت ابنتها الوحيدة بتلك القيم منذ لحظة الميلاد وحتى القبر، هي التي نزعت من ابنتها القوة، منذ مرحلة المراهقة وإلى النهاية، لكي تهرب منها بأبعد ما تستطيع.

أطفال والينكورت من جيل دلفين إما وقعوا في الإذعان المطبق أو تمرّدوا بشناعة على نحو غير مفهوم، ونجاح دلفين كان ألا تفعل هذا ولا ذلك. خارجةً من خلفية تاريخية قليلون جدًا مَن بدءوا يتعافون منها، نجحت دلفين في تحقيق هروبها الفريد. بالمجيء إلى أمريكا، إلى جامعة 'ييل'، ثم 'أثينا'، كانت بالفعل قد تفوقت على أمها، تلك التي لم تستطع حتى أن تحلم بمغادرة فرنسا- من دون والد دلفين وأمواله، كاترين دي والينكورت بالكاد استطاعت أن تحلم، في الثانية والعشرين من عمرها، بأن تترك بيكاردي إلى باريس. لأنها لو حدث وغادرت بيكاردي وحصن عائلتها، فمَن ستكون إذن حينذاك؟ ماذا سيعني اسمُها وقتذاك؟ أنا غادرتُ لأنني أردتُ أن أحقق إنجازًا لا أحد يخطئه، ذاك أنني لا شأن لي بهم، تلك كانت أنا، وحدي... كانت تفكر في أن السبب وراء عدم استطاعتها الحصول على رجل أمريكيّ ليس لأنها لم تستطع الحصول على رجل أمريكي، بل لأنها لم تستطع فهم أولئك الرجال ولأنها لن تستطيع أبدًا أن تفهم أولئك الرجال، والسبب وراء عدم استطاعتها فهم أولئك الرجال هو أنها ليست طليقة اللسان. بكل زهوها بطلاقة لسانها، بكل طلاقة لسانها وفصاحتها، إلا أنها ليست طليقة اللسان! أظن أحيانًا أنني أفهمهم، فأجد أنني لا أفهمهم؛ ما لا أفهمه ليس هو ما يقولون، بل هو كل الذي لا يقولونه، كل ما يتعمدون ألا يقولوه. هنا في أمريكا هي تتعامل بخمسين بالمائة فقط من ذكائها، بينما في باريس كانت تفهم كل هفوة دقيقة. ما الفكرة في أن أكون ذكية هنا بينما، لأنني لستُ من هنا، أنا في واقع الأمر بكماء... كانت تفكر في أن الإنجليزية الوحيدة التي تفهمها بالفعل- لا، بل الأمريكية الوحيدة التي تفهمها- هي اللغة الأمريكية الأكاديمية، التي هي بالكاد أمريكية، التي هي لا

تقدر أن تهضمها، التي هي لن تستطيع أبدًا أن تهضمها، وهو ما يعني لماذا لن يكون هناك رجل أبدًا، ما يعني لماذا لن يكون هناك بيتٌ أبدًا، ما يعني لماذا كل حدوسها كانت خاطئة وسوف تكون دائمًا، ما يعني لماذا حياتها الفكرية المريحة التي نعمت بها في باريس وهي طالبة لن تكون حياتها أبدًا بعد الآن، ما يعني لماذا أنها لبقية حياتها سوف تفهم 11 بالمائة من هذه الدولة وصفرًا بالمائة من أولئك الرجال... كانت تفكر في أن كل مزاياها الفكرية قد أُخرِسَت بسبب ارتباكها وتشوشها[199]... كانت تفكر في أنها فقدت رؤيتها الخارجية، في أنها ترى الأشياء التي أمامها ولكن لا شيء خارج زاوية عينها، في أن ما هي داخله هنا ليس رؤية امرأة في ذكائها بل هو شيء مستوٍ مفرّغ، رؤية مسطحة أمامية مباشرة بالمطلق، رؤية شخص مهاجر أو مُزاحٍ من مكانه، شخص وضع في المكان الخطأ... كانت تفكر في: لماذا سافرتُ؟ بسبب ظلال أمي؟ من أجل هذا تخليتُ عن كل شيء كان في يدي، كل شيء كان مألوفًا، كل شيء جعل مني كائنًا دقيقًا وليس تلك الكتلة من الشك التي أصبحتُ عليها. كل ما أحببته تخليتُ عنه. الناس يفعلون ذلك حين تكون بلادهم مستحيلةً للحياة بها لأن الفاشيين قبضوا على الحكم ولكن ليس بسبب ظلال أمهاتهم... كانت تفكر، لماذا غادرتُ، ماذا فعلتُ، هذا ضربٌ من المستحيل. أصدقائي، أحاديثُنا، مدينتي، الرجال، كل الرجال الأذكياء. الرجال الواثقون الذين أستطيع أن أتحاور معهم. الرجال الناضجون الذين بوسعهم أن يتفهموا. المتزنون، العاطفيون، الرجال الذكور. الرجال الأقوياء غير الهيّابين. الرجال الواضحون الحقيقيون... راحت تفكر، لماذا لم يوقفني أحد، لماذا لا أحد قال لي شيئًا؟ بعيدة عن الوطن لأقل من عشر سنوات لكنها تبدو كأنما مرّ عمران كاملان بالفعل... كانت تفكر في أنها ابنة كاترين دي والينكورت الصغيرة لم تزل، وأنها لم تتغير قيد أنملة... كانت تفكر في أن كونها فرنسية في جامعة أثينا ربما جعلها هذا شاذة عن أبناء البلد، ولكنه لم يجعل منها أي شيء استثنائي فوق العادة بالنسبة لأمها ولن يجعلها أبدًا... كانت تفكر، نعم، من أجل هذا سافرتْ، لكي تتملص من ظلال أمها الصلبة المهيمنة التي تحجب النور عنها، وهذا ما يعوّق رجوعها، والآن هي بالضبط في اللامكان، في المنتصف، ليست هنا ولا هناك... كانت تفكر في أنها تحت وطأة فرنسيتها الغريبة هي بالنسبة إلى نفسها كما كانت دائمًا، في أن كل ما حققته فرنسيتُها الغريبة تلك في أمريكا هو أن جعلتها تكتسب أجانب تعساء غير مفهومين... كانت تفكر في أنها أسوأ حتى من أن تكون في المنتصف- إنها في منفى، من كل شيء، منفى عن الأم غبيّ

[199] - dépaysée، بمعنى التشوش والارتباك، وردت هكذا في الأصل بالفرنسية، مثلما الكثير من حوار دلفين روكس مع نفسها ورد بالفرنسية. كأنما يريد الكاتب أن يقول إن المرء حينما يناجي نفسه، تهيمن لغته الأم على تفكيره. وهذا طبيعي. (المترجمة)

الصنع، يفرض الوجع الذاتي- تجاهلت دلفين أن تلاحظ ذلك مبكرًا، في البداية، بدلاً من أن تعنون إعلان الزواج إلى جريدة نشرة نيويورك، كانت قد عنونته إلى مستلمي رسائلها السابقة، مستلمي معظم مراسلاتها- إلى أعضاء هيئة التدريس العشرة في قسم اللغة والآداب بجامعة أثينا. تغافلت أولاً عن أن تلاحظ تلك الغلطة وبعد ذلك، في لحظة شرودها الذهني، في حالتها المضطربة المرهقة عاطفيًا، تغافلت أيضًا عن أن تلاحظ أنها بدلاً من أن تضغط على زر المحو delete، أضافت خطأ تافهًا شائعًا إلى خطأ تافه شائع آخر بضغطها زر "إرسال" send. وبذلك، وعلى نحو لا يمكن معه تصحيح الخطأ أو استرجاعه، ذهبت نسختان إلى عناية كولن سيلك في بريده الإلكتروني وجهاز الفاكس خاصته، وليس إلى قسم الإعلانات المبوبة بنشرة نيويورك لمراجعة الكتب بل إلى كل عضو في هيئة القسم.

كانت الواحدة صباحًا حينما رن الهاتف. كانت قد هربت من المكتب منذ مدة- فرّت من مكتبها وهي تفكر في تجهيز جواز سفرها والهرب من البلد- وكانت قد مرت ساعات طويلة على موعد نومها، حينما رنّ الهاتف بالأخبار. كانت مكروبة للغاية بسبب ذيوع الإعلان دون قصد منها ما جعلها مستيقظة حتى ذلك الوقت تتجول في أنحاء شقتها، تمزّق خصل شعرها، تهزأ من وجهها في المرآة، تطوي يديها على طاولة المطبخ لتبكي منكفئة الرأس، وكأنما فزعت في نومها، كانت تقفز وتصرخ بصوت عالٍ: "هذا لم يحدث! لم أفعل ذلك!" ولكن مَن الذي فعل؟ في الماضي كان يبدو أن هناك بشرًا يحاولون جهدهم لكي يسحقوها، لكي يتخلصوا من الإزعاج الذي تسببه لهم، بشر غلاظ القلب تعلمت الطريقة الأصعب لتحمي نفسها ضدهم. ولكن الليلةَ لم يكن من أحد ليُعاتَب سواها: يدها هي التي نزعت فتيل الخراب.

مخبولةً بسعار الغضب، راحت تحاول أن تجد طريقة ما، أي طريقة، لكي تمنع حدوث ما هو أسوأ، ولكن في حالتها اليائسة الحائرة تلك لم يكن بوسعها إلا تخيل المسار الحتمي الوحيد للكارثة: الساعات تمرّ، الفجر يشقشق، تُفتح أبواب قاعة بارتون هول، كلّ واحد من زملائها بالقسم يدخل مكتبه، كلٌّ يفتح حاسوبه، ليجد هناك، مع استمتاعه بقهوة الصباح، إيميل إعلان الزواج المرسَل لكولن سيلك مرتين ذاك الذي لم تقصد أبدًا أن ترسله. سيُعاد قراءته مرة، مرتين، مرات ثلاث من قبِل كل أعضاء هيئة تدريس قسمها ثم يُعاد إرساله من جديد لكل مدرّس، بروفيسور، مدير، موظف، وطالب.

كل طالب في فصولها سوف يقرؤه. سكرتيرتها سوف تقرؤه. قبل أن ينتهي اليوم، سيكون رئيس الجامعة قد قرأه، وكل أمناء الجامعة. وحتى لو زعمت أن الإعلان كان

يُقصد به دعابة، لا شيء سوى نكتة داخلية، فلماذا يسمح الأمناءُ لمدبّجي النكات بالبقاء في كلية أثينا؟ خاصةً بعدما تُنشر نكتتها في صحيفة الطلاب، كما بالتأكيد سيحدث. وفي الصحيفة المحلية. بعد ذلك سوف تلتقطها الصحف الفرنسية.

أمُّها! الخزي الذي سيصيبُ أمَّها! وأبوها! خيبة الأمل التي ستصيبُ أباها! كل أبناء خالاتها الملتزمين في والينكورت- البهجة التي سيقابلون بها هزيمتها! كل الأخوال المحافظين بسخف والخالات المرائيات بسخف، المحافظين جميعهم على ضيق أفق الماضي الذي لم يُمس- كم سيسعدهم هذا وهم يجلسون جنبًا إلى جنب في الكنيسة! ولكن بفرض أنها فسّرت الأمر بأنها كانت تختبر الإعلان كصيغة أدبية، وحيدةً في مكتبها تلعب دون اكتراث مع إعلانات الزواج مثل... قطعة تجريبية من شعر الهايكو[200]. لن يفيد. تبرير سخيف جدًا. لا شيء سيفيد. أمُّها، أبوها، أشقاؤها، أصدقاؤها، أساتذتُها. جامعة 'ييل'. 'ييل'! أخبار الفضيحة سوف تصلُ الجميعَ من بين كل مَن عرفت، والعارُ سوف يتبعها بلا كلل إلى الأبد. إلى أين بوسعها أن تهرب بباسبورها؟ مونتريال؟ مارتينيك؟ وتكسب قوتها كيف؟[201] كلا، ليس في الحدود الفرانكوفونية الأبعد سيُسمح لها بأن تدرِّس بمجرد أن يسمعوا بإعلانها. الحياة ذات المكانة المهنية الرفيعة الصافية التي من أجلها خططت كل هذه الخطط، وعملت كل هذا الجهد الشاق، حياة الذهن غير المدنسة التي لا عيب فيها... فكرت أن تهاتف آرثر سوسمان. آرثر سوف يجد لها طريقة. بوسعه أن يلتقط الهاتف ويتكلم مع أي أحد. هو صلب، هو عنيف وداهية، له أساليب هي الأكثر ذكاءً ونفوذًا في عالم مثل أمريكا هي تعرف ذلك. الرجال ذوو السلطان مثل آرثر، مهما كانوا مستقيمين، إلا أنهم ليسوا محبوسين في صندوق الحاجة لأن يُخبَروا الحقيقة دائمًا. سوف يصل إلى حل يفسر كل شيء. سوف يكتشف ما يجب عمله. ولكن حين تخبره بما حدث، لماذا سيفكر بأن يساعدها؟ كل ما سيفكر فيه هو أنها أحبت كولمن سيلك بأكثر مما أحبته هو. غروره سوف يقوم بمهمة التفكير له ويقوده إلى أغبى الاستنتاجات. سيفكر كما قد يفكر أي إنسان: أنها متعلقة بكولمن سيلك، بأنها تحلم ليس بآرثر سوسمان، ناهيك عن رجال "الحفاضات" أو "القبعات"، بل بكولمن سيلك. سيتخيل أنها تهوى كولمن سيلك، فيغلق الهاتف ولا يتكلم معها أبدًا بعد ذلك.

اختصارًا للأمر. لكي تتجاوز عما حدث. لكي تحاول أن تكتسب رؤية كافية لتفعل الشيء العاقل. هي لم تُرد أن ترسله. هي كتبته، نعم، ولكنها كانت خجلة من إرساله

---

[200] - لون من الشعر الياباني يتكون من مقاطع قصيرة في أغلبها تصف جمال الطبيعة. (المترجمة)
[201] - راجع المقدمة للوقوف على أسلوب صوغ هذه الجملة. (المترجمة)

ولم تكن تريد أن ترسله فلم ترسله- ولكنه ذهب. الشيء نفسه حدث مع الخطاب الغفل من التوقيع- لم تكن تريد أن ترسله، حملته إلى نيويورك دون أية نية لإرساله، ولكنه ذهب. ولكن ما حدث هذه المرة أسوأ بكثير جدًا. هذه المرة كانت يائسة للغاية حتى أنها في الواحدة وعشرين دقيقة صباحًا رأت أن الشيء العاقل هو أن تهاتف آرثر سوسمان بصرف النظر عما سيفكر فيه. آرثر عليه أن يساعدها. عليه أن يخبرها ماذا عليها أن تفعل لكي تمحو ما فعلته. وعندئذ، بالضبط في الواحدة والثلث، بدأ الهاتف، الذي كانت تمسكه بيدها لكي تهاتف آرثر سوسمان، في الرنين. آرثر يكلمها!

لكنها كانت سكرتيرتها. "لقد مات،" قالت مارجو، وهي تصرخ بقوة لأن دلفين لم تكن متأكدة تمامًا مما سمعت. "مارجو- هل أنت على ما يرام؟" "لقد مات!" "مَن؟" "للتوّ سمعت الخبر. دلفين. الأمر شنيع. أنا أهاتفك لأن، كان عليّ، كان عليّ أن أكلمك. عليّ أن أخبرك بأمر بشع. أوه يا دلفين، الوقت فات، أعلم أن الوقت فات-" "كلا! ليس آرثر!" صرخت دلفين. "العميد سيلك!" قالت مارجو. "مات؟" "حادث مروع. شنيع للغاية." "أي حادث يا مارجو، ماذا حدث؟ أين؟ تكلمي ببطء. ابدئي من جديد. ما الذي تقولينه؟" "في النهر. مع امرأة. في سيارته. حادث تصادم." كانت مارجو الآن غير قادرة على أن تحافظ على تماسكها، بينما دلفين كانت مصعوقة جدًا حتى أنها، فيما بعد، لم تستطع أن تتذكر هل وضعت السماعة أم انفجرت في البكاء في سريرها أم أنها رقدت هناك تولول باسمه.

وضعت دلفين السماعة، ثم قضت أسوأ ساعات في حياتها.

بسبب الإعلان سوف يظنون أنها قتلته؟ سيعتقدون أنها أحبته بسبب الإعلان؟ ولكن ماذا عساهم يظنون لو أنهم رأوها الآن، تواصل السهرَ مثل أرمل؟ لا تستطيع أن تغلق عينيها، لأنها حين تغمض عينيها ترى عينيه، تلك العينين الخضراوين المحدّقتين، تنفجران. كانت ترى السيارةَ تنحرف عن الطريق، ورأسه يندفع للأمام، وفي لحظة التصادم، تنفجر عيناه. "كلا، كلا!" ولكن حين فتحت عينيها لكي توقف رؤيتها عينيه، كان كل ما رأته هو ما فعلته بالأمس والمسخرة التي سوف تنتج. كانت ترى خزيها بعينيها المفتوحتين، وتحطّم كولن بعينيها المغمضتين، وطوال الليل ظل بندول المعاناة يتأرجح بها من جهة إلى أخرى.

استيقظت على الحال نفسها التي نامت عليها من ثورة وانقلاب. لا تقدر أن تتذكر لماذا كانت ترتعش. تعتقد أنها ترتعش من كابوس. كابوس عينيه تنفجران. ولكن لا، لقد حدث هذا، إنه مات. والإعلان- حدث أيضًا. كل شيء قد حدث، ولا شيء يمكن عمله. كنت أريدهم أن يقولوا... والآن سوف يقولون: "ابنتنا في أمريكا؟ نحن لا نتكلم عنها.

هي لم تعد موجودة بالنسبة إلينا." حينما حاولت أن تتمالك نفسها وتجهز خطة للتصرف، لم يكن التفكير ممكنًا: وحده التشوش كان ممكنًا، البلادة اللولبية التي هي الرعب. إنها بعد الخامسة صباحًا بقليل. تحاول أن تغلق عينيها لتنام لكي يذهب كل ذلك بعيدًا، ولكن لحظةَ أغلقت عينيها، كانت هناك عيناه. تحدقان فيها ثم تنفجران.

ها هي ترتدي ثيابها. ها هي تصرخ. ها هي تخطو خارج بابها وكان الفجر بالكاد يشقشق. لا مكياج. لا مجوهرات. فقط وجهها المُروَّع بالرعب. مات كولمن سيلك.

حينما وصلت إلى حرم الجامعة لم يكن هناك أي إنسان. فقط الغربان. الوقت مبكر جدًّا والعَلم منكّسٌ لم يُرفع بعد. كل نهار تنظر إليه عند أعلى القاعة الشمالية، وكل صباح، حال رؤيتها علم أمريكا، كانت تشعر بشيء من الارتياح. لقد غادرت الوطن، تجاسرت وفعلت هذا- إنها في أمريكا! كانت راضية من جسارتها وحجم المعرفة التي لم تكن سهلة. لكن علم أمريكا لم يكن هناك، وهي لم تر أنه ليس هناك. هي لا ترى شيئًا سوى ما يجب أن تفعله.

لديها مفتاح قاعة بارتون فدخلت. دلفت إلى مكتبها. فعلت هذا. ثم تجمدت تنتظر. هي تفكر الآن. أوكي. ولكن كيف لها أن تدخل مكاتبهم لتصل إلى حواسيبهم؟ كان هذا ما يجب أن تفعله الليلة الماضية بدلاً من الهروب مذعورةً. لكي تستعيد ممتلكاتها[202]، لتنقذ اسمها، لكي تحبط الكارثة قبل أن تحطم مستقبلها، لابد أن تستمر في التفكير. التفكيرُ كان دائمًا عمادَ حياتها كلها. ماذا سوى التفكير كانت قد تدربت على فعله منذ بدأت دخول المدرسة؟ غادرت مكتبها ومشت في الدهليز. هدفها واضح الآن، تفكيرها حاسم. سوف تدخل فقط وتمحو الرسالة. من حقها أن تمحوها- فهي التي أرسلتها. ولكنها حتى لم تفعل ذلك. لم يكن ذلك عن قصد. ليست مسئولة. الرسالةُ أُرسِلَت وحسب. ولكن حين حاولت أن تدير مقبض كل باب، كانت الأبوابُ مغلقة. جربت أولاً مفتاح البناية، ثم مفتاح مكتبها، ولكن أحدهما لم ينفع. بالطبع لن ينفع. لم تنفع المفاتيح الليلةَ الماضية ولن تنفع الآن. بالنسبة للتفكير، هل كان بوسعها أن تفكر مثل أينشتين؟ التفكير لن يفتح الأبواب.

عادت إلى مكتبها، فتحت ملفاتها. تبحث عن ماذا؟ سيرتها الذاتية. لماذا تبحث عن سيرتها الذاتية؟ تلك نهاية سيرتها. تلك نهاية ابنتنا في أمريكا. ولأنها النهاية، جذبت جميع ملفاتها من الدرج ورمتها بعنف على الأرض. أفرغت الدرج بكامله. "ليس لنا ابنةٌ في أمريكا. ليس لدينا ابنة. لدينا أبناء فقط." الآن هي لا تحاول أن تفكر أن عليها أن

[202]- تقصد الإيميلات التي أرسلتها لزملائها بالخطأ. (المترجمة)

تفكر. بدلاً من ذلك، راحت تُلقي بالأشياء. كل ما كان مكوّمًا فوق مكتبها، كل ما يزيّن جدرانها- ما الفرق حين تتحطم الأشياء؟ لقد حاولت وأخفقتْ. إنها نهاية السيرة المهنية المعصومة من الخطأ وختام وقار السيرة الذاتية. "ابنتُنا التي في أمريكا أخفقت."

كانت تنشج حين التقطت هاتفَها لتخابر آرثر. سوف يقفز من فراشه ويقود سيارته مباشرة من بوسطن. في أقل من ثلاث ساعات سوف يكون في أثينا. على التاسعة سيكون آرثر هنا! لكن الرقم الذي طلبته هو رقم طوارئ الكلية المرسوم على ورقة لاصقة على التليفون. ولم يكن في نيتها طلب ذاك الرقم مثلما لم تكن تقصد أن ترسل الرسالتين. كل ما كان لديها هو الأمنية الإنسانية جدًّا لأن تُنقَذ.

لا تقدر أن تتكلم.

"هاللو؟" قال الرجل على الخط. "هاللو؟ مَن معي؟"

بالكاد أخرجتهما. أقصر كلمتين في أي لغة مما لا يمكن اختصارهما أكثر. اسمُ المرء. يتعذّر اختصاره ويتعذّر استبداله. كل هذا هو هي. كان هي. والآن هما الكلمتان الأكثر سخفًا في الوجود.

"مَن؟ بروفيسور مَن؟ لا أقدر أن أفهم ما تقولين يا بروفيسور."

"الأمن؟"

"تحدثي بصوت أعلى يا بروفيسور. أجل، أجل، هنا أمنُ حرم الجامعة."

"تعال هنا،" قالت دلفين كأنما في مرافعة دفاع، ومن جديد انفجرت في البكاء.

"حالاً. شيء فظيع حدث."

"بروفيسور؟ أين أنتِ؟ بروفيسور، ماذا حدث؟"

"بارتون." قالتها ثانيةً حتى يفهمها. "قاعة 'بارتون' 121،" أخبرته. "بروفيسور روكس."

"ماذا هناك يا بروفيسور؟"

"شيء فظيع."

"هل أنتِ بخير؟ ماذا جرى؟ ماذا هناك؟ هل أحدٌ هناك؟"

"أنا هنا."

"هل كل شيء على ما يرام؟"

"شخصٌ ما سطا على المكان."

"سطا أين؟"

"مكتبي."

"متى؟ بروفيسور، متى؟"

"لا أعلم. في الليل. لا أدري."

"أنتِ بخير؟ بروفيسور؟ بروفيسور روكس؟ هل أنتِ هناك؟ قاعة بارتون؟ متأكدة؟"

التردد. تحاول أن تفكر. هل أنا متأكدة؟ هل أنا؟ "بالقطع." تقول، وهي تنشج على نحو فاقد السيطرة الآن. "أسرِعْ، من فضلك! تعال هنا فورًا، أرجوك! شخصٌ ما سطا على مكتبي! الحالُ خرابٌ! الحال فظيع! الحالُ رهيب! أغراضي! شخص ما سطا على حاسوبي! أسرع!"

"عملية سطو؟ هل تعرفين مَن هو؟ هل تعرفين مَن سطا على مكتبك؟ هل هو طالب؟"

"العميد سيلك هو الذي سطا،" قالت. "أسرعْ!"

"بروفيسور- بروفيسور، هل أنتِ هناك؟ بروفيسور روكس، العميد سيلك مات."

"سمعتُ،" قالت. "أعرف أن الأمر فظيع،" ثم صرخت، صرخت في رعب من كل ما قد حدث، صرخت لفكرة ذاك الشيء الأخير جدًّا الذي فعله قبل أن يموت، وصرختْ من أجلها، من أجلها هي- وبعد ذلك، كان يوم دلفين مثل السيرك.

الخبرُ المذهل الخاص بموت العميد سيلك في حادث سيارة مع عاملة نظافة بكلية أثينا كان بالكاد قد بدأ يصل إلى آخر الفصول حينما بدأ ينتشر خبر السطو على مكتب دلفين روكس والإيميل الخدعة الذي حاول العميد سيلك أن يلفّقه قبل ساعات قليلة من الحادث القاتل. كان الناس حائرين للغاية ليصدّقوا كل هذا، حينما ظهرت حكاية أخرى، ظروف الحادث، انتشرت من البلدة إلى الكلية، فسببت المزيد من الحيرة لكل الناس. بسبب كل تفاصيل الحادث الوحشية، قيل إن الحكاية وردت من مصدر موثوق به: شقيق شرطي الولاية الذي اكتشف الجثمانين. وفق روايته، كان السبب وراء فقْد العميد السيطرة على السيارة، من المقعد المجاور له في السيارة، أن عاملة نظافة أثينا كانت تداعبه جنسيًا وهو على عجلة القيادة. هذا ما استنتجه البوليس من وضعية ثيابه ووضعية جثّتها وموقعها في السيارة حينما اكتُشف الحطام وانتشل من النهر.

معظم أعضاء الكلية، خصوصًا البروفيسورات الأكبر سنًّا الذين كانوا يعرفون كولمن سيلك معرفة شخصية منذ سنوات، رفضوا بادئَ الأمر تصديق هذه الرواية، وغضبوا للسذاجة التي تم بها قبول الحكاية باعتبارها حقيقة لا جدال فيها- قسوة الإهانة أذهلتهم. ولكن مع تقدم النهار وبينما حقائق إضافية راحت تتدفق حول حادث السطو، فضلاً عن روايات أخرى حول علاقة سيلك بالحارسة- تقارير من أشخاص عديدين كانوا قد شاهدوهما يتجولان معًا سرًا- أصبح من العسير على كبار الكلية "أن يظلّوا"- وفق

ما ورد بالصحيفة المحلية في اليوم التالي في قسم ‘ملامح من اهتمامات الناس’- "أن يظلوا على إنكارهم الكسير القلب."

وحينما بدأ الناس يتذكرون كيف أن لا أحد، قبل عامين، أراد أن يصدق أنه كان قد نعت طالبين أسودين من طلابه بالشبحين *Spooks*؛ حينما تذكروا كيف بعد تقاعده المخزي عزلَ نفسَه عن زملائه السابقين، كيف أنه حينما كان يُرى في المناسبات النادرة كان يبدو خشنًا وفظًّا حدّ الوقاحة مع مَن كانوا يُقبلون عليه ركضًا؛ حينما تذكروا كولمن في اشمئزازه الصارخ من كل شيء وكل شخص له علاقة بأثينا، قيل إنه نجح في أن يُغرّب نفسه عن أولاده... حسنًا، حتى أولئك الذين كانوا قد بدءوا يرفضون أية اقتراحات حول حياة كولمن الشخصية وصلوا إلى استنتاجات شائنة، الكبار الذين وجدوه أمرًا لا يُحتمل أن يفكروا على هذا النحو في رجل مثله له ثقله الفكري وقامته الرفيعة، أستاذ ذو حيثية، عميد ديناميكي بالغ الأثر، رجل نشط ساحر مازال معافًى صحيح البدن وعارمًا في سبعينه، أب لأربعة أبناء كبار رائعين، رجل مثل هذا يمكن أن يهجر كل الذي كان يقدّره وينزلق في هوّة سحيقة وموت فضائحي لا يليق إلا بدخيل شاذ مُبعَد- حتى أولئك الناس كان عليهم أن يتحوّلوا ذلك التحول الشامل الذي أعقب حادثة الـ *spooks* والتي لم تنتهِ وحسب بكولمن سيلك إلى تلك النهاية المُهلكة بل أدَّت أيضًا- أدَّت على نحو لا يُغتفر- إلى الميتة الشنيعة التي ماتتها فونيا فيرلي، المرأة الأُميّة تعسة الحظ في الثلاثينات من عمرها التي، كما عرف كل شخص، كان قد اتخذها في شيخوخته عشيقة له.

(5)

طقسُ التطهّر

جنازتان

جنازة فونيا كانت أولاً. طريق الصعود عاليًا حيث المقبرة فوق جبل 'باتل'، بالنسبة لي هو دائمًا مكانٌ مرعب من حيث القيادة عليه، موحش حتى في ضوء النهار، بغموض شواهد قبوره العتيقة وسكونها والوقت الذي لا يمرّ هناك، مكان مشئوم مطليٌّ بظلال محميةِ غابةِ الولاية التي تجاور ما كان في الأصل أرضًا لدفن الهنود- واسع كثيف الأشجار، قفرٌ منثور بالأحجار والصخور الضخمة تخترقه شرايين شلالات مياه زجاجية تترقرق بين سلاسل صخور مغمورة مسكونة بالذئاب البرية، والقطط البرية، وحتى الدببة السوداء، وقطعان الظِّباء التي يقال إنها تكثر على نحو استعماريٍّ ضخم. اشترت المرأتان مالكتا مزرعة الألبان أرضَ مقبرة فونيا عند الحافة البعيدة للغابة السوداء ونظّمتا تلك المراسمَ الجنائزية البسيطة جوار المقبرة. المرأةُ الأكثر ودًّا بينهما، تلك التي قدّمت نفسها باسم 'سالي'، ألقت كلمة التأبين الأولى، وهي تقدم شريكتها في المزرعة وأبناءها، ثم قالت: "جميعُنا عشنا مع فونيا في المزرعة، والسبب في أننا هنا الآن هذا الصباح هو السببُ في أنكم هنا: لكي نحتفل بالحياة."

تكلمت في صوت مُدوٍّ جليٍّ، امرأةٌ ضئيلةُ الحجم ودودةٌ مستديرةُ الوجه في فستان طويل منسدل، قررت على نحو مرح أن تلتزمَ بالمظهر الذي يسبب أقل كمٍّ من الكدر بين الأبناء الستة خلفاء المزرعة، أولئك الذين جاءوا في ثياب منمّقة، يحمل كل منهم باقةً من الزهور سوف تُلقى على النعش قبل أن يُسجّى داخل الأرض.

استأنفت 'سالي' تقول: "مَن منا سوف يقدر أبدًا أن ينسى ضحكتها الدافئة؟ كانت فونيا تُغرقنا في الضحك سواء بدافع العدوى من ضحكتها أو من الأمور التي كانت تستنتجها. وكانت أيضًا، كما تعلمون، إنسانًا عميق الروح. كانت شخصية روحانية." ثم أعادت قولها: "كانت فونيا تبحث عن الروحانية- الكلمةُ الأفضل التي تصف معتقداتها هي 'وحدةُ الروح'. إلهُها كان الطبيعة، وعبادتُها الطبيعةَ كانت تمتد إلى حبها لقطعاننا الصغيرة من الأبقار، لكل الأبقار، حقًّا، لأكثر الكائنات إحسانًا وخيرًا، تلك الكائنات التي تُعتبر الأمَّ بالرضاعة لكل أبناء الجنس البشري. كان لدى فونيا احترامٌ هائل لمؤسسة عائلة مزرعة الألبان. مع 'بيج' ومعي أنا ومع أبنائنا، وأسهمت فونيا في محاولة الحفاظ على عائلة مزرعة الألبان حيةً في نيو-إنجلاند بوصفها الجزء الحيوي من إرثنا الثقافي.

ربُّها كان كل شيء تراه حولك في مزرعتنا وكل شيء تراه حولك في جبال 'باتل'. لقد اخترنا هذا المكانَ الهاجع المريح لضريح فونيا لأنه كان مقدسًا أبدًا منذ كان السكان الأصليون القدامى يقدمون الوداع الأخير لأحبتهم هنا. الحكايا الرائعة التي قصّتها فونيا لأطفالنا- حول طيور السنونو في الحظيرة والأبقار في الحقول، عن الصقور ذات الذيول الحُمر التي تحلّق في السماء فوق حقولنا- كانت من نفس نوع الحكايات التي ربما سمعتموها على قمة الجبل هذه تحديدًا قبل أن يختلّ التوازن البيئي في بيركشاير مع مجيء..."

مجيء مَن تعرفون الذي أقصد. بقية كلمة التأبين التي اتخذت الطابع البيئي المنادي بالرجوع إلى الحياة في صورتها البسيطة جعلت من المستحيل عليّ أن أظل منتبهًا لما تقول.

كلمة التأبين الثانية كانت لسموكي هولينبيك، نجم أثينا الرياضي السابق الذي كان مشرفًا على الوحدة الرياضية، رئيس فونيا،- و كما علمت من كولمن، الذي كان قد وظّفه- كان لفترة من الوقت أكثر قليلاً من مجرد رئيس. في جناح الحريم الخاص بسموكي حيث تجنّدت فونيا عمليًا منذ يومها الأول في طقم حراسته، ومن جناح الحريم ذاك ذاته طُردت فونيا فجأة حينما اكتشف 'لِس فيرلي' بطريقة ما ماذا كان سموكي يفعل معها.

لم يتكلم سموكي، مثل سالي، عن نقاء فونيا الوجودي ككائن طبيعي؛ بل من خلال موقعه كعضو في مجلس الجامعة، ركّز على الكلام عن كفاءتها كعاملة نظافة، بدءًا من تأثيرها على الطلاب تحت سن التخرج ممن كانت تنظف غرف نومهم.

"ما تغيَّر في الطلاب مع وجود فونيا هناك،" قال سموكي، "كان بسبب أنهم وجدوا فيها إنسانًا، كلما رأوها، تحييهم بابتسامة وبـ هالو، وكيف حالك، وهل تغلبت على نزلة البرد، وكيف كانت الحصص اليوم. كانت دائمًا تمنح من وقتها دقيقةً تتكلم فيها مع الطلاب وتكون ودودةً معهم قبل أن تبدأ عملها. مع الوقت، لم تعد غير مرئية بالنسبة إلى الطلاب، لم تعد مجرد عاملة نظاقة، بل شخص آخر يكنّون له الاحترام. كانوا دائمًا أكثر وعيًا، نتيجة معرفتهم فونيا، بألا يتركوا وراءهم الفوضى لكي تلتقطها فونيا. على النقيض من ذلك، قد تجد عاملة نظافة أخرى لا تصنع مجرد تواصل بالعيون مع أحد، بل تضع مسافة بينها وبين الطلاب، ولا تهتم أبدًا بما يفعله الطلاب ولا تود أن تعرف ماذا يفعلون. حسنًا، على كل حال، لم تكن فونيا هكذا- أبدًا. حالة غرف نوم الطلاب، كما لاحظنا، تتأثر مباشرة بطبيعة العلاقة بين الطلاب وعامل النظافة. عدد النوافذ المكسورة التي علينا إصلاحها، عدد الحفر في الجدران التي علينا ترميمها، تلك التي تحدث حينما يركلها الطلاب أو يدفعونها، لتُخرج إحباطاتهم منهم... أيًا ما كانت الحال.

الكتابات الساخرة على الحوائط. السلم الموسيقي الكامل. حسنًا، لو كانت هي بناية فونيا، لن تجد أيًا من ذلك. تجد بدلاً من ذلك بنايةً تساعد على انتاجية طيبة، للتعليم وللمعيشة وللشعور بأنها جزء من مجتمع أثينا..."

أداءٌ لامع لأقصى حد مع هذا الطول في القامة، والشعر الأجعد، لرجل عائلة شاب ووسيم ذاك الذي سبق كولن في عشق فونيا. التواصل الجنسي مع عاملة حراسة سموكي البارعة لم يعد قابلاً للتخيل، من خلال ما كان يخبرنا به، بأكثر مما فعلت حكايات سالي حول وحدة الوجود. "في الصباح،" قال سموكي، "كانت فونيا تهتم بالقاعة الشمالية ومكاتب الإدارة هناك. رغم إن روتينها كان يتغير على نحو طفيف من يوم إلى يوم، إلا أن ثمة أشياء أساسية لابد من أدائها كل نهار، وكانت تؤديها على النحو الممتاز. سلال النفايات كانت تُفرّغ، المراحيض، التي كان منها ثلاثة في تلك البناية، كانت تُرتَّب وتُنظّف. المسحات المبتلة كانت تظهر وقت الضرورة. المكنسة الكهربائية كانت تجوب المناطق المكتظة بالطلاب كل يوم، وفي الأماكن قليلة الزحام مرة كل أسبوع. التلميع من الغبار من الأساسيات الأسبوعية. الشرّاعات في نطاق البوابة الأمامية والخلفية كانت تنظفها فونيا تقريبًا كأحد المهام الأساسية اليومية، تبعًا لضغط الزحام. كانت فونيا حاذقة للغاية، وتولي اهتمامًا بالغًا للتفاصيل. ثمة أوقات بعينها بوسعك أن تدير فيها المكنسة الكهربائية وأوقات أخرى لا تقدر- ولم تكن هناك ولا مرة واحدة، ولا مرة، شكوى بهذا الشأن من فونيا فيرلي. بسرعة فائقة كان بوسعها أن تحدد أفضل وقت لتأدية كل مهمة بأقل قدر ممكن من الإزعاج المترتب."

من بين الأربعة عشر شخصًا، عدا الأطفال، الذين أحصيتهم حول المقبرة، كانت هناك جماعة من الجامعة تمثّل فقط سموكي ومجموعة من زملاء فونيا في العمل، أربعة رجال من الصيانة يرتدون معاطفَ ورابطاتِ عنق كانوا يقفون صامتين ينصتون إلى المديح في عملها. بقية المعزّين كانوا إما أصدقاء بيج وسالي أو أناسًا من الجوار ممن كانوا يشترون حليبهم من المزرعة وحدث أن تعرفوا على فونيا من خلال زياراتهم هناك. سيريل فوستر، مدير مكتب بريد بلدتنا، والجندي المتطوع في قسم مكافحة الحريق، كان هو الشخص المحليّ الوحيد الذي تعرفتُ عليه. سيريل كان يعرف فونيا من مكتب بريد القرية الصغير حيث كانت تذهب مرتين في الأسبوع للتنظيف وحيث التقى بها كولن هناك.

ثم كان هناك والد فونيا، رجلٌ ضخم مسنٌّ أعلنتْ سالي عن حضوره في كلمة رثائها. كان جالسًا على كرسي مقعدين على بعد قدم واحد من النعش، تلازمه امرأة شابة، ممرضة فلبينية أو مرافقة، كانت تقف وراءه مباشرة ووجهها ظلّ دون أي تعبير

طوال مدة مراسم التأبين، رغم أنه كان يخفض جبهته بين يديه وبين الحين والحين يستسلم للدموع.

لم يكن هناك أحد أستطيع أن أحدده كمسئول عن طقس تأبين فونيا على الإنترنت ذاك التأبين الذي قرأته في المساء السابق، منشورًا على صفحة مجموعة جامعة أثينا البريدية على الإنترنت. الإعلان كان معنونًا على هذا النحو:

من: clytemnestra@houseofatreus.com[203]

إلى: مجموعة مناقشات الكلية

الموضوع: موت إحدى الفونيات[204]

التاريخ: الخميس 12 نوفمبر 1998

عثرتُ عليه مصادفةً حينما، بدافع الفضول، كنت أفحص صفحة مناقشات الكلية لأرى ما إذا كانت جنازة العميد سيلك سوف تظهر تحت باب الأحداث القادمة. لماذا هذا العنوان البذيء؟ أمقصودٌ به نكتة؟ مزحة؟ أليست تدل على انغماس مَرضيّ في نزوة سادية، وهل كان ذلك تصرفًا محسوبًا أم غدرًا؟ هل يمكن أن تكون دلفين روكس هي التي نشرته؟ إحدى جرائمها الأخرى التي لن تُنسب إليها؟ لا أظن ذلك. ليس هناك ما تجنيه من وراء ما يُمليه عليها إبداعها أبعد من حكاية السطو على مكتبها، وثمة الكثير لتخسره دلفين لو أن عنوان البريد الإلكتروني: clytemnestra@houseofatreus.com قد اكتشِف بطريقة ما أنه من بنات أفكارها. علاوة على ذلك، من خلال الدليل الذي في اليد، لا شيء ماكرًا أو تدبيريًا في أسلوب تآمر دلفين النموذجي- مكائدُها تضرب بعنف وبرعونة وعلى نحو ارتجالي، بهيستيرية تافهة، على نحو غُفل من التفكير خلوٍ من النضوج مما يُنتج تصرفاتٍ خرقاءَ تبدو فيما بعد غير منطقية حتى بالنسبة لمن صنعتها: هجوم مضاد يفتقر إلى كل من الإثارة والحسابات الدقيقة التي يجب ان تكون لأستاذة صارمة، أيًا ما كانت عواقبها فاحشة.

---

[203] - From: clytemnestra@houseofatreus.com
To: fac.discuss
Subject**: death of a faunia**
Date: Thur 12 Nov 1998

[204] - من الصعب ترجمة العبارة بدقة للعربية. وردت بالإنجليزية هكذا: Death of a faunia. الأعلام من أسماء الناس لابد أن تبدأ بحروف كبيرة Capital letters، وألا يسبقها حرف التنكير a. وهو ما لم يحدث في العبارة. حيث تم تنكير فونيا؛ كأنها "شيء" وليست إنسانًا، وهو بالطبع مقصود لتحقير فونيا، وكرّس هذا التوجه عدم تكبير أول حروفها. في اللغة الاعتيادية تُكتب العبارة هكذا Death of Faunia. راجع المقدمة حول أسلوبية فيليب روث. (المترجمة)

كلا، كان هذا لونًا من الإيذاء أكبر مما يمكن أن ترتكبه دلفين، كان أكثر فنيّةً، أكثر ثقةً، أكثر حِرفيًّةً وشيطانيًّةً بكثير- كان ترقيةً هائلةً وتطوّرًا للسمّ. وبمَ يوحي ذلك الآن؟ إلى أين سينتهي هذا الرجمُ العلني؟ إلى أين ستنتهي تلك السذاجات؟ كيف لأولئك الناس أن يظلوا يرددون هذه القصة التي أذاعتها سكرتيرة دلفين روكس- القصة الواضحة الزيف، الجليّة الكذب، كيف لأي إنسان منهم أن يصدق هذا الهراء؟ وكيف يمكن إثبات أن للأمر أية صلة مع كولمن؟ لا يمكن أن يُثْبَت شيء. لكنهم صدقوا الأمر على كل حال. صدقوه برغم كل ما يحمل من حمق- صدقوا أنه قام بالسطو على مكتبها، سطا وفتح الملفات، وأنه سطا على حاسوبها، وراسل زملاءها من إيميلها الخاص- صدقوا القصة، هم يريدون أن يصدقوا، فلم يطيقوا صبرًا لترديدها. حكايةٌ لا معنى لها، غير قابلة للتصديق ومع هذا لا أحد طرح أبسط الأسئلة. لماذا يكسر الرجل مكتبها فيلفت بهذا الانتباه إلى أنه قام بالسطو بينما كان يريد وحسب أن يقوم بقرصنة إيميل؟ لماذا يقوم بصياغة إعلان الزواج بهذه الصياغة بالذات بينما تسعون بالمائة من الذين قرءوه لا يمكن بحال أن يظنوا أن له أية علاقة بكولمن؟ مَن، فيما عدا دلفين روكس، سوف يقرأ ذلك الإعلان ويفكر في كولمن؟ لكي يفعل ما زعمت دلفين أنه فعله، فلابد أن يكون مجنونًا. ولكن أين الدليل على أنه مجنون؟ أين تاريخ السلوك الجنوني؟ كولمن سيلك، الذي قلبَ الكلية رأسًا على عقب بيد واحدة- ذاك الرجل مجنون؟ ممتلئٌ بالمرارة، غاضبٌ، معزولٌ، نعم- ولكن مجنون؟ الناس في أثينا يعرفون تمامًا أن تلك لم تكن الحال ولكن، كما في واقعة الـ*Spooks*، تصرفوا بكل إصرار كما لو كانوا لا يعرفون. لمجرد أن يجعلوا التهمة مثبتة. أنْ تُنصتَ للادعاءات يعني أنْ تصدقها. لا دافع ضروريًّا لارتكاب الجريمة، لا منطق ولا سببًا كان مطلوبًا. المطلوب فقط شعار ملصوق على رقعة. الرقعة المكتوبة هي الدليل. الرقعة هي المنطق. لماذا فعل كولمن سيلك هذا؟ لأنه 'س'، لأنه 'ص'، أمّا لأنه كلاهما. أولاً عنصريٌّ والآن عدو النساء. الزمنُ كان متأخرًا جدًّا في القرن لينعتوه بالشيوعيّ[205]، رغم أن ذلك الأسلوب اعتاد أن يحدث. سلوكٌ مُعادٍ للمرأة ارتكبه رجلٌ كان بالفعل قد أثبت أنه قادرٌ على التفوّه بتعليق عنصري شرير ضدّ طالبة غير محصنة مهاجمتها سهلة. ذلك يفسر كل شيء. ذلك والجنون.

شيطان المكان الصغير[206]– الاغتياب، الغيرة، القسوة، السأم، الأكاذيب. لا، السموم ضيقة الأفق لا تفيد. الناس هنا ضجرون، إنهم حسودون، حياتهم هي مثلما هي ومثلما

---

205 - يقصد أن الشيوعية كانت قد سقطت مع نهاية ثمانينيات القرن الماضي. بينما أحداث الرواية في نهاية التسعينيات. (المترجمة)

206 - The Devil of the Little Place. عبارة نحتها فيليب روث يقصد بها كل النوازع الإنسانية السلبية التي قد تُفسد مكانًا صغيرًا مثل كلية أثينا، في بلدة صغيرة ترقد آمنة بعيدا عن صخب المدينة. (المترجمة)

سوف تكون دائمًا، وهكذا، بدون مساءلة الحكاية بجدية، يرددونها- في التليفون، في الشارع، في الكافيتريا، في الفصل. يرددونها في البيت لأزواجهن ولزوجاتهم. ليس وحسب أنه بسبب الحادث لم يكن هناك وقت لإثبات أن الحكاية كذبة سخيفة- بل في المقام الأول لولا الحادثة لما استطاعت أن تؤلف دلفين تلك الكذبة. ولكن موته كان حظّها الطيب. موته كان خلاصّها. الموتُ تدخّل ليُبسّط كل شيء. كل شك، كل ريبة، كل الهواجس أزيحت جانبًا على يد ذلك المستخِفّ الأعظم بهم جميعًا، الذي هو الموت.

أمشي إلى سيارتي وحيدًا بعد جنازة فونيا، مازلتُ لا أجد سبيلاً لمعرفة مَن بالكلية قد أصابه انحرافُ العقل ليستحضر روح كليتيمنسترا[207] في إيميل الخبر- تلك الصورة الأكثر شيطانية في الفن، الصورة الإلكترونية، بسبب مجهولية مصدرها- ليس لديّ أدنى فكرة عمّا يمكن لأي شخص، أي إنسان، أن يخرج به من نشره معلومات مجهولة المصدر. كل ما كنت أعرفه على وجه اليقين هو أن جرثومة الحقد كانت محلولة العقال، وحينما كانت إدارة كولمن في أوجها، لم يكن هناك ذلك العبث الذي يجعل شخصًا ما يخرج بتلك المشاهد الساخطة. لقد تفشّى وباءٌ في أثينا- هكذا كان يسير تفكيري فورًا إثر موت كولمن- وما الذي بوسعه أن يحتوي انتشار الوباء؟ كان قد انتشر. الجرثومة تحررت من أسرها. انطلقت في الأثير. في القرص الصلب[208] الكوني، أبديّة وغير قابلة للمحو، تلك علامة الشر في المخلوق البشري.

الناسُ جميعُهم كانوا يكتبون كتاب Spooks الآن- كل الناس، حتى الآن، إلا أنا.

> سأطلب منكم أن تفكروا [صفحة مناقشات الكلية[209] بدأت النشر] في أشياء ليس من المبهج التفكير فيها. ليس فقط في الموت الوحشي لامرأة بريئة في الرابعة والثلاثين، وهو أمر شنيع بما يكفي، ولكن في ظروف الميتة المرعبة، وفي الرجل الذي، على نحو فنيٍّ تقريبًا، دبّر تلك الظروف ليكمل دائرة الانتقام ضد كلية أثينا وزملائه السابقين.
>
> بعضكم ربما يعرف أنه في الساعات التي سبقت مسرحة كولمن سيلك لحادث الانتحار هذا- لأن ذلك هو الدور الذي أدّاه هذا الرجل تلك الليلة على الطريق العام عن طريق الانحراف بالسيارة عن الطريق نحو الحاجز

---

[207] - Clytemnestra في الميثولوجيا الإغريقية هي زوجة أجاممنون ملك مملكة اليونان القديمة، ويدور الشك حول تسببها في مقتل زوجها الملك، كما ورد بالإلياذة. وهو الاسم الذي ورد في عنوان البريد الإلكتروني الذي أرسل خبر موت فونيا إلى مجموعة المناقشات بالكلية. (المترجمة)

[208] - Hard Disk، مصطلح خاص بالحاسوب يحمل الملفات والبرامج بوصفه مكان حفظ الذاكرة. يقصد روث أن الوباء انتشر في ذاكرة الكون. (المترجمة)

[209] - مجموعة بريدية ينشؤها على الإنترنت مجموعة من الناس لهم اهتمام مشترك ليتبادلوا الآراء حول موضوع ما. والمفترض في الرواية أن طلاب كلية أثينا أنشأوا مجموعة نقاش بعنوان clytemnestra@houseofatreus.com، وهو الإيميل الذي أرسلوا منه خبر موت فونيا. (المترجمة)

ثم داخل النهر- كان قد سطا بالقوة على مكتب الكلية في قاعة بارتون، ونهب الملفات، وأرسل بالبريد الإلكتروني رسالة جماعية زعم أنها كُتبت بواسطة أستاذة في الكلية مقصود بها تعريض مكانتها للخطر. الضرر الذي أوقعه بها وبالكلية كان تافهًا. لكن الإعلام بذلك التصرف الصبياني الحقود من سطو وتزييف كان هو التصميم نفسه، النزعة نفسها التي فيما بعد في المساء- بعدما تكثّفت على نحو وحشي- أوحت إليه في وقت متزامن بأن يقتل نفسه بينما يقتل بدم بارد حارسة بالكلية تلك التي كان قد أغواها على نحو بهيمي، قبل عدة شهور، لكي تخدم نوازعه الجنسية.

تخيلوا، إذا ما أردتم، مأزق هذه المرأة، هروبٌ في عمر الرابعة عشر، تلك التي انتهى تعليمها في العام الثاني من المدرسة الثانوية والتي، لبقية عمرها القصير، ظلت أميّة عاجزة عن القراءة. تخيّلوا نقاشها مع مكائد بروفيسور جامعي متقاعد كان، خلال الستة عشر عامًا كأكثر عمداء الكلية استبدادًا وأوتوقراطية، يسيطر على أثينا أكثر مما يفعل رئيس الجامعة. أي فرصة كانت لديها لتقاوم جبروته الفائق؟ وفيما كانت خاضعة له، وجدت نفسها مُستعبدةً لقوته الذكورية المنحرفة التي تفوق قوتها بمراحل، أية فرصة يمكن أن تنالها تلك المرأة لكي تسبر غور النوايا الانتقامية التي من خلالها تم استغلال جسدها المنهك بالعمل الشاق من قِبله، أولاً في الحياة ثم بعد ذلك في الموت؟

من بين كل الرجال غلاظ القلب الذين استعبدوها بالتتابع، من بين كل الرجال القساة، الطائشين، النهمين الذين لا يشبعون أولئك الذين عذّبوها وانتهكوها وهشّموها، لم يكن ثمة مَن كان مقصده منحرفًا بالحقد القاسي مثل الرجل الذي سجّل رميته في قلب استقرار كلية أثينا لكي يأخذ إحدى مستخدماتها ليفرغ فيها انتقامه، وبأكثر الطرق حسيّةً مما أمكنه ابتكارها. على لحمها. على أطرافها. على أعضائها التناسلية. في رحمها. الإجهاض المدنّس الذي أُجبرت عليه من قِبله في بداية العام- والذي دفعها لمحاولة انتحار- هو الوحيد ضمن الكثيرين من مرتكبي الانتهاكات التي مورست على حقل جسدها المخرَّب. نحن نعرف الآن الصورة المروّعة لمشهد القتل، الجلسة الخليعة التي رُتّبت لفونيا لملاقاة حتفها، كل ما سُجّل في الصورة الوحيدة التي لا تُمحى، عبوديتها، تهميشها وتبعيتها (ولو مددنا الحبل على استقامته، عبودية وتبعية مجتمع

الجامعة كافة) لحقده الساخط. نحن نعلم- نشرع في أن نعلم، كحقائق رهيبة تنسلّ من تحقيقات الشرطة- أن علامات الكدمات على جثمان فونيا المشوّه ليست كلها نتاج ارتطامات الحادث القاتل، رغم كارثيته. كانت هناك بقعٌ مزرقّة اكتُشفت عند زوايا ردفيها وفخذيها لا علاقة لها بالحادث، ورضوض وجروح تمّ علاجها قبل الحادث ببعض الوقت، حدثت بوسائل مختلفة: إما بأداة حادة أو بقبضة بشرية.

لماذا؟ كلمة صغيرة للغاية، ولكنها ضخمة بما يكفي لتدفعنا للجنون. ولكن عقلاً شريرًا على نحو مَرَضيّ مثل عقل قاتل فونيا ليس من اليسير أن يُكشَف. عند جذور الشهوة التي تسوق هذا الرجل، ثمة ظلام لا سبيل إلى فهمه، ذاك أن أولئك الذين ليسوا قُساةً بالفطرة أو انتقاميين ميّالين للثأر بالتخطيط- أولئك الذين تصالحوا مع القيود التي تفرضها المدنيةُ على كل ما هو فجٍّ غير متحضر متغلغل فينا جميعًا- لا يمكنهم أبدًا أن يفهموا ذلك. قلبُ الظلام الإنساني لا يُفسَّر. ولكن حادثَ سيارتهما تلك لم يكن حادثًا، كما أعرف، على قدر ثقتي بأنني أعرف أنني أتشارك في الأسى مع كل مَن تفجّع على موت فونيا فيرلي أثينا، تلك التي بدأ قمعُها منذ أيام براءتها الأولى واستمر حتى لحظة موتها. الحادثُ لم يكن حادثًا: بل هو ما تاق كولمن سيلك إلى فعله بكل جبروته. لماذا؟ هذه الـ"لماذا" بوسعي إجابتها وسوف أجيبُ عنها. لكي يُبيد ليس وحسب كلاً منهما، بل لكي يُبيد، معهما، كلَّ تاريخه معها بوصفه معذِّبَها. كان هذا لكي يمنع فونيا من فضحه، ذاك الـ'كولمن سيلك' الذي أخذها معه إلى قاع النهر.

ويُترك المرءُ ليتخيل كم شائنةٌ هي تلك الجرائم التي كان عازمًا على أن يُخفيها.

في اليوم التالي تمّ دفن كولمن جوار زوجته في حديقة المقبرة المنسّقة عند مستوى البحر الأخضر عند حدود الحقول الرياضية الخاصة بالجامعة، عند قاعدة بستان شجر السنديان خلف القاعة الشمالية جوار برج الساعة السداسية الشكل. لم أستطع النوم الليلة السابقة، وحين استيقظتُ ذلك الصباح، كنتُ مازلتُ منزعجًا من الحادث ومن المعاني المشوهة التي بدأت تنطلق وتُذاع على العالم حتى أنني لم أستطع أن أجلس بهدوء بما يكفي لمجرد احتساء قهوتي. كيف بوسع إنسان أن يلملم ويطوي ويحجّم كل تلك الأكاذيب؟ حتى لو استطعت أن تثبت أن قولاً ما كان كذبة، في مكان مثل أثينا،

بمجرد أن تنتشر هناك، فإنها تبقى. بدلاً من أن أستمر في التجول في أرجاء البيت على نحو قلق حتى يحين وقت التوجه إلى المقبرة، ارتديتُ رابطة العنق والجاكيت ونزلتُ إلى شارع البلدة لأتسكع هناك- هناك حيث يمكنني أن أعالج وهمي بأن ثمة ما يمكن عمله إزاء تقززي مما يحدث.

وإزاء صدمتي. لم أكن مستعدًا بعد للتفكير في كولمن كـ ميّت، ناهيك عن أن أراه يُدفن. وكذلك لم أكن مستعدًا بعد للتفكير في كل شيء آخر على انفراد، الموت في حادث غريب لرجل قوي، صحيح البدن في سبعينه، كل ذلك يحمل كدره البغيض في ذاته- كان يمكن على الأقل أن يغدو الأمرُ أكثر معقولية بما يمكن تحمله لو كانت ثمة نوبةٌ قلبية أو سرطان أو جلطة. ما هو أكثر، أنني كنتُ مقتنعًا وقتها- كنتُ مقتنعًا بمجرد أن سمعتُ الأخبار- بأنه من المستحيل للحادث أن يقع دون وجود ‹لِس› فيرلي وشاحنته بمكان ما في الجوار. بالطبع لا شيء يمكن أن يصيب أي شخص، عصيٌّ على أن يحدث، ولكن مع وجود ‹لِس› فيرلي في الصورة، مع اعتباره المسبب الرئيسيّ، ألا يمكن أن يعطي هذا بصيصًا من التفسير لذلك الحتف العنيف، في كارثة كتلك، لزوجة فيرلي السابقة المستهترة وعشيقها الذي أثار سخطه فتربص به فيرلي الذي استحوذت عليه فكرةُ الانتقام؟

بالنسبة إليَّ، لم يبدُ الوصول إلى ذلك الاستنتاج على الإطلاق بدافع من عدم التحمس لقبول ما لا يمكن تفسيره من الأمر- رغم أنه بدا كذلك بالنسبة إلى شرطة الولاية بعد دفن كولمن، حينما مشيتُ إلى الضابطين اللذين كانا أول من حضر إلى مسرح الحادث واكتشفا الجثتين. فحصُهما لحادث السيارة لم يسفر عن شيء يعزز السيناريو الذي تخيلته أنا. المعلومات التي أمددتُهما بها- حول تربص فيرلي بفونيا، حول تجسسه على كولمن، حول المواجهة شبه العنيفة، بالضبط خلف باب المطبخ، حينما خرج عليهما فيرلي من الظلام وهو يزأر- كل شيء قلتُه تمت كتابته بصبر، مثلما تم أخذ اسمي، وعنواني، ورقم هاتفي. شكراني بعدها على تعاوني، مؤكدين أن كل شيء سيتم حفظه بسرية تامة، ثم أخبراني بأنهما لو احتاجا إليّ فسوف يتصلان بي.

ولم يتصلا أبدًا.

في طريقي للخارج، التفتُّ وقلتُ: "هل لي في سؤال؟ هل لي أن أسأل عن وضعية الجثتين في السيارة؟"

"ماذا تريد أن تعرف يا سيدي؟" قال الضابط باليش، الأكبر رتبة بين الضابطين الشابين، بوجه خال من التعبير، رجل فضولي هادئ من عائلة كروتين التي، حسبما أذكر، كانت تمتلك فندق ماداماسكا الصغير.

"ماذا وجدتما بالضبط حين اكتشفتما الجثتين؟ وضعُهما. جلسةُ كل منهما. درجةُ ميول كل منهما. الإشاعة التي تسري في أثينا-"

"لا يا سيدي،" قال باليش، وهو يهزّ رأسه، "لم تكن تلك هي الحالة. لا شيء من ذلك حقيقيٌّ يا سيدي."

"هل تعلم ما أُلمح إليه."

"أعلم يا سيدي. كانت الحادثة بوضوح حالة سرعة زائدة. ليس بوسعك أن تأخذ ذلك المنحنى بتلك السرعة. 'جيف جوردن'[210] نفسه لا يقدر أن يأخذ ذلك المنحنى على تلك السرعة. وبالنسبة لرجل مسنّ مع كأسين من النبيذ تلعبان برأسه تكون القيادةُ المنحنيةُ في ذلك المنحرف مثل قائد هوت-رود[211]–"

"لا أظن أن كولمن سيلك قاد في حياته أبدًا سيارة مثل هوت-رود أيها الضابط."

"حسنًا...،" قال باليش، ووضع يديه عاليًا في الهواء، راحتا يديه أمامي، مقترحًا، بكل الاحترام الواجب، أن لا هو ولا أنا قادران على أن نعرف ذلك. "إنه البروفيسور مَن كان وراء عجلة القيادة يا سيدي."

حانت اللحظة التي اقترح فيها الضابط 'باليش' ألا أحشر أنفي في الأمر بحمق مثل مخبر غير محترف، وألا أضغط بمزاعمي أكثر، ثم أشار بتهذّب أن أنصرف. كان يناديني بـ"سيدي" أكثر مما ينبغي كيلا يأخذني الهذيان حول مَن الذي كان يدير اللقاء، ولهذا انصرفتُ، وكما أقول، كان هذا نهاية الأمر.

كان النهار الذي سيُدفن فيه كولمن دافئًا على غير موسمه، أحد نهارات نوفمبر قليلة الضوء. مع آخر أوراق الشجر وقد سقطت عن أشجارها خلال الأسبوع الماضي، المنحنى الصخري الصلب بمنطقة الجبل كان الآن عاريًا مكشوفًا بأشعة الشمس، وصلاتُه ومضيقاتُه كانت مرسومة في خطوط متقطعة نحيلة على الحفر القديمة، وبينما كنتُ أتوجّه ذاك الصباح صوب أثينا لحضور الجنازة، استيقظ داخلي على نحو غير مناسب شعور بعودة البعث، بالاحتمال المتجدد، بسبب الصلادة المشمسة للمنظر البعيد المحجوب بالنباتات منذ الربيع الماضي. التنظيم الجاد لسطح الأرض، الذي يحوز الإعجاب والذي كان قد تأجل للآن لأول مرة خلال شهور، راح يُذكِّر بالقوة الغاشمة الفظّة لنهر الجليد في انقضاضه ليجلو تلك الجبال ويصقلها عند حافتها الجنوبية المنزلقة البعيدة. على بعد أميال قليلة من بيت كولمن، كان الجبلُ قد بصق صخورًا ضخمة بحجم ثلاجات المطاعم مثلما تقذف ماكيناتُ القارّ الأوتوماتيكية كراتِ الزفت

---

[210] - Jeff Gordon، بطل سيارات سباق أمريكي محترف من مواليد 1971. (المترجمة)

[211] - Hot-rod، نوع من سيارات السباق الأمريكية بموتور كبير وعجلات ضخمة مناسبة للسباق في خطوط مستقيمة. (المترجمة)

السريعة في ضربات متعاقبة، وحينما تجاوزتُ المنحدر المشجّر المائل المعروف محليًا باسم "حديقة الصخور" ورأيتُ، كم هي صارمةٌ، دون حجاب، أوراق أشجار الصيف وظلالها المتشابكة، وتلك الصخور العملاقة مكوّمةً على الجانبين كأنما آثار ستون-هينج[212]، وقد تصادمت ببعضها البعض ولكنها مازالت عملاقة وسليمة، شعرتُ بالرعب من جديد من هول فكرة الارتطام تلك التي فصلت كولن وفونيا في لحظة عن حياتيهما وقذفت بهما نحو ماضي الأرض السحيق. هما الآن بعيدان كبُعد النهر الجليدي. مثل لحظة خلق الكوكب. مثل عملية الخَلق ذاتها.

كان هذا عندما قررتُ الذهاب إلى مخفر شرطة الولاية. ذاك أنني لم أكن قد خرجت إلى هناك ذلك النهار، ذلك النهار ذاته، حتى قبل الجنازة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أنني، فيما كنتُ أصفّ سيارتي عبر حديقة البلدة، كنتُ قد لمحته من فاترينة مطعم بولين-بليس، يتناول فطورَه، والد فونيا- رأيته يجلس إلى مائدة مع المرأة الذي كانت تقود مقعده المتحرك عند مقبرة الجبل في اليوم السابق. دخلتُ في الحال، جلستُ إلى الطاولة الشاغرة جوارهما، طلبت ما أريد، وبينما رحتُ أتظاهر بقراءة جريدة مداماسكا الأسبوعية التي كان قد تركها شخصٌ ما على مقعدي، التقطتُّ كل ما بوسعي من محادثتهما.

كانا يتحدثان عن دفتر المذكرات. من بين أغراضها التي أعادتها سالي وبيج إلى والد فونيا، كانت مفكرة مذكراتها.

"أنتَ لا تريد أن تقرأها يا هاري. أنت بالفعل لا تريد قراءتها."

"يجب عليّ أن أفعل،" قال.

"ليس عليك ذلك،" قالت المرأة. "صدقني لا تفعل."

"لا يمكن أن تكون تلك المذكرات أسوأ من كل شيء آخر."

"أنت لا تريد أن تقرأها."

معظم الناس يُضخِّمون من أنفسهم ويكذبون حول إنجازات هم فقط كانوا يحلمون بإنجازها؛ فونيا كذبت وزعمت إخفاقها في الوصول إلى إتقان مهارة أساسية للغاية تلك التي، في غضون عام أو اثنين، يمكن أن تُكتسَب ولو على نحو بدائي على يد أي طفل صغير في العالم.

هذا ما عرفتُه حتى قبل أن أُنهي كوب العصير. إدعاء الجهل والأمية كان تمثيلية، كانت شيئًا ما قررتْ فونيا أن وضْعَها يتطلبه. ولكن لماذا؟ مصدرٌ للقوة؟ مصدرُ قوتها الوحيد والأوحد؟ ولكن بأي ثمن تُشترى تلك القوة؟ فكرْ في الأمر. هي ترمي نفسَها

---

[212] - Stonehenge، متحف لصخور ضخمة يعود عمرها لما قبل التاريخ، يقع في إنجلترا. (المترجمة)

ببلوة الأمية أيضاً. تكتسبها طواعيةً. لا لتجعل من نفسها طفلةً، بأي حال، لا لتُقدّم نفسها كطفلة عالةٍ على مَن حولها، بل على النقيض من ذلك: لكي تُسلِّط الضوء على الذات البربرية الهمجية التي تناسب العالم. ليس رفضاً للتعليم بوصفه الصيغةَ الخانقة للياقة بل هو الانتصار على التعليم بالمعرفة التي هي أكثر قوة وأسبقيةً. ليس لديها شيء ضد القراءة بحد ذاتها- إنه ذلك التظاهر بعدم القدرة على القراءة هو الشعور الذي يناسبها. شعورٌ يعطي للأمور نكهةً مثيرة. إنها وحسب لم تكن قادرة على الحصول على ما يكفي من السموم: من كل ما لستَ مفترضاً أن تكونه، أن تُظهِره، أن تقوله، أن تفكر فيه، ولكنك مع هذا تكونه وتُظهره وتقوله وتفكر به سواءً أحببتَ ذلك أم لم تحب.

"لا أستطيع أن احرق المذكرات،" قال والد فونيا. "إنها شيء يخصُّها. إنني حتى لا أستطيع أن ألقيها في القمامة."

"طيب، أنا أستطيع." قالت المرأة.

"هذا ليس صواباً."

"لقد ظللتَ تمشي في حقل الألغام هذا طوال حياتك. والآن أنتَ لا تحتاج ذلك أكثر."

"إنها كل ما تبقي منها."

"هناك المسدس. هذا تبقى منها. هناك الرصاصات يا هاري. لقد تركتْ تلك الأشياء."

"الطريقةُ التي عاشت بها،" قال، وبدا الرجلُ فجأة على حافة البكاء.

"الطريقةُ التي عاشت بها هي الطريقةُ التي ماتت بها. كان هذا سبب موتها."

"كان عليكِ أن تعطيني المذكرات." قال.

"لا. كان سيئًا بما يكفي أننا حتى جئنا إلى هنا."

"دمريها، دمريها، فلا أعرف حتى ماذا بها."

"أنا فقط أفعل الأفضلَ بالنسبة إليك."

"ماذا كانت تقول بالمذكرات؟"

"الكلام لا يحتمل الإعادة."

"أوه، يا ربي،" قال.

"كُلْ. عليك أن تأكل شيئًا. هذه الفطائر المُحلاة تبدو جيدة."

"ابنتي." قال.

"لقد فعلتَ كلَّ ما بوسعك."

"كان يجب أن آخذها بعيدًا حينما كانت في السادسة من عمرها."

"أنتَ لم تكن تعلم. كيف كان لك أن تعرف ماذا سوف يحدث؟"

"ما كان يجب أن أتركها مع تلك المرأة."

"وما كان يجب أن نأتي إلى هنا أبدًا،" قالت رفيقتُه. "كل ما عليك فعله الآن هو أن تمرض هنا. حتى يكتمل الأمر."

"أريد الرماد."

"لابد أنهم دفنوا الرماد. هناك. معها. لا أعلم لماذا لم يفعلوا ذلك."

"أريد الرماد يا 'سيل'. إنهما حفيداي. ذاك هو كل ما تبقي لدي من كل شيء."

"أنا توليتُ أمر الرماد."

"كلا!"

"أنت لم تكن بحاجة إلى ذلك الرماد. لقد مررتَ بما يكفي. لن أسمح بأن يحدث لك شيء. ذلك الرماد لن يأتي على الطائرة."

"ماذا فعلتِ؟"

"توليتُ أمره،" قالت. "أوليتُ كلَّ احترامي. لكن أمر الرماد انتهى."

"أوه، يا إلهي."

"انتهى الأمر،" أخبرته. "انتهى تمامًا. لقد أديتَ واجبك. لقد فعلتَ أكثر من واجبك. لا تحتاج أيّ شيء آخر. الآن لنجعلك تأكل شيئًا. لقد سلّمتُ الغرفة. ودفعتُ الحساب. الآن لم يتبق إلا العودة إلى الوطن."

"أوه، أنتِ الأفضل يا سيلفيا، الأفضل على الإطلاق."

"أنا لا أريدك أن تتألم بعد الآن. لن أتركهم يؤلمونك."

"أنتِ الأفضل."

"حاولْ وكُلْ. هذه الكعكة تبدو شهيةً حقًا."

"هل تريدين بعضها؟"

"لا،" قالت. "أريدك أن تأكل."

"لا أستطيع أن آكل على الإطلاق."

"استخدمْ دواء الشراب. ها هو، سوف أسكب لك."

انتظرتُهما بالخارج، على الخضرة، وعندئذ حينما شاهدتُ الكرسي المتحرك يخرج من باب المطعم، عبرتُ الشارع، وبينما كانت المرأةُ تدفع المقعد بعيدًا عن بولين-بليس، قدّمتُ نفسي، متقدمًا نحوه وأنا أقول: "أنا أسكن هنا. كنت أعرف ابنتك. على نحو طفيف، لكنني التقيتها عدة مرات. كنتُ في الجنازة بالأمس. رأيتك هناك. أريد أن أقدم مواساتي."

كان رجلاً عريضًا له هيكل ضخم، أكثر عرضًا مما بدا في الجنازة وهو متهدل فوق كرسيه. على الأرجح أنه أطول من ستة أقدام، ولكن بنظرة إلى وجهه الصارم قويّ العظام (نفس وجه فونيا الخالي من التعبير، بالضبط- الشفاه النحيلة، الوجنة المنحدرة، الأنف الحاد المعقوف، والعينان، العميقتان الزرقاوان، وفوقهما، الأهداب الشاحبة، نفس انتفاخ البشرة، نفس الامتلاء الذي صدمني في مزرعة الألبان كأحد علاماتها الغريبة، وجهها فقط هو رمز الإغواء فيها)- بنظرة إلى رجل محكوم عليه ليس فقط بالحبس في ذلك المقعد بل محكوم عليه بألم أعظم حتى بقية أيامه. كبيرًا كما كان، أو كما كان سالفًا في القديم، لم يتبق منه شيء إلا خوفه. شاهدتُ ذلك الخوف خلف تحديقته في اللحظة التي نظر فيها لأعلى ليشكرني.

"أنت طيبٌ للغاية،" قال.

كان على الأرجح في نفس عمري تقريبًا، لكن ثمة دلائل في حديثه على امتيازات طفولة نيو-إنجلاند التي يعود تاريخها إلى ما قبل ميلادنا كلينا بكثير. كنتُ قد تبيّنتُ ذلك مبكرًا في المطعم- وأنا مشدودٌ إلى تلك الخطبة وحدها، تلك الخطبة المستقيمة الغنّية، التي تشبه خطب الاتفاقيات المدبجة في أمريكا أخرى تمامًا.

"هل أنتِ زوجة أب فونيا؟" بدت تلك أفضل طريقة لجذب انتباهها- وربما لكي تجعلها تُهدّئ من سرعتها. افترضتُ أنهما كانا في طريق العودة إلى كوليدج-آرمز، حول زاوية المنطقة الخضراء.

"هذه سيلفيا،" قال.

"أتساءلُ إن كان يمكنكِ التوقف،" قلتُ لسيلفيا، "حتى أستطيع أن أتكلم معه."

"علينا أن نلحق بالطائرة،" أخبرتني سيلفيا.

بما أنها كانت مصممة بوضوح على إبعاده عني فورًا، قلتُ- بينما كنتُ أحافظ على خُطاي محازية لخُطى المقعد المتحرك- "كولمن سيلك كان صديقي. وهو لم ينحرف بالسيارة خارج الطريق. لا يمكن أن يكون قد فعل. ليس على ذاك النحو. سيارته قد أُجبرَت على الانحراف عن الطريق. أنا أعرفُ مَن المسئول عن مصرع ابنتك. لم يكن كولمن سيلك."

"توقفي عن دفعي. سيلفيا، توقفي عن دفعي دقيقة."

"كلا،" قالتْ. "هذا خبل. هذا يكفي."

"إنه زوجها السابق،" قلتُ له. "إنه فيرلي."

"كلا،" قال بوهَن، كما لو كنتُ قد أطلقتُ عليه النار. "كلا-كلا."

"سيدي!" كانت سيلفيا قد توقفت، حسنًا، لكن اليد التي لم تكن تقبض بقوة على مقبض الكرسي المتحرك كانت قد امتدت الآن لتمسكني من صدر قميصي. كانت قصيرة ونحيلة، امرأة فلبينية شابة، ذات وجه بُنيّ شاحب صغير وحقود، وكان بوسعي أن أرى عبر التصميم القاتم في عينيها الجسورتين أن الفوضى في العلاقات الإنسانية لم يكن مسموحًا لها أن تتطفل على أي مكان بالقرب مما يخصُّها وعليها أن تحميه.

"هل لكِ أن تتوقفي للحظة؟" سألتُها. "هل يمكن أن نذهب إلى الخضرة ونجلس هناك ونتكلم؟"

"الرجلُ ليس على ما يرام. أنتَ ترهق قُوَى رجل مريض على نحو خطير."

"ولكنك تحتفظين بمذكرات تخصّ فونيا."

"لا نمتلك شيئًا."

"لديكما مسدس يخص فونيا."

"سيدي، ابتعد عنّا. سيدي دعه في حاله، أنا أحذّرك!" وهنا دفعتني- باليد التي كانت تقبض على سترتي، دفعتني بعيدًا.

"كانت تحتفظ بذلك المسدس،" قلتُ، "لكي تحمي نفسها من فيرلي."

بحدّة، أجابت، "أيها المسكين!"

لم أعرف ماذا أفعل سوى أن أتبعهما حول الزاوية حتى وصلا إلى رواق الفندق الصغير. كان والد فونيا الآن يبكي علنًا.

حينما استدارت لتجدني مازلتُ هناك، قالت: "لقد فعلتَ ما يكفي من الأذى. اذهبْ وإلا طلبتُ لك البوليس." ثمة قوةٌ مؤذية في تلك المرأة الضئيلة. لقد فهمتُ الأمر: الإبقاءُ عليه حيًّا كما يبدو كان يتطلب ما ليس أقل من ذلك.

"لا تدمري تلك المذكرات،" أخبرتُها. "ثمة معلوماتٌ بها-"

"قذارةٌ وفُحْش! ثمة معلوماتٌ هناك عن الفُحْش!"

"سيلـ، سيلفيا-" نطق الأب.

"جميعُهم، هي، الشقيق، الأم، زوج الأم- كل تلك الجماعة، دهسوا ذلك الرجل طوال حياته. استلبوه. ابنته كانت مجرمة. حملت وأنجبت طفلاً وهي في السادسة عشر- الطفل تخلّت عنه في دار أيتام. الطفل الذي كان من شأن والدها أن يربيه. كانت عاهرة مبتذلة. المسدسات والرجال والمخدرات والفُحش والجنس. الأموال التي أعطاها لها- ماذا فعلت بالمال؟" قالت سيلفيا.

"لا أعلم. لا أعرف أي شيء عن مأوى الأيتام. لا أعلم أي شيء عن أية أموال." قلتُ لها.

"المخدرات! كانت فونيا تسرق من أجل المخدرات!"

"لا أعلم أي شيء عن ذلك."

"تلك العائلة كلها- قذارة! بعض الرحمة، من فضلك!"

التفتُّ إليه. "أريدُ أن يُقدَّم الشخصُ المسئول عن مقتل هذين القتيلين إلى المحاسبة القانونية. كولن سيلك لم يؤذها. لم يقتلها. أطلبُ فقط أن أتكلم معكَ لبرهة."

"اسمحي له يا سيلفيا-" قال الأب المقعد.

"لا! لا مزيد من السماح لأي إنسان بعد الآن! لقد سمحتَ أنتَ لهم بما يكفي!"

كان الناس قد تجمعوا الآن عند رواق الفندق يراقبوننا، وآخرون راحوا يراقبون المشهد من النوافذ العلوية. ربما كانوا آخر مجموعة من سُواح الخريف[213]، خرجوا ليلتقطوا القليل المتبقي من ألق الخريف. ربما كانوا خريجي كلية أثينا. ثمة دائمًا حفنةٌ من البشر يزورون البلدة، أناسٌ في منتصف العمر وخريجون كهول يفحصون الطبيعة ليروا ماذا قد اختفى وماذا تبقّى، يعتقدون في الأفضل، الأفضل على الإطلاق، فيما وقع لهم في تلك الشوارع في حقبة 1900 ونحو ذلك. ربما كانوا زوار البلدة الذين جاءوا يلقون نظرة على المنازل الاستعمارية المُستعادة، بعضٌ منها يمتد حوالي الميل على كلا الجانبين من شارع وارد[214] وتعتبر الجمعيةُ التاريخية في أثينا تلك المنازل، وإن لم تكن في أهمية تلك البيوت في ساليم، في أهمية تلك البيوت الأخرى في الولاية غرب بيت الجمالونات السبعة[215]. أولئك الناس لم يجيئوا لكي يناموا في غرف النوم المزينة بعناية في كوليدج-آرمز ومن ثم يستيقظون على ذلك الصراخ تحت نوافذهم. في مكان بديع مثل شارع ساوث-وارد وفي نهار صحو مثل هذا، فإن انفجارًا مثل هذا الصراع- رجل كسيح يبكي، امرأة آسيوية ضئيلة تصرخ، ورجل يبدو من مظهره أنه بروفيسور جامعة من الواضح أنه يروّعهما كليهما بما كان يقوله- يبدو مثل هذا الصراع أكثر عجبًا وإثارةً للاشمئزاز مما لو كان قد حدث في مدينة كبيرة صاخبة.

"فقط لو أمكنني رؤية المذكرات-"

"ليس هناك مذكرات" قالت سيلفيا، ولم يكن هناك ما يمكن فعله أكثر من مشاهدتها وهي تدفع المقعد المتحرك إلى أعلى منحدر الدخول جوار السلّم ثم عبر الباب الرئيسي ثم داخل الفندق.

---

[213] - Leafers. الكلمة ليس لها مرادف بالعربية. اشتقاق من مفردة Leaf بمعنى ورقة الشجر. Leafers هم السائحون الأمريكان الذين يهاجرون في الخريف إلى المناطق الريفية مثل نيو-إنجلاند لكي يشاهدوا تغيّر لون الشجر بين الفصول.. المترجمة

[214] - Ward Street

[215] - the House of the Seven Gables

عدتُ إلى مطعم بولين، طلبتُ فنجانًا من القهوة، وعلى ورقة كتابة وجدها النادل لي في درج أسفل ماكينة دفع الحساب، كتبتُ هذه الرسالة:

أنا الرجل الذي اقترب منكَ بالقرب من المطعم بشارع البلدة في أثينا في الصباح بعد دفن فونيا. أعيش في طريق الريف خارج أثينا، على بعد عدة أميال من منزل المرحوم كولن سيلك، الذي، كما فسّرتُ لك، كان صديقي. وعن طريق كولن التقيتُ عدة مرات بابنتك. أحيانًا كنت أسمعه يتكلم عنها. علاقتهما كانت ضاجّة بالعاطفة الحادة، ولكن لا قسوة فيها. كان بالأساس يؤدي دور العاشق بالنسبة لها، ولكنه كان يعرف أيضًا كيف يكون صديقًا ومعلّمًا. إذا ما طلبتْ الرعاية، لا أظن أنها كانت تُحرم منها. مهما كانت ابنتك قد امتصت من روح كولن، فإن تلك الروح أبدًا وأبدًا لا يمكن بحال أن تكون قد سممت حياتها.

لستُ أعرف كم سمعتَ في أثينا من نميمة حقود أحاطت بهما وبالحادث. أتمنى ألا تكونَ قد سمعتَ شيئًا من هذا. ثمة مسألة عدالة لابد أن تُسوّى لكي يتقزّم كل هذا الغباء. لقد قُتل شخصان. أنا أعرف مَن قتلهما. لم أشاهد الجريمة ولكنني أعرف أنها حدثت. أنا واثق من ذلك تمام الثقة. لكن الدليل ضروريّ إذا ما أُخِذ كلامي مأخذَ الجد من قِبل البوليس أو النائب العام. إذا كنتَ تمتلك أي شيء قد يشي بحالة فونيا الذهنية في الشهور الأخيرة أو حتى يمتد للوراء إلى وقت زواجها من فيرلي، فأنا أسألك ألا تدمّره. أفكرُ في مخاطبات ربما تكونَ قد استلمتها منها خلال السنوات، كذلك أغراضها التي وُجدت في غرفتها بعد الوفاة وانتقلت إليك عن طريق سالي وبيج.

رقم تليفوني وعنواني كالتالي-

هذا هو كل ما كان بوسعي فعله. انتويتُ أن أنتظر حتى يذهبا، لكي أهاتف كوليدج-آرمز لأستخلص من موظف الاستقبال، بحكاية أو بأخرى، اسم الرجل وعنوانه، لكي أرسل خطابي بالبريد الليلي. سوف أذهب إلى سالي وبيج لمعرفة العنوان إن لم أتمكن من الحصول عليه عن طريق الفندق. ولكن في الحقيقة ما كان عليّ فعل أيّ من الأمرين. فمهما كانت فونيا قد خلّفت وراءها في الغرفة من أغراض، فإنها قد رُميت أو دُمِّرت على يد سيلفيا- على نفس النحو الذي قد يُدمّر به خطابي حينما يصل إلى

وجهته. تلك الكائنة الضئيلة التي كل هدفها هو منع الماضي من أن يزعج الرجل أكثر، لن تسمح أبدًا داخل جدران منزله بما لم تسمح به حينما وجدت نفسها أمامي وجها لوجه. أكثر من ذلك، فإن سلوكها كان واحدًا مما لا أقدر أن أجادل بشأنه. إذا ما كانت المعاناة قد سَرَت وتغلغلت داخل تلك الأسرة مثل المرض، فإن لا شيء يمكن عمله سوى تعليق يافطة من ذلك النوع الذي اعتادوا أن يعلقوه على مداخل أبواب المرضى المُعدين حينما كنتُ طفلاً، اليافطة التي مكتوبٌ عليها "**الحَجْر الصحي**"[216] أو تلك التي تُعرض باختصار أمام عيون غير المصابين، لا شيء أكثر من حرف Q[217] أسود كبير. سيلفيا الضئيلة كانت هي تلك اللافتة المشئومة Q، ولم يكن من سبيل لتجاوزها.

مزقتُ ما كتبته ومشيتُ عبر البلدة إلى الجنازة.

مراسم دفن كولمن تمّت بترتيبات أعدّها أولاده. وكانوا أربعتهم يقفون هناك عند بوابة كنيسة ريشانجر لاستقبال المعزين وهم يتوافدون. فكرة دفنه في حديقة ريشانجر، بكنيسة الكلية، كانت قرارَ الأسرة، مفتاح الأمر الذي أدركت أنا أنه كان انقلابًا جيدَ التخطيط، محاولة لإبطال العقوبة التي فرضها والدهم على نفسه، محاولة منهم لدمج والدهم من جديد، في الموت إن لم يكن في الحياة، داخل المجتمع الذي صنع فيه مهنته المميزة.

حينما قدّمتُ نفسي، على الفور أخذتني للداخل 'ليزا'، ابنة كولمن، التي وضعت ذراعيها حولي وعبر دموعها، قال صوتُها الهامس: "أنتَ صديقه. أنت الصديق الوحيد الذي تبقّى له. أنت على الأرجح كنتَ آخر من رآه."

"كنا صديقين لفترة من الزمن،" قلتُ، ولكنني لم أشرح شيئًا حول رؤيتي إياه للمرة الأخيرة قبل عدة شهور، في نهار السبت من أغسطس في تانجل-وود، وأنه منذئذ بدأ يترك تلك الصداقة القصيرة رهنَ الخفوت ببطء.

"لقد خسرناه،" قالت.

"أعلم."

"نحن خسرناه،" كررت ليزا، ثم راحت تبكي دون محاولة للكلام.

بعد برهة قلتُ لها: "لقد استمتعتُ بصحبته وأعجبتُ به. كنتُ أتمنى لو أنني عرفته مدة أطول."

"لماذا حدث هذا؟"

"لا أعلم."

---

216 - QUARANTINE

217 - الحرف الأول من كلمة QUARANTINE، بمعنى الحجر الصحي. (المترجمة)

"هل جُنَّ؟ هل كان أبي مجنونًا؟"

لمّا لم أجب (وكيف لي أن أفعل، دون الشروع في كتابة الكتاب؟)، انسحبت ذراعاها ببطء بعيدًا عني، وبينما كنا نقف معًا لبضع ثوان إضافية، رأيتُ كم كان شبهها بأبيها قويًا- في نفس قوة شبه فونيا بوالدها.

لها نفس ملامح الدُّمية المنحوتة، نفس العينين الخضراوين، نفس البشرة المصفرّة السمراء، كذلك نفس النسخة من الكتفين العريضتين المنحدرتين اللتين تميزان بنية كولمن المتينة الرياضية. أما الإرث الجينيّ المرئي للأم، آيريس سيلك، فيكمن منفردًا في شَعر ليزا الغزير الجعد القاتم الاستثنائي. خلال صورة وراء صورة لآيريس- الصور التي كنتُ قد شاهدتها في ألبومات كولمن العائلية التي أراني إياها- كانت ملامح الوجه بالكاد تبدو ذات أهمية، كل أهميتها كشخص، إن لم يكن كل معناها كإنسان، بدت متمركزةً بقوة في ذلك الشعر الصارم، المسرحيّ، الذي هو هبِة الطبيعة. مع ليزا، بدا الشعر واقفًا في تباين مع شخصيتها أكثر من أن يكون نابعًا منها- مثلما كان الحال مع أمها.

تكوّن لديّ انطباعٌ قاطعٌ، خلال لحظاتنا القليلة معًا، أن الرابطَ، المكسور الآن، بين ليزا وأبيها لن يبرح عقلَها ليوم واحد طوال حياتها المقبلة. بطريقة أو بأخرى، ستتصهرُ أفكارُه داخل كل شيء تفكر هي فيه أو تفكر أن تفعله أو تُخفق في أن تفعله. العواقبُ الناجمة عن حبِّها له بكل هذا الامتلاء بوصفها طفلته المدلّلة، وعن ابتعادها عنه لحظة موته، لن تسمح أبدًا لتلك المرأة أن تحيا.

رجال آل سيلك الثلاثة- 'مارك' توأم 'ليزا'، والاثنان الأكبر، 'جيفري' و'مايكل'- لم يكونوا ودودين كثيرًا في ترحابهم بي. لم أرَ شيئًا من كثافة غضب 'مارك' كابن مُتَحَدٍّ، وحينما، بعد ساعة أو نحوها، أفسح سلوكُه الرصين المجالَ لنفسه جوار المقبرة، جعله في تجهّم شخص ثكِلٍ ميئوس من إنقاذه. 'جيف'[218] و'مايكل' كانا بوضوح أكثر أبناء سيلك صلابةً، بوضوح بوسعك أن ترى فيهما البصمةَ الجسمانية الغليظة النشطة للأم: إن لم يكن شَعرُها (كلا الرجلين كان الآن أصلع)، فطولها، جوهرُها الصلب بالثقة بالنفس، سلطانُها العطوف. هذان رجلان لا يُمكن اختراقهما. كان هذا جليًا فقط في أسلوب ترحابهما والكلمات القليلة التي يقولانها. حينما تلتقي 'جيف' ومايكل، خصوصًا لو كانا واقفين جنبًا إلى جنب، فكأنما قد التقيتَ نظيرك. زمان قبل أن أعرف كولمن- في الماضي وهو في ذروة تألقه، قبل أن يدور خارجًا من دائرة السيطرة نحو سجن الغضب الضيق، قبل أن تبدأ الإنجازات التي ميّزته يومًا، تلك التي صنعت هويته، في التلاشي

---

[218] - جيفري. (المترجمة)

من حياته- فإنك بالتأكيد كنتَ قد التقيت فيه نظيرك أيضًا، ما قد يفسّر لماذا كانت الرغبةُ العامة في فضح العميد سريعةَ التجسّد للغاية بمجرد أن تفوّه بشيء يحمل التأويل العنصري الشرير.

رغمًا عن كل الشائعات التي تدور في البلدة، إلا أن عدد الحاضرين من أجل جنازة كولمن فاق بكثير كلّ ما تخيلته؛ وبالتأكيد كان يفوق ما كان يمكن أن يتخيله كولمن نفسه. الصفوف الستة أو السبعة الأولى من المقاعد الخشبية كانت ممتلئة بالفعل، وكان الناس لا يزالون يتوافدون من ورائي كشلال بشريّ حين وجدت مكانًا شاغرًا في منتصف الطريق من مذبح الكنيسة جوار شخص كنت أعرفه- لأنني كنتُ قد رأيته لأول مرة في اليوم السابق- هو سموكي هولينبيك. هل كان سموكي يدرك كم هو قريبٌ جدًا، فقط قبل عام، من حضور طقس جنازته هو نفسه الذي كان سيُقام في كنيسة ريشانجر؟ ربما حضر مراسم الدفن لشعوره بالامتنان لحسن طالعه أكثر مما حضر من أجل الرجل الذي كان خليفته في التجربة الجنسيّة مع فونيا.

على الجانب الآخر من سموكي كانت تجلس امرأةٌ أتصوّر أنها زوجته، مليحة شقراء في حوالي الأربعين. إذا ما كنتُ أذكر جيدًا، فهي كانت رفيقة دراسة لسموكي في كلية أثينا وتزوجته وهي في السابعة عشرة وهي الآن أم لخمسة أبناء. كان أبناء هولينبيك من بين الشباب، من خارج أسرة كولمن، الذين رأيتهم في الكنيسة حينما بدأت أنظر حولي. الغالبيةُ كانت كبار جامعة أثينا، أعضاء هيئة التدريس والموظفين ممن عرفهم كولمن عن قرب لأربعين عامًا قبل موت آيريس واستقالته. ماذا عساه يظن الآن في أولئك الزملاء القدامى وهم يظهرون في كنيسة ريشانجر ليلقوا عليه نظرة الودا ع؟ هل بوسعه أن يلاحظهم وهم يجلسون أمام نعشه؟ ربما يقول لنفسه شيئًا مثل: "يا لها من مناسبة للرضا عن النفس. يا للطهر الذي لابد يشعرون به لكونهم لا يحملون ضدي أية ضغينة مثل التي أحملها لهم."

كان من الغريب أن أفكر، بينما أجلس هناك بين كل زملائه، أن بشرًا بكل هذا المستوى الرفيع من التعليم والتحضّر المهنيّ يرسبون مع كل وعيهم بالحلم الإنساني الجليل إلى المستوى الذي يجعل واحدهم قادرًا على تجسيد الشر. لكنها الضرورة، وهي باقيةٌ، وهي عميقةٌ لا غور لها.

حينما أُغلِق الباب الخارجي للكنيسة واتّخذ آل سيلك مقاعدهم في الصف الأول، رأيتُ أن الكنيسة كانت ممتلئة حتى ثلثيها، ثلاثمائة إنسان، ربما أكثر، ينتظرون ذلك الحدث الإنسانيّ العتيق والطبيعيّ الذي من شأنه أن يمتص رعبهم من نهاية الحياة. رأيتُ، أيضًا، مارك سيلك، وحيدًا بين أشقائه، يعتمر قبعة اليهود الضيقة.

ربما مثل كل الآخرين، كنتُ أتوقع أن يعتلي أحد أبناء كولمن المذبح ويتكلم أولاً. لكن واحدًا فقط كان المتحدث ذلك النهار، وكان هيرب كيبل، العالم السياسي الذي وظّفه العميد سيلك ليكون أول بروفيسور أسود في أثينا.

من الواضح أن كيبل تم اختياره من قِبل الأسرة للسبب نفسه الذي به اختاروا كنيسة ريشانجر للجنازة: لكي يعيدوا تقويم اسم أبيهم، لكي يُرجعوا روزنامة أثينا للوراء ويستعيدوا لكولمن وضعَه السابق ومكانته. حينما أتذكر التجهم الذي صافحني به كل من 'جيف' و'مايكل' بعدما تعرفا عليّ بالاسم وقالا: "شكرا على المجيء- يعني الكثير للأسرة أنك هنا،" وحينما كنت أتخيل أنهما بالتأكيد كانا يكرران مثل تلك الكلمات مع كل معزٍّ من الحضور، بمن فيهم أشخاص كانوا يعرفانهم منذ الطفولة، فكرتُ بأنهما لا ينويان التوقف، ليس قبل أن تُنصَّب بنايةُ الإدارة باسم أبيهم بوصفها "قاعة كولمن سيلك".

امتلاء المكان هكذا لم يكن على الأرجح وليد مصادفة. لابد أنهما ظلا على الهاتف منذ وقوع الحادث، تم تجميع المعزين بنفس الطريقة التي تُساق بها قطعان الناخبين إلى صناديق الاقتراع حينما كان عمدة الولاية دالي يحكم شيكاغو. وعلى النحو نفسه لابد أنهما اشتغلا على كيبل، الذي كان كولمن يحتقره على وجه الخصوص، تحت إغراء أن يقدم نفسه طواعيةً ككبش الفداء لخطايا أثينا. كلما فكرتُ أكثر في ولديْ سيلك هذين وهما يلويان ذراع كيبل، يهددانه، يصرخان في وجهه، يتهمانه، ربما أيضًا يعلنان عليه الإنذار المتوعد بسبب الأسلوب الذي خان به أباهما قبل عامين، كلما أحببتهما أكثر- وكلما أحببت كولمن أكثر لكونه قد أنشأ رجلين، كبيرين، قويين، ذكيين لم يتورعا عن فعل ما يجب فعله لكي يزيحا جانبًا ما طاله من سُمعة سيئة. هذان الولدان كانا بوسعهما أن يساعدا في إزاحة فيرلي بعيدًا عن أبيهما بقية حياته.

أو هكذا كان بوسعي الاعتقاد حتى بعد ظهر اليوم التالي، مباشرة قبل أن يغادرا البلدة، حينما- بالتأكيد ما حدث معي من إقناع صريح ليس أقل مما تخيلتهما قد مارساه مع كيبل، حينما أخبراني أن عليّ أن أكفّ: أن أنسى حكاية 'لِس' فيرلي وملابسات الحادث وأن أتوقف عن حثّ البوليس على إجراء أية استجوابات أخرى. وضّحا لي بأسلوب شديد المباشرة والصراحة أن استنكارهما سيكون بلا حدود إذا ما أصبحت علاقة أبيهما بفونيا فيرلي نقطة التركيز في ساحة المحكمة بتحريض من إلحاحي. فونيا فيرلي كان الاسم الذي لا تودّ أسرة سيلك سماعه ثانيةً، على الأقل في محاكمة فضائحية سوف يتم تناولها بإثارة في الصحف المحلية لتستقر فيما بعد وإلى

الأبد في الذاكرة الجمعية المحلية وهذا سوف يجعل من "قاعة كولمن سيلك" الأكاديمية مجرد حلم أبديّ لا يتحقق.

"تلك ليست المرأة المثالية التي ترتبط بتراث أبينا،" أخبرني جيفري. "أمُّنا هي التي كانت كذلك،" قال مايكل. "هذا الفَرْج الرخيص التافه ليس له علاقة بأي شيء." "لا شيء،" أكد جيفري. كان من الصعب تصديق، بالنظر إلى حماستهما وصدق عزيمتهما، أنهما أستاذا علوم في جامعات كاليفورنيا. لابد أن تظن أنهما يديران "فوكس القرن العشرين"[219].

كان هيرب كيبل رجلاً نحيلاً، شديد السواد، وعجوزاً الآن، ذا مشية حادة رغم التقوس والعرج البادي في مشيته بسبب المرض، مع بعض الجدية ومظهر الواعظ الأسود القاسي وصوته المهدِّد المنذر بالشؤم. كان يكفيه فقط أن يقول: "اسمي هيربرت كيبل" لكي يقذف لعنته؛ كان عليه وحسب، من خلف المنصّة، أن يحدّق بصمت في نعش كولمن ثم يلتفت بعدها إلى حشد المُعزّين ويعلن مَن يكون هو فيجعلهم يستشهدون بملكوت الشعور الذي تحالف مع خطابية الأنشودة المقدسة. كان متقشفًا مثلما حافة النصل متقشفة- يتوعدك بالتهديد إذا لم تتعامل مع الخطبة بأقصى الاهتمام. بكل ما تعني الكلمة كان الرجل مؤثرًا، في السلوك وفي المظهر كليهما، وبوسع المرء أن يفهم أن كولمن ربما وظّفه لكي يكسر حاجز اللون في كلية أثينا لأسباب تشبه تلك التي جعلت برانش بيركي يوظِّف جاكي روبنسون لكي يُسجِّل كأول لاعب بيسبول أسود. ليس من السهل تصور أن أبناء سيلك قد أجبروا هيرب ليفعل ما طلبوه منه، أولاً، ليس قبل أن تأخذ في الحسبان فتنة الدراما الذاتية لشخصية موسومة بالزهو الواضح الذي يسمُ أولئك المنوط بهم تقديم القرابين. وقد أتقن للغاية إظهار سلطانه بوصفه الرجل الثاني في السلطة السيادية.

"اسمي هيربرت كيبل،" هكذا بدأ. "أنا رئيس مجلس إدارة قسم العلوم السياسية. في عام 1996، كنتُ من بين أولئك الذين لم يروا من المناسب أن يناصروا الدفاع عن كولمن حينما اتُهِم بالعنصرية- أنا، الذي جئتُ إلى أثينا قبل ستة عشر عامًا، في العام نفسه الذي اعتلى فيه كولمن كرسي العمادة بالكلية؛ أنا، الذي كنتُ أول تعيين وظيفيّ أكاديمي يوقّعه العميد سيلك. على نحو متأخر جدًا، أقفُ أمامكم لأوبّخ نفسي لعدم مناصرة صديقي وعرّابي، ولأفعل كل ما بوسعي- من جديد، على نحو متأخر جدًا-

---

[219] Century Fox, 20th- ، أحد استوديوهات الأفلام في أمريكا أنشئت في أوائل القرن الماضي. (المترجمة)

لأشرع في محاولة تصحيح الخطأ، الخطأ الباهظ الشرير، الذي مورس معه من قِبل كلية أثينا.

"أيام واقعة العنصرية المزعومة، أخبرتُ كولمن: 'لا أستطيع أن أكون معك في هذه.' قلت له ذلك بعد تفكير وباحتراس، وليس على الإطلاق بدافع من أسباب انتهازية، جبانة أو حريصة على الوظيفة كتلك التي افترض كولمن، بتسرّع، أن تكون لديَّ. اعتقدتُ وقتها أن بوسعي أن أقدِّم أفضل من أجل قضية كولمن بالعمل من خلف المشهد لإبطال الهجوم عليه أكثر مما أفعله بالتحالف المكشوف معه في العلن، فأكون عاجزًا عن المساعدة، كما أنا واثق أنني كنتُ، على كل المستويات، كسلاح جهول يحمل لقب 'العم توم'[220]. ظننتُ أن بوسعي أن أكون صوت العقل وأنا بين صفوف- أكثر مما أكون من خارجها- جحافل الجنود أولئك الذين انتهكوا كولمن ووسموه ظُلمًا بوصمة العنصرية التي استفزتهم ودفعتهم لتشويه سمعته بالزور وسمعة الكلية بالتسبب في إخفاق هذين الطالبين. ظننتُ أنني لو كنتُ عنيفًا بما يكفي وصبورًا بما يكفي لاستطعتُ أن أهدئ الثورة، إن لم تكن ثورة المتطرفين من خصومه، فثورة أولئك العقلاء، الأعضاء المتزنين الحصيفين في جاليتنا الأمريكية الأفريقية المحلية والمتعاطفين معهم، أولئك الذين لم تكن خصومتهم أكثر من ردة فعل انفعالية سريعة الزوال. ظننتُ ذلك، في ذلك الوقت- وكنتُ آمل أنني، في وقت قصير لا طويل- سأستطيع أن أمهّد لعقد حوار بين كولمن وبين مُتهميه من شأنه أن يقود إلى تسويغ قانوني للقضية يعترف بطبيعة سوء الفهم الذي أدّى إلى نشوب النزاع، ومن ثم يُحيل تلك الحادثة المؤسفة إلى خاتمة عادلة."

"كنتُ على خطأ. ما كان عليّ أبدًا أن أقول لصديقي: 'لا أستطيع أن أكون معك في هذه.' كان يجب أن أقول: 'يجب أن أكون معك.' كان يجب أن أعمل لأُجابِه خصومَه علنًا وليس على نحو مضلِّل ومخفيّ مخادع من الداخل بل على نحو مباشر وأمين من الخارج- من حيث كان بوسعه أن يتشجّع في التعبير عن نفسه ويُدعَم بدل أن يُترك ليداوي شعورَه الساحق بالتخليّ والهجر ذاك الشعور الذي تقرّح إلى جرح غائر أدى به إلى التغرّب عن زملائه، ثم إلى استقالته من الكلية، ومنها إلى عزلة التدمير الذاتي التي، كما أنا مقتنع- من المرعب لي تصديق ذلك- أدّت أيضًا وإن على نحو غير مباشر إلى تلك الميتة التراجيدية، المخرّبة، والتي لم تكن ضرورية، كما حدث في سيارته تلك الليلة. كان يجب عليّ أن أتكلم علنًا لأقول ما أود أن أقوله الآن في حضور زملائه القدامى، ومساعديه، وهيئة التدريس، ولأقول، خصوصًا، في حضور أولاده، 'جيف'

---

[220] - Uncle Tom، مصطلح يُطلق على شخص أسود يتبع شخصًا أبيض ويقوم بخدمته. منحدر من رواية "كوخ العم توم". (المترجمة)

و'مايك'، اللذين حضرا إلى هنا من كاليفورنيا، و'مارك' و'ليزا'، اللذين حضرا إلى هنا من نيويورك- ولأقول، بوصفي العضو الأكبر سنًّا من بين الأساتذة الأمريكان الأفارقة بكلية أثينا:

"كولمن سيلك أبدًا لم ينحرف مرة على أي نحو عن السلوك القويم العادل في تعامله مع كلٍّ وأيٍّ من طلابه طوال مدة خدمته في جامعة أثينا. أبدًا."

"سوء الإدارة المزعوم لم يحدث مطلقًا. أبدًا."

"ما قد أُجبِر كولمن على المرور به- الاتهام، المقابلات، الاستجوابات- ظلت وصمة عار في جبين هذه المؤسسة إلى هذا اليوم، وفي هذا اليوم بالذات أكثر من أي وقت آخر. هنا، في نيو-إنجلاند المعروفة تاريخيًّا بالدعاة الأمريكان المنادين بالفردانية المقاوِمة لجبروت الجالية المولعة بالانتقاد- هنا يثبُ إلى العقل هاوثورن، ميلفيل، وثوريو[221]– كان كولمن داعيةً أمريكيًّا ينادي بالفردانية ولا يؤمن بأن أخطر الأشياء في الحياة هي القواعد، داعيةً أمريكيًّا رفض أن يقبل المذهبَ الأرثوذوكسي دون فحص وتأمل، بوصفه حقيقةً مألوفة وقارّة في الأذهان، داعيةً أمريكيًّا لا يرضخ للثوابت العامة في آداب السلوك والذائقة- داعيةً أمريكيًّا ممتازًا تمّ من جديد انتهاكه بكل وحشية على يد أصدقائه وجيرانه الذين عاش بعيدًا عنهم حتى موته، اِستُلِب منه سلطانُه الأخلاقي بغبائهم الأخلاقي. أجل، إنهم نحن، الجالية الغبية أخلاقيًّا المولعة بالانتقاد، الذين قلّلنا من قدر أنفسنا بتلويثنا المخجل لاسم كولمن سيلك المحترم. أتكلم خصوصًا عن أولئك الذين يشبهونني، الذين كانوا على معرفة وثيقة بعمق التزامه مع أثينا ونقاء جهوده كمعلّم، والذين، نتيجة دوافع مضلَّلَة، خانوه بالرغم من ذلك. أقولها ثانيةً: لقد خُنّاه. نحن غدرنا بكولمن وغدرنا بآيريس."

"موت آيريس، موت آيريس سيلك، جاء في خضّم..."

على بعد مقعدين على يساري كانت زوجة سموكي هولينبيك تبكي، مثلما كانت تفعل نساء عديدات في الجوار. سموكي نفسه كان منحنيًا إلى الأمام، جبهته متكئة خفيفًا على يديه، اللتين كانتا مشبوكتين على رأس المقعد الذي أمامنا على نحو كَنسيٍّ غامض. أظن أنه أرادني أو أراد زوجته أو أيًّا مَن كان يراقب ويشاهده أن نؤمن بأن الظلم الذي وقع على كولمن سيلك كان لا يُحتمَل تصوره. أظن أنه كان يقصد أن يظهر بمظهر

---

[221] - Dickinson Melville, Hawthorne Whitman, Thoreau Emerson كتّاب أمريكان عُرفوا ضمن المقاومة الأمريكية التي كانت تؤيد الفردانية individualism، وهو مذهب يعتقد بالأهمية القصوى للإنسان الفرد، ويقرّ بمبدأ تحرر الأهداف الاجتماعية والاقتصادية الفردية من القوانين الحكومية. وينادي بأن المصالح الفردية يجب أن تُقدّم على المصالح الجماعية. (المترجمة)

المغلوب على أمره بالشفقة، ولكن معرفتي بكل ما يخفيه، كرجل أسرة نموذجيٍّ، وبجوهر الحياة الديونيسوسية[222] التي يعيشها، جعلت مظهره ذاك عصيًّا على البلع.

ولكن، بعيدًا عن سموكي، كان الانتباه، والتركيز، التركيز الحادّ، مُنصبًا على كل كلمة من كلمات هيرب كيبل التي بدت حقيقية وأصيلة بما يكفيني لأتخيل أن كل الحاضرين أيًّا كان عددهم سوف يجدون من الصعب ألا ينتحبوا ويرثوا كولن سيلك لكل ما تحمّله على نحو ظالم. أتساءلُ، بالطبع، لو أن تبريرات كيبل لعدم وقوفه جوار كولن في واقعة الـ*spooks* كانت من ابتكاره هو، أم كانت حلاً لجأ إليه ولدا سيلك لكي يُمكّنا الرجلَ من أن يفعل ما طلباه منه وهو يحفظ ماء وجهه. أتساءل ما إذا كان التبرير وصفًا دقيقًا لدوافعه حينما قال عبارته القاسية تلك التي ظل كولن يرددها مرات عديدات: "لا أستطيع أن أكون معك في هذه."

لماذا كنتُ رافضًا تصديق هذا الرجل؟ ألأن حاسة عدم الثقة بالمرء، في سنٍّ معينة، تكون مُصفّاةً جدًّا ودقيقة حتى أن المرء يكون غير راغب في تصديق أي أحد؟ لا شكّ في أنه، قبل عامين، حينما كان صامتًا ولم يهبّ للدفاع عن كولن، كان ذلك لنفس السبب الذي يصمت الناس دائمًا من أجله: لأن من صالحهم أن يصمتوا. النفعية ليست حافزًا منقوعًا في الظلام. هيرب كيبل كان مجرد شخص آخر متوافق مع السائد، حتى وإنْ بغلاظة، حتى وإن بأسلوب نفعيّ، عن طريق الالتزام بالإثم، ولكن الحقيقة تبقى أنه لم يستطع أن يتصرف حينما كان من الضروري أن يتصرف، ولهذا رحتُ أفكر فيه، بالنيابة عن كولن: تبًّا له.

حينما نزل كيبل عن المنصّة، وقبل أن يعود إلى مقعده، توقف ليصافح أبناء كولن، خدمت تلك الإيماءةُ الخفيفة مجردَ تكثيف العاطفة العنيفة التي أشعلتها خطبتُه. ماذا سوف يحدث تاليًا؟ للحظةٍ لم يكن هناك شيء. فقط الصمتُ والنعشُ المُسجّى وثمَلُ الناس العاطفي. ثم وقفتْ ليزا، ارتقت الدرجات القليلة للمنصة، وعلى منضدة تلاوة الكتاب المقدس في الكنيسة، قالت: "الحركة الثالثة من السيمفونية الثالثة لـ'مالر'[223]."

كان هذا هو. حرّكوا كل ساكن. وعزفوا 'مالر'.

حسنًا، أحيانًا لا تستطيع سماع 'مالر'. حينما يرفعك لأعلى لكي يُزلزلك، فإنه لا يتوقف. ومع نهاية المقطوعة، كنا جميعنا نبكي.

---

[222] - نسبة إلى ديونيسوس إله الخمر والملذّات لدى الإغريق. (المترجمة)

[223] - Gustav Mahler موسيقيّ ألماني (1860-1911). (المترجمة)

وبينما كنتُ أتكلم فقط مع نفسي، لا أظن أن أي شيء كان بوسعه أن يمزقني إربًا مثلما حدث سوى سماع ستينا بولسون وهي تغني "الرجل الذي أُحبُّ" مثلما كانت تغنّيها عند أرجل سرير كولمن بشارع سوليفان عام 1948.

المشوار القصير إلى المقبرة على مسافة ثلاث بنايات كان لا يُنسى لأنه بدا كأنما لم يُقطَع. لبرهة كنا مُخدّرين بمقطوعة 'مالر' ذات الحركات الموسيقية الحساسة المتمهلة شديدة العذوبة، بتلك البساطة غير الخادعة، غير الماكرة، تلك المنبسطة، التي تقريبًا تزامنت، مع تراكم خُطا الحياة ومع تمنّع الحياة على الموت... لبرهة كنّا مشلولين بتلك الإيقاعات المختارة بعناية فائقة، بتلك الروعة والحميمية التي بدأت في كثافة الأوتار المتوترة الساكنة المنشدة، ثم انطلقت لتعلو وتتدفق في جيشان عبر الخاتمة الهائلة الخادعة تلك التي تقود نحو الخاتمة الحقيقة الأبدية الممتدة... لبرهة كنّا مُجمّدين بذلك الامتلاء المُحلِّق، الواصل للذروة، ثم الهابط نحو الغَوْر السحيق للقصف الرثائي الحزين الذي يتدحرج رويدًا رويدًا رويدًا بخُطًا محسوبة محددة لا تتغير، ثم يتوقف، ثم يعود من جديد مثل الألم أو التوق الذي أبدًا لا يختفي... لبرهة كنّا، عند إصرار 'مالر' المتزايد، داخل النعش مع كولمن، متناغمين مع رعب اللانهاية ومع الرغبة المحمومة في الهروب من الموت، وعندئذ بطريقة أو بأخرى ستون أو سبعون منا بدءوا يتحركون نحو القبر ليشاهدوه وهو يُوارَى الثرى، طقسٌ بسيط بما يكفي، حلٌّ معقول للمشكلة مثل أي ميراث أبدي ولكنه الطقس الذي أبدًا لم يكن مفهومًا. لابد أن تراه بعينيك في كل مرة لكي تصدقه.

كنتُ أشكُّ في أن معظم الناس كانوا يخططون لمرافقة الجثمان طوال الطريق إلى الضريح. لكن أولاد سيلك كان لديهم ميلٌ لإطالة العنصر المؤثر في الدراما وتعزيزه، لأجل هذا، كما أفترض، كان الكثير جدًّا منّا يتزاحمون بقدر ما يستطيعون بالقرب من الحفرة التي ستغدو بيت كولمن الأبدي، كأنما كنا تقريبًا نتوق للزحف داخلها لنأخذ مكانه، لنهِب أنفسَنا بُدلاءَ له، مثل عطايا القرابين، علّ يمكن، بفعل السحر، أن تُستأنف تلك الحياةَ النموذجية التي، على يد هيرب كيبل، قد سُرقت من كولمن سيلك بإتقان قبل عامين.

تقرر أن يُدفن كولمن جوار آيريس. مكتوبٌ على شاهد قبرها 1932–1996. وعلى شاهد قبره 1926–1998. كَم هي مباشِرةٌ تلك الأرقام. وكم هو قليلٌ ما تشيرُ إليه الأرقامُ من أحداث حدثت خلالها.

سمعتُ ترانيم صلاة الكاديش[224] التي كانت قد بدأت قبل أن أدرك أن شخصًا ما يُرتّلها. لحظةً بلحظة كنت أتصور أنها لابد كانت تتدفق من مكان آخر من المقبرة، حينما كانت تأتي من الجانب الآخرِ من الضريح، حيث كان مارك سيلك- الابن الأصغر، الابن الغاضب، الابن الذي، مثل توأمته، يحملُ الشبهَ الأكبر لوالده- يقفُ وحيدًا، يحمل الكتابَ في يده وطاقية اليهود فوق رأسه، ويترنم بصلاة اليهود المعتادة بصوت عذب مُشبَّع بالدمع.

يسجادال، ف'يسكاداش..[225]

معظم الناس في أمريكا، بمن فيهم أنا وربما أشقاء مارك، لا يعرفون ماذا تعني تلك الكلمات، ولكن كل الناس تقريبًا كانوا يدركون الرسالة الجليلة التي تحملها: ثمة إنسانٌ يهوديٌّ مات. يهوديٌّ آخر قد مات. وكأنما الموت ليس عاقبةَ الحياة بل عاقبة أن تكون يهوديًا.

حينما انتهى مارك، أغلق الكتاب وبعد ذلك، وكان قد استحثّ السكونَ الجَهِم لدى كل الآخرين، وقع في الهستيريا. على هذا النحو انتهت جنازة كولمن- وقد تجمّدنا جميعًا في تلك اللحظة ونحن نراقب مارك وهو يتفتت، بوَهَنٍ راح يضرب الهواء بذراعيه، وبفم مفتوح، راح يعوي وينتحب. ذلك الصوت الحزين الوحشيّ، الأكثر شيخوخةً حتى مما نطق به من صلوات، ظل يعلو ويتكاثف إلى أن رأى شقيقته تندفع نحوه وهي تبسط ذراعيها، فأدار نحوها وجه سيلك المتغضّن بالألم، وبدهشة طفولية مطبقة صرخ:

"نحن لن نراه بعد اليوم أبدًا!"

لم تأخذني أفكاري الكريمة. الأفكار الكريمة كانت عصيّةً على الحضور في ذلك اليوم. كنتُ أفكر، أي فرق سوف يفعله ذلك؟ أنتَ لم تكن أبدًا ذلك الحريصَ على رؤيته حينما كان هنا بيننا. من الواضح أن مارك سيلك كان يتخيل أن أباه سيبقى موجودًا إلى الأبد لكي يظلّ يُذيقَه كراهيته. لكي يكرهه ويكرهه ويكرهه ويكرهه وبعد ذلك، في أوقاته الخاصة الطيبة، بعدما تصلُ مشاهدُ الاتهام إلى نقطة ذروتها[226] ويكون قد جَلَدَ كولمن في كل بوصة من حياته بسوط العقوق والضَّيم، ربما يسامحه. كان يظن أن كولمن سوف يبقى هنا إلى أن تنتهي المسرحية كلها، كأنما كان هو وكولمن يتبارزان ليس في الحياة بل في أكروبول[227] أثينا عند جانب التل الجنوبي، في المسرح المكشوف المكرّس

---

[224] - Kaddish، الصلاة اليهودية التي تُتلى على الميت. (المترجمة)

[225] - كلمات بالعبرية. (المترجمة)

[226] - - crescendo، مصطلح موسيقي إيطالي الأصل، يطلق على التدرج التدريجي في صوت الموسيقى حتى يصل ذروته القصوى. كريشيندو. (المترجمة)

[227] - Acropolis، أحد أهم المعالم الأوروبية، يقع في أثينا الإغريقية، وهو قلعة ضخمة مشيدة فوق تل. (المترجمة)

- أحد آلهة الإغريق. (المترجمة)

لعبادة ديونيسوس[228]، حيث كانت المسرحيات الدرامية تُشاهَد بجدية، أمام عيون عشرة آلاف متفرج، ودائرة التطهّر تتواصل كل عام. الرغبة الإنسانية في بدايةٍ، منتصفٍ، ثم نهايةٍ- ونهاية مناسبة في الحجم لتلكما البداية والمنتصف- تلك الرغبة لا تُدرك في أي مكانٍ على هذا النحو الشامل سوى في المسرحيات التي درّسها كولمن في كلية أثينا. ولكن خارج التراجيديا الكلاسيكية للقرن الخامس قبل الميلاد، فإن توقُّعَ الاكتمال، ناهيك عن الكمال المتقن والعادل، يكون وهمًا أحمق لا يحمله إلا عقل مراهق.

بدأ الناس يتفرقون. شاهدتُ آل هولينبيك يتحركان عبر الممشى بين شواهد القبور متجهينْ نحو الشارع القريب، ذراع الزوج حول كتف زوجته، يحنو عليها فيما يبتعدان. شاهدتُ المحامي الشاب، نيلسون بريماس، الذي كان يمثّل كولمن أثناء واقعة الـ *spooks*، ومعه امرأة شابة حامل، امرأة تبكي، لابد أنها زوجته. شاهدتُ 'مارك' مع شقيقته، مازال في حاجة إلى مواساتها، وشاهدتُ 'جيف' و'مايكل'، اللذين أدارا كلَّ هذا المشهد بحِرَفية عالية، يتحدثان بهدوء إلى 'هيرب كيبل' على بعد ياردات قليلة من حيث كنتُ أقف. أما أنا فلم أستطع أن أمضي لأنني كنتُ أفكر في 'لِس فيرلي'. بعيدًا عن هذه المقبرة كان ينعم بعضلاته مرتاح البال، غير متهم بأية جريمة، يزاول وحيدًا واقعه الخشن ذاك، كائن شرس يتصادم مع أيٍّ ممَن يشاء على النحو الذي يشاء بسبب تلك الدوافع الداخلية التي تبرر أي شيء يشاء أن يفعله.

بالتأكيد، كنتُ أعلم أن لا كمالَ ثمة، لا اكتمال عادلاً ومُتقنًا، ولكن ذلك لا يعني، وأنا أقف على بُعد أقدام قليلة من الكفن الذي استقر الآن في حفرة طازجة الحفر، أنني لم أكن أفكر بعناد في أن هذه النهاية، حتى وإن كانت قد فُسِّرَت كأنما قد سوّت نهائيًا مكانةَ كولمن بوصفه شخصية محبوبة في تاريخ الجامعة، لم تكن تكفي. الكثير جدًّا من الحقيقة لا يزال مخفيًا.

كنتُ أعني بذلك الحقيقةَ حول موته لا الحقيقةَ التي سوف يُسلَّطُ عليها الضوء بعد دقيقة أو دقيقتين. ثمة حقيقةٌ وبعد ذلك من جديد ثمة حقيقة أخرى. لكل ذلك فالعالم كان مليئًا بالبشر الذين يدورون من حولك وهم يعتقدون أنهم كشفوك أو كشفوا جارك، لكن لا قاعًا بالفعل ولا نهاية ولا قرارًا لكل ما هو غير معروف. الحقيقة الخاصة بنا لا نهائية. مثلما هي الأكاذيب. تُلتقَط فيما بينهما، كما أظن. ينتقدها ذوو المبادئ، يسبُّها ذوو الصلاح- ثم يبدِّدها ذوو الهوس بالجريمة. يُحرِّمها كَنسيًا المبشِّرون الاستثنائيون المُنتَخبَون دائمو الحضور في أعراف الزمن، ثم يقضي عليها الأشرارُ غلاظُ القلب. كِلتا الضرورتين الإنسانيتين موجودتان متشابكتان في الإنسان. النقيُّ والملوثُ، بكل عنفيهما

---

[228] - أحد آلهة الإغريق. (المترجمة)

وحدِّتيهما، دائما الحركة، متشابهان في حاجتهما المشتركة لوجود عدو. ينهزمان هزيمةً مزدوجة، كما أظن. تهزمهما أسنانُ العالم العدائية الشرسة.

امرأةٌ واحدة، وحيدة، ظلت باقية على مقربة من القبر المفتوح مثلما كنتُ قريبًا منه. كانت صامتة ولا يبدو عليها أنها تبكي. حتى أنها لم تظهر هناك- أعني، في المقبرة، في الجنازة. ربما كانت عند ناصية الشارع، تنتظر الباص التالي في صبر. كانت الطريقة التي تحمل بها حقيبتها أمامها بأناقة متزمتة هي التي جعلتني أفكر في شخص على استعداد لأن يدفع لها الأجرة، ثم يفوز بجائزة أن يذهب إلى حيث كانت ذاهبة. كان بوسعي أن أخمّن أنها ليست بيضاء من خلال بروز فكّها وشكل فمها- عن طريق شيء يوحي بالنتوء يشكّل نصف وجهها الأسفل- وأيضًا عن طريق الملمس الجاف لتسريحة شعرها. بشرتها لم تكن أكثر سمرةً من الإغريق أو المغاربة، وربما ما كنتُ لأضيف الدليل إلى الدليل لكي أقرر بحسم أنها سوداء، إذا لم يكن هيرب كيبل من بين القِلّة الذين لم يتوجهوا بعد إلى بيوتهم. بسبب عمرها- في الخامسة والستين، ربما في السبعين- ظننتُ أنها لابد أن تكون زوجة كيبل. لا عجب، إذن، أن تبدو مطعونةً. لم يكن سهلاً عليها أن تُنصت إلى زوجها وهو يقذف نفسه على الملأ (تحت سطوة أيّ ما يكون من دوافع) مثل كبش فداء أثينا. كان بوسعي أن أفهم كم كان لديها الكثير لتفكّر فيه، وكم كان استيعاب ذلك يحتاج وقتًا أكثر مما سمحت به الجنازة. أفكارُها كان عليها أن تناقش ما قد قاله في كنيسة ريشانجر. كان ذلك تمامًا حيث كانت تقف.

كنتُ على خطأ.

حينما استدرتُ لأنصرف، حدث أن استدارت أيضًا، وهكذا، وبينما كان قدم واحدٌ فقط أو اثنان يفصلان بيننا، كنّا نتواجه كلٌّ منّا الآخر.

"اسمي ناثان زوكرمان،" قلتُ. "كنتُ صديقًا لكولمن قرب انتهاء حياته."

"كيف حالك؟" أجابت.

"أظن أن زوجك قد بدّل اليومَ كلَّ شيء."

لم تنظر نحوي كأنما كنتُ على خطأ، وبالتأكيد كنتُ على خطأ. ولا هي تجاهلتني، وهي تقرر أن تتخلص مني، وتستأنف طريقها. ولا هي بدت كأنما لا تدري ماذا تفعل، كأنما كانت في ورطة لكي تبدو هكذا. صديقٌ لكولمن في نهاية حياته؟ وقد أعطيتُها تعريف الهوية الحقيقي، فلماذا لم تقل شيئًا أكثر من: "لستُ مسز كيبل" ثم تراجعت للوراء؟

ولكن كل ما فعلته هو أن وقفت هناك، أمامي، دونما أيّ تعبير، كأنما قد أخرستْها بعمق أحداثُ النهار وما أُفشي فيه من كلام حتى بات من المستحيل أن تعرف، في تلك

اللحظة، مَن تكون هي بالنسبة لكولمن. لم يكن الشبهُ بينها وبين كولمن هو الذي سُجّل، وسُجل بسرعة، في تزايد مباغت، مثلما مع نجم بعيد يُرى عبر عدسة تمَّ ضبطُها بانتظام على زووم التكبير بكثافة مناسبة. ما رأيته- حينما، بعد طول انتظار، أمكنني أن أراه، رأيته بكل السبل قريبًا من سرّ كولمن- كان هو الشبه بين وجهها ووجه 'ليزا'، التي كانت ابنة أخ عمتها، أكثر مما كانت ابنة أبيها.

على يد إرنستين- حينما عدتُ إلى منزلي بعد ساعات من الجنازة- كنتُ قد عرفتُ معظمَ ما أعرفه الآن عن نشأة كولمن في إيست-أورانج: عن محاولة د.فينسترمان أن يجعل كولمن يهبط في امتحاناته الأخيرة ليجعل ابنه بيرت فينسترمان يقفز إلى المقدمة في الترتيب الأول؛ عن كيف وجد مستر سيلك منزل إيست-أورانج عام 1926، البيت الهيكلي الصغير الذي مازالت إرنستين تشغله والذي كان قد بيع لوالدها من "الزوجين"، كما فسّرت لي إرنستين، "اللذين كانا غاضبين من جيرانهما في البيت المجاور ولذا قررا أن يبيعا البيت للملوّنين نكايةً فيهم." ("انظرْ، بوسعك أن تخبر الجيلَ أنني،" قالت لي فيما بعد في ذلك اليوم. "أقولُ 'ملونين' و'زنوج'") أخبرتني عن كيف فقد أبوها متجر البصريات أثناء الانهيار الاقتصادي، وكيف أنه استغرق وقتًا ليتغلب على خسارته- "لستُ على ثقة،" قالتْ، "من أنه قد تغلّب أبدًا على ذلك"- وكيف أنه حصل على وظيفة نادل في عربة طعام وعمل لدى السكة الحديد بقية حياته. تكلمتْ عن كيف أن مستر سيلك كان يُسمي الإنجليزيةَ "لغة شوسر، وشكسبير، وديكنز،" وكان يعني بذلك أن على الأطفال ليس وحسب أن ينطقوا اللغةَ على النحو الصحيح بل أن يفكروا بمنطق، أن ينظّموا فكرهم، أن يحللوا، أن يصفِوا، أن يعدّدوا، ألا يتعلموا الإنجليزية فقط، بل كذلك اللاتينية والإغريقية؛ وكيف كان يأخذهم إلى متاحف نيويورك وإلى المسارح ليشاهدوا مسرحيات برودواي؛ وكيف، حينما اكتشف الأبُ سرَّ كولمن كملاكم هاوٍ في نادي شباب نيوآرك، أخبره، بذلك الصوت الذي يعكس السُّلطة دون أن يعلو أبدًا: "لو كنتُ أباك لقلتُ لك: 'هل فزتَ بالأمس؟ حسنًا. الآن بوسعك أن تعتزل اللعبَ وأنت غير مهزوم.'" من إرنستين عرفتُ كيف أن 'دوك تشيزنر'، مدرب الملاكمة الخاص بي أثناء العام الذي كنتُ أتمرن فيه بعد انتهاء اليوم الدراسي في نيوآرك، نسبَ لنفسه موهبةَ كولمن الصغير بعدما ترك كولمن نادي الشباب، وكيف كان دوك يريده أن يلاكم في جامعة بيتسفيلد، واستطاع أن يحصل له على منحة دراسية في بيتسفيلد كملاكم أبيض، ولكن كولمن التحق بجامعة 'هوارد' لأن تلك كانت خطّةَ أبيهم. وكيف سقط أبوهم ميّتًا في إحدى الليالي وهو يقدم العشاء في القطار، وكيف على الفور ترك كولمن جامعة هوارد ليلتحق

بسلاح البحرية، وليلتحق كرجل أبيض. وكيف بعد البحرية انتقل إلى جرينويش فيلاج ليلتحق بجامعة نيويورك. وكيف أحضر تلك الفتاة البيضاء إلى بيت العائلة في أحد الآحاد، الفتاة الجميلة من مينيسوتا. وكيف احترق البسكويت ذلك اليوم، لأنهم كانوا مشغولين للغاية بألا يقولوا شيئًا خطأ. وكيف، من حسن حظ الجميع، أن 'والتر'، الذي كان قد بدأ التدريس في آزبري بارك، لم يتمكن من المجيء لحضور ذلك الغداء، وكيف مضت الأمورُ على نحو رائع حتى أن كولمن لم يجد ما يعترض بشأنه. أخبرتني إرنستين كيف كانت والدة كولمن شديدة التهذب مع الفتاة. ستينا. وكيف كانوا متفهّمين وطيبين مع ستينا- وكذلك كانت ستينا معهم. وكيف كانت أمهم كادحةً طوال الوقت، وكيف، بعدما مات أبوهم، ترقَّت في عملها، بفضل الكفاءة وحدها، لتصبح أول رئيسة ممرضات ملونة في قسم الجراحة بمستشفى نيوآرك. وكيف كانت مغرمة بكولمن، وكيف أن كولمن لم يجد ما يفعله سوى تدمير حبِّ أمه. حتى قرار أن يقضي بقية حياته وهو يزعم أن أمه كانت شخصًا آخر، أمًّا أخرى لم تكن أبدًا له ولم يكن لها وجود على الإطلاق، حتى ذلك القرار لم يحرر مسز سيلك من حبّه. وبعدما عاد كولمن إلى البيت ليخبر أمه أنه على وشك الزواج من آيريس جيتلمان وأنها لن تكون أبدًا حماةً لزوجة ابنها ولا جدّة لأحفادها، وحينما منع شقيقُها والتر شقيقَها كولمن من الاتصال بالأسرة ثانيةً، كيف أن والتر وقتها وضحّ لأمهم- مستخدمًا نفس السُّلطة الصلبة التي كان والدهم يحكمهم بها- أن عليها أيضًا ألا تتصل بكولمن.

"أعلمُ أنه كان يقصد الخير،" قالت إرنستين. "كان والت يظنّ أن هذا كان السبيل الوحيد لحماية أمي من الوجع. التوجع من كولمن في كل عيد ميلاد، في كل إجازة، في كل كريسماس. كان يظن أن خط التواصل إن ظل مفتوحًا، فإن كولمن سوف يكسر قلب أمي ألف مرة ومرّة، تمامًا مثلما فعل ذلك اليوم. كان والت ساخطًا على كولمن لمجيئه إلى إيست-أورانج دون أي تحضير، دون تنبيه أيّ منا، لكي يخبر امرأة مسنّة، أرملَ مثل تلك، كيف سيكون القانون. 'فليتشر'، زوجي، كان دائمًا ما يجد سببًا سيكولوجيًّا يدفع والت إلى فعل ما كان يفعله. ولكنني لا أظن أن فليتشر كان على صواب. لا أظن أبدًا أن والت كان حقًّا يغار من مكانة كولمن في قلب أمّنا. لا أقبلُ ذلك. أظن أنه كان مُهانًا وكان مشتعلاً بالغضب، لا من أجل أمي فقط بل من أجلنا جميعًا. والت كان العضو السياسي في الأسرة؛ وهو بالقطع كان على وشك الجنون. أنا نفسي لستُ غاضبةً بهذا القدر ولم أكن أبدًا، ولكن كان بوسعي أن أتفهّم والت. كل عام، في عيد ميلاد كولمن، كنتُ أهاتف أثينا لأتحدث إليه. حتى قبل ثلاثة أيام. كان عيد ميلاده. عيد ميلاده الثاني والسبعون. أظن أنه حينما قُتل، كان يقود سيارته عائدًا إلى البيت من

حفل عشاء عيد ميلاده. هاتفته لأتمنى له عيد ميلاد سعيدًا. لم يكن هناك ردٌّ ولهذا اتصلتُ في اليوم التالي. ومن هنا عرفتُ أنه مات. شخص ما بالبيت رفع السماعة وأخبرني. أدركتُ الآن أنه كان أحد أبناء شقيقي. كنتُ قد بدأتُ أهاتف البيت فقط بعدما ماتت زوجة كولمن وبعدما ترك الجامعة وبدأ يعيش وحيدًا. قبل ذلك كنتُ أهاتف المكتب. لم أخبر إنسانًا عن ذلك أبدًا. لم أجد سببًا لأفعل. أهاتفه في أعياد ميلاده. هاتفته حين ماتت أمي. هاتفته حين تزوجتُ. هاتفته حين أنجبتُ ابني. هاتفته حين مات زوجي. كان بيننا دائمًا حديثٌ جيد. كان دائمًا يريد أن يسمع الأخبار، حتى أخبار والت وترقياته. وكذلك في كل المرات التي وَلدتْ فيها آيريس، مع جيفري، مع مايكل، ثم مع التوأمين، كنتُ أتلقى مكالمة من كولمن. كان يكلمني في المدرسة. كانت تلك تجربةً عظمى بالنسبة له. كان يختبر القدَر بأطفال كثيرين. لأنهم كانوا مربوطين جينيًّا بالماضي الذي تبرأ منه، ثمة فرصة دائمًا، كما ترى، لأن يكونوا نكوصًا وارتدادًا بطريقة فارقةٍ ما. كان قلقًا جدًّا بشأن ذلك. كان من الممكن أن يحدث- يحدث هذا أحيانًا. ولكنه مضى قدمًا وأنجبهم على كل حال. كان هذا جزءًا من الخطة أيضًا. الخطة التي تقود إلى حياة ممتلئة وطبيعية ومُنتجة. على أنني، أظن ذلك، في تلك السنوات الأولى خصوصًا، وبالتحديد حينما كان يأتي طفل جديد، كان كولمن يعاني من قراره. لا شيء كان يغيب عن انتباه كولمن، وينطبق الكلام على مشاعره الخاصة. استطاع أن يقطع نفسه منّا تمامًا، ولكن ليس من مشاعره. وكان هذا أكثر حقيقةً حيال الأطفال. أظن أنه هو نفسه كان قد وصل لليقين بأن ثمة شيئًا شنيعًا في أن يحجب شيئًا مفصليًّا مثل هوية المرء، مما كان حقًّا أصيلاً مكتسبًا بالولادة، من حقهم في أن يعرفوا عِرقهم وأصل نسبهم. وكان ثمة شيء خطير أيضًا. فكّرْ في الخراب الذي يمكن أن يخلقه في حياتهم لو أنجب أبناؤه أطفالا زنجيين على نحو واضح. حتى الآن هو مازال محظوظًا، وهذا جرى مع الابنين الأكبر في كاليفورنيا. ولكن فكّرْ في ابنته، التي لم تتزوج بعد. افترضْ أنها يومًا ما قد وجدت زوجًا أبيض، وأغلب الظن ستجد، ثم أنجبت طفلاً يشبه الزنوج، كما من المحتمل جدًّا أن يحدث. كيف ستفسر هي الأمر؟ وماذا سيفترض زوجُها؟ سوف يفترض أن رجلاً آخر هو والد الطفل. رجل أسود. يا مستر زوكرمان، لقد كانت قسوة مخيفة من كولمن ألا يخبر أطفاله. ليس هذا حُكم والتر- هذا حكمي أنا. إن كان كولمن ينوي أن يجعل أمر عِرقه سرَّه الخاص، فإن الثمن الذي كان عليه أن يدفعه هو ألا ينجب أطفالاً. وكان يعلم ذلك. كان عليه أن يعلم ذلك. بدلاً من ذلك، زرع قنبلةً موقوتة غير منفجرة. وتلك القنبلة كانت تظهر بالنسبة لي دائمًا في الخلفية حينما كان يتكلم عنهم. خاصةً حينما كان يتكلم عن، ليس البنت التوأم، بل الصبي التوأم، مارك، الولد

الذي عانى معه من كل المشاكل. قال لي إن ماركي على الأرجح يكرهه لأسبابه الخاصة، ولكن الأمر كان كأنما قد اكتشف الحقيقة. 'لقد حصدتُ هناك ما زرعتُه،' كان يقول، 'حتى وإن كان للسبب الخطأ. ماركي لم يكن لديه حتى رفاهية أن يكره والده لأمر حقيقي. لقد سرقتُه،' قال كولن، 'فيما يخص حقه المكتسب بالولادة، أيضًا.' فقلتُ له: 'ولكن ربما هو لا يكرهك على الإطلاق لهذا السبب يا كولن.' فقال لي: 'أنتِ لا تتابعينني. ليس الأمر أنه يكرهني لكوني أسود. ليس هذا ما أقصده بالشيء الحقيقي. أعني أنه ربما كرهني لأنني لم أخبره أبدًا ولأن من حقه أن يعرف.' وعندها، لأنه كان هناك الكثير مما يمكن أن يُساء فهمه، تركنا الموضوع يسقط. ولكن كان من الواضح أنه لم يستطع أبدًا أن ينسى أن هناك كذبة في أساس علاقته بأطفاله، كذبة شنيعة، وأن ماركي قد حدسها، بطريقة ما أدرك أن الأطفال، الذين يحملون هوية أبيهم في جيناتهم الوراثية والذين سينقلون تلك الهوية إلى أطفالهم بالتبعية، على الأقل جينيًّا، وربما حتى جسديًّا، على نحو ملموس، لم تكن لديهم أبدًا المعرفة الكاملة حول مَن يكونون وماذا كانوا. هذا إلى حد ما يأتي بالتأمل، ولكنني أحيانًا ما أفكر أن كولن كان يرى ماركي بوصفه العقابَ السماويَّ على ما فعله بأمه. رغم أنه،" أضافت إرنستين، على نحو يملؤه الشك، "لم يقل هذا أبدًا. بالنسبة لوالت، فالذي لمسته من والتر هو أن كل ما كان يحاول فعله هو أن يحلّ محلَّ أبينا بالتأكد من أن قلب أمنا لن يُكسر المرة تلو المرة."

"وهل لم يُكسر قلبُها؟" سألتها.

"مستر زوكرمان، لم يكن هناك ما يُصلحه- أبدًا. حين ماتت في المستشفى، عندما كانت محمومة، هل تعرف ماذا كانت تقول؟ ظلت تنادي على الممرضة بنفس الطريقة التي كان المرضى ينادونها بها. 'أوه، أيتها الممرضة،' كانت أمي تقول، 'أوه، أيتها الممرضة- خُذيني إلى القطار. لديَّ طفلٌ مريض بالبيت.' مرة ومرّات، 'لدي طفلٌ مريض بالبيت.' كنتُ أجلس جوار سريرها، أمسك يدها وأشاهدها وهي تموت، كنتُ أعلم مَن هذا الطفل الذي تقصد. وكذا كان والتر يعلم. إنه كولن. سواءً كانت ستتحسن أو لا لو لم يتدخل والت بالطريقة التي فعلها بإقصائه كولن إلى الأبد هكذا... حسنًا، مازلتُ مترددةً أن أقول. ولكن موهبة والتر الخاصة كرجل هي حسمُه. وكانت هي موهبة كولن أيضًا. أسرتنا هي أسرة الرجال الحاسمين. كان أبي حاسمًا، وكذا كان أبوه، الذي كان كاهنًا بروتستانتيًّا في جورجيا. أولئك رجال يصنعون قراراتهم، وليكن ما يكون. حسنًا، ثمة ثمنٌ ليُدفَع مقابل حسمهم. هذا أمر واضح على كل حال. وقد أدركتُ ذلك اليوم. وكنتُ أتمنى لو أدرك أبواي ذلك. نحن عائلة معلمين. بدءًا بجدتي لأبي. كفتاة صغيرة من العبيد، تعلمتْ القراءةَ على يد سيدتها، وبعد ذلك، بعد الانعتاق من العبودية،

ذهبتْ إلى ما كان يُطلق عليها آنذاك 'مدرسة ولاية جورجيا للتعليم الصناعي للملونين'. هكذا بدأ الأمر، وهذا ما تبدّل بنا الحال لنكونه. وهذا ما أدركتُه حينما رأيتُ أبناء كولن. جميعهم ماعدا واحدًا مدرسون. وجميعنا- والت، كولن، وأنا، مدرسون أيضًا. ابني حكاية أخرى. لم يُكمل الجامعة. كان لدينا بعض الخلافات، والآن له مهام أخرى، إن جاز التعبير، ولدينا خلافنا حول ذلك. يجب أن أخبرك أنه لم يكن هناك مدرسون ملونون في نظام مدرسة آزبري بارك البيضاء حينما وصلها والتر عام 1947. عليك أن تتذكر أنه كان الأول. ولاحقا كان أول مدير زنجيّ لمدرستهم. ومن ثم فيما بعد أول مشرف عام زنجي على المدارس. هذا يخبرك بشيء عن والت. قد كان هناك بالفعل مجتمع مستقر للزنوج، ولكن ما أن وصل والتر إلى هناك عام 1947 حتى بدأت الأمور في التغيّر. وكان لحسمه ذاك، الكثير ليفعله بهذا الشأن. وحتى مع أنكَ نتاج نيوآرك، إلا أنني لستُ واثقة من أنك تعرف كيف كان الحال حتى 1947، من حيث القانون، من حيث التمييز العنصري الدستوريّ، من حيث العزل في التعليم الذي كان معتمدًا في نيوجيرسي. كان لديك، في معظم التجمعات، مدارسُ لأطفال الملونين ومدارسُ لأطفال البيض. كان ثمة فصلٌ عنصري بين الأعراق في التعليم الأساسي في جنوب جيرسي. من ترينتون، نيو-برانزويك، وحتى في الجنوب كان لديك مدارس منفصلة. وفي برنسيتون. وفي آزبري بارك. في آزبري بارك، حين وصل والتر إلى هناك، كانت ثمة مدرسة اسمها بانجز آفينو، شرقًا أو غربًا- واحدة منهما كانت للأطفال الملونين الذين يعيشون في مجاورة بانجز آفيون تلك والأخرى كانت للأطفال البيض الذين يعيشون في تلك المجاورة السكنية. الآن هي بناية واحدة، ولكنها منقسمة قسمين. كان هناك سياج بين جانبي البناية، أحد الجانبين للأطفال الملونين وفي الآخر كان الأطفال البيض. بالطريقة نفسها، كان المدرسون في أحد الجانبين من البيض والمدرسون في الجانب الآخر كانوا سودًا. ومدير المدرسة كان أبيض. في ترينتون، في برنستون- وبرنستون لا تعتبر في جنوب جيرسي- كان هناك مدارس منفصلة حتى 1948. ليس في إيست أورانج وليس في نيوآرك، رغم إنه في وقت واحد، حتى في نيوآرك كانت هناك مدرسة ابتدائية للملونين. كان هذا في بدايات 1900. ولكن في 1947- وأنا ساحكي عن موقع والتر في هذا، لأنني أريدك أن تفهم شقيقي والتر، أريدك أن ترى علاقته بكولن ضمن صورة أوسع مما حدث بعد ذلك. كان هذا قبل أعوام من حركة الحقوق المدنية. حتى ما فعله كولن، القرار الذي اتخذه، بالرغم من سلالته الزنجية، ليعيش كعضو في جماعة عرقية أخرى- كان هذا بكل المقاييس قرارًا غير مألوف قبل حركة الحقوق المدنية. كانت هناك أفلام حول ذلك. هل تتذكرها؟ أحدها كان عنوانه بينكي، وكان هناك آخر، بطولة ميل

فيرير، رغم أنني لا أذكر اسم الفيلم، ولكنه كان مشهورًا أيضًا. تغيير جماعتك العرقية- لم تكن هناك حقوق مدنية تتكلم بها، لا مساواة، رغم أن هذا كان في عقول الناس، البيض مثل السود. ربما كانت في عقولهم أكثر مما كانت تحدث في الواقع، ولكنها ظلت تسحر الناس مثلما تسحرهم قصص الجنيّات. ولكن في عام 1947، دعا المحافظ إلى اجتماع برلماني لمراجعة دستور ولاية نيوجيرسي. وكانت تلك بداية شيء ما. أحد التنقيحات الدستورية كان حول وجوب عدم الفصل أو العزل بين وحدات الحرس الوطني في نيوجيرسي. الجزء الثاني، التغيير الثاني في الدستور الجديد، يقول إنه لا إرغام للأطفال ليتجاوزوا مدرسة ليلتحقوا بمدرسة أخرى في المجاورة السكنية. العبارة كانت شيئًا مثل هذا. بوسع والتر أن يخبرك بها حرفيًا. تلك التعديلات أزالت العزل في المدارس العامة وفي الحرس الوطني. المحافظ ولجان التعليم تم إخبارهم بتنفيذ ذلك. أوصت هيئة الولاية كل لجان التعليم المحلية بأن يضعوا خططًا لدمج المدارس محل التنفيذ. اقترحوا أولاً دمج الكليات ثم بعد ذلك ببطء يبدأ دمج المدارس بقدر اهتمام الطلاب. الآن، وحتى قبل ذهاب والت إلى آزبري بارك، حتى وهو طالب في مونتكلير ستيت حينما كان يعود إلى البيت من الحرب، كان هو أحد أولئك من ذوي الهم السياسي- أحد المجندين ممن يقاتلون بهمّة من أجل دمج المدارس في نيو-جيرسي. حتى قبل التعديل الدستوري، وبعدما تم تعديله، دون شك، ظل والتر من أكبر النشطاء في القتال من أجل دمج المدارس."

كانت وجهة نظر إرنستين هي أن كولمن لم يكن أحد أولئك المقاتلين من أجل الدمج والمساواة؛ وفي رأي والت، فإن كولمن لم يحارب قط من أجل أي شيء إلا نفسه. سيلكي سيلك. هذا هو الاسم الذي حارب به، والذي حارب من أجله، من أجل هذا لم يستطع والت تحمّل كولمن، حتى حينما كان كولمن صبيًا. هو لا يفكر إلا في نفسه، هذا ما كان يقوله والت. لا أحد يفكر إلا في كولمن وحده. كل ما كان يريده كان يحدث.

كنا قد أنهينا الغداء في بيتي قبل عدة ساعات، ولكن طاقة إرنستين على الحكي لم تُبْدِ أية إشارات على الخفوت. كل شيء في مخّها كان يحتدم- ليس فقط تداعيات موت كولمن بل كل شيء حول غموضه وسريّته تلك التي ظلت تحاول أن تسبر غورها على مدى الخمسين عامًا الأخيرة- دفعها ذلك لتتكلم في اندفاع لم يكن بالضرورة إحدى خصائص معلّمة مدرسة البلدة الصغيرة تلك التي كانتها طوال عمرها. كانت امرأة جيدة المظهر لأقصى حد، تبدو صحيحة البدن لولا بعض الإجهاد بالوجه، الذي ليس بوسعك أن تتخيل أن شهواته مفرطة؛ من خلال فستانها وجلستها، من خلال طريقتها الدقيقة في تناول غدائها، حتى من خلال طريقة شَغلها لمقعدها، كان من الواضح أن

شخصيتها ليس من العسير إخضاعها للتقاليد الاجتماعية وأنّ ردّة فعلها الداخلية في أي نزاع سوف تعمل أوتوماتيكيًا كعنصر وسيط- على نحو تام كانت مهيمنة على الاستجابات الحسية، باختيارها دور المنصت أكثر من تفعيل دور المتحدث، على أن جو الإثارة المحيط بموت شقيقها الذي أعلن نفسه كرجل أبيض، والتميز الخاص لنهاية حياة أسرتها، كل هذا بدا خللاً طويلاً موجعًا منحرفًا وعنيدًا، من العسير حسابه بالأساليب المعتادة.

"ذهبت أمي إلى قبرها وهي تتساءل لماذا فعل كولمن ما فعل. 'خَسر قومَه.' هكذا لخصت الأمر. لم يكن هو الأول في عائلة أمي الذي فعل هذا. كان هناك آخرون. لكنهم كانوا آخرين. لم يكونوا كولمن. كولمن خلال حياته أبدًا لم يتعرض للغضب جراء زنجيته. على حسب ما عرفناه. هذه حقيقة. كونه زنجيًا لم يكن أبدًا أمرًا ذا بال بالنسبة له. كان بوسعك أن ترى أمي جالسة في مقعدها بالليل، جالسة هناك بلا حراك، فتعرف عما كانت تتساءل: يمكن أن يكون هذا، يمكن أن يكون ذاك؟ هل كان عليه أن يمضي بعيدًا عن أبي؟ ولكن في ذلك الوقت، مات أبي. كانت أمي تقترح الأسباب، ولكن أحدًا من تلك الأسباب لم يكن أبدًا ملائمًا. هل كان ذلك لأنه يظن أن البيض أفضل منّا؟ بالتأكيد لديهم ما يفوقنا مالاً- ولكن أفضل؟ هل هذا ما كان يعتقده؟ لم نرَ أدنى دليل على ذلك. الآن، الناس يكبرون ويذهبون بعيدًا وتنقطع علائقهم بعائلاتهم ولا تعود لهم بها صلةٌ بعد ذلك، وليس عليهم أن يكونوا ملونين ليتصرفوا هكذا. يحدث هذا كل يوم في أرجاء العالم كافة. يكرهون كل شيء فيختفون وحسب. لكن كولمن كطفل لم يكن كارهًا. كان الطفل الأكثر مرحًا وتفاؤلاً مما تتمنى أن تراه. وحين كبرنا، كنتُ أكثر تعاسةً من كولمن. والت كان أكثر تعاسةً من كولمن. ماذا مع كل النجاح الذي حققه، مع كل الانتباه الذي لاقاه من الناس... لا، هذا لم يعنِ شيئًا لأمي أبدًا. التوق لم يتوقف يومًا. صوره. شهادات مدرسته. ميداليات المسابقات الرياضية. كتابه السنويّ. شهادته التي نالها بوصفه الطالب الأول على فصله. كانت هناك حتى دُمى كولمن وألعابه هنا وهناك، الدُّمى التي كان يحبها وهو طفل صغير، كانت تحتفظ بكل هذه الأشياء وتحدّق فيها مثلما يحدق قارئ الأفكار في كُرة الكريستال، كأنما كانت ستحلّ المشكلة. هل سبق واعترف لأي إنسان بما فعل؟ هل فعل يا مستر زوكرمان؟ هل سبق واعترف بذلك لزوجته؟ لأَطفاله؟"

"لا أظن ذلك،" قلتُ. "أنا على ثقة من أنه لم يفعل."

"إذن كان هو كولمن طوال الوقت. قرر أن يفعلها وفعلها. كان هذا هو الشيء الاستثنائي فيه منذ كان صبيًا- أن يلتزم بالخطّة تمامًا. كان دائمًا ثمة التزامٌ عنيد بكل قرار يتخذه. كل الأكاذيب التي استوجبتها الكذبةُ الكبرى، على أسرته، على كليّته، ظل

ملتزمًا بها جيدًا حتى النهاية. حتى أن يُدفَن كيهودي. أوه يا كولمن،" قالت بحزن، "كل شيء كان معقود العزم عليه. يا مستر عاقد العزم،" وفي تلك اللحظة، كانت أقرب للضحك منها للبكاء.

أنْ يُدفن كيهودي، كنتُ أفكر، وإذا ما فكرتُ على النحو الصحيح، أنْ يُقتل كيهودي. مشكلة أخرى من مشاكل تبديل الشخصية.

"لو كان قد اعترف لأي إنسان،" قلتُ لإرنستين، "فربما كان ذلك لامرأة مات معها. لفونيا فيرلي."

كان من الواضح أنها لا تريد أن تسمع عن تلك المرأة. ولكن لحساسية إدراكها، سألتْ: "كيف عرفتَ ذلك؟"

"لا أعرف. لا أعرف أي شيء. إنها مجرد فكرة طرأت لي،" قلتُ. "لهذا علاقة بالمعاهدة التي كانت بينهما- أن يخبرها." كنتُ أقصد بـ"المعاهدة بينهما" اعترافَهما المشترك بأن لا طريقَ نظيفًا ثمة، ولكنني لم أمض في شرح ما أقصد، لا يجوز هذا لإرنستين. "اسمعي، بعد معرفة كل ما عرفتُ منك اليوم، فلم يعد هناك شيء بخصوص كولمن ليس عليّ أن أعيد التفكير فيه. لا أدري كيف أفكر في أي شيء."

"حسنًا إذن، أنت الآن عضوٌ فخري في عائلة كولمن. بالإضافة إلى كولمن، في الأمور التي تتعلق بكولمن لا أحد منّا كان يعرف أبدًا بما يفكر. لماذا فعل هذا، لماذا التزم بهذا، لماذا كان على أمي أن تموت بالطريقة التي ماتت بها. إذا لم يضع والتر ذلك القانون،" قالت، "مَن يدري كيف كانت ستتطور الأمور؟ مَن يدري أن كولمن لم يكن ليخبر زوجته فيما السنوات تمرّ ويمضي بعيدًا عن قراره؟ ربما حتى كان سيخبر أبناءه يومًا ما. ربما يخبر العالم. ولكن والت جمّد كل شيء في لحظة. وتلك لم تكن فكرة جيدة أبدًا. كولمن فعل ما فعل وهو بعد في العشرينات من عمره. شاب طائش في السابعة والعشرين. ولكنه لم يكن سيظل في السابعة والعشرين للأبد. لم تكن ستظل 1953 للأبد. الناس يكبرون. الأمم تشيخ. والمشاكل تتقدم في العمر. أحيانًا تشيخ المشكلاتُ حتى تخرج من الوجود. ولكن والت جمّدها. بالطبع، لو أنك نظرت للأمر بضيق أفق، من وجهة نظر المصلحة الاجتماعية البسيطة، بالطبع كان من المصلحة بالنسبة لزنجي عذب الحديث من الطبقة المتوسطة أن يفعلها على طريقة كولمن، كما أنه من المصلحة اليوم ألا تحلم بفعلها بالطريقة ذاتها. اليوم، إذا كنتَ زنجيًا ذكيًا من الطبقة الوسطى وكنت تريد أن يذهب أطفالك لأفضل المدارس، وينالوا أفضل المنح الدراسية لو احتجت ذلك، لا تجرؤ أن تحلم بأن تقول إنك لست زنجيًا. سيكون هذا آخر شيء تفكر أن تفعله. البيض الذين في لون بشرتك ربما يكونون، الآن من المصلحة ألا تفعل ذلك، ولكن في وقتها كان

من المصلحة أن تفعلها. وإذن ما الفرق؟ ولكن هل بوسعي أن أخبر كولمن بهذا؟ هل أقدر أن أقول له: 'وإذن حقًّا ما الفرق؟' أولاً بسبب ما فعله كولمن بأمي، وثانيًا أن في عيني والتر كانت هناك حرب على وشك الاشتعال وقتها، وكولمن لم يكن يريد أن يحارب- لتلك الأسباب وحدها، بالتأكيد لا أقدر. ولذلك لا تظن أنني عبر السنين لم أحاول. لأن والتر، في الحقيقة، ليس فظًّا. أتود السماع عن شقيقي والتر؟ عام 1944 كان والتر في الواحدة والعشرين جنديًّا في كتيبة الرُّماة ضمن سرية جنود مشاة ملونين. كان مع جندي آخر من كتيبته. كانوا فوق سلسلة تلال في بلجيكا يفحصان واديًا يقطعه شريط سكة حديد. شاهدا جنديًّا ألمانيًّا يمشي شرقًا بموازاة الطريق. كان معه حقيبة صغيرة معلقة بحبال على كتفه وكان يُصفّر. الجندي الآخر مع والتر صوَّب سلاحه. 'ماذا تفعل بحق الجحيم؟' قال له والتر. 'سوف أقتله.' 'لماذا؟ توقّفْ! ماذا فعل؟ إنه يمشي. هو على الأرجح ذاهبٌ إلى وطنه.' كان على والتر أن يصارع لينتزع البندقية من زميله هذا. صبيٌّ من جنوب كارولينا. هبطا عن التل وأوقفا الألماني وأخذاه أسيرًا. وتبينّ أنه كان ذاهبًا إلى الوطن. كان معه إذن، والطريقة الوحيدة التي كان يعرفها ليعود إلى ألمانيا هو تتبّع شريط القطار شرقًا. وكان والتر هو الذي أنقذ حياته. كم جنديًّا على الإطلاق قد فعل ذلك؟ شقيقي والتر رجل ذو عزم يكون صلبًا حين يجب عليه أن يكون، ولكنه أيضًا إنسان. لأنه إنسان فإنه يؤمن أن ما تفعله، يجب تفعله لتفيد العِرق وتدفعه للأمام. وأيضًا حاولتُ معه، حاولتُ في بعض الأحيان بقول أشياء لوالتر أنا نفسي أؤمن بها نصف إيمان. كولمن كان جزءًا من زمنه، أخبرته. كولمن لا يستطيع أن يصبر حتى يخوض خضّم الحقوق المدنية ليحصل على حقوقه الإنسانية، ولذلك اختصر خطوةً. 'انظرْ إليه تاريخيًّا،' كنتُ أقولُ لوالتر. 'أنت معلّم تاريخ- انظر إليه كجزء من شيء أكبر.' أخبرته بذلك، 'لا أحد منكما قد استسلم لمعطياته. كلاكما مقاتلٌ وكلاكما قد قاتَلَ. أنت تعارك بطريقتك وكولمن خاض المعركة على طريقته.' لكن هذا كان خطًّا من خطوط التفكير لم ينفع مع والتر أبدًا. لا شيء نفع أبدًا. تلك كانت طريقة كولمن في أن يصبح رجلاً، كنتُ أقول له- ولكنه لم ينصت إليّ. بالنسبة لوالت، كانت تلك طريقة كولمن في ألا يصبح رجلاً. 'بالتأكيد،' كان يقول لي، 'بالتأكيد. أخوك تقريبًا هو كما كان، فيما عدا أنه كان أسود. فيما عدا؟ فيما عدا؟ تلك الـ'فيما عدا' قد غيرت كل شيء.' والت لم يستطع أن يرى كولمن غير ما اعتاد أن يراه دائمًا. وماذا بوسعي أن أفعل حيال ذلك يا مستر زوكرمان؟ هل أكره شقيقي والت بسبب ما فعله مع كولمن بتجميد أسرتنا في وقت كذاك؟ هل أكره شقيقي كولمن بسبب ما فعله بأمي، بسبب ما فعله بامرأة فقيرة كافحت بجدٍّ حتى يومها الأخير الأخير؟ وبما أنني سأكره شقيقيّ الاثنين، لماذا أتوقف عند

هذا؟ لماذا لا أكره أبي بسبب كل الأشياء الخطأ التي فعلها؟ لماذا لا أكره زوجي الراحل؟ فأنا لم أكن متزوجة من قديس، أؤكد لك. أحببتُ زوجي، ولكن لديّ رؤية صافية. وماذا عن ابني؟ هو ولدٌ لن يكون من الصعب على الإطلاق أن يُكرَه. لقد خرج عن طريقه ليجعل الأمر سهلاً. ولكن خطورة الكراهية هي أنك بمجرد أن تدخل فيها، ستجد مائة سبب أكثر مما كنت تراهن عليه. بمجرد أن تبدأ لا تستطيع أن تتوقف. لا أعرف شيئًا أصعب من الكراهية من حيث إمكانية السيطرة عليها. أن تقلع عن الخمر أسهل من أن تسيطر على الكراهية. وهذا يقول شيئًا ما."

"هل كنتِ تعلمين قبل اليوم،" سألتُها، "لأي سبب استقال كولمن من الجامعة؟"

"لم أكن أعلم. ظننته وصل إلى سنّ التقاعد."

"لم يخبرك أبدًا."

"لا."

"وإذن لم يكن بوسعك أن تفهمي عما كان 'كيبل' يتكلم."

"كلا على الإطلاق."

لذلك أخبرتُها بحكاية الـ*Spooks*، أخبرتها بالقصة كلها إذن، وحين انتهيتُ هزّتْ رأسَها وقالت، مباشرةً: "لا أظن أنني سمعت أبدًا شيئًا أكثر من ذلك حمقًا اقترفته مؤسسةُ تعليم عالٍ. تبدو على هذا النحو بالنسبة لي أشبه بمعقل الجهالة. أن يضطهدوا بروفيسور جامعة، أيًّا مَن كان، أيًّا ما كان لونه، أن يهينوه، أن يجلبوا له العار، أن يستلبوا سلطته وكرامته ومكانته لمثل شيء في غباء هذا وابتذاله. أنا ابنة أبي يا مستر زوكرمان، ابنة أب كان خبيرًا بالمفردات، ومع كل يوم يمرّ، فإن الكلمات التي أسمعها تُنطق تضربني كوصف للأشياء أقل فأقل عما هي عليه في الواقع. يبدو لي من خلال ما أخبرتَني به الآن أن أي شيء من الممكن أن يحدث اليوم في الجامعة. يبدو كأنما الناس هناك قد نسوا ما الذي عليهم أن يدرّسوه. يبدو كأن ما يفعلونه شيء أشبه بالتهريج. كل زمن له مسئولوه الرجعيون، وهنا في أثينا من الواضح أنهم يفوقون الجميعَ رجعيةً. على المرء أن يكون مرعوبًا من كل كلمة ينطقها؟ ما الذي جرى للتعديلات الأولى للدستور في الولايات المتحدة الأمريكية؟ في طفولتي، مثلما في طفولتك، كان كل طالب يتخرج من المدرسة الثانوية في نيوجيرسي يوصى بأن ينال عند التخرج شيئين: شهادة دبلوما ونسخةً من الدستور. هل تتذكر هذا؟ كان عليك أن تأخذ سنةً في تاريخ أمريكا وفصلاً دراسيًّا مدته نصف سنة في علوم الاقتصاد- وهو، بالطبع، لم يعد يحدث الآن: 'كان عليك' هذه، خرجت من المنهج الدراسيّ. عند التخرج كان من التقليدي في كثير من مدارسنا تلك الأيام أن يناولك مديرُ المدرسة شهادةَ

الدبلوما في يد، ويناولك شخصٌ آخر نسخة من دستور الولايات المتحدة في يدك الأخرى. قليلون جدًا الآن لديهم فهم عقلاني واضح لدستور الولايات. ولكن هنا في أمريكا، بقدر ما أرى، يزداد الأمر حُمقًا ساعةً بعد أخرى. كل تلك الجامعات تبدأ بتلك البرامج الإصلاحية ليعلّموا الأولاد ما كان عليهم أن يتعلموه في السنة التاسعة. في مدارس إيست أورانج الثانوية توقفوا منذ زمن بعيد عن قراءة الكلاسيكيات القديمة. لم يسمعوا حتى عن موبي-ديك[229]، قليلون جدًا مَن قرءوها. الغلمان الصغار كانوا يأتون إليّ في العام الذي تقاعدتُ فيه، يخبرونني أن من أجل 'شهر التاريخ الأسود'[230] عليهم وحسب أن يقرءوا السيرة الذاتية لعَلَم أسود كتبها أسود. وما الفرق، كنتُ أسألهم، ما إذا كان المؤلف أسود أم أبيض؟ أنا شخصيًا ينفد صبري مع 'شهر التاريخ الأسود' برمّته. أُشبِّه الاحتفالَ بـ'شهر التاريخ الأسود' في فبراير والتركيز على تدريسه بالحليب الذي على وشك التخثُّر. مازال بوسعك أن تشربه، ولكن مذاقه لم يعد طيبًا. إذا كنتَ ستدرس واكتشفت ماثيو هينسون[231]، فإن ما يبدو لي هو أنك ستتذكر ماثيو هينسون حينما تذكر المستكشفين الآخرين."

"لستُ أعرف مَن هو ماثيو هينسون،" قلتُ لإرنستين، وأنا أتساءل إن كان كولمن يعرف، لو كان قد أراد أن يعرف، إذا كان عدم الرغبة في المعرفة هو أحد الأمور التي وضعها ضمن قراره.

"مستر زوكرمان..!" قالتها، برقّة كافية، ولكن لتشعرني بالخجل كذلك.

"مستر زوكرمان لم يكن مُطَّلِعًا على 'شهر التاريخ الأسود' وهو غلام،" قلتُ لها.

"مَن اكتشف القطب الشمالي؟" سألتني.

فجأة شعرتُ بميل عنيف تجاهها، وكلما زاد ذلك زاد تحذلقها كمعلّمة تطرح المعلومات. وهكذا، لأسباب مختلفة، بدأتُ أميل إليها مثلما كنتُ أميل إلى شقيقها. وقد رأيتُ الآن أنكَ لو حدث ووضعتهما جوار بعضهما، ما كان من الصعب على الإطلاق أن تعرف ماذا كان كولمن. الجميع كانوا يعرفون... أوه، الغبية، الغبية، الغبية دلفين روكس. حقيقة المرء غير معلومة لأحد، وغالبًا- كما في حالة دلفين- للمرء نفسه. "نسيتُ إن كان بيري أم كوك،" قلتُ. "نسيتُ أيهما ذهب إلى القطب الشمالي أولاً."

"حسنًا، هينسون ذهب إلى هناك من قبله. حينما ظهرت تقارير في نيويورك تايمز، نال الفخر كله والشهرة. ولكن الآن حينما كتبوا التاريخ، فإن كل ما ستسمع عنه هو

---

[229] - Moby-Dick، من كلاسيكيات الأدب الأمريكي وعيونه. صدرت عام 1851 من تأليف الأمريكي هرمان ميلفل، تحكي صراع بحار مع حوت أبيض شرس. (المترجمة)

[230] - Black History Month، عيد سنوي يستعيد ذكرى أهم الأعلام والأشخاص في تاريخ الأفارقة المشتتين في العالم. يُحتفل به في فبراير من كل عام في أمريكا، وفي أكتوبر في بلدان أوروبية أخرى. (المترجمة)

[231] - Matthew Henson، مستكشف أفريقي أمريكي (1866-1955)، أول من اكتشف القطب الشمالي. (المترجمة)

بيري. كان الأمر سيبدو على النحو نفسه لو قيل إن سير إدموند هيلاري[232] قد صعد إلى قمة جبل إيفرست ولا تسمع كلمة عن تينزنج نوركي. وجهة نظري هي،" قالت إرنستين، وهي الآن في مجالها المناسب، بكل حس السلوك المهني والتعليمي- وعلى عكس كولمن، كانت كل شيء أرادها والدها أن تكون عليه- "وجهة نظري هي، إذا كان لديك مشكلة صحية أو ما شابه، فإنك إذن تتذكر د.تشارلز درو[233]. سمعت عنه؟"

"لا."

"عارٌ عليك يا مستر زوكرمان. سأخبرك بعد برهة. ولكنك تذكُر د.درو حينما يتعلق الأمر بالصحة. ولكنك لا تضعه في فبراير. فهمت ما أقصد؟"

"نعم."

"تسمع بهم حينما تدرس المستكشفين ورجال الصحة وكل الرجال الآخرين. ولكن كل شيء هناك الآن هو أسود هذا وأسود ذاك. أترك ذلك كأنه لا يتعلق بي بقدر ما أستطيع، ولكن الأمر ليس سهلا. منذ سنوات، كانت مدرسة إيست-أورانج الثانوية ممتازة. الأولاد المتخرجون من ثانوية إيست-أورانج، خاصة أولئك الحاصلون على البرامج الشرفية، كانت لديهم اختياراتهم من بين الجامعات. أوه، لا تجعلني أبدأ في هذا الموضوع. ما حدث لكولمن مع تلك الكلمة '*Spooks*' إن هو إلا جزء من ذلك الإخفاق الهائل نفسه. أيام جيل والديّ وكذلك أيامك وأيامي، كان من المعتاد أن يسقط الشخص مبكرًا. الآن هو الانضباط. قراءة الكلاسيكيات أمر صعب للغاية، ومن ثم إنها الكلاسيكيات التي يجب أن تُلام. طلاب اليوم يفرضون على الآخرين عدم كفاءتهم بوصفها امتيازًا. لا أقدر أن أتعلمها، إذن هناك شيء خطأ بها. وهناك شيء خطأ بالخصوص في المعلّم الرديء الذي يدرِّسها. ليست هناك معايير يا مستر زوكرمان، فقط مجرد آراء. دائمًا ما أعاني من هذا السؤال حول ما اعتاد أن يكون في الماضي. التعليم الذي كان. كيف كانت ثانوية إيست أورانج. كيف كانت بلدة إيست أورانج. التجديد الحضاري الذي دمّر إيست أورانج، لا شكوك في عقلي. هم- آباء المدينة- كانوا يتكلمون عن الأمور العظيمة التي سوف تحدث بسبب التجديد الحضاري. هذا أرعب التجّارَ رعبَ الموت فرحل التجارُ، وكلما رحل التجّارُ أكثر كلما قلّت الأعمال هناك. ثم جاء 280[234] وباركواي ليمزّقا بلدتنا الصغيرة إلى أربعة أجزاء. طريق باركواي أزال شارع جونز- مركز تجمع جاليتنا الملونة الذي محاه باركواي تمامًا. ثم طريق 280. ذلك

---

232 - Sir Edmund Hillary، (1919- 2008). متسلق جبال استرالي. أول من صعد جبل إيفرست عام 1953 مع المتسلق النيبالي Tenzing Norkay. (المترجمة)

233 - Charles Drew، طبيب وجراح وباحث طبي شهير أفريقي-أمريكي(1904-1950). (المترجمة)

234 - اسم طريق واسع يصل بين عدة ولايات أمريكية بطول 57 ميلا تم شقّه عام 1955، ليصل بين سان خوزيه، إحدى مدن كاليفورنيا، وسان فرانسيسكو. كذلك باركواي طريق واسع بشمال أمريكا. (المترجمة)

الاقتحام المتطفّل المدمِّر. ماذا فعل ذلك للجالية! لأن الطريق العام كان عليه أن يمرّ، فإن المنازل الجميلة على طول أوراتون باركواي، وشارع إلموود المشجَّر، وطريق مابل العريض، اشترتها الولايةُ ثم اختفت بليلٍ. كان من عادتي أن أتسوّق مشتريات الكريسماس من الشارع الرئيسي. نعم، الشارع الرئيسي والطريق المركزي. الطريق المركزي كان يُسمى الطريق الخامس في مدينة أورانج وقتها. هل تعلم ماذا هناك اليوم؟ لدينا شوب رايت. ولدينا حلويات دانكين. وكان لدينا محلات دومينوز بيتزا، ولكنها أغلقت. الآن لديهم محل طعام آخر. ولكنك لا تستطيع أن تقارن النوعية. ليست هي هي. بكل أمانه، أقود سيارتي إلى أعلى التل إلى ويست أورانج لكي أتسوّق. لم أكن أفعل ذلك وقتها. لم يكن هناك سبب لأفعل ذلك. كل ليلة حينما كنا نخرج لننزّه الكلب، كنت أمشي مع زوجي، إذا لم يكن الجو سيئًا للغاية- حتى الطريق المركزي، على بعد بنايتين، ثم لأسفل الطريق المركزي حتى أربع بنايات، نعبر، ثم نجد خلفية فاترينة المتجر، والبيت. كان هناك ب.آلتمان. أ.رلسيك. كان هناك بلاك، ستار، جورهام. كان هناك باشراش، محل المصور. محل رجل لطيف للغاية، مينكس، كان يهوديًّا، كان ذاك على الطريق الرئيسي. الحياةُ كلها كانت هناك في أورانج الشرقية..."

الحياةُ كلها كانت هناك في إيست-أورانج. ومتى؟ فيما مضى. فيما مضى قبل التطوير الحضاري. قبل أن تُهجَر الكلاسيكيات. قبل أن يتوقفوا عن إعطاء نسخة من الدستور لخريجي المدارس الثانوية. قبلاً حين كانت هناك حصص إصلاحية بالجامعة تعلّم الأولاد ما كان عليهم أن يتعلّموه في الصف التاسع. قبل 'شهر التاريخ الأسود'. قبل أن يشيّدوا باركواي ويشقّوا الـ280. قبل أن يضطهدوا بروفيسور قال "spooks" في الفصل. قبل أن كان عليها أن ترتقي تل ويست أورانج للتسوّق. قبل أن يتبدّل كل شيء بما فيه كولمن سيلك. كان هذا حينما صار كل شيء مختلفًا- عما قبل. وكأنما تنوح، قالت: ولن يعود الوضع كما كان أبدًا، لا في إيست أورانج ولا في أي مكان آخر في أمريكا.

في الرابعة عصرًا، حينما توجّهت بسيارتي صوب جامعة آرمز، حيث كانت تقيم، كان ضوء الظهيرة يسقط بتسارع، والنهار، مثقلاً بالغيوم المخيفة الآن، بدأ يتحول نحو نوفمبر العاصف. في ذلك الصباح واروا جسد كولمن الثرى- وفي النهار السابق دفنوا فونيا- في طقس يشبه الربيع، ولكن كل شيء الآن كان يعلن عن قدوم الشتاء. شتاء الألف ومائتي قدم فوق سطح البحر. ها هو قد جاء.

الدافع الذي تلبّسني وقتها، لأن أخبر إرنستين عن أحد أيام الصيف قبل أربعة شهور حينما اصطحبني كولمن للمزرعة لمشاهدة فونيا وقت حليب الخامسة عصرًا في

حرارة ما بعد الظهيرة المتأخرة- الذي كان في الوقع مشاهدته وهو يشاهد فونيا تقوم بعملية الحلب- لم يتطلب مني الكثيرَ من الحكمة لكي يُطمس. مهما كان مفقودًا من معرفة إرنستين بحياة كولمن، فإنها لم تكن مدفوعة لتكتشف. امرأة ذكية مثلها، لم تسأل سؤالاً واحدًا حول كيف كان يعيش الشهور الأخيرة من حياته، ناهيك عما يكون قد تسبب في موته في الظروف تلك؛ امرأة طيبة ومستقيمة مثلها، فضّلتْ ألا تمعن التفكير في تفاصيل محددة بخصوص دماره. ولا أرادت هي أن تحقّق في أية علائق تخص سيرة حياة تربط بين ما دفعه ليتمرد ويترك أسرته في عشريناته وبين إصراره الثائر، بعد أربعين عامًا متصلة، على أن يعزل نفسه عن كلية أثينا، بوصفه خائنها المنبوذ.
وليس لأنني كنتُ على ثقة من وجود أي ارتباط، أي دوائر أسلاك وثيقة بين القرارين، ولكن بوسعنا أن نحاول ونرى، أليس كذلك؟ كيف حدث لرجل مثل كولمن أن يوجد؟ على أي نوعية كان هو؟ هل كانت فكرته عن نفسه أقل صحةً وشرعيةً أم أكثر صحةً وشرعية عما كانت فكرة أي شخص آخر حول المفترض أن يكونه؟ هل يمكن حتى أن تُعرف تلك الأمور؟ ولكن الحياة بوصفها شيئًا مخفيَّ الهدف، والتقاليد بوصفها شيئًا قد لا يسمح بالتفكير، والمجتمع بوصفه مرهونًا بصورته الخاصة التي قد تكون مشوّهةً على نحو بشع، والفرد بوصفه حقيقيًا بمعزل عن القرارات المجتمعية التي تُعرِّفه، تلك التي قد تكون بالنسبة إليه بالفعل غير حقيقية- باختصار، فإن أية حيرة تضخ في مخيلة الإنسان يبدو أنها تكمن في مكان ما خارج ولائها المخلص للقواعد المقدسة العتيقة.
"لم يسبق أن قرأتُ أيًّا من كتبكَ،" أخبرتني في السيارة. "أنوي أن أنحو نحو الطقوس السرية هذه الأيام، والطقوس السرية الإنجليزية. ولكن حين أعود إلى الوطن، أخطّط لأن آخذ شيئًا من كتبك."
"لم تخبريني مَن هو د.تشارلز درو."
"د.تشارلز درو،" قالت، "اكتشف كيف يُمكن أن يُمنع الدم من التخثّر ومن ثم أمكن تخزينه في بنوك. ثم جُرح في حادث سيارة، والمستشفى الأقرب لم تكن تقبل مرضى ملونين، فمات، بعدما ظل ينزف حتى الموت."
كانت تلك هي محادثتنا كلها أثناء العشرين دقيقة التي استغرقتها قيادة السيارة نحو أسفل الجبل وداخل البلدة. وابلُ سَيل الكشوفات كان قد انتهى. قالت إرنستين كل ما كان يمكن أن يُقال. مع نتيجة أن المصير الساخر على نحو خشن الخاص بالميتة الأليمة لـ د.درو كان ذا مغزى- بدا أن له علاقة خاصة بكولمن ومصيره الساخر أيضًا على نحو خشن- بما بدا مزعجًا لكونه غير قابل للوزن بدقة.

لم أستطع أن أتصور شيئًا يمكن أن يجعل كولمن أكثر غموضًا بالنسبة لي من هذا الكشف. الآن وقد عرفتُ كل شيء بدا الأمرُ كأنما لم أعرف أيَّ شيء، وبدلاً من أن يوّحد ما عرفته من إرنستين فكرتي عنه، الآن لم يعد كولمن شخصًا غير معلوم بالنسبة لي وحسب، بل أصبح شخصًا غير متماسك. بأي نسبةٍ، بأي درجة، حدّدَ سرٌّ كولمن حياتَه اليومية واخترق تفكيره اليومي؟ هل تبدّل عبر السنوات من أن يكون سرًّا عنيفًا ليغدو سرًّا هادئًا، ثم ليغدو سرًّا منسيًا لا أهمية له، أو شيئًا عليه أن يتناوله بجسارة، خطرًا ومراهنةً استطاع أن يصنع لنفسه طريق العودة منهما متى أراد؟ هل نال، من قراره، مغامرةً كان يطاردها، أم كان القرارُ في حد ذاته مغامرةً؟ هل التضليلُ في ذاته هو الذي منحه السعادةَ، الفوزَ بالحركة البهلوانية الخطرة التي أحبها كثيرًا، السفر والترحالَ عبر الحياة بشخصية مستعارة، أم كان ببساطة يغلق الباب في وجه الماضي، والناس، والعِرق الذي لم يُرد أن يربطه به أيٌّ شيء حميميّ أو رسميّ؟ هل كان ذلك هو الحاجزَ الاجتماعي الذي أراد أن يتخطاه؟ هل كان وحسب كأي أمريكي آخر، خلف حدود التقاليد الضخمة، رحّب بدعوة الديمقراطية التي تنادي بإلقاء أصوله في البحر إذا ما أسهم ذلك في سعادته؟ أم كان الأمرُ أكثر من ذلك؟ أم كان أقل؟ إلى أي مدى كانت دوافعه تافهةً؟ كم كانت مَرَضية؟ وبفرض أنها كانت هذا وذاك على حد سواء- ماذا في هذا؟ وبافتراض أنها لم تكن- ماذا في ذلك؟ في الوقت الذي التقيتُه فيه، هل كان ذلك السر هو مجرد الصبغة التي بالكاد تصبغ الكيان الكامل للرجل أم كان كيانه الكامل لا شيء سوى تلك الصبغة التي تلوّن بحر سرّه الذي بلا شاطئ؟ هل كان أبدًا يسترخي في يقظته، أم كان ذاك بمثابة هروب وشرود أبديين؟ هل حدث أبدًا أن تغلّب على حقيقة أنه لا يستطيع أبدًا أن يتغلب على الحقيقة التي كان يخفيها- أنه كان بوسعه أن يواجه العالم بقوّته البكر العفية بعدما فعل ما فعل، أن بوسعه أن يظهر لكل الناس، كما كان يظهر، أن يظهر ببساطة في بيته ببشرته الخاصة؟ بفرض ذلك، أجل، عند نقطة بعينها مالت كفّة الميزان نحو الحياة الجديدة وتراجعت الكفة الأخرى، ولكن هل سبق أبدًا وتغلّب تمامًا على الخوف من الافتضاح والشعور بأنه سوف يُكتشَف؟ حينما جاءني للمرة الأولى، مصدومًا بفقده المفاجئ لزوجته، قتْل زوجته كما كان مقتنعًا، الزوجة الهائلة التي كان دائمًا ما يتنازع معها ولكن التي عاد من جديد ولاؤه لها عميقًا لحظة وفاتها، حينما اقتحم باب بيتي واندفع مكبلاً بالفكرة المجنونة التي تقول إنه بسبب موتها عليّ أن أؤلف له كتابًا، هل كان جنونه بحد ذاته لونًا مُشفَّرًا من الاعتراف؟ Spooks! أن يُقضَى عليه بسبب كلمة لم يعد ينطقها أحد. أن يُعلّق بسبب ذلك، كان ذلك بالنسبة لكولمن، لونًا من تسطيح كل شيء- آلة الزمن المتقنة لكذبة حياته، التقويم

الجميل لخدعته. Spooks! الابتذال السخيف لأدائه المتقن ذاك الذي أصبح عُرفَه ظاهريًا، حياته الفردية الماكرة- حياة النقصان، حتى وإن طفا على السطح أي شيء مفرط، لأن كل شيء زائد يُمتصّ داخل ذلك السر. لا عجب أن أطاحت به تهمة العنصرية إلى عنان السماء. كأنما كانت إنجازاته متجذرة في لا شيء سوى العار. لا عجب في أن كل الاتهامات أطاحت به عاليًا نحو السماء. جريمته فاقت أي شيء وكل شيء أرادوا أن يضعوه فوق كاهله. قال "spooks"، وتورط في علاقة مع عشيقة في نصف عمره- كلها أمور صبيانية. مثل تلك الانتهاكات المثيرة للشفقة، التافهة، السخيفة، تشبه جدًا شكاوى مدرسة ثانوية من رجل فعل، في انحرافه عن المسار المرسوم، ضمن الكثير مما فعل، فعل ما كان عليه أن يفعله لأمه، أن يذهب إلى هناك، وبالنيابة عن فكرته البطولية حول حياته، يخبرها: "الأمر انتهى. علاقة الحب هذه قد انتهت. أنتِ لم تعودي أمي ولم تكوني أبدًا." أي إِنسان لديه من الطيش ما يجعله يفعل ذلك لا يحتاج مجرد أن يكون أبيض. هو يحتاج فقط أن يكون بمقدوره أن يفعل ذلك. عليه أن يفعل ذلك بأكثر من مجرد أن يكون هانئًا بالحرية. الأمر مثل الوحش في الإلياذة، كتاب كولمن المفضل حول الروح الشرهة لدى الإنسان. كل جريمة هناك لها نوعها الخاص، وكل مذبحة أكثر توحّشًا من سابقتها.

ولكن، بعد ذلك، اختلّ نظامُه. بعد ذلك، كان قد فعلها: لم يعد يعيش خارج حماية المدينة المُسوَّرة التي هي العُرف والتقاليد. أو، بالأحرى، كان يعيش، في اللحظة نفسها، بالداخل كليًا، وعلى نحو سريّ، في الخلف كليًا، بالخارج كليًا- كان ذاك هو امتلاء حياته الخاصة بوصفها ذاتية الصنع. نعم، لقد انتصر لأمد طويل، وصولاً إلى كل أطفاله الذين ولدوا بيضًا- ولكنه عندئذ توقف عن الانتصار. صدمه فقدان السيطرة على شيء آخر تمامًا. الرجل الذي قرر أن يلفّق قَدَرًا تاريخيًا مختلفًا، الذي صمم على الوثب فوق باب التاريخ المغلق، والذي فعل ذلك، نجح بتألق في تغيير مصيره الشخصي، فقط لكي تُنفخ فيه روحٌ من تاريخ أبدًا لم يكن له: التاريخ الذي لم يصبح بعد تاريخًا، التاريخ الذي الآن تسجّله دقّات الساعة، التاريخ الذي يتكاثر بينما أكتبُ الآن، مُراكمًا دقيقةً مع مرور دقيقة، التاريخ الذي يُقبض عليه بيد المستقبل أفضل مما يحدث بيدنا نحن.

الـ"نحن" التي لا مفرّ منها: اللحظة الحاضرة، النصيب الجمعي المشترك، المِزاج الراهن، العقل الجمعي الخاص بالوطن، الإمساك بخناق التاريخ الذي هو الزمن الشخصي للمرء. كان مصدومًا بالطبيعة المؤقتة المرعبة لكل شيء.

حينما وصلنا شارع ساوث وارد وصففتُ سيارتي خارج كلية آرمز، قلتُ لإرنستين: "أودّ أن ألتقي والتر يومًا ما. أود أن أتحدث مع والتر عن كولن."

"والتر لم يذكر اسم كولن منذ عام 1956. لن يتكلم حول كولن. ربما عن كلية بيضاء كتلك التي هناك في نيو إنجلاند، وهو المكان الذي صنع فيه كولن مستقبله. عن مادة دراسية للبيض عن مواد المنهج الدراسي هناك، وهذا ما اختار كولن أن يُدرّسه. بالنسبة لوالتر، كان كولن أكثر بياضًا من البيض. ليس هناك ما وراء ذلك ليقوله عنه."

"هل ستخبرينه بأن كولن قد مات؟ هل ستخبرينه أين كنتِ؟"

"لا. لن أفعل إلا لو سألني."

"هل ستتواصلين مع أبناء كولن وتخبرينهم؟"

"لماذا أفعل؟" سألتْ إرنستين. "كان كولن هو الذي يجب أن يخبرهم. الأمر لا يخصني."

"لماذا أخبرتِني إذن؟"

"لم أخبرك. أنتَ قدّمتَ نفسَك في المقبرة. قلتَ لي: 'أنتِ شقيقة كولن.' فقلتُ نعم. أنا ببساطة تكلمت بالحقيقة. لستُ الشخص الذي لديه ما يخفيه." كانت على تلك الصرامة مثلما كانت معي طوال ما بعد الظهيرة. ومع كولن. حتى تلك اللحظة كانت توازن نفسها بدقة بين تحطّم الأم وغضب الشقيق.

هنا سحبت محفظةً من حقيبتها. فتحت المحفظة لتُريني لقطةً فوتوغرافية مطويةً في حافظة بلاستيكية. "أبواي،" قالت. "بعد الحرب العالمية الأولى. كان عائدًا للتوّ من فرنسا."

شابان أمام مدخل بيت من الطوب، المرأة الشابة الجميلة في قبعة كبيرة وفستان صيفي طويل والرجل الطويل الشاب في زيّه العسكري الكامل، في قبعة تغطي الوجه، وحزام جلدي بنطاق حامل للرصاص، وقفاز جلدي، وحذاء بوت طويل من الجلد المصقول. كانا شاحبين ولكنهما زنجيان. كيف أمكنك أن تعرف أنهما زنجيان؟ بالقليل مما يظهر منهما حتى لم يتبق شيئًا لم يخفياه.

"شاب وسيم. خصوصًا في هذا الزي العسكري." قلتُ. "ربما هو زي سلاح الفرسان أو الخيّالة."

"سلاح المُشاة." قالتْ.

"أمُّكِ لم أستطع رؤيتها جيدًا. والدتك مظلّلة قليلاً بالقبعة."

"بوسع المرء أن يفعل الكثير لكي يسيطر على حياته،" قالت إرنستين، وبهذه الجملة القوية الملخّصة فلسفيًا مثلما كانت حريصة أن تقول، أعادت المحفظة إلى حقيبتها،

شكرتني على الغداء، ثم بدأت تحشد نفسها من جديد في اتجاه ذلك الوجود المرتب المنظم الذي يُقصي نفسَه بحسم عن التفكير المخادع، سواء كانت بيضاء أو سوداء أو ما بينهما، وغادرت السيارة. وبدلاً من أن أتوجّه وقتها إلى البيت، قدتُ السيارة عبر البلدة نحو المقبرة، وبعدما صففتُ السيارة في الشارع، مشيتُ ودخلتُ البوابة، وأنا لا أعرف تحديدًا ماذا يحدث، وقفتُ في الظلام الهابط جوار تلّة التربة غير المستوية المتراكمة بخشونة فوق نعش كولمن، كنتُ مأخوذًا تمامًا بحكايته، بنهايتها وببدايتها، في ذلك المكان والزمان، ثم بدأتُ هذا الكتاب.

بدأتُ بالتساؤل حول كيف كان الأمر حينما أخبر كولمن فونيا بالحقيقة حول تلك البداية- بافتراض أنه قد فعل؛ بافتراض أن هذا ما حدث، وأنه كان عليه أن يفعل. بافتراض أن ما لم يستطع أن يخبرني به فورًا يوم اندفع إلى بيتي وهو يصرخ: "اكتبْ حكايتي، عليك اللعنة!" وما لم يستطع قوله لي حينما كان عليه أن يتخلّى عن (بسبب السر، أدركتُ ذلك الآن) محاولته كتابة حكايته بنفسه، هو ذاته الذي لم يستطع أن يقاوم الاعتراف به لها في النهاية، لعاملة النظافة بالكلية التي حدث أن أصبحت رفيقته، الشخص الأول والأخير منذ إيللي ماجي تلك التي استطاع أن يتجرّد أمامها من ملابسه ويدور حولها ليستعرض، عبر نتوءات ظهره العاري، الجسدَ الذي قرر أن يُبحر منه نحو هروبه العظيم. إيللي، ومن قبلها ستينا، وأخيرًا فونيا. المرأة الوحيدة التي أبدًا لم تعرف سرَّه هي المرأة التي قضى معها عمرَه، زوجته. لماذا فونيا؟ بما أنه أمرٌ إنسانيٌّ أنْ يكون لك سرٌّ، فإنه أيضًا أمرٌ إنسانيّ، عاجلاً أم آجلاً، أن تبوح بهذا السر يومًا ما. حتى وإن كان، كما في هذه الحالة، لامرأة لا تسأل أسئلةً، امرأة، كما بوسعك أن تظن، قد تكون بمثابة الهدية بالنسبة لرجل في حوزته مثل هذا السر. ولكن حتى لها- بل بالخصوص لها. لأن عدم سؤالها أية أسئلة لم يكن لأنها خرساء أو لا تود أن تواجه الأمور؛ عدم سؤالها له أية أسئلة، من وجهة نظر كولمن، كان ناتجًا عن تحطّم كرامتها.

"أعترفُ أن ذلك ربما لم يكن صحيحًا على الإطلاق،" قلتُ لصديقي المتحوِّل كليًا، "أعترفُ أن شيئًا منه لم يكن ليحدث. لكن هذا ما حدث على كل حال: حينما كنتَ تحاول أن تكتشف ما إذا كانت عاهرة... حينما كنتَ تحاول أن تكشف سرَّها..." هناك داخل قبره، حيث كل شيء قد كانه، كان قد اختفى الآن وتوارى تحت ثِقل كتلة كل هذا التراب إن لم يكن بشيء آخر، انتظرتُ وانتظرتُ لكي يتكلم حتى سمعتُه في الأخير يسأل فونيا عن أسوأ مهنةً مارستْها. ثم انتظرتُ من جديد، انتظرتُ مدةً أخرى، حتى

شيئًا فشيئًا بدأتُ ألتقطُ الذبذبات الوقحة التي كانت حديثها التدريجي. وهكذا بدأ كل هذا: بوقوفي وحيدًا في ظلام القبور ودخولي في منافسة احترافية مع الموت.

"بعد الطفلين، بعد الحريق،" سمعتُها تخبره، "كنتُ أعمل بأية وظيفة أجدها. لم أكن أعرف ماذا أفعل وقتها. كنتُ حائرة وفي حال ضبابية. حسنًا، ثم كانت حالة الانتحار تلك،" قالت فونيا. "كان هذا في أعلى الغابة هناك خارج بلاكويل. ببندقية رشّ. بندقية صيد طيور. الجثة اختفت. امرأةٌ كنتُ أعرفها، هذه السِّكّيرة، سيسي، نادتني لآتي وأساعدها. كانت ذاهبة إلى هناك لتنظّف المكان. 'أعرف أن هذا سوف يبدو شاذًا،' قالت لي سيسي، 'ولكنني أعرف أن لكِ مَعِدةً قوية وبوسعك أن تتعاملي مع الأشياء. هل بوسعك أن تساعديني في فعل هذا؟' كان هناك رجل وامرأة يعيشان هناك، وأطفالهما، واشتعلت بينهما مناقشة حادة، فذهب إلى الغرفة الأخرى وفرّغ الرصاصَ في مخّه. 'سوف أذهب هناك لأنظف المكان،' قالت سيسي، ولذا ذهبتُ معها. كنتُ أحتاج إلى المال، ولم أكن أعرف ماذا أنا فاعلة على كل حال، ولهذا ذهبتُ. رائحةُ الموت. هذا ما أتذكره. معدنيةٌ. الدم. الرائحة. بدأتِ الرائحةُ في الانتشار فقط حين بدأتُ التنظيف. ليس بوسعك أن تشعر بالتأثير الكامل حتى يضربَ الدمَ الماءُ الدافئُ. المكان كوخٌ خشبي. الدم على الحوائط في كل مكان. با-بووم، كانت في مكان على الجدران، حول كل شيء. بمجرد أن يخبط الماءُ الدافئ والمطهِّر... وييو. كنتُ أرتدي قفازًا مطاطيًا، وكان عليّ أن أضع كمامة، لأنني لم أستطع تحمّل الرائحة أكثر. كذلك شظايا العظام على الحائط، كانت ملتصقة بالحائط بفعل الدماء. ولكن البندقية كانت في فمه. با-بووم. عظام وأسنان هناك أيضًا. رأيتها. كانت هناك بكاملها. أتذكر وأنا انظر إلى سيسي. كنتُ أنظر إليها وكانت تهزُّ رأسها. 'لماذا بحق الشيطان نفعل ذلك من أجل أي مبلغ من المال؟' أنهينا المهمة بأفضل ما نستطيع. مائة دولار في الساعة. تلك التي مازلت أظن أنها لم تكن كافية."

"ماذا عساه يكون الثمن المناسب؟" سمعتُ كولن يسال فونيا.

"ألف دولار. فليحترق ذلك المكان الملعون. ليس من ثمن مناسب. خرجت سيسي خارج الكوخ. لم تستطع التعامل مع الأمر أكثر. ولكن أنا، وطفلاي الصغيران ميتان، والمجنون لِستر يتبعني في كل مكان، يتهمني بالنهار وبالليل، فمَن يعبأ؟ بدأتُ في التطفل. لأن بوسعي أن أكون هكذا. كنتُ أريد أن أعرف لماذا بحق الجحيم فعل هذا الرجل ما فعل. هذا يسحرني دائمًا. لماذا يقتل الناسُ أنفسَهم. لماذا هناك قتلةٌ كثيرون. الموت بوجه عام. فاتن للغاية. نظرتُ إلى الصور. نظرتُ لأرى ما إذا كانت هناك أية سعادة. نظرتُ إلى المكان كله. حتى وجدتُ خزانة الأدوية. العقاقير. القوارير. لم تكن

هناك سعادة. صيدليته الصغيرة الخاصة. خمّنتُ أنها عقاقيرُ نفسية. مواد كان يجب تناولها ولم يتم تناولها. من الواضح أنه كان ينشد المساعدة، ولكنه لم يستطع. لم يستطع أن يتناول العلاج."

"كيف عرفتِ ذلك؟" سألها كولمن.

"افترضتُ ذلك. لم أعرف. هذه حكايتي الخاصة. تلك حكايتي."

"ربما كان يتناول الأدوية وقتل نفسه مع هذا على كل حال."

"قد يكون،" قالت فونيا. "الدماء. الالتصاق. لم يكن بوسع أحد إزالة الدم عن الأرضية. فوطة بعد فوطة بعد فوطة. ومازال اللون على المناشف. وأخيرًا بدأ اللون يتحول إلى البرتقالي، ولكنه لا يزال عصيًا على الإزالة. كما لو كان شيئًا لا يزال حيًا. مُطهِّرٌ شديد المفعول- لم يساعد. الدمُ معدنيٌّ. مسكِّر. مثيرٌ للغثيان. لم أسدّ أنفي أو فمي. وضعتُ عقلي فوق الأمر. ولكنني أوشكتُ على إنهاء المهمّة."

"كم استغرق الأمر؟" سألها.

"مكثنا هناك حوالي خمس ساعات. كنتُ ألعب كشرطي مباحث هاوٍ. كان الرجلُ في منتصف الثلاثينات. لا أعرف ماذا كان يعمل. بائع أو ما شابه. كان له شخصية رجل الغابات. نموذج لرجل الجبال. لحية ضخمة. شعر كثٌّ كثيف. وهي كانت جميلة. وجه حلو. بشرة فاتحة. شعر قاتم. عينان غامقتان. تشبه الفأر. خوّافة. هذا وحسب ما فهمتُه من الصور. كان هو النموذج الجبليّ القوي الضخم بينما كانت هي النموذج الفأريّ الضئيل. لا أعرف. ولكنني أريد أن أعرف. كنتُ منعتقةً صغيرة. هاربة من المدرسة. لم أستطع الذهاب إلى المدرسة. بعيدًا عن كل شيء آخر، كان هذا مضجرًا. كل تلك الأشياء الحقيقية كانت تحدث في بيوت الناس. مؤكَدة مثل الخراء الذي كان يحدث في بيتي. كيف كان لي أن أذهب إلى المدرسة لأتعلّم مَن كان عمدةُ ولاية نيبراسكا؟ كنت أودّ ان أعرف. أود أن أخرج وأنظر حولي. من أجل هذا ذهبتُ إلى فلوريدا، وبهذه الكيفية تجولتُ هنا وهناك، ومن أجل هذا كنتُ أتلصص في ذلك البيت. فقط لكي أنظر حولي. كنتُ أودّ أن أعرف الأسوأ. ما هو الأسوأ؟ هل تدري؟ كانتْ هناك في الوقت الذي فعل فيه هذا. في الوقت الذي ذهبنا إلى هناك، كانت تخضع لرعاية الطب النفسي."

"هل كان ذلك أسوأ الأشياء التي كان عليكِ فعلها على الإطلاق؟ أسوأ الأعمال التي كان عليكِ أداؤها؟"

"عجيب ومخيف. نعم. رأيت الكثير من الأشياء. ولكن ذاك الشيء- لم يكن مجرد شيء عجيب ومخيف. بل على الجانب الآخر، كان ساخرًا. وددتُ أن أعرف لماذا."

كانت تريد أن تعرف الأسوأ. ليس الأفضل، بل الأسوأ. من خلاله كانت تقصد الحقيقة. ما الحقيقة؟ لذلك أخبرها بها. أول امرأة منذ 'إيللي' تكتشف الأمر. أول شخص على الإطلاق منذ 'إيللي'. لأنه كان يحبها في تلك اللحظة، راح يتخيلها وهي تكشط الدم. كانت أكثر اللحظات التي شعر فيها باقترابه منها. هل يمكن أن يكون هذا ما حدث؟ كانت اللحظة التي شعر فيها كولمن بالاقتراب الحميم من أي إنسان! لقد أحبّها. لأن ذلك يحدث حينما تحب شخصًا ما- حينما تراه وقد أصبح لُعبةً في مواجهة الأسوأ. ليست شجاعةً. ليست بطوليةً. مجرد لُعبة. لم يكن لديه أي تحفّظ عليها. لا شيء. الأمر كان وراء التفكير والحسابات. أمرٌ غريزيٌّ. بعد ساعات قليلة ربما يتحول الأمر ليصبح فكرة رديئة للغاية، ولكن عند هذه اللحظة، لا. كان يثق بها- هذا هو ما كان. كان يثق بها: هي كشطت الدماء عن الأرضية. هي لم تكن متدينة، هي لم تكن منافقةً، هي لم تتشوّه عبر حكايا الجنيّات عن الطهارة، مهما كانت هناك من انحرافات أخرى قد شوّهتها. هي لم تكن مكترثة بالأحكام القضائية- كانت ترى كثيرًا جدًّا بسبب كل تلك اللعنات. هي لم تكن لتركض بعيدًا مثل ستينا، مهما قلتُ لها. "فيمَ تفكرين،" سألها، "لو أخبرتك أنني لستُ رجلاً أبيض؟"

أول الأمر فقط نظرت إليه، إذا كانت قد ذُهلت، فقد ذهلت لجزء من الثانية لا أكثر. ثم شرعت في الضحك، انفجرت في الضحكة التي كانت علامتها المميزة. "فيمَ أفكر؟ سأفكر أنك تخبرني بشيء اكتشفتُه أنا منذ زمن بعيد."

"هذا غير صحيح."

"أوه، ليس صحيحًا؟ أنا أعرف مَن تكون أنت. لقد عشتُ في الجنوب. والتقيتُ بهم جميعًا. بالتأكيد، أعرف. لأي سبب آخر سوى هذا أحببتُك جدًّا بظنّك؟ لأنك أستاذ جامعي؟ أكون قد فقدتُ عقلي لو كان هذا هو أنت بالنسة إليَّ."

"لا أصدقكِ يا فونيا."

"على راحتك،" قالت. "هل انتهيتَ من سؤالك؟"

"أي سؤال؟"

حول أسوأ عمل أديته في حياتي."

"بالتأكيد،" قال. ثم انتظر سؤالها حول عدم كونه أبيضَ. ولكنه لم يأت أبدًا. لم يبدُ عليها الاكتراث بالفعل. ولم تهرب. حينما أخبرها بالقصة كاملة، أنصتت بتركيز حتى انتهي، ولكن ليس لأنها وجدت القصة مدهشة أو لا تُصدَّق أو حتى غريبة- القصة بالتأكيد لم تكن تستحق التوبيخ. كلا، بل بدت حكايته بالنسبة لفونيا كما الحياة ذاتها.

في فبراير، تلقيتُ مهاتفةً من إرنستين، ربما لأنه كان 'شهر التاريخ الأسود' وقد تذكرتْ أن عليها أن تعرِّفني مَن يكون كل من ماثيو هينسون ود.تشارلز درو. ربما كانت تفكر أنه الوقت المناسب لكي ترفع مستوى تعليمي في العِرق، وتلمس بالخصوص كل شيء كان كولمن قد قطع نفسه منه، عالم إيست أورانج جاهز الصنع المكتظ حتى الحافّة، أربعة أميال مربعة غنيّة في تشبّثها بتفاصيل الوجود، الطبقة الصخرية الغنائية الصلدة لمرحلة الصبا المتأجج، الحماية كلها، الولاء كله، المعارك، الأمور التقليدية التي تؤخذ ببساطة كمُسلّمات، لا شيء نظريًا حولها، لا شيء باطلاً أو مضللاً حولها- كل ألوان النشوة للبدايات السعيدة التي تنبض بالإثارة والأحاسيس المشتركة تلك التي أطاح بها كولمن ومحاها من الذاكرة.

لدهشتي، بعدما أخبرتني أن والتر سيلك وزوجته سوف يأتيان من آزبري بارك يوم الأحد، أخبرتني بأنني، لو لم يكن لدي مانع من القيادة حتى جيرسي، مرحَّبٌ بي على غداء الأحد.

"كنتَ تريد أن تقابل والت. وفكرتُ أنك ربما تحب أن ترى البيت. هناك ألبومات صور. وهناك غرفة كولمن، حيث كان ينام كولمن ووالتر. السريران التوأمان مازالا هناك. أصبحت غرفة ابني من بعدهما، ولكن إطارات الصور التي من خشب الشجر لاتزال هناك في مكانها."

ها أنا كنتُ الآن أُدعى لرؤية تفاصيل عالم عائلة سيلك الذي كان كولمن قد تخلّص منه، كأنما قد كان عبوديته، من أجل أن يحيا في دائرة تكافئ شعوره بحجمه ومكانته- من أجل أن يكون شخصًا آخر، شخصًا يناسبه، ويصنع قَدَره بأن يغدو خاضعًا ومُستعبَدًا لشيء آخر. تخلّص من تلك العائلة جميعًا، كل التشعّبات الزنجية، وهو يظن أنه غير قادر على استبدالها بأي نحو آخر. الكثير من التوق والحنين، الكثير من الخطط والهوى والحنوّ والنفاق والمراءاة، كل ما فيها كان يغذي الجوع لمغادرة المنزل من أجل التحوّل.

لكي يكون كائنًا جديدًا. لكي ينشطر ويتشعّب. دراما ترتكز على قصة أمريكا، الدراما العليا التي هي العلوّ والمغادرة- والطاقة والقسوة التي يتطلبها الاندفاع النشوان.

"أُحبُّ أن آتي،" قلتُ.

"لا أضمنُ لك أيَّ شيء،" قالت إرنستين. "ولكنك رجلٌ ناضج. بوسعك أن تعتني بنفسك."

ضحكتُ. "بمَ تودين أن تخبريني؟"

"والتر ربما وصل للثمانين الآن، ولكنه مازال جمرةً كبيرة هادرة. ما سيقوله لن تحبه."

"عن البيض؟"

"عن كولمن. عن الكذّاب الأناني. عن الابن البلا قلب. عن خائن عِرقه وبَني قومه."

"أخبرتِه أنه مات."

"قررتُ أن أفعل. نعم، أخبرتُ والتر. نحن أسرةٌ. أخبرته بكل شيء."

بعد أيام قليلة، وصلتني بالبريد صورة مع كلمة من إرنستين: "عثرتُ على هذه وفكرت في زيارتك لنا. من فضلك احتفظْ بها، إذا احببتَ، كذكرى من صديقك كولمن سيلك." كانت صورة باهتة بالأبيض والأسود مساحتها حوالي أربع بوصات في خمس، لقطةُ ملاكمة، على الأرجح التُقطت بكاميرا براوني الصندوقية في الفناء الخلفي لبيت أحد الأشخاص، لقطةٌ لكولمن وهو واقف مثل آلة ملاكمة سوف يجده خصمه في مواجهته حينما يدق الجرس. لا يمكن أن يزيد عمره في الصورة وقتها عن الخامسة عشرة، برغم تلك الملامح المنحوتة الدقيقة التي كانت تبدو صبيانيةً جذابة في الرجل، وفي الصبي تبدو رجوليةً ناضجة. كان يتمرن، مثل محترف، بوهج تعويذة الشؤم بالنسبة للخصم، التحديقة التي لا تحيد لوحش يتجول في الحلبة، كل شيء سيُستأصَل ماعدا شهوة الفوز وبهجة التحطيم. تلك النظرة الرصين، تصدر مباشرةً عنه مثل أمر حاسم، حتى حينما تنغرس تلك الذقن الصغيرة الحادة في الكتف النحيل. قفّازاه على وضع الاستعداد بالوضعية التقليدية- للخارج في الأمام كأنما محمّلتان ليس وحسب بقبضتي اليدين بل بكل عزم العقد ونصف العقد الذي هو عمره- حيث القبضة قطرُها أكبر من محيط وجهه. يتلبّسُ المرءَ إحساسٌ لا شعوري بأنه يرى فتى بثلاث أيادٍ. أنا ملاكمٌ، هكذا تُعلن الوضعيةُ المتوعدة المعتدّة بنفسها، أنا لا ألكم الخصم،- أنا أُمزّقه. أتفوّق عليه حتى يتوقف عن الملاكمة. على نحو واضح كان الشقيق الذي كانت قد عمّدته شقيقتُه باسم "مستر عاقد العزم"؛ بالفعل، "مستر عاقد العزم"، بخط يد إرنستين في مرحلة صباها، كانت مكتوبة بقلم حبر أزرق باهت على ظهر الصورة.

تلك المرأة حدوتةٌ لا يُستهان بها أيضًا. رحتُ أفكر، ووجدتُ إطارًا بلاستيكيًا فارغًا للملاكم الشاب ووضعتُه فوق مكتبي. جسارةُ تلك الأسرة لم تبدأ وتنتهي عند كولمن. إنها هبةُ جسورٌ، كنت أفكر، من امرأة جسور على نحو مراوغ. تساءلتُ عما كان في ذهنها حين دعتني للمنزل. وتساءلتُ عما كان في ذهني حين قبلتُ الدعوة. من الغريب أن أفكر أن شقيقة كولمن وأنا قد أُخذنا بصحبة كل منا للآخر- غريب فقط لو تذكرنا أن كل شيء يخص كولمن كان أكثر غرابة عشر، عشرين، مائة مرة.

دعوة إرنستين، صورة كولن- على هذا النحو قررتُ التوجه إلى إيست أورانج في الأحد الأول من فبراير بعد أن صوّت مجلسُ الشيوخ على عدم إقصاء بيل كلينتون من المنصب، وهكذا خرجتُ إلى الطريق الجبليّ البعيد الذي في العادة لا أسلكه أبدًا في ذهابي أو إيابي وأنا أقود سيارتي ولكنه هذه المرة كان مثل طريق مختصر من منزلي إلى الطريق رقم 7. وكان هذا هو السبب في أني لاحظتُها، مركونةً على حافة الحقل الواسع، الشاحنة الرمادية المتهالكة ملصوق على رفرفها عبارة تقول POW/ MIA[235]، وكنتُ على ثقة من أنها شاحنة 'لِس فيرلي' نصف النقل. رأيتُ تلك الشاحنة، وعلى نحو ما عرفتُ أنها شاحنته، فلم أستطع المضي في طريقي، لأنني لم يكن بوسعي أن أنتبه لجودها ثم أمضي في طريقي، فشددتُ كوابح سيارتي وتوقفت. ثم قدتُ حتى أصبحت سيارتي في مواجهة شاحنته، وعلى جانب الطريق، ركنتُ سيارتي.

أظن أنني لم أكن مقتنعًا على نحو تام بأنني كنتُ أفعل ما كنتُ أفعله- وفي المقابل كيف أمكنني أن أفعل ما فعلت؟- ولكن وقتها كان قد مضى ثلاثة أشهر اقتربتْ خلالها حياةُ كولن سيلك مني أكثر مما اقتربت مني حياتي الخاصة، ولذلك لم يكن مُتصوَّرًا أن أكون في أي مكان آخر سوى هناك في البرد القارس، أعلى ذلك الجبل، واقفًا ويدي في قفازها موضوعة على غطاء محرك الشاحنة ذاتها التي جاءت مسرعة من جانب الطريق الخطأ فأرغمت كولن على أن ينحرف نحو حاجز الطريق، ثم إلى النهر، وفونيا إلى جواره، في المساء السابق لعيد ميلاده الثاني والسبعين. إذا كانت هذه أداةَ جريمة القتل، فإن القاتل لا يمكن أن يكون بعيدًا.

حينما انتبهتُ إلى أين كنتُ أولّي شطري- وفكرتُ ثانيةً في كم كانت مفاجأة أن أسمع من إرنستين ثانيةً، لكي أُدعى لأقابل والتر، لكي أظل طوال النهار وفي عمق الليل أفكر في شخص كنتُ قد عرفته لأقل من عام ولم يكن أبدًا من أقرب أصدقائي- بدا لي تسلسل الأحداث منطقيًا بما يكفي. هذا ما يحدث عندما تؤلف كتبًا. ليس هناك شيء محدد يدفعك لأن تكتشف كل شيء- شيء ما يبدأ في وضع كل الأشياء في طريقك. يكون هناك فجأة مثل ذلك الشيء في الطريق الخلفي يقودك بطيش نحو هواجسك.

وهكذا فأنت تفعل ما أنا فاعله. كولن، كولن، كولن، أنتَ الذي أنتَ الآن لا أحد الآن أنت تُدير وجودي وتحرّكه. أنت بالطبع لم تستطع تأليف الكتاب. فأنت قد كتبتَ الكتاب بالفعل- الكتاب كان حياتك. الكتابةُ شخصيًا هي الكشف والإخفاء في الوقت نفسه،

---

[235] - POW اختصار عبارة Prisoner Of War (سجين حرب) – MIA اختصار عبارة Missing In Action (مفقود في الجيش) (المترجمة)

ولكن معك أنت ربما يكون الأمرُ إخفاءً فقط ومن ثم لن يفيد أبدًا. كتابُكَ كان حياتَك- وفنَّك؟ بمجرد أن وضعتَ الأمر في مجال التنفيذ، كان فنُّك هو أن تكون رجلاً أبيضَ. أن تكون، وفق كلمات شقيقك: "أكثر بياضًا من البيض." كان هذا هو مسلك اختراعك الوحيد: كل يوم تصحو من نومك لتكون ما قد صنعت نفسك لأن تكونه.

لم يكن هناك تقريبًا أية ثلوج متبقية على الأرض، فقط بعض البقع المتشابكة مثل نسيج العنكبوت كشعيرات على وجه الحقل المفتوح، ليس من أثر لأتتبعه، لذا شرعت أتحرك عابرًا للجهة الأخرى، حيث كان جدار نحيل من الأشجار، ومن خلال الأشجار كان بوسعي أن أرى حقلاً آخر، فظللتُ ماشيًا حتى وصلتُ الحقل الآخر، وعبرته، واخترقتُ آخر، حيث جدار أعمق من الأشجار، سميك بقمم شديدة الاخضرار، وهناك على الجانب الآخر كانت العين المشعّة للبحيرة المتجمدة، بيضاوية ومستدقة الطرف في نهايتيها، تحيط بها التلال البُنيّة العالية مبرقشةً برقائق الجليد، والجبالُ، في مظهرها الحنون المعانق، تنحني بعيدًا عند خط الأفق. بعدما مشيتُ خمسمائة ياردة عن الطريق، شعرتُ أنني كنت أتطفّل- لا، بل أنتهك حُرمةً؛ كان تقريبًا شعورًا غير شرعي ذاك الذي تلبّسني... لقد انتهكتُ حُرمة محيط بدائيٍّ محتفظ بنقائه مثلما كان يحاول أن يحتفظَ بعدم اختراقه، مكان رائق هادئ غير مُدنّس، مكان مثل الأمكنة التي تُغلِّف أية كتلة داخلية من المياه في نيو إنجلاند. منحني المكانُ فكرة، كما تفعل مثل تلك الأمكنة دائمًا- بما أنه مصانٌ ومرعيٌّ بحنان لكي يفعل ذلك- فكرة حول كيف كان العالمُ يبدو قبل مجيء الإنسان. قوة الطبيعة أحيانا تكون باعثةً على السكون، وكان هذا مكانًا باعثًا للسكون، يدعوك لأن توقف أفكارك العادية التافهة دون أن يرهبكَ، في نفس الوقت، عن طريق تذكيرك بالخواء خلال مدة عمرك حتى تنتهي حياتك وتضيع في غياهب شاسعة الانقراض والعدم. كان كل هذا في ذلك النطاق الآمن من الربوة المرتفعة الفاتنة. بوسع الإنسان أن يمتص الجمال داخل كيانه دون أن يشعر بصِغَر شأنه أو باختراقه بالخوف.

تقريبًا في منتصف المسافة على الثلوج كان ثمة شخص منزوٍ في إزار عماليّ بُنيّ طويل وطاقية سوداء يجلس على دلو أصفر قصير ويميل فوق حفرة في الجليد مع عصا صيد أسماك قصيرة في يديه المختفيتين في القفاز. لم أكد أخطو داخل الثلوج حتى رأيته ينظر نحوي وقد تعرّف عليّ. لم أرد أن أذهب إليه بغتةً على غير توقّع منه، أو على أي نحو يبدو منه أنني كنت أقصد أن أفعل، ليس إلا أن يكون الصياد هو حقًّا لِس فيرلي. لو كان هذا هو لِس فيرلي، فهو ليس الشخص الذي من المناسب أن تفاجئه.

بالطبع فكرتُ أن أستدير وأعود من حيث أتيت. فكرت أن أولّي وجهي صوب الطريق، أن أستقلّ سيارتي، أن أتوجه إلى طريق رقم 7 جنوبًا عبر كونيكتيكات إلى طريق 684 ومن هناك نحو جاردن ستيت باركواي. فكرتُ أن أحظى بنظرة على غرفة نوم كولمن. فكرت أن أمعن النظر إلى والتر شقيق كولمن، الذي، لقاء ما فعل كولمن، لم يستطع التوقف عن كراهيته حتى بعد موته. فكرتُ في كل هذا ولا شيء سواه طوال الطريق وأنا أعبر الثلوج لألقي نظرة على قاتل كولمن. وصلتُ إلى النقطة حيث قلت:

"هاي. كيف يمضي الحال؟"

كنتُ أفكر: تسلّلْ إليه أو لا تتسلّلْ إليه، لا فرق. أنت العدو في كلتا الحالتين. في ذلك الفضاء الخاوي، المبيضّ بالثلوج، أنت العدو الوحيد.

"السمك يلتقط الطُّعم؟" قلتُ.

"أوه، ليس كثيرًا جدًا، ولا شيءَ جدًا." لم يفعل أكثر من أن رمقني سريعًا قبل أن يعود بتركيزه إلى حفرة الثلج، واحدة من اثنتي عشرة إلى خمس عشرة حفرةً مقصوصة من الثلج الصلب كالصخور والمنتثرة على نحو عشوائي على بحيرة مساحتها أربعون قدمًا مربعًا أو نحوها. على الأرجح حُفرت تلك الحُفَر بتلك المعدّات الموضوعة على مرمى خطوات قليلة من الدلو الأصفر، الذي كان في الأصل سطلاً لمادة منظفة سعة سبعة جالونات. أداة الحفر كانت عبارة عن قضيبٍ معدنيٍّ كالرمح حوالي أربعة أقدام طولاً ينتهي بنصل عريض في نهايته لولب اسطواني، أداة حفر قوية وخطِرة ذات طرف حادٍّ مخيف- تدور بمقبض دوّار في أعلاها- تلمع كالجديدة تحت أشعة الشمس. مثقاب.

"يفي بغرضه،" دمدم الرجل. "يقتل الوقت."

كان كأنما لم أكن الشخص الأول بل على الأرجح الخامس الذي حدث ومرّ بمنتصف الثلوج عبر البحيرة التي تبعد خمسمائة ياردة عن طريق البلدة الخلفي عند الهضاب الريفية لكي يسأل عن الصيد. ولأنه كان يعتمر طاقيةً صوفية سوداء تنسدل على جبهته وتغطي أذنيه، ولأنه كان قد أطلق لحيةً سوداء رمادية تغطي ذقنه وشاربًا كثًّا، فما كان هناك إلا شريحة ضيقة من الوجه ظاهرة. إن كانت ملحوظة على أي نحو، فذاك كان بسبب شساعتها- على المحور الأفقي، مسطح مستوٍ مستطيل من وجهه. حاجباه الأسودان طويلان كثيفان، وعيناه زرقاوان وبينهما مسافة واسعة ملحوظة، وفوق مركز الشارب كان يقف أنف طفل غير ناتئ. في تلك العُصبة بينّ فيرلي بين الطاقية القناع والطاقية ذات الأهداب الصوفية، كلَّ أنواع المبادئ التي يسير عليها العمل، المبدأ الهندسيّ، والمبدأ السيكولوجيّ معًا، ولا شيء منهما كان يبدو متوافقًا مع الآخر.

"بقعةٌ جميلة،" قلتُ.

"لهذا أنا هنا."

"مسالمةٌ."

"قريبةٌ من الله،" قال.

"نعم؟ هل تشعر بذلك؟"

الآن ها هو يُقشِّر الحافة الخارجية، الغطاء الذي يغلّف دواخله، يُقشّر شيئًا من المزاج الذي أمسكتُ به وهو عليه، وبدا كأنما كان جاهزًا ليتواصل معي بما هو أكثر من مجرد تسلية بلا معنى. لم تتغير وضعيته- مازال يصطاد أكثر مما يثرثر- ولكن على الأقل بدأ شيء من ذلك الجو غير الاجتماعي المسيطر يتشتت بصوت أكثر غِنًى وعمقًا مما كنتُ أتوقع. صوتٌ غارق في التفكير، بوسعك أن تنعته بذلك، حتى وإن كان على نحو لا شخصي عنيف.

"إنه في الطريق لأعلى نحو قمة الجبل،" قال. "ليس من بيوت في أي مكان. لا مساكن. لا أكواخ على البحيرة." بعد كل تصريح، كانت هناك وقفةُ صمت مستغرقة في التأمل- ملاحظة تصريحية، صمت مشحون. لا أحد بوسعه التأكيد، عند نهاية كل جملة، ما إذا كان قد أنهى الحديثَ معك أم لا. "لا تجد الكثير من الأنشطة هنا. لا تجد الكثير من الضوضاء والصخب. بحيرة من ثلاثين فدّانًا من حولك. لا أحد من أولئك الرجال بمثاقبهم القوية. لا شيء من صخبهم ورائحة الجازولين الكريهة. سبعمائة فدان من الأرض الطيبة المفتوحة والغابات. بالفعل مكان جميل. مسالم للغاية وهادئ. ونظيف. هو مكان نظيف. بعيد عن كل الهرج والمرج والجنون الذي لا ينتهي." وأخيرًا كانت هناك لمحةٌ منه لأعلى لكي يحتويني داخله. لكي يُقيّمني. نظرة خاطفة تسعون بالمائة منها كان مُعتمًا لا يُمكن قراءته، وعشرة بالمائة شفافة مرعبة ومُنذرة. لم أستطع أن أرى أي لون من الدعابة في هذا الرجل.

"طالما كان بوسعي أن أُبقيه سرًا،" قال، "سوف يبقى على النحو الذي هو عليه."

"معك حق،" قلتُ.

"إنهم يعيشون في المدن. يعيشون في سُعار روتين العمل. جنونٌ في الذهاب إلى العمل. جنونٌ في العمل. جنونٌ في العودة إلى البيت من العمل. المرور. الاحتقان والزحام. هم مغروسون في ذلك. وأنا بعيد عنه."

لم يكن عليّ أن أسأله مَن يقصد بـ'إنهم' أولئك. فربما أكون قد عشتُ بعيدًا عن أية مدينة، ربما لم أمتلك مثقابًا للثلوج، ولكنني كنتُ أحد أولئك الـ'إنهم'، نحن جميعنا أولئك الـ'إنهم'، كل إنسان عدا ذلك الجالس القرفصاء عند هذه البحيرة يؤرجح عصا صيد

السمك القصيرة في يده ويتكلم إلى حفرة في الثلوج، وقد اختار أن يتواصل معي- بوصفي 'هُمُ'- أقلَّ مما كان يتواصل مع الماء المتصقّع بالثلوج تحت أقدامنا.

"ربما يمرُّ أحد المتنزهين من هنا، أو أحد المتزلّجين عبر الريف، أو شخص ما مثلك. يعثر بشاحنتي، فيعثرون عليّ هنا بشكل أو بآخر، سوف يسلكون طريقي، ويظهرون مثلما ظهرت أنت خارج الثلوج- الناس على شاكلتك الذين لا يصطادون السمك-" وهنا نظر لأعلى ليستوعبني ثانيةً، لكي يخمِّن، مذهبيًا وروحيًا، مدى كوني "هُمُ"[236] التي لا تُغتفر.

"أخمّن أنك لا تصطاد."

"فعلاً لا أفعل. رأيتُ شاحنتك. كنتُ فقط أقود سيارتي للتنزه في نهار جميل."

"حسنًا، إنهم مثلك،" قال لي، كأنما لم يكن هناك شكٌّ حولي منذ لحظة ظهوري عند الشاطئ.

ثم أردف: "هم دائما سوف يأتون إذا ما رأوا صائد أسماك، وهم فضوليون، وسوف يسألون ماذا أصطاد، كما تعلم. وإذن ما سأفعل...."

وهنا يبدو العقل وقد توقف، صمت عن التفكير، ما الذي أفعلُه؟ بحق الجحيم ما الذي أنا مقدمٌ عليه؟ حينما نظر إلى أعلى ناحيتي من جديد، بدأ قلبي بغتةً يدقّ بالخوف. الآن صياد السمك هذا كان محطّمًا، ومن ثم قرّر أن يتسلى بي قليلاً. يقوم الآن بأداء دوره. هو الآن قد خرج من فعل الصيد ودخل في أن يكون لِس فيرلي بكل الأشياء الموجودة وغير الموجودة.

"وإذن ماذا سأفعل،" استأنف 'لِس' الكلام، "إذا ما وجدت سمكةً ترقد على الثلج، سأفعل ما فعلته بمجرد أن رأيتك. سألتقطُ فورًا كل الأسماك التي اصطدتها وأضعها في حقيبة بلاستيكية ثم أضعها في الدلو، الدلو الذي أجلس عليه. والآن السمك تم إخفاؤه. وحينما يأتي الناس ويسألون: 'إلى أي مدى يلتقط السمكُ الطعمَ،' سأقول: 'لا شيء'. لا أظن أن ثمة أسماكًا هنا.' اصطدتُ بالفعل ربما ثلاثين سمكة. يوم ممتاز. ولكنني لن أخبرهم. 'الآن، أستعدُ للرحيل. مكثتُ هنا طوال ساعتين ولم أصطد بعد سمكةً واحدة '. كل مرة فقط يستديرون ويغادرون. سوف يذهبون إلى مكان آخر. وسوف يشيعون كلامًا من قبيل أن لا خير في تلك البحيرة. هذا هو سرُّ المكان. ربما

[236] - في الأصل الإنجليزي الجملة أكثر بلاغة وجمالا، لكن الترجمة إلى العربية لابد أفقدتها جزءًا من بلاغتها، ولا حيلة لي في ذلك. في الأصل كانت: to divine, gnostically, my unpardonable theyness. ومفردة Theyness، كلمة منحوتة لا وجود لها في الإنجليزية. يود أن يحوّل بها الضمير (هم) إلى مصدر. وهو ما لم أقدر عليه بدقة في العربية. راجع المقدمة. (المترجمة)

ينتهي الحالُ بميلي لأكون غير أمين بعض الشيء. ولكن هذا المكان هو مثل السر الذي يجب ألا يُفشى في كل الدنيا."

"والآن أنا أعرف،" قلتُ له. وقد رأيتُ أن لا سبيل ممكنًا لأجعله يضحك على نكتة التواطؤ على كتمان سر مع متطفل مثلي، لا سبيل لأجعل أساريره تنفرج بابتسامي على ما قاله، ولذلك لم أحاول. أدركتُ أنه بالرغم من أن لا شيء مما حدث بيننا يحمل طابعًا شخصيًا حقيقيًا، بقراره هو، إن لم يكن بقراري، إلا أننا كلينا كنا متسايرين معًا بأكثر مما يمكن أن يساعد الابتسام. كنتُ في حوار بدا لي، في هذا المكان المنعزل المتجمد النائي، على جانب عظيم من الأهمية.

"أعرفُ أيضًا أنك تجلس على كمية وفيرة من الأسماك،" قلتُ. "في ذلك الدلو. كم سمكة اليوم؟"

"حسنًا، أنت تبدو مثل رجل يعرف كيف يحفظ السر. ثلاثون ربما، خمس وثلاثون سمكةً. نعم، تبدو مثل رجل مستقيم. أظن أنني تعرفتُ عليك على كل حال. ألستَ أنت المؤلف؟"

"هذا أنا."

"بالتأكيد. أعرفُ أين تعيش. هناك في الجهة المقابلة للمستنقع حيث يعيش مالك الحزين. بيت داموتشيل. كوخ داموتشيل هناك."

"داموتشيل هو مَن اشتريته منه. إذن أخبرني، بما أنني الرجل الذي يحفظ السر، لماذا تجلس هنا وليس هناك؟ تلك البحيرة الكبيرة المتجمدة. كيف اخترتَ تلك البقعة لتصطاد؟" حتى لو لم يكن يفعل ما بوسعه ليبقيني هناك، فمن جانبي يبدو أنني كنتُ أفعل كل ما بوسعي لكيلا أنصرف.

"حسنًا، المرءُ أبدًا لا يعرف،" قال لي. "أنت تبدأ من حيث وجدت الأسماك في المرة السابقة. إذا ما اصطدتَ أسماكًا المرة الماضية، فأنت دائمًا تبدأ في تلك البقعة."

"إذن هذا يحلُّ ذاك. دائمًا ما كنت أتساءل." اذهبْ الآن، كنت أقول لنفسي. تلك كانت كل المحادثة الضرورية. الأكثر من ضرورية. ولكن فكرة لَمن كان يستدرجني. حقيقة أنه كان يستدرجني. لم يكن هذا ضربًا من التفكير. هذا لم يكن ضربًا من التأمل. لم تكن تلك هي طريقة التفكير في كتابة قصص الخيال. كان هذا هو الشيء نفسه. قوانين الحذر التي، خارج نطاق عملي، كانت تحكم حياتي على نحو صارم للغاية على مدى الخمس سنوات الماضية، فجأة تعطلت تلك القوانين. لم أستطع أن أستدير للخلف وأنا أعبر الثلوج والآن لا أستطيع أن أستدير للخلف وأهرب. ليس للأمر علاقة بالشجاعة. ليس للأمر علاقة بالعقل والمنطق. ها هو ذا هنا. هذا هو كل ما يخص

الأمر. هذا وخوفي. هو في إزاره العماليّ البُنّي الثقيل وطاقيته السوداء وحذائه البوت المطاطي الأسود السميك، بيديه الكبيرتين المختبئتين داخل قفاز التمويه الملون لصياد (أو لجندي)، ها هو الرجل الذي قتل كولن وفونيا. أنا واثق من ذلك. هما لم ينحرفا خارج الطريق وداخل النهر. هنا القاتل. هذا هو الرجل. كيف بوسعي أن أنصرف؟

"هل الأسماك دائما تكون هناك؟" سألتُه. "حينما تعود إلى نفس بقعتك من المرة السابقة؟"

"لا يا سيدي. الأسماك تتحرك في أسراب. أسفل الثلوج. يومًا ما تكون في النهاية الشمالية للبحيرة، في اليوم التالي ربما تكون عند النهاية الجنوبية للبحيرة. ربما أحيانًا مرتين تكون الأسماك في صف واحد في البقعة تلك نفسها. وتبقى هناك. ماذا تميل لأن تفعل، الأسماك تميل لأن تنتظم في سرب ولا تتحرك كثيرًا جدًّا، لأن الماء قارسُ البرودة. بوسعها أن تتكيف مع درجة حرارة المياه، حين تشعر الأسماكُ بالبرد الشديد، فإنها لا تتحرك كثيرًا ولا تطلب كثيرًا من الطعام. ولكن لو ذهبتَ إلى منطقة حيث يشكل السمك أسرابًا، فبوسعك أن تصطاد الكثير من الأسماك. ولكن في بعض الأيام بوسعك أن تخرج إلى نفس البحيرة- ليس بوسعك أبدًا أن تغطي المنطقة كلها- فبوسعك أن تجرب خمسة أماكن مختلفة أو ستة، تثقب الحفر، ولا تقدر أن تحظى بخبطة واحدة. لا تصطاد سمكة واحدة. فقط لا تقدر أن تحدد مكان السرب. وهكذا تجلس وحسب ها هنا."

"قريبًا من الله." قلتُ.

"ها أنت قد فهمتَ الأمر."

طلاقته- لأنها كانت آخر ما توقعته- فتنتني، مثلما سحرني التمكّنُ الذي جعله مستعدًا ليشرح لي طبيعة الحياة في البحيرة حينما تكون المياه باردة. كيف عرف أنني "المؤلف"؟ هل يعرف أيضًا أنني صديق كولن؟ هل عرف أيضًا أنني كنتُ في جنازة فونيا؟ أفترضُ أن ثمة العديد من الأسئلة في رأسه حولي- ورحلتي إلى هنا- مثلما كان في رأسي عديد التساؤلات حوله. هذا الفضاء المقوّس الضخم اللامع، هذا القبو البارد الذي يكسو الأرض من قمم الجبال التي تحتضن برءوسها كتلة المياه العذبة المتجمدة البيضاوية الشاسعة الصلبة مثل الصخور، النشاط العتيق الذي هو حياةُ البحيرة، الذي هو تشكّل الثلوج، الذي هو حياة الأسماك وحركتها وتكاثرها، كل تلك القوى الصامتة أبدية الشباب دائبة العمل على نحو لا يتغير- الأمر كان كأنما تواجهنا على غير توقع عند قمة العالم، عقلان مختبئان في حالٍ من انعدام ثقة أحدهما بالآخر يتماكران، الكراهية المتبادلة والارتياب والشك تلك هي المشاعر الوحيدة المسيطرة على المكان.

"وبِمَ تفكر،" سألتُه، "إذا لم تصطد أسماكًا؟ فيمَ تفكر حين لا سمكةً واحدةً تلتقط الطعم؟"

"أخبرُكَ فيما أفكر بالضبط. أفكرُ في العديد من الأشياء. أفكر في سليك ويللي[237]. أفكر في رئيسنا- في نزواته وحظّه الغريب. أفكر في الرجل الذي فرّ من كل شيء، وأفكر في الرجال الذين لم يفرّوا من شيء. الذين لم يراوغوا في الخدمة العسكرية ولم يهربوا. لا يبدو الأمر عادلاً."

"فيتنام،" قلتُ.

"نعم. كنا نصعد عاليًا في طائرات هليوكوبتر غريبة- في رحلتي الثانية كنتُ قنّاص باب[238]– وكل ما كنت أفكر فيه هو تلك المرة التي ذهبنا فيها إلى شمال فيتنام لكي نلتقط هذين الطيارين. كنت جالسًا ها هنا أفكر في تلك المرة. سليك ويللي. ابن الحرام. أفكر في الحقير ابن القحبة الذي كان يترك عضوه الذكريّ يُمتّصُّ بفلوس دافعي الضرائب، ثم بعد ذلك أفكر في هذين الطيارين، كانا في هجوم جويّ فوق ميناء هانوي، هذان الرجلان هلكا على نحو بشع، والتقطنا الإشارة على الراديو. نحن حتى لم نكن هليوكوبتر إنقاذ، ولكنّا كنا على مقربة، كانا يرسلان إشارات استغاثة تفيد بأنهما يحتاجان للمساعدة، لأنهما كانا على نقطة ارتفاع بحيث إن لم يُساعدا سوف يتحطمان. نحن حتى لم نكن هليوكوبتر إنقاذ- كنا هليوكوبتر قنّاصة مسلحة- حاولنا وحسب أن نجازف من أجل أن ننقذ روحين. ولم نأخذ حتى التصريح بالصعود إلى هناك، ذهبنا وحسب. بوسعك أن تتصرف بالفطرة على هذا النحو. اتفقنا معًا، اثنان من قنّاصي الأبواب، الطيار، ومساعد الطيار، رغم أن الفرص لم تكن طيبة بما يكفي لأننا كنا بلا غطاء. ولكننا ذهبنا على أية حال- لكي نحاول أن نلتقطهما."

ها هو يحكي لي قصة عسكرية، كنت أفكر. هو يعلم أنه يفعل هذا. ثمة نقطة هنا سوف يفعلها. شيء ما يود فيرلي أن يقصّه عليّ فيحرك مشاعري وأحمله معي، إلى الشاطئ، إلى سيارتي، إلى البيت الذي يعرف موقعه ويتمنى أن أفهم أنه يعرف. يريد أن يحرّك مشاعري بوصفي "المؤلف"؟ أم بوصفي شخصًا آخر- شخصًا يعرف سرًا من أسراره أكبر كثيرًا حتى من سر هذه البحيرة. يريدني أن أعرف أن لا بشر كثيرين قد رأوا ما رآه هو، ولا كانوا حيث كان، ولا فعلوا مثل الذي فعله، وإذا ما تطلب الأمر،

---

[237] - Slick Willie أحد ألقاب الرئيس بيل كلينتون. اسمه الكامل William Jefferson Clinton، وله العديد من الألقاب في كل ولاية بأمريكا. وكذلك الحال مع كافة رؤساء أمريكا. (المترجمة)

[238] - door gunner، جندي يربض عند باب الهليوكوبتر ويطلق النار على الهدف، وظيفة عسكرية استُحدثت مع حرب فيتنام وانتشار استخدام الطائرات الهليوكوبتر على نطاق واسع. (المترجمة)

بوسعه أن يفعله ثانيةً. لقد قُتل في فيتنام، وأحضر معه القاتل إلى بيركشاير، أحضره معه وعاد به من دولة الحرب، دولة الرعب، إلى حيث هذا المكان التامّ الغموض.

المثقابُ هناك فوق الثلوج. صراحة المثقاب. ليس من تجسيد صلب لكراهيتنا أكثر من مرأى ذلك الفولاذ عديم الرحمة للمثقاب الذي يربض في منتصف اللامكان.

"كنا نخمّن، أوكي، أننا سوف نموت، سوف نموت. لذا صعدنا إلى الأعلى هناك واستقررنا عند إشارتهما، شاهدنا باراشوت يهبط، فهبطنا نحو الفضاء الواسع، وانتشلنا ذلك الرجل لأعلى دونما صعوبة على الإطلاق. وثب نحونا فورًا، فجررناه للداخل وأقلعنا، لا مقاومة من أي نوع. ولذلك قلنا له: 'هل لديك أية فكرة؟' فقال: 'حسنًا، لقد انجرف في ذلك الاتجاه.' وهكذا صعدنا في الهواء، ولكن عند هذا الوقت كانوا قد عرفوا أننا هناك. مضينا للأمام قليلاً نبحث عن الباراشوت الآخر، وانفجر الجحيم من حولنا. صدقني، كان الأمر لا يُصدّق. لم نستطع أبدًا أن ننقذ الرجل الآخر. وقعت الهليوكوبتر تحت الهجوم على نحو لن تصدقه. دويٌّ تينج بينج بونج. بنادق آلية. نيران أرضية. كان علينا وحسب أن نستدير ونخرج من جهنم تلك بأسرع ما يمكننا. ومازلت أتذكر أن الرجل الذي انتشلناه شرع في البكاء. هذا ما عرفته عنه. أنه كان طيارًا في سلاح البحرية. كانا مُقلعين نحو فوريستال وكان يعلم أن الرجل الآخر إما قُتل أو أُسِر، ثم شرع يصرخ. كان الأمر فظيعًا عليه. رفيقه. ولكننا لم نقدر أن نعود. لم نستطع أن نجازف بهليوكوبتر وخمسة رجال كنّا محظوظين أن أنقذنا واحدًا. ولهذا عدنا إلى قاعدتنا وخرجنا نتفحص الهليوكوبتر وكان بها مائة وواحد وخمسون ثقب رصاصة في جسمها. لم يُصَب أنبوبُ سوائل المحرك، ولا خط الوقود، ولكن المروحيات الدوّارة كانت كلها ممطَرة بالرصاص، وابل من الرصاص ضرب المروحيات. النيران أحنَت المروحيات قليلاً. لو أنهم ضربوا مروحية الذيل، لكنا سقطنا، لكنهم لم يفعلوا. هل تعلم أنهم أسقطوا خمسة آلاف هليوكوبتر أثناء الحرب؟ وفُقد مائتان وثمانون طيارًا مقاتلاً. وفقدوا مائتين وخمسين B-52 في انفجار عالي الارتفاع في فيتنام الشمالية. لكن الحكومة لن تعلن ذلك أبدًا. ليس ذلك. يخبرونك بما يريدون أن يخبروك به. ليس سليك ويللي هو الذي تم القبض عليه. بل الرجل الذي خدم بلاده هو الذي اعتُقل. مرة ومرات. كلا، لا يبدو هذا عدلاً. أتعلم ما الذي كنت أفكر فيه؟ كنت أفكر في أنني لو كان لديّ ابنٌ من صُلبي لكان معي الآن هنا. يصطاد في الثلوج. هذا ما كنتُ أفكر فيه حينما مشيتَ نحوي. نظرتُ إلى أعلى ورأيت شخصًا قادمًا، وأنا من النوع الذي تنتابه أحلامُ يقظة، وفكرتُ، هذا قد يكون ابني. ليس أنت، وليس رجلاً يشبهك، بل ابني الذي من صُلبي."

"أليس لك ابنٌ؟"

"كلا."

"لم تتزوج أبدًا؟" سألته.

هذه المرة لم يجبني فورًا. نظر إليّ، ركّز بصره عليّ رغم أني التقطتُ إشارة استغاثة مثل تلك التي أرسلها الطياران، لكنه لم يجبني. لأنه كان يعلم. هو يعلم أنني كنتُ في جنازة فونيا. أحدهم أخبره أن "المؤلف" كان هناك. أي نوع من المؤلفين كان يظن أنني هو؟ المؤلف الذي يؤلف كتبًا حول جرائم مثل جريمته؟ مؤلف يؤلف كتبًا حول جرائم القتل والقتلة؟

"ملعونٌ،" قال أخيرًا، وهو يحدق ثانيةً في الحفر ويؤرجح عصا الصيد، يهزّها برعشة من معصمه أكثر من عشر مرات. "الزواجُ ملعون. عدتُ من فيتنام بكل غضب واستياء العالمين. أصبتُ بـ PTSD[239]. ما يطلقون عليه اضطرابات إجهاد ما بعد الصدمة. هذا ما أخبروني به. حينما عدتُ، لم أكن أريد أن أعرف أي إنسان. عدتُ، ولم أتعلق أو أتواصل مع أي شيء مما يحدث حولي هناك، بقدر ما كانت تسمح به متطلبات المعيشة الحضرية. كان الأمر كأنما كنتُ هناك لأودِّع العالم، كان جنونًا تامًّا. ألبس ملابس نظيفة، والناس يقولون هالو، والناس يبتسمون، والناس يتفرقون في جماعات، والناس يقودون سيارات- لم أعد أستطيع أن أتواصل مع كل هذا أكثر. لم أكن أعرف كيف أتكلم مع أي إنسان، لم أعرف كيف أقول هالو لأي إنسان. انسحبت لمدة طويلة. اعتدتُ أن أركب سيارتي، أقودها هنا وهنا، أذهب إلى الغابات، أمشي داخل الغابات- كان هذا الأمر هو الأكثر عجبًا. انسحبت من نفسي. لم أكن أعرف ما أنا خائضٌ فيه. كان رفقائي يكلمونني، ولم أكن أرد. كانوا خائفين من أن أموت في حادث سيارة، كانوا خائفين من أنني-"

قاطعته. "لماذا كانوا خائفين من موتك في حادث سيارة؟"

"كنتُ أشرب الخمر. كنت أقود سيارتي وأنا أشرب."

"هل سبق وحدث لك حادث سيارة؟"

ابتسم. لم يتوقف وحدّق فيّ طويلاً حتى أدرت وجهي. لم يرمني بنظرة متوعدة خاصة. لم يقفز ويمد يده نحو عنقي. فقط ابتسم قليلاً، ثمة طبيعةٌ طيبة في ابتسامته أكثر كثيرًا مما كان يمكنني أن أصدق أن مثلها كان بداخله ليُظهرها. على نحو جزل مرح متأنٍّ، هزّ كتفيه وقال: "أمسكتَني. لم أكن أعرف ما أنا خائضٌ فيه، أتعلم؟ حادث؟ في حادث؟ لا أعرف إن كنتُ قد صنعت. أظن أنني لم أفعل. أنا سائر نحو ما يطلقون عليه اضطرابات ما بعد الصدمة. الترهات تظل تعود من جديد داخل عقلي الباطن

---

239 - Post Traumatic Stress Disorder. (المترجمة)

بأنني عدتُ إلى فيتنام، بأنني عدتُ إلى الجيش ثانيةً. لستُ رجلاً متعلمًا. لا أعرف حتى ذلك. الناس كانوا يسخرون مني في هذه وتلك، ولم يكونوا حتى يعرفون ما أمرُّ به ولا أنا كنتُ أعرف- أتعلم؟ لم يكن لدي أصدقاء متعلمون يعلمون تلك الأشياء. أصدقائي كانوا أغبياء. أوه، يا رجل، أقصدُ مجانين حقيقيين بنسبة مضمونة مائة بالمائة أو استردّ نقودَك مضاعفة."[240] هزَّ كتفيه من جديد. كوميدي؟ أكان ينوي أن يكون كوميديًّا؟ كلا، ربما هو التوتر التواكلي للخطيئة. "وإذن ماذا بوسعي أن أفعل؟" سأل بوَهنٍ عاجز.

يحتالُ عليّ ويخدعني. يلعب معي. لأنه يعلم أنني أعلم. ها هنا نحن وحيدان حيث نكون، وأنا أعلم، وهو يعلم أنني أعلم. والمثقابُ يعلم. كلكم تعلمون وكلكم بحاجة إلى أن تعلموا، كل شيء محفور على اللولب الحلزوني لنصله الفولاذي المنحني.

"كيف اكتشفت أنك مصاب بـ PTSD؟"

"فتاةٌ ملونة في وزارة شئون المحاربين القدامى. عفواً. أمريكية أفريقية. أفريقية أمريكية شديدة الذكاء. نالت شهادة الماجستير. هل حصلتَ على درجة الماجستير؟"

"كلا" قلتُ.

"حسنًا، هي نالتها، وهكذا حدث أن اكتشفتُ مما أعاني. وإلا لظللتُ لا أعلم. هكذا بدأت أعرف عن نفسي، ما الذي كنتُ أمرّ به. هم أخبروني. وليس أنا فقط. لا تظن أنني كنت فقط. آلاف وآلاف من الرجال كانوا يمرون بما كنت أمر به. آلاف وآلاف من الرجال يستيقظون في منتصف الليل عائدين إلى فيتنام. آلاف وآلاف من الرجال يهاتفهم الناس ولا يردون على الهواتف. آلاف وآلاف من الرجال تباغتهم تلك الأحلام المخيفة بحق. وهذا ما أخبرتُ به هذه الأفريقية الأمريكية فتفهمتِ الأمر. ولأنها كان لديها درجة الماجستير، أخبرتني كيف يسير الأمر في عقلي الباطن اللا واعي، وكان هو الحال نفسه مع آلاف وآلاف من الرجال الآخرين. العقل اللا واعي الباطني. ليس بوسعك أن تسيطر عليه. هو يشبه الحكومة. هو الحكومة. هو الحكومة كلها من جديد. يجبرك على أن تفعل ما لا تريد أن تفعله. آلاف وآلاف من الرجال يتزوجون زواجًا مشئومًا، لأن لديهم ذلك الغضب وذلك الاستياء من فيتنام في عقلهم اللاواعي الباطني. هي شرحت لي كل ذلك. لقد دفعوني بالقوة من فيتنام إلى الفلبين داخل طائرة نفاثة C-41 تابعة للسلاح الجوي، ثم على متن نفاثة تابعة للخطوط الجوية العالمية إلى قاعدة القوات الجوية في ترافيس، ثم أعطوني مائتي دولار لأعود إلى الوطن. لذلك استغرق الوقت منذ غادرت فيتنام لأعود إلى الوطن، استغرقتُ حوالي ثلاثة أيام. عدتُ إلى

---

[240] - تعبير فكاهيّ يحاكي به أسلوب إعلانات التليفزيون. إن لم تكن البضاعة مضمونة، استرد نقودك. وهنا يريد التأكيد على أن جنون الرجال مضمون بنسبة 100%. (المترجمة)

المدنية. عدتُ مشئومًا. وزوجتي، حتى بعد مُضي عشر سنوات، مشئومة. هي مشئومة ملعونة، وماذا بحق الجحيم قد فعلتْ؟ لا شيء."

"هل مازلتَ تعاني من PTSD؟"

"حسنًا، مازلتُ أميل للعزلة، أليس كذلك؟ ماذا تظن أنني أفعل هنا؟"

"ولكنك لم تعد تشرب وأنت تقود،" سمعتُ نفسي أقول. "لا مزيد من الحوادث."

"لم تكن هناك حوادث أبدًا. ألا تُصغي؟ أخبرتك بالفعل بهذا. على حد علمي."

"والزواج كان مشئومًا."

"أوه نعم. كانت غلطتي. مائة بالمائة. كانت امرأة جميلة. تامّة البراءة. كله مني أنا. دائمًا كان كله مني. كانت زوجتي تستحق الفردوس أفضل مني بكثير."

"ماذا حدث لها؟" سألتُه.

هزّ رأسَه. هزةُ كتفين حزينة، ثم تنهيدة- هذا تشويش وخداع تام، خداع متأنٍّ شفاف.

"لا أعلم. هربتْ، كنتُ أخيفها. امرأة مرعوبة حد الهلع. قلبي يذهب معها، حيثما تكون. هي إنسان تام البراءة."

"لا أطفال."

"كلا. لا أطفال. وأنت؟" سألني.

"لا."

"متزوج؟"

"لم أعد،" قلتُ.

"إذن أنت وأنا في نفس القارب. أحرار كما الرياح. أي نوع من الكتب تؤلف؟ كتب بوليسية؟"

"لا أقدر أن أقول هذا."

"قصص واقعية؟"

"أحيانًا."

"ماذا؟ رومانسية؟" سألني، مبتسمًا. "ليست كتب بورنو، آمل ذلك." تظاهر بأن ذلك كان فكرة غير مرغوبة وأنها تزعجه حتى كتسلية. "أنا بالتأكيد آملُ ألا يكون كاتبنا المحليّ الذي يعيش هناك في بيت مايك دومنشيل يكتب الخلاعة وينشرها."

"أكتبُ حول الناس مثلك." قلتُ.

"صحيح؟"

"نعم. الناس على شاكلتك. عن مشاكلهم." قلتُ.

"ما عنوان أيٍّ من كتبك؟"

"الوصمةُ البشرية."

"صحيح؟ هل بوسعي الحصول عليه؟"

"لم يصدر بعد. لم ينته بعد."

"سوف أشتريه."

"سأرسل لك نسخة. ما اسمك؟"

"لِس فيرلي. نعم، أرسلْه. حينما تنتهي منه، أرسلْه إلى عناية جراج البلدة. جراج البلدة. طريق 6، لِس فيرلي." ها هو يستفزني مرة أخرى، ضربٌ من استفزاز أي إنسان- نفسه، أصدقائه، "كاتبنا المحليّ"- قال، حتى بدأ يضحك من الفكرة، "أنا ورفقائي سوف نقرؤه." إنه حتى لم يضحك بصوت عال هكذا تلك الضحكة المجلجلة حينما تلتقط سمكةُ الطعمَ، يتحرك في ضحكته لأعلى وللجانبين من حوله دون أن يخفي أسنانه بالداخل. قريب من اصطياد بهجة خطرة، ولكن ليس قريبًا بما يكفي لابتلاعها.

"آمل أن تفعل." قلتُ.

لم أستطع أن أستدير وأنصرف وقتها. ليس عند هذه الملاحظة، ليس وهو يتخفي أكثر فأكثر تحت هذا الغطاء العاطفي، ليس بعدما زاد احتمال التلصص أكثر قليلاً داخل عقله. "كيف كنتَ تبدو قبل أن تلتحق بالخدمة؟" سألته.

"هل هذا من أجل كتابك؟"

"نعم. نعم." ضحكتُ بصوت عال. دون حتى أن أنوي، بانفجار صاخب سخيف من التمرد، قلتُ: "كله من أجل كتابي."

والآن بدأ يضحك بتهتك هو الآخر. عند صفحة البحيرة المجنونة.

"هل كنتَ شخصًا اجتماعيًا يا 'لِس'؟"

"نعم" قال. "كنت اجتماعيًا."

"مع الناس؟"

"نعم."

"تحب أن تقضي معهم وقتًا طيبًا؟"

"نعم. العديد جدًا من الأصدقاء. السيارات السريعة. تعرف، كل هذه الأمور. كنت أعمل طيلة الوقت. ولكن حينما لم أكن أعمل، نعم."

"وجميعكم محاربون في فيتنام صائدو أسماك الثلوج؟"

"لا أدري." إنها الضحكة المستفزة مرة أخرى. أظن، أنه من الأسهل عليه أن يقتل شخصًا ما عن أن يحرز تسلية حقيقية.

"بدأتُ أمارسُ صيد أسماك الثلوج،" كان يخبرني، "ليس من مدة طويلة. بعدما هربت زوجتي. استأجرتُ كوخًا صغيرًا، خلف الغابة، عند بحيرة دراجون فلاي. في ظهر الغابة، تمامًا عند المياه، بحيرة دراجون فلاي، وأنا دائمًا صياد صيف، طيلة حياتي، ولكنني لم أكن أبدًا مهتمًا بصيد الثلوج. كنتُ دائمًا أخمن أنها قارسة البرودة هناك، تعرف؟ ولذا أول شتاء عشته على البحيرة، لم أكن على ما يرام- اللعنة على PTSD- كنت أراقب صياد الثلوج هذا يمشي إلى هناك ويبدأ الصيد. شاهدتُ هذا مرتين، لذلك يومًا ما ارتديتُ ثيابي وتمشيت إلى هناك إلى هناك وكان الرجل يمسك بكمية من الأسماك، أسماك نهرية صفراء وسالمون وكل شيء. فخمنتُ أن هذا الصيد طيب مثله مثل صيد الصيف تمامًا، إن لم يكن أفضل. كل ما عليك فعله هو أن ترتدي الكمية المناسبة من الثياب وأن تحصل على المعدّات المناسبة. ولذلك فعلتُ. خرجت واشتريت مثقابًا، مثقابًا لطيفًا"- كان يشير إليه- "صنارة، طُعْم صناعي. مئات الأنواع المختلفة من الطُّعوم الصناعية بوسعك أن تجدها. مئات من المواد المصنعة والمُخلّقة. كل المقاسات المختلفة. تثقب حفرةً تخترق الثلوج، وتُلقي بطُعمك الصناعي المفضل للأسفل ومعه الدودة- ومجرد حركة يد، فقط تؤدي حركة الصنارة تلك لأعلى ولأسفل، تعرف. لأنه مظلم بالأسفل تحت الثلوج. أوه، إنه مظلم بالفعل،" قال لي، وللمرة الأولى في الحوار، نظر لي ليس بالإعتام الشديد الذي كان في وجهه ولكن بقليل منه، قليل جدًا من الخداع، قليل جدًا من الازدواجية. كان في صوته ثمة رنين بارد حينما قال: "هناك ظلامٌ حقيقي." رنين بارد ومذهل جعل كل شيء واضحًا حول حادث كولن. "ولذلك فإن أيّ نوع من الوميض هناك بالأسفل،" أضاف، "سوف يجتذب الأسماك. أخمن أن الأسماك متكيفة مع البيئة المظلمة تلك."

كلا، هو ليس غبيًا. هو وحشٌ وهو قاتل ولكنه ليس غبيًا كما كنت أظن. ليس العقل هو المفقود. تحت أيٍّ مما كان التخفّي، هو موجود إلى أقصى حد.

"لأن عليها أن تأكل،" كان يفسر لي، على نحو علمي. "فإنها تجد الطعام بالأسفل هناك. وأجسامها قادرةٌ على التكيف مع المياه عالية البرودة وعيونها تتكيف مع الظلام. هي حساسة للحركة. إذا ما رأت أي نوع من الوميض أو ربما إذا ما أحست باهتزازات الطعم المتحرك، تنجذب إليه. الأسماكُ تعرف أن ثمة شيئًا حيًا هناك وربما يكون صالحًا للأكل. ولكن إذا لم تهزّ يدك، فلن تحظَ أبدًا بسمكة. لو كان لي ابنٌ، كما ترى، ذاك الذي كنت أفكر فيه، لكنتُ علّمتُه كيف يهزّ الصنارة. لكنتُ علّمته كيف يضع الطعم الحيّ على الطعم الصناعي الجاذب. هناك أنواع مختلفة من الطعم، كما ترى، معظمها يرقات ذباب أو يرقات نحل تُربّى لصيد الثلوج. ولكان علينا أن نذهب إلى المتجر، أنا و'لِس'

الصغير، ولكُنا اشتريناها من متجر صيد الثلوج. وهي تأتي في أكواب صغيرة، كما تعلم. لو كان لدي الآن 'لِس' صغير، ابنٌ من صلبي، كما تعلم، لو لم أكن ملعونًا مشئومًا بدلاً من الحياة مع هذا الـPTSD اللعين، لكنت الآن ها هنا معه أعلّمه تلك الأمور. كنت سأعلمه كيف يستخدم المثقاب." راح يشير إلى الأداة، التي مازالت خلفه فوق الثلوج بعيدة عن متناول يده. "أستخدم مثقابًا خمس بوصات. تجدها من أربع بوصات وحتى ثماني بوصات. أُفضّلُ حفر البوصات الخمس. إنها ممتازة. لم أواجه مشاكل أبدًا في الحصول على أسماك عبر فتحات البوصات الخمس. البوصات الست أكبر قليلاً. لأن البوصات الست أكبر قليلاً، تكون النصال مختلفة وأزيد بمقدار بوصة، بحيث يختلف شكلها بعض الشيء، ولكن إذا ما نظرت إلى مثقاب الخمس بوصات- هنا، دعني أريك." نهض وذهب وأحضر المثقاب. بالرغم من ثوب العمال الطويل المبطّن والحذاء البوت الذي أضاف إلى كتلته كرجل يميل للقصر والسمنة، إلا أنه كان يتحرك برشاقة عبر الثلوج، وعاد وهو يجرف المثقاب بيد واحدة مثلما تكسح مضربَ الكرة على الملعب بينما تسرع للخلف بخطًى سريعة لكي تعود إلى نقطة البداية بعد الركض. جاء إليّ ورفع المثقاب الطويل اللامع أمام وجهي تمامًا. "هنا."

هنا. هنا كانت نقطة الأصل. هنا جوهر الشيء. هنا.

"إذا نظرت إلى مثقاب البوصات الخمس مقارنةً بمثقاب البوصات الست،" قال، "ستجد فرقًا كبيرًا. حينما تثقب يدويًا في مساحة في الثلج من قدم إلى ثماني عشرة بوصة، تحتاج جهدًا أكبر بكثير حين تستعمل مثقاب البوصات الست عما لو استخدمت البوصات الخمس. بهذه هنا بوسعي أن أحفر في الثلوج قدمًا ونصف القدم في حوالي عشرين ثانية. إذا كانت النصال جيدة وحادّة."

أومأتُ برأسي. "الجو بارد هنا في الثلوج."

"من الأفضل لك أن تصدق هذا."

"لم أنتبه إلا الآن. أشعر بالبرد. وجهي. البرد يلفحني. يجب أن أمضي." وأخذتُ خطوتي الأولى للوراء وبعيدًا عن الثلج النحيل نصف الذائب الذي يحيط به وبالحفرة التي كان يصطاد بها.

"هذا جيد بما يكفي. وأنت الآن تعرف صيد الثلوج، أليس كذلك؟ ربما تود أن تؤلف كتابًا حول ذلك بدلاً من الكتب البوليسية."

وأنا أتقهقر للوراء بمقدار نصف خطوة في كل خطوة، تراجعت نحو الشاطئ نحواً من أربعة أقدام أو خمسة، ولكنه كان لا يزال يحمل المثقاب لأعلى في يد واحدة، بينما

النصل الحلزوني مرتفعًا لم يزل عند مستوى عيني مثلما كان من قبل. برسوخ تام، كنت أتراجع.

"والآن أنت عرفت مكاني السريّ. هذا أيضًا. أنت تعرف كل شيء." قال. "ولكنك لن تخبر مخلوقًا، أليس كذلك؟ من اللطيف أن يكون لك بقعةٌ سرية. لن تخبر أي إنسان عنها. أنت تعلمت ألا تقول شيئًا."

"الأمر آمن معي،" قلتُ.

"هناك جدولٌ يجري تحت الجبل، يفيض على سلسلة الصخور. هل أخبرتك بذلك؟" قال. "أبدًا لم أتتبع مصدره. هو شلال منتظم من المياه يجري لأسفل داخل البحيرة هنا، من حيث تتدفق المياه للخارج." كان لا يزال يشير، بالمثقاب. يقبض عليه بقوة بأطراف أصابع القفاز بيد واحدة. "وإذن ثمة ينابيعُ لا حصر لها تحت سطح البحيرة. المياه تصعد لأعلى من أسفل، ولذلك يدور الماء بانتظام. ينظف نفسه بنفسه. والسمك يحتاج الماء النظيف لكي يحيا ويكبر ويكون صحيح البدن. وهذا المكان به كل تلك المكونات. وجميعها صناعة ربانية. لا شيء فيها صنعه الإنسان. لهذا هي نظيفة ولهذا آتي إلى هنا. لو تدخل الإنسانُ بها، فمن الأفضل أن تبقى بعيدًا عنها. هذا شعاري. شعار الرجل الذي عقله الباطن مليء بالـPTSD. بعيدًا عن الإنسان، قريبًا من الله. لذلك لا تنسَ أن تُبقي مكانيَ السريَّ هذا سريًا. المرة الوحيدة التي يشيع فيها سرٌّ يا مستر زوكرمان، هي حين تُفشي ذلك السر."

"أنا أسمعك."

"و، هيي يا مستر زوكرمان- الكتاب."

"أيُّ كتاب؟"

"كتابك. أرسلْ الكتاب."

"لقد حصلتَ عليه،" قلتُ. "إنه في البريد،" ثم بدأت أعبر بعيدًا عن الثلوج. كان ورائي، مازال يحمل ذلك المثقاب بينما أبعد ببطء. كان طريقًا طويلاً. إذا ما كنتُ أصلاً قد مشيته، لعرفتُ أن سنواتي الخمس التي قضيتُها وحيدًا في بيتي هنا قد انتهت. لعرفتُ أنني إذا ما كنتُ وحين أنتهي من الكتاب، فإن عليّ أن أذهب إلى مكان آخر لأعيش. استدرتُ من الشاطئ، وبمجرد أن وصلتُ إلى هناك بأمان، لأنظر للوراء وأرى إذا ما كان يتبعني داخل الغابة بعد كل ذلك لكي يقتلني قبل أن أجد أبدًا الفرصة لأدخل بيت صبِا كولمن سيلك، مثلما فعلت ستينا بولسون من قبلي، لأجلس هناك مع أسرته في إيست أورانج كضيف أبيض على غداء يوم الأحد. بمجرد أن واجهته، كان بوسعي أن أشعر بإرهاب المثقاب- حتى وهو جالس بالفعل فوق دلوه: البياضُ الجليديُّ

للبحيرة يطوّقُ البقعةَ الضئيلة التي كانت هي الرجل، العلامة البشرية الوحيدة في كل فضاء الطبيعة تلك، مثل علامة X على توقيع رجل أُميّ فوق صفحة ورقة بيضاء. تلك كانت، إن لم تكن كل الحكاية، الصورةَ كاملةً. نادرًا جدًّا، عند نهاية القرن، ما تمنح الحياةُ رؤيةً في نقاءِ وسلامِ رؤيةٍ كتلك: رجلٌ منعزلٌ وحيدٌ يجلسُ فوق دلو، يصطادُ الأسماكَ عبر ثماني عشرة بوصة من الجليد في بحيرة مياهها تجري وتدور بانتظام فوق قمة جبل رعويّ في أمريكا.

عن المترجمة

شاعرةٌ وكاتبةٌ صحافية ومترجمة مصرية. من مواليد القاهرة عام 1964. تخرجتْ في كلية الهندسة جامعة "عين شمس" قسم العمارة. عملت بمجال الهندسة عشر سنوات قبل أن تتفرغ للكتابة الأدبية والصحفية. لها سبعة عشرة كتابًا، حتى الآن، ما بين الشِّعر والترجمات والنقد. تكتب عدة أعمدة أسبوعية ثابتة في صحفٍ مصرية وعربية. شاركتْ ومثّلتْ اسمَ مصرَ في العديد من المهرجانات الشعرية الدولية والمؤتمرات الثقافية في الوطن العربي والعالم. تُرجمت أعمالُها إلى العديد من اللغات الأجنبية، وتناولتْ تجربتَها بعضُ الأطروحات العلمية الأكاديمية. عضو عامل باتحاد كتّاب مصر، ونقابة المهندسين المصريين، ونادي القلم الدولي، ومكتبة الشعر الاسكتلندية، وجمعية المترجمين المصريين.

إصدارات:

شعر: نقرة إصبع(2002)- على بعد سنتيمتر واحد من الأرض (2002)- قطاع طولي في الذاكرة(2003)- فوق كف امرأة(2004)- هيكل الزهر(2007)- قارورة صمغ(2008)- اسمي ليس صعبًا(2009)

ترجمات: مشجوج بفأس(2003)- المشي بالمقلوب(2004)- قتل الأرانب(2005) جيوب مثقلة بالحجارة 2005)- نصف شمس صفراء(2009)- أثرٌ على الحائط(2009)- أبناء الشمس الخامسة (2010)

نقد: الكتابة بالطباشير(2005)- الرسم بالطباشير(2009)- المُغنّي والحكّاء(2009)